آداب الرافدين

تصدر عن كلية الآداب
جامعة الموصل

٧

آداب الرافدين

تصدر عن كلية الآداب

جامعة الموصل

العدد السابع

١٥ تشرين الأول

المراسلات باسم سكرتير التحرير – كلية الآداب – جامعة الموصل

في هذا العدد

كلمة العدد

مع صدور العدد السابع من مجلتنا ، نشعر بمزيد من الاعتزاز نتيجة اهتمام وتعاون الاساتذة الباحثين من أجل الارتقاء بالمجلة ودفعها إلى مزيد من التطور . وبهذه المناسبة نود تأكيد ما سبق أن أعلنته هيئة التحرير من أن المجلة (تتبنى الفكر العلمي وترى في المنهج الاكاديمي النافذة المفتوحة نحو مجتمع متطور . أنها لا تريد ان يكون محتوى الكلمة بعيداً عن المشكلات الفكرية التي يعانيها مجتمعنا . بل ترى أن يكون الفكر جريئاً علمياً في مواجهة هذه المشكلات من أجل تجاوز دهور التخلف وأسباب الموت وبطء الحركة ملتزمين في كل ذلك النهج العلمي السليم الذي عبر عنه بروعة وايجاز الكاتب الشهير . اج جي ويلز . بقوله : «ان الطريقة العلمية الحقة هي هذه : ألا يفرض أي فرض غير ضروري ، ألا يقبل أي خبر من غير تحقيقه ، أن تختبر كل الأشياء بأقوى قوة مستطاعة ، الا يحتفظ بأي أسرار ، ألا يحاول أي احتكار وان يقدم الانسان خير ما لديه في تواضع ووضوح ، والا تخدم أية غاية أخرى (١) .

ولما كانت مجلتنا تعنى بالتراث ودراسته حتى يصح أن نسميها مجلة تراثية فاننا نشعر أن من الضروري تبني موقف معين من التراث لان التراث هو البعد التاريخي لشخصية الأمة وهو رصيدها الباقي الذي يحفظ لها أصالتها في مواجهة مختلف التحديات الحضارية . ومن ثم فان اهتمامنا بالتراث يكون بمستوى اهتمامنا بحاضر هذه الأمة ومستقبلها .

اننا حين نهتم بتراثنا ونقبل على دراسته ، فانما نفعل ذلك كما يقول الاستاذ ميشيل عفلق بدافع البحث عن الروح والجوهر الذي يعني الثورة فاذا كنت مؤهلاً للابداع فانك تتمكن أن تعطي أشياء يختلف ظاهرها كل الاختلاف عن الماضي ولكنها على العموم التعبير الامين عن تأثرك بالتراث . فالذي يريد أن يكون مثل عمر بن الخطاب في هذا العصر يجب ألا يكون نسخة طبق الأصل عنه ، دائماً يجب أن يتوخى أن يكون ذا تأثير يوازي تأثير عمر بن الخطاب في زمنه . وهنا يتضح الفرق بين التقليد والابداع :

(فنحن ضد تمجيد التراث وتعظيمه بدافع الرهبة منه والاعجاب به والشعور ازاءه بالضعف

---

(١) آداب الرافدين ، العدد الخامس ، ١٠/ حزيران / ١٩٧٤ .

والعجز ،وضد النظرة الخارجية للماضي ، القائمة على التقديس والذوبان أمامه ، وإنما نحن مع المشاركة والمعاناة للوصول إلى التقديس نتيجة الفهم الواعي وإلى الاعجاب عن طريق المشاركة الفعالة حسب ظروف عصرنا .. لان الاعجاب بالتراث وتقديسه لا يأتي من مجرد الوقفة المنبهرة أمام عظمته ، وإنما من استيعاب روحيته والعمل بوحي منها .فالنضال ودفع ضريبة النضال لقهر المجتمع الفاسد ،المجتمع القديم البالي ،وبناء المجتمع الجديد هي الفهم الحقيقي وبالتالي هي الاقتراب الصادق من روح الاسلام ،الذي هو عقيدة ،وجهاد في سبيل العقيدة

ان العلاقة بالتراث يجب أن تمر بثلاث مراحل :

المرحلة الاولى : مرحلة الاطلاع على التراث لاكتشافه وفهمه .

المرحلة الثانية : الافتراق عنه ،بحيث نسير في طريقنا الخاص ،طريقنا المتميز ،الذي هو قدرنا ، بعد تأثرنا بهذه الرؤية .

المرحلة الثالثة : الالتقاء من جديد بالتراث بعدما نكون قد أدينا قسطنا من النضال ، واصبحنا ثوريين حقيقيين ومناضلين مجاهدين وبالتالي قادرين على فهمه فهماً حقيقياً ، فكلما تقدمنا خطوة على طريق النضال يزداد فهمنا الحي له وهذا يعني أن فهم التراث مرتبط بالخطوات النضالية ،والخطوات الجادة على طريق بناء المجتمع الجديد (٢) .

من خلال هذا يتبين لنا الموقف العلمي من التراث والذي يستهدف جوهره ويكتنه أبعاده الاساسية التي ساهمت في تكوين الوعي الجماعي للانسان العربي ،ومن هنا نستطيع القول ان النظرة إلى التراث يجب أن تكون نظرة نقدية تحليلية تتعامل وإياه عبر رؤية عصرية تقدمية بعيداً عن النظرة الصنمية الجامدة التي تقدس التراث دون أن تستبطن اصالته والدوافع المحركة له وعوامل تشكله متجاهلة الموضوعية التي تتطلب الجرأة والنقد ،ان الموقف النقدي تجاه التراث العربي الاسلامي سيقيم علاقة تنويرية بين الجوانب الثورية والمشرقة في تراثنا وبين آفاق المستقبل ذلك أن التراث هو ذاكرة الأمة ومن ينقطع عنه كمن يصاب بفقدان الذاكرة أو بحالة من الشلل النفسي وبالتالي فان التراث يشكل الكثير من سمات نفسية انساننا العربي المعاصر بما في هذه النفسية من صبوات وانكسارات ، لذا فان الموقف النقدي من التراث هو الذي سيمكننا من فرز الايجابي والسلبي الذي تحول واقعياً — عبر امتداد التراث بفعل الزمن — إلى سلوك اجتماعي ومنهج حياة بالنسبة للانسان العربي بما يعيشه من عادات وتقاليد شعبية وقيم تراثية ثابتة مسألة النقد العلمي للتراث هي التي ستوصلنا لاستخلاص وفرز جوانب التراث المختلفة (٢)

(٢) من حديث مع القائد المؤسس الرفيق ميشيل عفلق مجلة آفاق عربية بغداد العدد ٨ ، نيسان ١٩٧٦ ، ص ٧ .

وتنقذنا من من هذا الكم الرهيب بحيث يغدو التراث ليس مجرد مخلفات لكتب صفراء بالية، وإنما هو أعمق وأجود ماقدمه العقل العربي الاسلامي في عصور ازدهاره للحضارة البشرية — على ان الموقف النقدي يجب أن يرتبط بكشف الملامح القومية في التراث أي محاولة تبين الطابع االقومي للامة وتطوره الزمني والحضاري ولعل هذا يتم بالتركيز على الجوانب النضالية والثورية في التراث واستيحاء المواقف المناهضة للغزوات الاجنبية وللسلطات والطبقات الغاشمة، وهذا الكشف عن الطابع القومي سيلتقي بالضرورة مع المرحلة الراهنة بحيث تقام علاقة جدل بين الماضي والحاضر وصولا إلى المستقبل عبر تتبع تطور الطابع القومي للامة وتوظيف ماهو تقدمي في التراث ومنسجم مع روح العصر لخدمة معركتنا القومية والحضارية.. ان شرف الموقف العلمي النقدي من التراث لايجعلنا نعيش في الماضي كاسرى مضحين بإمكانيات المستقبل وانما يقتضي منا أن نضع بإمكانيات الماضي والحاضر من أجل العيش في ضمير المستقبل وبالتالي يلزمنا أن نصنع تراثنا الجديد المنبثق عن لهيب العصر وتحولات الوجود القومي الراهن لكي نواصل تعميق الطابع القومي لتراثنا العربي الاسلامي الخلاق .

إن آداب الرافدين — عبر النتاج المنشور فيها تحاول أن تشير إلى الخطوة الاولى الجادة وان تنير الطريق نحو التراث وحسبها أن توقد شعلة ضوء في طريق صعب علينا أن نسلكه . حفاظاً على كياننا في ظرف تاريخي نتعرض فيه لاعتى التحديات الحضارية التي تريد أن تجردنا من معطياتنا الفكرية واسهاماتنا الابداعية، ومن هنا لابد من الالتزام بالموقف القومي، الطبقي، الانساني والثوري من التراث .

١٥ ذی حجه ١٤٢١ هجری

الدكتور هاشم يحيى الملاح

عميد كلية الآداب

أساليب تداول السلطة في الدولة العربية الإسلامية

* تمهيد :

ان وجود قواعد محددة تتولى تنظيم تداول السلطة السياسية بين الحكام بصورة سليمة يعتبر من خير السبل التي تضمن الهدوء والاستقرار في الدولة .لذا فقد حرصت شتى الدول منذ بداية ظهورها وحتى الوقت الحاضر على تعيين القواعد التي تنظم تداول السلطة بين حكامها . وقد اختلفت هذه القواعد من دولة إلى أخرى تبعاً لطبيعة الفلسفة والنظام الذي كان يسود في كل منها . الا أنه يمكننا تمييز ثلاثة أنماط رئيسية من أساليب تداول السلطة في مختلف الدول وهي :—

١. الوراثة : وهي تقضي بانتقال السلطة من الحاكم إلى ورثته من بعده ، قياساً على انتقال المال من الميت إلى ورثته . ويشيع هذا الاسلوب في انتقال السلطة في الأنظمة الملكية .

٢. التعيين : وذلك بأن يختار الحاكم في حياته من يخلفه في منصبه بعد مماته بغض النظر عن صلة القرابة التي تربطه بذلك الشخص .

٣. الانتخاب في ظل هذا الاسلوب ،يترك للشعب.أولطبقة من طبقاته ، أوفئة من فئاته ، أن ينتخبوا من يتولى حكمهم ، اما بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر ، وغالباً لفترة محدودة من الزمن كما هو شائع في ظل الانظمة الديمقراطية (١) .

ويلاحظ أن تداول السلطة في الدولة العربية الاسلامية لم يخرج عن هذه الأساليب الثلاثة بصورة اساسية كما سيتضح من دراسة تطور الحياة السياسية العربية في الجاهلية والاسلام والتي سنقدم لها بنبذة مختصرة عن تداول السلطة في القبيلة العربية لانها تشكل الخلفية التاريخية للدولة العربية الاسلامية .ثم نوضح كيف نشأت هذه الدولة على يد الرسول محمد لننتقل بعد ذلك إلى مناقشة الاساليب التي انتقلت فيها السلطة الى الخلفاء الراشدين بشكل منفصل ،وذلك لانها اتخذت بمثابة السوابق القانونية التي استندت اليها العصور التالية في رسم تصوراتها المثالية عن الدولة الاسلامية .كما سنعرض للكيفية التي عهد فيها معاوية بن أبي سفيان لابنه يزيد بمنصب الخلافة لانها شكلت سابقة سياسية استند اليها الخلفاء من بعده لجعل الخلافة منصباً وراثياً وحتى نهاية الدولة العثمانية .

ويلاحظ أن العديد من الكتاب القدامى والمعاصرين قد كتبوا عن الخلافة ومايتفرع عنها من مباحث ؛ ولكن لم يكرس أحد منهم —على مايبدو — جهده لمعالجة موضوع

---

(١) غالي ، بطرس ، مبادئ العلوم السياسية ، مصر ١٩٦٢ ؛ ص ٣٧٣ — ٣٧٥ ، الجرف طعيمة ، نظرية الدولة ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٣٥١ — ٣٥٩ .

تداول السلطة بشكل مستقل . وباسلوب نقدي مقارن على ضوء ماهو مقرر في القانون الدستوري والعلوم السياسية ، مما يفسح المجال لهذا البحث أن يلقي مزيداً من الأضواء على هذا الجانب الخطير من حياة الدولة العربية الاسلامية :

* تداول السلطة في القبيلة :

لقد كان العرب يشترطون في من يتولى رئاسة القبيلة ، اضافة إلى شرط النسب الرفيع ، أن يتحلى ببعض الصفات الاخلاقية العالية : كالحكمة والشجاعة والكرم . فان توفرت هذه الشروط في ابن شيخ القبيلة ، اختير لتولي الرئاسة بعد أبيه . وان لم تتوفر انتخبوا من تتوفر فيه هذه الاوصاف أو أعلى نسبة منها من بين أفراد القبيلة وبذلك يكونون قد تبنوا طريقة الانتخاب من بين سائر الطرق (٢) .

ويرى الدكتور العلي : ان العرب لم تكن تفضل أن يخلف الأبن أباه لما قد يجره ذلك من تقرير مبدأ الوراثة في الرئاسة وما قد يؤديه من تقييد حرية البدوي . وليس في تاريخ العرب قبل الاسلام أكثر من أربع أسر تتابع فيها أربعة أحفاد بالتعاقب على الرئاسة »(٣). ويعلق المستشرق مونتغمري وات على تفضيل العرب للانتخاب في تداول السلطة بقوله : «وهكذا يكون العرب باعترافهم بالفضائل الاخلاقية ،وقدرتهم على تمييز هذه الفضائل قد حققوا نوعاً من المزج بين الارستقراطية والمساواة ،فاعترفوا بحكم الافضل ،مع تأكيد المساواة بين جميع الناس » (٤) .

* السلطة في عهد الرسول :

وحينما ظهرت الدعوة الاسلامية في مكة (٦١٠ م) وانطلق الرسول يدعو الناس إلى الايمان بوحدانية الله والتسليم بانه رسول الله اليهم ، وان عليهم تبعاً لذلك أن يسمعوا له ويطيعوا عملاً بأوامر الله المتمثلة في كلمات القرآن : « واطيعوا الله ورسوله » (٥) ، «من يطع

---

(٢) العلي .صالح أحمد .محاضرات في تاريخ العرب . بغداد ١٩٥٥ .ص ١٣٦ .

(٣) المرجع نفسه .ص ١٣٦ .

(٤) وات .مونتغمري .محمد في مكة «تعريب شعبان بركات » بيروت بلا تاريخ .ص ٥٠

(٥) سورة آل عمران : ١٣٢ .

الرسول فقد أطاع الله»(٦) .ادرك الذين آمنوا به أن من مستلزمات ايمانهم أن يسلموا قيادهم له ويخضعوا لاوامره في شتى المجالات .وقد عمق القرآن هذا الادراك بسرده لقصص بعض الانبياء السابقين الذين كانوا قادة وملوكاً لشعوبهم مثل موسى وداؤد وسليمان حيث حكموا شعوبهم حكماً مثالياً طبقاً لاوامر الله بعكس الحكام الفاسدين الذين خرجوا على أوامر ربهم وحكموا شعوبهم بناء على أهوائهم ورغباتهم فضلوا وأضلوا قومهم.وقد مثل القرآن لهذا النوع من الحكام بفرعون الذي عصى نبي الله موسى واضطهده (٧) .

إن هذه العقيدة التي تربط الخضوع السياسي باليقين الديني قد ساعدت الرسول كثيراً على تأسيس الدولة الاسلامية في المدينة وتولى الرئاسة فيها بعد أن قبل زعماء الأوس والخزرج الدعوة الاسلامية واتفقوا مع الرسول على الهجرة من مكة إلى المدينة مع أتباعه المكيين في بيعة العقبة الثانية في سنة ٦٢٢ م .

لقد خضع المؤمنون من الاوس والخزرج لزعامة الرسول بحكم إيمانهم الديني وخضع له سياسياً بقية أفراد الاوس والخزرج من غير المؤمنين تضامناً مع قومهم ورؤسائهم كما تقضي بذلك التقاليد القبلية . أما اليهود فقد احترموا زعامة الرسول ولم يعلنوا المعارضة ضدها مراعاة لقواعد التحالف التي تربطهم بالاوس والخزرج اضافة إلى أنهم لم يروا في زعامة الرسول خطراً يهدد وجودهم الاقتصادي والسياسي والديني في البداية .بل ربما ظنوا أن زعامة الرسول ستفيد في تحقيق الأمن والاستقرار في المدينة (٨) .

وهكذا نجح الرسول في تسلم رئاسة الدولة الناشئة .وراح القرآن يحث الناس على الالتزام بطاعة الرسول وعرض مشاكلهم وخلافاتهم عليه لحلها في العديد من الآيات. نحو قوله :« فأن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر »(٩) .«فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً » (١٠) « وان أحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك ، فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وأن كثيراً من الناس لفاسقون ،افحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » (١١)

---

(٦) سورة النساء . ٨٠

(٧) سورة القصص : ٣٠ — ٤٠ .سورة ص: ١ — ٤٠ . سورة الأنعام : ١٠ — ١١

(٨) راجع مقالنا : نشأة دولة المدينة في يثرب — مجلة الجامعة .الموصل .١ آذار ١٩٧٢ص٥٥ — ٦٠

(٩) سورة النساء : ٥٩

(١٠) سورة النساء : ٦٥

(١١) سورة المائدة : ٤٩ — ٥٠

يستنتج مما تقدم آنفاً أن الرسول قد استند في تأسيس سلطاته السياسية على اختيار الله له باعتباره رسول الله اليهـم. ولكن قيمـة هـذا المستنـد كـانت ستبقى نظرية بحتة لولا نجاحه في اقناع الناس بالايمان بدعوته ، إذ بدون ذلك لايمكن أن تنشأ جماعة ولادولة ولا سلطة سياسية .ومن ثم يمكننا القول أن ايمان الناس بالرسول ودعوته وقبولهم الخضوع لزعامته بمحض اختيارهم كان هو الأساس الواقعي الذي استند عليه الرسول في تأسيس سلطاته السياسية .

وقد يرد في هذا المجال اعتراض : ان الرسول استخدم السيف في محاربة خصومه واخضاعهم لسلطته . فكيف يصح اطلاق الحكم بأن الرسول قد أسس سلطته على أساس من اختيار الناس وقناعتهم ؟ ... والجواب ، ان الرسول لم يستخدم السيف ضد خصومه الا بعد هجرته الى المدينة وتأسيس الدولة الاسلامية فيها . ومن ثم فأن أستخدام الرسول للسيف كان وسيلة لتدعيم هذه الدولة واضعاف خصومها وليس وسيلة لانشاء هذه الدولة أو تأسيس سلطته السياسية فيها .

ويلاحظ ان هذه الطريقة في تأسيس السلطة السياسية استناداً الى حق النبوة قد اغلقت الى النهاية بوفاة الرسول ، لأن القرآن نص على أن الرسول محمداً هو آخر الانبياء « خاتم النبيين » : « ما كان محمد ابا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (١٢) وبذلك لم يعد مسموحاً لأحد أن يدعي بعد وفاة الرسول انه نبي مرسل من الله ، وان على الناس ان يخضعوا لسلطته السياسية استناداً الى رسالته الدينية . لذا فقد روى جمهور المؤرخين — عدا الشيعة — * ان الرسول لم يعين أحداً ليخلفه في الحكم المسلمين بعد وفاته (١٣) وأكتفى بترك القرآن والسنة ليعتصم بهما المسلمون من بعده ، ولكن المشكلة ان القرآن والسنة لم يبينا من الذي يتولى الرئاسة من بعده ولا كيف يتم اختيار من يشغل هذا المنصب(١٤):

وقد تحير آرنولد في تعليل هذه المسألة بقوله : « لم يعين النبي خلفاً له ، ومن العبث ان نتحرى لماذا اهمل على الرغم من عبريته في التنظيم ان يحتاط لمستقبل الجماعة الدينية الحديثة التي أسسها ، فقد ساءت صحته لمدة من الزمن قبل مرضه الاخير وربما كان

---

(١٢) سورة الاحزاب : ٤٠

(*) سنعرض ونناقش وجهات نظر الشيعة في بحث لاحق عن : أساليب تداول السلطة في الفكر الاسلامي .وهم يعتقدون أن الرسول قد أوصى بأن يتولى علي بن أبي طالب الحكم من بعده.

(١٣) ابن هشام السيرة .مصر ١٩٥٥ ،ج ٤ ص ٦٥٣ .ابن سعد. ،الطبقات .بيروت ١٩٦٠. ج ٢ ص ٢٤٦ الطبري .تاريخ ،بيروت ٩٦٥ .ج ٤ ص ١٨٠٧ — ١٨٠٨

(١٤) فلهاوزن.يوليوس تاريخ الدولة العربية ؛ترجمة د.محمد عبدالهادي أبوريدة. القاهرة٩٦٨ص٣٢

مشوشا في جسمه وعقله مثل (او ليفر كرومويل) فلم يتمكن من التفرغ لذلك الامر ، ومن المحتمل ايضاً انه كان نابغة عصره فأدرك قوة الشعور القبلي العربي الذي لا يعترف بمبدأ الوراثة في اشكال حياته السياسية البدائية بل كان يترك لاعضاء القبيلة أمر انتقاء أميرهم الخاص(١٥).

ان الاحتمال الاول الذي اورده آرنولد يبدو ضعيفاً ، لأن مرض الرسول لم يكن من الشدة بحيث يمنعه من تعيين خلفه خصوصاً وانه لم يعجزه عن تكليف ابي بكر ليصلي بالناس نيابة عنه وان يأمر المسلمين بانفاذ جيش أسامة ولو صح جدلا ان المرض قد منعه في ايامه الاخيرة فلماذا لم يبين طوال حياته من سيخلفه بالسلطة بعد مماته ..

أما الاحتمال الثاني فهو أقرب الاحتمالات إلى القبول خصوصا واننا نعلم بأن الرسول لم يتسلم سلطته السياسية بصفته الشخصية وانما بصفته رسول الله .. ولما كانت صيغة الرسالة او النبوة قد انتهت بوفاته لأنه خاتم الانبياء وأن النبوة لاتورث فتكون السلطة السياسية المنبثقة عنها هي الاخرى غير قابلة للوراثة ، او التصرف وتعود بوفاة صاحبها إلى اصحابها الاصليين وهم أبناء الامة ليختاروا من يولونه امورهم السياسية طبقا لما استقر في مجتمعهم من عرف وتقاليد في هذا المجال . يؤيد ذلك ماأكده القرآن الكريم : « ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (١٦) وكذلك مارواه أبن هشام من أن ابا سفيان قد ابدى دهشته من مدى قوة ملك الرسول حين فتح مكة حينما قال للعباس : « والله ياابا الفضل لقد اصبح ملك أبن أخيك الغداة عظيماً » فرد عليه العباس مصححاً : « ياابا سفيان ، انها النبوة » . « قال فنعم اذن » (١٧) . وفي ذلك يقول علي عبد الرازق (١٨) : « زعامة النبي عليه السلام كانت كما قلنا ، زعامة دينية ، جاءت عن طريق الرسالة لاغير . وقد انتهت الرسالة بموته (ص) فانتهت الزعامة ايضاً ، وما كان لاحد ان يخلفه في زعامته ، كما انه لم يكن لاحد ان يخلفه في رسالته . فان كان ولابد من زعامة بين اتباع النبي عليه السلام بعد وفاته ، فانما تلك زعامة جديدة غير التي عرفناها لرسول الله (ص) » .

---

(١٥) ارنولد: توماس . الخلافة ترجمة جميل معلس . دار اليقظة العربية ١٩٤٦ . ص راجع أيضاً :
Macdonald, D., B, Development of Muslim theology Beirut, 1965 p8

(١٦) سورة الاحزاب . ٤٠

(١٧) ابن هشام . السيرة . قسم ٢ . ص ٤٠٤

(١٨) الاسلام واصول الحكم . بيروت ١٩٧٢ ص ١٧٤ . راجع أيضاً :
Levy, R. The cocial structure of Islam, Cambridge, 1957. p.p.,..276-277

انتقال السلطة لابي بكر .

وعند وفاة الرسول (ص) بادر الانصار إلى الاجتماع في سقفية بني ساعدة — وهم بطن من الخزرج — لانتخاب من يخلف الرسول في رئاسة المسلمين . وقد كان مرشحهم هو سعد بن عبادة ، زعيم الخزرج . وقد كانت حجتهم في ترشيح سعد للخلافة انهم أنصار الله وكتيبة الاسلام ، إضافة إلى انهم اهل المدينة وسكانها الاصلاء بعكس المهاجرين الوافدين عليها (١٩)

ولكن يلاحظ ان ترشيح سعد بن عبادة للخلافة لم يحظ بالتأييد من قبل جميع الانصار . فقد كانت قبيلة الاوس تنظر بعين الريبة والحذر إلى طموحات الخزرج في تولي السلطة وتمتد جذور هذه الريبة إلى ما قبل هجرة الرسول (ص) إلى المدينة ، حيث كان الصراع عنيفاً بين القبيلتين في سبيل السيطرة والنفوذ ، حتى ان عبد الله ابن أبي احد زعماء الخزرج كان قد تصدى لمعارضة الرسول ، أثر هجرته إلى المدينة ، وقاد حركة النفاق في المدينة لانه كان يعتقد ان الرسول قد سلبه السلطة والملك الذي كان يمني نفسه بتوليه في المدينة (٢٠)

وحينما بلغت اخبار اجتماع السقيفة إلى ابي بكر وعمر قررا المبادرة إلى الحضور للمشاركة في النقاش واتخاذ القرار ، وقد حضر معهما من تيسر له الحضور من المهاجرين ولم يوافق المهاجرون على حجج ترشيح سعد بن عبادة للخلافة ، بل طرحوا حججاً معاكسة مفادها ان العرب لن تسلم أمرها الا للمهاجرين من قريش لانهم « اوسط العرب نسباً ودارا » (٢١) « وانهم اول من عبد الله في الارض ، وآمن بالله وبالرسول ، وهم اولياءه وعشيرته واحق الناس بهذا الامر من بعده » (٢٢) .

وقد انحاز إلى جانب المهاجرين من الانصار « اسيد بن حضير في بني عبد الاشهل »(٢٣) ورجلان آخران من الانصار هما عويم بن ساعدة ومعن بن عدي أخو بني العجلان (٢٤) ويظهر ان عموم افراد قبيلة الاوس اخذوا يميلون إلى جانب المهاجرين ، مما حمل الحباب ابن المنذر من الخزرج إلى طرح فكرة الاشتراك في السلطة مع المهاجرين في حكم الدولة

---

(١٩) ابن هشام ، السيرة . ج ٤ ص ٦٥٩

(٢٠) يراجع بحثنا . المنافقون في مدينة الرسول . مجلة كلية الدراسات الأسلامية . بغداد ٩٧٣ . ص ٤٦٩ — ٥٠٨

(٢١) ابن هشام ، السيرة . ج ٤ ص ٦٥٩

(٢٢) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ص ١٨٤٠

(٢٣) ابن هشام ، السيرة ، ج ٤ . ص ٦٥٦

(٢٤) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٦٦٠

الاسلامية : « منا امير ومنكم امير » (٢٥) الا ان عمر بن الخطاب رفض هذه الفكرة بحزم : « هيهات لايجتمع اثنان في قرن ، والله لاترضى العرب ان يؤمروكم ونبيها من غيركم » (٢٦) فكثر اللغط وارتفعت الاصوات فاقبل عمر إلى أبي بكر — لحسم الخلاف — فقال : « أبسط يدك ياأبا بكر فبسط يده فبايعه ، ثم بايعه المهاجرون » (٢٧) .

أما الاوس فقد قالوا : «والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة ، لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولاجعلوا لكم معهم فيها نصيباً ابدا»(٢٨) . فقاموا إلى أبي بكر فبايعوه ثم توالى الناس على بيعة أبي بكر « فتكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ماكانوا اجمعوا له من امرهم » (٢٩) .

وربما كان مما سهل بيعة الناس لابي بكر الصديق بالاضافة إلى ماتقدم آنفاً ، واضافة إلى كبر سنه وسابقته في الاسلام وجهاده في سبيله ، ان الرسول كان قد اتابه للصلاة بالمسلمين مكانه اثناء مرضه الذي توفي فيه . فقال الناس : قد رضينا لدنيانا من رضي رسول الله لديننا (٣٠) وقد وصف عمر بن الخطاب فيما بعد بيعة أبي بكر في اجتماع السقيفة بقوله : «ان بيعة أبي بكر كانت فلتة فتمت ، وانها قد كانت كذلك الا أن الله قد وقى شرها»(٣١) ويشير الطبري إلى انها : « كانت فلتة كفلتات الجاهلية » (٣٢) . فماذا يعني بذلك ؟ هل يعني انها تمت بصورة تلقائية من غير سابق تدبير وتصميم ؟ ربما . .. ولكن ماذا عنى الطبري بقوله : فلتة كفلتات الجاهلية ؟ ... هل ان اختيار أبي بكر تم كما كان يتم انتخاب الشيخ لدى عرب الجاهلية ؟ ...

ان هذا الاستنتاج يتلاقى مع ماذكره آرنولد من ان انتخاب ابي بكر يعد مثالا « لعادة عربية قديمة ينتقل بحسبها منصب رئاسة القبيلة عندما يموت شيخها إلى من كان يتمتع من القبيلة بأعظم النفوذ . فينتخب كبار القبيلة احدهم لاملاء المكان الشاغر . ويكون محترماً أما لسنه او لنفوذه او لخدماته المجيدة للصالح العام .ولم يكن لديهم طريقة معقدة رسمية

---

(٢٥) المصدر نفسه ،ج ٤ص ٦٦٠
(٢٦) الطبري ،تاريخ ،ج ٤ .ص ١٨٤١
(٢٧) ابن هشام، السيرة ،ج ٤ ص ٦٦٠
(٢٨) الطبري .تاريخ ،ج ٤ ص ١٨٤٢ — ١٨٤٣
(٢٩) المصدر نفسه ،ج ٤ ص ١٨٤٣
(٣٠) ابن سعد : الطبقات ، ج ٣ص ١٨٣
(٣١) ابن هشام : السيرة ،ج ٤ ص ٦٥٨
(٣٢) الطبري ، تاريخ ،ج ٤ ص ١٨٤٥

للانتخاب ولم يكن ضرورياً في مثل هذه الزمرة الاجتماعية الصغيرة . وبعد اختيار الخلف كان يتسم الحاضرون يمين الولاء له واحدااثر الآخر مصافحين اياه باليد » (٣٣) .

وهكذا كان ، ففي اليوم الثاني ، جلس أبو بكر في المسجد ليتلقى البيعة من سكان المدينة « فبايع الناس ابا بكر بعة العامة ، بعد بعة السقيفة » (٣٤) والبيعة كما يذكر ابن خلدون «هي العهد على الطاعة كأن المبايع يعاهدأميره على انه يسلم له النظر في أمر نفسه وامور المسلمين لاينازعه في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من امر على المنشط والمكره » (٣٥)

وبذلك خلف أبو بكر رسول الله في رئاسة الدولة العربية الاسلامية ، فأصبح خليفة رسول الله او الخليفة .

ان سابقة اختيار أبي بكر للخلافة من قبل أغلبية الحاضرين في اجتماع السقيفة . ومبايعة أغلبية سكان المدينة له بعد ذلك . تدل على ان اختيار الخليفة قد تم بارادة أغلبية سكان المدينة القادرين على المساهمة في الحياة العامة. ولم تكن هنالك شروط ومواصفات محددة لهم كما اشترط الفقهاء من بعد ذلك في اهل الحل والعقد . ولم يكن الاجماع شرطا لاختيار الخليفة او مبايعته فقد انتخب أبو بكر على الرغم من معارضة سعد بن عبادة وانصاره ورغم تخلف علي بن أبي طالب وبعض بني هاشم عن البيعة فترة من الزمن ، لم تتجاوز ستة أشهر (٣٦) — على مايروي الطبري — ربما ، بسبب اعتقاد علي بانه احق من غيره بالخلافة لقرابته من رسول الله (ص) ، وبسبب خلاف نشب بين زوجته فاطمة وأبي بكر الصديق حول حقها في ميراث الرسول على ارجح الاقوال (٣٧) .

ان ماتقدم يدل على ان مبايعة أبي بكر بمنصب الخلافة ، لم تنعقد بمجرد مبايعة عمر ابن الخطاب وعدد قليل من الصحابة ، كما تصور بعض الفقهاء (٣٨) . بل انعقدت نتيجة موافقة أغلبية « معتبري ذلك الزمان » (٣٩) . وفي توضيح ذلك يقول الغزالي : لما بايع عمر ابا بكر بمنصب الخلافة لم تنعقد الخلافة له بمجرد بيعته ولكن : « لتتابع الايدي الى البيعة بسبب مبادرته ولو لم يبايعه غير عمر وبقي كافة الخلق مخالفين ، او انقسموا إنقساماً

(٣٣) آرنولد .الخلافة ،ص ٨

(٣٤) ابن هشام ، السيرة .ج٤ ص ٦٦١

(٣٥) ابن خلدون ،مقدمة ابن خلدون ،بيروت ط٣ .دار أحياء التراث العربي ص ٢٠٩

(٣٦) الطبري ، تاريخ ،ج٤.ص ١٨٢٠ — ١٨٢٥.

(٣٧) الطبري .تاريخ ،ج٤ص ١٨٢٠ . ١٨٢٥ .طه حسين .مرآة الأسلام .مصر ١٩٥٩.ص ١٣١ — ١٣٢

(٣٨) الماوردي .الاحكام السلطانية .مصر ٩٦٠ .ص ٧ .

(٣٩) الغزالي ،أبو حامد ،فضائح الباطنية ،القاهرة ١٩٦٤ ص ١٧٧

متكافئا ، لايتميز فيه غالب عن مغلوب لما انعقدت الامامة ، فان شرط ابتداء الانعقاد قيام الشوكة وانصراف القلوب إلى المشايعة ومطابقة البواطن والظواهر على المبايعة ، فان المقصود الذي طلبنا له الامام جمع شتات الاراء في مصطلم تعارض الاهواء » (٤٠) .

وهنا قد يطرح تساؤل ، اذا كان ماتقدم صحيحا ، فلماذا اقتصر اختيار الخليفة على سكان المدينة فقط ؟ ...

يبدو ان اقتصار الانتخاب على سكان المدينة دون غيرهم من أبناء الأمة الاسلامية المتواجدين خارج المدينة ، لا يرجع لامتياز خاص كانت تتمتع به المدينة او سكانها وانما يرجع الى صعوبة المواصلات في تلك العصور وضرورة اختيار الخليفة بسرعة وعدم معرفة العرب لنظام الانتخاب والتصويت كما نعرفه اليوم. لذا فقد كان يحق لأي فرد من أبناء الأمه بغض النظر عن محل اقامته في الدولة الاسلامية أن يشارك في الانتخاب لو كان متواجداً في المدينة أثناء انتخاب الخليفة ، في الوقت الذي يفقد ابن المدينة هذا الحق لو صادف وجوده خارجها أثناء الانتخاب كما حصل بالنسبة لطلحة بن عبيدالله الذي سقط حقه في « الترشيح والانتخاب » بسبب سفره خارج المدينة ، على الرغم من كونه من ضمن الستة الذين عهد اليهم عمر بن الخطاب لاختيار الخليفة من بينهم (٤١) .

وفي هذا يقول الماوردي : وليس لمن كان في بلد الامام على غيره من أهل البلاد فضل مزية يتقدم بها عليهم ، وانما صار من يحضر بلد الامام متوليا لعقد الامامة ، عرفا لا شرعاً لسبوق علمهم بموته ، ولأن من يصلح للخلافة في الأغلب موجود في بلدهم (٤٢).

أبو بكر والعهد بالخلافة لعمر بن الخطاب

يبدو أن أبا بكر الصديق كان مدركا ان توليه الخلافة كان : « فلتة ، فتمت .. الا أن الله وقى شرها »لأنها جاءت فجأة ، من غير روية ولا تدبير . لذا فقد كان يبحث عن أسلوب لتداول السلطة يضمن عدم تعريض المجتمع لمخاطر الانقسام خصوصاً في تلك تلك الظروف الحساسة التي كانت الجيوش الاسلامية مشتبكة فيها مع الامبراطورية الساسانية والامبراطورية البيزنطية في معارك مصيرية حاسمة .

لذا فقد فكر باختيار من يتولى الحكم من بعده قبل وفاته .

---

(٤٠) نفس المصدر .ص ١٧٧ :

(٤١) الطبري .تاريخ .ج٥ ص ٣٧٨٧ .

(٤٢) الماوردي .الاحكام السلطانية .ص ٦

وكان عمر بن الخطاب أقرب الشخصيات الصالحة لهذا المنصب إلى قلبه فهو بالاضافة إلى جهاده الطويل في خدمة الاسلام ومكانته البارزة في المجتمع ، كان أول من عمل على مبايعة أبي بكر بمنصب الخلافة. وكان أقرب الأعوان اليه في حكم البلاد ، حتى انه كان يحتل «موقع الوزير من الأمير» ان لم يكن أكثر من ذلك (٤٣) . فلا عجب أن وجدنا ابا بكر يقوم قبل وفاته باجراء بعض الاستشارات للعهد إلى عمر بمنصب الخلافة من بعده . فقد ذكر الطبري ان ابا بكر استشار عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان كلا على حده «لما اراد العقد» (٤٤) لعمر بن الخطاب بالخلافة فشجعاه على ذلك . الا أن عبد الرحمن بن عوف تخوف من غلظة عمر فقال له ابو بكر : «ذلك لأنه يراني رقيقاً ، ولو افضى الامر اليه لترك كثيراً مما هو عليه» (٤٥) .

ثم ان ابا بكر دعا عثمان لكتابة الصحيفة التي فيها استخلاف عمر والتي اوردها الطبري بهذا النص : «بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ماعقده ابو بكر بن ابي قحافة إلى المسلمين أما بعد : فاني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً» (٤٦) ثم اشرف ابو بكر على الناس وهو يقول : «اترتضون عمن استخلف عليكم ، فأني والله ماالوت من جهدي الرأي ، ولا وليت ذا قرابة ، واني قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . فقالوا : سمعنا وأطعنا» (٤٧) .

ولم يستقبل استخلاف أبي بكر لعمر بالرضى من قبل جميع سكان المدينة ، بل كان هنالك من يعترض على اختيار عمر لهذا المنصب ويجهر بمعارضته فقد «دخل طلحة بن عبيدالله على أبي بكر فقال : استخلفت على الناس عمر ، وقد رأيت مايلقى الناس منه وانت معه. فكيف به اذا خلا بهم وانت لاق ربك فسائلك عن رعيتك؟ فقال ابو بكر : — وكان مضطجعاً — اجلسوني . فأجلسوه . فقال لطلحة : ابالله تفرقني ؟ أو ابالله تخوفني ؟ اذا لقيت ربي ، فيسايلني . قلت : استخلفت على اهلك خير اهلك» (٤٨) . ويظهر ان معارضة طلحة لاستخلاف عمر كانت تعكس وجهة نظر قطاع ليس بالقليل من سكان المدينة . فقد اورد الطبري ان عبد الرحمن بن عوف دخل على أبي بكر فوجده مغتما . فلما سأله عن السبب أخبره : «اني وليت امركم خيركم في نفسي . فكلكم ورم

(٤٣) فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٣٣ — ٣٤ .
(٤٤) الطبري ، تاريخ ، ج ٤ ص ٢١٣٧
(٤٥) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢١٣٧
(٤٦) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢١٣٨ — ٢١٣٩
(٤٧) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢١٣٨
(٤٨) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢١٤٣ — ٢١٤٤

انفه من ذلك ، يريد أن يكون الأمر له دونه » (٤٩) . غير أن عبد الرحمن بن عوف حاول التخفيف عنه بقوله : « خفض عليك رحمك الله فإن هذا يهيضك في أمرك . انما الناس في أمرك بين رجلين ، أما رجل رأى مارأيت فهو معك . واما رجل خالفك فهو مشير عليك . وصاحبك كما تحب . ولا نعلمك اردت الا خيراً » (٥٠) .

ويبدو أن المعارضة لاستخلاف عمر كانت تنحصر بين كبار الصحابة المتطلعين إلى شغل منصب الخلافة ، كما يوحي بذلك حديث أبي بكر لعبد الرحمن بن عوف . لذا فقد استقبل عموم الناس استخلاف عمر بن الخطاب بالطاعة والرضا .

وهنا تطرح مسألة جديرة بالمناقشة ، وهي ما قيمة عهد أبي بكر لعمر بالخلافة لو لم تستقبله أغلبية الناس بالرضا ، وتبادر إلى مبايعة عمر على السمع والطاعة ؟ ... لقد أوضح الغزالي أنه لاقيمة لهذا العهد إلا إذا كان صاحبه مطاعاً ، ذا شوكة لاتطال ، ومهما مال إلى جانب مالت بسببه الجماهير ، ولم يخالفه إلا من لايكترث بمخالفته (٥١) . كما قرر ابن تيمية ان الامامة « ملك وسلطان ، والملك لايصير ملكاً بموافقة واحد ولا اثنين ولا أربعة ، إلا أن تكون موافقة هؤلاء تقتضي موافقة غيرهم بحيث يصير ملكاً بذلك » (٥٢) .. ثم « أنه متى صار إماما ، فذلك بمبايعة أهل القدرة له ، وكذلك عمر لما عهد اليه أبو بكر انما صار اماماً لما بايعوه ، اطاعوه ، ولو قدر انهم لم ينفذوا عهد أبي بكر ولم يبايعوه لم يصر اماماً .. » (٥٣)

فالتكييف القانوني لبيعة أبي بكر لعمر أو عهده له بمنصب الخلافة من بعده ، لا يعدو في حقيقته مجرد ترشيحه له لشغل هذا المنصب . ثم أن الأمر متروك بعد ذلك لارادة أهل الشوكة أو أهل الحل والعقد الذين يتبعهم أغلبية أهل المدينة فإن بادروا للبيعة واعلان السمع والطاعة انعقدت الخلافة للمرشح وان لم يفعلوا ووقفوا موقف المعارضة سقط الترشيح وكان عليهم إختيار من يرضونه لشغل منصب الخلافة .

ويبدو أن هذه الطريقة في تداول السلطة لم تكن غريبة على تقاليد العرب في اختيار الرئيس . وفي ذلك يقول توماس آرنولد : « عندما تكون وضعية فرد على درجة من الرفعة تعينه ليكون الخلف النهائي لرئيس القبيلة الراحل فإنه من الثابت أن رجلا كهذا ، قد يحل محل الرئيس المتوفى من غير حاجة إلى مراسيم ، وعلى بقية القبيلة أن تبرعن

(٤٩) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢١٣٩
(٥٠) المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٢١٤٠
(٥١) الغزالي ، فضائح الباطنية ، ص ١٧٦
(٥٢) ابن تيمية ، منهاج السنة النبوية . القاهرة ٩٦٢ ، ج ١ ص ٣٦٥
(٥٣) المصدر نفسه ، ج ١ ص ٣٦٧

موافقتها بقسمها يمين الولاء له » (٥٤). وهذا ماحصل فعلاً حينما عهد ابو بكر لعمر بمنصب الخلافة نظراً لمكانته الكبيرة في المجتمع الاسلامي .

الا انه من الملاحظ ان اغلبية الفقهاء وعلى رأسهم الماوردي قد اعتبروا هذه السابقة دليلا على جواز الخلافة بعهد الخليفة السابق وجعلوا من واجب الأمة المبادرة الى البيعة مما جعل العهد صورة من صور التعيين وليس مجرد الترشيح كما قدمنا . يقول الماوردي : « واما انعقاد الامامة بعهد من قبله ، فهو مما انعقد الاجماع على جوازه ، ووقع الاتفاق على صحته ، لامرين عمل المسلمون بهما ولم يتناكروهما : احدهما ان ابا بكر رضي الله عنه عهد بها الى عمر رضي الله عنه فاثبت المسلمون امامته بعهده .. » (٥٥) .

وهكذا قدم الفقهاء بهذا التفسير — سواء شعروا بذلك أم لم يشعروا — سنداً شرعياً للخلفاء الامويين والعباسيين ومن جاء بعدهم من الحكام لتداول السلطة عن طريق التعيين والوراثة وتجاهل ارادة الأمة في هذا المجال .

* مبايعة عثمان :

لما طعن عمر بن الخطاب قيل له ياأمير المؤمنين لو استخلفت ، قال : من استخلف ؟ لو كان ابو عبيدة بن الجراح حياً استخلفته . فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الامة . ولو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته ، فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول ان سالماً شديد الحب لله . فقال له رجل : ادلك عليه ؟ عبدالله بن عمر . فقال : قاتلك الله ، والله ماأردت الله بهذا ، ويحك كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ، لا ارب لنا في اموركم . ماحمدتها فارغب فيها لاحد من اهل بيتي . ان كان خيراً فقد أصبنا منه . وان كان شراً فشرعنا الى عمر بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد . اما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي وان نجوت كفافاً لاوزر ولا أجر اني لسعيد . وانظر فان استخلفت فقد إستخلف من هو خير مني وان اترك فقد ترك من هو خير مني ولن يضيع الله دينه » (٥٦) ....

يتضح من رواية الطبري ان عمر كان متردداً بين ترك امر الخلافة للناس ليختاروا لهم من احبوا كما فعل الرسول من قبل وبين اتباع نهج ابن بكر في العهد لاحد اصحابه بالخلافة ويبدو ان عمر بن الخطاب كان اميل الى اسلوب العهد في اختيار الخليفة ولكن المشكلة الأساسية التي كان يواجهها ان فكره لم يكن مستقراً على الشخص الذي يستطيع ان يعهد اليه بثقة واطمئنان . ذلك انه كان يود ان يعهد الى ابي عبيدة بن الجراح بالخلافة ، ولكن

(٥٤) آرنولد . الخلافة ، ص٨

(٥٥) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٠

(٥٦) الطبري ، تاريخ ، ج٥ ص ٢٧٧٦ — ٢٧٧٧

ابا عبيدة كان قد توفي. ولا بد لنا هنا ان نتذكر موقف ابي عبيدة المتضامن مع عمر اثناء اجتماع السقيفة في ترشيحه ومبايعته لابي بكر لنفهم بعض حماسه له .

كما كان يميل لشخص ثان هو الاخر قد توفي وهو سالم مولى ابي حذيفة ليعهد اليه بالخلافة «لأن سالماً شديد الحب لله» ولكن يلاحظ ان ماذكر عن اتجاه عمر في العهد لمولى غير قرشي بالخلافة رغم انسجامه مع توجيهات القرآن الكريم : « ان اكرمكم عند الله اتقاكم » يتناقض مع ماينسب إلى ابي بكر الصديق في اجتماع السقيفة من أنه عارض ترشيح الانصار لسعد بن عبادة لمنصب الخلافة بحجة أن الرسول (ص) قد قال : الائمة من قريش » (٥٧) فهل يعقل ان ينكر عمر وان يعهد لشخص بمنصب الخلافة خلافاً لاوامر الرسول ؟ ... وكيف يعارض عمر انتخاب احد زعماء الانصار لمنصب الخلافة بحجة ان قريشاً احق بالخلافة من الانصار ليأتي بعد ثلاثة عشر عاماً ليفكر واسناد منصب الخلافة إلى أحد موالي قريش لانه شديد الحب لله ؟ ... .

يبدو أن ما نسبه الطبري لعمر بن الخطاب فيما يخص تفكيره للعهد إلى سالم بالخلافة هو من وضع الموالي لتثبيت حقهم في المساواة مع العرب .

ولمواجهة مانسبته قريش من احاديث إلى الرسول (ص) في تثبيت حقها في الخلافة دون غيرها من العرب والمسلمين .

كذلك يلاحظ ان الحوار الذي اورده الطبري بين عمر بن الخطاب والرجل الذي اقترح عليه العهد لابنه عبدالله بالخلافة يشكل رداً قوياً على معاوية وغيره من الخلفاء الامويين والعباسيين الذين ساروا على قاعدة العهد لابنائهم بمنصب الخلافة . فهل هذا الحوار هو الآخر من وضع العصور المتأخرة ؟ ... ربما كان ذلك وان كان من غير المستبعد على عمر ان يتخذ مثل هذا الموقف خصوصاً وان ابنه عبدالله كان ضعيفاً مما يجعله غير اهل لشغل هذا المنصب الخطير .

لقد وجد عمر ان خير حل للخروج من المأزق الذي كان يعيشه في اللحظات الاخيرة من حياته ومن أجل الا يتحمل مسؤولية الخلافة « حياً وميتاً » ان يعهد إلى ستة اشخاص ليختاروا من بينهم من يشغل منصب الخلافة وهم علي بن ابي طالب وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن ابي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيدالله . وقد دعاهم جميعاً عدا طلحة الذي كان في سفر وخاطبهم بقوله: «اني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولايكون هذا الامر الا فيكم، وقد قبض رسول الله (ص) وهو عنكم

(٥٧) الماوردي .الأحكام السلطانية .ص ٦

راض . اني لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكني اخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس » (٥٨) ثم حدد لهم طريقة الانتخاب بقوله : « فاذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام . وليصل بالناس صهيب . ولايأتين اليوم الرابع الا وعليكم امير منكم. ويحضر عبدالله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الامر وطلحة شريككم في الامر فان قدم في الايام الثلاثة فاحضروه امركم وان مضت الايام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا امركم » (٥٩)

وقد ذكر الطبري ان عمر بن الخطاب قال لابي طلحة الانصاري : « يا أبا طلحة ان الله طالما أعز الاسلام بكم ، فاختر خمسين رجلا من الانصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم ، وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتموني في حفرتي فاجمع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم . وقال لصهيب صل بالناس ثلاثة أيام وادخل علياً وعثمان والزبير وسعدا وعبدالرحمن بن عوف وطلحة ان قدم واحضر عبدالله بن عمر ولاشيء له من الامر ، وقم على رؤوسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا وابى واحد فاشدخ راسه او اضرب رأسه بالسيف ان واتفق اربعة فرضوا رجلا منهم وابى اثنان فاضرب رؤوسهما ، فان رضي ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا منهم فحكموا عبدالله بن عمر فأي فريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم . فان لم يرضوا بحكم عبدالله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس » (٦٠)

ويلاحظ الباحث ان جميع الستة الذين عهد اليهم عمر لاختيار الخليفة من بينهم كانوا من قبيلة قريش مما يدل على تفرد هذه القبيلة بالسلطة السياسية وتضاؤل دور الانصار في هذا المجال بعد أن لعبوا دوراً كبيراً في نصرة الاسلام وتثبيت دعائمه . كما لا يظهر في هذه المرحلة اثر ملموس لبقية القبائل العربية او الامصار الاسلامية في هذا المجال .

ويظهر من استقراء النصوص التي اوردها الطبري ان عمر بن الخطاب كان ميالا للعهد بمنصب الخلافة إلى عبدالرحمن بن عوف دون غيره ولكن زهد عبدالرحمن في هذا المنصب على مايظهر هو الذي جعل عمر يعهد إلى الستة بهذا الامر ويوصي بترجيح الجانب الذي فيه عبدالرحمن بن عوف في حالة الانقسام . فقد اشار الطبري إلى أن عمراً دعا عبدالرحمن بن عوف إلى داره بعد اصابته فقال له : « اني أريد ان أعهد اليك . فقال يـا أمـير

---

(٥٨) الطبري ، ج ٥ ص ٢٧٧٨

(٥٩) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٢٧٧٨ — ٢٧٧٩

(٦٠) نفس المصدر ، ج ٥ ص ٢٧٧٩ — ٢٧٨٠

المؤمنين ، نعم ان أشرت علي قبلت منك . قال وما تريد ؟ قال انشدك الله ، أتشير علي بذلك ؟ قال اللهم لا . قال والله لا ادخل فيه أبداً . قال فهب لي صمتاً حتى أعهد إلى النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض » (٦١) .

ويبدو ان عمر كان يحس حدة المنافسة على منصب الخلافة بين بقية المرشحين ويخشى عواقب انقسامهم على وحدة الامة الاسلامية لذا فقد اوصاهم بالوحدة وعدم التفرق كما وضع مجموعة من الاجراءات والضوابط التي تحول دون الانقسام وتمنع تفاقمه في حالة وقوعه كما هو واضح من النصوص التي وردت آنفاً .

وقد ظهر جلياً ان المناقشة على منصب الخلافة كانت تنحصر بين بيتين من بيوتات قريش هما بنوهاشم يتزعمهم علي بن ابي طالب وبنو امية يتزعمهم عثمان بن عفان . وترجع جذور المنافسة بين هذين البيتين إلى أيام الجاهلية ثم امتدت حين ظهور الاسلام اذ اتخذ بنو امية موقف المعارضة من الدعوة الاسلامية بقيادة ابي سفيان الذي تولى زعامة المشركين في مكة عامة بينما وقف بنو هاشم بقيادة ابي طالب موقف المتعاطف والمساند للدعوة .

لقد كان انتصار الاسلام على مشركي مكة والجزيرة العربية بمثابة انتصار لبني هاشم وخذلان لبني امية . ولكن بني امية لم يستسلموا للامر الواقع فسرعان ما اعتنقوا الاسلام وركبوا الموجة الصاعدة حتى برز من بينهم رجال احتلوا مراكز مرموقة في عهد ابي بكر وعمر كمعاوية بن ابي سفيان الذي اصبح والياً على الشام ويزيد بن ابي سفيان الذي كان احد قادة جيوش حرب الردة والفتح الاسلامي (٦٢) .

وقد كان من اسباب تقدم بني امية على بني هاشم تمرسهم بشؤون الحكم والسياسة منذ الجاهلية اضافة إلى غناهم ونشاطهم في حقل التجارة مما ساعدهم على توثيق صلاتهم مع الناس واحتلالهم مواقع مؤثرة في المجتمع . فلا غرابة ان وجدنا اغلبية المرشحين لمنصب الخلافة ينحازون إلى عثمان بن عفان مرشح بني امية للخلافة ويتخلون عن علي بن ابي طالب مرشح بني هاشم .

لقد كان علي يحس بهذا الاتجاه منذ البداية لذا فقد خاطب قومه بقوله : « ان اطيع فيكم قومكم لم تؤمروا ابداً . وتلقاه العباس فقال : عدلت عنا ، فقال : وما علمك ؟ قال : قرن بي عثمان ، وقال : كونوا مع الاكثر ، فان رضي رجلان رجلا ، ورجلان رجلا فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف . فسعد لا يخالف ابن عمه عبدالرحمن وعبد الرحمن صهر عثمان ، لا يختلفون فيوليها عبدالرحمن عثمان اويوليها عثمان

---

(٦١) المصدر نفسه : ج٥ص ٣٧٢٤ — ٣٧٢٥

(٦٢) فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ص ٣٩

عبد الرحمن . فلو كان الاخران معي لم ينفعاني ، بله أني لا أرجو إلا أحدهما (٦٣)
فلما توفي عمر واخرجت جنازته اجتمع المرشحون للخلافة عدا طلحة الذي كان في سفر ليختاروا من بينهم خليفة « فتنافس القوم في الأمر وكثر بينهم الكلام » (٦٤) « فقال عبد الرحمن أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم ؟ فلم يجبه أحد فقال : فأنا أنخلع منها . فقال عثمان أنا أول من رضي فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أمين في الأرض أمين في السماء . فقال القوم قد رضينا ، وعلي ساكت فقال ماتقول ياأبا الحسن قال : أعطني موثقاً لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألو الامة. فقال أعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل (وغيروان ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم لرحمه وآلو المسلمين) فأخذ منهم ميثاقاً واعطاهم مثله . فقال لعلي : انك تقول اني أحق من حضر بالأمر لقرابتك (وسابقتك وحسن أثرك في الدين . لم تبعد ، ولكن ارأيت لو صرف هذا الأمر عنك ، فلم) تحضر من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالأمر . قال : عثمان . وخلا بعثمان فقال : تقول شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمه لي سابقة وفضل. لم تبعد ، (فلن يصرف هذا الأمر عني . ولكن لو لم تحضر ، فأي هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ قال : علي . ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به علياً وعثمان فقال : عثمان . ثم خلا بسعد فكلمه فقال : عثمان (٦٥)

يتضح مما تقدم أن أهل الشورى كانوا مجمعين على اختيار عثمان واستبعاد علي . ولكن على الرغم من ذلك فقد بقي عبد الرحمن ثلاثة أيام « يلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن وافى المدينة من امراء الأجناد واشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل إلا أمره بعثمان حتى إذا كانت الليلة التي يستكمل في صبيحتها الأجل » (٦٦) .دعا الناس للاجتماع بعد صلاة الصبح في المسجد . « فاجتمعوا حتى التج المسجد بأهله فقال : أيها الناس أن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بامصارهم وقد علموا من أميرهم .فقال سعيد بن زيد : انا نراك لها أهلاً فقال : اشيروا عليّ بغير هذا . فقال عمار : إن اردت أن لا يختلف المسلمون فبايع علياً . فقال المقداد بن الأسود .، صدق عمار أن بايعت علياً قلنا سمعنا واطعنا . قال ابن أبي سرح : إن اردت أن لا تختلف قريش فبايع عثمان . فقال عبد الله بن أبي ربيعة صدق ، إن بايعت عثمان قلنا سمعنا واطعنا . فشتم عمار بن أبي سرح

(٦٣) الطبري ،ج ٥ص ٢٧٨٠
(٦٤) الطبري ،ج٥ص ٢٧٨٢
(٦٥) المصدر نفسه ،ج٥ص ٢٧٨٢ - ٢٧٨٣.
(٦٦) المصدر نفسه ،ج٥ص ٢٧٨٣

وقال متى كنت تنصح المسلمين . فتكلم بنو هاشم وبنو أمية .
فقال عمار أيها الناس أن الله عز وجل أكرمنا بنبيه واعزنا بدينه فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم فقال رجل من بني مخزوم . لقد عدوت طورك يا ابن سمية ، وما أنت وتأمير قريش لأنفسها فقال سعد بن أبي وقاص ياعبد الرحمن أفرغ قبل أن يفتتن الناس. فقال عبد الرحمن : أني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا . ودعا علياً فقال : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده . قال : أرجو أن أفعل ، وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان فقال له مثل ما قال لعلي قال : نعم ، فبايعه . فقال علي : حبوته حبو دهر . ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون ، والله ماوليت عثمان إلا ليرد الأمر اليك . والله كل يوم هو في شأن . فقال عبد الرحمن ياعلي لاتجعل على نفسك سبيلا فإني قد نظرت وشاورت الناس فإذا هم لا يعدلون بعثمان » (٦٧) « وقدم طلحة في اليوم الذي بويع فيه عثمان . فقيل له بايع عثمان فقال : أكل قريش راض به قال نعم . فأتى عثمان فقال له عثمان أنت على رأس أمرك أن ابيت رددتها . قال أتردها قال نعم . قال أكل الناس بايعوك قال نعم . قال قد رضيت ، لا أرغب عما قد أجمعوا عليه وبايعه » (٦٨).

وقد أورد الطبري تعليلاً لسبب اجماع الناس على مبايعة عثمان دون علي على لسان علي بن أبي طالب نفسه : « إن الناس ينظرون إلى قريش وقريش تنظر إلى بيتها . فتقول إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً . وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم » (٦٩) .

فالدافع إذاً هو حرص العرب طبقاً لتقاليدهم القديمة على عدم حصر الرئاسة في بيت واحد مهما كان ذلك البيت وجعل الرئاسة انتخابية يتداولها الناس طبقاً لكفاءتهم وخدماتهم للمجتمع (٧٠).

وهكذا فقد اتبع عمر اسلوباً وسطاً في نقل السلطة بين الاسلوب الذي اتبعه الرسول حين ترك الأمر للناس يرون عليهم من أختيروا وبين الاسلوب الذي اتبعه أبو بكر حين عهد

(٦٧) المصدر نفسه ، ج ٥ ص ٣٧٨٥ – ٣٧٨٧
(٦٨) المصدر نفسه ج ٥ ص ٣٧٨٧
(٦٩) المصدر نفسه ، ج ٥ ص ٣٧٨٧
(٧٠) طه حسين ، الفتنة الكبرى ، (عثمان) مصر ١٩٦٦ ، ص ١٥٢ .

لشخص محدد بالذات بمنصب الخلافة . « فهي أقرب إلى الشورى من الطريقة الثانية» (٧١) وإن كانت في مجملها تعتبر اسلوبا من أساليب العهد.

وقد أشار المستشرق الايطالي كيتاني إلى « أن تعيين عمر لجماعة من الناخبين انما كان بدعة الأزمنة المتأخرة لتبرير العملية التي سيطرت طوال العصر العباسي وهي اعلان خلافة ولي العهد من قبل الخليفة أمام كبار الدولة الذين يقسمون يمين الولاء للملك الجديد ثم يتبع ذلك اعلان عام يذيعه على الناس بنتيجة الانتخاب ويوافق عليه بالتهاليل » (٧٢) يبدو للباحث أن واقعة تعيين عمر لجماعة من الناخبين من الوقائع التأريخية الثابتة طبقاً لما أوردته المصادر المعتمدة كتأريخ الطبري، وبالتالي فلايمكن أن تكون بدعة الأزمنة المتأخرة. وإنما الذي يمكن اعتباره بدعة الأزمنة المتأخرة لتبرير ولاية العهد التي سادت طوال العصر العباسي هو تفسيرهذه الواقعة الذي قدمه الفقهاء والذي يقضي بانعقاد الخلافة بصورة شرعية بمجرد العهد من الخليفة السابق لمن يخلفه في هذا المنصب ، وعدم اعطاء وزن حقيقي لارادة الامة في الانتخاب والبيعة كما قدمنا .

* مقتل عثمان ومبايعة علي بالخلافة :

يروي البلاذري انه : « لما ولي عثمان عاش اثنتي عشرة سنة اميراً فمكث ست سنين لاينقم الناس عليه شيئاً وانه لاحب الى قريش من عمر لشدة عمر ولين عثمان لهم ورفقه بهم . ثم توانى في امرهم واستعمل اقاربه واهل بيته في الست الآواخر واهملهم وكتب لمروان بن الحكم بخمس افريقية واعطى اقاربه المال وتأول في ذلك الصلة التي امرالله بها. واتخذ الاموال واستسلف من بيت المال مالا . وقال ان ابا بكر وعمر تركا من هذا المال ماكان لهما واني آخذه فأصل به ذوي رحمي فأنكر الناس ذلك عليه » (٧٣)

وقد لقيت هذه المآخذ على مايبدو صدى عميقاً في نفوس الانصار من اهل المدينة وعموم العرب من سكان الامصار وعلى الاخص اهل مصر والعراق . كما تجاوب مع الناقدين لعثمان كبار الصحابة من المهاجرين وعلى رأسهم علي بن ابي طالب وطلحة والزبير لاحساسهم بان الخليفة قد تجاوزهم ولم يعد يعتمد عليهم في تسيير امور الدولة (٧٤) ومن ثم نلاحظ

---

(٧١) د. حسن ابراهيم علي ابراهيم ، النظم الاسلامية ، مصر ١٩٣٩ ، ص ٤٦

(٧٢) آرنولد ، الخلافة ، ص ٨ — ٩

(٧٣) البلاذري ، أنساب الأشراف ، القدس ، ج ٥ ص ٢٥

(٧٤) فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص ٣٩ — ٥٠

أنه حين توجه الثائرون على عثمان من المصريين والذين كانوا عددهم في حدود الـ ٥٠٠ شخصاً مع من يؤازرهم من أهل الكوفة والبصرة إلى المدينة لم يلقوا مقاومة تذكر حتى تم لهم قتل عثمان والسيطرة على المدينة (٧٥). وربما كان من الغريب أن نشير إلى أن الدولة التي قضت على الامبراطورية الساسانية ودحرت الامبراطورية البيزنطية لم يكن لرئيسها حرس خاص يتولى حمايته والدفاع عنه وقت الملمات.

وهكذا سقطت المدينة في قبضة الثائرين على عثمان واصبح رئيس الدولة الجديد علي بن أبي طالب بحكم الاسير في أيديهم يوضح ذلك جوابه لمن طالبه باقامة الحد على قتلة عثمان: «كيف أصنع بقوم يملكونا ولا نملكهم، هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم اعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ماشاؤوا. فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء مما تريدون»(٧٦)

وربما كان هذا الوضع هو السبب الذي كان يقف وراء تردد علي في قبول منصب الخلافة حينما عرض عليه بعد مقتل عثمان على الرغم من تطلعه اليه منذ زمن بعيد: ذلك أن قبول منصب الخلافة في هذا الظرف يعني قبول مطالب الثائرين على عثمان والسير وفق توجيههم. وقد كان هذا هيناً لو تم لهم خلع عثمان بشكل سلمي، أما وقد تلطخت أيديهم بدمائه فان مجاراتهم والتعاون معهم في منتهى الخطورة. لذا فقد روى الطبري أن المدينة بقيت «خمسة أيام وأميرها الغافقي بن حرب يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر فلا يجدونه. يأتي المصريون علياً فيختبيء منهم ويلوذ بحيطان المدينة فإذا لقوه باعدهم وتبرأ منهم ومن مقالتهم مرة بعد مرة»(٧٧)« فلما كان يوم الخميس على رأس خمسة أيام من مقتل عثمان (رض) جمعوا أهل المدينة». فلما اجتمعوا لهم قال لهم أهل مصر أنتم أهل الشورى، وأنتم تعقدون الامامة، وأمركم عابر على الأمة فانظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تبع فقال الجمهور علي بن أبي طالب، نحن به راضون (٧٨) فقالوا: «دونكم ياأهل المدينة فقد أجلناكم يومين فوالله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً علياً وطلحة والزبير وأناساً كثيراً فغشي الناس علياً فقالوا نبايعك فقد ترى مانزل بالاسلام وما ابتلينا به من ذوي القربى فقال علي: دعوني والتمسوا غيري فانا مستقبلون أمراً له وجوه وله الوان لا تقوم له القلوب

(٧٥) البلاذري. ج٥ ص٦١
(٧٦) الطبري، تاريخ، ج٦ ص ٣٠٨٠
(٧٧) المصدر نفسه، ج٦ ص ٣٠٧٣
(٧٨) المصدر نفسه، ج٦ ص ٣٠٧٥

ولا تثبت عليه العقول. فقالوا ننشدك الله الا ترى مانرى الا ترى الفتنة، الا تخاف الله، فقال قد اجبتكم لما ارى واعلموا ان اجبتكم ركبت بكم ما اعلم وان تركتموني فانما انا كأحدكم الا اني أسمعكم واطوعكم لمن وليتموه أمركم، ثم افترقوا على ذلك واتعدوا الغد» (٧٩) حيث تمت البيعة لعلي في المسجد من قبل الثائرين على عثمان واهل المدينة وكبار المهاجرين وعلى رأسهم طلحة والزبير اللذين بايعا مكرهين (٨٠).

وفي رواية اخرى ان اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم اتوا علياً في منزله فقالوا: هذا الرجل قد قتل ولا بد للناس من امام ولا نجد اليوم احداً احق بهذا الامر منك، لا اقدم سابقة ولا اقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال لاتفعلوا فاني اكون وزيراً خيراً من ان اكون أميراً فقالوا لا والله ما نحن بفاعلين حتى نبايعك. قال ففي المسجد فان بيعتي لاتكون خفياً ولا تكون الا عن رضى المسلمين» (٨١). وقد اوحت هذه الرواية — على مايبدو — لبعض الباحثين ان البيعة لعلي كانت في نفس اليوم الذي قتل فيه عثمان (٨٢).

ولكن هذا الاستنتاج الضمني تدفعه الرواية الصريحة التي اوردها الطبري والتي تؤكد ان البيعة لعلي لم تتم الا بعد بخمسة ايام من مقتل عثمان كما قدمنا.

الصراع بين علي ومعاوية : —

وهكذا انتخب علي بن ابي طالب لمنصب الخلافة، وتمت له البيعة، ولكن البيعة لعلي لم تأت في ظروف هادئة مواتية، بل جاءت في ظروف عصيبة للغاية؛ حيث ان مقتل عثمان — كما يقرر فلهاوزن — يعتبر «حادثا حاسما لايكاد يدانيه في خطره حادث آخر في التاريخ الاسلامي، فمنذ ذلك الحين صار للسيف القول الفصل في أمر رئاسة الحكومة الثيوقراطية، وفتح باب الفتنة ولم ينسد بعد ذلك ابداً انسداداً تاماً» (٨٣).

اما القوى التي جاءت بعلي لمنصب الخلافة وقدمت له البيعة، فقد كان على راسها الثائرون على عثمان من عرب الامصار الذين لم يكن لهم دور يذكر في المبايعة للخلفاء الذين سبقوا علياً. أمـــا قريش التي لعبت الدور الأكبر في اختيار الخلفـــاء السابقين

(٧٩) المصدر نفســه ،ج٦ ص ٣٠٧٦
(٨٠) المصدر نفسه ،ج٦ص ٣٠٧٦ ،راجع أيضاً البلاذري ج٥ ص ٧٠
(٨١) المصدر نفسه ،ج٦ ص ٣٠٦٦ — ٣٠٦٧
(٨٢) فلهاوزن ،تاريخ الدولة العربية ،ص٥١
(٨٣) فلهاوزن ،تاريخ الدولة العربية ص ٥٠

فقد تلاشي دورها في هذه الظروف ، لأن الثورة على عثمان كانت بمثابة الثورة على بني أمية وحلفائهم مما جعلهم يهربون من المدينة أو يتوارون عن المسرح الى حين (٨٤) . كما ان بعض كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار — حتى الناقدين منهم لعثمان — شعروا بألم وانقباض شديدين نتيجة للظروف التي قتل فيها عثمان . ولان الخليفة الجديد « تلقى البيعة وسلطان الخلافة من ايد غير بريئة من الاثم » (٨٥) فاندفعوا لمعارضة علي وكان على رأسهم طلحة والزبير وعائشة ام المؤمنين (٨٦) .

لقد واجه علي حال توليه الخلافة موقفا في غاية الحراجة ، فقد كان كبار الصحابة وعلى رأسهم طلحة والزبير يطالبون باقامة الحد على قتله عثمان وكان هو يجيبهم : « كيف اصنع بقوم يملكونا ولا نملكهم » (٨٧) . وكان قتله عثمان يطالبون بعزل عمال عثمان على الامصار لأنهم أحد أسباب النقمة على عثمان ... وكان واضحاً انه لو استجاب لهذا المطلب في هذه الظروف فستشتد المعارضة له وسيتهم بانه مع قتله عثمان .

ويبدو ان علياً لم يجد بداً من الاستجابة لمطاليب الثائرين على عثمان ، فقام بعزل ولاة عثمان ، وعلى رأسهم معاوية بن ابي سفيان (٨٨) . وبذلك تبلورت المعارضة لعلي في جبهتين : الجبهة الاولى يتزعمها طلحة والزبير وعائشة مع انصارهم من أهل البصرة والجبهة الثانية يقودها معاوية بن ابي سفيان من بلاد الشام .

وهكذا قدر لعلي ان يقضي فترة خلافته التي امتدت حوالي خمس سنوات في حرب أهلية ، بدأت في معركة الجمل واستمرت بعد ذلك مع معاوية الذي رفض مبايعة علي وأخذ يتهمه بالاشتراك في قتل عثمان ، مما حمل علي على تجريد حملة لمحاربته . وقد تقابل الجيشان في موقعة صفين التي كادت ان تكون لصالح علي لولا ان لجأ معاوية الى رفع المصاحف مطالباً بالتحكيم استناداً الى كتاب الله (٨٩) .

لقد احدث هذا الطلب انقساماً في جيش علي ، مما حمله على قبول التحكيم من اجل المحافظة على وحدة جنده (٩٠). غير ان ذلك لم يحقق له ما أراد، بل زاد في انقسامهم

(٨٤) الطبري ، تاريخ .ج٦ .ص ٣٠٧٥

(٨٥) فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ٥١

(٨٦) الطبري ، تاريخ .ج٦ص ٣٠٧٠

(٨٧) المصدر نفسه ،ج٦ ص ٣٠٨٠

(٨٨) المصدر نفسه ،ج٦ ص ٣٠٨٢ — ٣٠٨٦

(٨٩) المصدر نفسه ،ج٦ .ص ٣٣٢٩

(٩٠) المصدر نفسه ،ج٦. ص ٣٣٢٩ — ٣٣٣٦

حتى وصل الأمر ببعضهم إلى الخروج عليه متهمين إياه بالكفر لأنه شك في حقه بالخلافة، فسموا بالخوارج، وراحوا يشنون الحرب ضد علي ومعاوية معاً » (٩١) .

أما نتيجة التحكيم . فقد جاءت في غير صالح علي . إذ اتفق أبو موسى الأشعري — ممثل علي — مع عمرو بن العاص — ممثل معاوية — على خلع علي من منصب الخلافة والرجوع إلى الأمة لاختيار من ترضاه خليفة لها مما قوى مركز معاوية وجعل اتباعه يبايعونه بالخلافة تباعاً وبعد فترة من الوقت . أما علي فقد رفض نتيجة التحكيم (٩٢) ، واستمر في صراعه ضد معاوية الذي أخذت قوته بالتزايد يوماً بعد آخر حتى سقط شهيداً بيد أحد الخوارج (٩٣) ، فاستقرت السلطة بيد معاوية ، وأصبح بذلك خليفة المسلمين من غير منازع (٩٤) ، وهكذا استقرت الخلافة بيد معاوية عن طريق القوة والتغلب ، ثم اكتسبت شرعيتها من خلال البيعة التي جاءت لاقرار الأمر الواقع .

معاوية والعهد لابنه يزيد :

لقد عمل معاوية على مبايعة ابنه يزيد بالخلافة من بعده . وحمل الناس على تقديم البيعة له طوعاً أو كرهاً مستغلاً نصيحة واليه على الكوفة المغيرة بن شعبة الذي قال له : «يا أمير المؤمنين قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان . وفي يزيد منك خلف . فاعقد له فان حدث بك حادث كان كهفاً للناس وخلفاً منك . ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة » (٩٥) .

والحقيقة أن العمل على تداول السلطة بصورة هادئة ، بعيداً عن دواعي الفتنة والاختلاف ، هدف جيد ومشروع . ولكن . ألم يكن أمام معاوية من طريق لتحقيقه سوى العهد لابنه يزيد ؟

لقد كان هناك أكثر من طريق . كما كان هنالك أكثر من مرشح لو كان هدف معاوية مجرد اختيار الخليفة الصالح في حياته . في جو من الهدوء والاستقرار .

وقد عبر عن ذلك عبدالله بن الزبير حينما طالبه معاوية بالبيعة لابنه يزيد فقال : «نخيرك بين ثلاث خصال ، قال : أعرضهن . قال : تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر . قال معاوية : ما صنعوا ؟ قال : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(٩١) المصدر نفسه ، ج٦ . ص ٣٣٥٠ — ٣٣٥٣ . ٣٣٦٢ — ٣٣٩٠

(٩١) المصدر نفسه ، ج٦ . ص ٣٣٥٨ — ٣٣٦٠

(٩٣) المصدر نفسه ، ج٦ . ص ٣٤٥٧

(٩٤) المصدر نفسه ، ج٦ . ص ٣٤٥٦

(٩٥) ابن الاثير . عزالدين الكامل في التاريخ . بيروت ١٩٦٥ . ج٣ ص ٥٠٤

ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبابكر . قال : ليس فيكم مثل أبي بكر وأخاف الاختلاف
قالوا : صدقت فاصنع كما صنع أبوبكر فانه عهد إلى رجل من قاصية قريش ، ليس من
بني أبيه فاستخلفه ،وان شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الامر شورى في ستة نفر ليس
فيهم أحد من ولده ولا من بني أبيه (٩٦) .

غير أن معاوية لم يقبل هذا العرض وأصر على طلب البيعة لابنه يزيد.مما يدل على أن الأسباب
التي قدمها معاوية كانت مجرد تبريرات للوصول إلى هدفه .

ولكن ماالذي كان يدعوه لذلك ؟...ربما كان معاوية واقعاً تحت تأثير أعوانه وأقربائه من
بني أمية الذين ربطوا مصيرهم ومصالحهم به ، فكانوا حريصين جداً على ضمان استمرار سياسته
في الحكم بعد وفاته. وقد كان خير ضمان الاستمرار هذه السياسة هو انتقال الخلافة الى ابنه
يزيد من بعده .كما ساعد على اقتناع معاوية بأسلوب الوراثة في الحكم عيشه في بلاد الشام
التي كانت خاضعة لحكم البيزنطيين مما جعله يتأثر بنظام حكمهم واساليبهم في الادارة. لذا
فقد خاطب عبدالرحمن بن أبي بكر مروان بن الحكم حينما طالبه بمبايعة يزيد بقوله :
« ما الخيار اردتما لامة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية . كلما مات هرقل
قام هرقل » (٩٧) .

وقد أشار فلهوزن إلى أن الضوضاء التي قامت حول بيعة معاوية لولده يزيد « لم تكن في
حقيقة الحال مطابقة لسببها المزعوم ،وذلك أن حق الأمير في أن يعين من يخلفه بعد وفاته
كان مقرراً . وحتى إذا كان الابن ليس هو صاحب الحق في ذلك فانه لم يكن بحال من الأحوال
محروماً منه .فاما الذي يظهرانه لم يكن موجوداً فهو البيعة مقدماً قبل وفاة الخليفة . ولكن المسلمين
كانوا إذ ذاك في أوائل تاريخهم ولم يكن ثم سنة مقررة في هذا الباب على الاطلاق . ولم يكن
هناك أي نظام مقرر لوراثة الخلافة »(٩٨) .

يبدو أن تفسير فلهوزن لهذه المسألة لايخلو من تناقض واضطراب فكيف يشير في أول الفقرة
إلى أن — حق الأمير في أن يعين من يخلفه بعدوفاته كان مقرراً — ثم يعود في نهايتها
ليؤكد — أن البيعة مقدماً قبل وفاة الخليفة لم تكن موجودة — وما الفرق بين الحالتين ياترى؟
ثم ما رأى الكاتب في عهد أبي بكر لعمر قبل وفاته ألم تكن بيعة ؟ ...

إن الذي يظهر من استقراء الحوادث أن سبب المعارضة التي جوبهت بها خطوة معاوية في
البيعة لابنه ، ان ابنه يزيد لم يكن أهلاً لهذا المنصب في نظر معظم سكان الاقاليم الاسلامية . .

---

(٩٦) ابن الاثير ، عز الدين ، الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٥ج ٣ ص ٥١٠.

(٩٧) المصدر نفسه ، ج٣ص ٥٠٦

(٩٨) فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ص١٣٤

بالاضافة الى وجود بعض المنافسين الذين يشار اليهم بالبنان باعتبارهم أهلا لمنصب الخلافة كالحسين بن علي وعبد الله بن الزبير .

وعلى الرغم من كل ماتقدم ، فقد « استمرت هذه السابقة الوراثية في الخلافة على هذا الشكل حتى الازمنة الاخيرة من العصر العباسي ، اذ كان يعلن الخليفة الحاكم خلفا له اكبر أولاده أو أعزهم لديه،اذا أثرت العاطفة والتعصب في اختياره أو يعين خيرة أقاربه ، فيقدم قسم الولاء للامير في العاصمة لولي العهد ومن ثم في مدن الدولة الاخرى . ولكنا لانجد مثالا على تعاقب الاب والابن المباشر الا نادراً،ففي حالة الاربع والعشرين خليفة الأولين في الدولة العباسية اعقب ستة منهم فقط اولادهم وعندما تدهورت قوة الخلافة العباسية الى العدم اصبح عاماً ان يعقب الابن أباه » (٩٩) .

ان صمود قاعدة الوراثة في تداول السلطة – والتي كانت في حقيقتها تجمع بين الوراثة والتعيين – امام النقد واستمرارها في مجال التطبيق يدل على أنها كانت اكثر ملائمة لروح ذلك العصر ذي النزعة الملكية الاستبدادية،واكثر استجابة لظروف الامبراطورية العربية الاسلامية ذات الاقاليم الشاسعة والمواصلات الصعبة من غيرها من اساليب تداول السلطة .

غير ان ماتقدم لا ينفي ان قاعدة الانتخاب في تداول السلطة كانت اكثر مطابقة للتقاليد العربية والمثل الاسلامية من قاعدة الوراثة والتعيين ، حيث كان العرب في الجاهلية ينتخبون شيخ قبيلتهم من بين الرجال الاصلاء الذين تقدمهم سجاياهم الحميدة كالشجاعة والكرم والحكمة لشغل هذا المنصب كما ان الرسول حين وفاته قد ترك امر اختيار من يخلفه في منصب الرئاسة للمسلمين ، فقام سكان المدينة من المهاجرين والانصار بانتخاب ابي بكر لهذا المنصب واستمر اسلوب الانتخاب معمولا به بصورة او باخرى طوال عهد الخلفاء الراشدين ، غير ان ممارسة الحق في الانتخاب لم تتسع في المجتمع العربي لتشمل كافة افراد الامة البالغين كما هو معترف به في ظل الانظمة الديمقراطية الحديثة ، بل انه كان مقصوراً على الرجال دون النساء وعلى الاحرار دون العبيد عند عرب الجاهلية واستمر كذلك في الاسلام مع ملاحظة ان الذين مارسوا هذا الحق في عهد الخلفاء الراشدين من الرجال هم سكان المدينة ومن يصادف وجودهم فيها أثناء الانتخاب من سكان بقية الاقاليم الاسلامية ، وذلك راجع في تقديرنا الى صعوبة وسائل الاتصال في ذلك العصر .

---

(٩٩) آرنولد ، الخلافة ص٩

وعلى الرغم من تحول الخلافة الى منصب يتداول عن طريق الوراثة او التعيين منذ عهد بني أمية ، الا انه احتفظ ببعض المظاهر الانتخابية الشكلية كالبيعة وما يتصل بها من اجراءات . اما الفقهاء فقد استمر جمهورهم على تأكيد الطابع الانتخابي للخلافة بصورة عامة ، ومناقشة الشروط الواجب توفرها في الخليفة ، وفي اهل العقد والحل، كما سنوضح ذلك في بحث لاحق .

الدكتور عماد الدين خليل

لمحات من النشاط الثقافي في ديار بكر
في عهد الأراتقة

م/٣/٤

غدت دياربكر في عهد الاراتقة مدرسة كبيرة خرجت واستقبلت عدداً كبيراً من العلماء والادباء والمفكرين في شتى مجالات المعرفة ، وكان للتشجيع المادي والادبي الذي قدمه الاراتقة لهؤلاء أثر كبير في ازدهار الحركة الثقافية هناك (١)، إذ كانوا ينفقون المبالغ الطائلة على الشعراء).(٢)،ويقيمون الندوات العلمية والادبية والمباريات الشعرية ويمنحون الجوائز خلالها للمبرزين من الشعراء (٣) ، كما خصصوا البعض العلماء والاطباء رواتب دائمة بسبب خدمتهم للاراتقة (٤) ، وولوا المناصب لاولئك الذين ألموا بأطراف عديدة من الثقافة (٥) . لذا قصدهم عدد من مشاهير العلماء والادباء والاطباء وعلى رأسهم أسامة بن منقذ الاديب الشاعر ، أحد أمراء شيزر في الشام ، والذي بقي عشرة أعوام (٥٦٠ — ٥٦٩ = ١١٦٤ — ١١٧٣ م) في بلاط الاراتقة . في حصن كيفا انهمك خلالها بالتأليف (٦) . وصفي الدين الحلي الشاعر المشهور الذي انقطع مدة ليست بالقصيرة إلى ملوك ماردين ومدحهم بعدد كبير من غرر قصائده التي حفل بها ديوانه وبخاصة تلك

* صفحات من اطروحة دكتوراه بعنوان (الامارات الارتقية في ديار بكر).

(١) ابن بطوطة ، رحلة ١/١٨٢ — ١٨٣ ، ابن الأثير ، رسائل ص ٧٧ — ٧٩و ٢٠٤ — ٢٠٧ انسان العيون لمؤلف مجهول ص ١٦٩ ، ٢٧٧ — ٢٨٨ ، ابن ابي اصيبعة طبقات الأطباء ٢/٣٢٨ ، ٣/٢٧٠ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ، ٣/٣١٦ ، ٣٦٣ ، القفطي اخبار الحكماء ص ١٢٢ ، ١٦١ ، ١٨٩—١٩٠ ، الكتبي ، وفيات ٢/١٩٣ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/٩٢—٩٥ ، ٤١٢—٤٢٦ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ٥/٣٢٨—٣٢٩ ، ابن العماد ، شذرات ٥/١٢٥ ، ٦/١١ ، ٢٥١ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ ، ٣١٣—٣١٤ ، ٣٥٨—٣٦٥ ابن حجر ، الدرر الكامنة ٢/٢٧٧—٢٧٨ ، ٣٧٩—٣٨١ ، ٣/٢٦٤—٢٦٥ ، ابن تغردي بردى ، المنهل الصافي (المخطوط ٢/٢١١) ، القرشي ، طبقات الحنفية ٢/١٩٩ ، سليم ، صفي الدين الحلي ص ٢٦ — ٢٧ ، ٤٠ .

(٢) ابن بطوطة ، رحلة ١/١٨٣ ، ابن عربشاه ، اخبار تيمورلنك ص ٥٢ ، المارديني ، تأريخ ماردين (مخطوطة ص ١٢٣) سليم ، صفي الدين الحلي ص ٢٥ — ٢٦ . ابن تغري بردى ، المنهل الصافي (القسم المخطوط ١/٢١١) .

(٣) ابن عربشاه ، المصدر السابق نفس الصفحة ، ابن العماد ، شذرات ٧/٢٠—٢١ ، المارديني ، تأريخ ماردين (مخطوطة ص ١٢٣).

(٤) ابن ابي اصيبعة ، الأطباء ٣/٣٦٣ .

(٥) ابن بطوطة ، رحلة ١/١٨٣ ، القفطي . الحكماء ص ١٦١ ، ياقوت ، معجم الأدباء ٢٠ /١٨—١٩ ، ١٨٩—١٩٠ ، اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ١/٩٢—٩٥ ، ٤١٢—٤٢٦ . انسان العيون ، مجهول ص ١٦٩ ، ٢٧٧ — ٢٨٨ الكتبي ، وفيات ٢/١٩٣ ، ابن العماد شذرات ٥/١٢٥ .
Enc., Isl., art: Artukids.

(٦) أحمد بدوي ، الحياة في عهد الحروب الصليبية ص ٢٧٠—٢٧١ وانظر عن اسامة بن منقذ
Cahen, la Syrie du Nord p.44-45
Derenbourgh, H., lavie d' Ousama pp. 336-338,543-562.
ياقوت ، معجم الادباء ٥/١٨٨ — ٢١٤ الطباخ ، تاريخ حلب ٤/٢٧٦ — ٢٧٨ .

المجموعة التي سماها الارتقيات والتي نظمها حسب تسلسل الحروف الابجدية والحقها بديوانه (٧) . وأبو عبدالله محمد بن جابر الاندلسي المروي الذي قدم إلى ماردين ومدح حاكمها الملك الصالح فوهبه هذا عشرين ألف درهم(٨).وجمال‌الدين السنجاري (الامام العالم وحيد الدهر وفريد العصر) الذي درس في تبريز ببلاد فارس وادرك العلماء الكبار وقدم إلى ماردين فولاه حاكمها الوزارة (٩) . وبرهان الدين الموصلي الامام الكامل الذي قدم إلى ماردين فعينه الاراتقة قاضياً لقضاتها (١٠) . وابو المجد الربعي ، من أهل تكريت درس في بغداد على كبار مشايخها وقدم إلى ماردين فولى قضاءها (١١) وأحمد بن أسعد نجم‌الدين المعروف بابن العالمة الذي ولد بدمشق عام ٥٩٤ هـ (= ١١٩٧ م) ونبغ في الطب وألف فيه عدداً كبيراً من البحوث القيمة ، ثم قدم إلى آمد وبلغ لدى صاحبها الملك المسعود منزلة كبيرة ، وانتهى الامر بتوليته الوزارة (١٢) . وشهاب‌الدين السهروردي المتصوف الاشراقي المشهور الذي قضى فترة مهمة من حياته في دياربكر وألف كتاب (الالواح العمادية) لعماد الدين أبي بكر قرا أرسلان الارتقي صاحب خربترت (١٣) وعزالدين يوسف بن الحسن التبريزي الحلاوي الذي رحل إلى بغداد ودرس فيهاثم عاد إلى تبريز وأقام هناك ينشر العلم ،وعندما ساءت علاقته مع صاحبها اتجه إلى ماردين فأكرمه صاحبها وعقد له مجلساً حضره علماؤها مثل شريح والهمام والصدر فاقروا له بالفضل .وأخذيعمل هناك في التأليف لشرح منهاج البيضاوي ،وعمل حواشي على الكشاف ،..الخ ثم انتقل إلى الجزيرة وتوفي عام ٨٠٢ هـ (= ١٣٩٩ م) (١٤) . وزين الدين بن سريجا الملطي البارودي الذي قضى فترة من الوقت في ماردين إلى وفاته عام ٧٨٨هـ (= ١٣٨٦ م) ، وكان من أعيان

(٧) ديوان الحلي ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣٧٩/٢ — ٣٨١ ، ابن بطوطة ، رحلة ١٨٢/١ — ١٨٣ وانظر : الشوكاني البدر الطالع ٣٥٨/١ — ٣٥٩ ، سليم ، صفي الحلي ٢٦ — ٢٧ . ٣٧ — ٣٩ ، ٤٠ — ٤٢ — ٤٣ — ، ٥١ — ٥٢ ، ٦٧ — ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي (القسم المخطوط ٣٢٢/٢ — ٣٢٥) :

(٨) ابن بطوطة، رحلة ١/ ١٨٣ .

(٩) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١٠) المصدر السابق ، نفس الصفحة .

(١١) انسان العيون ، مجهول ص ١٦٩ .

(١١) اليونيني ،ذيل مرآة الزمان ٩٢/١ — ٩٥ .

(١٣) ابن ابي اصيبعه ، الأطباء ٢٨٠/٣ وانظر نفس المصدر ٣/ ٢٧٧ وياقوت معجم الأدباء ٣١٤/١٩ — ٣٢٠ .

(١٤) ابن العماد ، شذرات ٢٠/٧ — ٢١ .

ملطه في الفقه والقراءات والأدب (١٥) . والعلاء بن محمد بن أحمد السيرالي الذي أقام بماردين مدة وافاد الناس في علوم عديدة وبلغ المنتهى في المعاني والبيان ، وتوفي بمصر عام ٧٩٠ (= ١٣٨٨م) (١٦) وعبدالرزاق بن ابي بكر بن خلف الرسعني الذي ولد في رأس أعين من ديار بكر عام ٥٨٩ ﻫ (= ١١٩٣ م) (وكان محدثاً أديباً شاعراً صدراً رئيساً) اقام بماردين مدة من الزمن وبلغ خلالها لدى صاحبها مكانة عليه (١٧) وقام نجم الدين ايلغازي الارتقي باستدعاء ابي الفتح احمد بن سرى وكان عجمياً من بلاد همذان وكان مشهوراً بالحكمة وتتلمذ عليه في ماردين فخر الدين المارديني الذي برع في الطب ودخل في خدمة نجم الدين بن ارتق ردحاً من الزمن (١٨) وقدم بدر الدين بن هبل البغدادي الطبيب إلى ماردين في آواخر القرن السادس وأقام هنالك مدة ليست بالقصيرة (١٩) وهنالك عدد كبير من الذين قصدوا الاراتقة فلقوا منهم كل ترحيب وتشجيع. ومن هنا يتضح خطأ كاهين في القول بأننا لانعرف اى كاتب ذي شهرة عاش داخل المنطقة الارتقية او في اطرافها) (٢٠) وهكذا صرنا نجد مثقفين من شتى الاصناف كالشعراء والفقهاء والاطباء ... الخ يتصدون ديار بكر من العراق والشام وبلاد فارس والاندلس مما يشير إلى مدى ماكانت تتمتع به المنطقة في عهد الاراتقة من ازدهار علمي وادبي . حتى انه كان في احدى خزانات الكتب في آمد وحدها لدى فتحها من قبل صلاح الدين عام ٥٧٩ﻫ (=١١٨٣م) مليون واربعون الف كتاب (٢١) وبالرغم مما في ذلك من مبالغة الا انه يدل على ما بلغت اليه حركة التأليف والنسخ واقتناء الكتب في المنطقة . وكان قسم من العلماء والادباء يتفون كتبهم بعد وفاتهم في المشاهد التي وقفها الاراتقة والتي كانت

(١٥) المصدر السابق ٣٠١/٦ — ٣٠٢.

(١٦) المصدر السبق ٣١٣/٦ — ٣١٤.

(١٧) اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٥٤٥/١ .

(١٨) ابن ابي اصيبعه ، الأطباء ٣٢٨/٢ وانظر نفس المصدر ٢٧٠/٣ حيث يذكر أن الذي استدعاه هو حسام الدين تمرتاش واكرمه غاية الاكرام وبقي في صحبته مدة .

(١٩) ابن أبي اصيبعة ، الأطباء ٣٣٤/٢ — ٣٣٥ ، وانظر — في هذا هذا المجال — الدبيثي تتمة المختصر ٢٣٩/١ رابن النجار البغدادي التأريخ المجدد لمدينة السلام (نسخة دار الكتب الوطنية بباريس ٢١٣١) ، القرشي ، طبقات الحنفية ٧٩/٢ — ٨٠ ، ١٦٣ — ١٦٤ ، ١٨٤ ، ١٩٩

(٢٠) Enc. Isl. art: Artukids.

(٢١) أبو شامة ، الروضتين ٣٨/٢ — ٤٠ (عن أبن ابي طي).

اشبه بالمكتبات العامة) (٢٢) .

ولم يقف الامر عند حد استقبال ديار بكر لكبار الادباء والعلماء وانما قامت - كذلك - بتخريج عدد كبير منهم عم نشاطهم العلمي والادبي مختلف انحاء العالم الاسلامي ، حيث انتشروا في الجزيرة والموصل وبغداد والشام ومصر ، وتولوا المقاعد التدريسية وحلقات الطلبة ، واسهموا في تنشيط الحركة الثقافية في تلك الجهات ، ووكلت اليهم كبرى المناصب القضائية والادارية بما عرف عنهم من مقدرة علمية وادبية رشحتهم لاسمى المناصب في تلك المناطق الواسعة من العالم لاسلامي (٢٣) وتحفل كتب التراجم بعدد كبير من العلماء والادباء الذين تخرجوا من ديار بكر ، اوقدموا اليها ومارسوا فيها نشاطهم فترة من الزمن (٢٤) ولا ريب ان الاراتقة ، في قيامهم ببناء عدد كبير من المدارس ، تمكنوا من ارساء النشاط الثقافي في بلادهم على اسس منظمة ، اذ غدت تلك المدارس مؤسسات ثقافيه لتخريج واستقبال عدد من الشيوخ والمدرسين والطلاب داخل المنطقة وخارجها . وقد

---

(٢٢) ابن ابي اصيبعة ، الأطباء ٣٢٨/٢ .

(٢٣) انظر في هذا المجال : ابن أبي اصيبعة ، الأطباء ٢٨٥/٣ - ٢٨٧ ، ٣٣٧ - ٣٤٣ ، ابن طولون قضاة دمشق ص٤٩ ، ٥٣ ، ٨٤ ، ١٠٤ ، ١١٣ ، ابن مصري الدرة المضية ص١٨٤ - ١٨٧ - ١٨٨ ، القرشي ، طبقات الحنفية ١٨٥/٢ - ١٨٦ ، ٢٩٩ ، المقريزي ، السلوك ١٣/٢/١ ، ١٤ ، ١٣٣ ، ٣٩٦/١/٢ ، ٤١٤ ، ٤٤٢ ، ٥٠٢ ، ٧٣٠/١/٣ ، ٧٥٩ ، ٨١٧ ، ٨٣٠ ، ٩٥٧ ، ابن الفرات تأريخ ٦٢/٧ ، ٧٠ ، ٤١٧/٩ ، ابن العماد ، شذرات ٦٥/٦ ، ٦٦ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ٢٥٥ ، ٣٢٣ ، ٣٤٧ ، ٣٥٨ - ٣٥٩ ، ٨٣/٧ ، ٨٤ اليونيني ، ذيل مرآة الزمان ٥٤٥/١ ، ٣٨٢/٣ ، ابن قطلوبغا ، تاج التراجم ص ١٧-١٨ القفطي ، الحكماء ص ١٦١ ، انسان العيون ، مجهول ص ٢٢٧ - ٢٨٨ ، الدبيثي ، تتمة المختصر ١٠/١ ، ٢٣٢ ، ٢٧٩ - ٢٨٠ ، المستدرك عليه ٢٧١/٢-٢٧٢ ، ٢٨٣-٢٨٤ ، ٣٠٥ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ٣٤٥/٢ ونشير في هذا المجال إلى علي بن أحمد زين الدين الأمدي الذي يرجع اليه الفضل في اختراع الطريقة التي يقرأ العميان بموجبها وهي الكتابة البارزة (الصفدي نكت الهميان ص ٢٠٦ - ٢٠٨) وبهذا يكون قد سبق برايل (Braille) الفرنسي في هذا المجال (انظر مقدمة نكت الهميان ص ج) وانظر كذلك نفس المصدر ص ٢٥٥ - ٢٥٧ ، احمد بدوي ، الحياة العقلية ص١٩٣ - ١٩٦ ، ٣٢٨ Zettersteen تأريخ سلاطين المماليك ص ١٩١ ، ١٩٣ . السبكي ، طبقات الشافعية ٨١/٤ ، ١٢٩/٥ - ١٣٠ ، الجزري تأريخ (مخطوطة ٣/١ - ٦ ، ١٣ - ١٥ ، ١٦ ، ٧٠ ، ١٣٨ ، ٣٦/٢ ، ٣٩) ، ابن تغري بردي ، المنهل الصافي (القسم المخطوط ١١/٢ ، ٢٧ ، ٢٠٩ ، ٢٦٩ - ٢٧٠ ، ٣٢٢ - ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٦٩ ، ٤٦٥ ، ٤٧١) .

(٢٤) فيما عدا الاشارات التي سبق ذكرها يمكن للباحث أن ينظر في هذا المجال : ابن حجر ، الدرر

رأينا فيما سبق كيف ان الاراتقة خصصوا جزءاً من مواردهم المالية لشؤون بناء المدارس واشرفوا بانفسهم على ذلك البناء . كما بلغ بعضهم درجة كبيرة في بعض جوانب الثقافة كحسام الدين تمرتاش الذي برع في الحكمة والفلسفة ، ووقف في المشهد الذي بناه كتباً حكمية (٢٥) .

كان الادب ، والشعر بشكل خاص ، والخط وعلوم اللغة والكلام والفقه وعلوم القرآن والحديث والفلسفة والتصوف والحكمة ،تشكل اهم مجالات النشاط الثقافي في ديار بكر فضلا عن العلوم المحضة وخاصة الطب والهيئة والفلك والرياضيات والعلوم التطبيقية التي ساعدت على ازدهار الصناعة في المنطقة . اما في علم التأريخ فلم يبرز أي مؤرخ مشهور فيما عدا الفارقي (٥١٠ – ٥٧٢هـ=١١١٦ – ١١٧٦م) الذي عاصر الاراتقة

= الكامنة ٢/١٦ ، ٤٧ ، ٧٤ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٤ ، ٢١٣ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٣٠٤ ، ٣٦٩ ، ٣٧٧ ، ٤١٦ ، ٤٤٩ ، ٣/٢١ ، ٤٣ ، ٧٧ ، ٢١٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ ، ٣١٥ ، ٣٢٥ ، ٣٣٠ ، ٣٣٦ ، ٤١٦ ، ٤٣٨ ، ٤٨٩ ، ٤/١٧ ، ١٤٨ ، ١٩٨ ، ٢٤٦ ، ٢٥٣ ، ٢٧٥ ، ٢٩٧ ، ٣٤٢ ، ٣٥٩ ، ٣٨٦ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٥١ ، ابن الساعي ، المختصر ٢/١٨٨ ، ابن العماد ، شذرات ٤/٨٥ ، ١٦٨–١٦٩ ، ٢١٤ ، ٢٤٠ ، ٢٧٩ ، ٢٨٥ ، ٣٠٤ ، ٥/٤ – ٥ ، ٥٠ – ٥١ ، ٨١ ، ١٠١–١٠٢ ، ١٣٣ – ١٣٤ ، ١٤٤ – ١٤٥ ، ١٦٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٨٤ ، ٣٠٥–٣٠٦ ، ٣٩٢ ، ٣٩٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٨ ، ٤٤٥ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ، ٤٥٧–٤٥٨ ، ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ٧/٢٤ ، ٨/٥٠ ، ٢١٧ ، ٩/ ٢٩٠ – ٢٩١ ، ١١/٩٥–٩٦ ، ٩٩ ، ١١٠ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٣١١–٣١٢ ، ابن العبري المختصر ص ٤٧٩ – ٤٨٠ ، أبو شامة ، ذيل الروضتين ص ٨٦ ، ١٥٨ – ١٥٩ ، ١٦١ ، ٢١٠ ، ٢٤٠ ، أبو الفدا ، المختصر ٣/٣٥ ، ٥١ ، ١٦٣ ، فوات الوفيات ١/٢١٣ ، ٢٢٩ ، ٥٧٩ ، ٢/٢٠٣ ، ٣٢٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤٦ ، ٥٣٨ ، ابن كثير ، البداية ١٣/١٢٨ ، ٣١٨ ، ١٤/٣٠ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٥٦ ١٦٨ ، ٢٩٣ ، الذهبي ، العبر ٤/١٣ ، ٧٤ ، ١٨٨ – ١٨٩ ، ابن الأثير اللباب ٣/٧٩ ، ٢٢٧ ، الصفدي ، الوافي بالوفيات ١/١٨٨ – ١٨٩ . السمعاني . الأنساب ١/٨٢ – ٨٣ ، هامش ١ ، ٢/١٧٠–١٧١ ، هامش ١ ، ٥/٣٨٥ – ٣٨٦ ، ياقوت معجم الأدباء ١٠/١٢٦ – ١٣٠ ، معجم البلدان ١/٦٦ – ٦٨ ، ٢/١٨٨ ، ٣٨٠ ، ٨٧٧ ، ٣/٥٥١ – ٥٥٢ ، ٤/٧٨٧ – ٧٨٩ ، ابن عساكر ، تأريخ دمشق ٤/١٧٧ – ١٧٨ وغيرهم .

(٢٥) ابن ابي اصيبعة ، طبقات ٢/٣٢٨ .

في بداية تكوينهم السياسي ودرس مختلف العلوم وخاصة التأريخ . وتسلم عدداً من المناصب في ميافارقين . كما قام برحلات وسفارات عديدة إلى الخارج مما مكنه من اخراج كتابه المشهور (تأريخ امد وميافارقين) الذي تميز بتقديمه تفاصيل دقيقة عن الفترة التي عاصر احداثها وعن نظم الاراتقة وعلاقاتهم السياسية والحربية (٢٦) هذا وقد زار ديار بكر ، في عهد الاراتقة عدد من الرحالة والجغرافيين والمؤرخين ودونوا ما شاهدوه من مظاهر طبيعية واجتماعية وعمرانية وثقافية وسياسية . واشهر هؤلاء ابن جبير (ت ٦١٤ =١٢١٧م) وابن بطوطة (ت٧٧٩=١٣٧٧م) وناسخ كتاب صورة الارض لابن حوقل الذي زار المنطقة في منتصف القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) وكتب تعليقات كثيرة الاهمية عن نظم الاراتقة بنيامين التطيلي وغيرهم . ولا بد من الاشارة هنا إلى محمد بن طلحة النصيبي صاحب كتاب (العقد الفريد) الذي تناول فيه ، من الناحية النظرية ، قوانين الحكم والنظم السائدة آنذاك ، وقد توفي عام (٦٥٢هـ=١٢٥٤م) (٢٧)

كان طابع الثقافة في عهد الاراتقة ، كما يتضح مما سبق ، عربياً في لغته واسلوبه خاصة وان اهم مجالات تلك الثقافة المؤثرة في صبغة الحضارة ، ذات مصادر وجذور عربية كالادب عامة ، والشعر بشكل خاص ، حيث كانت تقام الندوات والمباريات الشعرية في حضرة امراء الاراتقة ، وكان هؤلاء يمنحون الجوائز للأكثر بلاغة وتمكناً في النواحي الادبية) (٢٨) هذا فضلا عن الفقه وعلوم القرآن والحديث واللغة والكلام ، والفلسفة إلى حد ما بسبب من ارتباطها بالتصوف كمصدر ديني فضلا عن ان قسماً ممن تخصصوا في المواضيع العلمية ، التي لاعلاقة لها بالعربية ، كانوا قد اتقنوا العربية) (٢٩) كما ان اللغة السائدة في المنطقة كانت عربية بسبب استعمالها من قبل قطاعات واسعة من السكان كالمسلمين من غير الاتراك والمسيحيين اليعاقبة واليونانيين) (٣٠) وكانت اهم اللغات التي

---

(٢٦) انظر مقدمة محمد عوض في تحقيقه للقسم الأول من كتاب الفارقي (تأريخ آمد)

(٢٧) بدوي ، الحياة العقلية ص ٣٢٨ وانظر Enc. Isl. art: Artukids

(٢٨) انظر : ابن عربشاه، اخبار تيمور ص ٥٢ وسليم، صفي الدين الحلي ص ٢٣ ، ٢٥-٢٦ ، ٤٢ — ٤٣ ،

(٢٩) ابن ابي اصيبعة ، طبقات ٢/ ٣٢٨ .

(٣٠) C. Cahen, La Syrie du Nord, pp. 190 – 193.

تليها في الاهمية هي التركية فالارمنية التي اختص بها الارمن دون غيرهم (٣١) ، فضلا عن الكردية .

ويشير كاهين الى ان الحفاوة والتقدير التي لقيها كل من صفي الدين الحلي واسامة بن منقذ لدى الاراتقة ، تدل على الحيوية التي كانت تتمتع بها التقاليد الادبية العربية ، وعلى ان الحضارة العربية كانت تحتل موضع شرف هناك (٣٢) خاصة وان كلا من هذين الشاعرين كان يمثل النزعة العربية الاصيلة في العطاء الادبي والتي اصطبغت أحياناً بروح البداوة ولكن ذلك كله لم يمنع من ان تكون المنطقة ألارتقية المعين الاول للأبيات الشعرية القليلة التي تكون النماذج الاولى للادب الشعبي في اللغة التركية غربي آسيا) (٣٣) ومن ان يحتفظ كثير من الاتراك ، الذين دخلوا الاسلام ، بلغتهم ، الامر الذي حدث انسجاماً بمرور الوقت بين الاسلام ولغة الاهالي) (٣٤) .

---

(٣١) Ibid

(٣٢) Enc.Isl,Art,Artukids.C.Cahen la Syrie du Nord p.44

(٣٣) Enc.Isl,Art Artukids.

(٣٤) بارتولد ، الترك ص ١١٠

الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي

التعريب

في العصرين الأموي والعباسي

لقد اثرت حركة الفتح الاسلامي للعراق وفارس والشام ومصر تأثيراً كبيراً في حياة المجتمع الاسلامي لان التوسع الاسلامي بمظاهره العسكرية والبشرية والفكرية احدث توسعا ثقافيا وحركة علمية كبرى نابعة من الاسلام وهدفها الدعوة الى العقيدة الاسلامية فاقبل سكان البلاد المفتوحة على تعلم العربية وآدابها وعلى دراسة المصادر الاسلامية القرآن ، الحديث ، الفقه ، فبرز فيهم الكثير من العلماء الذين اصبح لهم اثر في الثقافة العربية ونشر الحركة الفكرية نلمح اسماء كثير منهم في كتب التاريخ والتراجم والطبقات . (١) كما ان ظهور الفرق الاسلامية ومذاهبها كان لها اثر ايضاً في توسع الثقافة في البلاد المفتوحة حيث التقت الثقافة العربية بالثقافات الفارسية واليونانية والهندية ولكل منها صفاتها وميزاتها ثم لم تلبث ان اندمجت وانصهرت في بودقة عربية اسلامية مكونة الحضارة العربية الاسلامية .

(اثر الثقافات الاجنبية ومدارسها في التعريب)

لقد اقبل سكان البلاد المفتوحة على تعلم اللغة العربية ودراسة آدابها — كما اشرنا قبلا — واخذوا يصوغون افكارهم وعلومهم وآدابهم بما ينسجم والدين الاسلامي والتقاليد العربية فاصبحت اللغة السياسية والثقافية السائدة هي العربية لذلك فان الشعوب (غير العربية) فقدت ذاتيتها اللغوية (٢) بمرور الزمن للتقرب من الفاتحين وقد ادى انتشارها الى شعور شعوب هذه البلدان بالانسجام والتجانس رغم اختلاف قومياتهم وحتى أديانهم . فوحدت اللغة العربية انتماءهم وشعورهم واهدافهم وكان لها اثر في اقبال الكثير من غير المسلمين على الدخول في الاسلام . (٣) ولم يكن اقبال الشعوب غير العربية على تعلم العربية وترك لغتها الاصلية بسبب الاكراه أو الاجبار وانما كما يقول المستشرق بارتولد : (٤) ان غلبة اللغة العربية كان بالاختيار لا بسلطان الحكومة وانّ تسامح العرب ادى الى انتشار العربية فدرس حنين بن اسحق الخليل بن احمد الفراهيدي

(١) انظر : ابن النديم الفهرست ، البلاذري فتوح البلدان ، ابن سعد ، الطبقات

(٢) انظر Ency of Islam (art Nahw) T 3.P 894 – 895 :

(٣) انظر : ديموبين : النظم الاسلامية ص١١

(٤) انظر : بارتولد : الحضارة الاسلامية ص٣٠

وسيبويه حتى اصبح حجة في العربية (٥) . وبعد ان قطع الموالي واهل الذمة مرحلة كبيرة في تعلم العربية وآدابها اخذوا ينقلون اليها علومهم فاستطاعوا بذلك اضافة علومهم وافكارهم الى دخيرة العرب المسلمين فتكونت من مزيج تلك الحضارات حضارة مطبوعة بالطابع العربي والاسلوب الاسلامي واخذت تنمو وتزدهر منذ العصور الاسلامية الاولى(الراشدي والاموي) وآتت ثمارها في العصر العباسي حيث اصبحت بغداد حاضرة العالم الاسلامي. يتهافت عليها رجال العلم والثقافة والادب والاقتصاد والمال لما اصبحت تتمتع به من مركز سياسي واقتصادي وثقافي فنبغت اعداد كبيرة من العلماء والفلاسفة والادباء والشعراء ينحدرون من عناصر ذمية وغير عربية ومن اخصهم النصارى والفرس والصابئة واهم مابرزوا فيه الترجمة من اليونانية والفارسية والهندية والسريانية واقلهم تأثيراً في الحضارة وتأثراً بها اليهود ، يقول المستشرق ديورانت : (٦) ولم يكن لليهود القابلية الفكرية والعلمية على الابداع الفكري فحتى التصوف اليهودي تأثر بالزرادشتية وبالافلاطونية الحديثة وباستبدال الفيض الالهي بعملية الخلق وتأثروا بالكتب المسيحية والمتصوفة الهنودوالمصريين. ويؤكد ذلك ماجاء في دائرة المعارف اليهودية : (٧) ان الفلسفة العبرية جاءت عن طريق كتبهم المقدسة وعن طريق تأثرهم بالفلاسفة العرب .

وقد استفاد اليهود من العلوم العربية التي كانت سائدة في البلاد الاسلامية فترجموا بعضاً من المؤلفات العربية الى العبرية واتقن بعضهم اللغة العربية وآدابها واهتموا بقواعد النحو ومن اولئك مروان بن موسى اليهودي البصري الذي اشتغل بالادب وضبط النحو ولكنه لم يؤلف فيه(٨).

ويبدو ان بروز هؤلاء اليهود في بعض الميادين العلمية يعود الى اتصالهم بالحضارة العربية الاسلامية فاستقوا من مناهلها علومهم المختلفة .

اما النصارى في العراق فقد نعموا بعد الفتح الاسلامي بالحرية الدينية ولما كان اغلبهم عربا فقد التفوا حول المسلمين للروابط القومية واللغوية التي تربطهم باخوانهم العرب فأقبلوا على العناية باللغة العربية وآدابها فاخذوا ينقلون من السريانية الى العربية لان اللغة العربية اوسع

---

(٥) ابن ابي اصيبعة : عيون الانباء ج١ص١٨٥ ، ١٨٩ .

(٦) انظر ديورانت : قصة الحضارة ج١٤ص١٣٦ .

(٧) انظر : The Jewish Encyclopedia 1. P. 76

(٨) انظر جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص١١٤ ، غنيمة : نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ص١٦٧ .

من السريانية بدليل ان فيها اسماء كثيرة لم تكن موجودة عند السريانيين ولا عند غيرهم بخلاف اسم واحد فقط (٩) . وان قبائل الغساسنة في الشام منذ خضوعهم لكنيسة رومة وهم يستخدمون اللغة العربية في طقوسهم الدينية (١٠) .

وقد برز الصابئة بالفلك والتنجيم واعتبروه عنصرا مهما من العناصر التي يعتمد عليها دينهم ومستقبلهم فهم يعتقدون ان كل كوكب يحكم في يوم من الايام ويتحكم ملائكة معينون بالايام ومن هنا تكون لهم صفات فلكية (١١) .

ويعزون اهتمام الصابئة بدراسة الفلك والتنجيم الى اعتقادهم بالتنبوءات وبأثر النجوم على مستقبل الانسان أيضاً وقد عملوا الطلسمات والسحر والكهانة والتنجيم والتقويم والخواتيم (١٢) .

ولما اتصل الصابئة بالخلافة العباسية صار لهم شأن كبير في نقل هذه العلوم الى العربية . ولعل ازدهار الحضارة وتطور العلوم في العصرين الاموي والعباسي يعود الى رغبة العرب المسلمين في الاطلاع على ما عند الامم الاخرى من علوم ومعارف حتى قال المستشرق سيديو (١٣) عنهم : كان العرب وحدهم حاملين لواء الحضارة في القرون الوسطى وقد حرروا بربرية أوربا وسار العرب الى منافع فلسفة اليونان ولم يقفوا عند حد ما اكتسبوه من كنوز المعرفة بل وسعوه وفتحوا ابواباً جديدة في مختلف العلوم واذا ما بحثنا في الوجه الذي ايقظ الحضارة في المشرق وجدنا حب العرب للعلم وشوقهم الى تعجيل رقيه بانفسهم ، ولعل تشوق العرب للاطلاع على علوم وثقافات الامم الاخرى واهتمامهم البالغ بالعلم دفعهم الى الابقاء على المؤسسات العلمية التي كانت لأهل الذمة في البلاد المفتوحة لعل ماذكره ديورانت (١٤) يؤيد ذلك : كان بنو امية حكماء اذ تركوا المدارس الكبرى المسيحية أو الصابئية أو الفارسية قائمة خاصة في حران ونصيبين وجنديسابور وغيرها ولم يمسوها بأذى وقد حفظت هذه المدارس أمهات الكتب الفلسفية والعلمية معظمها ترجمها الى العربية على ايدي النساطرة المسيحيين وقد بقيت هذه المدارس

---

(٩) ايليا : المجالس السبعة (مخطوط) ورقة ٢٨ .

(١٠) توماس ارنولد : الدعوة إلى الاسلام ص٧٠ .

(١١) دراوور : الصابئة المندائيون ص ١٣٣ ، ص ١٣٥ .

(١٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج٢ ص٥٠

(١٣) انظر سيديو : تاريخ العرب العام ص ٣٨٣ ، ص ٣٨٥

(١٤) انظر ديورانت قصة الحضارة ج١٣ ص ١٧٧

تؤدي عملها في العصور الاسلامية وزاد اتصالها بالمسلمين في العصر العباسي .
ولابد من الاشارة الى دور هذه المدارس في نشر الثقافة .

فمدرسة حران : —

وحران مدينة في الجزيرة شمال العراق بين الرها ورأس العين وهي مدينة قديمة عاصرت الرومان واليونان والنصرانية والاسلام سكانها من العرب والسريان والارمن والمقدونيين وقد تأثرت حران بالثقافة المقدونية لدرجة ان الآلهة المعبودة في حران كانت اسماء بعضها يونانية (١٥) . واصبحت حران منبعا من منابع الثقافة اليونانية في العهد الاسلامي واتصلت مدرستهم بالخلفاء العباسيين وكان لها شان كبير في نشر الثقافة اليونانية وفي ترجمة كثير الكتب عن اليونانية (١٦) .

وقد برز نخبة من اساتذتها وخريجيها لعبوا دور كبيرا في تعريب علوم اليونان في الفلك والرياضيات والطب منهم ابو عبد الله البتاني وهو احد المشهورين برصد الكواكب والمتقدمين في علوم الهندسة وهيئة الافلاك وحساب النجوم وله كتاب في الزيج والبروج وغيرها (١٧) . ويعتبر ثابت بن قرة (ت٢٨١هـ) اعظم من عرف في مدرسة حران كان يجيد اليونانية والسريانية والعبرية ترجم في المنطق والرياضيات والتنجيم والطب ونقح كتاب اقليدس الذي عربه حنين بن اسحق رحل الى بغداد واقام فيها ومن اولاده واحفاده ابراهيم بن ثابت وابو الحسن ثابت واسحق ابو الفرج وكل هؤلاء نبغوا في الرياضيات والفلك (١٨) . واشتهر ابنه سنان بالطب وكان عالما بالظواهر الجوية (١٩) . وكان حفيده إبن سنان عالما بالحكمة والهندسة وله ثلاثة كتب في علم النجوم وله مقالة فيها احدى واربعون مسألة هندسية (٢٠) . واشتهر هلال بن ابراهيم بالطب كما اشتهر ابراهيم بن هلال بالادب وقد رثاه الشريف الرضي (٢١) . لمنزلته في الادب .

(١٥) احمد امين، ضحى الاسلام ج١ص٢٥٦ .
(١٦) سيدة، كاشف الوليد بن عبد الملك ص ٢٢٦
(١٧) ابن القفطي اخبار الحكماء ص ٢٨٠، ص ٢٨١ ، دائرة المعارف الاسلامية (مادة صابئة (ج١ص ٩١) .
(١٨) ابن خلكان وفيات الاعيان ج١ص١٢٤ — ١٢٥، ابن النديم الفهرست ص ٣١٢ .
(١٩) ابن النديم الفهرست ص ٣٠٢
(٢٠) ابن القفطي انباء الحكماء ص ٥٧ — ٥٨
(٢١) ابن القفطي انباء الحكماء ص ٧٥ — ٧٦ .

اما مدرسة نصيبين : —

ونصيبين مدينة تقع بين اعالي بلاد مابين النهرين ودمشق حصنها الرومان تحصينا قويا واصبحت مركز كرسي الاسقفية لوجود نصارى فيها واسس مطران نصيبين مدرسة تحاكي مدرسة الاسكندرية في الفلسفة وكانت الغاية منها نشر اللاهوت الاغريقي بين المسيحيين الذين يتكلمون السريانية (٢٢). ومزج النصرانية بالافلاطونية واغلقت مدرسة نصيبين فانتقلت الى الرها . وهكذا انتقلت فكرة مزج النصرانية بالفلسفة في انحاء الشرق(٢٣). وساعد بذلك على نشر كتب الفلسفة اليونانية التي ترجمها النصارى النساطرة .

واما مدرسة جنديسابور : —

جنديسابور : مدينة تقع في خوزستان اسسها سابور الاول واليه تنسب واسكنها الاسرى الذين اسرهم من جيش الروم وخاصة الذين كانوا على جانب كبير من الثقافة والخبرة الفنية وكان يؤمل استخدامهم مهندسين ومعماريين واطباء وسمح لهم باستعمال لغتهم واتباع ديانتهم كما سمح لهم ببناء الكنائس فتمتعوا بالحرية اكثر مما كان لهم تحت حكم الامبراطورية الرومانية (٢٤) واسس فيها كسرى انو شروان مدرسة للطب كما أنشأ فيها بيمارستان واول من علم بها الطب من اليونان والهنود فالتقت في هذه المدرسة الثقافة اليونانية والهندية والفارسية (٢٥) وقد واصلت هذه المدرسة نشاطها العلمي بعد الفتح الاسلامي وزاد اتصالها بالمسلمين نشاطها العلمي بعد الفتح الاسلامي وزاد اتصالها بالمسلمين في العصر العباسي واشتهر من اساتذتها وطلابها في العصر العباسي جرجيس بن بختيشوع (ت ٧٧١ م) وهو من اطباء واقدم ممثل لطبقة الأطباء الذائعي الشهرة من اسرته ومنهم حفيده جبريل بن بختيشوع (ت ٨٠٠ م) ويحيي بن البطريق الذي اختصه المنصور للقيام بالترجمة وكذلك زكريا إبن يحيي بن البطريق . وممن اشتهر في الترجمة والتأليف في الطب أبو زكريا يوحنا بن ماسويه

(٢٢) اوليري ،انتقال علوم الاغريق إلى العرب ص٦٦ — ٦٧ .
(٢٣) احمد امين ،ضحى الاسلام ج١ص ١٦٠ .
(٢٤) اوليري ،انتقال علوم الاغريق ص ٢١ .
(٢٥) هونكه ،شمس العرب تسطع ص ١٨١.

(ت ٨٥٧ م) (٢٦) فكان لهم حينئذ شأن كبير في الحركة العلمية في العصر العباسي وبفضل هذه المدرسة .

وكانت هذه المدارس لاتقوم فقط بمهمة تعليم مختلف صنوف العلم المعروفة وانما قامت بدور التعريب والتأليف وتعتبر الفترة الواقعة بين ظهور الفرق المسيحية وبين الفتح الاسلامي للعراق غنية بالترجمة من اليونانية إلى السريانية وذلك لان الفرق المسيحية استخدمت الفلسفة اليونانية لتأييد معتقداتها وكانت الترجمة منصبة على اللاهوت والدراسات الدينية وبعد الفتح ابتدأت الترجمة من اليونانية إلى العربية وذلك منذ العصر الاموي . وشجع الامويون حركة الترجمة إلى العربية واول كتاب طبي ترجم اليها كان في خلافة مروان بن الحكم ٦٤ هـ وهو كناش (٢٧) هرون القس بن اعين وقد احتوى على ثلاثين مقالة نقلها من الارامية إلى العربية ماسرجويه الطبيب البصري وزاد عليها مقالتين (٢٨) .

* دوافع حركة التعريب :

ان حركة التعريب قديمة ترجع جذورها إلى عصر الراشدين ولكن هذه الحركة نشطت في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد حين جعلا اللغة العربية اللغة الرسمية في دواوين الدولة ومراسلاتها فما لبثت ان اكتسحت لغات الشعوب المفتوحة من فارسية ورومية وقبطية وبربرية ويونانية وسريانية وعبرية واصبحت وحدها شائعة في دار الاسلام لأنها لغة الفاتح ولغة الدين .

ان اقبال اهل الذمة باعداد كبيرة على الدخول في الاسلام ساعد كثيراً على انتشار اللغة العربية بينهم لاتقان القرآن وفرائض الاسلام واقتضت الحاجة بالنسبة لهؤلاء الى تنقيط الحروف العربية والى ايجاد قواعد اللغة العربية وهو ما اصطلح على تسميته فيما بعد بعلم النحو (٢٩)

---

(٢٦) اليوزبكي ،تاريخ اهل الذمة في العراق ص ١٨٤ – ١٨٥ .

(٢٧) كناش ،جمعها كناشات اوراق تجعل كالدفتر تقيد فيها الفرائد والشوارد
(الزبيدي ،تاج العروس ج٤ص٣٤٧ مصر سنة ١٩٤٨)

(٢٨) ابن القفطي ،اخبار العلماء ص ٨٠

(٢٩) ابن خلدون ،المقدمة ٥٤٤ – ٥٥٤ .
Ency of Islam (art Nahw) T3 . P. 894 — 895

ولعل من اقوى الشواهد على المكانة التي اصبحت للغة العربية في الحياة الفكرية اهتمام المثقفين آنذاك بفقهها وتاريخها والاهتمام بفقه اللغة قوى الصلة بالقرآن فكان من الضرورة الماسة ان يفهم العدد الغفير من الداخلين بالعربية التي هي لغة التعبد الاسلامي ، وقد دعت الحاجة الى تمهيد السبل امام هؤلاء الأعاجم الى امتلاك ناصية الدقائق المعنوية في العربية والتضلع في متنها الزاخر بالمفردات وهذا السبب الذي جعل معجم الخليل بن أحمد الفراهيدي البصري اساساً لنشأة فقه اللغة العربية وتطوره ثم ان سيبويه الفارسي احد تلاميذ الخليل قام بخدمة جليلة عندما وضع علم النحو في صورة نظامية جرت عليها الاجيال المقبلة وكان ينافس سيبويه في هذا العلم الكسائي الكوفي (٣٠) ولذا كان على سكان البلاد المفتوحة ان يتعلموا العربية وان يتمرأووا ويكتبوا بها ليستفيدوا منها لدينهم ودنياهم حتى اضطروا ان يتعلموا النحو لاصلاح لغتهم . (٣١) واقبلوا على تعلمها فعلا ونقلوا اليها علومهم وحتى كتبهم المقدسة كالتوراة والانجيل والزبور (٣٢) وذلك لاظهار تراثهم الحضاري والثقافي للفاتحين ونتيجة لشعورهم برغبة المسلمين للاطلاع على ما عند الامم الاخرى من علوم ومعارف كما ان اقبال البعض من أهل البلاد المفتوحة على ذلك تحقيقاً لمكاسب مادية ومعنوية (٣٣).

ويبدو ان اقبال المسلمين على تشجيع حركة التعريب يعود ايضاً الى ظهور الفرق الاسلامية وبروز فكرة الاعتزال والقول في القضاء والقدر واحتدام الجدال بين هذه الفرق الاسلامية ثم اتساع نطاق الجدال الديني بين المسلمين وأهل الذمة ولا سيما النصارى واليهود وقد وجد المسلمون ان هؤلاء يتارعونهم الحجج للدفاع عن آرائهم ومعتقداتهم بالمنطق والفلسفة فاقبل المعتزلة على دراسة كتب الفلسفة اليونانية المعربة للاستفادة منها في الدفاع عن الاسلام تجاه اقرانه من الذميين . (٣٤)

وقد لعبت الفتوحات الاسلامية والفكر الاسلامي دوراً كبيراً في عملية التعريب حيث اقبل العرب تحت شعار المساواة بين مختلف الشعوب على التزوج بالاجنبيات من البلاد المفتوحة هذا الاقبال الشديد كان له أثره في اقبالهم على تعلم العربية واتقانها . وتبع ذلك نشاط تجارة

---

(٣٠) كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٢٦ – ٢٧

(٣١) احمد امين ، فجر الاسلام ص ١٧٥ .

(٣٢) عبد المنعم ماجد ، الحضارة الاسلامية في القرون الوسطى ص ١٥٧ .

(٣٣) اليوزبكي ، تاريخ اهل الذمة في العراق ص ٣٨٢

(٣٤) اليوزبكي ، تاريخ اهل الذمة في العراق ٣٨٣ .

الرقيق واخذ النخاسون يقيمون المدارس لتعليم الجواري الفارسيات والروميات والتركيات اللغة العربية وفنون الغناء واستخدام آلات الطرب ولم يلبث الخلفاء ان انشأوا في جميع المدن المهمة مراكز وجمعوا حولهم كل عالم قادر على ترجمة علوم اليونان وكتبهم ولاسيما كتب أرسطو وجالينوس وغيرهم ونقلها من السريانية الى العربية . ولم يدم اكتفاء ولا العرب بما نقل الى لغتهم طويلا فقد تعلم عدد غير قليل منهم اللغة اليونانية ليستقوا منها مباشرة ثم تعلمـــوا اللغة القشتالية في اسبانيا كما يشهد بذلك ما في مكتبة الاسكوريال من المعجمات العربية اليونانية والعربية اللاتينية والعربية الاسبانية التي الفها علماء من المسلمين . (٣٥) واصبحت مهنة الترجمة حرفة فصارت عملا وراثياً يتولى عليه من الاسرة الواحد تلو الآخر .

وقد بدأت اولى المحاولات للتعريب في العهود الاسلامية بـ (تعريب النقود) وذلك منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب فقد ضرب الدراهم على نقش الكسروية وجعل نقش بعضها (الحمد لله) ونقش بعضها الآخر (محمد رسول الله) او (لااله الا الله وحده) وثبت معيارها واوزانها وضرب عثمان بن عفان دراهم عربية بنقش (الله اكبر) (٣٧) اما علي بن طالب فقد شغلته الفتنة عن ضرب عملة جديدة ، ولما تولى معاوية بن ابي سفيان الخلافة كتب الى زياد بن ابيه والي العراق ليضرب عملة جديدة غير عملة عمر ينقش عليها اسمه . (٣٨) ولما اعلن عبد الله بن الزبير نفسه خليفة في الحجاز ضرب دراهم ونقش على احد وجهي الدرهم (محمد رسول الله) وعلى الوجه الآخر (امر الله بالوفاء والعدل) (٣٩) وضرب أخوه مصعب سنة ٧٠هـ دراهم في العراق اعطاها للناس في العطاء . (٤٠) نقش على احد وجهي الدرهم (بركة) وعلى الوجه الآخر كلمة : (الله) (٤١) .

---

(٣٥) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ص ٤٣٣ – ٤٣٤ .

(٣٦) المقريزي ، كتاب النقود ص ٣٢ .

(٣٧) المصدر ، السابق والصحيفة

(٣٨) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٤٧٣ .

(٣٩) المصدر ، السابق والصحيفة .

(٤٠) المقريزي ، ص ٣٣ .

(٤١) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٤٨ .

ولم يكن في الامصار الاسلامية في بداية العهد الاموي سكة عربية اسلامية معترف بها قبل مجيء عبد الملك بن مروان بل كان لامراء الولايات دورسك خاصة يسكون فيها العملة حسب احتياجاتهم ولهذا كانت قيم النقد غير مستقرة الامر الذي شجع على التزييف والتلاعب (٤٢) .

وان مافعله عبد الملك والحجاج من تعريب النقود انما جاء مبنياً على ماصنعه عمر بن الخطاب حين نظر إلى الدراهم الفارسية التي اختلفت اوزانها عشرة قراريط او اثني عشر قيراطاً ، او عشرين قيراطاً فجمع ذلك فبلغ اثنين واربعين فاخذ ثلثه او (معدله) فكان اربعة عشر قيراطاً فجعله الوزن الشرعي . (٤٣) الذي حدده عمر كاملا غير منقوص. (٤٤) وروى البلاذري (٤٥) ان سعيد بن المسيب سأل : عن أول من ضرب الدنانير المنقوشة؟ فأجاب : عبد الملك بن مروان عام الجماعة سنة ٧٤ هـ وان ضرب الدراهم بدأ في سنة ٧٥هـ ثم أمر بتعميمه في جميع النواحي سنة ٧٦ هـ . وقال ابن الاثير : (٤٦) انه لما صارت الخلافة إلى ملوك بني امية وقد اغفلوا امر المعاملة بما تشاغلوا به عن امور نفوسهم تفاحش الغش في التجارة وصارت تنسب إلى الروم سكة ليست من ضرب الفرس فيما ابتدع الناس من دنانير كسرى وقيصر فعني عبد الملك بتمييز المغشوش من الدنانير والدراهم فضرب السكة في دمشق ويرى البعض من المؤرخين ان هناك صلة من سوء العلاقات بين دولتي الاسلام والروم وبين تفكير المسلمين في وضع عملة مستقلة لهم (٤٧) ويعلل هذا الاجراء بسبب ان الحرب ادت إلى انقطاع التجارة وقلة النقد مما دعا عبد الملك إلى الشروع في اصدار عملة خاصة ليحقق للدولة استقلالها الاقتصادي فأنشأ داراً للضرب .

وقيل : ان الحرب اقترنت بمسألة خطيرة وادت من سوء العلاقات لمساسها بالدين والمصلحة الاقتصادية وهي مسألة (القراطيس) (ورق الكتابة) التي ذكرتها المصادر العربية وخلاصة هذه المسألة كما ذكر البلاذري(٤٨)ان القراطيس كانت تؤخذ من مصر الى بلاد الروم

---

(٤٢) الخربوطلي ، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، ص ٤١٤ .

(٤٣) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٤٧١ .

(٤٤) المقريزي ، كتاب النقود ص ٣١ - ٣٣.

(٤٥) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٤٧١ .

(٤٦) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ص ١٧٤ بولاق ١٢٩٠ هـ.

(٤٧) الريس، الخراج والنظم المالية للدولة الأسلامية ص ٢٢١ ، الاتليدي اعلام الناس ص ٢٧٤ .
EGibbon The Decline and fall the Roman Empire Vol 5. P 388

(٤٨) البلاذري فتوح ص ٤٤٩ .

التي تضرب فيها الدنانير وكانت الاقباط تكتب رؤوس في الطوامير (الصحف) عبارات تنسب الربوبية إلى المسيح كما ترسم في صدرها الصليب فأمر عبدالملك ان يكتب في مكانها اية (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكر الله فكره ذلك ملك الروم واشتد عليه ، وكتب إلى الخليفة : (انكم احدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه فان تركتموه ، والا آتاكم في الدنانير من ذكر نبيكم ماتكرهونه) قال : فكبر ذلك في صدر عبدالملك لانه كره ان يدع سنة حسنة . سنها ازاء هذا التهديد فاستشار من حوله فأشار عليه خالد بن يزيد بن معاوية بأن يحرم دنانيرهم ويمنع التعامل بها ويضرب للناس سككاً ويمنع ان يدخل بلاد الروم شيئ من القراطيس . (فمكثت حينا لاتحمل اليهم) . فانقطعت التجارة التي كان بها يتم التبادل بالاوراق والدنانير ويبدو ان السبب المباشر الذي دفع عبدالملك إلى تعريب النقود يعود إلى توقف التجارة وانقطاع النقد ورغبة في تحقيق الاستقلال الاقتصادي للدولة فأنشأ داراً للضرب (٤٩) كما أشرنا سابقاً وضرب دنانير ذهبية عرفت بالدمشقية (٥٠) .

ويعلل امير علي (٥١) الاجراء بقوله : ان الدولة الاسلامية التي مضى عليها اكثر من نصف قرن منذ ايام الفتح الاولى لايمكنها ان تظل معتمدة في نشاطها الاقتصادي المتزايد على النقد الاجنبي كما ان العملة الفارسية كانت مغشوشة ومضطربة لفساد الوضع في الدولة الفارسية ويؤيد ذلك ما رواه الماوردي (٥٢) بقوله : وقد كان الفرس عند فساد امورهم فسدت نقودهم فجاء الاسلام ونقودهم من العين والورق والفضة والذهب غير خالصة الا انها كانت تقوم في المعاملات مقام الخالصة إلى ان ضربت الدراهم الاسلامية فتميز المغشوش من الخالص) .

ورغم أن العملة البيزنطية والفارسية كانت متداولة بجانب العملة المحلية الا أن اتساع اطراف الدولة العربية وتقدم التجارة ادى الى وضع نظام ثابت للنقد (٥٣) مما دفع عبدالملك بن مروان إلى ضرب سكة اسلامية جديدة واصبحت النقود عربية صرفة . (٥٤) وبعث بها إلى الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق حتى اذا فرغ من ضرب الدراهم بعث بالسكة

---

(٤٩) جرجي زيدان ، تأريخ التمدن الاسلامي ج١ ص ٩٨.
(٥٠) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٤٧٢.
(٥١) أمير علي ، مختصر تأريخ العرب والتمدن الاسلامي ص ١٦٤.
(٥٢) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ٦٤٨ .
(٥٣) سيد أمير علي ، مختصر تأريخ العرب ص ١٦٥ .
(٥٤) ابن الأثير ، الكامل ج ٤ ص ١٧٣ .

إلى سائر الامصار لتضرب الدراهم بها وكان قد ضرب في دمشق دنانير من الذهب سنة ٧٣ هـ بعد أن كانت كلها حتى ذلك التاريخ رومية (٥٥) وبعد إن فرغ عبدالملك من ضرب الدنانير والدراهم كتب إلى عماله بالامصار يأمرهم بأن يقسروا الناس على التعامل بالسكة الجديدة وان يتهدد بالقتل كل من تعامل بغيرها من العملة القديمة وان يجمعوا له النقود القديمة المتداولة حتى يحولها إلى سكة اسلامية (٥٦) .

وفي عهده ايضاً بدأ بتعريب الدواوين ولا سيما تلك التي وجدت في البلاد المفتوحة اما الدواوين الاولى (الجند وبيت المال) فقد كانت باللغة العربية منذ نشأتها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (٥٧) اما التي وجدت في البلاد المتوحة فقد ابقاها العرب على حالها وهي المختصة بالجباية وحساباتها فظلت على ما كانت عليه ، ففي العراق وسائر بلاد الشرق كانت بالفارسية وفي الشام كانت بالرومية (٥٨) (اليونانية) وفي مصر بالقبطية . (٥٩) ويبدو ان دوافع تعريب الدواوين المالية كان يقصد منه ضبط اعمالها والاشراف عليها منعاً من الغش والتزوير (٦٠) وادى هذا الاجراء (التعريب) إلى ايجاد طبقة جديدة من الكتاب والى نهضة لغوية ادبية رائعة (٦١) .

بدأ عبدالملك بعمله الجليل هذا بتعريب دواوين الشام امر كاتبه على الرسائل سليمان بن سعد الخشني أن يحول الديوان من الرومية إلى العربية (٦٢) وكان ذلك سنة ٨١ هـ . وقد طلب من عبدالملك ان يجعل له خراج الاردن في مقابل العمل والذي بلغ يومئذ ١٨٠ الف دينار (٦٣) .

اما دواوين العراق فقد عربت ايام ولاية الحجاج بن يوسف على العراق فقد عهد إلى صالح بن عبدالرحمن بنقل الديوان من الفارسية إلى العربية وقد كان صالح يحذق

---

(٥٥) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٤٧٢ — ٤٧٣
(٥٦) الدميري ، حياة الحيوان حـ١ ص٧٦ .
(٥٧) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ص ٣٨ .
(٥٨) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٩٢ .
(٥٩) المقريزي ، الخطط جـ١ ص ٩٨ .
(٦٠) امير علي ، مختصر تاريخ العرب ص ١٦٦ .
(٦١) الريس ، الخراج والنظم المالية ص ٢٢٧ .
(٦٢) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٠١ ، الجهشياري الوزراء ص ٤٠
(٦٣) البلاذري ، فتوح ص ٢٠١ .

الفارسية والعربية معاً وجعل له اجلا لذلك فأتم صالح مهمته بنجاح وقيل : ان (مراد نشاه) ابن (زازان فروخ) كاتب الحجاج بذل له مائة الف درهم على ان يظهر العجز عن هذا العمل ويمسك عنه فأبى فدعا عليه اذ أنه قطع أصل الفارسية (٦٤) .

وقد عربت الدواوين المصرية في ولاية عبدالله بن عبد الملك في خلافة الوليد سنة ٨٧هـ وصرف (انشناس) عن الديوان وجعل عليه ابن يربوع الفزاري من أهل حمص (٦٥) غير ان الدواوين المالية في خراسان لم تعرب وبقيت بالفارسية وكان اكثر كتابها من المجوس حتى كتب يوسف بن عمر في سنة ١٢٤ هـ إلى نصر بن سيار عامله على خراسان يأمر بنقله إلى العربية ولايستعان فيه من الكتاب بغير المسلمين وقام بعملية التعريب هناك اسحاق بن طليق الكاتب — من بني نهشل — وقد كان مع نصر بن سيار فاصبح خاصاً به (٦٦) .

اما تعريب العلوم فقد بدأت المحاولات الاولى فيه خلال العصر الاموي وكانت على الاغلب جهود فردية وعلى نطاق ضيق واقتصرت على العلوم العملية كالطب والفلك والعلوم العقلية (كالمنطق والفلسفة والهندسة) كما عربت بعض الالفاظ اليونانية واطلقوا عليها كلماتها الاصلية مثل البرجد (وهو كساء غليظ مخطط) (واسماء اشياء عرفها العرب بعد اتصالهم بالروم كالزبرجد والزمرد والياقوت ومقاييس واوزان رومانية كالقيراط والاوقية واسماء طبية او نباتية كالقولنج والبرقوق او كلمات نصرانية كالجاثليق والبطاريق وغيرهم (٦٧) . وقد توسعت حركة التعريب خلال القرن الاول الهجري بأثير المسيحيين ورغبة بعض الامويين فان خالد بن يزيد الاول (ت ٨٥ هـ) كان عالما واديبا ومن اول المحبين لعلوم اليونان فامر بترجمة الكتب في علم الهيئة والطب والكيمياء حتى روى انه انه وجد الحجر الفلسفي الذي يصنع به الذهب الاصطناعي (٦٨) .

وترى هونكه (٦٩) ان لفشل الامير الاموي خالد بن يزيد واكراهه على التنازل عن العرش اثر كبير في نفسه دفعه إلى حقل جديد مجاله العلوم وابحاثها .

ويرى بعض المؤرخين (٧٠) ان نتيجة خالد بن يزيد عن الخلافة وغلبه مروان بن الحكم عليها كانت صدمة قوية للامير خالد فتحول إلى ماهي يلهو به ويناسب ارستقراطيته

(٦٤) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .
(٦٥) المقريزي ، الخطط جـ١ ص ٩٨ .
(٦٦) الجهشياري ، الوزراء ص ٦٧ .
(٦٧) احمد امين ، ضحى الاسلام جـ١ص٢٨١ .
(٦٨) بارتولد ، تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٦٩
(٦٩) هونكة ، شمس العرب تسطع ص ٣٧٨
(٧٠) احمد امين ، ضحى الاسلام جـ١ ص٢٧٠

فكان ذلك هو (الصنعة) رأى انه اذا استطاع ان يحول المعادن الى ذهب استطاع ان يحول الناس اليه أو على اقل سيكون له من المنزلة مايحسده عليها الخلفاء .

وهذا الرأي ينسجم مع ماشار اليه ابن النديم (٧١) من قول خالد : ماطلبه بذلك الا ان اغني اصحابي واخواني ، ان طمعت في الخلافة فاختزلت دوني فلم أجد منها عوضاً الا ان ابلغ آخر هذه الصناعة فلا احوج احداً — عرفني يوماً او عرفته — الى ان يقف بباب سلطان رغبة او رهبة .

وشجع عمر بن عبد العزيز تعريب كتب الطب فأمر بنشر كتاب الطب الشرعي الذي نقله الى العربية متطبب البصرة مارسرجونه في عهد الخليفة مروان بن الحكم وقد وجده في خزائن الكتب بالشام (٧٢) .

واشهر من قام بدور التعريب في العصر الاموي الرهاوي الذي ترجم كثيراً من كتب الإلهيات اليونانية الى العربية (٧٣) . واضطلع السريانيون بنشر الفلسفة اليونانية في العراق وماحوله واخذوا ينقلون الكتب اليونانية الى لغتهم السريانية وهي احدى اللغات الارامية — التي انتشرت فيما بين النهرين والبلاد المجاورة لها — وكان من اهم مراكزها الرها ونصيبين وظلت هذه المدن مراكز للثقافة اليونانية الى مابعد الفتح الاسلامي تدرس فيها الرياضيات والفلك والفلسفة على المذهب الافلاطوني وهم الذين تسموا — بعد ذلك — في عصر المأمون وبعده بالصابئيين وكان منهم كثير من المؤلفين وممن تولوا الترجمة الى العربية بعد ذلك . وخدم السريانيون العلم والفلسفة بما ترجموا من كتب الفلسفة اليونانية التي اصبحت الاساس الذي اعتمد عليه العرب والمسلمون وكان لهم الفضل الكبير في نقل الفلسفة والعلوم الى العربية في العصر العباسي (٧٤) .

ان العرب مع كثرة مانقلوه عن اليونان لم يتعرضوا لشيء من كتبهم التاريخية او الادبية او الشعر مع انهم نقلوا من تاريخ الفرس واخبار ملوكهم ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودتس ولا جغرافية استرابون ولا الياذة هوميروس ولا اوديسته ويرى بعضهم ان اكثر مابعث المسلمين على النقل رغبتهم في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق ويرى

---

(٧١) ابن النديم ، الفهرست ص ٣٥٤

(٧٢) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء ج١ ص ١٦٣

(٧٣) احمد امين ، فجر الاسلام ص ١٦٢

(٧٤) احمد امين ، فجر الاسلام ص ١٥٩ .

غيرهم ان الراحلين من اليونان ايام الاضطهاد الى حران لم يكونوا ادباء ولامؤرخين وانما كانوا فلاسفة واطباء (٧٥) .

ويرى بعض المؤرخين (٧٦) أن وراء عملية التعريب قوى ظاهرة وخفيفة تحركها نوايا خيرة تريد خدمة العلم والعمل على نشره أو سيئة تريد أن تشيد بماضي الفرس وتراثهم وتعمل على الحط من تراث العرب مضمرة السوء للمسلمين . ويبدو ان للازدهار الحضاري ونشاط الحركة العلمية والثقافية دوراً كبير في نشاط حركة التعريب فقد أخذ المثقفون الفرس يعربون تراث آبائهم في التنجيم والهندسة والجغرافية وخاصة ممن يجيدون اللسانين الفارسي والعربي ويبدو انهم قلة بالمقارنة بمن نقل عن اليونانية والسريانية ومرده إلى العلاقة السياسية ومجرى التيار الحضاري .

وقد أقبل كثير من الفرس على حذق اللغة العربية والتثقف بآدابها فقد عجب الجاحظ بموسى بن سيار الاسواري — أحد القصاص — فقال ومن أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجلسه المشهور فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره فيقرأ الآية في كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية (٧٧) . ويقول عنهم أحمد أمين ان هؤلاء الفرس الذين تعربوا وهؤلاء العرب الذين أخذوا بقسط من الثقافة الفارسية ملأوا الدنيا في العصر العباسي علماً وحكمة وشعراً ونثراً لسيادة اللغة العربية فكان نتاج العقول الفارسية الراجحة انما هو باللغة العربية لا الفارسية (٧٨) .

وقد عقد ابن النديم (٧٩) في كتابه الفهرست فصلا بأسماء النقلة من الفارسية إلى العربية ذكر منهم عبدالله بن المقفع وآل نوبخت وموسى ويوسف إبني خالد ومحمد بن الجهم البرمكي وزادويه بن شاهويه الأصفهاني ومحمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني وبهرام بن بن مردان شاه وعمر بن الفرخان الطبري واسحق بن يزيد الذي نقل إلى العربية كتاب سيرة الفرس المعروف باختيار ناما والبلاذري أحمد بن يحيي بن جابر المؤرخ المشهور وقد ترجم عهد أردشير شعراً ولم يعن المترجمون بترجمة وتعريب كتب تاريخ الفرس فقط بل عربوا

---

(٧٥) انظر رفاعي، عصر المأمون ص ١٦٣ ، حاشية (١) .

(٧٦) احمد امين فجر الاسلام ٢٦٣

(٧٧) الجاحظ، البيان والتبيين ج١ ص ١٣٩ .

(٧٨) احمد امين، ضحى الاسلام ج١ ص ١٨١ .

(٧٩) ابن النديم، الفهرست ص ٢٢٤ وما بعدها .

الكتب الدينية ككتاب زرادشت المسمى (الافستا) وما عليه من شروح ،كما ترجموا في الأدب عن الفرس كتاب كليلة ودمنة واليتيمة والأدب الكبير والصغير وكتاب (هزار أفسانة) ومعناه ألف خرافة وكتاب موبذ موبذان وكتاب اردشير في التدبير وتوقيعات كسرى وكتاب أدب الحرب (٨٠) .

وان ماترجم عن العبرية لايتعدى الاهتمامات الدينية اليهودية من ذلك ترجمة التوراة إلى العربية التي قام بها سعديا الفيومي المصري في عام ٣٣٠ هـ وهو أقدم من نقله إلى العربية ووضع عليها الشروح والتفاسير وذلك لسيادة اللغة العربية على مايبدو وان مانقل عن الهندية كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب وبعض كتب السحر (٨١) .

وأهم ماعرب من كتب الهند كتاب عرف (السند هند) لمؤلفه (براهماجوبتا) في حركات النجوم وأمر المنصور بترجمته إلى العربية وبأن يؤلف كتاب على نهجه وعهد بهذا العمل الى محمد بن ابراهيم الفزاري الذي ألف على نهجه كتاب يعرفه الفلكيون باسم (السند هند الكبير) وقاد هذا الكتاب إلى ابحاث كثيرة في الفلك ومنه أيضاً عرف العرب نظام الأرقام والأعداد الهندية (٨٢) .

لقد بدأت حركة تعريب واسعة النطاق في النواحي العلمية والثقافية في العصر العباسي الأول منذ خلافة المنصور الذي كان شغوفاً بالطب والهندسة ويعتقد بالنجوم وهو أول من راسل ملك الروم يطلب منه كتب الحكمة فبعث اليه كتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات (٨٣) وجمع حوله العلماء وشجعهم على ترجمة العلوم من اللغات الأخرى وقد عرب كل من جورجيس بن جبرائيل الطبيب وعبد الله بن المقفع كتب المنطق لأرسطو طاليس واعتنى يوحنا بن ماسويه وسلام الأبرش وباسيل المطران بكتب الطب (٨٤). وفي عهده قام ابراهيم الفزاري بتعريب كتاب الفلك الهندي الموسوم بـ (السند هند) (٨٥).

كما استهل أبو يوسف يعقوب الكندي (فيلسوف العرب) وأحد العقول الكبرى في تاريخ العالم آنذاك نشاطه الفكري الذي لم يقتصر على تعريف مواطنيه بالفلسفة الأرسطو طاليسية والأفلاطونية عن طريق الترجمة فحسب بل تعدى ذلك إلى توسيع آفاقهم العقلية بما أخرج

---

(٨٠) احمد امين ، ضحى الاسلام جـ١ ص ١٧٩ .

(٨١) شاكر مصطفى ، التعريب في الاسلام ص ٥٢ .

(٨٢) زيغريد هونكة ، شمس العرب تسطع على الغرب ص ٧٣، ٧٤ .

(٨٣) حاجي خليفة ، كشف الظنون جـ١ ص ٦٧١ .

(٨٤) انظر : رفاعي ، عصر المأمون جـ١ ص ٣٧٩ .

(٨٥) بروكلمان ص ٤٠٦ .

من دراسات في التاريخ الطبيعي وعلم الظواهر الجوية مكتوبة بروح تلك الفلسفة (٨٦) .

وقد زادت عناية الرشيد واهتمامه بتعريب الكتب فأمر بترجمة جميع ماوقع في حوزتهم من الكتب اليونانية كما وسع ديوان الترجمة الذي كان قد أنشأه المنصور لنقل العلوم الى العربية وزاد عدد موظفيها فأسند تعريب الكتب الى الطبيب يوحنا بن ماسويه وعين له كتاباً حذاقاً يشتغلون بين يديه ويساعدونه في عمله (٨٧) . وكان الفضل بن نوبخت المكنى بأبي سهل الفارسي ينقل كتب حكماء الفرس التي جمعت من خراسان وفارس الى العربية (٨٨) . ومثله علان الفارسي الذي كان يعمل في خزانة الحكمة ويترجم للرشيد وللبرامكة (٨٩) .

ولما تولى المأمون الخلافة اهتم بتعريب علم الأوائل واقتدى بسياسة والده الرشيد في اهتمامه بالعلوم واخذ يضمن شروط الصلح مع ملوك الروم ارسال كتب الحكمة فكان أحد شروط الصلح بينه وبين ميخائيل الثالث ان ينزل للمأمون عن احدى المكتبات الشهيرة في القسطنطينية وكان من بين ذخائرها الثمينة كتاب بطليموس في الفلك فأمر المأمون بتعريبه وسماه المجسطي (٩٠) . كما أنشأ بيت الحكمة وهو مجمع علمي ومرصد فلكي ومكتبة يقيم فيه طائفة من المترجمين من أهل الذمة وتجري عليهم الأرزاق من بيت المال . وأرسل المأمون بعد ذلك بعثة علمية لشراء كتب الحكمة من بلاد الروم مكونة من الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب دار الحكمة فأخذوا مما اختاروه عدداً كبيراً وحملوه الى بغداد فامرهم المأمون بتعريبها فاجتمع عنده في دار الحكمة مجموعة كبيرة من كتب الفلسفة والمنطق والموسيقى والفلك وغيرها (٩١) الى جانب كنوز العلوم الاسلامية (٩٢) . وما أضافه الرشيد والمأمون من كتب العلم في لغات مختلفة وما جمعه يحيى خالد من كتب الهند (٩٣) .

---

(٨٦) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٤٠ .

(٨٧) ابن القفطي ، اخبار الحكماء ص ٢٤٩ ،
ابن ابي اصيبعة ، ج١ ص١٧٥ ،
خليفة ، كشف الظنون ج١ ص ٦٨٠

(٨٨) ابن النديم الفهرست ص ٢٤٧ .

(٨٩) المجسطي : ومعناه الترتيب الكبير في علم الفلك وكان المرجع المهم في الفلك عند المسلمين وعند الاوربيين في القرون الوسطى (جواد علي تاريخ العرب قبل الاسلام ج١ ص ٦٨٠)

(٩١) ابن ، النديم الفهرست ص ٣٣٩ .

(٩٢) بروكلمان ، ص ٣٩ .

(٩٣) محمد فوزي الفتيل ، التربية عند العرب مظاهرها واتجاهاتها ص١ الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ .

وبلغت حركة التعريب أشدها في عهده اذ حرص على نقل مايتفق مع العقلية العربية الجديدة من التراث الهيليني والشرقي الى العربية ، فقد بلغ التمازج الثقافي بين الثقافة العربية الاسلامية الجديدة وعلوم الأولين درجة كبيرة من التقدم .ويرى البعض من المؤرخين(٩٤) ان ازدهار التعريب لايعطي للمأمون أكثر من كونه رمزاً للعصر وليس بالمحرك ولا الباعث له اذ لم يبق المأمون في بغداد أكثر من عشر سنوات بين ٢٠٤ — ٢١٤ وكان تشجيعه للعلماء في جانب كبير منه عملا سياسياً أكثر مما هو علمي وكان مافعله المأمون في هذا المجال انه وسع دائرة الترجمة الموجودة في البلاط العباسي فجعل من مهمة (خزانة الحكمة) وأصحابها تعريب الكتب الفلسفية أيضاً .

ويرى بعض المؤرخين (٩٥) أن المأمون قد تأثر بالاعتزال عن طريق استاذه ومؤدبه يحيى بن المبارك الذي كان قد اتصل به منذ صباه في ايام الرشيد بالاضافة الى انه كان محوطاً بشيوخ الاعتزال أمثال ثمامة بن اشرس ويحيي بن اكثم . أو انه أراد من اتخاذ الاعتزال مذهباً رسمياً للدولة أن يظفر بتكوين دولة موحدة سياسياً بامتزاج الاحزاب وتوحيد القوى لاستتباب الامن فكان يريد ان يتخذ من مذهبه الديني مذهباً وسطاً الا أنه لم يظفر بعنايته لامن الوجهة السياسية بانتهاء حياة الرضا بالموت مسموماً ولا من الوجهة الدينية التي لم ترض عنها المذاهب الاسلامية الاخرى .

وفي عهده ترجمت كتب اليونان الكبرى مثل كتب افلاطون وارسطو في الفلسفة وابقراط وجالينوس في الطب واقليدس وارخميدس وبطليموس وغير ذلك (٩٦) .

ان عنصر التعريب الحقيقي انما قادته جماهير المتعلمين والمترجمين عبر عهد المأمون في عهد المعتصم والواثق والمتوكل واستمر التعريب في عنفوانه وكثافته حتى اواسط القرن الثالث الهجري وان المد التعريبي لم ينقطع وقد استمر حتى اواسط القرن الرابع الهجري .

لقد ازدهرت حركة التعريب والترجمة على ايدي اهل الذمة الذين عكفوا على ترجمة وتعريب امهات الكتب السريانية واليونانية والفهلوية والسنسكريتية وكان ذلك بتأثير الخلفاء العباسيين الا انهم لم يكونوا وحدهم يهتمون بالترجمة والنقل إلى العربية بل نافسهم الوزراء والامراء والاغنياء واهل العلم واخذوا ينفقون الاموال الطائلة عليها (٩٧)

---

(٩٤) شاكر مصطفى ، التعريب في الاسلام ص ٤٧ — ٤٨ .
(٩٥) رفاعي ، عصر المأمون ص ٣٦٧ ، ص ٣٧٢ .
(٩٦) عبد المنعم ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية ص ١٤٧ ، ص ١٥٠ .
(٩٧) اليوزبكي ، تاريخ اهل الذمة في العراق ص ٣٨٢ .

قال ابن الطقطقي (٩٨) ان البرامكة شجعوا تعريب صحف الاعاجم حتى قبل ان البرامكة كانت تعطي المعرب زنة الكتاب المعرب ذهباً وبالغ الفتح بن خاقان وزير المتوكل في انفاق الاموال على الترجمة والتأليف ولم يكن محمد بن عبد الملك الزيات أقل منه سخاء في هذا وممن اشتهر بتشجيع حركة التعريب والتأليف من الاغنياء محمد واحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر المنجم الذين أنفقوا الأموال الضخمة في الحصول على كتب الرياضيات وترجمتها وكانت آثارهم قيمة في الهندسة والموسيقى والنجوم وقد أنفذوا حنين بن سحاق إلى بلاد الروم فجاءهم بطرائف الكتب وفرائد المصنفات (٩٩) .

وممن عرب لهم الكتب بالاضافة إلى حنين بن اسحق عيسى بن الحسن وثابت بن قرة وكانوا يرزقونهم في الشهر نحو خمسمائة دينار (١٠٠) .

ولو رجعنا إلى المصادر التاريخية التي تناولت تدوين اسماء النقلة لوجدنا اسماء جمهرة كبيرة منهم اضحوا يشكلون طبقة بارزة وواضحة في المجتمع العباسي يذكر بن ابي اصيبعة انه كان في بلاط الخلافة العباسية منهم ستة وخمسون رجلا من اهل المذاهب

واضطر النقلة إلى استخدام الكثير من المصطلحات والصيغ الاعجمية اليونانية والسريانية والفارسية والهندية على صبغتها الاجنبية على الرغم من أن التراجمة باللغة العربية ابكروا معظم الألفاظ والمصطلحات من العربية فان أعجزهم ذلك استعاروا الكلمات الاجنبية نفسها (١٠١) .

ومن آثار مشاركة الفرس في العصر العباسي في الادارة والدواوين والقيادة والامارة والاختلاط والتمازج بين العرب والفرس خاصة ان تسربت إلى اللغة العربية بعض الالفاظ الفارسية وذلك لان العرب المسلمين بعد الفتح الاسلامي وجدوا بعض أسماء الادوات والحاجات وأنواع المأكولات والملابس لايوجد لها مقابل في العربية فاضطروا إلى تعريبها أو أخذها كما هي بلغتها الاجنبية بما يتفق واللسان العربي (١٠٢) وساعد هذا الاختلاط أيضاً على نقل بعض تراث الفرس الحضاري في الادب والتاريخ والقصة كما قام من يجيد منهم اليونانية والهندية بترجمة كثير من أسماء الادوات والالفاظ اليونانية والهندية إلى العربية (١٠٣) .

---

(٩٨) ابن الطقطقي ، الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٣٥ .
(٩٩) انظر ابن النديم ، الفهرست ص ٣٤٠ .
(١٠٠) رفاعي ، عصر المأمون جا ص ٣٧٧ .
(١٠١) شاكر مصطفى ، التعريب في الاسلام ص ٥٤ .
(١٠٢) انظر احمد امين ، ضحى الاسلام جا ص ١٧٤ .
(١٠٣) اليوزبكي ، تاريخ اهل الذمة ص ٤٠٠ .

ونختتم بحثنا هذا بالقول ان نشاط حركة التعريب كان بدافع رسمي وشعبي وكان للاسلام أثر كبير في نجاح عملية تعريب الامم التي انتشر الاسلام فيها كما لعبت الحركات السياسية والفكرية والازدهار الثقافي والحضاري ورغبة بعض خلفاء المسلمين دوراً بارزاً ومهماً في توسع هذه الحركة وانتشارها بين اغلب الشعوب التي خضعت لدار الاسلام .

* مصادر ومراجع البحث *

المصادر الأصلية

ابن أبي أصيبعة — موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي ٦٦ هـ / ١٢٧٠م .
١ . (عيون الانباء في طبقات الاطباء) .
بيروت ، دار الفكر ، ١٩٥٦ .

ابن الاثير — أبي الحسن علي بن الكرم بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري والمكنى بعز الدين ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢ م .
٢ . (الكامل في التاريخ)
طبعة بولاق ١٢٩٠ هـ ، مصر .

ابن خلدون — عبدالرحمن المغربي ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م .
٣ . (المقدمة) .
مطبعة مصطفى محمد — القاهرة .

ابن شيت — ايليا مطران نصيبين
٤ . (كتاب المجالس السبعة (مخطوط)
وهو رسالة الوزير المغربي العباسي لمطران ايليا
من مقتنيات الاستاذ سعيد الديوهجي — الموصل .

ابن الطقطقي — فخر الدين محمد بن علي بن طباطبات ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩ م
٥ . (الفخري في الآداب السلطانية)
مطبعة محمد علي صبيح —القاهرة .

ابن القفطـــي
جمال الدين بن الحسن علي بن يوسف ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨م

٦٠ (تاريخ الحكماء) ويسمى (مختصر الزوزني)
من كتاب (أخبار العلماء بأخبار الحكماء)
طبع ليبزك ١٣٢٠ هـ .

ابن النديم
ابن النديم ت ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م

٧. (الفهرست)
سلسلة راوئع التراث العربي / مكتبة خياط / بيروت .

البلاذري
أحمد بن يحيي بن جابر ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م

٨. (فتوح البلدان)
نشر صلاح الدين المنجد
مطبعة الموسوعات ١٩٠١ القاهرة .

الجاحظ
ابي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ البصري ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨م

٩. (البيان والتبيين).
نشر مكتبة المثنى ، بغداد .

الجهشياري
محمد بن عبدوس ت ٣٣١ هـ

١٠ . (الوزراء والكتاب) .
مطبعة البابي الحلبي ، مصر ١٩٣٨ م

خليفة
مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة ت ١٠٦٧ هـ / ١٦٥٦ م

١١ . (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون)
دار المعارف التركية ١٩٤١ م

الدميري
كمال الدين ت ٨٠٨

١٢ . (حياة الحيوان الكبرى)
المطبعة الأميرية ، القاهرة ١٢٧٤ هـ .

الشهرستاني
ابي الفتح محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد
(ت ٥٤٨ هـ =١١٥٣م)
١٣ . (الملل والنحل)
تحقيق محمد سيد كيلاني
نشر مصطفى الباس الحلبي / مصر ١٩٦١

الماوردي
أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب المصري البغدادي
ت ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ م
١٤ . (الأحكام السلطانية والولايات الدينية)
مطبعة الوطن ١٢٩٨ هـ/القاهرة .

المقريزي
تقي الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥ هـ/١٤٤١ م
١٥ . (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار)
مطبعة بولاق / مصر
١٦ — (شذور العقود في ذكر النقود) نشر جيرارد ١٧٩٧ م

٢ — المراجع الحديثة

أمين
أحمد
١٧ (فجر الاسلام)
مطبعة لجنة التأليف ١٩٣٥ ط ٣ القاهرة .
١٨ . (ضحى الاسلام)
نشر دار الكتاب العربي ط ٣ بيروت

اوليري
دي لاسي
١٩ . (انتقال علوم الأغريق إلى العرب)
مطبعة الرابطة بغداد ١٩٥٨

بروكلمان
كارل
٢٠ . (تاريخ الشعوب الاسلامية) ط ٣
دار العلم للملايين — بيروت ١٩٦١

بارتولد
ف
٢١ . (تاريخ الحضارة الاسلامية)
ترجمة حمزة طاهر
ط ٣ طبع دار المعارف بمصر

الخربوطلي — علي حسني
٢٢ . (تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي)
دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م

در اور — الليدي
٢٣ . (الصابئة المندائيون)
ترجمة نعيم بدوي و غضبان رومي
مطبعة الارشاد — بغداد ١٩٦٩ م

ديمومبين — موريس غودفروا
٢٤ . (النظم الاسلامية)
ترجمة صالح الشماع و رفيقه
مطبعة الزهراء — بغداد ١٩٥٢

ديورانت — ول
٢٥ . (قصة الحضارة)
طبع الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية .

رفاعي — أحمد زيد
٢٦ . (عصر المأمون)
مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٨ م

الريس — محمد ضياء الدين
٢٧ . (الخراج والنظم المالية للدول الاسلامية)

زيدان — جرجي
٢٨ . (تاريخ التمدن الاسلامي)
طبع دار الهلال القاهرة

سديو — ل . أ
٢٩ . (تاريخ العرب العام) ترجمة عادل زعيتر
نشر البابي الحلبي / مصر ١٩٤٨

شاكر مصطفى
٣٠ . (التعريب في الاسلام)
مقالة بمجلة البيان الكويتية التي تصدرها رابطة الأدباء العدد ١١١ حزيران ١٩٧٥ .

علي سيد أمير
٣١ . (مختصر تاريخ العرب والتمدن الاسلامي)
ترجمة رياض رأفت .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٨ / القاهرة .

غنيمة يوسف رزق الله .
٣٢ . (نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق)
مطبعة الفرات — بغداد ١٩٢٤ م

لوبون غوستاف
٣٣ . (حضارة العرب)
ترجمة عادل زعيتر
مطبعة عيسى البابي الحلبي

ماجد عبد المنعم
٣٤ . (الحضارة الاسلامية في القرون الوسطى)

هونكة زيغريد
٣٥ . (شمس العرب تسطع على الغرب)
المكتبة التجارية بيروت

اليوزبكي توفيق سلطان
٣٦ . (تاريخ أهل الذمة في العراق)
رسالة دكتوراه غير منشورة.

37– E. Gibbon
The Decline and fall the Roman Empire (London 1911)

38– The Encyclopedia. of Islam (art Nahw)

39– The Jewish Encyclopedia . I. P. 16 U. S. A. 1951 .

40– Goiten
Tews and Arabs
New York 1955

الدكتور محمد أزهر السماك

دور البترول في تغيير المجتمع العراقي

نظراً لما تتمتع به دراسة الآثار المجتمعية للبترول هذه من مكانة هامة في الدراسات الجغرافية لاتقل أهمية عن النشاط الاقتصادي للبترول ذاته ، فان الدراسة التالية(١) ستتناول تحليل العلاقات المكانية بين البترول والمجتمع العراقي من خلال النقاط التالية :

١. البترول كعامل تغيير في المجتمع العراقي :

٢. دراسة مقارنة لحالة العراق قبل انتاج البترول وبعده ،(الدخل، النشاط الصناعي والكهرباء ، نظام المواصلات ،التعليم ،الخدمات الاخرى) :

٣. تطور التركيب الاجتماعي لسكان العراق (١٩٠٥ — ١٩٧٠) :

أولاً : — البترول كعامل تغيير في طبيعة المجتمع العراقي :

تخضع صناعة البترول في عملياتها المختلفة لأساليب فنية واقتصادية متطورة وحديثة لذا فانها تعتبر مصدراً هاماً لخلق وتنمية الافكار الاجتماعية العصرية وتقدمها وهذه المزية لصناعة البترول لا تقل أهمية عن البترول ذاته.وهذا يعني أن البترول هو عامل مهم في تغيير تركيب المجتمعات المختلفة ، بحكم طبيعة ظروف استغلاله وارتفاع دخله . أما اداة هذا التغيير فهي : الشركات المستغلة أولاً ، وعائدات حكومات دول الانتاج ثانياً لذا يمكن أن تكون شركات البترول الاجنبية بمثابة نوى رئيسية للاشعاع العلمي والفكري في مناطق نفوذها ، غير أن دورها هذا ليس بالامر المطلق في كافة مناطق انتاج العالم من البترول . إذ يتباين من قطر إلى آخر ،وهو يخضع لمتغيرات عديدة أهمها طبيعة الشركات المستغلة وأهدافها أولاً ، وعلاقاتها مع حكومات وشعوب مناطق امتيازها ثانياً . فشركات البترول عموما لا تهدف إلى أحداث تغييرات شاملة في بيئات مناطق امتيازها المختلفة ، وانما تقصر ذلك على مناطق الانتاج الفعلي في تلك البيئات بقدر ما يخدم هذا التغيير عمليات الانتاج ، بحجة أنها غير ملزمة في بنود امتيازاتها . (٢ ، ٣)

---

(١) بحث مستل عن رسالة الدكتوراه .

Finnie, D. H. "Desert Enterprise (the Middle East oil in its Local Environment " Cambridge,.Mass.)., 1958 pp. 67.70 and pp. 154 - 155 .

Bader, A. Y. and: "Manpower and oil in Arab" .

Siksek, S. Q. Countries, Economic Research Institute American University, Beirut (N. D.) pp. 78- 103 .

وهذا ينطبق بدرجة كبيرة على سلوك شركة نفط العراق و الشركات العاملة معها في العراق مقارنة بما قدمته شركة البترول الانكلوايرانية في ايران (١) والشركة العربية الامريكية (ARAMCO) العاملة في المملكة العربية السعودية (٢)

وإذا اتخذت هذه الشركات سياسة الاكتفاء الذاتي في انجاز عملياتها المختلفة ، لاسيما قبل تطبيق اتفاقية مناصفة الارباح عام ١٩٥٢ . وقد أصبحت مؤسسات هذه الشركات أشبه ماتكون «بجزر صناعية» منعزلة عن المحيط الذي تعيش فيه . فكانت تعمد إلى تغطية احتياجاتها المختلفة بالاستيراد من دولها مباشرة ، خاصة خلال ثلاثينات واربعينات هذا القرن . غير أن سياستها هذه تغيرت في مطلع الخمسينات حيث شرعت بتلبية متطلباتها من السوق المحلية الوطنية مباشرة . أو عن طريق المتعهدين الوطنيين ، فكانت عاملاً مهماً في نمو بعض الصناعات الوطنية : كصناعة الاسمنت وتنشيط التجارة المحلية ، اضافة إلى مد بعض خطوط المواصلات وتطويرها ، لاسيما السكك الحديدية ، كما سنرى فيما بعد . ومع ذلك ، فقد ظلت للشركات مساكنها الخاصة ومحطات توليد الكهرباء وتوفير المياه الصالحة للشرب ، ومراكز الخدمات الاقتصادية والاجتماعية والاعلامية والترفيهية المختلفة ، متناثرة في مناطق الانتاج المختلفة : في كركوك والموصل والبصرة اضافة إلى بغداد ومدن المحطات وموانيء التصدير داخل العراق وخارجه .

ويمكن حصر الشركات المباشرة هذا ، في المجالات التالية : السكن والتدريب والخدمات الصحية والاجتماعية والترفيهية ، وضمن حدود مناطق الانتاج فقط . ويجب الاشارة هنا إلى أن الشركات لا تهدف في تقديم تلك الخدمات إلا للعمال المهرة من الاجانب فهي تعمد إلى خلق بيئات محلية لهم تشابه بيئاتهم الاصلية في كافة مظاهرها الحضارية المتقدمة .

---

(١)

Hamilton, C. W. : "Americans and Oil in the Middle East ,"
Gulf Publishing Company Houston, Texas 1962, p. 103 .

(٢) لمعرفة التفاصيل عن المملكة العربية السعودية انظر جورج لونزوسكي : البترول والدولة في الشرق الأوسط / ص ٢٥٦ — ٢٥٨ .

وهي لذلك تجد نفسها مضطرة بحكم متطلبات العمل وظروفه البيئية الوطنية ، ان تقدم بعضاً من تلك الخدمات إلى العمال المحليين ، ولكن في نطاق اضيق بكثير ، ويؤكد ذلك ان كافة مراكز الخدمات اعلاه مصنفة إلى درجات طبقاً لمؤهلات منتسبيها ، واذا ما تذكرنا ان نسبة الاجانب كانت هي الغالبة (العمل الماهر) خلال سنوات الاستغلال الاولي فان ذلك يفسر لنا لماذا عمدت الشركات إلى تقليص نطاق خدماتها هذه ، خاصة بعد عام ١٩٥٨ كما سنرى .

السكن : كانت عمليات الاسكان تتمثل في اقامة معسكرات خاصة في جوار حقول الانتاج ، تؤمن فيها ضرورات الحياة والأمن ، ولم يكن هناك ما يدعوا للقيام بنظام خدمات النقل . إضافة إلى بناء دور خاصة للموظفين والمواطنين في ضاحية عرافة بمدينة كركوك وضاحية الماكينا في مدينة البصرة ، وفي عين زالة بمنطقة الموصل . وقد بلغ عددها جميعاً ٣٥٩ داراً . اعطي معضمها للموظفين المسيحيين « الآثوريين » لاسيما في منطقة عرافة والتي اضحت اشبه ما يكون بقرية مسيحية عصرية نموذجية ، مما جعل الموظفين المسلمين يؤثرون البقاء في باقي اطراف المدينة وسط اهاليهم ، إضافة إلى دور اخرى اقيمت في محطات الضخ كما سنرى .

غير ان الاحداث البترولية عام ١٩٥١ ، في منطقة الشرق الاوسط وغيرها ، والتي تمخضت عنها اتفاقية عام ١٩٥٢ ، جاءت لتحدث تغييراً هاماً في هذه الصور فقد الزمت الشركات في تهيئة مساكن خاصة لعمالها كافة ، وتطمين وسائل نقلهم إلى مراكز العمل فشرع قانون تمليك المساكن لعمال البترول كافة ، تتولى الحكومة فيه مهمة الاشراف عليه ، وقد بدأ العمل فيه عام ١٩٥٢ ،وقد استطاع هذا المشروع ان يؤمن إلى نهاية عام ١٩٧١ ، نحو ٣٩٢٨ داراً منها ٢٧٣٧ داراً في منطقة كركوك ، و٧٩٢ داراً في البصرة و١٠٧ داراً في الموصل ، و٢٩٢ داراً في بغداد (١) انشيء منها ٣٢٩٣ داراً خلال الفترة من (١٩٦١/٥٢) ، أي حوالي ٨٤٪ من اجماليها . وهذا يرجع إلى سياسة الشركات في تقليص عمليات نشاطها المختلفة ولا سيما بعد تشريع القانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٦١ ويؤكد ذلك انخفاض المصروفات السنوية لانشاء دور السكن هذه إلى نحو ٥,٠٠٠ ديناراً فقط عام ١٩٦٩ ، مقابل ٣٥٦,٣٠٠ وكذلك ٣٢٥,٩٠٠ دينار ، خلال عامي ١٩٦٠/٥٧ على التوالي ، كما يظهرها الجدول رقم (١) .

---

(1) Iraq, Basrah and Mosul Petroleum Companies. Review for 1970 and 1971.

جدول رقم (١)

المصروفات السنوية للشركات على انشاء دور السكن للسنوات ٥٧ / ١٩٦٩ ، (١)
بالاف الدنانير

السنة	المبلغ المصروف بالاف الدنانير	السنة	المبلغ المصروف بالاف الدنانير	السنة	المبلغ المصروف بالآف الدنانير
١٩٥٧	٣٥٦,٧	١٩٦١	١٠٠,٩	١٩٦٥	١٧,٠
١٩٥٨	٢٦١,٤	١٩٦٢	٧٠,٣	١٩٦٦	٥,٠
١٩٥٩	١٤٥,٨	١٩٦٣	١٢٩,٠	١٩٦٧	٤,٠
١٩٦٠	٣٣٥,٩	١٩٦٤	٩٢,٠	١٩٦٨	٥,٠
				١٩٦٩	٥,٠

التدريب : اخذت الشركات على عاتقها امر تدريب عمالها وموظفيها . لذا فقد أنشأت ثلاثة مراكز للتدريب الاول ، اقدمها (١٩٥١) واكثرها تنوعا في الاختصاصات ، (٢) يعرف بمركز تدريب كركوك ، والثاني في البصرة ، والثالث سيار يخدم عمال محطات الضخ والمناطق النائية الاخرى اضافة إلى بعثات التدريب في الخارج .

ومما لاشك فيه ان دور الشركات في هذا المجال هام في خلق وتنمية بذور التقدم التكنولوجي الحديث في مناطق العراق المختلفة ، والتي تحمل بين طياتها عوامل التغير المختلفة في تركيب المجتمع العراقي . والذي قد ينجم عن التفاعل بين عوامل بيئية متناقضة بيئة صناعية وعمالية متحضرة ومتطورة هي الشركات (بمراكز تدريبها وبعثاتها) ، وبيئة زراعية ريفية متخلفة ، هي مناطق العراق المختلفة .

الخدمات العامة الصحية والاجتماعية والترفيهية :

تتميز مناطق امتيازات شركات نفط العراق والبصرة والموصل بموقعها الجغرافي الممتاز بالنسبة للمراكز الحضرية في البلاد . لذا فهي لاتعمد إلى توفير كافة الخدمات الصحية بدرجة رئيسية وتمدد ماتلجأ إلى النقص الموجود في المؤسسات الصحية المحلية القائمـــــــــة

(١) الدكتور جواد هاشم : تطور هيكل الا ستثمارات ، من أبحاث مؤتمر البترول العربي الثامن ص١٨

(٢) شركة نفط العراق : مركز التدريب الصناعي في كركوك ، نوفمبر.. ١٩٥٥ ، ص ١-٢ . وكذلك : التدريب للمستقبل في شركة نفط العراق / وللتفاصيل عن هذا المركز انظر : د. صبحي خليل : التدريب والتعليم المهني الصناعي في العراق ، مجلة الصناعي / العدد ٣ / سبتمبر ١٩٦٢ / ص ١٣ - ١٥.

في مراكز كركوك والموصل والبصرة. ومع ذلك فقد أقامت شركة نفط العراق مستشفى صغيراً في مدينة كركوك عام ١٩٣٧ يضم (١٢٠ سريراً) ومستشفى آخر في محطة ك ٣ (حديثة) اضافة إلى عدة مراكز صحية ومستوصفات في كركوك والزاب الصغير ومحطات خطوط الانابيب اما شركتانفط البصرة والموصل فقد بنت الاولى مستشفى في الزبير (١٢٠ سريراً) ومستوصفاً في كل من ضاحية الماكينا والفاو بينما الثانية أنشأت مستشفى في عين زالة (١٦ سريراً) (١).

كما ان للشركات (١٢) مركزاً للخدمات الاجتماعية والترفيهية أربعة منها في البصرة واثنين في كركوك والباقي منها أصغر حجماً موزع على طول خطوط الانابيب الناقلة لبترول الحوض الشمالي، نصفه للخدمات الاجتماعية (التعليم) والباقي مراكز ترفيهية (نوادي وملاعب).

وعموماً فان مراكز هذه الشركات لم تأخذ في الاتساع منذ منتصف الخمسينات وحتى الآن، مما يفسر مرة أخرى ان هدفها ينحصر — في هذا المجال — في توفير الحد الادنى المطلوب من الخدمات العامة لتسهيل مهام عملياتها ليس الا، دون الاهتمام بتطوير البيئات المحلية لمناطق انتاجها. ومما يؤكد ذلك أيضاً ان مراكزها الاعلامية ونشراتها الخاصة (٢). وافلامها السينمائية وغيرها لاترمي من ورائها إلى نشر الثقافة والعلم في العراق وانما تخدم جانباً دعائياً يتماشى مع أهدافها ومخططاتها، محصوراً في مناطق الانتاج الفعلي، وعلى منتسبي هذه الصناعة الذين لاتتجاوز اعدادهم العشرة آلاف نسمة فقط.

نستخلص مما تقدم ان دور الشركات المباشرة في تغيير المجتمع العراقي كان يمكن ان يكون أفضل من ذلك بكثير لو ان هدف الشركات كان يتماشى مع ذلك ولو ان الامتيازات البترولية وتعديلاتها كانت تنص على ذلك. او لو ان الامتيازات البترولية كانت تنص على ذلك ولو من الوجهة القانونية لكي تلزمها الدولة في هذا المجال. ولعل في ظروف

(١) شركة نفط العراق والشركات العاملة معها في العراق: عملياتها وخدماتها في العراق ص ١١٨.
(٢) تتمثل نشرات شركات البترول العاملة في العراق بما يلي، (وباللغتين العربية والانكليزية):
أ — مجلة الاستعراض السنوي لعملياتها في العراق (١٩٥٢)، وتحت عنوان نفط العراق الاستعراض السنوي.
ب — مجلة (أهل النفط ١٩٥١)، وقد توقفت عن الصدور منذ عام ١٩٥٨.
جـ — مجلة (العاملون في النفط) (١٩٥٤)
د — المفكرة السنوية، (١٩٥٦).

العراق الثقافية والسياسية آنذاك ما يبرر طبيعة تلك الامتيازات وشروطها ، خلال سنوات ٢٥ ، ٣٢ ، ١٩٣٨ ، الا أن السنوات التالية كانت تحتم على المسؤولين آنذاك ضرورة تعديلها بما يمكن ان يحقق من نتائج اقتصادية واجتماعية هادئة لتطوير العراق وتقدمه ، غير ان تلك الاوضاع ظلت على حالها إلى ان صدر قرار التأميم رقم ٦٩ لسنة ١٩٧٢ ، تأميم شركة نفط العراق المحدودة .

وبالرغم من كل ماتقدم فان للبترول تأثيراً غير مباشر في تغيير المجتمع العراقي عن طريق عائداته واستثماراته في مختلف المجالات ، والتي انعكست مع الشركات في تغيير انماط حياة السكان في كافة ابعادها .

٢. دراسة مقارنة لحالة العراق العامة قبل انتاج البترول وبعده :

في هذا الجزء سنحاول تحديد معالم صورة التغيير التي طرأت على العراق ، بعد انتاج البترول فيه ، مع محاولة تحديد الوزن النوعي لمناطق انتاج البترول في عصر ماقبل البترول وبعده . غيران البيانات المتاحة يمكن الاعتماد عليها لقياس هذا الوزن لمناطق الانتاج باستثناء بيانات الدخل القومي وحتى الاخيرة لايتوفر عنها غير بيانات الدخل القومي عام ١٩٥٦ كتوزيع جغرافي يخدم دراستنا هذه ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان من الصعب — على الأقل في حدود هدف الدراسة هذه — تحديد دور البترول وآثاره في مناطق بغداد والبصرة والموصل ، نظرا لكونها تمثل مراكز نشاطات أخرى متعددة إلى جانب البترول ، فالأولى عاصمة البلاد وهي هدف النشاط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والعمراني في العراق . والثانية ميناء البلاد الرئيسي وعاصمة اقليمية للمنطقة الجنوبية ، أما الثالثة ، فهي عاصمة اقليمية للمنطقة الشمالية ، وما يترتب على ذلك من وجود فعاليات اقتصادية واجتماعية ناشطة أخرى قد تطغى على دور البترول فيها .

وعليه فان هذه الدراسة تتضمن : —

أ — تحديد وزن مناطق انتاج البترول من خلال بيانات توزيع الدخل القومي في العراق .

ب — تقييم حالة العراق قبل البترول وبعده ، وذلك طبقاً للمعايير التالية :

الدخل القومي ، النشاط الصناعي ، الطرق ووسائل النقل ، (السيارات والسكك الحديدية ، التعليم ، الخدمات الأخرى) . مع العناية ببيان الاختلافات المكانية بين منطقة بترولية (كركوك) واخرى غير بترولية (اربيل) ولكنهما يتشابهان في ظروفهما الجغرافية الاخرى تقريباً ، (١) حتى يمكن تحديد دور البترول في تنمية مناطق العراق المختلفة . أما ما يرتبط بموضوع التركيب الاجتماعي لسكان العراق فاننا سنفرد له بحثاً خاصاً ، فيما يلي لاهميته في الدراسات الجغرافية .

تحديد مناطق انتاج البترول من خلال بيانات توزيع الدخل القومي في العراق : —

من تحليل الجدول رقم «٢» نستنتج مايأتي : —

١. تعتبر كركوك المنطقة البترولية الاولى في العراق اذ يبلغ مجموع الدخل القومي بما فيه البترول فيها ٥١,٨٧٥ الف دينار ، اي نحو ١٥,٤٪ من اجمالي الدخل القومي بما فيه عائدات البترول في العراق عام ١٩٥٦ . في حين تهبط مساهمتها إلى اقل من النصف او زهاء ٦,٤٪ من اجمالي الدخل القومي العراقي بعد استبعاد عائدات البترول وهي(مع البترول)تحتل المرتبة الاولى بالنسبة لنصيب الفرد الواحد فيها من الدخل القومي ، الذي بلغ زهاء ١٣٥ ديناراً مقابل ٤٤ ديناراً باستثناء عائدات البترول ، وهي تشابه في ذلك اربيل اي حوالي ثلاثة امثال متوسط نصيب الفرد الواحد في العراق تقريباً (٢) . وهذا يرجع إلى كونها (كركوك) انتجت ٧٠٪ من بترول العراق عام ١٩٥٦ .

---

(١) تتشابه كركوك وأربيل مساحة (١٩,٥٤٣ و ١٥,٣١٥ كم٢ ، على التوالي) ، ويقعان ضمن خطوط عرض متقاربة ومتجاورة (٣٥ — ٣٧ شمالا) ، ضمن المنطقة شبه الجبلية في العراق ، باستثناء أقصى المناطق الشمالية لأربيل ، ضمن الجبال العالية ، وهما يخضعان لمناخ البحر المتوسط ، وتقع مراكزهما بعيداً عن مجرى مائي دائمي . وتعتبر الزراعة والرعي النشاط الاقتصادي الرئيسي لهما قبل البترول ، ويبلغ معدل الدخل القومي للفرد الواحد عام ١٩٥٦ نحو (٤٤ر٤٠) دينارا على التوالي باستثناء البترول ، وسكانهما (١٨٠،١٧٩) الف نسمة عام ١٩٦٥ عرباً واكرداً وتركماناً اضافة إلى أقليات أخرى ، كما سنرى ، وغير ذلك

(٢) صحيح أن بغداد تحتل المركز الأول في جملة الدخل القومي العراقي ، إلا أن ذلك ناجم عن وجود موارد أخرى مسؤولة عن هذه الظاهرة في العاصمة بغداد . أما الرمادي فقد استبعد الحديث عنها أيضاً ، لأنها لا تعتبر من مناطق الانتاج ، إلا انها تضم منشآت شركات البترول المختلفة ومحطات الضخ ومعمل تكرير (حديثة) . أما ارتفاع نصيب البترول في متوسط دخل الفرد الواحد فيرجع إلى قلة عدد السكان منها اضافة إلى قلة مواردها الاقتصادية فأكثر من ٩٠ ٪ منها يعتبر صحراء.

٢. تحضى البصرة بالمرتبة الثانية وهي منطقة بترولية ايضاً اضافة الى كونها ميناءاً بحرياً وعاصمة اقليمية ، كما اسلفنا ، وهي تساهم بنحو (١١,٥٪) من اجمالي الدخل القومي في العراق (مع البترول) مقابل ٨٪ فقط بعد استبعاد عائدات البترول ، وقد بلغ نصيب الفرد الواحد من الدخل القومي (مع البترول) نحو ٧٨ ديناراً مقابل ٤٣ دينار أبعد استبعاد عائدات البترول اي ان البترول مسؤول عن نصف معدل نصيب الفرد الواحد منها تقريباً . وتعزى هذه الظاهرة الى ان البصرة تساهم بنحو ٢٦٪ من انتاج البترول في العراق عام ١٩٥٦ .

٣. لا تساهم عائدات البترول في اجمالي الدخل القومي في محافظة الموصل (نينوى) الا بنسبة ضئيلة جداً . وعموماً فانها تساهم بنحو (٩,٢٪) من اجمالي الدخل القومي في العراق (مع البترول) ، ومقابل ١٠,٦) من اجماليه بعد استبعاد عائدات البترول . وهذا يعني ان تزايد الاهمية النسبية لهذه المحافظة يرجع الى وجود موارد اقتصادية أخرى فيها مسؤوله عن هذه الظاهرة ، منها ان الموصل تعتبر مركز تجمع اقتصادي رئيسي للمحافظات الشمالية في العراق .
هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ، فانها لاتساهم الا بحوالي ٤٪ من انتاج البترول في العراق (١٩٥٦) . اما معدل نصيب الفرد الواحد منها فيبلغ نحو ٤٢ ديناراً مقابل ٣٩ ديناراً تقريباً بعد استبعاد عائدات البترول .

٤. تساهم المحافظات البترولية الثلاث مجتمعة : كركوك والبصرة والموصل بنحو ٣٦٪ من اجمالي الدخل القومي في العراق (مع البترول) مقابل ٢٥٪ من اجماليه ، باستثناء عائدات البترول وهذا يدل على ان هذه المحافظات هي المسؤولة عن اكثر من ثلث الدخل القومي في العراق بينما تساهم المحافظات الاخرى (١١ محافظة) في الباقي .

٥. تتشابه المحافظات العراقية الاخرى في ضآلة اهميتها النسبية من اجمالي الدخل القومي العراقي والتي تتراوح بين ٢,٥٪ — ٥٪ ، كما ان نصيب الفرد الواحد فيها يقل عن متوسط نصيب الفرد الواحد من جملة العراق ، وهو يتراوح بـ ٢٢ — ٤٠ ديناراً .

* ب. تقييم حالة العراق العامة قبل انتاج البترول وبعده :

لقد ازداد الدخل القومي خلال سني تزايد الانتاج مع ارتفاع أهمية البترول النسبية بالمقارنة مع عناصر الدخل القومي الأخرى . وتشير التقديرات الأولى للدخل القومي في العراق الى أنه بلغ نحو ١٥٠ مليون ديناراً في مطلع الخمسينات (١٩٥٠ / ١٩٥١) (١)

اي ان متوسط نصيب الفرد الواحد يبلغ حوالي ٣٠ ثلاثون ديناراً ، لكنه مال نحو الارتفاع ، لاسيما بعد تطبيق اتفاقية مناصفة الارباح وتزايد الانتاج ، حتى بلغ نحو ٣٣٨ مليون ديناراً عام ١٩٥٦ أي بزيادة أكثر من ضعف ماكان عليه قبل خمس سنوات فقط . وبلغ متوسط نصيب الفرد الواحد نحو ٥٥ ديناراً . أي أقل من ضعف ماكان عليه بقليل، نتيجة لتزايد السكان . ثم واصل ارتفاعه حتى بلغ نحو ٨٢٧ مليون ديناراً عام ١٩٦٩ ، أي بمتوسط قدره ١٠٠ دينار تقريباً للفرد الواحد .

وكان من الطبيعي أن تزداد القوة الشرائية للافراد عامة نتيجة لنمو الدخل القومي هذا وبالتالي ارتفاع مستوى معيشتهم ، الى دجة أفضل بكثير مما كانت عليه قبل البترول . غير أن مناطق البترول كانت أكثر نصيباً في التطور الاقتصادي والاجتماعي من غيرها، واستثناء العاصمة بغداد فكركوك ، ، التي أصبحت مركزاً لعمليات شركة نفط العراق عام ١٩٣١ ، وقد انتفعت كثيراً من ذلك ، اذ اصبحت جاذبة لذوي الخبرات المتنوعة وساد المدينة نوع من الاطمئنان والرفاهية العامة (٢) ، كما سنرى .

وقد انعكس نمو دخل العراق هذا ، نتيجة لانتاج البترول ، في كافة مرافق الحياة ، لاسيما الصناعة والكهرباء ونظام المواصلات والتعليم والخدمات الاخرى ففي مطلع عشرينات هذا القرن لم يكن في العراق صناعة بالمفهوم العلمي لهذه الكلمة (٣) . ولم تكن صناعات البلاد تخرج عن كونها صناعات منزلية بسيطة ، وظلت الحالة كذلك حتى عام ١٩٢٧. ثم بدأت بعدها تلوح في الافق بعض وحدات الصناعات الحديثة . اذ تشير

---

(١) Central Statistical organziation : " National Income in Iraq 1956- 1956" p. 17 ·

(٢) Longrigg, S. H. : "Oil in the Middle East , London 1954 , p. 72.

(٣) Great Britain, Colonial office, . " Report to the League of Nations on Conditions in Iraq, ,, London 1926 p. 28.

جدول رقم (٢)

توزيع الدخل القومي في العراق سنة ١٩٥٦ (١) و (٢)

التسلسل	المحافظة	الدخل القومي الصافي (الف دينار)	٪ من اجمالي القطر	الدخل القومي (عدا البترول) الف دينار	٪من اجمالي القطر	عدد السكان بالآلاف	معدل دخل الفرد (مع البترول). بالدينار	معدل دخل الفرد عدا البترول). بالدينار	انتاج البترول الخام بملايين الأطنان .
١ —	الموصل	٣١,٠١٣	٩,٣	٢٨,٦٢٣	١٠,٦	٧٣٥	٤٢,٢	٣٨,٩	١,٠
٢ —	أربيل	١٠,٨٠٨	٣,٢	١٠,٨٠٨	٤,٠	٢٦٩	٤٠,٢	٤٠,٢	—
٣ —	كركوك	٥١,٨٧٥	١٥,٤	١٧,١٠٥	٦,٤	٢٨٣	١٣٥,٤	٤٤,٧	٢١,٠
٤ —	السليمانية	١١,٦٨٣	٣,٥	١١,٦٨٣	٤,٣	٢٩٥	٣٩,٦	٣٩,٦	—
٥ —	بغداد	١٠٠,٤١٣	٢٩,٧	٩٥,٦٩٨	٣٥,٦	٢٨٥	٧٨,١	٧٤,٥	—
٦ —	ديالى	١٢,٢٤٩	٣,٦	١١,٢٤٩	٤,٦	٣٢٦	٣٧,٦	٣٧,٦	—
٧ —	الرمادي	١٧,٥٠١	٥,٢	٧,٨٥٧	٢,٩	٢٤١	٧٢,٦	٣٢,٧	—
٨ —	الحلة	١٣,٣٧٥	٤,٠	١٣,٣٧٥	٥,٠	٣٤٨	٣٨,٤	٣٨,٤	—
٩ —	كربلاء	٦,٧٠٢	٢,٠	٦,٧٠٢	٢,٥	٢١٦	٣١,٠	٣١,٠	—
١٠ —	الكوت	٩,٤٦٢	٢,٨	٩,٤٦٢	٣,٥	٢٨٥	٣٣,٢	٣٣,٢	—
١١ —	العمارة	١١,٢٣٣	٣,٣	١١,٢٣٣	٤,٣	٣٢٥	٣٤,٦	٣٤,٦	—
١٢ —	الناصرية	٩,٨٦٦	٢,٩	٩,٨٦٦	٣,٧	٤٤٩	٢٢,٠	٢٢,٠	—
١٣ —	الديوانية	١٢,٥٨٠	٣,٧	١١,٥٨٠	٤,٧	٥٢٤	٢٤,٠	٢٤,٠	—
١٤ —	البصرة	٣٨,٨٧٢	١١,٥	٢١,٥١٤	٨,٠	٤٩٥	٧٨,٥	٤٣,٥	٨,٤
	جملة العراق	٣٣٧,٦٣٢	١٠٠,٠	٢٦٨,٧٧٣	١٠٠,٠	٦,١٧٦	٥٥	٤٣	٣٠,٤

عمل الباحث

١ — أخذت بيانات الدخل القومي عن :—

د. خير الدين حسيب : تقدير الدخل القومي في العراق ، بيروت فبراير ١٩٦٤ ص ٦٧.

البيانات المتاحة لعام ١٩٢٩ ان عدد المصانع قد بلغ نحو ثمانية فقط تستخدم ٨٢٠ عاملا(١) غير ان هذه الصورة تغيرت في السنوات التالية . ففي عام ١٩٦٠ ، بلغ عدد المصانع في العراق نحو ٩٧١ وتستخدم ٦٧,٢٢٠ عاملا ، وارتفع بعد عقد من الزمن تقريباً ١٩٦٩ الى ١٣٦٦ مصنعاً ، تستخدم ١٠٥,٨١٠ عاملا (٢) ، وليس من الممكن تفسير هذه الزيادة بمعزل عن البترول صناعة واستثماراً .

ويؤكد ذلك ان تطور مناطق انتاج البترول كان اسرع بكثير من المناطق الاخرى ، فكركوك واربيل مثلا ، كانتا محرومتين من الوحدات الصناعية الحديثة ، حتى عام ١٩٢٩ ، غير ان هذه الحالة تغيرت كثيراً تماماً الان . ففي عام ١٩٦٩ بلغ عدد مصانع كل منهما (كركوك واربيل) نحو ١٦,٤١ مصنعاً و١٧٧٣ وبلغ عدد العمال فيهما ٥٦١ عاملا على التوالي . اي ان حجم الصناعة في كركوك وحدات وعمالا يبلغ زهاء ثلاثة امثال ماعليه في اربيل – جدول رقم (٣)، رغم تشابههما جغرافياً .

جدول رقم (٣)

تطور عدد وحدات وعمال الصناعات التحويلية في العراق ، للسنوات ٢٩ / ١٩٦٩ (٣)

السنوات	عدد المصانع	(الوحدات)		عدد العمال		
المنطقة	١٩٢٩	١٩٦٠	١٩٦٩	١٩٢٩	١٩٦٠	١٩٦٩
كركوك	—	٢٣	٤١	—	٩٨٥	١٧٧٣
اربيل	—	٩	١٦	—	٢٨٠	٥٦١
جملة العراق	٨	٩٧١	١٣٦٦	٨٢٠	٦٧,٢٢٠	١٠٥,٨١٠

(١) وزارة الاقتصاد : المجموعة الاحصائية السنوية لسنة ١٩٢٩ .
(٢) وزارة التخطيط : الاحصاء الصناعي الشهري لسنة ١٩٦٩/٦٠ ، عدة جداول .
وزارة التخطيط : احصاءات الجيب السنوية للسنوات ١٩٦٧/٥٧، ص ٩٠، ص٩٨، ٩٩ .
(٣) عمل الباحث : أخذت بيانات الجدول اعلاه من :
– الحكومة العراقية ، وزارة الاقتصاد : المجموعة الاحصائية لسنة ١٩٢٩ .
– معهد الدراسات الاقتصادية : كتاب الاحصاء عن دول الشرق الأوسط، القدس ١٩٤٥، ص٨٤
معهد الدراسات الاقتصادية : كتاب الاحصاء عن دول الشرق الأوسط ، القدس ١٩٤٥ ، ص٤ .
وزارة التخطيط : احصاءات الجيب السنوية ١٩٦٧/٥٧ ، ص ٩٠ – ٩٩ .
– وزارة التخطيط : المجموعة الاحصائية لسنة ١٩٦٩.

ولعل استهلاك الطاقة الكهربائية يمكن ان يكون معياراً أكثر وضوحاً لقياس حالة العراق، في هذا المجال .

جدول رقم (٤)

تطور استهلاك الطاقة الكهربائية في العراق (١) خلال السنوات ٢٩ ـ ١٩٧٠

الف كيلو واط

السنوات / المناطق	١٩٢٩	١٩٤٧	١٩٥١	١٩٥٢	١٩٥٦	١٩٧٠
كركوك	غيرمتوفر	١٦,٢٢٥	١٦,١٠٣	١١٢,٠٨١	٢٤٧,٤٥١	٤٧٩,٦٢٤
اربيل	غيرمتوفر	٤٠٠	٧٨٩	١,٨٥٥	٤,١٥٠	٣٠,٠٤٠
جملة العراق	١٨,٠٠	٥٨,٥٧٢	١٤٦,٩٠١	٢٠٧,٣١٨	٥٠٦,٣٧٧	٢,١١٥,٤٨٩

فأجهزة توليد الكهرباء لم تكن موجودة في العراق قبل الحرب العالمية الاولى وقد انشئت في ايام الحرب (٢) . ونمت ببطء شديد . ففي عام ١٩٢٩ لم يتجاوز مجموع الطاقة الكهربائية المستهلكة في العراق الـ ١٨,٠٠٠ الف كيلو واط . وقد كان معظم هذه الطاقة يستهلك من قبل شركات البترول وفي المراكز الحضرية الرئيسية : بغداد وكركوك والبصرة

(١) عمل الباحث :

– الحكومة العراقية : المجموعة الاحصائية السنوية لسنوات ١٩٥١/٤٧ و١٩٥٢ و ١٩٥٦ و ١٩٧٠ .

(٢) كاتلين (م.، لا نكلي : تصنيع العراق / ص ٢١٢ .

والموصل (١) غير ان نمو انتاج البترول في العراق واتساع نطاق عمليات البحث والتنقيب : قد أديا الى زيادة الاستهلاك . فقد بلغ اجمالي المستهلك من الكهرباء عام ١٩٥٢ نحو ٢٠٧,٣١٨ الف كيلواط مقابل ٥٨,٥٧٢و١٤٦,٩٠١ خلال عامي ٤٧ – ١٩٥١ على التوالي . ظفرت كركوك بنحو ٢٧٪و٤٧٪و٥٤٪ منها ، خلال السنوات ٤٧و٥١و١٩٥٢ على التوالي . في حين لم تحظ أربيل سوى بحد ٠,٧٪و٠,٦٪ و٠,٥٪، خلال السنوات المذكورة آنفاً على التوالي أيضاً .

واذا كانت الاهمية النسبية لكركوك في تزايد – في هذا المجال – فان هذا يرتبط تماماً بزيادة انتاج البترول فيها ، اضافة الى التطور العام الذي تشهده هذه المنطقة بالقياس مع اربيل وغيرها من مناطق العراق الاخرى ، بحكم وجود البترول فيها (٢) .

وقد كان توزيعها الجغرافي على النحو التالي :

توزيع استهلاك الطاقة الكهربائية في بعض المحافظات العراقية عام ١٩٥٣ (*)

المحافظة	للانارة	للصناعة والسكك الحديدية	لشركات البترول	المحافظة	للانارة	للصناعة والسكك	لشركات البترول
بغداد	٤١,٦٦٧	١١,١٠٠	٥٥٦	الرمادي	٩٥٤	٤٠٠	١٤,٦٤٠
الموصل	٣,١٤١	١,٠٩٦	٤٨٠	ديالى	١,٠٥٩	٦٠٠	٦٤٠
البصرة	٨,٩٩٧	٢٥٠	٧,٥٦٠	كركوك	٤٢٥	٥٢٠	٥٦,٢٥٠
أربيل	٧٩٨	٣٥٥	—	—	—	—	—

(١) نفس المصدر : ص ٢١٣ .

(٢) كان استهلاك الطاقة الكهربائية عام ١٩٥٣ في العراق ، موزعاً على النحو التالي :
٦٧,٧٨٥ ألف كيلوواط للانارة.
و ١٦,٢٧٥ الف كيلوواط الصناعة والسكك الحديدية .
و ٧٩,٧٢٦ لأغراض شركات البترول .

(*) عن كاتلين ، أم ، لانكلي : المصدر السابق ، ص ٢١٦.
أخذته عن :
White,J. G.: “Engineering Corporation Report to Iraq Development Daard, Baghdad 1959

ومع استثمار عائدات البترول لتوليد الطاقة في برامج مجلس الاعمار في العراق ، وانتاج البترول في البصرة والموصل فقد اطرد استهلاك الطاقة الكهربائية . اذ تضاعف مرتين ونصف خلال اقل من اربع سنوات وقد حافظت كركوك على مكانتها من جملة العراق ، ثم واصلت برامج التنمية اللاحقة في العراق اهتمامها في توليد الكهرباء اضافة الى تزايد انتاج البترول حتى بلغ اجمالي استهلاك الطاقة الكهربائية عام ١٩٧٠ نحو ٢,١١٥,٤٨٩ الف كيلو واط . استهلك ربعها تقريباً (٢٣٪) في كركوك حين لم تظفر اربيل الا بحوالي ١,٤ ٪ منها فقط ولعل مايفسر تناقص الاهمية النسبية لكركوك بين اجمالي القطر هنا هو التطور العام الذي شهده العراق بعد تزايد عائداته البترولية لاستغلال وتنمية موارده اولا ، وتزايد انتاج البترول في البصرة والموصل (بدرجة اقل) ثانياً ..

وقد تكون دراسة لتطور اطوال طرق السيارات واعدادها والسكك الحديدية دالة هامة لدراسة حالة البلاد قبل البترول وبعده . الجداول (٥، ٦):

جدول رقم (٥)

تطور اطوال طرق السيارات للسنوات ١٩٣٠/١٩٦٩ (بالكيلو مترات)

السنة	المبلطة حديثاً	المبلطة قديماً	الترابيـة	المجموع
١٩٣٠ (١)	١٧٠		٤,٣٣٠	٤,٥٠٠
١٩٥٠	١,٥٦٠	٣١٠	٣,١٣٠	٥,٠٠
١٩٦١ (٢)	١,٩٥١	١,٦٣٢	٢,٢٢٦	٧,٨٠٩
١٩٦٩	٢,٧٥٦	٢,٠٣٦	٣,٨١٣	٨,٦٠٥

عمل الباحث

(١) Great Britain, Colonial office,: "Special Report on the progress of Iraq" H.M.O.London 1931,P. 139.

لا نكلي : تصنيع العراق ص ١٨٣ – ١٨٥ .

(٢) وزارة التخطيط : احصاءات النقل البري في العراق ١٩٦٩/٦٠ – ص١٤٠ .

جدول رقم (٦)

تطور عدد السيارات في العراق للسنوات ٢٧ / ١٩٦٩) (١)

السنة	كركوك	اربيل	جملة العراق
١٩٢٧	غير متوفر	غير متوفر	٢,٤٩٦
١٩٣٤	غير موفر	غير متوفر	٩,٠٢٨
١٩٦٠	٥,٤٠٠	١,١٠٠	٩٠,١٧٣
١٩٦٩	٧,٠٦٤	١,٨٣٣	١٠٥,٩٣٤

عمل الباحث

فلم يكن في العراق من الطرق في بدايةالعشرينات الا الدروب التي تسلكها قوافل الحيوانات المختلفة . ولم تكن السيارات مستعملة قبل ١٩١٤ ، وكان استعمال مركبات الركوب وعربات النقل ينحصر في الطرق الترابية الرئيسية (٢) وقد ادخل استعمال السيارات في العراق اثناء الاحتلال البريطاني له . وقد استلزم هذا الامر تهيئة طرق صالحة لسيرها . فرصفت بعضها بالحجارة في منطقة البصرة بالذات . اما الباقي فكان دروباً ترابية ليس الا . وقد ظلت كذلك حتى عام ١٩٣٠ . اذ بلغ مجموع اطوالها عامة نحو (٤,٥٠٠) كم ، لم يتجاوز المبلط منها حديثا الا(١٧٠ كم) فقط ، تربط بين المدن الاربع الرئيسية في البلاد : بغداد والبصرة والموصل وكركوك . وبعد زيادة موارد العراق المالية بعد

(١) المجموعة الأحصائية السنوية لسنة ١٩٣٤/٢٧ ص ٨٩وص١١٧ على التوالي .
وكذلك وزارة التخطيط : احصاءات الجيب السنوية للسنوات ٥٧/١٩٦٧ ص ١٥٦ .
(٢) الدكتور سعيد حمادة : النظام الاقتصادي في العراق ص ٢٠٢ – ٢٠٣ .

اكتشاف وانتاج البترول — شرعت ثلاثة مناهج للاعمار اتخذت من طرق النقل هدفاً لها . غير انها كانت عاجزة عن تنفيذ برامجها كاملة . ومع ان مجموع اطوالها لا يتجاوز ٥,٠٠٠ كم عام ١٩٥٠ الا أنها شهدت نمواً هاماً في أطوال الطرق المبلطة حديثاً والتي بلغت نحو ١,٥٦٠ مقابل ١٧٠ كم فقط عام ١٩٣٠ (١) . ولعل مايفسر هذه الزيادة في نمو الطرق الحديثة اضافة إلى زيادة الموارد المالية ، انتاج البترول تجارياً في العراق . فقد هيأ مادة رصف رخيصة للطرق اولا واستلزمت عمليات الشركات في البحث والانتاج السرعة في المواصلات ثانياً اضافة إلى فقر منطقة السهل الرسوبي في العراق في التكوينات الصخرية الضرورية لبناء الطرق الحديثة .

وفي عام ١٩٦١ ارتفع مجموع اطوالها إلى ٧,٨٠٩ كم نصفها من الطرق المبلطة تقريباً . غير ان السنوات التالية (١٩٦٩) شهدت نمواً ملحوظاً في هذا الخصوص . اذ ارتفع مجموع اطوالها إلى ٨,٦٠٥ كم ، وقد ارتفعت أطوال الطرق المبلطة حديثاً فيها إلى ٦,٧٥٦ كم ، مقابل ١٩٥١ كم عام ١٩٦١ .

وقد ارتبط تطور اطوال الطرق هذه بنمو اعداد السيارات فيها العراق فلم يكن في العراق عام ١٩٢٧ ، سوى ٤٩٦ , ٢ سيارة ، ارتفع عام ١٩٣٤ إلى الضعف تقريباً وكان ذلك مقروناً باكتشاف البترول ، وبدء الانتاج التجاري من حقول كركوك ، وارتفع عام ١٩٦٠ إلى نحو ٦٠,١٧٣ سيارة وبلغ عام ١٩٦٩ نحو ١٠٥,٩٣٤ سيارة منها ٧٠٦٤ سيارة في كركوك مقابل ١,٨٢٣ في اربيل أي نحو اربعة امثالها تقريباً . وهذا يقترن بطبيعة نشاطها البترولي ومظاهر وجوده المختلفة .

بيد ان السكك الحديدية في العراق قد حظيت باهتمام اكبر من سابقتها ، جدول رقم (٧) تحت تأثير الحرب العالمية والبترول معاً .

---

(١) يونس الدباغ : الطرق في العراق ، المؤتمر الهندسي العراقي الثامن ١٣ — ١٧ . يناير ٦٧ مطبعة المعارف / بغداد / ص٤ .

جدول رقم (٧)

تطور اطوال وحجم اعمال السكك الحديدية في العراق للسنوات ٢٧ / ١٩٧٠ (١)

للسنة	الطول بالكم	حجم البضائع المنقولة بالاطنان	نصيب بضائع شركات البترول بالاطنان
١٩٢٧	١,٣٦٠	١٨٥,٠٠٠	٧٥,٥٠٠
(٢) ١٩٣٦	١,٢١١	٥٥٠,٠٠٠	١٣٥,٥٠٠
(٣) ١٩٥٨	٢,٠٥٠	٢,٩٥٠,٠٠٠	٩٥,٠٠٠
١٩٧٠	٢٥٢٨	٣,٨٩٠,٠٠٠	٤٣,٠٠٠

ولامكانية السكك الحديد في نقل البضائع الثقيلة التي تتطلبها عمليات انتاج البترول فقد مدت خطوط السكك الحديد إلى مناطق انتاج البترول الاولى (كركوك) وكان ذلك عام ٩٢٧ .

وقد ساهمت بنقل ٧٥,٥٠٠ طن من بضائع شركات البترول اي نحو ٤٠٪ من اجمالي منقولات السكك الحديد في العراق للعام المذكور ، وارتفعت عام ١٩٣٦ إلى نحو ١٣٥,٥٠٠ طن ، وترتبط هذه الزيادة في توسيع عمليات البحث عن البترول والاعداد لانتاجه ونقله الا ان السنوات التالية شهدت انخفاظاواضحاً في حجم بضائع شركات البترول ، لاسيما

(١) عمل الباحث : —
اخذت ارقام عام ١٩٢٧ عن المجموعة الاحصائية لسنة ١٩٢٧ . واخذت ارقام ١٩٣٦ عن الدكتور سعيد حمادة : المصدر السابق ص ٥٧٧ ، وقد اخذها عن : إدارة السكك الحديدية التقرير السنوي : مارس ١٩٣٦ / . اما ارقام ١٩٥٨/١٩٧٠ فانظر : —
— وزارة التخطيط : احصاءات النقل البري ص ٣٩ . والمجموعة الاحصائية لسنة ٩٧٠/ ص ٣٨٦ .

(٢) يرجع سبب هبوط اطوال السكك الحديد عام ٩٣٦ الى رفع عدة خطوط كانت تخدم مدن وسط العراق كخط الكوت ، بغداد ، بلغ مجموع اطوالها نحو ٦٠٠ كم .
انظر المجموعة الاحصائية السنوية لسنة ١٩٣٦ . ود. سعيد حمادة : المصدر السابق ، ص ٣١٣ — ٣١٤ .

(٣) اخذت ارقام شركات البترول ٥٨/١٩٧٠ عن : مقر شركة نفط العراق . الشعبة الاحصائية (جداول النقل والمواصلات) — بغداد — غير منشور ١٩٧١ .

بعد عام ١٩٥٨ (ثورة تموز) ، وبعد ان عمدت الشركات إلى تقليص نطاق عملياتها العراق بعد تشريع القانون رقم ٨٠ لسنة ١٩٦١ .

والجدير بالاشارة ان خطوط السكك الحديدية في العراق كانت حتى عام ١٩٥٨ من القياس المتري (الضيق) عدا خط بغداد / الموصل ، وتسير القطارات بمكائن بخارية ، الا أن برامج وضعت — بعد الثورة — لتوحيدها طبقاً للقياس العريض العالمي اسوة بالخط المذكور آنفا ، وقد استعيض عن المكائن البخارية بمكائن الديزل تستخدم الوقود الذي ينتج محليا من معامل التكرير في العراق ، وفعلا فقد تم ذلك بالنسبة للخطوط الرئيسية ، وذلك لتفادى تكاليف التفريغ والتحميل ولتقلل من تكاليف النقل ، وما يترتب على ذلك من خفض تكاليف النقل عموما ، لذا فان نمو اطوالها لايمكن الركون اليه على علاته ، كما يبدو في الجدول السابق ، اذ ان حجم طاقتها الثقيلة قد ارتفع من نحو ثلاثة ملايين طن إلى اربعة ملايين طن تقريبا خلال عامي ٥٨ / ١٩٧٠ على التوالي .

وقد يكون من المفيد دراسة العلاقة بين تطور الخدمات التعليمية في العراق ، وانتاج البترول فيه ، طالما ان للتعليم قدرة على تغيير الكيان الاجتماعي للبلاد . وعليه فان الجدول رقم (٨) يمثل اداة تحليلية لتحقيق هذا الهدف .

جدول رقم (٨)

تطور عدد الطلاب في العراق للسنوات ١٩١٣/ ١٩٧٠ (١)

المنطقة	١٩١٣	١٩٢١	١٩٢٧	١٩٣٤	١٩٥٠	١٩٥٧	١٩٧٠
كركوك	غيرمتوفر	غيرمتوفر	١,٢٦٢	٤,٥٢٠	٢١,١٧٠	٢٦,٤٠٠	٦٧,٧٨١
أربيل	غيرمتوفر	غيرمتوفر	١,٠٤٥	٣,٠٢٠	٦,٤٤٦	٩,٧١٦	٣٨,٢١٤
جملة العراق	٦,٠٠٠	٨,٠٠١	٢٨,٤٢٦	٦٥,٤٢٤	٢٠٧,١٣٦	٤٤٠,٨١٠	١,٤٥٥,٩١٠

عمل الباحث

(١) اخذت ارقام عام ١٩١٣ عن كاتلين ، ام ، لانكلي ، : المصدر السابق ص ٢٠٧ وأرقام ٢١/١٩٣٤ عن تقارير المصارف السنوية للسنوات ٢٢/١٩٢٣ – ص١–٦ ، و ٢٧/٢٨ – ص١–٨ و ٣٣/١٩٣٤ ص١–٢ .
وكذلك الحكومة العراقية : الدليل العراقي لسنة ١٩٣٦ ص٥٦١–٥٦٨ ، والمجموعة الاحصائية السنوية للسنوات ٥٧/١٩٧٠ .

فلم يكن عدد الطلاب (١) يتجاوز عام ١٩١٣ أبان الحكم العثماني ٦٠٠٠ طالباً اضافة إلى اعداد اخرى تتلقى اصول الكتابة والقراءة والدين تعرف بالكتاتيب (٢)،وقد نما عدد الطلاب خلال السنوات ١٣/١٩٢٧ حتى بلغ ٢٨٤٢٦ طالباً وقد ارتفع عام ١٩٣٤ إلى نحو مرتين ونصف ماكان عليه عام ١٩٢٧. ثم قفز هذا الرقم عام ١٩٥٧ إلى نحو نصف مليون طالب تقريباً وقد جاء ذلك لاشباع عمليات النشاط البترولي وتزايد عائداته . فلا غرابة ان تضم كركوك نحو ٢٦،٤٠٠ طالباً مقابل ٤،٥٢٠ في عام ١٩٣٤ بينما بلغ عدد الطلاب في اربيل ٩،٧١٦ مقابل ٣،٠٢٠ عام ١٩٣٤ أيضاً ، اى ان النسبة المئوية لمعدلات النمو السنوية في كركوك تبلغ اكثر من ضعف الثانية (اربيل) بدليل (٢١ ٪ للاولى و ٩،٩ ٪ للثانية) .

وفي عام ١٩٧٠ بلغ عدد الطلاب في العراق نحو مليون ونصف مليون تقريباً اى زهاء ثلاثة امثال ما كان عليه عام ١٩٥٧ ضمت ، كركوك ٦٧،٧٨١ طالباً اى حوالي اقل من ضعف طلاب محافظة اربيل بقليل مما يؤكد دور البترول المباشر في نمو الاولى مقارنة مع الثانية . ويدل على ذلك ان اعداد الطلبة فيها عام ١٩٢٧ ، وهي النسبة الاولى لبدء الاكتشاف البترولي في كركوك كانت متشابهة تقريباً ١،٢٦٢ للاولى و ١،٠٤٥ للثانية) وعموماً فان النمو السريع والمتزايد لعدد الطلاب جملة في العراق، للسنوات ٣٤/١٩٧٠ ، لايمكن تعليله الا من خلال وجود البترول فيه واستثماره . ولكن هل ادى البترول رسالته كاملة في هذا المجال ؟ ان الاجابة عن هذا السؤال تكمن في الجدول رقم (٩) فمنه تتضح ان نسبة الأمية جملة في العراق طبقاً للبيانات المتاحة (احصاء ١٩٥٧) تبلغ نحو ٨١،٨ ٪ تنخفض في مدينة البترول (كركــوك) إلى حوالي (٦٥،٩٪) مقابل ٧٥ ٪ في مدينة اربيل .

---

(١) اكتفى هذا البحث في اظهار التطور العام لعدد الطلاب في العراق دون الدخول في التفاصيل كمراحل التعليم، وربطها بفئات الاعمال وتقييم التعليم بأنواعه وما الى ذلك ، لان هذه الدراسات بعيدة عن اهداف بحثنا هذا .

(٢) لانكلي المصدر السابق—ص٢٠٧ .

جدول رقم «٩»

توزيع نسبة الامية والتعليم في مدينتي كركوك واربيل وجملة العراق عام ١٩٥٧ (١)

المنطقة	عدد السكان	اقل من ٥ سنة	اميون	يقرأ فقط	يقرأ ويكتب	ذوي مؤهلات علمية	نسبة (٢) الامية ٪
مدينة كركوك	١٢٠,٤٠١	٢٣,٠١٦	٦٣,٧٩٠	١,٤٩٨	٢٦,١٧٣	٥,٩٢٥	٦٥,٩
مدينة اربيل	٣٩,٩١٣	٧,٥٥٨	٢٣,٧٧٥	٤٦٨	٦,٦٠٥	١,٥٠٧	٧٥
جملة العراق	٦,٣٣٩,٩٦٠	١,٢٢٥,٤١٠	٤,٧٩,٨٦٣	٣٥,٦٧٢	٧٣٤,٩٥٨	١٦٤,٠٥٧	٨١,٨

وعلى الرغم من ان هذه هي حقيقة ثمار التعلم في العراق حتى عام ١٩٥٧ اي بعد ثلاثة عقود من انتاج البترول فيه الا ان هذا لايمكن ان نعني به البترول ان لم يؤدي رسالته بالشكل المطلوب . وهذه الظاهرة لها مبرراتها، منها إنه لم يمض غير نصف عقد من الزمن فقط على تطبيق مبدأ مناصفة الارباح اولا . وضآلة حجم الانتاج وبطء نمو معدلاته ، لاسيما في العقدين من هذه الفترة ثانياً ، وتأكيد مجلس الاعمار على قطاع الزراعة والري إضافة إلى ضآلة حجم استثماراتها عامة ثالثاً ، ومع ذلك فان هذه المبررات تعكس — إلى حد كبير — التحكم الاجنبي في انتاج البترول في العراق واستغلاله طبقاً لما تمليه مصلحة الشركات ذاتها . دون الاكتراث بما يلحق بثروات العراق الطبيعية والبشرية من آثار خطيرة مما يستلزم ايقاف هذا الاستغلال والتحكم بالسيطرة الوطنية المخلصة على هذه الموارد كاملة وتخطيط انتاجها واستثمارها تخطيطاً امثل .

---

(١) عمل الباحث :

وزارة الداخلية : مديرية النفوس العامة : المجموعة الاحصائية لتسجيل عام ١٩٥٧ . الاجزاء التالية : الجزء الخاص عن كركوك واربيل — ص ١٧٠

اربيل والسليمانية / ص ٢٤٥

العراق والجاليات العراقية — ص ١٦٤ .

عن : دار التضامن للتجارة والطباعة والنشر — بغداد .

(٢) استخرجت نسبة الامية بعد طرح اللذين اعمارهم اقل من ٥ سنوات .

اما بالنسبة لمراكز الخدمات العامة كالفنادق ودور السينما والمصارف والمطاعم والمقاهي والخ) .. فان نموها – كما يستدل من الارقام المتاحة لعامي ٥٧ / ١٩٧٠ (١) – يظهر تطوراً سريعاً على مستوى القطر عامة والمحافظات فقد ارتفع عدد المشتغلين فيها الى نحو ١٢٠,٠٠٠ شخصاً عام ١٩٧٠ مقابل ٤٦,٤٣٢ شخصاً عام ١٩٥٧ ، كان نصيب كركوك منها ضعف اربيل اذ بلغ عدد المشتغلين فيها (كركوك) عام ١٩٥٧ نحو ٢٢٩٣ شخصاً ارتفع الى حوالي ٩,٧٠٠ شخصاً عام ١٩٧٠ مقابل ١,٤٢٠ شخصاً عام ١٩٥٧ وهذا يرجع الى طبيعة النشاط الاقتصادي السائد في كركوك وتطوره السريع بالمقارنة مع اربيل . بحكم وجود شركات البترول وعملياتها المختلفة .

اضف الى ماتقدم ان نمو عدد أجهزة الهاتف يمكن ان يؤخذ معياراً على تطور البلاد وتقدمها أيضاً ، ففي سنوات ما قبل البترول أي عام (١٩٢٧) بلغ عددها ٩٤٨ ارتفع (٢) ببطء الى ٢٨,٥٤ (٣) عام ١٩٣٤ ولكنها تضاعفت اكثر من ١٧ مرة عام ١٩٦٣ حيث بلغت ٤٩,١٠٤ جهازاً منها ٢,٧٠٣ في كركوك مقابل ٤٧٢ جهازاً فقط في اربيل ، ثم واصلت ارتفاعها حتى بلغت ٨٢,٤٠٦ جهازاً عام ١٩٧٠ (٤) كان نصيب كركوك منها ٣,٤١٥ مقابل ٩٣٥ فقط في اربيل وهذا يعني ان كركوك تضم اكثر من ثلاث مرات ونصف ماتضمه اربيل أي بمعدل جهاز لكل ٣٥ نسمة في كركوك ، مقابل جهاز لكل ٤٣ نسمة في اربيل وهذا يدل على التطور الاقتصادي والاجتماعي السريع لمنطقة كركوك بالمقارنة مع اربيل طالما ان هذا المعيار يمكن ان يكون مؤشراً نافعاً لقياس المستوى المعاشي والثقافي والاجتماعي .

زد على ما تقدم ان هناك مقاييس أخرى يمكن ان تتخذ لقياس حالة العراق قبل البترول وبعده من خلال تقييم مناطقه المختلفة ، الا ان نقص البيانات في البعض منها (٥) ، قد الزمنا في الاكتفاء بتوضيح اهمها وفي حدود ما يخدم منها دراستنا هذه ، وهي تكفي لتكوين ابعاد الصورة المراد تكوينها في هذا الخصوص .

---

(١) وزارة التخطيط : المجموعة الاحصائية السنوية لسنة ١٩٧٠ . / واحصاءات الجيب السنوية للسنوات ٥٧ / ٩٦٧ / ص ٢٠٨ .

(٢) المجموعة الاحصائية السنوية لسنة ١٩٢٧ – ص ٥٩ .

(٣) المجموعة الاحصائية السنوية لسنة ١٩٣٤ – ص ٨٢ .

(٤) المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٧٠ – ص ٤٠٥ .

(٥) انظر مقدمة الرسالة .

نستخلص مما تقدم ان البترول قد لعب دوراً هاماً في تغيير مقومات الحياة العامة في العراق . وفي منطقة كركوك – أقدم مناطق الانتاج وأغزرها – بالذات بحكم متطلبات عمليات الانتاج المتعددة .

وان ما حققه البترول في نمو في مجالات الحياة المختلفة كالمواصلات والتعليم كان كفيلا بخلق وتطوير مفاهيم اجتماعية جديدة . وقد انعكس ذلك في طبيعة التركيب الاجتماعي للسكان وتطوره وفي المفاهيم العامة للمجتمع العراقي (قيمه وعاداته وتقاليده) ، كما سنرى كما ان هذا التطور في مقومات الحياة قد نما بسرعة أكبر بعد تطبيق مبدأ مناصفة الأرباح عام ١٩٥٢ ، والذي الزم الشركات المنتجة بضرورة انتاج – حد ادنى لكل منها – اضافة الى شروط أخرى كان اهمها تطبيق مناصفة الارباح وزيادة عائدات الدولة وتوجيهها – وهو أقل بكثير مما كان ينبغي لها – لتطوير العراق وتقدمه

٣ – تطور التركيب الاجتماعي لسكان العراق (١٩٠٥/١٩٧٠)

لتحديد تاثير البترول على تطور التركيب الاجتماعي لسكان العراق فاننا سنعمد الى دراسة
أ. التطور العام للتركيب الاجتماعي لسكان العراق خلال السنوات ١٩٠٥ / ١٩٧٠
ب. توزيع سكان الريف والحضر في العراق بين عامي ٥٧ / ٩٦٥ (١) .

أ. التطور العام للتركيب الاجتماعي لسكان العراق (١٩٠٥ / ١٩٧٠) :

ينقسم سكان العراق اجتماعياً الى ثلاث مجموعات سكان البدو والريف والحضر . يقصد بالسكان البدو : الجماعات المتنقلة في مساحات شاسعة من الارض بحثا عن الماء والكلأ وتعتمد في حياتها على الجمال وتعيش في الخيام . (٢) اما سكان الريف فهم الذين يحصلون على معاشهم عن طريق حرفتي الزراعة والرعي مهما اختلفوا في درجة استقرارهم

---

(١) التزمنا ببيانات تعداد السكان الرسمية وهي لعامي ٥٧ / ١٩٦٥ ، اما ارقام ١٩٧٠ الواردة في الفقرة أ ، فهي تخمينات لوزارة التخطيط – كما سنرى

(٢) لمعرفة التقسيمات المختلفة لجماعات البدو وخصائص كل منها ، انظر : –
United Nations : (Nomadic populations in selected countries in the Middle East, And Related Issues of Sedentarization and Settlementl, Studies on Selectel Development Problems in Various Countries in the Middle East, New York 1970,pp. 105,106).

واستيطانهم ، بينما يعتبر سكان الحضر جميع القاطنين في المراكز الحضرية التي يزيد عدد سكانها عن ٥,٠٠٠ نسمة . (١)

جدول رقم «١٠»

تطور التركيب الاجتماعي للسكان في العراق ١٩٧٠/١٠٥ (البدو ــ الريف ــ الحضر) بالآلاف(٢).

السنة	السكان البدو		السكان الريفيون		السكان الحضر		المجموع	
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
١٩٠٥	٣٩٣	١٧	١,٣٢٤	٥٩	٥٣٣	١٤	١,٣٥٠	١٠٠
١٩٣٠	٣٣٤	٧	٢,٢٤٦	٦٨	٨٠٨	٢٥	٣,٣٨٨	١٠٠
١٩٤٧	٢٥٠	٥	٢,٧٠٢	٥٧	١,٨٦٤	٣٨	٤,٨١٦	١٠٠
١٩٥٧	٦٥,٧	١	٣,٧٨٣	٥٩	٢,٤٤٥	٤٠	٦٦,٣٠٣	١٠٠
١٩٦٥	٤١,٠	٠,٠٥	٤,٦١٤	٥٦	٣,٦٠٧	٣,٩٥	٨,٢٦٢٤	١٠٠
١٩٧٠	غير متوفر	—	٣,٩٨٨	٤٢,٤	٥,٤٥٢	٧,٨٧	٩,٤٤٠٥	١٠٠

(١) اشترط احصاء عام ١٩٥٧ ان يكون في المركز الحضري . دائرة بلدية ، ان هذا التحديد يعرف بالتحديد الاداري والحقيقة ان لاالتعريف الاداري ولا العددي ولا حتى الوظيفي يمكن التسليم به على علاته لخدمة الدراسات الجغرافية المتخصصة في هذا المجال اذ لا بد من ان تخضع لدراسات ميدانية دقيقة ووفق معايير احصائية مختلفة لاختيار المعايير اللازمة . للتفاصيل انظر : الدكتور محمد السيد غلاب . ويسري عبد الرزاق الجوهري : جغرافية الحضر دراسة في تطور الحضر ومناهج البحث فيها . الطبعة الاولى دار الكتب الجامعية / الاسكندرية / ١٩٧٢ / ص ٤٤ — ٦٠ وكذلك :

Freeman, Tw : "Geography and planning," Hutchinson University Libray, third edition, London 1967, pp. 76-84.

عمل الباحث

اخذت ارقام ١٩٠٥ و ١٩٣٠ عن :-

الدكتور محمد سلمان حسن : التطور الاقتصادي في العراق ص ٥٣ و ص ٥٥ وقد اخذها عن :

Dawson, H., : Inquiry into Land Tenture and other Related Questions in Iraq," London 1891,p.12

(٢) اما ارقام ٤٧ و ٥٧ و ١٩٦٥ فقد اخذت عن :

مديرية الاحوال المدنية : الاحصاء الرسمي لعام ١٩٤٧ و ١٩٥٧ (بأستثناء الجاليات العراقية في الخارج) وملخص تعداد عن ١٩٦٥ .

اما ارقام ١٩٧٠ فهي تخمينية عن :

وزارة التخطيط : تقييم النموالاقتصادي في العراق ٥٠ / ١٩٧٠ / ج ١ / ط / ٢ ص ٢١٢.

ولتوضيح الاتجاه العام لتطور التركيب الاجتماعي هذا ، سنستعين بالجدول رقم (١٠) ومن تحليله نستنتج : (١)

ان هناك ثلاثة اتجاهات عامة يمكن ملاحظتها خلال الفترة (١٩٠٥ / ١٩٧٠) وهي :

الاول : ضالة عدد السكان البدو وتناقصهم المطلق والنسبي في العراق . فقد انخفض عددهم من ٣٩٣ الف نسمة عام ١٩٠٥ الى نحو ٤١ الف نسمة عام ١٩٦٥ ، وتناقصت الاهمية النسبية من ١٧٪ . من سكان العراق الى نحو ٠,٠٥٪ . فقط ..

والثاني : التزايد المطلق والنسبي لسكان الحضر. فقد بلغ عددهم نحو ٥٣٣الف نسمة عام١٩٠٥ ارتفع الى ٣,٦٠٧و٥,٤٥٢ الف نسمة عامي ٦٥ / ١٩٧٠ على التوالي . وقد صاحب ذلك ارتفاع في الاهمية النسبية من ٢٤٪ عام ١٩٠٥ الى نحو ٤٤٪ و٥٧,٨٪ . من اجمالي سكان العراق خلال العامين المذكورين .

والثالث : الارتفاع المطلق في اعداد سكان الريف حتى عام ١٩٦٥ مع تذبذب الاهمية النسبية بالنسبة لجملة سكان العراق خلال السنوات ١٩٠٥/١٩٤٧ ثم الميل الواضح نحو الهبوط خلال السنوات ١٩٦٧/٥٧ فقد ارتفع حجم سكان الريف من ١,٣٢٤ الف نسمة عام ١٩٠٥ الى نحو ٤,٦١٤ الف نسمة عام ١٩٦٥ ، غير ان الاهمية النسبية بلغت عام ١٩٤٧ نحو ٥٧٪ مقابل ٥٩٪ و٦٨٪ خلال سنتي ١٩٠٥و١٩٣٠ على التوالي ، ولكنها ما لبثت ان ارتدت خلال تعدادات السنوات التالية حتى بلغت نحو ٥٩٪ و٥٦٪ خلال عامي ٥٧و١٩٦٥على التوالي .

ويمكن تمييز ظاهرتين ضمن الاتجاه الاول : قبل عام ١٩٣٠ وبعده اي قبل البترول وبعده ، ففي عصر ما قبل البترول كانت مشروعات تنمية البادية (٢) هي المسؤولة عن

---

(١) ان الأرقام الواردة عن عامي ١٩٠٥ / ١٩٣٠ ماهي الا أرقام تخمينية ، لذلك فهي تتفاوت في درجة الخطأ المحتملة وعلية فان الاعتماد عليها للمقارنة الدقيقة امر غير مؤكد فهي لاتوضح غير الاتجاه العام لتطور التركيب الاجتماعي للسكان فقط .

(٢) لا يمكن اعتبار ذلك هدفاً اساسياً من أهداف الدولة وان كان بعضها قد أدى إلى التوطين الفعلي لجماعات البدو خاصة حول الابار الارتوازية التي حفرت في تلك المناطق عام ١٩٢١ . انظر : صلاح محمد الفرال : تنمية المجتمعات الصحراوية (تطبيقات ميدانية) ط ١ القاهرة ١٩٦٨ مكتبة القاهرة الحديثة ص ١٧٧ / ١٧٨ .
و : الدكتور نوري خليل البرازي : البداوة والاستقرار في العراق / معهد البحوث والدراسات العربية العالية / القاهرة / ١٩٦٩ — ص ١١٨ .

انخفاض اعداد البدو في العراق . اضافة الى تأثير مد سكة حديد بغداد — بيجي — الموصل فقد تحولت اعداد هامة من البدو الى الزراعة والاستقرار في المناطق الريفية خاصة قبيلة شمر في محافظة الموصل . كما ان احتكاك البدو ببعض المظاهر الحضرية خلال نزولهم الى المدن لاكتيال احتياجاتهم منها كان سببا في ظهور متطلبات مادية جديدة اصبح تطمينها لا يتكافأ مع امكانية الصحراء والاقتصاد البدائي السائد فيها . (١)

غير ان البترول قد لعب دوراً اكبر من ذلك بكثير خلال الفترة ٣٠ / ١٩٥٧ خاصة بالنسبة لبدو المنطقة الشمالية : العرب والاكراد ، فعلى الرغم من ان عمليات النشاط البترولي المختلفة التي تمارسها شركات البترول المستغلة غريبة عن مجتمع البدو الا انهم قد تأثروا فعلا . لقد كان لعمليات البحث عن البترول ومد الانابيب وطرق المواصلات المختلفة وبناء محطات الضخ وغيرها في البادية العراقية دور كبير في احداث تغييرات هامة طرأت على معالم البداوة العراقية متمثلة في احتكاك البدو بعمال البترول وهم يمارسون عمليات نشاطهم وفق اساليب فنية حديثة ومتطورة في اراضيهم اوعن طريق انخراطهم في اعمال شركات البترول كعمال غير ماهرين او كحرس لمنشات الشركات ذاتها كما كان عليه حال قبيلة شمر في البادية الشمالية عام ٥٠ / ١٩٥١ (٢) ، حيث شكلت وحدة خاصة من قوات الشرطة الوطنية للقيام بهذه المهمة او بواسطة المتاجرة مع عمال الشركات . كل ذلك هيأ فرصاً للاحتكاك الحضري بين مجتمع قبلي بدائي متخلف ومجتمع حضري حديث ومتطور فتعرف البدو على وسائل حضرية مادية ، وافكار وعادات وتقاليد ، لم يكن قد الفوها في مجتمعهم لكنهم قد تأثروا ببعض منها مما عمل على تغيير نمط حياتهم ، فترك بعضهم حياة البداوة الى الاستقرار والتحضر .

---

(١) Fannig , L. M. : "Foreing Oil and the Free World, First edition, Mc Graw-Hill Book Company INC. / No date

وكذلك فاضل الانصاري : سكان العراق ، دمشق / ١٩٧٠ / ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٢) جورج لوتزوسكي : المصدر السابق / ص ١٤٩ — ١٥٠ .

ومما زاد من فاعلية شركات البترول كعامل تغيير في حياة السكان البدو هو ان اعمالهم استغرقت وقتاً طويلا في بيئاتهم . فمد الانابيب الناقلة للبترول مثلا – قد استمر منذ عام ١٩٢٧ حتى عام ١٩٦١ . والابعد من ذلك ان الشركات قد بنت على طول امتداد هذه الانابيب محطات الضخ التي تعتبر بمثابة نوى لمدن عصرية حديثة ، وهي مزودة بكافة مظاهر البيئة الحضرية الحديثة ومتطلباتها ومرتبطة مع بعضها بطرق مرصوفة بالزفت إضافة إلى وجود مطار في اكبرها وفي (ك٣) داخل البادية العراقية . وقد كانت هذه الظواهر مدعاة لحذر البدو – اول الامر – وترددهم في التعامل مع انماط الحياة العصرية الحضرية الجديدة هذه(١) الى غير انهم ضربوا خيامهم حول تلك المنشآت الحضرية الحديثة للانتفاع من خدماتها والتزود بضرورات الحياة كالماء وغيره فبدأ التفاعل بينهما ، وقد قرب هذا التفاعل المسافات بين البدو ونشر بينهم الكثير من ظواهر البيئة الحضرية الحديثة وانعكس ذلك في تغيير قيم المجتمع البدوي ومبادئه ونظمه وتقاليده وعاداته فانتقل ولاؤه من القبيلة وشيخها إلى الدولة ذاتها والقومية ايضاً لاسيما بعد ان الغي قانون العشائر عام ١٩٥٨ (٢) . واصبح البدو جزءاً من سكان العراق اجتماعياً وسياسياً بعدما فرضت الدولة سلطانها عليهم فكانت اداة جوهرية للتغيير الحضري في انماط حياتهم . وان الدور الرئيسي الذي لعبه البترول في تغيير نمط حياة بعض من السكان البدو يمكن ان يكون دليلا على امكانية توطين هؤلاء الجماعة كافة ، وتحويلهم إلى قطاع اقتصادي منتج وفعال طالما انهم قد تقبلوا مفاهيم المجتمعات الحضرية هذه وتأثروا بها فعلاً ، ولم يبق من مظاهر مجتمعهم الاولى غير لهجاتهم التي يتحدثون بها) (٣) .

(١) صلاح مصطفى الفوال : البداوة العربية والتنمية / مكتبة القاهرة الحديثة / القاهرة ١٩٦٧ / ص ٢١٠ / [illegible]

سكان العراق للعامين المذكورين ، والتي بلغت قرابة ٦٪ و٥,٦٪ على التوالي بينما لاتساهم اربيل سوى بنحو ٣٪ و٣,٧٪ من اجمالي السكان الحضر في العراق على الرغم من انها تضم نحو ٤,٤٪ من اجمالي سكان العراق عامي ١٩٦٥/٥٧ أيضاً . ومهما تكن دقة بيانات التعدادين المذكورين فان نسبة زيادة نسبة سكان الحضر في المناطق البترولية تعتبر ظاهرة جغرافية حتمية وهي اشبه ما تكون بظاهرة (الطفح المدني والحضري) على اعتبار ان مناطق التعدين والنشاطات الاخرى المتصلة تكون بمثابة مراكز جذب لهجرة السكان الريفيين إلى الحضر للعمل فيها او للتمتع بخدماتها ومباهجها وما قد يترتب على ذلك من آثار سيئة تهدد الانتاج الزراعي خاصة والاقتصاد

واذا كان ما تقدم يمثل الدور المباشر للبترول في تغيير انماط الحياة في المجتمع العراقي والذي يمثل اساساً في حياة جماعات البدو ، فان سكان العراق الريف والحضر قد تأثروا ايضاً بهذا المورد وآثاره ، فأرتفاع اعداد السكان الريفيين إضافة إلى تأثير العوامل الديموغرافية يرجع إلى تحول اعداد هامة من جماعات البدو إلى ممارسة الرعي والزراعة وبالتالي العمل على زيادة اعداد الجماعات الريف بصورة مطلقة وشبيه هذا يصدق — بدرجة رئيسية — على الفترة ١٩٥٧/٤٧ على اعتبار انها شهدت تنفيذ معظم مشروعات الري المختلفة والسيطرة على الفيضانات وما يترتب عليها من زيادة فرص الانتاج الزراعي ونموه. يؤكد ذلك ان برامج مجلس الاعمار الثلاثة التي شرعت خلال النصف الاول من الخمسينات كانت تولي هذا القطاع اهمية كبيرة ومتزايدة كما رأينا في حينه. ويبدو تأثير البترول هنا لو علمنا ان عائداته هي المسؤولة عن تخطيط تلك البرامج وتنفيذها لاول عن ميلاد مجلس الاعمار ذاته .

غير ان الاهمية النسبية لسكان الريف قد تناقصت فيما بعد . وهذا يرجع إلى تزايد الاهمية النسبية للسكان الحضر على حساب الريف . إضافة إلى بطء معدلات النمو السكاني الذي شهده سكان الريف خلال الفترة ١٩٧٠/٥٧ والتناقص خلال السنوات ٦٥ / ١٩٧٠ طبقاً لما تتيحه البيانات فقد بلغت نسبة الزيادة لسكان الريف خلال الفترة ١٩٥٧/٤٧ نحو ٤٠٪ مقابل ٣٢٪ بالنسبة للسكان الحضر بنسبة ٤٧٪ بينما لم يزد سكان الريف الا بنسبة ٢١٪. وفي الفترة ١٩٧٠/٦٥ ارتفع سكان الحضر بنسبة ٥١٪ بينما نقص سكان الريف بنسبة ١٥٪ وهذا يرجع إلى تزايد الهجرة من الريف إلى الحضر نتيجة لاسباب طبيعية وبشرية لاسيما بعد الثورة — لاداعي لتفصيلها — وقد تمثلت في قوتين الاولى : طاردة من الريف إلى الحضر والثانية : جاذبة إلى الحضر .

فقد جذبت الحياة الحضرية — بكافة مظاهرها واغراءاتها — اعداداً كبيرة من سكان الريف والبدو اليها فازداد سكان الحضر بصورة مطلقة ونسبية من حوالي ١,٨٦٤ الف نسمة عام ١٩٤٧ إلى ٢,٤٤٥ الف نسمة عام ١٩٥٧ ، اي بمعدل زيادة سنوية تبلغ نحو ٣,٢٪ ، بينما زاد مجموع السكان بمعدل سنوي قدره ٢,٦٪ فقط ، اما خلال السنوات التالية ١٩٦٥/٥٧ فقد بلغ معدل نسبة الزيادة السنوية نحو ٦,٠٪ اما ما يناظر هذين المعدلين بالنسبة لسكان الريف فيقدر بنحو ٤٪ و ٢,٤٪ على التوالي . وعموماً فان نسبة زيادة سكان الحضر خلال الفترة ١٩٧٠/٤٧ بلغت نحو ١٩٣٪ مقابل ٤٧٪ للسكان الريفيين

خلال نفس الفترة ، ومن هنا يمكن ان ندرك مدى التضخم الذي ستشهده المراكز الحضرية في العراق على حساب الريف وما قد ينجم عن ذلك من مظاهر سلبية اجتماعية واقتصادية لذا فان هذه الظاهرة جديرة بالعناية والاهتمام من قبل الدولة ، وان تفسير هذه الظاهرة يرتبط بنمو المراكز الحضرية وتطورها ولا سيما بعد ما خصصت عائدات البترول لتنمية البلاد وتطويرها فكانت هذه المراكز هدفاً لتلك المشروعات في برامج العهد الجمهوري كافة ،والتي انعكست في اهتماماتها في قطاعي الصناعة والخدمات : تخصيصاً وتنفيذا – إضافة إلى فقر الريف العراقي واهماله إلى درجة محزنة (١) .

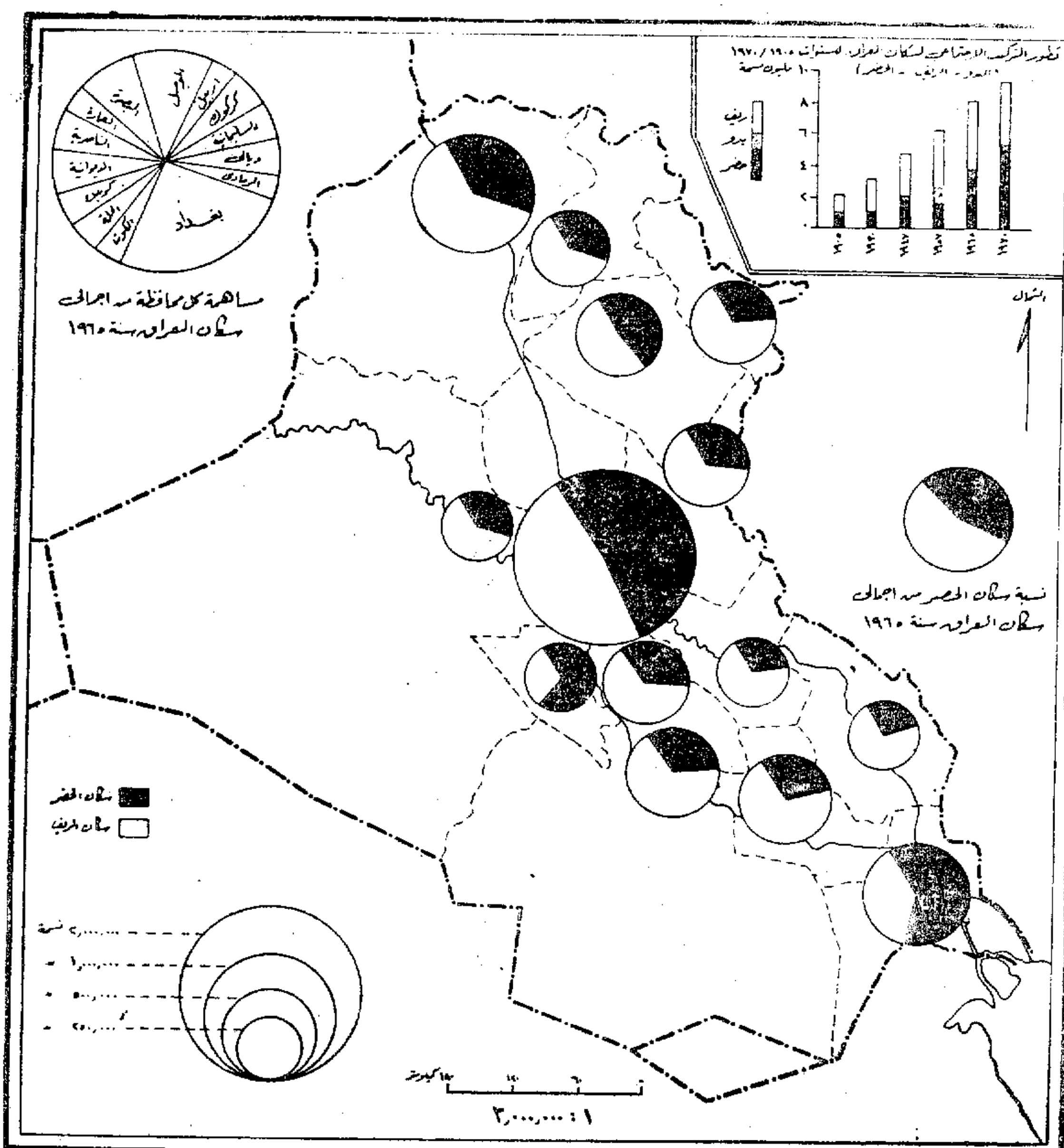
وعموماً فان البترول قد اثر في تركيب المجتمع العراقي وطبيعته بصورة مباشرة وغير مباشرة ولكن تأثير هذا لايتناسب تماماً مع عمر الانتاج فيه وغزارة احتياطيه فلا زالت الرواسب القبلية سائدة في بعض مناطق الريف ، وحتى ضمن وحدات من المراكز الحضارية إضافة إلى التخلف الحضري الذي يميز المجتمع العراقي باسره باستثناء مراكز الحضر الرئيسية مما يدعو المسؤولين في العراق إلى ضرورة السيطرة الوطنية على هذا المورد حتى يتسنى احداث التغيير الافضل والشامل للمجتمع العراقي .

• ب . توزيع سكان الريف والحضر في العراق بين عامي ٥٧ / ١٩٦٥

تعقيباً على ما تقدم فان البترول قد لعب دوراً في التوزيع الجغرافي للسكان الريف والحضر في العراق ويتضح ذلك من خلال جدول رقم (١١) الاشكال المرقمة . (٦١/ ٦٢) اذ يتركز السكان الحضر في محافظات بغداد والموصل والبصرة وكربلاء وكركوك اذ سيطر مجتمعة على نحو ٦٩٪ و٦٦٪ من اجمالي سكان الحضر في العراق عامي ٥٧ / ١٩٦٥ على التوالي . في حين لاتضم اكثر من ٥٠ ٪ و٥٥ ٪ من اجمالي سكان العراق خلال العامين المذكورين على التوالي،وهي بذلك تتفوق على جملة العراق في هذاالمجال إذ لم تتجاوز نسبة السكان الحضر في البلاد عامة ٤٠٪ و٤٤ ٪ خلال العامين المذكورين على الترتيب ايضاً. ويرجع ذلك إلى ان تلك المحافظات تضم اكبر المراكز الحضرية في العراق واكثرها تطوراً وما يمكن ان توفره من عناصر جذب يندر وجودها في المناطق الاخرى بحكم تراكيبها الوظيفية،فبغداد عاصمة العراق ، والموصل والبصرة : مراكز تجميع للمنطقتين الشمالية والجنوبية إضافة إلى وجود البترول فيهما في حين ان

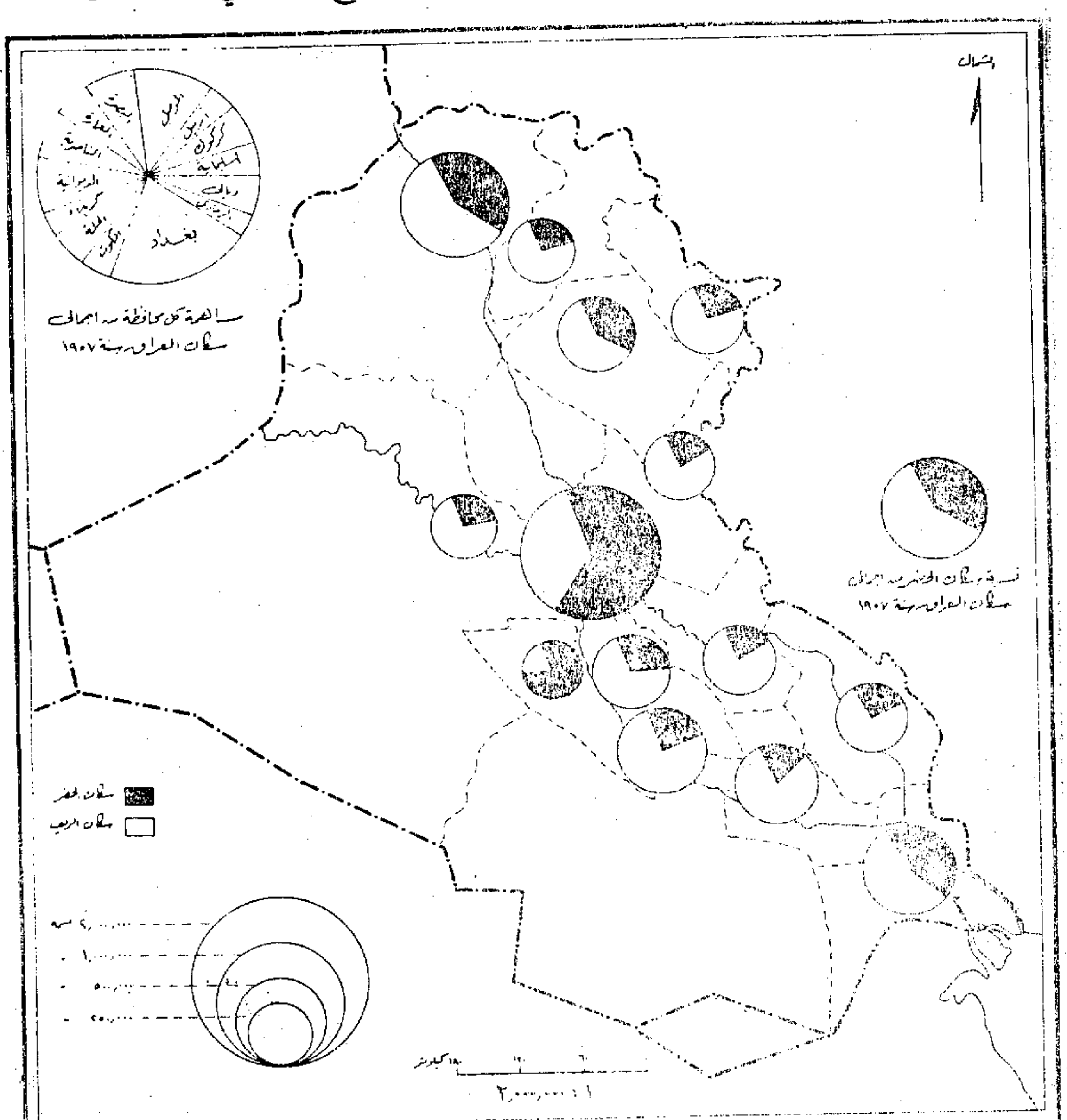
(١) للوقوف على جانب من حياة سكان الريف في العراق ، انظر :
The Siger, ''The Marshmen of Southern Iraq,''The Geographical Journal Vol., CXX, part 3.September, London, 1954, P. 200.

كربلاء تعتبر محافظة دينية : لمراكزها الحضارية الرئيسية مكانة مقدسة في هذا المجال. اما كركوك فلعل السبب في ارتفاع نسبة السكان الحضر فيها يرجع إلى كونها منطقة . بترولية رئيسية في العراق ، وما نجم عن ذلك من هجرة داخلية إلى مراكزها الحضرية لاسيما مدينة كركوك ذاتها ويؤكد ذلك ارتفاع نسبة السكان الحضر فيها بالمقارنة مع اربيل .اولا وجملة العراق ثانياً ، فقد بلغت هذه النسبة عام ١٩٦٥ نحو٤٨ ٪بينما لم تتجاوز الـ ٤٤٪ من جملة العراق ، في حين هبطت إلى زهاء ٣٨ ٪ في اربيل ومما يؤكد ذلك ايضاً سيطرتها — كركوك — على نحو ٦٪و٦،٢٪ من اجمالي سكان الحضر في العراق عامي ٥٧ /١٩٦٥ على الترتيب . وهي بذلك تتفوق نسبياً على نسبة مساهمتها من اجمالي



شكل ( )
توزيع السكان في العراق سنة ١٩٦٠
(الريف - الحضر)

سكان العراق للعامين المذكورين ، والتي بلغت قرابة ٦٪ و٥,٦٪ على التوالي بينما لاتساهم اربيل سوى بنحو ٣٪ و٣,٧٪ من اجمالي السكان الحضر في العراق على الرغم من انها تضم نحو ٤,٤٪ من اجمالي سكان العراق عامي ١٩٦٥/٥٧ أيضاً . ومهما تكن دقة بيانات التعدادين المذكورين فان نسبة زيادة نسبة سكان الحضر في المناطق البترولية تعتبر ظاهرة جغرافية حتمية وهي اشبه ما تكون بظاهرة (الطفح المدني والحضري) على اعتبار ان مناطق التعدين والنشاطات الاخرى المتصلة تكون بمثابة مراكز جذب لهجرة السكان الريفيين إلى الحضر للعمل فيها او للتمتع بخدماتها ومباهجها وما قد يترتب على ذلك من آثار سيئة تهدد الانتاج الزراعي خاصة والاقتصاد



شكل (٢)

توزيع السكان في العراق سنة ١٩٥٧
(الريف - الحضر)

الرطني عامة ، كما سبقت الاشارة اليه آنفاً مما يدعو الى ضرورة العمل الجدي على ابقاء سكان الريف في اراضيهم بصورة ايجابية ومثمرة

جدول رقم «١١»

توزيع سكان الريف والحضر في العراق بين عامي ٥٧ / ١٩٦٥ (١)

المحافظة	١٩٥٧ سكان الريف العدد	١٩٥٧ سكان الحضر العدد		١٩٥٧ المجموع	٪	١٩٦٥ سكان الريف العدد	٪	١٩٦٥ سكان الحضر العدد	٪	١٩٦٥ المجموع
الموصل	٤٤٤,٦٣٥	٢٧١,٥٧١	٥٩	٧١٦,٢٠٦	٤١	٥٦٤,٤٦٧	٦٢	٣٨٩,٦٣٥	٣٨	٩٥٤,١٠٢
أربيل	٢٠٠,٣٢٦	٧٣,٠٥٧	٧٣,٩	٢٧٣,٣٨٣	٢٦,١	٢٢٦,٠٦٨	٦٢	١٣٤,٢١٧	٣٨	٣٦٠,٢٨٥
كركوك	٢٣٦,٠٥٢	١٥٢,٧٨٧	٦٠,٧	٣٨٨,٨٣٩	٣٩,٣	٢٣٨,٠٢٢	٥٢	٢٢٤,٠٠٥	٤٨	٤٦٢,٠٢٧
السليمانية	٢٢٥,٢٦٠	٧٩,٦٣٥	٧٣	٣٠٤,٨٩٥	٢٦,١	٢٧٦,٩٧٢	٦٨	١٣١,٢٤٨	٣٢	٤٠٨,٢٢٠
ديالى	٢٥٣,٦٠٩	٧٦,٢٢٦	٧٦,٩	٣٢٩,٨٣٥	٢٣,١	٢٦٣,١٢٥	٦٦	١٣٦,٩٢٧	٣٤	٤٠٠,٠٥٢
الرمادي	١٧٣,١٥٧	٦٢,٨٨٦	٧٣	٢٣٦,٠٤٣	٢٧,٠	١٩٢,٨٨٩	٦٢	١٢٣,٤٠٠	٣٨	٣١٩,٢٨٩
بغداد	٤٥٦,٩٩٠	٨٥٦,٠٢٢	٣٤,٨	١,٣١٣,٠١٢	٦٥,٢	١,٠١٥,٨٢٦	٤٨	١,١٠٨,٤٩٧	٥٢	٢,١٢٤,٣٢٣
الكوت	٢٢٥,٩٥١	٦٩,٩٤٨	٧٦,٤	٢٩٥,٨٩٩	٢٣,٦	٢٣١,٦٤٦	٦٩	١٢٣,٨٤٩	٣١	٣٣٥,٤٩٥
الحلة	٢٥٤,٠٠٤	١٠٤,٧٧٥	٧٠,٥	٣٥٨,٧٧٩	٢٩,٥	٢٨٤,٢٩٠	٦٤	١٦٣,٧٣٣	٣٦	٤٤٨,٠٢٣
كربلاء	٤٣,٨٦٥	١٧٣,٥١٠	٢٠,٢	٢١٧,٣٧٥	٧٩,٨	٩٢,٩٠٩	٢٨	٢٤٦,٧٨٣	٧٢	٣٣٩,٦٩٢
الديوانية	٣٩١,١٤٧	١١٩,٦٤٩	٧٦,٠	٥١٠,٧٩٦	٢٤,٠	٣٦٧,٢٨٨	٦٧	١٨١,٥٤٢	٣٣	٥٤٨,٨٣٠
الناصرية	٣٧٣,٢٢٤	٨٥,٦٠٤	٨١,٣	٤٥٨,٨٢٨	١٨,٧	٣٦٤,١٣١	٧٠	١٣٥,٩٠٢	٣٠	٥٠٠,٠٣٣
العمارة	٢٤٦,٢٥٧	٨٣,٥٨٣	٧٤,٧	٣٢٩,٨٤٠	٢٥,٣	٢٤٢,٤٠٧	٧٢	١٠٤,٢٥٦	٢٨	٣٤٦,٦٦٣
البصرة	٢٦٧,١٢٥	٢٣٦,٢٠٥	٥٣,١	٥٠٣,٣٣٠	٤٦,٩	٢٥٠,٦١٦	٣٨	٤٢٣,٠٠٧	٦٢	٦٧٣,٦٢٣
جملة العراق	٣,٧٩١٠٦٢٢	٢,٤٤٥,٤٥٨	٦٠٪	٦,٢٣٧,٠٨٠	٤٠	٤,٦١٣,٦٥٦	٥٦,١	٣,٦٠٧,٠٠١	٤٣,٩	٨,٢٢٠,٦٥٧

عمل الباحث .

«١» وزارة الداخلية : مديرية النفوس العامة : احصاء عام ١٩٥٧ (باستثناء نحو ٦٥ الف من البدو تقريباً).
وكذلك ملخص احصاء عام ١٩٥٦ (باستثناء ٤١ الف من البدو) .

الدكتور عباس حسين الدباغ

تطور أسعار النفط الخام في السوق العالمية

في هذه الدراسة الموجزة سنتكلم على الاسعار المعلنة للنفط الخام وتطورها . وهو أمر يكاد أن يكون منفصلا عن أسعار المنتجات النفطية نظراً لاستقلال العوامل المحدودة لكل منها بعضها عن بعض ، يضاف إلى ذلك أن الدراسة مكرسة لاسعار النفط الخام المعلنة في موانيء التصدير (فوب) وليس للاسعار المتحققة أو المعول عليها .

من المعلوم ان انتاج وتصدير النفط تجارياً بدأ لاول مرة في الولايات المتحدة الامريكية في النصف الثاني من القرن الماضي . ومنذ مطلع القرن الحالي بدأ استخراج النفط وتسويقه من مختلف بلدان العالم خارج الولايات المتحدة الامريكية . وفي النصف الثاني من القرن العشرين اصبحت منطقة الشرق الاوسط تحتل المركز الاول في العالم من حيث كمية الانتاج والاحتياطي المكتشف والتصدير . الا أن ما يجب ملاحظته هو أن الاحتكارات الامريكية هي التي تسيطر على النسبة الكبرى من استخراج النفط ونقله وتكريره وتسويقه في العالم . واذا اضفنا إلى ذلك قوة الدولار الامريكي كعملة صعبة خصوصاً بعد الحرب العالمية الثانية ادركنا السبب في اعتماد الدولار اداة لتسعير النفط في مختلف موانيء التصدير .

قلنا أن تصدير النفط بدأ اول ما بدأ من الولايات المتحدة الامريكية ومن ثم ظهرت موانيء التصدير الاخرى في امريكا اللاتينية والشرق الاوسط ، لذلك كانت اسعار النفط تعلن في خليج المكسيك ويباع النفط بموجبها في أية سوق بعد أن تضاف تكاليف الشحن من خليج المكسيك إلى تلك السوق بغض النظر عن جهة التصدير . فنفط كركوك المصدر إلى قبرص من ميناء طرابلس في لبنان مثلا كان يباع بسعر يساوي الاسعار المعلنة في خليج المكسيك اضافة إلى تكاليف الشحن من خليج المكسيك إلى قبرص . ان تسعير النفط بموجب هذه المعادلة كان يحقق للاحتكارات النفطية أقصى الارباح . ولقد نجحت هذه الطريقة نظراً لسيطرة الاحتكارات النفطية على حقول الانتاج والنقل والتكرير . من الجدير ان نوضح أنه حتى الآن لم تتحقق في العالم سوق حقيقية لتجارة النفط الخام ولا زال أكثر من ٨٠ ٪ من النفط الخام لايدخل التجارة الدولية وليست هناك اسعار حقيقية لبيعه لان نفس الاحتكارات التي تستلمه تهيمن على نسبة عالية من جميع العمليات النفطية اللاحقة على عملية النفط الخام(١) ولو كان الانتاج والتسويق يجري في ظروف المنافسة الحرة لتحدد السعر بما يساوي تكاليف الانتاج في أسوأ الحقول ولاستطاعت البلدان المنتجة ذات الحقول الجيدة أن تحقق ريعاً مناسباً

---

١. مجلة (النفط و العالم) العدد العاشر ،كانون الاول عام ١٩٧٣ ،ص١٠ .

ان هذه الطريقة في التسعير ظلت سائدة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية تقريباً ولم تعترض عليها او تناقشها الدول المنتجة في الشرق الاوسط لسببين رئيسيين ، الاول هو أن هذه الدول كانت دولاً تابعة أو مستعمرة وتخضع ثرواتها ومن بينها النفط للنهب الاستعماري والثاني هو أن نصيب هذه البلدان من نفطها المصدر كان على شكل عائد ثابت من الطن الواحد المصدر (اربعة شلنات انكليزية) بغض النظر عن تكاليف الانتاج او سعر البيع .

غير أن المستهلكين للنفط وخصوصاً حكومات انكلترا وفرنسا والولايات المتحدة الامريكية التي تشتري كميات كبيرة من النفط لتجهيز اساطيلها الحربية ، كان لابد أن يعترضوا على طريقة التسعير تلك خصوصاً بعد تصاعد نسبة نفط الشرق الاوسط المنخفض التكاليف والقريب من الاسواق الرئيسية إلى مجموع الصادرات العالمية . واضطرت الشركات الاحتكارية إلى إعادة النظر في تسعير نفط الشرق الاوسط بالشكل الذي يخدم مصالح حكومات الدول الرأسمالية المتقدمة والمستهلكة للنفط من جهة ويحقق لها ارباحاً عالية من جهة اخرى . فلقد اعلنت اسعار نفط الشرق الاوسط بما يساوي اسعار نفط خليج المكسيك وعلى المشتري أن يدفع تكاليف الشحن من ميناء التصدير (مهما كان هذا الميناء) حتى نقطة التسليم .

فالنفط الايراني قرب ميناء عبدان يباع بسعر يساوي سعر النفط الامريكي من نفس الدرجة فوب موانئ خليج المكسيك وعلى المشتري أن يدفع تكاليف شحن هذا النفط من ميناء عبادان حتى نقطة التسليم وبما ان المسافة بين عبادان ونابولي في ايطاليا هي نفس المسافة بين خليج المكسيك ونابولي لذلك كانت اسعار النفط الامريكي ونفط الخليج العربي متساوية في هذا الميناء . وبمرور الايام عملت الشركات الاحتكارية على خفض اسعار نفط الشرق مقارنة باسعار نفط خليج المكسيك فانتقلت نقطة التعادل إلى لندن اولاً ومن ثم من لندن إلى نيويورك بحجة ان نفط الشرق الاوسط يلاقي منافسة في السوق العالمية من النفط الامريكي حيث اصبح السعر المعلن للنفط الكويتي فوب ميناء الاحمدي مثلا يساوي سعر نفط خليج المكسيك زائداً تكاليف الشحن من خليج المكسيك إلى ميناء نيويورك ناقصاً تكاليف الشحن من ميناء الاحمدي إلى نيويورك .

والجدول التالي يوضح تطور الاسعار المعلنة للنفط الخام بعد الحرب العالمية الثانية حتى نهاية الستينات تقريباً :

جدول رقم (١)

الاسعار المعلنة للنفط الخام بالدولار (درجة ٣٦) (*)

السنة	موانيء خليج المكسيك	فنزويلا	موانيء شرق البحر المتوسط	موانيء الخليج العربي
١٩٤٨	٢,٧٢	٢,٦٥	٢,٧٦	٢,١٠
١٩٤٩	٢,٧٢	٢,٦٥	٢,٥١	١,٨٥
١٩٥٠	٢,٧٢	٢,٦٥	٢,٤١	١,٧٥
١٩٥١	٢,٧٢	٢,٦٥	٢,٤١	١,٧٥
٥٢ / ٥٣	٢,٧٢	٢,٦٥	٢,٤١	١,٧٥
٥٤ / ٥٦	٣,٠٢	٢,٩٠	٢,٤١	١,٩٧
١٩٥٨	٣,٣٢	٣,٠٥	٢,٥١	٢,١٠
١٩٥٩	٣,٣٢	٢,٨٤	٢,٣٣	١,٩٤
١٩٦٠	٣,٣٢	٢,٨٠	٢,٢٨	١,٩١
١٩٦١ — ٦٤	٣,٣٢	٢,٨٠	٢,٢١	١,٨٤

* C. Issawl and M.Yeganeh. The Economics of middle Eastren Oil.New York 1962, P. 68 – And the petroleum – Times, London, 1951/1961

بعد الحرب العالمية الثانية تصاعدت حركة التحرر الوطني في جميع أنحاء العالم وحققت انتصارات باهرة في مناطق مختلفة ولم تسلم الاحتكارات النفطية من الضربات حيث تم تأميم النفط الايراني وطرد الاحتكار الدولي من ايران بعد سيطرة دامت قرابة نصف قرن من الزمن ، في تلك الظروف اجبرت الاحتكارات النفطية على تطبيق مايعرف بمبدأ مناصفة الارباح في فنزويلا عام ١٩٤٨ والمملكة العربية السعودية عام ١٩٥٠ ومن ثم بقية البلدان المنتجة للنفط . وبما ان الربح هو الفرق بين سعر البيع وتكاليف الانتاج

لذلك أصبح للبلدان المنتجة للنفط مصلحة مباشرة في تحديد الأسعار التي يباع بها النفط المصدر، غير ان الشركات الاحتكارية للأسباب الواردة آنفا استمرت في تحديد الأسعار المعلنة بالشكل الذي يخدم مصالحها الاحتكارية ومصالح البلدان الرأسمالية المتقدمة المستهلكة للنفط متجاهلة الحقوق المشروعة للبلدان المنتجة (من الملاحظ انه على الرغم من ارتفاع أسعار البترول خلال السنة الماضية ماتزال الرسوم والضرائب التي تستوفيها معظم الدول الصناعية على المواد البترولية أعلى من دخل الدول المصدرة والمالكة للبترول ، ففي فرنسا مثلا كان معدل سعر الطن للمنتجات البترولية عام ١٩٧٠ يساوي ٤٧٠ فرنكا فرنسيا من اصلها ٣٨ فرنكا فقط أي ٨,١٪ للدول المصدرة مقابل ٢٦٥ فرنكا أي ٥٦,٤٪ ضرائب ورسوم للحكومة الفرنسية و ٨٩ فرنكا أي ١٩٪ ارباح شركات والباقي كان يمثل اكلاف الانتاج والنقل والتكرير والتوزيع) (٢) .

في هذه المرحلة كانت المواجهة قائمة بشكل خفي بين الشركات والدول الاستعمارية المستهلكة للنفط من جهة والبلدان المنتجة للنفط من جهة ثانية ، ولقد ساعد ضرب التأميم في ايران ودخول شركات مستقلة عن الكارتل الدولي للنفط إلى ميدان الانتاج والتصدير على تمادي الشركات الاحتكارية في تخفيض الاسعار المعلنة للنفط باستمرار وبدون اي مبرر اقتصادي معقول إلى ان تبلورت مقاومة الدول المنتجة لتلك التخفيضات المتلاحقة في قيام منظمة الاقطار المصدرة للنفط في عام ١٩٦٠ حيث جمدت الاسعار منذ ذلك التاريخ حتى مطلع السبعينات . الا أن تجميد الاسعار كان يعني في واقع الحال استمرار تدهورها لسببين رئيسيين الاول هو ارتفاع اسعار المنتجات النفطية في البلدان الاوربية باستمرار ، والثاني هو ارتفاع اسعار مختلف السلع وزيادة حدة التضخم (ان اسعار النفط شاهدت انخفاضا كبيراً منذ عام ١٩٤٧ وحتى عام ١٩٧٠ وذلك نتيجة التضخم المالي الذي تميزت به الدول الصناعية الرئيسية في العالم .... فاذا قسنا الاسعار الحالية للنفط بالنسبة لمستويات الاسعار الحالية في الولايات المتحدة لوجدنا ان اسعار النفط انخفضت من ٢,١٨ دولاراً للبرميل عام ١٩٤٧ إلى ١,٢٥ دولاراً عام ١٩٧٠ اي ان نسبة الانخفاض بلغت ٤٣٪ اما اذا قسنا اسعار النفط بالنسبة لمستويات الاسعار في اوربا لرأينا ان الانخفاض كان اكبر بكثير ولرأينا ان نسبة الهبوط بلغت ٦٨٪) (٣) .

لقد بلغت اسعار النفط الخام مستوى منخفضاً للغاية جعل اي مصدر بديل للطاقة

---

٢. مجلة البترول والغاز العربي العدد الرابع عشر ، آذار ١٩٧٥ ، ص ١٨ .

٣. مجلة (العلوم الاجتماعية) العدد الاول ، مايو ١٩٧٥ ، الكويت ، ص ١٨٠ .

لايستطيع ان ينافس النفط . وبما ان اكبر نسبة من هذا النفط هي من حقول الشرق الاوسط لذلك شلت حركة التنقيب والاستكشاف والاستخراج في الولايات المتحدة الامريكية ذات الحقول الرديئة وتعرقلت كل الجهود والمشاريع الخاصة لتطوير مصادر بديلة للطاقة.

لهذه الاسباب خلقت الولايات المتحدة الامريكية ما يعرف بازمة الطاقة والتي سرعان ما امتدت إلى اوربا الغربية وأدت إلى ارتفاع اسعار المنتجات النفطية في الاسواق العالمية مما أتاح للولايات المتحدة الامريكية الفرصة لان تحقق احتكاراتها النفطية أرباحاً فاحشة من جهة وتنشيط الجهود المبذولة لتطوير مصادر بديلة للنفط . واذا اضفنا إلى ذلك الظروف الجديدة التي طرأت في بداية السبعينات والتي جعلت استمرار الشركات الاحتكارية ومن خلفها الدول الاستعمارية في فرض الاسعار المنخفضة امرا مستحيلا وفي مقدمة هذه الظروف تأتي هزيمة حزيران ١٩٦٧ وغلق قناة السويس الامر الذي دفع باسعار النفط والمنتجات النفطية نحو التصاعد في البلدان المستهلكة الرئيسية هذا من جهة ومن الجهة الأخرى تصاعدت حركة التحرر الوطني واشتدت المطالبة الجماهيرية بتصفية الركائز الاستعمارية الامريكية في الوطن العربي والمتمثلة في شركات النفـــط الاحتكاريـة ، يضاف إلى ذلك تأكيد العراق عــــلى تمسكه بالقانون رقم ٨٠ واعلانه عن قيامه باستثمار حقول النفـــط استثماراً مباشراً . في ظل هـــذه الظروف تحركت منظمة الاقطار المصدرة للنفـــط مطالبة بتصحيح اسعار النفـــط وبدأت المفاوضات بين الاوبك والاحتكارات النفطية لاعادة النظر في الاسعار المعلنة وفي طريقة احتساب الاسعار تلك المفاوضات التي انتهت انتهت باتفاقية طهران وطرابلس في شباط ونيسان من عام ١٩٧١ . ان تلك الاتفاقية كانت أمراً جديداً وفريداً في عالم النفط . فلأول مرة تساهم الدول المنتجة في تحديد الاسعار المعلنة للنفط الخام بجانب الاحتكارات إضافة إلى ان الاتفاقية قد وجهت أول ضربة قاسية لسياسة النفط الرخيص والتي استمرت سائدة لفترة طويلة من الزمن (ولئن كان هذا التعديل قد حقق تقدماً نتج عنه زيادة في الاسعار المعلنة فان القيود التي تضمنتها هذه الاتفاقيات قد جعلت الاسعار المعلنةتتطور ببطء بحيث ان الزيادة السنوية أصبحت لا تتناسب اطلاقاً مع ارتفاع الاسعار الحقيقية لصفقات النفط الخام ومع زيادة اسعار المنتجات النفطية ولا مع اسعار البضائع الصناعية المستوردة من قبل الدول المنتجة (٤) .

لهذا السبب لم تحقق اتفاقية طهران وطرابلس الحد الادنى مما يجب تحقيقه للــدول

---

(٤) مجلة النفط والغاز ، العدد ١٠ ، كانون الاول عام ١٩٧٣ ، بغداد ص ١٠

المنتجة التي تسعى لاسترجاع حقوقها المغتصبة ووضع حد لسيطرة ونهب الشركات الاحتكارية . ولقد تلقت الاحتكارات لطمة عنيفة بتأميم عمليات شركة نفط العراق الذي فتح صفحة جديدة في تاريخ العلاقات بين الشركات الاحتكارية والبلدان المنتجة فقد اعقبت التأميم في العراق سلسلة من الاجرءات المماثلة في ليبيا والجزائر ولم تنفع محاولة الشركات بتطويق تلك الانجازات عن طريق تطبيق مبدأ المشاركة في رؤوس أموال الشركات .

في تلك الظروف توفرت الامكانية لأعادة النظر في العلاقات بين الشركات والبلدان المنتجة للنفط في هيكل الاسعار المعلنة جذرياً ولقد جاءت حرب تشرين وتأميم حصة امريكا وهولندا في شركة نفط البصرة وايقاف تصدير النفط الى الدول المساندة للعدوان لتدعيم هذه الامكانية الى حد كبير واعلنت منظمة الاقطار المصدرة للنفط عن رفع الاسعار المعلنة للنفط بما يتناسب وقيمة النفط كمصدر للطاقة من ناحية واسعار مختلف انواع السلع المرتفعة باستمرار بسبب التضخم من ناحية اخرى ، والجدول التالي يوضح تطور الاسعار المعلنة للنفط منذ قيام منظمة الاقطار المصدرة للنفط حتى الوقت الحاضر :

جدول رقم (٢)

تطور الاسعار المعلنة للنفط العربي

(برميل / دولار) *

المدة	السعر المعلن
من ١٩٦٠ — ١٩٧٠	١,٨٠
من ١٥/ ٢/ ١٩٧١ الى ٣١/ ٥/ ٧١	٢,١٨
من ١/١/٧٣ الى ٣١/٣/٧٣	٢,٥٩
من ١٦/ ١٠/ ٧٣ الى ٣١/ ١٢/ ٧٣	٥,١٢
من ١/ ١ ١٩٧٤	١١,٥٦
من ٣٠/ ٩/ ١٩٧٤	١١/٢٥
من ١/ ١/ ١٩٧٥	١٠,٤٦
من — / ١٠/ ١٩٧٥	١١/٥١

(*) المصدر : مجلة نفط العرب العدد الثامن / مايس ١٩٧٤ والعدد السادس / آذار ١٩٧٥ صفحة ١٤٤ وجريدة الثورة العدد ٢٢١٥ في ٢٧/١٠/١٩٧٥

ولقد أثار تعديل الأسعار المذكورة اعلاه ردود فعل عنيفة من جانب الدول الاستعمارية وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية وتعرضت دول الاوبك لحملة ظالمة واتهامات باطلة وصورت المسألة كما لو ان رفع أسعار النفط هو السبب في كل مايعاني منه النظام الرأسمالي والدول النامية من مشاكل وعدم استقرار . أن سبب الحملة الاساسي في رأينا يكمن في ان تعديل الاسعار من قبل الدول المنتجة ومن دون اخذ موافقة الشركات الاحتكارية أو الدول الاستعمارية هو بداية الطريق الطويل المؤدي الى اعادة النظر في العلاقات الاقتصادية والسياسية بين العالم الرأسمالي ودول العالم الثالث وتبديل بنية هذه العلاقات بشكل يضمن تصفية الاستعمار الاقتصادي ودفع عجلة التنمية في الدول الفقيرة المصدرة للمواد الأولية.

ان قرار رفع أسعار النفط الخام في نهاية ١٩٧٣ قد اتخذته منظمة الاقطار المصدرة للنفط الا انه لم يتخذ الا بعد ان استنفدت كافة الامكانيات في مفاوضة الشركات ولم يكن القرار متطرفاً او سبباً فيما يعاني منه الاقتصاد الرأسمالي بأي حال من الاحوال (فلو فرضنا ان اسعار النفط قدارتفعت بنفس النسبة المئوية التي كانت ترتفع بها المواد الأخرى بدون تدخل الشركات ومنع أسعار النفط من ان تتأثر بقانون العرض والطلب وبقائها لمدة عشر سنوات بدون تغيير لكانت قد وصلت في ١٩٧٣ الى أكثر من تسعة دولاوات لابرميل .... واذا أخذنا بعين الاعتبار ايضاً ارتفاع اسعار صادرات للبلاد الصناعية نتيجة للتضخم المالي الذي بلغ متوسطه ١٢ سنوياً لوجدنا أن ١٠,٥٠ دولار للبرميل يعتبر سعر ًامتواضعاً وعادلا) (٥) .

يضاف الى ماسبق أن رفع اسعار النفط الخام لم يكن سبباًلى في التضخم المالي الذي تعاني منه اقتصاديات البلدان الرأسمالية بل نتيجة مباشرة لهذا التضخم وما ادعاء الولايات المتحد الاحاولة لالقاء تبعة ماتقاسي منه من ازمات وفوضى على عاتق البلدان المنتجة للنفط .

لقد أدت عملية تصحيح الاسعار المعلنة للنفط من قبل الدولة المصدرة الى نتيجتين رئيسيتين الاولى هي زيادة المدخولات النقدية للدول المنتجة بنسبة كبيرة والثانية هي زيادة أرباح الشركات الاحتكارية ومدخولات الدول المستهلكة للنفط والجدولين التاليين يوضحان مقدار الزيادة التي طرأت على أرباح الشركات الاحتكارية ومدخولات الدول المستهلكة للنفط

(٥) من دراسة ملحقة بمجلة نفط العرب بقلم الشيخ عبدالله الطريقي ، العدد السادس / آذار ١٩٧٥.

جدول رقم ٣
اسعار المنتجات البترولية في فرنسا
(بالفرنكات الفرنسية) (*)

	١٩٧٠		١٩٧٤	
	القيمة	٪	القيمة	٪
كلفة الانتاج	٨	١,٧	٦	٠,٦
كلفة النقل	١٠	٢,١	٣١	٣,٨
كلفة التكرير	٢٥	٥,٣	٢٥	٣,٠
كلفة التوزيع	٣٥	٧,٤	٣٥	٤,٣
دخل البلدان المصدرة	٣٨	٨,١	٢٦٣	٣٢,٢
ضرائب فرنسية	٢٦٥	٥٦,٤	٣١٥	٣٨,٤
أرباح الشركات	٨٩	١٩	١٤٥	١٧,٧
المجموع	٤٧٠	١٠٠	٨٢٠	١٠٠

(*) المصدر : مجلة البترول والغاز العربي ، العدد (١٤) آذار ١٩٧٥ ، ص ٢٠ .

جدول رقم (٤)
أرباح الشركة الامريكية الكبرى (بملايين الدولارات) *

الشركة	الفصل الاول من عام ٧٣	الفصل الاول من عام ٧٤	نسبة التغيير
اكسون	١,٠١٨,٠	١,٥٥٥,٠	+ ٥٢,٨ ٪
تكساكو	٥٣١,٦	١,٠٤٩,٨	+ ٩٧,٥ ٪
موبيل	٣٤٠,٠	٦٢٦,٠	+ ٨٤,١ ٪
سوكال	٣٣٥,٠	٥٧٨,٠	+ ٧٢,٥ ٪
غولف اويل	٣٦١,٠	٥٤٠,٠	+ ٥٠,٠ ٪
	٢,٥٨٤,٦	٤,٣٤٨,٨	٦٨,٣ ٪

(*) المصدر : مجلة البترول والغاز العربي ، العدد ٨ ، أيلول ١٩٧٤ ، ص ٥٤ .

أن حملة الدول الاستعمارية على البلدان المنتجة لم تقف عند حد المؤتمرات الصحفية والتهديد باستخدام القوة لاحتلال منابع النفط بل تحولت الى اجراءات عملية تمثلت في تشكيل منظمة الطاقة الدولية لمجابهة منظمة الاوبك وفي تخفيض استهلاك النفط والزيادة الكبيرة في أسعار السلع المصنعة والخدمات المصدرة الى البلدان المنتجة للنفط ، كل ذلك أدى الى ظهور بوادر تشير الى فقدان تصحيح الاسعار لمعناه واهميته والى عودة الامور الى ماكانت عليه قبل ١٩٧٣ ، في وقت لم تتخذ فيه الدول الرأسمالية الكبيرة أية أجراءات للحد من الارباح الفاحشة التي تحصل عليها شركاتها الاحتكارية ولا تمس حتى الزيادة التي طرأت على تلك الارباح نتيجة لرفع الاسعار .

ان كل ذلك قد ادى الى ان تتجه منظمة الاوبك نحو اعادة النظر في الاسعار المعلنة للنفط بين فترة واخرى لتلاحق أسعار المنتجات الصناعية من جهة وإلى وضع حد لاستغلال ونهب الشركات حيث تم بنجاح تأميم كل عمليات الشركات الاحتكارية في العراق كما سيطرت الكويت وليبيا والجزائر وفنزويلا على عمليات هذه الشركات وقلص هامش الربح الذي تحصل عليه هذه الشركات في بقية البلدان (والحقيقة فأن منظمة الاوبك تتخذ وسيلة أخرى لرفع الاسعار بدل تقنين الانتاج وبرمجته يسهل لجميع الاقطار تطبيقه وتجد فيه هذه الاقطار مصلحة مشتركة ، الا وهو رفع ضريبة الدخل والريع التي تتقاضاها من الشركات بالنسبة لنفط الامتياز ، فلقد رفعت منظمة الاوبك ضريبة الدخل من ٥٥ ٪ الى ٦٥,٦٧ ٪ في أيلول ١٩٧٤ ثم قامت السعودية برفعها الى ٨٥٪ في شهر تشرين الثاني ١٩٧٤ كما رفعت الاوبك معدل الريع من ١٢,٥٪ الى ١٦,٦٧٪ في أيلول ١٩٧٤ ثم رفعته السعودية الى ٢٠٪ في تشرين الثاني ١٩٧٤) (٦) .

ان هذه الاجراءات اضافة الى الاجراءات الاخرى قد أدت الى تجريد الشركات الاحتكارية الى حد كبير من امكانياتها في محاربة الشركات المستقلة او شركات النفط الوطنية عن طريق بيع النفط في الاسواق العالمية بأسعار مخفضة .

بعد هذا الاستعراض المركز لتطور أسعار النفط لابد من الاشارة الى كيفية تطور هذه الاسعار في المستقبل . فهل سترتفع الاسعار بشكل يتلائم وأسعار السلع الصناعية ؟ أم انها ستنخفض كما تريد الدول المستهلكة للنفط وعلى رأسها الولايات المتحدة الامريكية واوربا واليابان .

---

٦. مجلة النفط والعالم ، العدد ٢٥ ، أيار ١٩٧٥ ، ص ٢٢

قبل كل شيء يجب توضيح حقيقة ان أسعار النفط الخام والمواد الاولية الاخرى المصدرة من الدول النامية الى الدول المتقدمة تعتمد بالدرجة الاولى على طبيعة العلاقات السياسية والاقتصادية القائمة بين هاتين المجموعتين من البلدان. ففي السنوات السابقة ونتيجة للسيطرة الاستعمارية بمختلف أشكالها ولواقع تقسيم العمل على المستوى الدولي كانت الدول النامية مضطرة لبيع منتجاتها بأسعار رخيصة لاتتناسب وقيمتها الحقيقية ولا مع أسعار السلع المصنعة . الا انه بفضل انحسار السيطرة الاستعمارية عن مجموعة كبيرة من دول العالم والتقدم الذي أحرزته بعض هذه الدول ، تمكنت مجموعة الدول النامية ومنها البلدان المصدرة للنفط من تصحيح هيكل الأسعار لصالحها . وبما ان المستقبل يبشر بتصفية بقايا الاستعمار القديم والاستعمار الجديد بكل أشكاله لذلك لابد أن تتجه أسعار المواد الأولية ومنها النفط الخام نحو الارتفاع لتتلائم مع تطور أسعار السلع المصنعة والقيمة الحقيقية لهذه المواد . واذا ماحدث غير ذلك فهو امر طاريء ومؤقت وسرعان ماتعود الأمور الى وضعها الصحيح .

ان مايردده البعض من ان اسعار النفط ستتجه نحو الانخفاض بسبب تخفيض الاستهلاك في الدول المستهلكة عن طريق الحد من الواردات وفرض الرسوم الكمركية عليها وبسبب تشجيع الاستثمارات في مجالات الطاقة البديلة وتطوير الأبحاث التي تجري ضمن هذا النطاق والتنسيق بين الدول المستهلكة في مجال تبادل المعلومات العلمية والتكنولوجية للأبحاث الخاصة ببدائل النفط ، نقول ان هذا الانخفاض في الأسعار غير وارد على الاطلاق للأسباب التالية :

١ — ان جميع الدلائل تشير الى زيادة استهلاك النفط في العالم ليس كمصدر للطاقة فحسب بل كمادة أولية لآلاف الصناعات المتنوعة بحيث ان أكثر التقديرات تفاؤلا تشير الى استنفاد كل احتياطي النفط المعروف في العالم خلال الثلاثين سنة القادمة .

٢ — ان الادعاء بوجود مصادر بديلة للنفط غير وارد تماماً . فاذا كان من الممكن الحصول على مصدر الطاقة الحرارية من المفاعلات النووية فانه من غير الممكن الحصول على البنزين أو وقود الطائرات أو مواد التشحيم من هذا المصدر ، كما لايمكن ايجاد المصادر البديلة للنفط كمادة أولية للصناعات البتروكيمياوية المتشعبة باستمرار . ولهذا السبب لايمكن تخفيض استهلاك النفط أو الاستغناء عنه .

٣ — حتى ولو افترضنا جدلا امكانية الحصول على مصادر بديلة للنفط فان كلفة هذه البدائل هي أعلى بكثير من كلفة النفط بأسعاره الحالية .

٤ ــ لدى الدول المصدرة للنفط امكانية كبيرة لتخفيض الانتاج ورفع الأسعار لمواجهة ضغوط الدول المستهلكة خصوصاً وان نسبه كبيرة من مدخولات دول الاوبك من نفطها المصدر مكدسة في البنوك الامريكية والأوربية وتتعرض باستمرار لخسائر نادحة نتيجة لتخفيض أسعار العملات المختلفة . وعليه يصبح من الأفضل تقليص انتاج النفط الى الحدود الملائمة لحاجات هذه الدول الى العملات الأجنبية .

وأخيراً لابد من الاشارة الى ضرورة قيام الدول المنتجة بتكريس مدخولاتها من النفط لصالح تطوير اقتصادياتها المتخلفة بأسرع وقت ممكن لتتمكن من السير قدماً في مجابهة الدول المتقدمة والوقوف معها على قدم المساواة في ميدان التجارة الدولية .

نجلة قاسم الصبّاغ

التحوّل الاجتماعي بالحجاز في العصر الأموي

* مقدمـــة

لابد لكل ظاهرة جديدة أو تغيير في المجتمع من اسباب وعوامل أدت الى وجودها، ويبدو ان مظاهر التحول التي طرأت على هذه البلاد تعود في جذورها الى عوامل سياسية تفرعت منها ظواهر اقتصادية واجتماعية .

وبالنسبة للسبب الاول نرى سياسة الاتجاه نحو الفتوح خارج الجزيرة كانت عاملا لتدفق أموالاً كثيرة الى هذه البلاد ومن ثم عاملا للتمازج والاختلاط بين العرب والعناصر الاجنبية من اهل البلاد المفتوحة واضافة لذلك ، السياسة الاموية التي اتبعها حكام بني امية باغداق الاموال الكثيرة على اهل البلاد لاسترضائهم وتهيئة الجو الاجتماعي الجديد . ولما كانت للاموال الكثيرة أهمية في ظاهرة التحول الاجتماعي فلا بد من القاء نظرة عابرة على الاحوال المالية والمعاشية في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين لتوضيح الامور قبل العبور الى العصر الاموي الذي بدأت فيه معالم التغيير .

* الاحوال المالية في عصر الرسالة

تعتبر بلاد الحجاز صحراوية قفراء ، قليلة الموارد الزراعية ، وقد التجأ بعض أهلها — قبل الاسلام — لاحتراف التجارة .

لذا نرى ان الدولة الفتية التي انشأها النبي محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن لديها موارد مالية معينة وانما غلب عليها الجهد أحياناً فنرى الرسول صلى الله عليه وسلم يضطر في تجهيز بعض حملاته للاستدانة (١) فضلا عما قدمه بعض الاغنياء مثل عثمان بن عفان (٢) وأبو بكر الصديق (٣) وعبد الرحمن بن عوف (٤) وغيرهم .

---

(١) ابن الاثير — أسد الغابة، ج٣، ص١٥٥ طبعة طهران — استدان الرسول في حنين من عبدالله بن ابي ربيعة بضعة عشر الفاً ثم ردها اليه — البلاذري انساب، ج١، ص٣٦٣ .

(٢) البلاذري — انساب الاشراف، ج١، ص٣٦٨، الاصبهاني — حلية، ج١، ص٥٨ وج٦، ص١٣٣ .

(٣) البلاذري — الانساب، ج١، ص٢٦١، رسائل الجاحظ، ص٩، جمعها ونشرها حسن السندوبي

(٤) ابن الاثير — أسد الغابة، ج٣، ص٣١٥ .

فالامة كانت في ضيق اقتصادي شديد لعدم وجود موارد مستمرة وثابتة ولكن الاحوال أخذت بالتغيير التدريجي بعد الهجرة الى المدينة واعلان مبدأ المؤاخاة بين المهاجرين والانصار الذين اعانوهم مالياً وآثروهم في بعض الاحيان على انفسهم ، فعندما تهيأت أحوال بني النضير للرسول صلى الله عليه وسلم استشار الانصار حول كيفية توزيعها ، ولكن الانصار رفضوا نصيبهم وآثروا المهاجرين (١) ثم تلاها غنائم غزوة خيبر سنة ٦هـ التي قسمها الرسول بين الناس بعد أن عزل نصفها لنوائبه ، فانتعشت أحوال المسلمين حتى قال عبد الله بن عمرو (رض) :

(ماشبعنا حتى فتحت خيبر) (٢) وتلاها غنائم الطائف — وبذا تمكنت الحكومة الناشئة أن تسير امورها واستطاع افرادها ان يحصلوا على ما يكفيهم من ضروريات حياتهم .

العصر الراشدي

وقد انتعشت احوال المسلمين نسبياً في العصر الراشدي ، نظراً لقيامهم بالفتوح خارج الحجاز وما رافق ذلك من غنائم ، حيث ان اول مال استلمه ابو بكر من البحرين وقسمه بين الناس جميعاً على السواء (٣) وتلى ذلك غنائم العراق (٤) . ورغم ذلك فالفتوح في خلافة ابي بكر كانت محدودة ، وكذلك الغنائم التي لم تكن لتغطي كافة احتياجات السكان المعاشية .

ويبدو ان الخليفة ابا بكر قد توقع استمرار الفتوح وتوسعها وكثرة الاموال ثم الاختلاط بالاجانب والاقتباس منهم لذا نراه يخشى عاقبة ذلك بقوله لعبد الرحمن بن عوف : (رأيت الدنيا قد اقبلت ولما تقبل وهي جائية وستتخذون ستور الحرير ونضائر الديباج وتألمون ضجائع الصوف الازري كأن احدكم على حسك السعدان والله لئن يقدم احدكم فيضرب عنقه في غير حد خير له من ان يسبح في غمرة الدنيا) (٥)

---

(١) يحيى بن آدم — الخراج، ص ٢٠ .

(٢) الديار بكري — تاريخ الخميس، ج ٢، ص٥٦ .

(٣) اليعقوبي — التاريخ، ج ٢، ص١٢٤ .

(٤) الطبري — تاريخ الرسل والملوك، ج ٤، ص١٣، ص٣ — ٤ حوادث سنة ١٢ صالح بن الوليد اهل حصن بادقلي على (١٩٠) الف وصالح اهل الحيرة على تسعين الف ومائة الف درهم

(٥) الاصبهاني — حلية الاولياء، ج ١، ص٣٤ .

وقد توسعت الفتوح في عهد الخليفة عمر ومعها تدفقت الاموال الى الحجاز وقد اوردت لنا الكتب التاريخية ارقاماً خيالية لهذه الاموال . ففي اول خلافته جاء ابو هريرة بخمسمائة الف. فخطب عمر في الناس وأعلمهم بها وقال لهم (ان شئتم نعده عداً وان شئتم نكيله كيلا) (١) .

وجرى العمل ان يرسل الخمس فقط الى المدينة وتقسم الاربعة اخماس بين المجاهدين ففي المدائن اصاب الفارس اثنا عشر الفاً (٢) . وفي جلولاء تسعة الاف وتسعة دواب وعن الشعبي ان الخمس كان ستة آلاف الف ارسل الى المدينة (٣) ، وقد اصاب الفارس في نهاوند ستة الف والراجل الفين (٤) .

وروى عن ابن عباس قوله (دعاني عمر فاذا حصير بين يديه عليه الذهب منثور نشر الحناء (٥) ، وحين فتح عمرو بن العاص مصر صالح أهلها على ثلاثة عشر الف دينار ، وفي رواية أخرى ان جبايتها كانت اربعة عشر الف الف دينار من خراج رؤوسهم(٦) وذكر ان خراج الكوفة بلغ في خلافة عمر (رض) في أحد الاعوام ثمانين الف الف درهم وفي العام الذي تلاه عشرين ومائة الف الف درهم وكان صاحب الكوفة يحمل الى المدينة نحو عشرين أو ثلاثين الف (٧) .

هذا فضلا عن الكنوز التي غنمها المسلمون في معارك الفتوح ، فقدروى الطبري(٨) : (ان المسلمين اصابوا يوم المدائن بهار كسرى وكانوا يعدونه للشتاء اذا ذهبت الرياحين ، فكانوا اذا أرادوا الشرب شربوا عليه فكأنهم في رياض ، بساط ستين في ستين ارضه بذهب ووشيه بفصوص وثمره بجوهر وورقه بحرير وماء ذهب) وقد أرسله القائد سعد الى الخليفة عمر الذي قسمه بين الناس فاصاب علي (رض) منه قطعه باعها بعشرين الف دينار ، وقد رأى العرب في المدائن أيضا قباب تركية مملوءة سلالا مختمة بالرصاص فظنوا

(١) البلاذري – فتوح ، ص ٤٣٩ .
(٢) الطبري – تأريخ الامم ،ج٤ ،ص١٧٧ لم يذكر نوع العملة .
(٣) المصدر نفسه ،ج٤ ،ص ١٨٢ .
(٤) ابن الاثير – الكامل في التاريخ ،ج٣ ،ص١٦ .
(٥) ابو عبيد – الاموال ،ص٦١٩ .
(٦) الطبري – تاريخ الرسل والملوك ،ج٤ ،ص٢٥٠ .
اليعقوبي – التاريخ ،ج٢ ،ص١٤٤ .
(٧) نفس المصدر السابق ،ج٢٠ ،ص ١٤٣ .
(٨) الطبري – تاريخ الأمم والملوك ،ج٤ ،ص١٧٨ .

انها طعاماً فاذا هي آنية من الذهب والفضة وقسمت بين الناس (١) .

وباع زهرة التميمي يوم القادسية منطقة كان قد قتل صاحبها بثمانين الف دينار ولبس سلبه وقيمته خمسمائة الف وخمسون الف (٢)، كما غنم أحد الجنود في القادسية أيضاً لما راية كسرى فعوض عنها بثلاثين الف دينار وقيل ان قيمتها الف الف ومائتي الف، كما وجد المستورد بن ربيعة يوم القادسية أيضاً ابريق ذهب مرصع بالجوهر فلم يعرف أحد قيمته فأعطاه للقائد سعد بن ابي وقاص الذي باعه بمائة الف دينار (٣) .

ويبدو مما تقدم ان اموالا كثيرة انصبت في هذه البلاد، ومما لاشك فيه ان احوال المجاهدين كانت أفضل من أهل البلاد . وقد وصف كثرة الاموال ابن خلدون بقوله : (ان بحار الرفة زخرت عليهم حتى كان يقسم للفارس الواحد في بعض الغزوات ثلاثون الف من الذهب) (٤) وكان لابد لهذه الاموال الواردة من تنظيم عملي في تقسيمها ، وبعد ان أستشار الخليفة عمر عدداً من ذوي الرأي ، أخذ برأي الوليد بن هشام بن المغيرة بتدوين الديوان وتجنيد الجند (٥) . وقد خالف عمر خطة سلفيه في تقسيم الاموال وعمر له اجتهاده في ذلك وقصده بالتفاضل بالاعمال كوسيلة للتقدم والعمل الجاد، ولذا نرى انه فرض لأهل بدر خمسة آلاف ، ولمن بعد واقعة بدر الى الحديبية اربعة الاف ثم بعد الحديبية الى ان أقلع ابو بكر عن حروب الردة ثلاثة الاف ، ولأهل القادسية والشام الفين .... ومضى في هذا الترتيب الذي راعى فيه سابقة الجهاد والقرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكنه قال فيما بعد : (لقد هممت ان اجعل العطاء اربعة الاف الفاً يجعلها الرجل في أهله والفا يزودها معه والفا يتجهز بها والفا يترفق بها) (٦) مما يدل على انه قرر العودة الى مبدأ المساواة في العطاء .

وقد استمرت الفتوح نسبياً في عهد عثمان واستمر معها تدفق الاموال الى هذه البلاد فابن الاثير (٧) يذكر ان عمرو بن العاص صالح اهل برقة على ثلاثة عشر الف دينار جراية ، وصالح عبد الله بن ابي سرح اهل افريقية على الفي الف وخمسمائة الف دينار وفي رواية البلاذري (٨) ان ابن ابي سرح صالح بطاريق افريقيا على ثلثمائة قنطار من الذهب ،

(١) المصدر نفسه، ج٤، ص١٧٥ .
(٢) الابشيهي — المستطرف، ج٢، ص٤٦ .
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص٤٦ .
(٤) المقدمة، ص ١٧٧ .
(٥) البلا ذري — فتوح، ص ٤٣٦ .
(٦) الطبري — تاريخ الرسل، ج٢، ص٦١٥، دار المعارف ١٩٦٢، البلا ذري — فتوح ص٤٣٨ .
(٧) الكامل — ج٣، ص٩١ ، اليعقوبي — التاريخ ج٢، ص١٤٣ .
(٨) فتوح البلدان، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

وصالح الوليد بن عقبة اهل اذربيجان على ثمانمائة الف درهم ، واخذ المسلمون من أهل قبرص جزية سنوية قدرها سبعة آلاف دينار ، كما صالح ابن عامر اهل مرو على ستة آلاف الف (١) وصالح الاحنف اهل بلخ على اربعمائة الف وقبل سبعمائة الف (٢)

مما تقدم نرى انه لابد ان يحدث نوع من التغيير في حياة السكان من الفقر والجهد وما فرضته على بعضهم ظروف الهجرة الى حياة مطمئنة يصرف فيها معاشهم بنظام موضوع فضلا عما يحصل عليه المقاتلون من الغنائم في ساحات الحرب ، قال خباب احد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما اعلم احداً لقي من البلاء مالقيت لقد مكثت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أجد درهماً وان في ناحية بيتي هذا اربعين الف درهم)(٣) وصورة التغيير واضحة ايضا في قول علي ابن ابي طالب (رض) : (لقد رأيتني واني لأربط الحجر على بطني من الجوع وان صدقتي لتبلغ اليوم اربع الاف دينار) (٤)

ويبدو لنا ان التغيير – في عهد الخليفتين ابي بكر وعمر – لم يكن واضحاً وكبيراً حيث ان الطابع الديني في التزهد بالحياة كان قوياً في النفوس لدى الطبقة الحاكمة وغالبية السكان .

فضلا عن سياسة الشدة التي اتبعها الخليفة عمر في محاسبة العمال والقواد حالت دون اتجاههم الى استغلال الاموال .

فنراه يحاسب خالد بن الوليد ويناصفه امواله (٥) وخالد مما لايخفى بلاؤه في الاسلام وثمانون الف درهم (وهو حاصل ماله) لم يكن شيئاً يذكر اذا علمنا ما قدمته فتوحاته في الجبهتين من غنائم وأموال تقدر بملايين الدنانير الى بيت مال الدولة .

والروايات عديدة في محاسبة عمر لعماله ، فهو يكتب لواليه على مصر عمرو بن العاص : (انه ظهر من مالك مالم يكن من رزقك ولا كان لك مال قبل ان استعملك فانى لك هذا) .

---

(١) الطبري – تاريخ الرسل، ج٥، ص٤٥ ، ٥٣ ، ٧٧ حوادث سنة ٣٢ .
(٢) ابن الاثير – الكامل، ج٣، ص١١٦ .
(٣) الاصبهاني – حلية الاوليا، ج١، ص ١٤٤ .
(٤) ابن الاثير – اسد الغابة، ج٤، ص٢٣ .
(٥) الطبري – تاريخ الرسل، ج٤، ص٥٦ .

ثم يرسل اليه محمد بن سلمه فيشاطره امواله (١) وفعل مثل ذلك مع ابي هريرة والي البحرين وكتب الى ابي موسى الاشعري كتابا كله توبيخ فيه (قد بلغ امير المؤمنين انه فشت لك ولأهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومشربك ليس للمسلمين مثلها، فاياك يا عبد الله ان تكون كالبهيمة همها في السمن وفي السمن حتفها ، واعلم ان العامل اذا زاغ زاغت رعيته واشقى الناس من يشقى الناس به) (٢) . فعمر كان يحاسب العمال ليس في حالة استغلال الاموال فقط وانما على الملبس والمطعم والمشرب ايضا فهو عندما عين عمار بن ياسر على الثغر وعثمان بن عنيف على الخراج وعبد الله بن مسعود على بيت المال فرق لهم في كل يوم شاة شطرها وسواقطها لعمار والشطر الاخر لعبد الله وعثمان (٣) .
ونراه يأخذ من بعض الافراد زيادة عما يستحقون من عقار، فهذا بلال ابن الحريث المزني اقطعه الرسول صلى الله عليه وسلم ارضا كبيرة فاستدعاه عمر وترك له قسما من الارض كفاية له ثم اخذ الباقي وقسمه بين المسلمين (٤)

وقد استخدم سلطته السياسية في منع كبار المهاجرين من الخروج الى الامصار ، وعندما ضاقوا ذرعا بذلك شكوه فبلغه ذلك وقام بينهم قائلا موضحا قصده (... ألا ان قريشا يريدون ان يتخذوا مال الله معونات دون عباده ألا فاما ابن الخطاب حي فلا اني قائم دون شعب الحرة اخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا في النار) (٥)

فضلا عن هذه السياسة فان روح الزهد كانت سائدة في نفوس عدد كبير من ذوي الثروات . ومما يروى في هذا الصدد (ان طلحة باع من عثمان ارضا بسبعمائة الف درهم فلما جاءه المال قال ان رجلا يبيت عنده هذا لايدري ما يطرقه لغرير بالله تعالى ثم قسمه بين المسلمين) (٦) وسأله رجل برحم بينهما فقال له : (هذا حائطي أعطيت فيه مائة الف درهم فان شئت فالمال وان شئت فالحائط) وقال عنه زياد بن جرير : (رأيت طلحة بن عبيد الله فرق مائة الف درهم في مجلس واحد وانه ليخبط ازاره بيده) (٧)

(١) ابن ابي الحديد – شرح نهج البلاغة، ج١، ص١٧٤ – ١٧٥ دار احياء الكتب العربية ١٩٥٩ .
(٢) ابن عبد ربه – العقد الفريد، ص١٩ ، ٢٤ .
(٣) المسعودي – مروج الذهب، ج٢، ص٢٢٣، والثغر كل مكان قريب من ارض العدو ، ياقوت معجم الادباء، ج٢، ص٧ .
(٤) الا صبهاني – حلية، ج١، ص٤٩ .
(٥) الطبري – تاريخ الرسل والملوك، ج٥، ص١٣٤، حوادث سنة ٥٣٥ .
(٦) الا بشيهي – المستطرف، ج١، ص١٥٧ .
(٧) الابشيهي – المستطرف، ج١، ص١٥٨ .

وكان عطاء سلمان الفارسي خمسة آلاف ولكنه كان يحتطب في عباءة واذا خرج عطاؤه أمضاه ويأكل من سفيف يده (١)

والروايات عديدة حول ما كان يتصدق به عبد الرحمن بن عوف منها انه باع أرضاً له من عثمان بأربعين الف دينار وقسم المال في بني زهرة وفقراء المسلمين وامهات المؤمنين (٢) وتصدق في يوم واحد بمائة وخمسين الف دينار (٣) كما تصدق بسبعمائة بعير محملة بالبسر والدقيق والطعام (٤) وخير مثال لأحوال المسلمين عندما فتح عمرو بن العاص مصر وأرسل اليه المقوقس وفداً للمفاوضة ولكن عمراً حبس الرسل عنده يومين ليروا أحوال المسلمين وسمح لهم بالتجول في معسكرهم ، فعاد الرسل الى المقوقس ووصفوا له أحوال المسلمين بقولهم :

(رأينا قوماً الموت أحب الى أحدهم من الحياة والتواضع أحب الى أحدهم من الرفعة ليس لاحدهم في الدنيا رغبة انما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم ما تعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد واذا حضرت الصلاة لا يتخلف منهم واحد) (٥)

وهذا الوصف خير دليل على نوعية الحياة الاجتماعية للمسلمين في عهد الخليفة عمر.

التغيير في عهد الخليفة عثمان :

وبدأ التغيير يظهر تدريجياً في عهد الخليفة عثمان بن عفان الذي يختلف عن سلفه في امور شتى ، حيث اعطى الناس اللين والسماحة بعد الشدة والسعة ، وقد ذكرنا سابقاً ان الخليفة عمر كان يمنع كبار المهاجرين من الانتقال الى البلاد المفتوحة لكي لاتفتنهم حضارتها (٦)

---

(١) ابن سعد – الطبقات ، ج ٤ ، ص ٦٢ .
(٢) الاصفهاني – حلية الاولياء ، ج ١ ، ص ٩٨ – ٩٩ .
(٣) العقاد – عثمان بن عفان ، ص ١٢٩ – ١٣٠ .
(٤) ابن الاثير – أسد الغابة ج ٣ ، ص ٣١٥ .
(٥) عبد الحميد بخيث – عصر الخلفاء الراشدين ، ص ١٣٥ .
(٦) الطبري – تاريخ الرسل والملوك ، ج ٥ ، ص ١٣٤ ، حوادث سنة ٣٥ هـ .

ولكن عثمان خالف هذه السياسة وسمح لهم بالخروج الى الامصار ، وقد يكون لتسامحه ولينه أثر في ذلك وان لم يكن يتوقع في خروجهم أية نتائج سيئة، ولكنهم عندما (رأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الاسلام ...) ثم يضيف الطبري قوله : (ولم تمض سنة من امارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش اموالا في الامصار) (١)
فضلا عن ذلك فان الخليفة الجديد زاد الناس في اعطياتهم مائة مائة حتى قيل عنه انه (اشبع الناس في بيوتهم) (٢)

وترد الروايات عن عطايا عثمان الكثيرة لعدد من الافراد فيذكر انه كان يستلف من بيت المال مئات الآلاف ليعطي من يطلب منه ذلك (٣) ، فقد اعطى طلحة في خلافته مائتي الف دينار (٤) واعطى مروان خمس افريقية وغيره من اقربائه (٥) .

وقد ازداد الناس في عهده في تثمير الاموال واقتناء العقارات وبذا ظهرت طبقة من ذوي الثروات الكبيرة ، منهم على سبيل المثال الزبير الذي يذكر عنه الاوزاعي انه كان لديه الف مملوك يؤدون له الضريبة ولا يدخل بيت ماله منها درهم بل كان يتصدق بها ، وباع له دار بستمائة الف درهم وتصدق بها في سبيل الله (٦) وقال عنه المسعودي (٧) انه ابتنى داراً بالبصرة ودوراً أخرى بمصر والكوفة والاسكندرية ، ويبدو لنا من مبلغ الصدقات التي ينفقها انه كان يملك اموالاً عظيمة فيذكر ان له اربع نسوة اصاب كل واحدة منهن من تركته الف الف ومائتي الف . (٨) ومنهم ايضا طلحة الذي بنى داره المشهورة بالكوفة بدار الطلحتين ويذكر ان غلته من العراق الف دينار يوميا وقيل اكثر

(١) نفس المصدر السابق، ج٥،ص١٣٤ .
(٢) نفس المصدر، ج٥،ص٤٥ .
(٣) البلاذري - انساب الاشراف، ج٥،ص٥٨ .
(٤) نفس المصدر السابق، ج٥،ص ٢ ، ٩ ، ٣٨ .
(٥) نفس المصدر السابق، ج٥،ص٢٥ ، مروان بن الحكم .
(٦) ابن الأثير - اسد الغابة، ج٢،ص١٩٨ .
(٧) مروج الذهب - ج٢،ص٣٣٣ .
(٨) الاصفهاني - حلية الاولياء، ح١،ص٩١ .

وقد شيد له قصراً بالمدينة بالآجر والجص والساج (١) ووجد في تركته ثلاثمائة بهار من الذهب والفضة (٢) .

كان عبدالرحمن بن عوف من الاثرياء المعروفين حيث ان أصل ماله من التجارة والروايات عديدة عن أمواله وكثرتها فقد ذكر المسعودي (٣) انه ابتنى داره ووسعها وكان على مربطه مائة فرس وله الف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وقد خلف مالا عظيماً من ذهب قطع بالفؤوس إلى غير ذلك من الاموال (٤) وكذلك عبدالله بن عامر الذي اشترى سوق البصرة من ماله ووهبها لاهلها لايؤدون عليها خراجا (٥) كما اتخذ بمكة حياضا ونخلا وأتام النباح وهي قرية على الطريق بين مكة والبصرة وقريتين اخريين انبط فيها العيون وغرس النخيل فيهما (٦) .

ومنهم خالد بن سعيد الذي كان يقول اذا برقت السماء : (امطري حيث شئت فما تمطرين الا على بلد لي فيه مال) (٧) وقد ذكر سعيد بن المسيب ان زيد بن ثابت ترك من الذهب والفضة ماكان يكسر بالفؤوس غير ماخلف من الاموال والضياع بقيمة مائة الف دينار (٨) ويعتبر عمرو بن العاص من الاغنياء حيث خلف ثلثمائة الف دينار وخمسة وعشرون الف دينار ومن الورق الفي الف درهم وضيعته المعروفة بالرهط قيمتها عشرة الاف درهم (٩) ، وقيل عن الخليفة عثمان (رض) انه كان عند خازنه يوم قتل خمسون ومائة الف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه مائة الف دينار وخلف خيلا وابلا كثيرة (١٠) .

---

(١) المسعودي – مروج الذهب ، ج٢ ، ص٣٣٣ .
ابن الاثير – اسد الغابة ، ج٢ ، ص٦١ .

(٢) ابن عبد ربه – العقد الفريد ، ج٢ ، ص٢٧٩ ، البهار مزود من جلد الجمل .

(٣) مروج الذهب ج٢ ، ص٣٣٣ .

(٤) ابن الاثير – اسد الغابة ، ج٣ ، ص٣١٧ .

(٥) السكري – المحبر ، ص١٥٠ .

(٦) ابن قتيبة – المعارف ، ص ١٦٤ ، ط جوتنجن ، الازرقي – اخبار مكة ج١ ص٤٤١

(٧) البلاذري – انساب الاشراف ، ج٥ ، ص١٠٨ .

(٨) المسعودي – مروج الذهب ، ج٢ ، ص٣٣٤ .

(٩) المسعودي – مروج الذهب ، ج٢ ، ص٣٣٤ .

(١٠) نفس المصدر ج٢ ، ص٣٣٣ .

وقد ارتفعت الاسعار في هذه الفترة فيروى عن محمد بن سيرين ان النخلة بلغت على عهد عثمان بالف درهم (١) .

وقد خصص المسعودي فصلا لذكر الثروات الكبيرة في عهد عثمان ثم انه عاد وقارن الوضع بما كان عليه الخليفة عمر حين حج مرة فانفق في ذهابه وايابه ستة عشر ديناراً وقال لابنه عبدالله : (لقد اسرفنا في نفقتنا في سفرنا هذا) (٢) ولكن يبدو لنا ان اغلب هذه الثروات لم تكن مصادرها غنائم الفتوح او عطايا عثمان التي اقتصرت على عدد محدود من الافراد فقط ، فغنائم الفتوح لم تكن بالكثرة بحيث تكون هذه الثروات ثم ان التفاوت بين أكبر عطاء وأصغره لم يكن كبيراً والظاهر أن أغلب مصادر هذه الاموال كانت من التجارة والزراعة فعدد كبير من اهل البلاد كانوا يحترفون التجارة وقد ثمروا اموال الفتوح والعطاء في التجارة والزراعة فاصبحت لديهم هذه الاموال .

ولا ننسى ان البعض منهم كانت لديه الاموال منذ العصر الجاهلي واستمر في صدر الاسلام ولم يكن وجودها مستجداً في عصر عثمان ، ويبدو لنا ان نظرة الفرد العربي تغيرت عما كانت عليه سابقاً فتغير مجرى صرف الاموال تبعاً لذلك كما رأينا في اقتناء القصور والضياع والعبيد .

* **التطور الاجتماعي في العصر الاموي**
* **السياسة الاموية**

ذكرنا سابقاً ان ظاهرة الثراء لدى بعض الجماعات تركت بعض الاثر الواضح منذ عهد الخليفة عثمان ولكنها لم تؤد إلى نتائج عملية واضحة المعالم وعلى نطاق واسع ، ذلك لأن المجتمع كان في فترة انتقالية بين البداوة والحضارة وبين القديم والجديد ونظرا للظروف التي غلفت ذلك المجتمع فنرى ان تلك الفترة لم تكن مهيئة للاقتباس الجديد .

---

(١) ابن سعد — الطبقات الكبرى ، ج٤ ، ص٩٤ط ليدن ، حدد علي بن ابي طالب . المستوي الوسط بقوله (مادون اربعة نفعة وما فوقه كنز) ابن قتيبة عيون ج١ص٢٤٥ .

(٢) المسعودي - مروج الذهب ، ج٢ ، ص٣٣٤ .

ولكن التغيير السياسي المتمثل في انتقال الخلافة من المدينة إلى دمشق وما رافقه من حوادث الفتن والحروب الاهلية التي ايقظت بدورها الخصومة بين بني هاشم وبني امية وتبلورت بشكل آخر بفعل العصبية بين ولاة الامور واهل الحجاز ، كل ذلك دفع حكام الأمويين إلى اتخاذ خطة قوية في سبيل الاحتفاظ بحكمهم وابعاد ابناء الذين أسسوا الدولة الاسلامية عنه ، وهم الذين عرفوا بالاتجاه الاسلامي في الحكم والذي يصطدم مع سياسة الملكية الوراثية المستبدة التي سار عليها حكام الامويين . فعمدوا إلى ابعادهم عن السياسة واشغالهم بامور اخرى بصورة مباشرة او غير مباشرة وحجزهم داخل الحجاز خوفاً من الفتن وقد شبه الدكتور طه حسين خلفاء بني امية بقياصرة الرومان الذين كانوا يضيقون على شباب الارستقراطية الرومانية في ايطاليا (١) وكانت وسيلتهم في تنفيذ هذه السياسة اغداق الاموال على اهل البلاد وخاصة الاشراف منهم ، واستمرار العطاء على المشدوأين به ولكن بدون تقديم اي عمل او انتاج .

وبدأ بهذه السياسة الخليفة الاموي الأول معاوية الذي عرف بصفات الاين والحلم وضبط النفس في اكمل صوره ، فنراه يسيطر على الامصار الاسلامية وبينها الحجاز وهو لم يفتحها بحد السيف بقدر ماوصل اليها عن طريق شرائها باموال .

فهو حين صالح الحسين بن علي بن ابي طالب جعل له ما في بيت مال الكوفة وخراج دارا بجرد (٢) .

وكان يجيز كل من الحسن والحسين ابناء علي ، وعبدالله بن عباس وعبدالله بن جعفر سنويا الف الف درهم فضلا عما يعطيه للوافدين عليه منهم من انية الذهب والفضة وغيرها من الهدايا (٣) ،وكان يستخدم الاموال للوصول إلى اغراضه فيروى انه سمع كلاما فيه غلظة من عبد الرحمن بن ابي بكر الصديق فلم يكن ليعاقبه وانما استدعاه وقال له :

(مرحباً بك ياابن الشيخ الصالح قد علمت ان الذي خرج منك كان لجفائنا بك ولنأى دارنا عن دارك فارجع حوائجك ، فقال ، علي من الدين كذا واحتاج إلى كذا واقطعني كذا

(١) حديث الاربعاء ج١ص٢٦٤

(٢) الطبري – تاريخ الرسل والملوك ج٢ص٤

(٣) الابهيشي – المستطرف في كل فن مستظرف ج١ص٥٨ قدم اليه ابن عباس فاهدى اليه من هدايا النوروز وحللا كثيرة وآنية من الذهب والفضة وكان يغدق على الحسن الاموال الكثيرة الثعالبي – لطائف المعارف ص ٢٢

فقال معاوية — قد قضيت جميع حوائجك) (١) ولم تكن لتغضبه خشونة بعض اشرافهم معه وانما يتابلها بالحلم دائما فيروي الابهيشي ان لعبدالله بن الزبير ارض تجاور ارض معاوية وكان فيها عبيد يعملون فدخلوا ارض ابن الزبير وغضب وكتب إلى الخليفة معاوية يتهدده ويتوعده فلما قرأ معاوية الكتاب كان معه ابنه يزيد الذي طلب منه ان يرسل جيشاً اليه يأتيه برأسه ولكن جواب معاوية كان : (أما بعد فقد وقفت على كتاب ولد حوارى رسول الله (ص) وساء في ماساءه والدنيا بأسرها هينة عندي في جنب رضاه نزلت عن أرضي لك فأضفها بما فيها من العبيد والأموال والسلام)ويوضح لنا الكتاب مدى ضبط النفس والحلم لدى الخليفة كما انه في جوهره كان دبلوماسياً سياسياً وخاصة انه يعرف مركز ابن الزبير في الحجاز . وقد اهتم معاوية بمدينة مكة ولعله أراد ارضاء أهلها أيضاً فقد أجرى في الحرم عيوناً واتخذ لها اخيافاً فكانت حوايط فيها النخل والزرع منها حائط الحمام وحائط عوف وغيرهما (٣) وذكر ان معاوية اول من كسا الكعبة بالديباج واشترى لها العبيد ، كما اجرى لها وظيفة الطبيب بكل موسم وكان يبعث لها المجمر والخلوق في الموسم ورجب (٤) والاخبار كثيرة عن عطايا معاوية لاهل الحجاز في سبيل ارضائهم بصورة مباشرة وغير مباشرة(٥). وتابع الخليفة يزيد سياسة ابيه — اول الامر — رغم تغير الطباع فعندما اتاه عبدالله ابن جعفر وقال له — ان اباك كان يصلني بألف الف سنويا — قال له — فلك اربعة الاف الف (٦) ولما جاءه وفد اهل المدينة وفيهم عبدالله بن حنظلة واولاده الثمانية

---

(١) الازرقي — اخبار مكة ج١ص١٩٠ .

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف ج١ص١٩٠

(٣) الازرقي — اخبار مكة ج١ص٤٤٣
والاخياف —كل ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل ابن منظور — لسان العرب ج٩ص١٠٢

(٤) الفاسي — شفاء الغرام ج١ص١٢٠ ، ١٢٦ — والمجمر — البخور أو العود ، لسان العرب ج٤ص١٤٤

(٥) الاصفهاني — الاغاني ج١٥ص١١٠
الاصبهاني — حلية الاولياء ج١ص٢٩٦ و ج٢ص٤٩

(٦) الثعالبي — لطائف المعارف ص٢٢

اعطاه مائه الف ولكل من اولاده عشرة الاف (١) وبعث مرة إلى عبدالرحمن بن حسان عندما رأى منه جفوة بثلاثين الف درهم (٢) كما ان رسوله إلى أهل المدينة (قبل وقعة الحرة) قال لهم : (ان لكم في عهد الله وميثاقه عطائين في الشتاء وعطاء في الصف وان أجعل سعر الحنطة عندكم سعر الحبط والخبط يومئذ سبع أصع بدرهم) (٣) .

وقيل عن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان انه عندما تولى المدينة لم يترك فيها فقيراً الا اغناه ولا مديوناً الا ادى عنه دينه (٤) وكان والي فارس — عمر بن عبيدالله بن معمر يبعث الاموال الكثيرة إلى أهل المدينة وكذلك الثياب المعمرية (٥) .

واستمر خلفاء بني أمية على هذا النهج السياسي ، فالوليد بن عبدالملك عندما حج مرة قسم بالمدينة رقيقاً كثيراً وآنية من الذهب والفضة وأموالا بين الناس (٦) ويعتبر الخليفة الوليد أول من ذهب البيت في الاسلام حيث أرسل واليه القسري ثلاثين الف دينار وأمره بأن يجعلها صفائح ذهبية على باب الكعبة والاساطين والميزاب (٧) وذكر اليعقوبي (٨) أنه حين حج سنة ٩١ هـ ليطلع على البيت والمسجد النبوي بعد تعميره قسم أموالا كثيرة بين أهل المدينة أيضاً (٩) ، وحين حج الخليفة سليمان سنة ٩٧ هـ قسم في أهل المدينة أموالا ثم فرض لقريش خاصة اربعة آلاف فرضه لم يدخل فيها حليفاً ولا مولى فاجتمع مشيخة قريش وجعلوها لحلفائهم ومواليهم فلما علم فرض لهم اربعة آلاف فريضة اخرى (١٠) وكان عمر بن عبد العزيز قد تولى المدينة في خلافة الوليد وليس بغافل عن احوالها فنراه — بعد خلافته — يعطي بني هاشم الخمس ويرد قرية فدك إلى ولد فاطمة (١١) وأكرم ولد علي بن

---

(١) البلاذري —انساب الأشراف ج٤ص٤٣

(٢) نفس المصدر ج٤ ص١١

(٣) البيهقي — المحاسن والمساوي ج١ ص٤٧

(٤) الابهيشي — المستطرف ج١ص١١٧

(٥) الا صفهاني — الا غاني ج١٥ص ٢٨٨

(٦) الطبري تاريخ الرسل والملوك ج٢ص١٢٣٣ط ابريل سنة ١٨٨٣

(٧) اليعقوبي — التاريخ ج٣ص٣٠

(٨) نفس المصدر السابق ج٣ ص٣٠

(٩) نفسه ج٣ص٤١ط الغرى بالنجف

(١٠) نفس المصدر ٣ ص٥٠ وكانت فدك قد اقطعها معاوية لمروان فوهبها الاخير لابنه عبد العزيز ثم ورثها عمر .

(١١) المسعودي — مروج الذهب ج٣ص١٨٤

أبي طالب (١) وعندما بلغه ما يعانيه أهل المدينة في عهده من الجهد جهز اليهم أحمالا فيها الطعام والاموال والملابس لتوزع عليهم (٢) وروى أنه أرسل إلى المدينة في ولاية أبي بكر بن حزم اموالا قسمت بين أهلها .

ولم ينقطع العطاء عن أهل المدينة الا سنة واحدة في خلافة هشام بن عبدالملك حين خرج عليه زيد بن علي ، وقد اعاده الوليد بن يزيد حين تولى الخلافة (٣) .

من خلال ما تقدم نرى ان حكام الامويين استخدموا الاموال والعطايا كوسيلة لاسترضاء اهل الحجاز وابعادهم عن الاشتراك السياسي ،وقد صور هذه العطايا الشاعر الاحوص عندما قبض من احدهم عشرة آلاف دينار بقوله : (٤)

وما كان مالي طارفاً من تجارة   وما كان ميراثاً من المال مقلداً
ولكن عطايا من امام مبارك   ملا الارض معروفاً وجوداً وسؤدداً

ب- الاختلاط بالامم المغلوبة

لم تكن الاموال وحدها قادرة على تهيئة الجو الاجتماعي الجديد ، ولكن تبعها عن طريق الفتح عدد عظيم من أهل البلاد المفتوحة الذين دخلوا في الاسلام ، ثم ان طائفة كبيرة من السبايا والرقيق قدموا المدينة ووزعوا على أهلها .

ان اختلاط الشعب العربي بغيره من الشعوب كالفرس والروم كان امراً حتمياً ونتيجة لحركة الفتوح التي هيأت له التطلع إلى ما عند تلك الامم من حضارات واساليب الحياة المختلفة التي لم يألفها العرب فضلا عما حصل عليه الفاتحون من الرقيق الفارسي والرومي فقد روى الطبري (٥) ان اول سبي وصل الى المدينة في خلافة ابي بكر ارسله المثنى من عين التمر . وذكر الواقدي (ان سبي قيسارية بلغوا اربعة الاف بعثهم معاوية إلى الخليفة عمر

(١) الاصفهاني - حلية الاولياء - ج٥ص٣٢٨.
(٢) التوحيدي - الامتاع والمؤانسة ج٢ص٧٢ .
(٣) الاصفهاني - اغاني ج٧ص٢٢ ط دار الكتب
(٤) نفس المصدر ج٩ص٨ اخبار كثير - الطبعة المصورة .
(٥) تاريخ الرسل والملوك ج٤ص٢٧ .

الذي قسمهم على يتامى الانصار وجعل بعضهم في الكتاب والاعمال للمسلمين (١).

وبدأ هؤلاء الموالي يشتركون في تغيير المجتمع الحجازي فمنهم من عمل بانواع الحرف كالحدادة والنجارة والبناء وغير ذلك مما كانوا يتقنوه في بلدانهم وقد أعطى الشرع الاسلامي للفرد حتى امتلاك ما شاء من الاماء ، لذا نرى ان هذه الكثرة التي انحدرت من بلاد مختلفة ومن طبقات اجتماعية متباينة كان لها اثراً كبيراً في شؤون الحياة العامة والخاصة .

وقد وصف ابن خلدون هذا التغيير بقوله : (٢) (لما ملك العرب فارس والروم واستخدموا بناتهم وابناءهم ولم يكونوا لذلك العهد في شيء من الحضارة ... واستعملوهم في مهنهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في امثال ذلك والتومة عليه افسدوهم علاج ذلك والقيام عليه والتفنن منه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في احواله فبلغوا الغاية من ذلك وتطوروا بتطور الحضارة والترف في الاموال واستجادوا المطاعم والمشارب والملابس والموانيء والاسلحة والفرش والانير وسائر الماعون والحرف فاتوا من ذلك وراء الغاية) .

وينطبق كلام ابن خلدون على ما حدث في الحجاز في هذه الفترة وخاصة ان كثيراً من النساء اصبحت أمهات اولاد . فقد روي عن أهل المدينة انهم كانوا يكرهون اتخاد امهات الاولاد فلما قدم سبي فارس على عمر وكان فيه بنت يزدجرد فقومن واحدهن علي فاعطى واحدة لأبن عمر فولدت له سالماً وأعطى الاخرى لولده الحسين فولدت له علياً واعطى اختها لمحمد بن أبي بكر فولدت له القاسم ففاق هؤلاء أهل المدينة علماً وتقى وعبادة وورعا فرغب الناس حينئذ بالسرارى (٣).

وقد كثرت أعدادهم حتى خشي بعض الصحابة عاقبة ذلك فقد روي عن أبي الدرداء أنه قال عندما فتحت قبرص ونهب منها السبي (اذا سلط الله السباء على قوم فليس له فيهم حاجة)(٤)

وقد قام هؤلاء الاقوام بنقل صنوف الحضارة إلى المجتمع الحجازي، ويبدو أن العرب أقبلوا على هذا الاقتباس بحذر واعتدال في العصر الراشدي وخاصة في عهد الخليفة عمر — حيث نرى أثره محدوداً وطفيفاً ذلك ان المسلمين لازالوا يعيشون مبادىء الاسلام والسنة فضلا للموقف الحازم للخليفة عمر في نبذ هذه الاساليب كما يتضح من قوله (دعوا التنعم

(١) البلاذري — فتوح البلدان ص ١٤٧ ، ٢٦٣ .
(٢) المقدمة ص ١٤٤ ط بولاق .
(٣) ابن حجر — تهذيب التهذيب ج٣ص٤٣٧ .
(٤) ابن الاثير — الكامل في التاريخ ج٣ص٩٧ .

وزي العجم) (١) اضافة لانشغال المسلمين بامور الفتح والجهاد ، ولكن التأثير بدأ ينتعش في خلافة عثمان (٢) ولكن الاحوال السياسية لم تكن لتفتح له المجال الواسع الذي كان له في العصر الاموي .

* مظاهر التطور الاجتماعي :

* البناء : —

من خلال البحث في مجال البناء والعمران نرى التغير طرأ اولا في مواد البناء ، فالبيوت عامة كانت مادة البناء فيها الطين واللبن وسقفها من الجريد (٣) وهو ما كان متوفراً في البلاد قبل الفتح ، ويبدو ان التغيير بدأ منذ عهد الخليفة عمر الذي كان يقول : (على كل خائن امينان الماء والطين ومر ببناء يبني بآجر وجص فقال لمن هذا ؟ قالوا لفلان عامل له فقال : تأبى الدراهم الا أن تخرج اعناقها وشاطره ماله) (٤) وهذا يناقض قول سيد امير علي في أن البيوت في مكة كانت تشيد اما من الحجارة او الاجر وفي المدينة كانت معظم البيوت من الآجر (٥) .

ويبدو من ضآلة المعلومات حول العمران انه كان بشكل فردي وعلى مستوى ضيق :

وبدأ التطور العمراني يظهر بوضوح في عهد الخليفة عثمان حيث اخذت الطبقة الغنية تشيد القصور والدور بالآجر والجص وتتفنن في زخرفتها وترقيطها بالحجارة الملونة واتخاذ الخشب الساج في أبوابها الخ .

روى المسعودي ان سعد بن أبي وقاص بنى داره بالعقيق فرفع سمكها ووسع فضاءها

(١) ابن عبد ربه — العقد الفريد ج١ص٧ ، ٣٤ ، ٦٩ .
(٢) المسعودي — مروج الذهب ج٢ص٣٣٣.
(٣) ابن سعد — الطبقات الكبرى ج٨ص١٢٠ط ليدن حول بناء بيوت الرسول (ص) .
ابن الاثير — الكامل ج٣ص٥٧ حوادث سنة ٢٣هـ .
(٤) ابن قتيبة — عيون الاخبار — مجلد ج٣ص ٣١٢
(٥) مختصر تاريخ العرب ص ٧٢

وجعل اعلاها شرفات ، وبنى المقداد ايضاً داراً بالجرف وجعل اعلاها شرفات كما جعلها مجصصة الداخل والخارج .

وقد بنى معاوية بن أبي سفيان دوراً في مكة يقال لها الرقط (١) استخدم في بنائها عمالا من الفرس (٢)

ويبدو ان هناك نهضة عمرانية شملت البلاد حيث امتد البناء في المدينة الى اسفل الوادي وأعلاه ونرى ذلك واضحاً في قول ابن عباس لابن صفوان (هيهات هيهات — تركت والله سنة عمر . . قضى عمر ان اسفل الوادي واعلاه مناخ للحجاج وان اجياد وقعيقعات للمريحين — والذاهبين واتخذتها وصاحباك دوراً وقصوراً (٣). وقد بالغوا بالعناية في بناء القصور حتى انها كادت تفوق في هيئتها قصور دمشق عاصمة الخلافة فيروى ان الخليفة معاوية بن أبي سفيان حين حج أحد الاعوام وقف أمام دار عبدالله بن الحارث يتعجب من حسن بنائها فخرج عليه عبدالله قائلا (لا أشبع الله بطنك أما تكفيك الخلافة حتى تطلب هذه الدار (٤) وقد ذكر السمهودي (٥) عدداً كبيراً من بينها قصر عروة الذي قال عنه صاحبه (والله لابنيه بناءاً لا يبلغونه الا بشق الانفس) فبناه وهيل بثاره وقال فيه :

بنيناه فاحسنا بناه فحمد الله في خير العقيق

تراهم ينظرون اليه شذرا ياوح لهم على وضح الطريق

وهذا دليل واضح على وجود تنافس شديد بين الناس وخاصة الاغنياء منهم في مجال البناء والعمران .

ومن بين هذه القصور : قصر ابي هشام المغيرة بالعقيق والذي كلفه مالا كثيراً ويعرف بقصر بنت المرارزقي ثم قصر أبي بكر بن عبدالله بن مصعب الزبيري الذي عرف بالمستقى والذي قال فيه الشاعر :

ياقصر لو كان خالداً احدا بالجود والمجد كان مولاكا

---

(١) مروج الذهب ج٢ص٣٣٣ والجرف — موضع على ثلاث اميال من المدينة نحو الشام — ياقوت معجم ج٢ص١٢٨

(٢) الازرقي — اخبار مكة ج١ص٤٤٩ — ٤٥٢

(٣) الازرقي — اخبار مكة ج١ص٣٩٢ ، واجياد موضع في مكة يلي الصفا وقعيقعات جبل بمكة وقيل انها قرية قرب مكة — ياقوت — معجم البلدان ج١ص١٠٥ و ج٤ص٣٧٩

(٤) الاصفهاني — الاغاني ج١ص٢١٩

(٥) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ج٢ص ١٩٢—١٩٨

وقد بنى سعيد بن العاص بن سعيد قصراً في العرصة وغرس فيه النخل والثمار وقد سميت عرصة الماء وفيها قال الشاعر ابو قطيفة شعره المشهور :

والقصر دو النخل فالجماء بينهما اشهى الى النفس من ايوان جبرون(١)

كما روى عن سكينة بنت الحسين انها باعت اموالها بازوراء واستبدلت بها قصراً في العقيق يسمى البريدي ، وروى انها خرجت اليه عندما سال العقيق وجلست على الجرف مع جواريها وقالت : (والله لهذه الساعة في هذا القصر خير من الزوراء) (٢)

ويبدو أن التطور العمراني شمل أكثر أحياء المدينة حيث أن أبا علي الهجري (٣) يستعرض لنا هذه القصور بقوله: (إن سيل الوادي يمضي إلى الشجرة التي بها محرم رسول الله (ص) ثم يلي ذلك مزارع أبو هريرة (رض) ثم تتابع القصور يمنة ويسرة بها منازل الاشراف فيها يبتدؤون منها منازل عن يمين الجائي من مكة (ومنها) قصر لاسحاق بن أبي أيوب المخزومي وقصر لابراهيم بن هشام وقصر لآل طلحة بن عمر بن عبيد الله ومنازل أسفل منها عن يمين الطريق لآل سفيان بن عاصم ...ووجاهة ذلك في قبالة جماء تضارع منازل لعبدالعزيز بن عبدالله بن عمرو بن عثمان ثم يليها قصر طاهر بن يحي ومنازل ولده (ووجاهها) في صير حرة الوبرة مزارع عروة بن الزبير وبئره وأسفل منها بئر المغيرة بن العاص وأسفل منها ضفائر قصر مراجل والزبيري قصر سكينة بنت الحسين وقصور لغير واحد ثم قصور ابن المرازقي في الزهرية ثم منازل جعفر بن ابراهيم الجعفري ثم يمضي إلى بئر ردمة وقصور كثيرة يمنة ويسرة .. الخ)

ونلاحظ أن البناء كان في تزايد مستمر ولم يقتصر على طبقة معينة وإنما كان هناك حركة عمرانية تساير طبقات المجتمع .

وشملت النهضة العمرانية – الاماكن المقدسة – أيضاً .

وذكر أن الخليفة عثمان زاد في مسجد الرسول (ص) ووسعه وبناه بالحجارة المنقوشة وجعل عمده من حجارة فيها رصاص وسقفها من الساج (٣) وفي خلافة الوليد بن عبدالملك

---

(١) وفاء الوفاء باخبار دار المصطفى ج٢ص٢٠١ ياقوت الحموي معجم البلدان ج٤ص١٠١ العرصة في العقيق قرب المدينة

(٢) الاصفهاني – الاغاني ج١٤ص١٧٢ اخبار الحسين بن علي .

(٣) السمهودي – وفاء الوفاء ج٢ص٢٠١ – وجماء تضارع – هضاب في المدينة ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج٢ص١٥٩

(٤) الطبري – تاريخ الامم ج٥ص٥٦

تولى عمر بن عبدالعزيز واليه على المدينة عمارة المسجد النبوي حيث بناه بالحجارة المنقوشة والفسيفساء والمرمر وسقفه بالساج وماءالذهب ووسعه بإدخال حجرات زوجات النبي (ص) فيه ، وقد دام العمل فيه ثلاث سنوات (١) .

وأصاب التغيير المسجد الحرام أيضاً ،وكان الخليفة عبدالملك أول من رفع جدرانه وسقفه بالساج وجعل في راس كل اسطوانة خمسين مثقال من الذهب ، وأكمله ابنه الوليد حيث ازر المسجد من داخله بالرخام وجعل له شرفات (٢) وروى أنه (الوليد) أرسل إلى واليه على مكة ثلاثين ألف دينار — ضربت صفائح ذهب على الباب والاساطين والاركان والميزاب (٣)

وقد تكون أعمال حكام بني أمية هذه ارضاء لابناء الحجاز والمسلمين عامة ، فضلا عما يظهره لنا التأثير الحضاري في هذا المضمار .

الألبسة :

غلبت البساطة وقلة التنوع على الالبسة في عصر الرسالة وعهد أبي بكر وعمر ، وقد طرأ التغيير على الالبسة تبعاً للتغيير الذي طرأ على المجتمع عامة وكان للاقتباس الاجنبي أثره الواضح مع ماهيئته الاموال اللازمة لذلك . وروى أن الخليفة عمر حين ذهب إلى الجابية — بعد فتح الشام — (خرج اليه القواد لاستقباله على الخيول وعليهم الديباج والحرير ، فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها وقال لهم سرعان مالفتم عن رايكم (٤) ، ويبدو أن الذي رآه الخليفة كان مستحدثاً وغريباً لذا رفضه وأخذ يتشدد في سياسته بمنع المسلمين من الخروج إلى الامصار الأخرى . وأخذت الاحوال بالتغير التدريجي حين ولي الخلافة عثمان الذي

(١) ابن رستة — الاعلاق النفسية ص٦٩
ياقوت الحموى — معجم البلدان ج٧ص٤٣١
البلاذري — فتوح ص ٢٠ — ٢١
(٢) الفاسي — شفاء الغرام في اخبار البلد الحرام ج١ص٢٢٥
(٣) اليعقوبي — التاريخ ج٣ص٢٩
(٤) الطبري — تاريخ الرسل والملوك ج٤ص١٥٨ حوادث سنة ١٥ هـ وقعة اجنادين .

عرف بسماحته ولينه .فعرف المجتمع أنواعاً جديدة من الالبسة منها الملونة والموردة والقز والحرير والديباج والكتان الخ .

ويبدو أن الخليفة عثمان كان ممن يهتم بلباسه ،روى البلاذري (١) أنه رؤى مرة وعليه ثوبان معصفران ووراءه غديرتان ومرة عليه خميصة سوداء ،وأخرى عليه بردا ثمنه مائة دينار ،كما لبس القمصان القوهية وغيرها (٢)

ويلاحظ أن الرجال أخذوا يلبسون مطارف الخز ،فقيل عن الحكم بن العاص أنه دخل المدينة وعليه فزر خلف ثم دخل على عثمان وأخذ يلبس الخز والطيلسان (٣) وروى القاسم بن محمد على رحله قطيفة خز وعليه جبة خز خضراء ورداء ممصر(٤) وكان محمد بن الحنفية (يكثر من ارتداء مطارف الخز الملونة فعن أبي إدريس قال : قال لي محمد بن الحنفية (مامنعك أن تلبس الخز فانه لابأس به اقلت أنه يجعل فيه الحرير) (٥) ويبدو أن بعض الزهاد كان يتحرج من لبس الخز لما روى عن الرسول (ص) بتحريم لبس الحرير للرجال .

وقد لبس الرجال ثياب الكتان ، وأول من لبسه زياد بن أبي سفيان (٦) ، وروى أن الشعبي كان يلبس الازار الكتان المورد (٧) ،ويبدو أن أغاب الكتان كان من طبقة الأغنياء فميمون يقول (لايلبس الكتان إلا غني أوغري (غلو) (٨) ،كما ساد لبس الطيالسة بين الناس ، ذكر عن عروة بن الزبير أنه كان يلبس الطيلسان المزرر بالديباج وكذلك سعيد بن المسيب(٩) وكان كريب بن أبي مسلم مولى عبدالله ابن عباس وأصحابه يلبسون طيالسة طوالاً أزرارها بالديباج (١٠) ومن مظاهر الترف أيضاً مايروون عن مروان بن عثمان بن عفان أنه كان يلبس— أحياناً —

---

(١) انساب الاشراف ج٥ص٣ .
(٢) نفس المصدر السابق ج٥ص٣ و ٨ .
(٣) اليعقوبي — التاريخ ج٢ص١٥٤ط النجف ١٩٦٤ .
(٤) ابن سعد — الطبقات الكبرى ج٥ص١٤٢ ، ٥٠ط ليدن .
(٥) نفس المصدر السابق . والصفحة والمطارف اردية من خز مربعة لها أعلام .
(٦) البيهقي — المحاسن والمساوىء ج٢ ص٥٠
(٧) الاصبهاني — حلية الاولياء ج٤ص٣٢٤
(٨) نفس المصدر ج٤ص٨٦
(٩) ابن سعد — الطبقات الكبرى ج٥ص٩٩ ، ١٣٤ ليدن .
(١٠) نفس المصدر السابق ج٥ ص٢١٦

سبعة قمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض ورداء عدني بثمن ألفي درهم(١)وماروى عن البسة الشاعر عمر بن أبي ربيعة الكثير منها ماجاء في كتاب الأغاني : (أنه حج عاماً من الأعوام على نجيب له مخضوب بالحناء مشزر الرجل بتراب ومعه جماعة من حشمه وغلمانه وعليه حلية موشية بجانبه وعلى ابن سريج ثوبان هرويان مرتفعان فلم يمروا بأحد إلا أعجب من حسن هيئتهم)(٢) .

ويبدو أن أغلب الشباب من ذوي الثروات كانوا يجارونه في هذا المضمار . وقد كان عروة بن الزبير يصلي في قميص وملحفة مشتملاً بها على القميص (٣) . وعرف سعيد بن المسيب بحبه للتنوع في الألبسة حيث كان يقول : (اصلح قلبك وألبس ماشئت) (٤) وقال عنه اسحق بن يحيى — (رأيت سعيد بن المسيب وعليه ابريسمان ممشقان وقميص شقائق تخرج يداه من كمه) (٥) وقد لبس الرجال الثياب القسي المستورد من الشام ومصر (٦)كما لبسو ثياب العصب(٧) وذكر عن عروة بن الزبير أنه كان يلبس في الحرقباء سندسي مبطن بحرير (٨) وأخذ بعض الأغنياء — يتغالون في شراء الالبسة الغالية الثمن . فيروى أن كسوة بكر بن عبدالله المازني قومت بأربعة آلاف (٩) — وكان الشاعر المعروف بالعرجي—أحد أحفاد عثمان بن عفان—يلبس الحلة بخمسمائة دينار (١٠)كما ان أبن عباس كان يشتري الرداء بألف (١١)ومثله محمد بن عمرو الذي كان يشتري المطرف

---

(١) الأصفهاني — الاغاني ج١٧ص٨٩ط الساسي .

(٢) نفس المصدر ج١ص ١٠١

(٣) ابن سعد — الطبقات ج٥ص١٣٤ط ليدن الملحفة مايلبس فوق سائر الا لبسة

(٤) الاصبهاني — حلية ج٢ص١٧٣

(٥) ابن سعد — الطبقات ج ٥ ص ١٠٣ وكان احد التابعين (ابا جعفر محمد) يقول : لابأس بالاصبعين مع العلم بالابريسم بالثوب ج ٥ ص ٢٣٦ .

(٦) البخاري — الصحيح ج ٧ ص ٤٥ وهي ثياب مضلعة فيها الحرير امثال الاترنج .

(٧) الاصفهاني — اغاني ج ٩ ص ١١ — في شعر كثير — والعصب برودينمية يعصب غزلها ثم يصبغ فيأتي موشيا لبقاء ما عصب منه ابيض لم يأخذ الصبغ .

(٨) ابن سعد — الطبقات ج ٥ ص ٣٤ ط ليدن .

(٩) الاصبهاني — حلية الاولياء ج ٢ص٢٢٧ لايذكر نوعية النقود درهم او دينار .

(١٠) الاصفهاني — اغاني ج١ ص ٣٩٥ .

(١١) ابن قتيبة — عيون الاخبار ص ٢٩٨ ط دار الكتب .

بسبعمائة ويلبسه (١) كما روى عن عمر بن عبدالعزيز عندما كان والياً على المدينة كان يلبس الثوب بأربعمائة درهم ويقول ماأخشنه وأغلظه (٢) وكان سعيد بن المسيب يلبس الحلة بألف درهم ويدخل المسجد (فقيل له في ذلك فقال إني أجالس ربي) (٣) كما عرف عبدالله بن جعفر بجودة لباسه. فكان يلبس الجبة الخز المنسوجة بالذهب وثمنها ثلثمائة دينار (٤)

وقد حدد عبدالله بن عمر – في هذه الفترة – المستوى الوسط للالبسة وثمنها عندما سأله رجل عما يلبس من الثياب – فقال: (مالا يزدريك فيه السفهاء ولا يعتبك به الحلماء .. مابين الخمسة إلى العشرين درهم (٥) ولعل ابن عمر يتكلم بلغة الرجل المتدين البعيد عن حياة الترف التي عمت المجتمع في عصره.

وفي هذا العصر تابع الناس المودة السائدة أو الشهرة كما تعارفوا في تسميتها حينئذ، قال معمر: (رأيت قميص أيوب السختياني يمس الأرض) فسألته عن ذلك فقال: (أن الشهرة كانت فيما مضى بتذييل القميص وأنها اليوم في تشميره) (٦)

ويتضح لنا من رواية بن أبي عبدالرحمن: (رأيت مشيخة في المدينة في زي الفتيان لهم الغدائر وعليهم المورد والمعصفر وفي أيديهم المخاصر وبها أثر الحناء ودين أحدهم أبعد عن الثريا إذا أريد دينه) (٧) وماذكره طاوس بن كيسان من أنه (رأى فتية من قريش يرفلون في مشيتهم فقال انكم لتلبسون لبوساً ما كانت آباؤكم تلبسها وتمشون مشية ما تحسن الرقاص يمشونها) (٨) بأن الترف – في مجال الالبسة – قد عم الجميع شباباً وشيوخاً لذا نرى تبعاً لذلك ظهور موجة الاعتراض من علماء الدين.

---

(١) ابن سعد – الطبقات ج ٥ ص ٥٠ .

(٢) الاصفهاني – الاغاني ج ١٧ ص ٨٩ ، وابن سعد – الطبقات ج٥ ص ٢٤٦

(٣) الابهيشي – المستطرف ج٢ ص ٢٦

(٤) الاصفهاني – الاغاني ج١٢ ص ٢١٩ ترجمة عبدالله بن معاوية ط دار الكتب المصورة .

(٥) الاصبهاني – حلية الاولياء ج١ ص ٣٠٢

(٦) نفس المصدر السابق ج ٣ ص ٧ ذكر أيوب السختياني .
ابن عبد ربه – العقد الفريد ج ٣ ص ٢٨٥ الطبعة الاولى الازهرية .

(٧) ابن قتيبة – عيون الاخبار مجلد (١) ص ٢٩٩

(٨) الاصبهاني – حلية الاولياء ج٤ ص ١٠ ج ١ ص ٣٧٩ ابن سعد – الطبقات ج٤ ص ٣٩٥

وقد كانت ألبسة الصوف مرفوضة ومكروهة من المجتمع ذكر الاصبهاني (١) عن أبي العالية قوله : (زارني عبدالكريم أبو أمية وعليه ثياب صوف فقلت هذا زي الرهبان ان المسلمين إذا تزاوروا تجملوا)، والخليفة الاموي معاوية عندما دخل عليه النخار العذري مرتدياً العباءة احتقره فرد عليه النخار بقوله — (ياأمير المؤمنين ليس العباءة تكلمك انما يكلمك من فيها) (٢) حيث كان لبس العباءة مكروهاً أيضاً حينئذ .

أما لباس الرأس فالعرب منذ القديم كانت تستخدم العمائم ، واستمر لبسها في هذا العصر مع شيء من التطور ، حيث لبس الناس العمائم المصنوعة من الخز(٣) وجعلها بعضهم سوداء ويحليها ببرنسي ارجواني (٤) ، وكان محمد بن الحنفية يتعمم بعمامة حرقانية ويرخيها شبرا أو أقل (٥) .

ولبس البعض مع العمامة ، القلنسوة ويسدل من الخلف شبراً منها (٦) وقد تنوعت ألوانها فمنها البيضاء والخضراء، ومنها ما صنع من الخز ،وروى عن نافع بن جبير أنه كان يلبس قلنسوة أسباطاً (مسمطة) وعمامة بيضاء (٧) ولعل الكثير من الرجال كانوا يرتدونها.

ويستلفت الانتباه في هذا العصر اهتمام الرجال ببعض مظاهر الزينة كالخضاب مثلاً حيث نرى أغلبية الرجال كانوا يصبغون رؤوسهم ولحاهم بالحناء والكتم ، وذكر ابن سعد (٨) عدداً كبيراً منهم مثل علي بن الحسين الذي كان يخضب بالحناء والكتم وكذلك القاسم بن محمد ومحمد بن الحنفية ، وكان أبو سلمة عبدالرحمن بن عوف يخضب بالوسمة والسواد ،ومنهم من يصفي لحيته بالدهن . وقد اهتموا بتصفيف شعرهم فيروى عن سعيد بن المسيب ان كان له لحية ليست بالكثيرة قد فرقها (٩) وأخذ الشباب في هذا العصر يصفف شعره وفق موضات خاصة حتى ذكر أن عمر بن عبدالعزيز (كان إذا صلى

---

(١) حلية الاولياء ج٢ ص ٢١٧ (ابو العالية — أحد التابعين)

(٢) ابن قتيبة — عيون الاخبار مجلد (١) ص ٢٩٧ — المبرد — الكامل ج١ ص ٢٧٥

(٣) ابن سعد — الطبقات ج٥ ص ١٤١ ط ليدن

(٤) ابن سعد — الطبقات ج٥ ص ١٠٢ ط ليدن كان سعيد بن المسيب يلبس في الفطر والاضحى ذلك .

(٥) نفس المصدر ج٥ ص ٨٤

(٦) نفسه ج٥ ص ١٤٦

(٧) نفسه ج٥ ص ٤٢ — ٤٦، ١٥٢ عن نافع بن جبير .

(٨) الطبقات الكبرى ج٥ ص ٨٤ ، ١٤٣، ١٦٠ ، ١٦١، ١١٦ .

(٩) نفس المصدر ج٥ ص ١٠٣ .

الجمعة بعث الحراس وأمرهم أن يقوموا على باب المسجد ولا يمر عليهم رجل مصفف شعره لايفرقه إلا جزوه) (١) .

ومن مظاهر الزينة الاخرى استخدام المسك والطيب باسراف ، فقد ذكر ابن قتيبة (٢) : (عن أبو الضحى قوله : رأيت على رأس ابن الزبير من المسك مالو كان لي كان رأس مال). وكان ابن عباس يطلي جسده بالمسك ، وروى عنه أيضاً أنه حين أحرم كانت الغالية على صلعته كأنها الرب ، وكان بن مسعود إذا خرج إلى المسجد عرف جيرانه ذاك الطيب ريحه.

وكذلك عمر بن عبدالعزيز الذي كان يكثر من الطيب ،وقد روى عن طائفة من شباب ذلك العصر أنهم كانوا يعطون الدراهم الكثيرة للغسال حتى يغسل ثيابهم في أثر ثياب عمر بن عبدالعزيز من كثرة الطيب فيها (٣) .وقد أهدى عبدالله بن جعفر إلى الخليفة معاوية قارورة كبيرة من الطيب وحين سأله كم أنفق عليها ذكر مالاً كثيراً (فقال له هذه غالية فسميت بذلك) (٤) .

وكان علماء الدين في هذا العصر يرغبون فيه ولا يرون مايعارض الشرع فحين دخل رجل على محمد بن المنكدر يسأله عن التطيب والتزين وجده قاعداً على حشايا مصبغة وجاريته تغلفه بالغالية فقال له — (يرحمك الله جئت أسألك عن شيء فوجدته فيك — فأجابه — على هذا أدركت الناس (٥) وكذلك كان مالك بن أنس إذا جلس للحديث يوضع العود فلا يزال يتبخر حتى يفرغ (٦) .

وقد لبس الرجال الخواتم في أيديهم ونقشوا عليها ما يرغبون (٧) فكان فص القاسم ابن محمد من فضة مكتوب عليه اسمه واسم أبيه (٨) واقتنى بعضهم الخواتم الغالية الثمن(٩) . وعلى الرغم من قلة الروايات التاريخية عن الألبسة ومظاهر الزينة لدى الرجال إلا أنها كافية

---

(١) نفس المصدر ج٥ص ٢٨٢

(٢) عيون الاخبار مجلد ١ ج٣ص ٣٠٣

(٣) الاصفهاني — الاغاني ج٦ ص ٢٦٢ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب .

(٤) الابهيشي — المستطرف ج٢ ص٢٨ .

(٥) ابن عبد ربه — العقد الفريد ج ٣ص ٢٨٦ الطبعة الاولى سنة ١٣٢١ هـ .

(٦) امين الخولي — مالك بن أنس ص ٢٥٠ .

(٧) ابن قتيبة — عيون الاخبار ج١ ص ٣٠٢ .

(٨) ابن سعد — الطبقات الكبرى ج٥ ص ١٤١ ط ليدن

(٩) الابهيشي — المستطرف ج٢ ص ٢٨ اشترى ابن عمر بن عبدالعزيز فص خاتم بألف دينار فكتب اليه ابن عمر (عزمت عليك الا مابعت خاتمك وجعلتها في بطن جائع) .

لاعطائنا صورة واضحة عن العصر ، وذلك لأن من عادة المؤرخين دائماً الاهتمام بالخاصة من أبناء المجتمع دون العامة . ومع ذلك فيمكننا القول بأن هناك اهتماماً من الناس عامة بالأناقة والذوق الرفيع والاقتباس الأجنبي وترك ماكان عليه السلف من البساطة في الهيئة.

* الألبسة النسائية :

أخذت المرأة حظاً من فنون الزينة المختلفة سواء في ملابسها أو في حليها وعلى الرغم من أن المؤرخين لا يوردون لنا الأمثلة العديدة عن ذلك لأن المرأة لم تكن تبدي زينتها ، ولكن تصوير الاختلاط ونتاجه الذي ظهر في الشعر قد أجلى لنا بعض جوانب الموضوع.

إن الزي الذي كانت ترتديه النساء بصورة عامة هو — الصدار والمجول — وهما قميصان قصيران لا أكمام لهما ودونهما السراويل — وفوق الصدار الدرع — وهو جلباب شامل يحيط بدثارها ويلبس النطاق دون الدرع — تشده على وسطها — ثم تلبس الحلة — وهي ثوب يظاهره ثوب آخر يغلب أن يكون ظاهر الثوبين رقيقاً شفافاً (١) .

وظهرت في العصر الأموي الثياب المروية والقوهية المستوردة يقول ابن سعد (٢) (إن المنذر بن الزبير قدم من العراق فارسل إلى أسماء بنت أبي بكر بكسوة من ثياب مروية وقوهية رقاق عتاق) ، والألبسة المصنوعة من الخز قال العرجي في صاحبته .

أحاطت كساء الخز عن حر وجهها وأدنت على الخدين برداً مهلهلا

وأكثرت النساء من لبس القمص الاسكندرانية الرقيقة والقوهية المعصفرة حتى تكاد تشف عن أجسامهن (٣) ولبس بعضهن الديباج والقصب فهذا الشاعر عمر بن أبي ربيعة يصف أتراب الثريا صاحبته بقوله :

---

(١) عبدالله عفيفي — المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ج١ ص ١٢٦

(٢) الطبقات الكبرى ج٨ ص ١٨٤ ط ليدن .

(٣) الاصفهاني — الاغاني ج٧ ص ١٤٣ ، ابن عبد ربه — العقد ج٣ ص ٢٨٠ و٢٦٣

يـرفلن فـي مطـرفـات السوس آونة وفي العقيق من الديباج والقصب (١) .

ولبس بعضهن نوعاً من الثياب تدعى – الأتب – وهو مشقوق الوسط تلقيه المرأة على عنقها من غير كمين ولاجيب ولعله كان من ألبسة الرجال أيضاً لأن الشاعـر يقـول

وتلبس للجـارات أتبـا ومئزرا ومرطا فبئس الشيخ يرفل في الأتب (٢)

ولبسن الخمر الرقيقة لتغطية رؤسهن روي أن تاجراً قدم المدينة يحمل من خمر العراق فباع الجميع الا السود فشكى ذلك إلى الدارمي فعمل له بيتين من الشعر وامر بأن يغني بهما في المدينة منه

قـل للمليحـة في الخمار الاسود مـاذا فعلـت براهـب متعبد .....

فشاع الخبر في المدينة فلم تبق مليحة إلا اشترت خماراً أسود (٣) . .....

وعلى الرغم من قلة الروايات التاريخية عن ألبسة المرأة يبدو أن أغلب الالبسة كان يتسم التطور والذوق الغريب والاسراف ويظهر ذلك واضحاً من كلام أم المؤمنين عائشة (رض) التي عايشت التحول بقولها عن ألبستها : (أما والله ماكان خزاً ولاقزاً ولاديباجاً ولاقطناً ولا كتاناً ... كان سداه من الشعر ولحمته من وبر الابل) (٤) .

ومن لواحق الزينة لنساء هذا العصر التطيب ، ويذكر لنا ابن سعد (٥) بان نساء من الانصار – في عصر عمر – كن يشترين العطر من اسماء بنت مخربة التي كان ابنها عبدالله أبي ربيعة يبعث اليها بعطر من اليمن . اما في العصر الاموي فقد ظهر في هذا المجال ايضاً روى أن رقية بنت عبد الواحد انها كانت تطوف وتقبل الحجر الاسود وفاحت منها رائحة المسك حتى عجب كل من في المسجد وكأنها فتحت بين اهل المسجد لطيمة عطار (٦) ويصف جميل عطر صاحبته بثينة بقوله :

كـأن فـتـيـت المـسـك خـالـط نشرها تغل بـه اردانـهـا والمـرافق (٧)

---

(١) جبور – حياة بن أبي ربيعة ج٢ ص ٣٦ ، الاصفهاني – الاغاني ج١ ص ٤٠١ .

(٢) الاصفهاني – اغاني ج١ ص ٤١٥

(٣) الابشيهي – المستطرف في كل فن مستظرف ج٢ ص ٢٦

(٤) ابن عبد ربه – العقد الفريد ج٣ ص ٣٩٤

(٥) الطبقات الكبرى ج٨ ص ٢٢٠ ط ليدن .

(٦) الاصفهاني – الاغاني ج٥ ص ٩٦ أخبار ابن قيس الرقيات ط المصورة

(٧) نفسه ج٨ص ١٢٤ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب .

وعلى نحو ذلك بالغ أغلبهن بالتزين بالحلي والمجوهرات فيصفهم سعيد بن عبدالرحمن بن حسان بن ثابت بقوله : (١)

حليـن مـرجـان البحـور وجـوهرا   كـالجمـر فيـه على النحـور ينظـم ..

وروى عن سكينة بنت الحسين انها كانت تلبس الدر الكثير (٢) وجاء في اخبار عائشة بنت طلحة ان زوجها مصعب بن الزبير دخل عليها وهي نائمة ومعه ثماني لؤلؤات ثمنها عشرون الف دينار فانبهها ونثر في حجرها فقالت — نومتي كانت احب الي من هذا اللؤلؤ . (٣)

وكان للواثقة جارية خالد بن عبدالله القسري ياقوتة حمراء يخرج طرفاها اشترتها بثلاث وسبعين الف دينار (٤)

ويظهر من شعر عمر بن أبي ربيعة ان كثيراً من النساء كن يتحلين بالجواهر حيث يصف اتراب الثريا صاحبته بقوله : (٥)

تـرى عليـهـن حـلـي الـدر متـسـقا   مـع الـزبـرجد والياقـوت كالشهب

ولبس بعضهن الدمالج في معاصمهن والخلاخيل في أرجلهن (٦) ورووا عن الثريا بنت عبد الله بن الحارث صاحبه الشاعر ابن أبي ربيعة انها كانت تتختم في أصابعها العشرة (٧) ولعل كثيراً من النساء كن يفعلن مثلها .

واخذت فئة من النسوة يصففن شعرهن وفق موضات خاصة مثلما شاع عن الجمة السكينية — نسبة الى سكينة بنت الحسين — التي كانت تصفف شعرها بشكل جميل حتى انتشر بين الرجال والنساء وفتن البعض بهذه الموضة فانكرها عمر بن عبدالعزيز وقاومها بين الرجال (٨) .

---

(١) نفسه ج٨ ص ٢٧٣ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب .

(٢) ابن قتيبة — عيون الاخبار ج٤ ص ٢٥

(٣) الاصفهاني — الاغاني ج١١ ص ١٨٢ ، ج١ ص ٣٩٣ أخبار ابن محرر .

(٤) الابهيشي — المستطرف ج٢ ص ٢٨

(٥) جبور — حياة عمر بن أبي ربيعة ج٢ ص ٣٦

(٦) الاصفهاني — الاغاني ج ١٥ ص ٨ الطبعة المصورة عن دار الكتب يقول خالد بن يزيد عن رحلة

تحـول خلاخيـل النسـاء ولا ارى   لرملـة خلخـالا يحـول ولا قلبـا

(٧) الاصفهاني — اغاني ج١ ص ٩١

(٨) نفسه ج١٦ ص ١٤٤ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب .

* الأطعمة

كانت اطعمة العرب في صدر الاسلام بسيطة وقليلة التنوع نظراً لقلة الموارد المالية ولعدم معرفتهم بصنوف الأطعمة ولكن التطور الذي طرأ على المجتمع نتيجة للفتوح والاختلاط جعل العرب يتطلعون الى أطعمة الأمم الأخرى ويقلدونها– جاء في المستطرف(١) (كانت العرب لاتعرف الالوان انما طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح حتى كان زمن معاوية فاتخذ الألوان) ويؤكد ذلك مارواه الطبري (٢) : (بان خالد بن الوليد عندما غزا قرى أليس على الفرات وقف على الطعام ونفله المسلمين ... وجعل من لم يعرف الأرياف والرقاق يقول – ماهذا الرقاع البيض فيرد عليهم الآخرون بأنه رقيق العيش) . – كما رأى المسلمون في كسكر نوعاً من الأطعمة يدعى النرسيان فأكلوا منه وبعثوا بخمسه الى الخليفة عمر وكتبوا اليه : (ان الله اطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحمونها وأحببنا ان ترونها لتذكروا انعام الله وافضاله)(٣) ورأوا في اذربيجان أيضاًالخبيص (٤) .

وأخذت احوال المسلمين بالتحسن التدريجي منذ خلافة عثمان حيث كان نفسه يعجبه ماطاب من الطعام ، ويروى عن عمر بن أمية الضمري قوله :

(كنت أتعشى مع عثمان خزيرا من طبيخ من اجود مارأيت فيها من بطون الغنم وادمها اللبن والسمن فقال لي عثمان : كيف ترى هذا الطعام؟ قلت : هذا اطيب ماأكلت قط . فقال : رحم الله ابن الخطاب ، أكلت معه هذه الخزيرة ؟ قلت ، نعم . فكادت اللقمة تغوث بين يدي وليس فيها لحم وكان ادمها السمن ولا لبن فيها . قال عثمان : صدقت ان عمر (رض) اتعب من تبع اثره) (٥) . ولكن عمر كان يقول وهو يقدم الخبز اليابس

---

(١) نفسه الابهيشي –ج١ ص ١٧٧

(٢) نفسه تاريخ الرسل والملوك ج٤ ص ١٠ حوادث سنة ١٢ – ١٣ ﻫ

(٣) نفس المصدر السابق ج٤ ص ٦٥

(٤) ابن أبي الحديد – شرح نهج البلاغة ج٣ ص ١٠١ والخبيص نوع من الحلواء المخلوطة ابن منظور – لسان العرب ج٧ ص ٢٠

(٥) العقاد – عثمان بن عفان ص ٦٦

بغير ادام لضيوفه : (لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من صلائف وسبائك وصناب ولكني رايت الله تعالى نعى على قوم شهواتهم) (١) .
فالخليفة عمر كان يميل الى الزهد في الحياة من شتى جوانبها وكان يطالب من رعيته أن تتبعه في هذا المضمار .

لذا نرى ان الخبيص كثر في خلافة علي (رض) فنراه يصور ذلك الاقتباس عندما تدم منه الى ضيوفه بقوله : (ان الاسلام ليس ببكر ضال ولكن قريشاً رأت هذا فتناجزت عليه) (٢) ، والخليفة علي عرف بزهده في الحياة أيضاً متبعاً نهج ابن الخطاب ولكنه لم يكن يمنع الناس من هذا الاقتباس فنراه يصف الفالوذج عندما قدم اليه بقوله : (انك طيب الريح حسن اللون طيب الطعم لكن أكره أن أعود نفسي مالم تعتده) (٣) .
واتخذ الناس في العصر الاموي أنواعاً جديدة من الطعام منها السكباج الذي نعتوه بأنه سيد المرق وشيخ الأطعمة وزين الموائد (٤) وهو نوع من المرق باللحم والخل ، وعرفوا الاوزينج وهو نوع من الحلوى يحشى باللوز والسكر (٥) . كما عرفوا النقانق المحسنة بالخردل وهي معي الغنم المحشو والمقلي ، وكذلك السنبوسج وهو رقاق معجون بالسمن أو الشيرج ويحشى بقطع اللحم والجوز (٦) . كما اختص البعض في صنع طعام الولائم (٧) ، وأصبح البعض لايستغني عن أكل الفواكه بعد الطعام حتى روي عن بعضهم : (انهم اذا طلبوا

---

(١) ابن عبد ربه – العقد الفريد ج١ ص ٧ – والصلائف ماعمل بالنار طبخاً والسبائك مايسبك من الدقيق فيؤخذ خالصه – حيث يريد به الحواري – والصناب صباغ يتخذ من الخردل والزبيب واللحم – الكامل – المبرد ج ١ص ٧٤ .

(٢) الاصبهاني – حلية الاولياء ج١ ص ٨١ – ٨٢

(٣) نفس المصدر السابق ج١ ص ٨١ ، ١٠٠
الابهيشي – المستطرف ج١ ص ٢١٠ وصف الحسن البصري الفالوذج بأنه لباب البر بلعاب النحل بخالص السمن .

(٤) الابهيشي – المستطرف ج١ ص ١٧٧ ، الاصبهاني – حلية ج٣ ص ١٠٠

(٥) زيدان – التمدن الاسلامي ج٥ ص ٧٨

(٦) الاصفهاني – الاغاني ج١ ص ٨٨

(٧) نفسه ج٤ ص ٤٠٨

فاكهة ولم يجدوها في بلدهم استحضروها من الشام (١) . وقد اكل الاغنياء منهم في آنية الذهب والفضة (٢) .

* اللهو والترف :

اتجه المجتمع الحجازي في هذا العصر نحو البحث عن وسائل اللهو والتسلية بمختلف أنواعه ، ونجد ان أهم مظاهر اللهو بروزاً هو الغناء .

والعرب كانت تعرف الغناء قبل الاسلام وبعده على الرغم من وجود حديث عن أنس بن مالك ان الرسول (ص) قال : (بعثني الله عزوجل هدى ورحمة للعالمين وبعثني لأمحو المزامير والمعازف ..) (٣) ولكننا نرى الرسول (ص) يجيز الغناء في المناسبات (٤) وقد عرف العرب منذ القدم الحداء الذي تسرع الابل عند سماعه وغناء النصب الذي يلهون به في اسفارهم (٥) .

ولكننا اذا نظرنا للجو الغنائي الذي عاشته الحجاز في هذا العصر نراه من نوع جديد ومصادره أجنبية (٦) نهض به الرقيق الغريب الذي ورد بوفرة الى هذه البلاد من أمثال ابن سريج وابن مسجح وطويس وسائب خاثر ونشيط ومعبد والدلال وجميلة وعزة الميلاء وغيرهم من الموالي ، وأقبل الناس عليه اقبال الضمآن للماء حتى شهر الحجاز به وطبيعي لمثل هذا الشباب الذي حيل بينه وبين العمل والذي يمتلك بعضه الثروات ويأتيه الآخر عطاؤه بانتظام ان لم يوجه لأعمال مجدية ودراسات فكرية توجه الى اللهو والترف ، وهو ماكان يبغيه الحكام الامويون .

---

(١) ابن عبدربه — العقد الفريد ج٣ ص ٢٤٢
(٢) ابن سعد — الطبقات ج٤ ص ١٣٦
ابن عبدربه — العقد ج١ ص ١١١
(٣) ابن الاثير — أسد الغابة ج١ص ١٤٦
(٤) البخاري — الصحيح ج٦ ص ١٤٠ ، الاصبهاني — حلية الاولياء ج٣ ص ١٢٠ وج ٦ ص ٣٤٠ ، ابن الاثير أسد الغابة ج٤ ص ٦٤ ، ص ٢٠٢
(٥) ابن الاثير — أسد الغابة ج١ ص ١٢١ ، ١٧٣ وج ٢ص ١٦٢
(٦) الاصفهاني — الاغاني ج١ ص ٢٥٩ وج ٣ ص ٨٤ ، ٨٦

اما اول ابتداء الغناء في المدينة فقد روي أن عبدالله بن عامر اشترى اماءاً صناجات وأتى بهن الى المدينة فكان لهن يوم في الجمعة يلعبن فيه فسمع الناس منهن وأخذوا عنهن ، ثم قدم رجل فارسي يدعى نشيط فغنى وأعجب عبدالله بن جعفر فقال له سائب خاثر أنا أصنع مثل غنائه بالعربية) (١) .

ويبدو ان الغناء في المدينة بدأ في عهد معاوية على الرغم من ان المسعودي (٢) يورد ظهوره في عهد ابنه يزيد ، فابن الكلبي (٣) يروي بأن معاوية قدم المدينة مرة وأمر صاحبه بالاذن للناس فخرج الاذن ثم رجع فقال (مابالباب احد فقال معاوية — وأين الناس — قال عند ابن جعفر) يسمعون الغناء .

وكان للمدينة قصب السبق في هذا المضمار حيث نرى أبا يوسف القاضي يقول للزهري (ما أعجب امركم ياأهل المدينة في هذه الأغاني ،امنكم شريف ولا دنيء يتحاشى عنها)(٤)، ويبدو ان الاشراف احتضنوه قبل العامية فاقتدى العامة بهم فابن صفوان يعاتب عبدالله بن جعفر بقوله (ياأبا جعفر لقد صرت حجة لفتياننا علينا اذا نهيناكم عن الملاهي قالوا هذا ابن جعفر سيد بني هاشم يحضرها ويتخذها) (٥) والروايات عديدة عن ولع ابن جعفر بالغناء وحضوره مجالس المغنين قال أبو عباد (اتيت جميلة وكان لي موعد ... فاذا مجلسها غاص ... فبينما نحن كذلك اذ اقبل ابن جعفر وكانت جميلة شديدة الفرح فقامت والناس فتلقته وقبلت رجليه ويديه وجلس في صدر المجلس ... واندفعت تغني بعودها فما سمعت منها قبل ولا بعد .. فسبح ابن جعفر والقوم معه) (٦) .

وكان الحسن بن الحسن بن علي مولعاً بالغناء أيضاً وعنه رواية ظريفة يرويها صاحب الأغاني مصوراً فيها مجال اللهو خير تصوير حيث يقول (سال العقيق مرة... وخرج الناس وخرج ابن عائشة المغني فجلس على قرن البئر فبينما هم كذلك اذ طلع الحسن بن الحسن ومعه غلامان اسودان وقال لهما امضيا حتى تقفا على قرن البئر الذي عليه ابن عائشة ...

(١) نفس المصدر السابق ج٨ ص ٣٢١ ذكر سائب خاثر — الطبعة المصورة
(٢) مروج الذهب المسعودي ،ج٢ ص ٧٤ وج ٣ ص ١٥
(٣) الاصفهاني — الاغاني ج٨ص٣٢٤ الطبعة المصورة عن ط دار الكتب
(٤) ابن عبد ربه — العقد الفريد ج٣ ص ٢٣٣
(٥) نفس المصدر ج٢ ص ١٥٢
(٦) الاصفهاني — الاغاني ج٨ ص ١٩٧ الطبعة المصورة .

ثم قال له الحسن انظر الى جنبك ــ فنظر العبدان ــ فقال الحسن ــ فهما حران لئن لم تغن مائة صوت لآمرهما بطرحك بالبئر ــ وهما حران لئن لم يفعلا لأقطعن ايديهما فاندفع ابن عائشة يغني حتى غنى مائة صوت ــ قال حرير فما رؤي يوم أحسن منه .. وما بلغني ان أحداً تشاغل عن استماع غنائه بشيء ولا انصرف لقضاء حاجة حتى فرغ وتبادر الناس من المدينة وحولها ... ثم انصرفوا يزفونه الى المدينة زفاً) (١) .

وكان ابن أبي عتيق يشد الرحال من المدينة الى مكة حيث يسكن الغريض في احدى ضواحيها ليسمع غناءه ويقيم عنده أياماً ويجزله بهداياه (٢) وقد عرف بأنه كان وكيل دفاع للمغنين يسعى لدى الخلفاء ليكفوا عنهم (٣) وذاك النعمان بن بشير الأنصاري الذي كان يذهب بنفسه الى دار عزة الميلاء لسماع غنائها (٤) . وكان عمر بن عبدالعزيز يعجبه الغناء أيضاً (عندما كان والياً) وقد صنع سبعة ألحان يذكر فيها سعاد (٥) .

ولم يقتصر الاعجاب على الرجال بل شاركهن النساء أيضاً منهن سكينة بنت الحسين التي استضافت في قصرها المغني العراقي حنين الذي دعاه مغنو المدينة واذنت للناس أذناً عاماً وغصت الدار بهم وغنى لهم ماطاب لهم ... (٦) .

ولما غناها الغريض وابن سريج (عوجي علينا ربة الهودج (قالت) مامثلكما عندي الا كمثل اللؤلؤ والياقوت في أعناق الجواري الحسان لايدري أي ذلك أحسن) (٧) .

كما أن بعض الفقهاء والقضاة من أهل هذا البلد استحسنوا الغناء فيروى عن عطاء بن أبي رباح تلميذ ابن عباس انه لقي ابن شريح بذي طوى وأسمعه صوتاً من غنائه فاضطرب اضطراباً شديداً وحلف أن لايكلم يومه أحداً الا بالشعر الذي غناه فيه وعاد إلى مكانه في المسجد الحرام والناس يسألونه عن الحلال والحرام فلا يجيبهم بشيء الا أن يضرب احدى يديه على الأخرى وينشد ذلك الشعر (٨) .

---

(١) الاصفهاني ــ الاغاني ج٢ص٢٠٦ أخبار ابن عائشة .
(٢) نفسه ج٢ ص ٣٨١
(٣) نفسه ج١٦ ص ٢٠ ،ابن عبدربه ــ العقد الفريد ج٣ ص ٢٠٨ الطبعة الازهرية .
(٤) الاصفهاني ــ الاغاني ج٣ ص ١٣
(٥) نفسه ج٩ ص ٢٥٠
(٦) الاصبهاني ــ الاغاني ج٢ ص ٣٦٨
(٧) نفس المصدر ج٢ص٣٧٩
(٨) نفسه ج ٢ ص ٢٦٥ ــ ٢٦٦

وللفقيه ابن جريج رواية مشابهة حيث كان جالسا في حلقته وحوله اناس عراقيون يحدثهم اذ مر ابن تيزن المغني فدعاه ابن جريج وطلب منه ان يغنيه الصوت الذي غناه في اليوم الثاني من ايام منى على جمرة العقبة وقطع الطريق حتى انكسرت المحامل ، فغناه واستحسنه ابن جريج ثم سأل محدثيه ان كانوا أنكروا عليه فعله فقالوا أننا ننكره بالعراق ونكرهه فأجابهم بأن لافرق بينه وبين الحداء (١) .

وهناك رواية عجيبة يرويها المسعودي (٢) عن أحد قضاه المدينة الذي اتاه رجلا عراقيا يطالب شراء جاريته فرفض وسأله عن سبب شرائها فذكر العراقي وأنها تجيد الغناء ، فاستدعاها القاضي وطلب منها الغناء وغنت واحسنت ففرح القاضي بجاريته وغشيه الطرب ولم يدر مايصنع فأخذ نعله ووضعه على اذنه وجثا على ركبته وجعل يقول (اهدوني لبيت البيت الحرام فأنا بدنة حتى ادمى اذنه) ثم قال للعراقي — قد كنا فيها راغبين قبل ان نعلم انها تقول فنحن الآن فيها أرغب فانصرف الفتى وبلغ الخبر الخليفة عمر بن عبد العزيز فقال : قاتله الله اشدقه الطرب وصرفه عن عمله — فقال — نساؤه طوالق لو سمعها عمر لقال اركبوني اني مطية فبلغ ذلك عمر واستدعاه والجارية ثم طلب القاضي من الجارية ان تغني فغنت .

كأن لم يكن بين الحجـــــون إلى الصفا انيس ولم يسمر بمكـــة سامـــــر
بلى نحـــــن كنــــــا أهلهــــا فأبـادنا صروف الليـــالي والجدود العـــواثر

فطرب عمر وأخذ يستعيدها ثلاثا وقد بلت دموعه لحيته واعاد القاضي إلى عمله . وهذه الرواية على غرابتها توضح مدى تأثير الغناء في النفوس مهما كانت المستويات وآخر من استعرضهم من العباد الذين فتنوا في الغناء (عبد الرحمن بن أبي عمار) الملقب بالقس لعبادته ويروى انه سمع غناء سلامة القس على غير عمد منه اعجب ولما رآها زاد اعجابه وشغف بها ثم قال :

قد كنـت اعـــذل في السفاهة اهلهـــا فأعجب لمـــا تأتي بــــه الايـــام
فاليوم أعذرهــــم واعلــــم انمـــــا سبل الضلالــــة والهـــدى اقدام (٣)

وفي موسم الحج وما لأيامه من قدسية لدى المسلمين الا أن الحياة الوجدانية في اللهو قد

---

(١) الاصفهاني — الاغاني ج ٦ ص ٣٣٩ المصورة .
(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ١٢٤
(٣) الاصفهاني — الاغاني ج ٨ ص ٣٣٤ الطبعة المصورة

خرجت بعض الاحيان عن الالتزام الموجب ، فيروى أن ابن عائشة وقف يغني في الموسم وحبس الناس واضطربت المحامل ومدت الابل اعناقها وكادت الفتنة تقع (١) .

وهناك روايات تذكر ان بعض هؤلاء المغنين لايرون حرجا في اداء فريضة الحج ومنها المهرجان الذي وصفه يونس الكاتب عن حج جميلة (٢) .

ويبدو ان السياسة الاموية كانت تعمل بطرق مباشرة او غير مباشرة لتهيئة هذا الجو بالحجاز وكانت طبيعة الخليفة الثاني يزيد مشجعة لذلك الوضع لما طبع عليه من حب الغناء وعطاياه للمغنين وشرائه الجواري المغنيات .

وحين نمي إلى عبد الملك بن مروان أن ابن مسجح أفسد فتيان قريش استدعاه إلى الشام ولكنه عندما سمع غناءه عذره واعطاه الاموال (٣) وروى ابو الفرج(٤) (ان سليمان ابن عبدالملك حين حج سبق بين المغنين ببدرة) ويبدو من الرواية ان الخليفة جاء لاداء فريضة مقدسة وليس لسماع المغنين واجازة الافضل منهم بجوائزه ، ولكنها السياسة الاموية في تشجيع هذا الجو .

وبلغت الحجاز شهرة في هذا الفن انتشرت إلى البلاد الاخرى فقدم فتيان بني أمية من بلادهم إلى الحجاز لسماع غناء معبد وأبن شريح (٥) ووصل جواري معبد إلى الأهواز ونشرت اغانيه هناك واستمرت شهرة المدينة إلى عهد الاديب ابن عبدربه الذي يقول دنينا في السماع دين مديني (٦)

وسار مع الغناء ضرب آخر من ضروب اللهو وهو شرب الخمر ، حيث نسمع ان كثيراً من الشباب يشربون المسكر على الرغم من تحريم الاسلام له — والخليفة معاوية اعترض على مروان بن الحكم حين اقام ضرب الحد على ابن أرطأة الشاعر لشربه الخمر بالمدينة وقال انه

---

(١) الاصفهاني — الاغاني ج١٨ ص ١٢٧
(٢) المصدر نفسه ج ٨ ص٢١٠
(٣) الاصفهاني — الاغاني ج ٣ ص ٢٨٢ أخبار ابن مسجح .
(٤) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٢٧
(٥) المصدر نفسه ج ١ ص ٣٢٠
(٦) الثعالبي — لطائف ج ١ ص ٣٦٣
ابن عبدربه — ج٣ ص ٣٣٣

ليس بحرام(١)ويذكر المسعودي(٢)ان الناس اظهروا في عهد يزيد بن معاوية شرب الخمر. وقد ساد شرب الخمر في مجالس الغناء ومواسم سيل العقيق والمنتزهات الخ .

ومما يروي في هذا الصدد ان عمر بن ابي ربيعة وفد مع الأحوص وابن ابي عتيق إلى دار جميلة فدعت لضيوفها بشراب وشربوا (٣) كما جاء في اخبار الهذلي ان فتيان قريش كانوا يأتون ومعهم الطعام والشراب والدراهم فيجلس على رأس الجبل ويجلسون تحته في السهل فيشربون وهو يغنيهم حتى المساء (٤) .

وكان والي المدينة ابراهيم بن هشام المخزومي يشرب الخمر مع ابن عائشة وهو نديمه (٥) كما كان ابن سيحان الشاعر يشربها مع الوليد بن ابي سفيان ، والوليد بن عثمان مع الوليد بن عتبة (٦) .

واذا تركنا الولاة نرى ان بعض الاشراف ايضاً قارفوا الشراب منهم عبدالله بن جعفر سيد بني هاشم (٧) .

وتبعاً لذلك فلا بد ان يكون هناك من يعمل بها وتخير ببيعها ،وقد ورد ذكر ابن خونك(٨) (نباذ كان بالمدينة) ولعل هناك عدداً من العاملين في هذه الحرفة غيره ويبدو ان اهل الحجاز كانوا يحلون شرب نوع من النبيذ في هذه الفترة التي انتشر شرب الخمر فيها في اغلب البلاد الاسلامية ويؤكد ذلك رسالة الخليفة عمر بن عبد العزيز للامصار في امر الانبذة (٩) حيث يوضح لنا اختلاف الناس فيما هو محرم ومحلل من انواع النبيذ .

---

(١) — الاصفهاني — الاغاني ج٢ ص ٢٥٠

(٢) المسعودي مروج الذهب ج٣ ص ٦٧

(٣) الاصفهاني — الاغاني ج٨ ص ٢٠٨ الطبعة المصورة .

(٤) المصدر نفسه ج٥ ص ٦٧

(٥) المصدر نفسه ج٢ ص ٢٣٦ كان والياً لهشام بن عبد الملك .

(٦) البلاذري — أنساب الأشراف ج٥ ص ١١٥ — ١١٦

(٧) الاصفهاني — الاغاني ج٤ ص ٢١ ج ١ ص ٢٢٩

(٨) المصدر نفسه ج٤ ص ٣٧٣ ط المصورة .

(٩) ابن عبدربه — العقد الفريد ج٣ ص ٣٣٧ الطبعة الأزهرية .يقول في رسالته (أما بعد فان الناس كان منهم في هذا الشراب المحرم أمر ساءت فيه رغبة كثير منهم حتى سفه أحلامهم وأذهب عقولهم ... وان أناساً يصيب ذلك الشراب يقولون شربنا طلاء فلا بأس علينا من شربه. ولعمري أن فيما قرأت مما حرم الله بأساً وان في الاشربة التي أحل الله من العسل والسويق والنبيذ والزبيب والتمر لمندوحة عن الاشربة الحرام غير ان كل ما كان من نبيذ العسل والتمر والزبيب فلا نبيذ إلا في أسقية الادم التي لازفت فيها ولا يشرب منها مايسكر).

ونجد ان الصبغة العامة لهذا المجتمع يغلب عليها عنصر الهزل والمزاح والمرح فنجد للمدينة مضحكاً خاصاً يدعى الغاضري وبعده اشعب وغيرهم ولأشعب شهرته في هذا الصدد حتى ان البعض كان لايستطيع الاستغناء عن نوادره ويقول في ذلك (ان واليا من ولد عامر بن لؤي كان ابخل الناس ... يطلبني في ليله ونهاره فان هربت هجم على منزلي بالشرط وان كنت في موضع بعث إلى من اكون معه يطلبني منه ويطالبني بأن احدثه واضحكه(١) وكان يختلف إلى قصور بعض الشريفات آنذاك كعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين لنفس الغرض (٢) .

ولا شك ان هذا النوع من اللهو لايظهر في المجتمع الا بعد ان يتوصل إلى درجة من الترف حتى يتواجد بين اهله من يتخذ أناساً يضحكونهم .

واخذ المجتمع حظه من حرية الاختلاط بين الجنسين ، وبخاصة عند سيل العقيق حيث يخرج اليه الناس افواجاً ويعقدون حوله الانس والطرب ، ويلتقي النساء بالرجال على غير عمد وخاصة الشعراء منهم — حيث ان اغلب النساء كن يعجبن بالشعر ، فقد جاء عن قيس ابن معاذ انه (كان صاحب غزل ومجالسة للنساء فخرج على ناقة يسير فمر بامرأة من بني عقيل .. ومعها نسوة فعرفته ودعونه للنزول والحديث .. فنزل فظل يحدثهن ويناشدهن وهن اعجب شيء به فيما يرى) (٣) .

وهناك عدة روايات تجاريها في المعنى (٤) واخبار الشاعر عمر بن ابي ربيعة كثيرة في مجال الاختلاط بالمرأة (٥) ، وقد كانت السيدة سكينة بنت الحسين تقيم المناظرات الشعرية في دارها وتجيز الفائزين (٦) .

ويبدو ان السفور كان موجوداً في بعض الاوساط فعائشة بنت طلحة تعلل سفورها بقولها (ان الله وسمني بميسم الجمال واحببت ان يراه الناس ويروا فضله عليهم فما كنت

---

(١) الاصفهاني — الاغاني ج١٧ ص ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠١

(٢) نفس المصدر السابق ج١٦ ص ٤٨ ، ٤٩ ط المصورة .

(٣) المصدر نفسه ج٢ ص ٢٨ أخبار مجنون بن عامر .

(٤) المصدر نفسه ج٦ص١٢٢ عن الشاعر نصيب .

(٥) الجاحظ — المحاسن والاضداد ص١٩٢ .

(٦) البيهقي — المحاسن والمساوىء ج١ ص١٦٧ — ١٧٠. الأصفهاني — الأغاني ج١٦ ص١٦١. ١٦٣

لأستره) (١) ومثلها هند صاحبة ابي دهبل الجمحي (٢) وغيرها .

تبعاً لذلك الجو الظريف فقد ظهرت قصص الحب وصورها واضحة في الشعر الذي اصبح عادة رائجة على السنة المغنين ويقول المسعودي (٣) (لم تكن محبة القوم اذ ذاك لريبة ولا فاحشة) . وهناك روايات عديدة في هذا المضمار (٤) .

وكان موسم الحج مجالا آخر للتعرض للمرأة ، حيث ان بعض الشباب لم يكن يقصد من حضور الموسم الا التعرض للنساء ، فهذا إبن قيس الرقيات يتعرض لرقية بنت عبد الواحد وهي تستلم الحجر الاسود وتقبله فيقول فيها الشعر (٥) وحين ارادت أم البنين زوجة الخليفة الوليد الحج ، كتب الوليد يتوعد الشعراء اذ تعرضها او ذكرها احدهم فقدمت (وتصدى لها اهل الغزل والشعر ووقعت عينها على وضاح اليمن فهويته) وقيل انها طلبت ان ينسب بها . . وغضب عليه الوليد (٦) وما اكثر اخبار عمر بن ابي ربيعة في مطاردة النساء ومغازلتهن اثناء الموسم حيث يقول عنه ابو الفرج (٧) (كان عمر يقدم فيعتمر في ذي القعدة ويحل ويلبس تلك الحلل والوشي ويركب النجائب المخضوبة بالحناء عليها القطوع والديباج ويسبل لمته ويلقى العراقيات فيما بينه وبين ذات عرق محرمات ويتلقى المدنيات إلى مرو والشاميات إلى الكديد) .

وروى الازرقي (٨) ان الرجال والنساء كانوا يطوفون معاً مختلطين حتى ولي مكة خالد بن عبدالله القسرى لعبد الملك بن مروان فذكر انه سمع قول الشاعر

يا حبذا الموسم من موفد وحبذا الكعبة من مشهد
وحبذا اللاتي يزاحمننا عند استلام الحجر الاسود

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف واجلس الحرس معهم السياط . وكان الترف غالباً على كل شيء حتى في موسم الحج فيروى ان عائشة بنت طلحة كانت تحج في صورة

---

(١) الأصفهاني – الاغاني ج١١ص١٧٦ .

(٢) المصدر نفسه ج٧ص١٣٥ .

(٣) المسعودي مروج الذهب ج٣ص١٨٨ .

(٤) الجاحظ – المحاسن والأضداد ص١٩٩ .

(٥) الا صفهاني – الاغاني ج٥ص ٩٦ اخبار ابن قيس الرقيات .

(٦) نفس المصدر ج٦ص٢١٩ .

(٧) الأغاني ج١ص٢٢٩ .

(٨) اخبار مكة ج٢ص٢٠ط دار الثقافة مكة ١٩٦٥ .

باذخة فعندما ارادت عاتكة بنت يزيد الحج استأذنت عبد الملك فقال لها (ارفعي حوائجك واستظهري فان عائشة بنت طلحة تحج ففعلت وجاءت في هيئة جهدت فيها فلما كانت بين مكة والمدينة اذا موكب قد جاء فضغطها وفرق جماعتها فقالت – أرى هذه عائشة ، فسألت عنها فقالوا – خازنتها ، ثم جاء موكب آخر اعظم منه فقالوا عائشة فضغطتهم فسألت عنه – فقالوا – ماشطتها ، ثم جاءت مواكب على هذه الهيئة إلى سننها ثم اقبلت كوكبة فيها ثلثمائة راحلة عليها الثياب والهوادج – فقالت عاتكة – ما عند الله خير وابقى(١) فهذه حفيدة معاوية لم تستطع ان تبلغ مابلغته عائشة في هيئتها وترفها وزهوها وذكر عنها الاصفهاني انها عندما تأيمت كانت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة وتخرج الى مال عظيم لها بالطائف وقصر متنزه تجلس فيه العشيات فتناضل بين الرماة ثم يمد اليها الشعراء فتجيزهم (٢) .

ومن ضروب اللهو الاخرى اللعب بالشطرنج والنرد ، وكان بعض الفقهاء يحل ذلك بقوله (لابأس به هورفق) (٣) وكان بعض الصحابة والتابعين لايرون حرجاً به ، فابن عباس عندما ختن ابنه ارسل إلى اللعابين فلعبوا واعطاهم اربعمائة درهم (٤).

ويبدوا ان هناك نادياً تتوفر فيه وسائل التسلية قال ابو الفرج (٥) (ان عبد الحكم الجمحي اتخذ بيتاً فيه شطرنجات ونردات ودفاتر فيها من كل علم وجعل في الجدار اوتاداً فمن جاء علق ثيابه ثم جر كتاباً فيقرأ او بعض ما يلعب به مع بعضهم) .

وفضلا عما تقدم فان اهل المدينة كانوا مولعين بالصيد وخاصة في بقيع العقيق (٦) ويروى ان الحجاج كان يشارك اهلها في صيدهم (٥) واشتهر الشاعر العرجي في الصيد في مدينة الطائف – حيث لايحرم الصيد – وكان لديه بستان ويبري السهام من قضبانه .

مما تقدم رأينا ان ثروات كبيرة تجمعت لنفر من الناس منذ بداية الفتوح إلى ما بعد قيام الدولة الأموية – وان المؤرخين قد قدروا بعض تلك الثروات بالملايين ومئات الآلاف ومن الجائز ان الناقلين لم يتحروا الدقة في حساب الارقام ولكننا إذا بحثنا عن مصادر هذه الأموال – والتي

---

(١) الأصفهاني – الاغاني ج١١ص١٨٨ط المصورة .
(٢) المصدر نفسه ج١٠ص٦١ ، ج١١ص١٨٠–١٩٠ .
(٣) ابن قتيبة – عيون الاخبار ج٣مجلد ، ص٣٢٣ .
(٤) المصدر نفسه ج٣مجلد ١ص٢٢ .
(٥) الاغاني ج٤ص٢٥٣ .
(٦) البكري – زهر الاداب ص١٧ .
(٧) ابن عبد ربه – العقد الفريد ج٢ص١٢٢

ذكرناها سابقاً – نرى أغلبها اجتمعت من اموال الفتوح – والعطاء والي مرت في اربع التجارات وهي التجارة بين الشرق والغرب عن طريق العراق والشام اضافة إلى استثمارها في مجال الزراعة – حينئذ يبدو لنا ان الثروات كانت كبيرة فعلا . ولكن هذه الثروات لم تكن ظاهرة في المجتمع في السنوات الاولى ، لان روح الزهد كانت غالباً ما تدفع اصحابها إلى الاسراع في توزيعها على مستحقيها من الفقراء والمعوزين ، كما لم تؤد إلى الترف الذي يعتبره الاسلام رذيلة مزدراة .

ولكن التغيير ظهر واضحاً في العصر الاموي وبخاصة بعد الاختلاط مع اهل البلاد المفتوحة وتأثر العرب بما رأوه فيها من ضروب الحياة المتنوعة التي لم يألفوها في بلادهم ، ومع اتجاه السياسة الاموية لتشجيع هذه الامور تماشياً مع مصلحتها في اشغال ابناء اهل الحجاز في مجالات اللهو وابعادهم عن المشاركة السياسية والادارية .

ولكن هذه السياسة كان لها أبعاد ايجابية ايضاً حيث قدمت للحضارة العربية في مجال الادب معيناً لاينضب من الشعر والنثر كفنين جديدين في هذا العصر .

مصادر البحث

الابهيشي – محمد بن احمد ابي الفتح ٧٩٠ – ٨٥٠هـ
المستطرف في كل فن مستظرف جزءان
مطبعة المشهد الحسيني – القاهرة – مراجعة عبدالعزيز سيد الأهل

ابن الاثير – علي بن محمد ت ٦٣٠هـ
الكامل في التاريخ – دار بيروت للطباعة والنشر
اسد الغابة في معرفة الصحابة
المطبعة الاسلامية . طهران – خمسة اجزاء

ابن آدم – يحيى ت ١٨٨
الخراج ط ليدن ١٨٩٥م

الازرقي – محمد بن عبدالله بن احمد ت ٢٢٣
اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار
روائع التراث العربي (٢) مكتبة خياط بيروت
وط دار الثقافة – ١٩٦٥

الاصبهاني — أحمد بن عبدالله ت ٤٣٠ هـ
— حلية الأولياء وطبقات الأصفياء
ط — دار العربي — بيروت

الاصفهاني — أبو الفرج
الاغاني — الجزئين (١و٢) اعداد لجنة نشر كتاب الاغاني مصر ١٩٧٠ وطبعة — دار الكتب والطبعة المصورة عن دار الكتب

أمين الخولي — مالك بن أنس
طبع دار الكتب — مصر

البخاري — محمد بن اسماعيل بن ابراهيم ت ٢٥٦ هـ
الصحيح
مطبوعات محمدعلي صبيح وأولاده — مصر

البلاذري — أبي الحسن
— فتوح البلدان — مطبعة السعادة مصر ١٩٥٩
— أنساب الاشراف الجزء الأول — ط دار المعارف مصر تحقيق محمد حميدالله والجزء الخامس — مطبعة القدس ١٩٣٦ .

البيهقي — ابراهيم بن محمد — أحد أعلام القرن الخامس
المحاسن والمساوىء
ط دار صادر بيروت ١٩٦٠

الثعالبي — عبدالملك بن محمد ٣٥٠ — ٤٢٩ هـ
لطائف المعارف تحقيق ابراهيم الابياري وحسن الصيرفي
طبع دار أحياء الكتب العربية مصر .

ابن حجر — أحمد بن علي ت ٨٥٢
تهذيب التهذيب ط دار المعارف النظامية الهند ١٣٢

ابن أبي الحديد — عرابي حامد عبدالحميد — شرح نهج البلاغة ط دار الكتب مصر ١٩٥٩

الجاحظ — عمرو بن بحر ٢٥٥ هـ
المحاسن والاضداد — تحقيق فوزي عطوى — الشركة اللبنانية للكتاب

بيروت ١٩٦٩

جبور	—	جبرائيل سليمان حياة عمرو بن أبي ربيعة — المطبعة الامريكية بيروت ١٩٣٩ م
الديار بكري	—	حسين بن محمد ت ٩٦٦ هـ تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس ط مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع — بيروت
ابن رسته	—	أحمد بن عمر الاعلاق النفيسة ط ليدن ١٨٩١ م
السكري	—	محمد بن حبيب ٢٤٥ هـ تصحيح الدكتورة ايلز ليختن — منشورات المكتب التجاري بيروت
السمهودي	—	عبدالله بن شهاب الدين ت ٩١١ هـ ط الآداب والمؤيد — مصر ١٣٢٦ هـ
ابن سعد	—	محمد ت ٢٣٠ — الطبقات الكبرى — ط ليدن
سيد أمير علي		مختصر تاريخ العرب — دار العلم للملايين — بيروت
الطبري	—	محمد بن جريرت ٣١٠ هـ المطبعة الحسينية الاولى مصر
طه حسين	—	حديث الاربعاء طبع دار المعارف مصر ١٩٦٥
ابن عبد ربه	—	أحمد بن محمد ت ٣٢٨ هـ العقد الفريد المطبعة الازهرية المصرية
عبدالله عفيفي		المرأة العربية في جاهليتها واسلامها ط القاهرة ١٢٣٩ — ١٩٢١ م
العقاد		عباس محمود

عثمان بن عفان
مطبعة المدني القاهرة

الفاسي — محمد بن أحمد علي ت ٨٣٢ هـ
شفاه الغرام باخبار البلد الحرام

ابن قتيبة — أبومحمد عبدالله ت٢٧٦ هـ
عيون الاخبار — نسخة مصورة عن ط دار الكتب — المعارف ط
دار الكتب ١٩٦٠ تحقيق ثروت عكاشة

المسعودي علي بن الحسين ت ٣٤٦ هـ
مروج الذهب ومعادن الجوهر — ط بيروت ١٩٦٥

ابن المنظور جمالى‌الدين محمد بن مكرم ٦٣٠ هـ — ٧١١ هـ
لسان العرب — طبيروت ١٩٥٥ م ١٣٧٥ هـ

ياقوت أبو عبدالله ياقوت بن عبدالله ت٦٢٦ هـ
معجم البلدان بيروت ١٩٥٥ وط دار بيروت ١٩٥٧ م

اليعقوبي التاريخ — المطبعة الحيدرية ١٩٦٤

محمود ياسين التكريتي

الدور السياسي للقبائل العربية في الشام والجزيرة الفراتية منذ منتصف القرن الرابع الهجري الى العقد الأخير من القرن الخامس الهجري ،

طَيّ ، وكِلاب ، ونُمَيْر

٣/١١/م

* المقدمة

شهد القرنان الرابع والخامس الهجريان نشاط عدد من القبائل العربية المتواجدة في الشام والجزيرة وبعض جهات العراق وبينما استطاع بعض هذه القبائل كالحمدانيين والعقيليين وبني مزيد وبني مرداس التعبير عن مطامحهم السياسية وقدراتهم العسكرية في اطار دول بلغت حداً متقدماً من الاستقرار والدوام ، ظل البعض الآخر كطيء وكلاب ونمير يمارس حياته القبلية المتغيرة وطبيعي أن يكون هنالك تغايراً واضحاً في سياسات هاتين المجموعتين من القبائل وفي معطياتهم الحضارية على السواء .

ومهما يكن من أمر فإن هاتين المجموعتين من القبائل ماكانتا لتتحركا بهذا الشكل الواسع وتمارسا الكثير من الاستقلال في نشاطاتهما للسياسية لولا توفر مجموعة من العوامل التي ساعدت على فتح الطريق أمام هذه القبائل جميعاً .

وإذ كانت المجموعة الاولى التي شكلت امارات ودولاً قد بحثت بما فيه الكفاية ، فقد ظلت المجموعة الثانية ، تعاني شحاً في الدراسات التي تسلط الاضواء على دورها التاريخي بسبب من هامشية هذا الدور وعدم أهميته بالنسبة للقبائل الاخرى ، ورغم ذلك فان تاريخ العصر سوف لن تكتمل صورته دون دراسة الاوضاع الداخلية والعلاقات الخارجية لهذه القبائل ولا سيما وأنها غدت قوة جديدة أخذ تأثيرها يظهر شيئاً بعد شيء في مجرى الاحداث.

وليس هذا البحث سوى محاولة أولية لدراسة الوضع التاريخي لهذه القبائل ودورها السياسي رغم مافي هذه المحاولة من مصاعب تتجلى في قلة المعلومات عنها وتبعثرها في عديد من المصادر بحيث يجد الباحث نفسه أمام مشكلة تكوين صورة متكاملة واضحة قلما تعينه المصادر على رسمها .

ومما لاريب فيه أن الفترة المذكورة شهدت سلسلة من الاحداث التاريخية في كل من الجزيرة الفراتية والشام والعراق كالصراع السياسي بين الخلافتين العباسية والفاطمية من أجل بسط السيطرة والنفوذ عليها إلى جانب تعرض الشام والجزيرة إلى غزو الروم المستمر لهما (١) فضلاً عما شهدته الخلافة السياسية من إنفراط في عقد وحدتها السياسية تمثل في قيام

---

(١) ستتعرف على تلك السياسة أثناء بحث علاقة القبائل مع الروم .

بعض الدول والامارات الاسلامية المستقلة (١) بالاضافة إلى هذا فقد استفحل أمر القبائل العربية فنجح بعضها في اقامة حكم سياسي على حين بقي القسم الآخر يشكل مصدر خطر على الحكم المركزي للخلافتين العباسية والفاطمية وعلى عدد من الدويلات التي شهدتها المنطقة فقد سيطر بنو تغلب على الاراضي الواقعة في أعالي الرافدين وأسسوا لهم دولة في حلب من قبل أحد بطونهم وهم بنو حمدان (٢) إذ حكموا من سنة ٣٩٢ هـ وبالرغم من سيطرة عضد الدولة البويهي على قلاعهم في الموصل والجزيرة سنة ٣٦٨ هـ إلى سنة ٣٦٩هـ فقد استطاعوا العودة إلى حكم المنطقة نفسها بعد سنين قليلة واستمر نفوذهم القلق إلى سنة ٤٨٠ هـ (٣) في حين استمر نفوذهم في الشام ومصر إلى سنة ٤٦٥ هـ (٤).

وحكم بنو عقيل (٥) في الموصل وغرب الفرات في حدود سنة ٣٨٠ هـ كما حكم بنو مرداس في حلب سنة ٤١٥ هـ (٦) وهؤلاء الاخيرون من بني كلاب القبيلة العربية والملاحظ

(١) كان لضعف الخلافة العباسية أثر كبير في قيام الدول والامارات الاسلامية كالدولة الطاهرية في خراسان والدولة العلوية بطبرستان والصفارية في بلاد فارس والسامانيه فيما وراء النهر والامارة المروانية في ديار بكر والجزيرة وغيرها .

(٢) كلود كاهن / تاريخ العرب والشعوب الاسلامية ، المجلد الاول : ٣٠٦ – ٣٠٧ فاروق عمر فوزي ، الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية ، ١٨٧ – ١٨٨ .

(٣) أبو شجاع محمد ابن الحسين الروذراوري ، ذيل تجارب الامم : ٣/١٧٨ – ١٧٩ .فيصل السامر ، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ، الاول ، ٢٨٩ .

(٤) فيصل السامر ، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ، ١/٣٠٠ .

(٥) بنو عقيل : – من القبائل العربية نزحوا إلى الشام والجزيرة بعد الاسلام وسكنوا قبل الاسلام في البحرين مع بني تغلب وسليم وحدث لهم مع بني تغلب خلاف انتهى بطردهم منها وساروا إلى العراق وملكوا الكوفة واقاموا في الجزيرة الفراتية وأصبحوا من رعايا بني حمدان وورثوا حكمهم في الموصل . انظر حولهم / ابن دريد / الاشتقاق / ٢٩٧ – ٢٩٨ ابن حزم / جمهرة انساب العرب / ٢٨٨ – ٢٨٩ ، القلقشندي / صبح الاعشى في صناعة الانشا / ٢/٣٦٢ ، ٣٦٤ ، عمر رضا كحالة معجم قبائل العرب / ٢/١٠٨ ، المعاضيدي/ دولة بني عقيل في الموصل / ٢٧ – ٤٨ ، فاروق عمر / الخلافة العباسية في عهد الفوضى العسكرية / ١٨٨ .

(٦) اختلفت المصادر التأريخية حول بدء حكم هذه الامارة فقد ذكر استانلي لين بول انها حكمت سنة ٤١٤ هـ على حين اشار اليها فاروق عمر بأنها حكمت من سنة ٤٦٤ هـ – ٤٧٢هـ ، وربما يكون هذا خطأ مطبعياً فقد ذكر ابن العديم أن صالح بن مرداس نزل حلب لسبع عشر خلت من شهر رمضان سنة ٤١٥ هـ وحاصرها إلى أن سلمت المدينة اليه يوم السبت لثلاث

على حكمها أن سلطتها السياسية كانت غير مستقرة في حلب إلى جانب سيطرتها على الحكم وهي في وضع أقرب إلى البداوة من بني تغلب (١) وعليه سنتناول دورها السياسي مع القبائل العربية الاخرى التي لم تنشيء نظاماً سياسياً متقدماً أو مستقراً .

وبصورة عامة فقد تمتع امراء هذه الدول باستقرار واسع في الادارة وتسيير شؤون بلادهم ، وما رافقه من ازدهار حضاري ولا شك أن هذه الاقاليم ساهمت في عملية البناء الحضاري للمجتمع الاسلامي إلى جانب هذاسنجد قبائل عربية اخرى كان لها دور في الأحداث التأريخية عن طريق المساهمة فيها تسيرها النزعة القبلية والمصالح الشخصية والاطماع الفردية وهي نفس الاسس التي ارتكزت عليها العلاقات السياسية فيما بينها وبين الخلافة الفاطمية من جهة وفيما بينها بالذات أيضاً (٢) وخاصة بعد أن أصبحت هذه القبائل قوة عسكرية (٣) وقبل أن نستعرض العوامل التي دفعت القبائل نحو الغزوومدى مساهمتها في الاحداث السياسية وجب التعرف على أصول هذه القبائل وتاريخ سكناها في الشام والجزيرة .

* التوزيع الجغرافي للقبائل

ان أول اشارة تحدثنا عن استقرار القبائل العربية في الشام والجزيرة تعود إلى خلافة عثمان بن عفان (رض) فانه أمر واليه معاوية على الشام والجزيرة أن ينزل تميم الراوية (٤) والمازحين (٥) والمدير أخلاطاً من قيس وأسد وغيرهم (٦) .

عشرة ليلة خلت من ذي العقدة سنة ٤١٥هـ راجع حولها ابن العديم / زبدة الحلب من تأريخ حلب /١/٢٢٧ – ٢٢٨ ، استانلي لين بول / طبقات سلاطين الاسلام /١١١ ، فاروق عمر / الخلافة العباسية / ١٨٨ .

(١) كلود كاهن / تأريخ العرب والشعوب الاسلامية /م١ ٣١٠ .

(٢) راجع ما كتبه الدكتور فاروق عمر فوزي حول قوة الحمدانيين في الشام والجزيرة / فاروق عمر / الخلافة العباسية في عهد الفوضى العسكرية / ١٨٨ .

(٣) كلود كاهين تأريخ العرب والشعوب الاسلامية /٣٠٦ .

(٤) الرابية : لم أعثر على شرح لها في المصادر الجغرافية .

(٥) المازحين : لم يعثر على ذكر لها .

(٦) المدير : لم أستطع التعرف عليها في مصادرنا الجغرافية . انظر حولها : أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري فتوح البلدان ، القسم الاول /٢١١ .

وقدم لنا الهمداني قائمة للقبائل العربية وذكر مضر وتميم في الرافقة على الفرات وبني سليم في الرها ، وفي نصيبين استوطن بنو حمدان وأما جبل سنجار فهو لشراة بني تغلب وهم بنو زهير وبنو عمر وفي الموصل مذحج وهي من ربيعة (١) .

ونقل لنا ابن حوقل جودة التوزيع الجغرافي لهذه القبائل في القرن الرابع الهجري حيث سكنت ربيعة ومضر في مصائف الموصل ومشاتيها (٢) كما استقر قسم آخر فيها كبني فهد وبني عمران من وجوه الأزد وأشراف اليمن وبني شخاخ وبني أود وبني زبيد وبني الجارود وبني خداش والصدامين والعمريين وبني هاشم وغير ذلك (٣) وسكنت شيبان في ارض شهرزور (٤) وفي منطقة سنجار بوادي الجبال (٥) سكن قوم من العرب مخفرين (٦) من قشير (٧) ونمير وعقيل وكلاب واناخت بنو عقيل ونمير في حران (٨) وترى قسماً آخراً

---

(١) انظر حول ذلك : أبا محمد الحسن بن أحمد الهمداني / صفة جزيرة العرب /١٣٣ . فيصل السامر : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب /١٧٤ — ١٧٥ .

(٢) أبو القاسم محمد بن علي بن حوقل : صورة الارض /١٩٥ .

(٣) انظر المصدر السابق / ١٩٥ .

(٤) أبو على أحمد بن محمد مسكويه : تجارب الامم /٢ / ٣٩٨-٣٩٩ .
عبدالعزيز الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري /١٤٤ . دراسات في العصور العباسية المتأخرة /٢٨٩ .

(٥) الجبال : هو واد من أودية ديار ربيعة فيه مشاجر وضياع وكروم وخصب . ابن حوقل /صورة الارض / ١١٩ .

(٦) مخفر والطرق : هم مرشدو الطرق وأدلاؤها .فبعد أن شاع النهب والسلب وقطع الطرق لزم الأمر على المسافرين والتجار استصحاب جماعة من المنطقة نفسها معهم حتى يتيسر لهم المرور من أرضهم ووقاية المسافر من الغدر والنهب ويحدثنا الطبري عن خفارة قبيلة كلب للطريق البري في السماوة بين الكوفة ودمشق على طريق تدمر تحمل الرسل وامتعة التجار على ابلها . انظر : الطبري ، تاريخ الرسل والملوك / ١٠ /٩٥ • ناصرى خسرو سفرنامة / ١٣٠ .

(٧) قشير : ينسبون لكعب وهم بطن من عامر بن صعصعة . انظر حولهم : أبي سعيد عبد الكريم السمعاني : الانساب / ٤٥٣ ابن حزم : جمهرة أنساب العرب /٢٨٩ . السويدي البغدادي : سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب / ٤١ — ٤٢ .

(٨) راجع حولهم ابن حوقل : صورة الارض / ١٩٩ .

استوطن في برقعيد (١) ورأس العين (٢) وكفر عزا (٣) والرقة (٤) .

وذكر الدوري : (ان سبب تكاثر السكان الطبيعي في الصحراء يعود إلى مجرد الرغبة في النهب) (٥) وهذا لايكون السبب الوحيد لسكناهم الصحراء بل هنالك دوافع اقتصادية ألاخرى وعلى راسها امتهانهم بيع منتجات الصحراء كالملح والفلى (٦) اذ اشار ابن حوقل إلى وجود براري ومفاوز وسباخ عديدة تنتجع من قبل القبائل لامتيار الملح والاشنان نفسه والفلى إلى جانب وفرة المراعي فيها بموسم سقوط الامطار (٧) حيث تصبح اكثر صلاحية لرعي الماشية والاغنام فضلا عما تمتاز به من موقع جغرافي حيث تمر عبر اراضيها طرق تجارة والمواصلات مما جعل بعضهم يمتهنون خفارة الطريق كما راينا بالنسبة لقبيلة قشير في الجزيرة بوادي الجبال او كلب فيما بين العراق والشام (٨) ومع هذا يمكن القول ان سكنى القبائل للصحراء يمثل احدى سمات النزعة البدوية في الحنين إلى الصحراء وحياة البداوة اذ تشد البدوي اليها تقاليده الموروثة بما فيها البساطة في العيش وحرية الغزو .

اما التوزيع الجغرافي لقبائل الشام فذكرها اليعقوبي (٩) واستناداً إلى البعد الزمني النسبي لفترة وضعه لمؤلفه وفترة بحثنا قد تكون الاستفادة منه غير تامة الجوانب وقد ذكر ان دمشق كانت منازل ملوك غسان والاغلب فيها اهل اليمن وفي غوطتها وحوران وخاصة بصرى التي سكنت فيها من بطون قيس اما كلب فسكنوا السويداء وفي الجولان قوم من قيس اكثرهم

---

(١) برقعيد : بلدة كبيرة من أعمال الموصل والى شمالها من كورة البقعاء بها آبار كثيرة عذبة وهي واسعة وعليها سور ولها ثلاثة أبواب . ياقوت الحموى : معجم البلدان : ٣٨٧/١ .

(٢) رأس العين : وهي من مدن الجزيرة المشهورة تقع بين حران ونصيبين ودنير : ياقوت / البلدان /١٤/٣ .

(٣) كفر عزا : قرية من قرى أربل بينها وبين الزاب الاسفل . ياقوت : البلدان / ٤٧٠/٤ .

(٤) محمد بن أحمد بن أبي بكر المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم /١٤١ ، ابن حوقل: صورة الارض /١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٥) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادي / ١٣ .

(٦) ابن حوقل : صورة الارض / ٢٠٥ .

(٧) يحدثنا ابن حوقل أن براري ومفاوز الجزيرة وأسباخها كانت تسكنها قبائل من ربيعة ومعزوهم أهل خيل وغنم وإبل قليلة : ابن حوقل : صورة الارض / ٢٠٥ .

(٨) مر بنا سابقاً التعريف بخفارة الطريق .

(٩) انفرد اليعقوبي في ذكر القبائل العربية في الشام من بين الجغرافيين المسلمين .

من بني مرة (١) واما حمص وكفر طاب واللاذقية فسكنتها اقوام طي وكندة وحمير وكلب وهمدان وفي اللاذقية استقرت زبيد (٢) وهناك اشارات تاريخية تثبت لنا سكنى القبائل العربية للشام والجزيرة فقد سكنت كلب في قرقيسيا على عهد عبد الملك بن مروان كما كان ذكر لوجود تغلب فيها(٣) وتمتد منازل بني تغلب فيما بين الخابور والفرات(٤) واستوطنت كلاب الرقة(٥) وفي قنسرين وحمص وطي وتنوخ(٦) وكذلك ذكرت نمير في الشام قرب تدمر (٧) .

ومن المألوف ان هذه القبائل نزحت من مناطق سكناها في الجزيرة العربية تحت وطأة ظروف النزاع القبلي قبل الاسلام او لمساهمتها في الفتوح الاسلامية وقد اشار السامر إلى ان هذه القبائل نقلت معها كل تراثها من تقاليد وعادات وثقافة وظلت هذه التقاليد الموروثة تلعب دورها في المجتمع الجديد (٨) حيث العصبية القبلية تظل تصاحب القبائل. فاذا ماوصلنا الى القرن الرابع الهجري نجد من بين هذه القبائل قبيلة طيئ (٩)

---

(١) أحمد بن أبي يعقوب بن واضح اليعقوبي : البلدان ٣٢٥ – ٣٣٦ .
(٢) المصدر السابق : ٣٢٤ – ٣٢٥ .
(٣) أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري : انساب الاشراف ٥/٣٠٨ .
(٤) المصدر السابق : ٥/ ٣١٤ .
(٥) ابو زكريا يزيد بن محمد الازدي : تاريخ الموصل ٣٢٣ ، ٤١١ .
(٦) المصدر السابق : ١٣٦ .
(٧) البلاذري : انساب الاشراف ٥/ ٣٠٩ .
(٨) السامر : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ١/١٨٠ .
(٩) طيء : اختلف في طيء هل هي مذحج أولا ؟ : فقال ابن الكلبي طيء ابن أدد بن زيد أخي مالك بن أدد بن زيد وامهما مذحج وقيل اسمه جهلمة بن ادد ينتهي نسبه إلى يعرب بن قحطان كانت منازلهم في اليمن وعلى أثر خروج الأزد منها خرجوا إلى جبلي اجا وسلمى وبعد أن غلب على المنطقة بنو يعرب خرجوا منها وانتشروا في الأمصار وخاصة بعد الاسلام فسكنوا العراق والجزيرة والشام . راجع حولهم : ابو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي بن حزم جمهرة انساب العرب ٣٩٤ – ٤٠٢ ، أبا عمر يوسف بن عبد البر / الانباه على قبائل الرواة مطبوع مع كتاب القصة والامم / ١٢٢ ، أبي سعيد عبد الكريم السمعاني /٣٦٥ ، أبي الحسن علي بن الأثير : اللباب في تهذيب الأنساب : القسم الثاني ٢٧١ ، أبا الفوز محمد امين السويدي البغدادي : سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب ٣٢ ، عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ٢/٦٨٩ .

وبني كلاب (١) وبني نمير (٢) كما نشاهدهم يخوضون معارك وحروب مع جيوش الخلافة او ضدها او فيما بينهم وسنتعرف على اصلهم ودورهم التأريخي في الجزيرة والشام.

* بنو طيء

قدم لنا الطبري بعض المعلومات عنهم فترد الاشارة اليهم منذ القرن الثاني الهجري اذ نشاهدهم ينزلون الكوفة في العراق حيث سكن بنو لحيان في ظاهر الكوفة وهم من جرم وفيهم جرمي وطيء وكلب وتميم (٣) في وقت تنقطع الاخبار عن ذكر دورهم حتى سنة ٢١١هـ ويبدو لنا ان منطقة الكوفة ظلت منطقة سكناهم ففي خلافة المعتضد وفي هذه السنة بالذات نرى تجمع بعض القبائل قرب الكوفة من اعراب اسدوطيء وتميم وغيرهم من قبائل الاعراب (٤) كما استوطن قسم آخر منهم قرب املاك بني اسد في عين التمر (٥) ويظهر لنا انهم كانوا يستوطنون في الجزيرة والشام إلى جانب العراق خلال القرن الثاني الهجري نراهم يؤيدون الخليفة الاموي مروان بن محمد سنة ١٣٢هـ عندما توجه إلى الشام فارا من العباسيين ...

(١) بنو كلاب : — هم بطن من عامر بن صعصعة من العدنانية وهم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر وينتهي نسبه إلى قيس بن عيلان وكانوا ينزلون في حمى كليب وحمى الربذة في جهات المدينة المنورة ثم انتقلوا إلى فدك العوالي ومنها إلى الشام والجزيرة وملكوا حلب . انظر هم في / ابن حزم / جمهرة أنساب العرب / ٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ابي العباس محمد بن يزيد المبرد / نسب عدنان وقحطان / ١٤ — ١٥ ، السمعاني / الأنساب / ٤٨٥ — ٤٨٦ وجلال الدين السيوطي/ لب اللباب في تحرير الأنساب / ٢٢٨ ، ... السويدي / سبائك الذهب / ٤٠ — ٤١ ، عبد المنعم الغلامي / الأنساب والاسر / ... .

(٢) نمير : — هو ابن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور وينتهي نسبه إلى معد بن عدنان والنميري نسبة اليه كانت منازلهم في نجد ومنها انتقلوا إلى الجزيرة الفراتية وهم عدة بطون راجع حولهم ابن حزم / جمهرة انساب العرب / ٢٧٩ — ٢٨٠ ، ابن عبد البر / الا نباه / ٩٥ ، السمعاني / الأنساب ٥٦٩ ، ابن الأثير / اللباب ق /٣٢٧ ، السيوطي / لب اللباب / ٢٢٨

(٣) الطبري / تأريخ الرسل والملوك / ١/ ٥٦٧ ، ٦١٢.

(٤) المصدر السابق / ١٠ / ٩٥ .

(٥) المصدر السابق /١٢٤/١٠ ، وعين التمر : — بلده قريبة من الانبار غربي الكوفة بقربها موضع يقال له شفاثا منهما يجلب القسب والتمر إلى سائر البلاد / انظر : — ياقوت / البلدان /١٧٦/٤ .

صار بقنسرين وثبت عليه طيء وتنوخ فنهبوا عامة عسكره ثم مر بحمص فصنعوا به مثل ذلك (١) ونراهم ايضاً في نجد سنة ٢٩٤هـ (يحاصرون وصيف بن صوراتكين بفيد (٢) حينما وجه اميراً على الموسم فحوصر ثلاثة ايام ثم خرج اليهم فواقعهم فقتل منهم قتلا ثم انهزمت الاعراب ووصل وصيف من فيد بمن معه من الحاج) (٣) .

ان توجيه الحملة العسكرية ضدهم تم نتيجة لنشاطهم الملحوظ والذي استهدف الايقاع ، بالحجاج ونهبهم وسلبهم ومما يعزز النص السابق هو تعرضهم لقافلة الحجاج لما جاوزوا المعدن(٤) سنة ٢٨٧هـ (٥) ولم يقتصر دورهم على النهب والسلب بل تعدى ذلك إلى دخولهم الحروب والمعارك عن طريق التحالف القبلي (اذ اجتمعت بنو ثعلبة الى اسد القاصدين الى ارض الموصل ومن معهم من طيء فصاروا يداً واحده على بني مالك ومن معهم من بني تغلب) (٦) ان تحالفهم القلبي هذا يمثل النزعة البدوية إلى جانب استمرار الخصومات القبلية التي هي صفة ملازمة للقبائل العربية .

اما في الشام فيظهر لنا انهم بقوا في قنسرين إلى سنة ٢٧١هـ (٧) كما اشار اليهم البلاذري وحدد منطقة سكناهم في دومة الجندل في الشام . ونستنتج مما سبق ان دورهم تركز على السلب والنهب مع هذا كله فقد كان لهم نشاط سياسي بفلسطين في الرملة عندما قادهم اميرهم المفرج دغفل الجراح الطائي الذي وصفته المصادر التاريخية بأنه رجل بدوي استولى على هذه الناحية واظهر طاعة العزيز بالله الفاطمي (٨). ومن هنا شاع صيتهم وعرفوا بين القبائل العربية الاخرى بفضله .

١ — الازدي / تأريخ الموصل / ٣٦ ، ابن العديم / زبدة الحلب /١/٥٣ .
٢ — فيد : —بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة . ياقوت / البلدان /٤ /٢٨٢ .
٣ — الطبري / تأريخ الرسل والملوك /١٠/١٣٦ .
٤ — المعدن : — نظنها معدن البرم وهي قرية بين مكة والطائف يقال لها المعدن، معدن البرم كثيرة النخل والزروع والمياه ياقوت / البلدان /٥/١٥٤ .
٥ — الطبري : /— تأريخ الرسل والملوك /١٠ /٧٤ .
٦ — ابن الاثير / الكامل في التاريخ /٨ /٢٧٢ .
٧ — ابن العديم / زبدة الحلب /١ /٨١ .
(٨) الروذراوري / ذيل تجارب الامم / ٣ / ٤٠٢ ، أبو يعلى حمزة بن القلانسي / ذيل تأريخ دمشق / ٢٢/—٢٣ ،تاريخ يحيى بن سعيد ١/١٦٠ ، شمس الدين ابو المظفر يوسف سبط بن الجوزي / مرآة الزمان في تأريخ الأعيان /ج ١١ / ورقة ١٠٤ (مخطوطة في دار الكتب المصرية) ابن الأثير / الكامل ٨/ ٧٠٠ .

* ب : بنو كلاب

وهم القبيلة الثانية وقد حدد وصولهم من نجد إلى الشام بسنة ثمان وعشرين وثلثمائة هجرية في ولاية ابي العباس احمد بن سعيد بن العباس الكلابي (١) وانتشروا بين الجزيرة والشام في عدوة الفرات (٢) وكانت فترة خروجها من نجد هي نفس الفترة التي خرج فيها بنو نمير اذ كتب بغا الكبير ابو موسى التركي إلى صالح العباسي بالمسير فيمن معه من قبائل العرب بالمديبر من بني كلاب وفزاره ومرة وثعلبة وغيرهم واللحاق به حتى سار بهم إلى بغداد وهناك التقوا مع بغا في سامراء في المحرم سنة ٢٣٣ هـ (٣) وانتقلوا بعدها إلى الشام والجزيرة واصبحوا رعايا عند بني حمدان شأنها شأن بقية القبائل العربية التي دخلت تحت

واستمر ولاء بني كلاب للحمدانيين إلى سنة ٣٥٥ هـ (٤) وذكر ابن العديم مثل ذلك الولاء حيث نرى ان الاهوازي فر من أسر سيف الدولة الحمداني بعد ان أوقع به في طريق بالس (٥) فطرح نفسه في بيوت بني كلاب ، فوجه اليه سيف الدولة يطالبهم به فسلموه اليه (٦) كما أشار ابن الاثير إلى وقوفهم إلى جانبه في حربه ضد ابي فراس بن ابي العلاء سعيد بن حمدان حينما وقع الخلاف بينهما (٧) .

ان الطابع الذي يميز هذه الفترة التأريخية من حكم الشام هو مساهمة القبائل العربية من الاحداث التأريخية واصبح دورها واضحا ولم يعد بنو حمدان يمثلون القوة القبلية الوحيدة في المنطقة ، بل ساهمت قبائل عربية اخرى في هذه الاحداث كبني كلاب بتمثيل نفسها في المعارك والحروب بوصفها قوة عسكرية ضمن جيوش المنطقة .

وأصبح دورهم واضحا في عهد سعد الدولة بن حمدان اذ صانعهم وأقطعهم بحمص

---

(١) ابن العديم / زبدة الحلب / ١ /٩٩ .

(٢) عبد الرحمن بن خلدون / العبر وديوان المبتدأ والخبر (التأريخ) / ٤/ ٢٥٥ .

(٣) الطبري / تأريخ الرسل والملوك / ١٠ / ١٤٦ — ١٥٠ .

(٤) ابو علي احمد بن محمد مسكويه : تجارب الامم / ٢/ ٢١٥ ، ماريوس كنارد : أخبار سيف الدولة الحمداني / ٢٢٨ .

(٥) بالس : بلدة في الشام بين حلب والرقة على ضفة الفرات الغربية آنذاك . ياقوت : البلدان / ١ / ٣٢٨ .

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ١ / ١٥١ .

(٧) ابن الأثير : الكامل / ٨ / ٥٨٨ .

الاقطاع المعروف بالحمصي (١) وربما تقع في تناقض تأريخي فيما اذا قرأنا معا صورة تبدل ولاء بني كلاب وتبعيتهم لسعد الدولة الحمداني فنشاهد تحول بعضهم إلى جانب بكجور (٢) في حربه مع سعد الدولة الذي لم يكن معه من عسكر عرب الا عمرو بن كلاب وعدتهم حينذاك خمسمائة رجل الا أنهم أولو بأس وقوة ومن سواهم من بدو العرب (٣) وكان بنو كلاب مع بكجور في الحرب وسار بكجور ، حتى نزل نابلس ومنها انتقل الناعورة وهناك التقى مع عسكر الحمدانيين في محرم سنة ٣٨١ هـ .

نستطيع ان نتلمس تغير بني كلاب لموقفهم من الحمدانيين من خلال سياسة سعد الدولة تجاههم حيث منح الخلع والهدايا لاصحابه من المقاتلين ولا شك في ان سياسة مصانعتهم تجعلهم اكثر ولاء لنفوذه في وقت سلك بكجور سياسة مغايرة (٤) لسياسته نظراً لما اشتهر به من بخل اضف إلى هذا انه استخدم اسلوب الاستمالة والاغراء للحرب فكاتب العرب الذين كانوا في جيش بكجور وأمنهم وواعدهم واغراهم بالاقطاعات إلى جانب انه سوف لايؤاخذهم بالانحياز إلى بكجور (٥) وما ان حصل العرب على توقيع سعد الدولة عطفوا على جيش بكجور ونهبوه في حين تفرق الآخرون من حوله ولهذا انكسر عسكره وانهزم وأخيراً قبض عليه فضرب عنقه بالسيف (٦) .

ان سياسة غدق الاموال والاقطاعات هي التي غيرت موقف بني كلاب من الحمدانيين

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب / ١ / ١٧٠ .

(٢) بكجور : هو غلام ومملوك قرعويه احد غلمان سيف الدولة وكان قد استولى على حلب بعد وفاة سيف الدولة واستناب قرعويه بكجور في حلب فلما قوي أمره قبض على مولاه وحبسه في قلعة حلب وملك حلب : انظره في ابن القلانسي ذيل تأريخ دمشق / ٢٧ - ٣٤ ، ابن العديم : زبدة الحلب / ١ / ١٧٧ - ١٧٨ .

(٣) أشار ابن العديم حول العرب الذين كانوا مع بكجور ضد سعد الدولة وهم بنو كلاب ونمير : انظر : الروذراوري : ذيل تجارب الامم / ٣ / ١٧٨ ، ابن العديم : زبدة الحلب/١/١٧٨

(٤) راجع الروذراوري / ذيل تجارب الامم / ٣ / ٢٠٩ - ٢١١ . ابن القلانسي / ذيل تأريخ دمشق / ٢٣٤ - ٢٣٧ ، ابن العديم زبدة الحلب / ١ /١٧٨ ، السامر / الدولة الحمدانية/ ٢/ ٧٤ .

(٥) ابن القلانسي / ذيل تأريخ دمشق / ٣٥ ، الأنطاكي / التأريخ /١ /٢١٠ .

(٦) الروذراوري / ذيل تجارب الامم / ٣/ ٢١١-٢١٤ ، ابن القلانسي ذيل تأريخ دمشق/ ٣٥ - ٣٨ .

وبهذا رجعوا للقتال تحت قيادتهم ومن ثم تبقى المصالح والاطماع هي التي ترسم ابعاد العلاقات فيما بين القبائل العربية .

لم يمارس بنو كلاب سياسة الغدر السابقة مع بكجور وحده بل نراهم يوجهونها نحو الحمدانيين انفسهم فقد ساهموا في نكبة ابي الهيجاء بن سعد الدولة بن حمدان سنة ٤٠٠ هـ بعد ان استدعوه لحكم حلب فاوقعوا به بعد ان استصلحهم منصور بن لؤلؤ فراسلهم واوعدهم باقطاعات سنية وحلف لهم ان يساهمهم اعمال حلب الخارجية (١) .

ويتضح لنا مما سبق ان سياسة بني كلاب في الحصول على الاموال والاقطاعات والمنح والهدايا هي التي وجهتهم نحو الحرب في هذه الفترة وقد ساعدهم على ذلك خلو المنطقة من قوة سياسية تتدخل في فض المنازعات القبلية أوتتحكم في النزاع إلى جانب ضعف الحكم الحمداني الذي اتاح الفرصة أمام تحركهم العسكري ووصلوا من خلاله إلى حكم حكم حلب « عن طريق بني مرداس اذ حكموا حلب بصورة مباشرة » (٢) .

* ج : بنو نمير

لانعثر على اشارة واضحة حول فترة وصولهم إلى الجزيرة الفراتية وبالرغم من ذلك وصلتنا بعض الاشارات التأريخية عن مناطق سكناهم خلال العصرين الاموي والعباسي فقد ذكرهم البلاذري في خلافه عبدالملك بن مروان في ناحية الشام قرب تدمر كما نشاهدهم يدخلون اطار الخصومات القبلية « حيث تجمعت قيس لقتال تغلب ومعها بنو نمير وكان قائدها عمير بن الحباب وعبد الملك مشغول عنه فالتقوا بالثرثار فاقتتلوا حتى انهزمت بنو تغلب» (٣) وتنقطع اخبارهم حتى سنة ٢٣٢ هـ حيث تصلنا الاشارة حول بعض بطونهم وهم في الجزيرة العربية بأرض اليمامة واشتبك معهم ثم صالحهم ورحل إلى البصرة وفي صحبته ثمانمائة رجل وتم هذا في شهر ذي القعدة سنة ٢٣٢ هـ حتى سار إلى بغداد فسامراء (٤) وكل مايظهر لنا انهم لم يخرجوا من الجزيرة العربية إلى العراق وجزيرة الشام مرة واحدة

(١) ابن العديم / زبدة الحلب / ١ / ١٩٩ ، الانطاكي / التأريخ / ١/٢٠١ .
(٢) كلودكاهن / تأريخ العرب والشعوب الاسلامية / م ١ / ٣١٠ .
(٣) البلاذري / أنساب الأشراف / ٥ / ٣٠٩ .
(٤) الطبري / تأريخ الرسل والملوك / ٩ / ١٤٦ — ١٥٠ .

بنفس الوقت تبقى فترة وصولهم الجزيرة غير واضحة (١) وان ماتحدثت به المصادر التاريخية حولهم هو الاشارة إلى مناطق سكناهم فقد سكنوا في السهل المجاور لجبل طور عبدين في ديار بكر الذي كان يقطنه الاكراد (٢) وكذلك مناطق أخرى بين الشام وعدوة الفرات وفي ديار مضر (٣) وكانوا في القرن الرابع الهجري تابعين لبني حمدان يؤدون اليهم الاتاوات وينفرون معهم في الحروب (٤) في وقت أصبحت القبائل العربية تشكل قاعدة الحكم الحمداني (٥) فنرى كيف ان دورهم في الجزيرة يبدأ سنة ٣٣١ ه حيث حاربوا يأنس المؤنسي في حران والرقة (٦) كما ضموا قوتهم العسكرية إلى قوة سيف الدولة الحمداني في حربه ضد محمد بن طغج حينما التقيا بمرج عذراء سنة ٣٣٥ ه (٧) .

يبدو لنا ان دخولهم ضمن طاعة بني حمدان قد تم بفترات متفرقة كما توقف اعلان الطاعة على مدى ماستخدم ضدهم من قوة عسكرية فعندما استفحل امرهم في الجزيرة سار سيف

وقعت بين المرداسيين والعقيليين سنة ٤٧٣ ه — ٤٧٥ه عندما حاصر شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل مدينة حلب وقلعتها واستمر الحصار إلى ان (١) تسلمها .

ان ماسبق كله يمثل المنازعات القبلية وتنافسها من اجل الحكم والنفوذ ولم يقتصر دور القبائل السياسي على دخولهم الحروب من اجل انهاء النزاع فيما بينهم بل دخلوها كعساكر مقاتلة وقفت مع جيوش السلطة المركزية وخاصة الخلافة الفاطمية كما تعكس لنا هذه الجملة من المعلومات الخاصة بحروبهم طبيعة العلاقات السياسية فيما بينهم .

٣ — العامل الاقتصادي :

عرف عن العرب انهم كانوا في مقدمة السكان في الشام والجزيرة في وقت انقسم السكان قسمين اولا : سكان المدن والقرى وثانيا : البدو الذين شكلوا القسم الآخر ومهنتهم الرعي وهم ينتجعون السهول والوديان والصحاري والمفاوز ولهم صلات مع المدن والقرى (٢) ومن صفاتهم الموروثة احتقارهم للمهن والحرف وسيرة هذه القبائل عملية الغزو الدائم .

وضمن انتمائهم القبلي وولائهم اوتبعيتهم لشيخ القبيلة او اميرها وضمن اطار حاجة الخلافة الفاطمية إلى قواتهم المقاتلة ضد الخلافة العباسية او الامارات الاسلامية المحلية كالحمدانيين في حلب او من اجل تجنب الاصطدام بقوتهم سعت جادة في كسب تأييدهم ولايتم الا عن طريق اصطناع الشيوخ أو المتقدمين عليهم لذا لجأت إلى سياسة المصانعة معامرائهم عن طريق اغداق الهدايا والهبات او منحهم الاقطاعات والالقاب والخلع .

نحو الحكم والسلطة كطمعهم في ملك نصيبين في وقت استفحل امرهم فيه (١) : ولنا بعد هذا العرض ان نتلمس مجموعة العوامل التي اتاحت لهذه القبائل العربية ان تلعب ذلك الدور السياسي فهناك

١ ــ ضعف السلطة المركزية :

وخير من عبر عن هذا الضعف خلال فترة البحث هو الدوري اذ قال « وكان للفوضى المركزية اثر في زيادة فعالية الاعراب وتنفذهم (٢) ومما يعكس هذه الفوضى هو ضعف الخلافة العباسية في بغداد (٣) ابان السيطرة البويهية على الحكم كان يقابل ذلك خروج الشام عن سلطة الخلافة الفاطمية لفترات متقطعة .

ان خير ما يعكس لنا ضعف الخلافة العباسية وفقدان السيطرة الفاطمية على الشام معا هو

---

(١) راجع حولهم ابن خلدون / التأريخ / ٤ / ٢٥٥ .

(٢) الدوري / دراسات في العصور العباسية المتأخرة / ٢٨٩ .

(٣) هناك أمثلة تأريخية حول هذه الظاهرة ويذكر بعضها من الفترة القريبة تأريخياً (من فترة البحث) ومنها مطالبة بختيار البويهي الخليفة المطيع لله سنة ٣٦١ هـ بأن يمده بالمال فيجيبه قائلا «وليس لي منها الا القوت القاصر عن كفائي وهي في أيديكم وأيدي أصحاب الأطراف ... الخ » ومن صورها الأخرى خلع المطيع وتولية الطائع ثم خروجه من دار الخلافة بعد أن هزم الأتراك من قبل عضد الدولة البويهي . كما أشار ابن ظافر أن الخطبة له قطعت لمدة شهرين حتى راسله عضد الدولة وعاد إلى منصبه في بغداد.
وربما يكفي أخيراً أن نشير إلى ما تعرض له الخليفة القائم بأمر الله في سنة ٤٥٠ هـ على يد البساسيري وخروجه من بغداد إلى حديثة الفرات .
انظر هذه الحوادث في مسكويه / تجارب الامم / ٢/ ٣٠٧ ، ٣٢٨ ، ٤٣٢ ، محمد بن عبد الملك الهمداني / تكملة الطبري / ٢١١ ، ٢١٥ ، ابن القلانسي / ذيل تأريخ دمشق /١١/ جمال الدين بن ظافر / أخبار الدولة المنقطعة / ورقة ١٤٦ . « قسم المخطوط » ، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي / المنتظم / ٨/ ١٩٤ ، ابن الاثير/ الكامل / ٩/ ٥٩٧ ، سبط بن الجوزي / مرآة الزمان/ ٢٦ ، ٤٤ « قسم المطبوع» . عماد الدين أبو الفداء اسماعيل/ المختصر في اخبار البشر / ٢/ ٧٨ ، الذهبي / تأريخ الاسلام / ج ٩ / ورقة ٨٣ –٨٨ (قسم المخطوط) ، ابن خلدون / التأريخ / ٤/ ٤٩٢

خروج الفتكين (١) الحاجب المعزي من بغداد (٢) على اثر اشتداد الفتنة بين الديلم والاتراك فسار إلى دمشق واستولى على اعمالها وبقي حاكماً فيها إلى سنة ٣٦٥ هـ (٣) ومن مظاهر تلك الفوضى استفحال امر الفتنة بين الديلم والاتراك (٤) في بغداد إلى جانب حرب الطوائف والمحلات ببغداد حيث نهبت الاموال وشاع القتل وكثرت الفتن والخـــروج على السلطان (٥) .

ان هذه المظاهر عكست ضعف السلطة المركزية وما نتج عنها فوضى سياسية عمت العراق وفقدت السيطرة على بقية المناطق بنفس الوقت شجعت القبائل على التحرك والسلب والنهب ومحاكأة الامراء في التطلع نحو الامارة والحكم .

٢- المنازعات القبلية والمنافسة بين القبائل على السلطة والنفوذ :

استحكمت المنازعات القبلية ونشطت الخصومات بين القبائل العربية نفسها ففي الجزيرة نلاحظ تحرك القبائل كبني نمير اذ عاثوا في الموصل في سنة ٣٥٩ هـ وقتلوا العامل بيرغميد مما حدا بأبي تغلب ناصر الدولة بن حمدان اذ يسرع اليهم (٦) او كتلك الحرب التي وقعت في الموصل نفسها سنة ٣٧٩هـ حتى سنة ٣٨٠ هـ بين الاكراد المروانيين والحمدانيين وجذبت

(١) الفتكين : — ورد اسمه عند ابن ظافر الأزدي هفتكين التركي المعزى غلام معز الدولة بن بويه وقدم له مسكويه : — كان يتلو سبكتكين عند معز الدولة وله رياسة في الأتراك وحشمة قديمة ولقاء في الحروب للأعداء وعقد الأتراك الرئاسة له عليهم انظر مسكويه / تجارب الامم / ٢ / ٣٣٤ . ابن القلانسي / ذيل تأريخ دمشق / ١١ . ابن ظافر الأزدي / أخبار الدولة المنقطعة / ٣١ « القسم المطبوع » ، ابو الفداء / المختصر / ٢ / ١١٥ .

(٢) مسكويه / تجارب الامم / ٢/ ٣٣٨ ، ابن القلانسي / ذيل تاريخ دمشق / ١١ ، الهمداني تكملة الطبري / ٢٢٥ ، ابو الفداء / المختصر / ٢/ ١١٥ .

(٣) مسكويه / تجارب الامم / ٢/ ٣٣٨ .

(٤) مسكويه / تجارب الامم / ٢/ ٣٢٤ — ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، الهمداني / تكملة الطبري / ٢١٤ ، الدوري / دراسات في العصور العباسية المتأخرة / ٢٨٦ — ٢٨٧ .

(٥) انظر مسكويه / تجارب الامم / ٢/ ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٣٨ ، الهمداني / تكملة الطبري / ٢١١ ، ابو الفداء / المختصر / ٢/ ١٥٩ الدوري / دراسات في العصور العباسية / ٢٨٢ ، ٢٨٦ ابن خلدون / التأريخ / ٤/ ٢٤٥ .

(٦) ابن خلدون / التأريخ / ٤/ ٢٤٥ .

اليها بقية القبائل في المنطقة كعقيل ونمير (١) او حينما تجددت الحرب بين الحمدانيين وانتهت المعركة بانتصار ابي علي الحسن بن مروان(٢) وكان من نتائجها وصول ابي طاهر الحمداني الى نصيبين ولحق به ابو الذواد بن المسيب فاسره وعليا ابنه والمزعفر امير بني نمير وقتلهم صبرا (٣) اما حران فقد قصدها ابو تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان سنة ٣٥٩ هـ فوجد اهلها قد اغلقوا ابوابها وحاصرهم إلى ان صالحوه ورجع إلى الموصل ومعه احداث حران (٤) ولم يقتصر الامر على الجزيرة وحدها بل تعرضت الشام إلى غزو القبائل المستمر كالوقائع التي جرت بين بكجور (٥) وبين سعد الدولة بن حمدان من اجل حكم حلب (٦) اوكتلك المعركة التي جرت بين الامير ابي محمد الحسين بن الحسن بن حمدان والي دمشق وبين جمع العرب الكلابيين بقيادة محمود بن شبل بن صالح بن مرداس (٧) و في سنة ٤٥٢ هـ حاصر الكلابي محمود بن صالح حلبا ومعه منيع بن سيف الدولة ولم يستطع النيل منها إلى ان وصل اليه ناصر الدولة بن حمدان في العساكر المصرية لاتحادها (٨) وكذلك القرار الذي اتخذه المفرج بن دغفل الطائي بالسير إلى احياء عقيل المقيمة بالشام ليواقعها وانتهى الامر بهزيمته (٩) كما نشاهد تسلط بني كلاب على حلب سنة ٤٠٢ هـ بقيادة صالح بن مرداس (١٠) او كسيره إلى فلسطين عن طريق الساحل سنة ٤١٥ هـ فنهب الكثير في طريقه إلى ان وصلها فحاصرها واستلمها يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة (١١) ومن الامثلة الاخرى على حرب القبائل هي الحرب التي

---

(١) الروذراوري / ذيل تجارب الامم / ٣/ ١٧٨ ، ابن الأثير / الكامل / ٩ / ٧٢.
(٢) الروذراوري / ذيل تجارب الامم / ٣/ ١٧٨ ، ابو الفدا / المختصر / ٢ / ١٢٦ .
(٣) ابن الأثير / الكامل / ٩ / ٧٢ .
(٤) ابن الأثير / الكامل / ٨ / ٦٠٩ .
(٥) بكجور : — (مر التعريف به سابقاً) .
(٦) الروذراوري / ذيل تجارب الامم / ٣/ ٢٠٩ — ٢١٧ ، ابن القلانسي / ذيل تأريخ دمشق /٢٧ — ٢٨ الأنطاكي / التأريخ ١/ ٢١١ ، ابن خلدون التأريخ/٤/ ٢٥٣ .
(٧) ابن القلانسي / ذيل تأريخ دمشق / ٨٧، ابن الأثير / الكامل / ٩/ ٢٣٣
(٨) ابن القلانسي / ذيل تأريخ دمشق / ٩٠ .
(٩) الروذراوري / ذيل تجارب الامم / ٣/ ٢٠٤ ، الأنطاكي / التأريخ /١ / ١٦٠، ١٦٣.
(١٠) ابن العديم / زبدة الحلب /١/ ٢٠١ .
(١١) الأنطاكي / التأريخ / ٢/ ٢٤٤ ، ابن العديم / زبدة الحلب / ٢٢٨/١ .

وقعت بين المرداسيين والعقيليين سنة ٤٧٣ هـ — ٤٧٥هـ عندما حاصر شرف الدولة مسلم بن قريش صاحب الموصل مدينة حلب وقلعتها واستمر الحصار إلى ان (١) تسلمها .

ان ماسبق كله يمثل المنازعات القبلية وتنافسها من اجل الحكم والنفوذ ولم يقتصر دور القبائل السياسي على دخولهم الحروب من اجل انهاء النزاع فيما بينهم بل دخلوها كعساكر مقاتلة وقفت مع جيوش السلطة المركزية وخاصة الخلافة الفاطمية كما تعكس لنا هذه الجملة من المعلومات الخاصة بحروبهم طبيعة العلاقات السياسية فيما بينهم .

٣ — العامل الاقتصادي :

عرف عن العرب انهم كانوا في مقدمة السكان في الشام والجزيرة في وقت انقسم السكان قسمين اولا : سكان المدن والقرى وثانيا : البدو الذين شكلوا القسم الآخر ومهنتهم الرعي وهم ينتجعون السهول والوديان والصحارى والمفاوز ولهم صلات مع المدن والقرى (٢) ومن صفاتهم الموروثة احتقارهم للمهن والحرف وسيرة هذه القبائل عملية الغزو الدائم .

وضمن انتمائهم القبلي وولائهم اوتبعيتهم لشيخ القبيلة او اميرها وضمن اطار حاجة الخلافة الفاطمية إلى قواتهم المقاتلة ضد الخلافة العباسية او الامارات الاسلامية المحلية كالحمدانيين في حلب او من اجل تجنب الاصطدام بقوتهم سعت جادة في كسب تأييدهم ولايتم الا عن طريق اصطناع الشيوخ أو المتقدمين عليهم لذا لجأت إلى سياسة المصانعة مع امرائهم عن طريق اغداق الهدايا والهبات او منحهم الاقطاعات والالقاب والخلع .
اما تجاوب الامراء فهو قد يعكس حاجتهم إلى المال وان خير ما يفسر هذه الظاهرة هو ما روته لنا المصادر التاريخية من معلومات تبرز دور القبائل السياسي وتكشف تطلعها للحصول على الاموال (٣) فمثلا نرى كيف ان الخليفة العزيز الفاطمي بذل إلى المفرج بن دغفل الطائي

(١) ابو الفداء / المختصر /٢/١٩٤ ، ابن خلدون / التأريخ / ٤/ ٢٧٥ .
(٢) اشار عبد العزيز الدوري إلى أن القسم الأكبر من القبائل بقي بدويا في القرن الرابع الهجري . راجع الدوري / تأريخ العراق الاقتصادي / ١٥ .
(٣) ابن القلانسي / ذيل تأريخ دمشق / ٣ .

مائتي الف دينار (١) لقاء تمرده ضد الفتكين وأبي الحسن القرمطي عندما اجتمعا ضد عساكره فأشار الفاطمي اهل الرأي من خاصته وجنده (فقالوا ليس فيه من حيلة غير فل عسكره وليس يقدر على فله الا بابن الجراح فاجابهم ابن الجراح الى(٢) وبذل العزيز بالله الفاطمي لمن يجيء بالفتكين مبلغ مائة الف دينار فبلغه المفرج بن دغفل الطائي.

ومضى إلى العزيز فتوثق منه في المال الذي بذله في الفتكين وتم ذلك في سنة ٣٦٨هـ (٣)

سلك الحمدانيون سياسة المصانعة مع المقاتلين من القبائل العربية فهذا سعد الدولة بن حمدان يراسل العرب من امراء بني كلاب الذين كانوا مع بكجور ويرغبهم في العطاء الكثير فمالوا اليه حتى اذا التقى الطرفان انكسر بكجور وهرب فعرض سعد الدولة بن حمدان المال لمن يحضره اليهفقيل احضره بدوي فشرط على ابن حمدان ان يمنحه مائتي فدان زراعة ومائة الف درهم ومائة راحلة محملةبرا(٤)وخمسين قطعة من الثياب فبذل له ذلك جميعاً(٥) ويستمر الفاطميون في سياسة غدق الاموال والخلع حيث نرى الحاكم بأمر الله الفاطمي يكتب إلى المفرج بن دغفل الطائي معاتباً اياه حول مالحق في يارختكين (٦) قائده التركي على يد حسان ابنه مشيراً عليه بحسن معاملته ووعده على ذلك بخمسين الف دينار (٧) وكذلك عرض الحاكمبأمر الله مبلغا من المال كان مقداراه عشر آلاف دينار ومائة ثوب (٨) لمن يحضر له منجوكتين بسبب خروجه على حكمه واستبداده في حكم دمشق فأنبثت

---

(١) ذكر أن الفاطميين استعظموا المال فضربوا دنانير من صفر وطلوها بالذهب وجعلوها في أكياس وجعلوا في رأس كل كيس يسيرا من دنانير الذهب الخالص وحملوا إلى ثقة ابن الجراح . انظر ابن القلانسي / ذيل تأريخ دمشق / ٣ .

(٢) ابن القلانسي / ذيل تأريخ دمشق / ٣ .

(٣) المصدر السابق / ١٩ ، الهمداني / تكملة الطبري / ٢٢٧ ، أبو الفدا المختصر / ٢ /١١٥.

(٤) ذكر ابن القلانسي ماشترطه البدوي على ابن حمدان لقاء احضاره بكجور نفس ما أورده الروذراوري إلا أنه ذكر المائة راحلة تحمل حنطة بدلا من(محملة برا) راجع ابن القلانسي/ ذيل/تأريخ دمشق / ٣٧ .

(٥) الروذراوري / ذيل تجارب الامم / ٣/ ٢١٣ ، ابن القلانسي / ذيل تأريخ دمشق / ٣٧ .

(٦) يارختكين : –كل ماذكر عنه انه مملوك لوالد الحاكم بأمر الله العزيز الفاطمي واخوته .

(٧) الروذراوري / ذيل تجارب الامم / ٣/ ٢٣٨ ، ابن ظافر/ اخبار الدول المنقطعة /٥٠.

(٨) الروذراوري / ذيل تجارب الامم / ٣/ ٢٢٣ ، ابن القلانسي / ذيل تأريخ دمشق /٤٧ .

العرب في طلبه وادركه علي بن الجراح واسره وسار به الى الخليفة بأمر الله الفاطمي بمصر وكان ذلك في سنة ٣٨١هـ (١) .

استخدم بعض الخلفاء الفاطميين طريقة اخرى من اجل مصانعة الامراء المحليين من العرب ومن اجل اغرائهم في البقاء تحت نفوذهم الا وهي منحهم الاقطاع (٢) ولدينا معلومات متفرقة حول اقطاع الخلفاء لبعض امراء القبائل العربية او اقطاع الامراء انفسهم للقبائل من عاش بمعزل عن سلطة الخلافة تحت طابع الاستبداد . فقد وصلت خليفة مصر الحاكم بأمر الله ام حسان بن المفرج الطائي سنة ٣٨١ هـ تسائله العفو عن ابنها ومنحه الاقطاع وتقرير مال له فوافقها مما جعله ان يعلن الطاعة للخليفة ويلبس خلعه (٣) واقدم الخليفة الحاكم الى اقطاع فتح غلام لؤلؤ الكبير صيدا وبيروت لقاء انتفاضة ضد سيده لؤلؤ الكبير في حلب (٤) وحصل أمراء العرب الآخرون أيضاً على الاقطاع فهذا رافع بن ابي الليل يسير الى الخليفة الظاهر الفاطمي بعد وفاة عمه سنان بن عليان امير العرب الكلبيين فاصطنعه وعقد له الامارة على الكلبيين وعوضه اقطاعات سنان عمه (٥) يبدو لنا ان اقطاع الأمراء كان سياسة عامة استخدمتها السلطة المركزية من اجل كسب تأييد القبائل والاستفادة من قوتهم العسكرية فقد استخدم البويهيون طريقة الاقطاع مع عرب الجزيرة فحينما تقلد ابو نصر خوشاذة ولاية الموصل من قبل شرف الدولة البويهي في سنة ٣٧٩ هـ وانشغل في حرب باذ الكردي استدعى العرب من بني نمير وعقيل واقطعهم

---

(١) الروذراوري / ذيل تجارب الامم / ٣/ ٢٢٣ .

(٢) أشار المستشرق كلود كاهن إلى هذا النوع من الاقطاع فقال (ولكن لا ينبغي لنا التسرع فنطلق لفظة « اقطاع » كما فعلوا في الغالب على واقع يختلف عنه في كثير من الوجوه ذلك لان الدولة قد استبقت لنفسها املاكاً على جانب من الأهمية وثانياً لأن الأقطاع بوصفه شكلا من أشكال الرواتب يقابله واجب عسكري وثالثاً لأن اقطاع الضابط لم يكن كافياً حتى يتعهد به جميع القوات التابعة له فكان على الدولة أن تنفق على هذه القوات من الرواتب العادية) وعليه فيكون هذا الاقطاع اقطاعاً عسكرياً . انظر كلود كاهن / تأريخ العرب والشعوب الاسلامية / م ١ / ٣٠٢ .

(٣) الروذراوري / ذيل تجارب الامم / ٣/ ٢٣٨ .

(٤) ابن خلدون / التأريخ / ٤/ ٢٦٢ .

(٥) الانطاكي : التأريخ ٢/ ٢٥٣ .

البلاد (١) كما انه من الملاحظ على هذا الاقطاع انه لم يكن ثابتاً بل كان يتغير بتغير ولاء الامير للسلطة الى جانب ان الامراء المقطعين لم يستقروا في اراضيهم استقراراً دائماً مما يضمن لها استثماراً منتظماً (٢) فعلى سبيل المثال ان رافع بن ابي الليل استوحش من الفاطميين (لأنهم قبضوا أكثر ماساغوه من اقطاع ونافروه فظاهر حسان بن الجراح واتفق معه على مصادرتهم ووقع بينهما وبين الدزيري وقعة استظهر فيها العرب عليهم وعاد المغاربة على ماكان لحسان من الاقطاع والاعمال واقطعوها لعرب اخرين تقرروا بهم على حربهم (٣) وبهذا نستطيع اخيراً التعرف على ان هذا النوع من الاقطاع بمثابة مكافأة يمنح الى امراء القبائل لقاء دخولهم الحرب مع جيوش الخلافة وقد عبر كلود كاهن عن ذلك بدقة في قوله « ان الاقطاع كان يعتبر معادلا للراتب » (٤) .

يتضح لنا ان هذا النوع من الاقطاع جعل اصحابه المقطعين يمارسون سياسة التعسف والاستغلال واحياناً يتحول الى عملية تخريب ونهب وسلب بسبب فقدان شرعية ملكيته للارض المقطعة مما يجعله ان يتصرف بها كيفما يشاء .

ويحسن بنا اخيراً الاشارة الى القحط او المجاعة ضمن العامل الاقتصادي وهل كان لها دور في هجرة القبائل وتحركها ، فلم تتوفر المعلومات حول وجود او انتشار مثل تلك المجاعة والقحط بحيث يظهر دورها في حركة القبائل وتنقلها وممارسة الغزو والى جانب هذا يمكن الاشارة ايضاً الى عدم وجود ضغط قبلي من قبائل اخرى كانت اقوى من قبائل الشام والجزيرة حلت في الجزيرة وانتجعتها خلال القرن الرابع الهجري بدليل عدم حدوث أية هجرة جديدة للقبائل من الجزيرة العربية في هذه الفترة اذ توقفت مثل تلك الهجرة نهائياً . وبهذا تبقى العوامل السابقة تلعب دورها في النشاط السياسي للقبائل العربية

---

(١) ابن الأثير : الكامل ٩/ ٥٥ .
(٢) كلود كاهن : تأريخ العرب والشعوب الاسلامية م١ / ٣٠١
(٣) الأنطاكي : التأريخ ٢/٢٥٣ .
(٤) كلود كاهن : تأريخ العرب والشعوب الاسلامية م١ / ٣٠٢ .

العلاقات السياسية للقبائل

** أ ــ علاقة القبائل بالفاطميين : ــ

واجه الفاطميون خلال سيطرتهم على الشام جملة من الصعوبات وعلى رأسها استفحال أمر القبائل العربية وخاصة في جنوب سوريا وفلسطين (١) . اضافة الى النفوذ البويهي الذي تمثل في حمايتهم للدولة الحمدانية في حلب والتي رفعت شعار المعاداة للفاطميين بالرغم من التجانس المذهبي بين الطرفين (٢) فضلا لما واجهه بداية حكمهم من خطر التحالف السياسي الذي لجأت الى عقده الدولة البويهية مع القرامطة (٣) . ولذلك وجهت سياستها نحو هذه الصعوبات ، فبدأت بفتح بلاد الشام سنه ٣٥٩هـ عندما سير جوهر جيشاً بقيادة جعفر بن فلاح ، وكان اول القبائل التي اصطدم معها الفاطميون هم بنو حمدان على عهد اميرهم ابي تغلب بن حمدان الذي سعى الى تأييد الحسن القرمطي (٤) واشار السامر ان هدف عقد هذا الحلف هو (من اجل ان يستعين به في دفع خطر الفاطميين عن سورية وفلسطين) (٥) الا ان علاقة الحمدانيين بالفاطميين لم تستمرعلى هذه الشاكلة بل نرى ان سعد الدولة بن حمدان استقر رأيه على اقامة الخطبة لهم في حلب سنة ٣٦٣ هـ (٦) ان اتجاه سعد الدولة الى الفاطميين كان منبثقاً من حاجة حكمه الى اللجوء اليهم عن طريق التحالف السياسي والذي يمكنه من الوقوف امام الروم البيزنطيين ، ونظراً لحاجة الحكم الى تثبيت قواعده بعد ان دب الضعف في حكم بني حمدان .

كما نجد التجاء ابي تغلب الغضنفر بن ناصر الدولة بن حمدان الى مراسلة الخليفة الفاطمي سنة ٣٦٩هـ وارسل كاتبه علي بن عمرو الى مصر يطلب النجدة ضد شخص يدعى

---

(١) كلود كاهن / تأريخ العرب والشعوب الاسلامية / م١ / ٣٠٦ ، ٣١٥ .
(٢) السامر / الدولة الحمدانية / ١ / ٢٩٢ .
(٣) ذكر ابن ظافر الأزدي : سار الحسن الأعصم القرمطي من هجرو الاحساء بأمر الامام المطيع لله له بذلك فوصل إلى الرطبة / ابن ظافر / اخبار الدولة المنقطعة / ٢٤ ، وكذلك ذكرها ابن الوردي / تتمة المختصر / ١/ ٤١١ .
(٤) مر ذكر القرامطة وتحالفهم مع الفتكين وبين حمدان سابقاً .
(٥) السامر / الدولة الحمدانية / ١ / ٢٩٣ .
(٦) ابن العديم / زبدة الحلب / ١ / ١٦٩ — ١٧٠ .

قساماً (١) كان قد استولى على دمشق ومنعه من دخولها بعد ان ولاه العزيز مرها خوفاً من طمعه بها (٢) فسير الخليفة قائده الفضل الى الشام لنجدة ابي تغلب فلم يستطع دخول دمشق وقام بالرحيل الى الرملة عن طريق الساحل وكان فيها من العرب المفرج بن دغفل الجراح الطائي (٣) والذي وصفه مسكويه (بأنه رجل بدوي استولى على هذه الناحية واظهر طاعة العزيز بالله اظهاراً من غير ان يتصرف على احكامها وكبرت حاله والبوادي معه) (٤) وذكر ابن القلانسي ان الفضل قام بدفع سجل الى ابن الجراح بولاية الرملة وحرضه ضد ابي تغلب ابن حمدان ، (٥) وربما كان لتحريض الفضل بن ابي الفضل ضد ابي تغلب اثر كبير في توجيهه نحو احياء عقيل في الشام ليواقعها ويخرجها عن تلك البلاد (٦) فلجأت الى ابي تغلب وسألته نصرتها بعد ان ذكرته بصلة الرحم النزارية بينها وبينه وهذا ماحدى بأبي تغلب ان يكتب الى ابن الجراح يطالب منه العدول عن رأيه فرد اليه بأن لايتدخل في الامر فسار أبو تغلب الى الرملة في المحرم من سنة ٣٦٩هـ (٧) في حين سار الفضل صاحب المغرب عن طريق الساحل الى الرملة وجمع بطريقه العساكر كما استعد ابن الجراح للقاء أبي تغلب بن حمدان فجمع العرب حوله الى ان التقى الطرفان في باب الرملة بموقعة انتهت بإندحار بني حمدان وعقيل وتفرقت العساكر من حول ابي تغلب فسقط ابي تغلب اسيراً بيد ابن الجراح فقتله ، وأرسل رد أسه من قبل الفضل الى العزيز بالله الفاطمي بمصر (٨) . كان من نتائج اللقاء العسكري بين ابن الجراح الطائي والفاطميين ضد بني عقيل والحمدانيين هو تخلص الدولة الفاطمية من احد الطرفين ،

---

(١) قسام : أن أصل قسام من قرية بجبل سنير يقال لها تلفيتا وهم من قوم يقال لهم الحارثون احدى البطون العربية وقد نشأ بدمشق وقد صحب رجلا يقال له ابن الجسطار من مقدمي الأحداث وصار من حزبه إلى أن حكم دمشق / انظر ابن القلا نسي / ذيل تأريخ دمشق / ٢٦ — ٢٧ .

(٢) مسكويه / تجارب الامم / ٢/ ٤٠١ ، القلا نسي (ذيل تأريخ دمشق / ٢٢ ، ابو الفداء/ المختصر ، ٢/ ١٢٠ .

(٣) مسكويه / تجارب الامم / ٤٠١ ، القلا نسي /ذيل تأريخ دمشق / ٢٢ ، الأنطاكي التأريخ ١٦٠/١ .

(٤) مسكويه / تجارب الامم / ٤٠٢/٢ ، الا نطاكي /١ /١٦٣ ، ابن الأثير / الكامل /٧٠٠/٨، أبو الفداء / المختصر / ١٢٠/٢ ، السامر / الدولة الحمدانية / ١/ ٢٩٣ .

(٥) ابن القلا نسي / ذيل تأريخ دمشق / ٢٢.

(٦) الا نطاكي / التأريخ / ١٦٣/١ .

(٧) مسكويه / تجارب الأمم / ٢/ ٤٠٢ ابن الأثير / الكامل / ٨ / ٧٠٠.

(٨) مسكويه / تجارب الأمم / ٢ / ٤٠٣ ، ابن القلا نسي ، ذيل تأريخ دمشق / ٢٢ .

كما استطاع ابن الجراح أن يستولي على الرملة إلى جانب اتاحة الفرصة أمام القائد الفاطمي بأن يوجه همته إلى المفرج بن دغفل الطائي واتجه إلى المفرج بعد أن صفى حسابه مع أبي تغلب الحمداني وتتفق المصادر التأريخية على ذكر السبب الذي حمل الفضل على الايقاع بالمفرج ذلك هو عبثه وفساده في الرملة بعد أن كبر امره وزاد شره (١) ولهذا سعى الفضل لاعداد خطة الايقاع به (٢) إلا أنها فشلت وبعد أن شعر ابن الجراح بالخطر راسل مصر طالباً من الخلافة الصفح عنه وما أن تم ما أراد رجع إلى فلسطين فأخربها وخربت الرملة والاعمال (٣) واستمر ذلك السلوك الى سنة ٣٧١ هـ ، واعقبها بالتظاهر في الخروج عن طاعة العزيز بالله الفاطمي وخلع طاعته وما كان على الخليفة العزيز الا أن يسير اليه جيشاً من مصر إلى الشام واستطاع اخراجه منها (٤) .

إن عملية اخراجه من الشام لم تضع حداً لتصرفه وتحركه إذ نراه يعود إلى الشام من جديد مما دفع الخلافة إلى تجهيز العساكر اليه بقيادة بلتكين التركي والتقى معه في الرملة وانتهت الموقعة باندحاره واسره إلا أنه استطاع الفرار من الاسر فسار متوجهاً نحو حمص ومنها إلى انطاكية واستجار بصاحبها الملك باسيل فأجاره وأطلق له المساعدة من الأموال فرجع إلى الشام (٦) ويظهر أنه عاد إلى ممارسة نشاطه السياسي ضد الخلافة حتى سنة ٤٠٤ هـ وتبدو لنا سيطرته على الرملة وفي الوقت نفسه بقي يناصب العداء للخلافة الفاطمية ونفوذها في الشام فلم يدخل في طاعتها ونستطيع أن نتلمس ذلك من حديث الخليفة العزيز بالله الفاطمي مع وزيره يعقوب بن يوسف بن كلس سنة ٣٨٠ هـ عندما حضرته الوفاة حينما طلب من وزيره أن ينصحه بأمر دولته ورعيته فأجابه الوزير بقوله (سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ولا تبق على المفرج بن دغفل بن الجراح متى عرضت لك فيه فرصة) (٧) وجاء حكم الوزير على المفرج لكثرة تحركه ضد الخلافة ونفوذها ولعناده وعبثه في الشام ، ولم يترك فرصة الا ونراه يستغلها ضد الخلافة ، وها هو يدخل في حلف عسكري مع منجوتكين وبصحبته الامير الكلبي

---

(١) الانطاكي / التاريخ /١/ ١٦٣ ، ابن القلانسي / ذيل تاريخ دمشق / ٢٥ .
(٢) لم تتوفر لدينا المعلومات حول الخطة التي دبرت له .
(٣) ابن القلانسي / ذيل تاريخ دمشق / ٢٥ .
(٤) راجع المصدر السابق / ٢٥ .
(٥) ورد اسمه تحت اسم (بكتكين) انظر ابو الفداء / المختصر / ٢/ ١٢٢ .
(٦) ابن القلانسي / ذيل تاريخ دمشق / ٢٩ ، الانطاكي / التاريخ / ١ /١٦٣ .
(٧) راجع : ابن القلانسي / ذيل تاريخ دمشق / ٣٢ .

سنان بن عليان ويتفا ضد عساكر الخلافة التي كانت بقيادة سليمان (١) بن جعفر بن فلاح، وانتهى اللقاء بطلب العرب الامان من القائد الفاطمي فأمنهم وهذا فشل الحلف ضد الفاطميين .. وأخيراً استفحل امر المفرج الطائي في الشام ولم يسير اليه الخليفة الحاكم بأمر الله اي جيش يذكر الى سنة ٤٠٤ هـ كما ذكرنا، وسير الحاكم اليه فيها حملة عسكرية نحوه وسارت الى الرملة في وقت اعلن الخبر عن وفاته (٢) وبقي أولاده من بعده يحملون مسؤولية مناوأة السلطة الفاطمية والتي ركزت بجهودها عليهم فانهت الامر لصالحها بعد أن طردتهم من المناطق التي استولى عليها في حياة والدهم (٣) .

اشتهر من أولاده حسان بن المفرج الطائي ولكنه لايبلغ المنزلة التي بلغها والده سواء في قيادة قومه او علاقته بالخلافة الفاطمية . وأول مالجأ اليه هو اتباعه اسلوب الوساطة مع الحاكم بأمر الله الفاطمي فأوفد اليه والده فشفعت له عنده وأعاده على الرملة وذكر أنه اصطنعه وأقطعه والذي يهمنا في البحث ان حسان لم يتعرض بعد ذلك الى العبث والفساد الى ان قتل الحاكم بأمر الله (٤) ومع هذا نستطيع ان نستنتج من النصوص ان حسان لم يهمل في نظر الخلافة الفاطمية نرى الخليفة الحاكم بامر الله يكتب اليه سنة ٤٠٧ ويكلفه وعشيرته بالاحتياط على حلب (٥) وفي سنة ٤١٥ هـ (٦) فتح حسان بن المفرج الرملة وعبث فيها في وقت كان قد خرج معه على الخلافة صالح بن مرداس الكلابي وملك حلب (٧) .

---

(١) سليمان بن فلاح : هو أحد قادة الجيش الفاطمي ندية الخليفة المعز بالله الفاطمي أبا تميم بعد أن قدمه وجعله اسفهسلار الجيش وأمره بالمسير الى الشام/ابن القلانسي/ذيل تاريخ دمشق/٤٦ .

(٢) ذكر الروذراوري : ان الحاكم بأمر الله الفاطمي دس له السم فمات/الروذراوري /ذيل تجارب الامم / ٣/ ٢٣٩ .

(٣) الانطاكي / التاريخ / ١ / ٢٠٧ .

(٤) الروذراوري / ذيل تجارب الامم / ٣/ ٢٣٩

(٥) ابن العديم / زبدة الحلب / ١/ ٢١٥ .

(٦) ذكر الانطاكي ان حسان فتح الرملة سنة ٤١٥ هـ في وقت أشار ابن ظافر بأنه تغلب على أكثر البلاد في هذه السنة على حين أشار القلانسي ان ذكره قد علا في الشام وظهر أمره وقوى وجرت له وقائع مع العرب حتى كوتب الى الحفرة واستأذنا بالقبض عليه فقبض عليه بحيلة دبرت له بعسقلان سنة ٤١٧هـ أنظر الانطاكي / التأريخ /٢/٢٤٤ ، ابن ظافر / اخبار الدول المنقطعة /٦٣ ، القلانسي / ذيل تأريخ دمشق / ٧٢ – ٧٣ .

(٧) ابن ظافر / اخبار الدول المنقطعة / ٦٣ (قسم المطبوع) .

حاول امراء العرب (١) في الشام ان يعززوا مواقفهم الدفاعية ضد الخلافة الفاطمية فعقدوا حلفاً سياسياً شملت خطته تقسيم الشام الى مناطق نفوذ فيما بينهم ، وأشار الانطاكي الى فترة عقد الحلف هي أيام الحاكم وفي أول أيام الظاهر (٢) ، ولم تتطرق المصادر التاريخية الى العوامل التي دفعتهم الى تقسيم الشام فيما بينهم الا ماتحفنا به ابن خلدون فقد ذكر عاملين وهما :

١ — ضعف الفاطميين بمصر بعد المائة الرابعة .

٢ — انقراض امر بني حمدان في الشام والجزيرة (٣) والى جانب ضعف السلطة المركزية او المحلية في الشام فكان من العوامل الاخرى التي دفعتهم الى عقد مثل هذا الحلف هو عدم اعتراف الخلافة الفاطمية بنفوذهم أو منحهم مزيداً من الصلاحيات . أما خطة الحلف فقد شملت فلسطين وما يرسمها الى ابن الجراح وعشيرته طيء، ودمشق وما ينسب اليها لسنان بن عليان وعشيرته وحلب وما معها لصالح بن مرداس وبني كلاب (٤) ، اما اتمام الحلف وصياغته فقد تم في وقت عين به أنوشتكين الدزبري والياً على هذه البلاد من قبل الخليفة الظاهر خليفة مصر، واضاف الانطاكي (انهم اطلعوا الملك باسيل ملك انطاكية على ماقرروه بينهم ((٥) ، وبدأوا بتطبيق قرارهم فسار حسان نحو الرملة ولم يستطع من دخولها لان انوشتكين كان قد وصلها وحكم فيها واما صالح فسار الى حلب واستطاع دخولها يوم السبت لعشر خلون من محرم سنة ٤١٦هـ أما ابن الجراح الطائي فنازل انوشتكين الدزبري واوقع به وانتهت بهروب انوشتكين الى عسقلان (٦) .

كانت علاقة بنو طيء بالفاطميين غير طيبة وكان آخرها ان اقدمت السلطة الفاطمية

---

(١) امراء العرب : هم حسان بن المفرج بن الجراح أمير الطائيين، وصالح بن مرداس أمير الكلابيين وسنان بن عليان أمير الكلبيين .

(٢) الانطاكي التأريخ / ٢ / ٢٤٤ .

(٣) ابن خلدون التأريخ / ٤ / ٢٧٢ .

(٤) الانطاكي / التأريخ / ٢/ ٢٤٤ ، ابن الاثير الكامل ٢٣١/٩ ، ابن العديم /١/ ٢٢٣، ابن خلدون / التأريخ / ٤ / ٢٧٢ .

(٥) الانطاكي / التاريخ / ٢ / ٢٤٥ .

(٦) المصدر السابق / ٢ / ٢٤٦ .

الى تجريد حسان من اقطاعاته واعماله وتسليمها الى عرب آخرين اعانوهم في حروبهم(١). مما اضطر على اثرها ابن الجراح ان يلتجأ الى الروم ، وانمدفع القائد الوزيري للايقاع به الا انه فشل بسبب تدخل رافع بن ابي اميرالكلبيين بمساندة بعض افراد عشيرة طيء وبهذا فرض على الدزيري الانسحاب وعدم اللحاق بحسان وهكذا انقذه من هجوم الجيش الفاطمي، ونتج عن هذه العملية ان تدخل ملك الروم لدى الخليفة الفاطمي الظاهر والتمس منه ان يعيد حسان الى بلاده واقطاعاته القديمة بأيام الحاكم بأمر الله (٢) الا ان الخليفة الفاطمي رفض عرض ملك الروم .

نستنتج مما سبق ان علاقة بني طي مع الفاطميين حددتها المصالح الشخصية والاطماع الفردية وكانت ولاشك علاقة عدائية ، واخيراً نستطيع الحكم على ان معركة الاقحوانة التي وقعت بين العرب الطائيين والكلابيين وجيش الخلافة الفاطمية (٣) وضعت حداً للدور السياسي والتحرك العسكري والذي نتج عنه تلاشي النفوذ القبلي لعشيرة طي في الشام، ولم يصلنا ذكر عنهم سوى نص تاريخي يعود الى زمن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي اذ سأله ناصر الدولة بن حمدان بن محمود بن الجراح وحازم بن علي بن الجراح فأطلقهما واخلا سبيلهما سنة ٤٥١هـ (٤) ، ولم تتطرق المصادر بعد ذلك الى ذكرهما مطلقاً .

• علاقة بني كلاب بالخلافة الفاطمية :

ظهرت اطماع بني كلاب (٥) . في الاستيلاء على حلب و حكمها مع بداية القرن الخامس الهجري في وقت اضطربت الحالة السياسية فيه فبعد ان تمت سيطرة منصور أبي نصر بن لؤي على حلب طالبه بنو كلاب ماشرط لهم ووعدهم به من اقطاع واحسان

---

(١) المصدر السابق / ٢ / ٢٦١ .
(٢) المصدر السابق / ٢ / ٢٦٥ – ٢٦٦ .
(٣) ابن القلانسي / ذيل تاريخ دمشق / ٧٣، ابن العديم / زبدة الحلب / ١/ ٢٣، ابن الوردي تتمة المختصر / ١ / ٤٥٠ .
(٤) ابن القلانسي / ذيل تاريخ دمشق / ٨٩ .
(٥) كان اميرهم في هذه الفترة صالح بن مرداس ولم تقدم المصادر شيئا عن حياته سوى ماذكره ابن خلدون بانه ملك الرحبة وهو من بني كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ومجالاتهم في نواحي حلب / انظر ابن خلدون / التاريخ ٤ / ٢٧١ .

فدافع عنه فسيطروا على حلب (١) ودعاهم إلى وليمة فلما حضروا الطعام أوقع بهم وقيدهم (٢) وفيهم الامير صالح بن مرداس الكلابي سنة ٤٠٢ هـ (٣) واستطاع صالح بن مرداس ان يهرب من سجنه ويجمع بني كلاب حوله والتقى مع منصور بن لؤلؤ فانتصر عليه وقيده ثم أطلقه، وعاد إلى حكم حلب. واشترط صالح عليه أن يسلم إلى بني كلاب نصف حلب اقطاعا(٤) وان يحمل اليه خمسين ألف دينار عينا إلى جانب شروط أخرى(٥). الا أن منصور بن لؤلؤ لم يبر بوعده مع صالح بعد دخوله البلد وعاد إلى سياسة الغدر واضطهاد السكان مما جعل مولاه فتح (٦) ان ينتفض عليه سنة ٤٠٦ هـ ويستلم حكم البلد وكاتب الحاكم بامر الله الفاطمي وصانعه كما هادن صالح وسلمه الاعمال التي كان قد اتفق على اخذها من لؤلؤ (٧) ويبدو ان صالح بن مرداس أمير الكلابيين بقي مقيما في حلب وان علاقته مع الخلافة الفاطمية في هذه الفترة كانت حسنة، وراسل على مايبدو الخلافة الفاطمية (بأنه تحت السمع والطاعة) (٨) ان لجوء صالح إلى مراسلة الخلافة واعلان طاعته حمل الخليفة الحاكم بأمر الله ان يمنحه لقب (أسد الدولة) (٩) ومع ان علاقته حسنة بالخلافة وحصوله على لقب من الخليفة الا ان دوره السياسي على مايبدو تلاشى في حلب بدليل ان حلب انتقلت إلى يد نواب الحاكم (١٠) واحداً بعد الآخر إلى سنة ٤١٥ هـ، حيث توفي الحاكم بأمر الله، وولي امر الخلافة ابنه الظاهر لاعزاز

(١) الانطاكي التاريخ / ١ /٢١١، ابن العديم / زبدة الحلب ١ / ٢٠١.

(٢) اختلف المؤرخون حول عدد من اسر وقتل من بني كلاب فذكر ابن العديم ان بينهم صالح بن مرداس وصالح ابو حامد وجامع ابنا زائدة وأشار الى عدد القتلى بألف رجل أما ابن الاثير فذكر ان عددهم خمسمائة فارس قبض على مائة وعشرين رجلا منهم صالح بن مرداس وحبسهم وقتل مائتين وذكر الانطاكي ان الداخلين منهم الى حلب بلغ سبعمائة رجل فيهم جميع أمراء بني كلاب وذوي الرئاسة انظر /الانطاكي التاريخ /٢/ ٢١١، ابن الاثير الكامل / ٢٢٨/٩ ابن العديم / زبدة الحلب / ١ / ٢١.

(٣) الانطاكي التاريخ / ١/ ٢١١، ابن العديم / زبدة الحلب / ١ / ٢٠١.

(٤) الانطاكي التاريخ / ١ /٢١٣، ابن شدادالجزيرة (مخطوطة) ورقة ٢٤٦ — ٢٤٧.

(٥) ابن الاثير الكامل ٩ /٢٢٨، ابن العديم زبدة الحلب ٢٠٦ — ٢٠٧.

(٦) فتح: لم تقدم المصادر شيئاً عن حياته سوى انها ذكرته بانه مولى المنصور بن لؤلؤ.

(٧) ابن العديم / زبدة الحلب / ١ ٢١٣— ٢١٤.

(٨) بالرغم من جهلنا في الجهة التي راسلها صالح بن مرداس فيبدو انها موجهة الى الخلافة الفاطمية.

(٩) لم تذكر المصادر التاريخية سنة المنح هذا: انظر الانطاكي، التاريخ ١١٥/١.

(١٠) ابن الاثير الكامل / ٢٣١/٩، ابن خلدون / التأريخ / ٢٧/٤.

دين الله ، وفي خلافته دخل صالح بن مرداس الحلف السياسي (١) الذي عقده امراء العرب بالشام . واستطاع في سنة ٤١٦هـ من دخول حلب وحكمها (٢) كما حالف حسان بن المفرح الطائي الذي استنجد بصالح فأنجده ، وأخيراً قتل في معركة الاقحوانة على الاردن سنة ٤٢٠هـ (٣) وملك من بعده ولداه معز الدولة ابو علوان ثمال (بالقلعة) وشبل الدولة نصر في المدينة (٤) .

بدأ شبل الدولة علاقته بالخلافة الفاطمية بصفحة بيضاء حيث سير شيخ الدولة أبا الحسين بن الأيسر إلى الظاهر بمصر وحمله الهدايا وأقام بن الأيسر بمصر فتوفى الظاهر وخلع المستنصر عليه وسير الخلع معه إلى نصر بن صالح ولقبه مختطر الامراء خاصة الامامة شمس الدولة ومجدها ذي العزيمتين) (٥) .

ان مثل هذه الوفادة التي ارسلها شبل الدولة حققت هدفين الاول انه كسب خطب الخلافة وودها فضلا عما حصل عليه من الخلع والالقاب الذي يضفي على حكمه شرعية تتيح له الفرصة من كسب ود الناس وتأييدهم له .

ومع كل ما تقدم تبقى المصالح الشخصية والاطماع المالية تلعب دوراً واضحاً في تحديد العلاقة بين الطرفين ، فقد حصل معز الدولة ثمال بن صالح على توقيع الخليفة المستنصر الفاطمي بعد أن انفذ اليه اموال (٦) ولعبت تلك الاموال دوراواضحاً في رسم العلاقة السياسية بين الفاطميين وبين كلاب في حلب ، اذ نرى ان الخليفة المستنصر أرسل إلى الامير محمود بن نصر سنة ٤٥٩هـ يطالبه بحمل مال إلى خزانته ، وما ان اعتذر الامير عن ايصالها للخليفة حتى أرسل جيشاً إلى حلب لأخذها من محمود (٧) .

ان مطالبة حكام المدن بالمال يظهر ضعف السلطة المركزية وعجزها عن توفير موارد للدولة ،

---

(١) مر الحديث عن هذا الحلف سابقا .
(٢) الانطاكي /التأريخ ٢ /٢٤٥ ، ابن /الاثير الكامل ٩/٢٣١ ، ابن العديم زبدة الحلب ١ /٢٢٧ ، ابن ظافر /اخبار الدول المنقطعة ٦٤ .
(٣) مر الحديث عن موقعة الاقحوانة في بحث (علاقة بنو طيء بالخلافة العباسية) .
(٤) الانطاكي التاريخ ٢ / ٢٥٣ ، ابن العديم / زبدة الحلب / ١ / ٢٣٧ .
(٥) ابن العديم / زبدة الحلب / ١ / ٢٤٨ .
(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ١ / ٢٦ : ٢٦٢ .
(٧) انظر حولها ابن العديم : زبدة الحلب / ١ / ٢٨١ ، سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ١٣٢ (قسم المطبوع)

وتبقى الفتنة مستمرة بين القبائل العربية حول حكم حلب إلى سنة ٤٧٢ هـ اذ تنقطع الاخبار عن علاقة بني كلاب بالخلافة الفاطمية : ويعود ذلك — فيما نرى — إلى سببين الاول : هو ضعف الخلافة الفاطمية والثاني ظهور قوة السلاجقة من الشرق .

اما بنو نمير: فتكاد تنعدم المعلومات التأريخية حول علاقتهم بالخلافة الفاطمية الا ما اورده ابن الاثير عن ان شبيب بن وثاب النميري صاحب حران والرقة قد خطب للامام القائم بأمر الله العباسي وقطع خطبة المستنصر العلوي الفاطمي بتحريض من نصر الدولة بن مروان بعد أن تلقى الاخير تهديداً من انوشتكين الدزبري نائب العلويين على الشام (١) ان اقامة الخطبة للفاطميين من قبل بنو نمير يكشف تبعيتهم وولائهم لهم .

ان قطع الخطبة للخلافة الفاطمية تكشفها المراسلات التي جرت بين المؤيد داعي الدعاة الشيرازي وبين شبيب بن وثاب النميري ومن بين ما كتب اليه قوله (ان توقفك هذا أن كان انفة من أن تطأ بساط السلطان — خلد الله ملكه — فهو غلط اذ لم يزل بساطه لاقدام الملوك موقفا .. الخ) (٢) وكل ما يظهر من المراسلات هو الدعوة لبني نمير في العودة إلى طاعة الخلافة وتخبرنا احدى رسائله خروج ابن وثاب للقاء داعي الدعاة الشيرازي ممثل السلطة الفاطمية حينما سار من الشام إلى ديار بكر كما صورت لنا موقف ابن مروان منهم ، فقال : (ادركوني من قبل التمزيق وخلصوني من هذا المضيق فأصعدت إلى تلقاء الدقة فاستدعيت ابن وثاب ووافقته على الاحتفال والاحتشاد) (٣) .

ان كل ما تكشفه هذه المراسلات هو خروج بني نمير عن طاعة الخلافة الفاطمية ثم عودتهم الى طاعتها بعد التهديد والوعيد الذي تلقوه من الفاطميين الى جانب عزم الخلافة من استرجاع نفوذها على الشام والجزيرة (٤) .

* **علاقة القبائل العربية مع الروم :**

اتسمت العلاقات الاسلامية مع الروم بأنها علاقات تخلل القتال معظم مساحاتها متمثلا بسلسلة من الوقائع والحروب ولم تخل أحياناً من الهدنة بين الطرفين ، وكان لامارة بني حمدان

(١) ابن الأثير : الكامل ٤٧٢/٩ . ابن العبري تأريخ مختصر الدول /٣١٩.

(٢) انظر رسالة المؤيد إلى شبيب بن وثاب النميري في رسائل مؤيد الدين هبة الله الشيرازي /سيرة المؤيد في الدين / ١١٩ — ١٢٠ .

(٣) المؤيد في الدين / سيرة المؤيد ١٧٠ .

(٤) لم يكن بنو نمير هم وحدهم قطعوا الخطبة للفاطميين فقد تكرر قطعها . إذ قطع الخطبة محمود بن نصر بن صالح صاحب حلب سنة ٤٥٧ هـ للمستنصر العلوي ابو الفداء المختصر ١٥٩/٢ .

موقع جغرافي يتوسط ممتلكات الخلافتين العباسية والفاطمية (١) في حين مثلت أرض امارتهم الارض المباشرة لممتلكات الروم، ولهذا وجب على حكام هذه الأمارة تحمل مسؤولية الدفاع عن أراضي الدولة الاسلامية وكان لسيف الدولة بن حمدان دور مشرف في هذا المجال وبصورة منتظمة(٢) وربما توفرت عدة عوامل ساعدت سيف الدولة على أن ينجح في مهمته العسكرية هذه (٣) وكان موته في سنة ٣٥٦ هـ يمثل تخلص الروم من أقوى عقبة ظهرت على حدودهم (٤) وخير ما يكشف هذا الرأي والذي طرحه الاستاذ هو تعرض البلاد الاسلامية وخاصة الشام إلى هجماتهم المتكررة .

كانت أول هجماتهم على حلب سنة ٣٥٩ بعد أن وثب على الحكم فيها كل من بكجور وقرعويه فنازلوا المدينة وحاصروا القلعة(٥) فهادنهم قرعويه على حمل الجزية (٦) وكذا كان الحال على عهد الملك باسيل ،اما علاقة شيوخ القبائل العربية وامرائها في المنطقة مع الروم فقد كانت علاقة حسنة اذ اتخذوا من أرض الروم ملجأ لهم وخاصة في حالة خروجهم على الخلافة الفاطمية بل تعدى إلى طلب العون والنجدة منهم ففي سنة ٣٧١هـ التجأ المفرج إبن دغفل الطائي إلى بكجور في حمص ومنها انتقل إلى انطاكية ملتمساً من ملك الروم النجدة فأطلق له ودفعه إلى الشام (٧)ومن الذين التجأوا اليهم منصور بن لؤلؤ عندما وثب غلامه فتح على حكم حلب سنة ٤٠٦ هـ (٨) وما أن آل حكم حلب إلى صالح بن مرداس حتى ارسله ملك الروم وأمره اكرام منصور وأضاف الانطاكي ان الملك باسيل منع السفر والمتاجرة من جميع بلاده إلى شيء من أعمال الشام ومصر وسأل صالح بن مرداس اطلاق المتاجرة لاصحابه فاطلقها لهم دون غيرهم (٩) .

---

(١) كلود كاهن : تأريخ العرب والشعوب الاسلامية م١/٣٠٧
(٢) السامر : الدولة الحمدانية في الموصل وحلب ٢/١٥٢
(٣) من هذه العوامل بعث روح الجهاد في نفوس رعيته وقيادته للجيش بنفسه إلى جانب بنية جيشه
انظر : كلود كاهن :تأريخ العرب والشعوب الاسلامية م١/ ٣٠٨ .
(٤) السامر : الدولة الحمدانية ٢/١٩٠ .
(٥) ابن العديم : زبدة الحلب ١/ ١٦٣ .
(٦) المصدر السابق ١/١٦٢ — ١٦٤.
(٧) الانطاكي : التأريخ ١/٢١٤ .
(٨) ابن العديم : زبدة الحلب /٢١٠ — ٢١١ ، الانطاكي : التأريخ ١/٢١٤ .
(٩) الانطاكي / التأريخ ١/٢١٤ .

واستمرت علاقة بعض القبائل العربية بالروم حسنة الى سنة ٤٢١هـ : وخاصة مع بني مرداس في حلب حيث ان بعض امرائهم يطلبون العون والمساعدة من الروم (١) الا ان مثل تلك العلاقة الحسنة لم تستمر طويلا فسرعان ماساءت بمجرد قيام أحد الطرفين بغزو ضد الاخر ، فعلى سبيل المثال نرى قبيلة كلاب تتصدى للروم في غزوهم للشام في وقت شاهد نهب نمير كلابهم وأموالهم (٢) مما أجبر ارمانوس ملكهم على الانسحاب . وكان من نتائج هذا اللقاء ان غضب الملك على بني مرداس وساءت العلاقة بين الطرفين حتى عقدت الهدنة بينهما .

واستقر الحال على ان يدفع العرب الجزية الى الروم وقدرت بخمسمائة الف درهم (٣) وأضاف الانطاكي على ماأورده ابن العديم ان الملك (كتب بذلك وثيقة على نسختين وكتب ابن صالح خطة واشهد على نفسه في احداها لتكون في ديوان الملك ووقع الملك بخطه في النسخة الاخرى وانفذ معها صليباً ذهباً مرصعاً اماناً بالوفاء وبالشرط واطلق في انطاكية مقلد بن كامل بن مرداس وجميع من معه من الرهائن واطلق ابن صالح ايضاً القاضي رسول الملك المقيم عنده (٤) وتتجدد صلة الروم بالعرب ، فهذا نصر الدولة بن صالح يتوسل الى ملك الروم طالباً منه ان يتوسط له عند الخليفة الظاهر الفاطمي ليقره على ملكه في حلب (٥) فكانت الظاهر بامره وطلب منه عدة شروط .

ومن الامراء الذين اعلنوا الطاعة لملك الروم حسان بن المفرج الطائي كما صالحوا شبيب بن وثاب النميري ٤٢٩هـ (٥) وهكذا تبقى المصالح الشخصية للطرفين تلعب دورها في تحديد العلاقة بينهما فكان الروم يقبضون الجزية من امراء العرب في حين كان الامراء يهمهم البقاء في الحكم والحفاظ على مكانتهم السياسية ولذلك صانعوا ملوك الروم بالاموال ، وهادنوهم على الجزية كما يعكس ولا شك ضعف هؤلاء الامراء وعدم قدرتهم على دفع خطر الروم عن بلادهم الى جانب دفعهم المال فقد أوفد ثمال بن صالح سنة ٤٤٣ هـ رسوله شيخ الدولة أحمد بن الايسر الى القسطنطينية ومعه الاموال (٦) ومن مظاهر ضعف سياسة

---

(١) الانطاكي : التاريخ ١٦٣/١/ .
(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ٢٤٢/١/ – ٢٤٣ .
(٣) الانطاكي : التاريخ ٢/ ٢٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب ٢٤٧/١/ .
(٤) الانطاكي : ٢٧٠/٢/ – ٢٧١ .
(٥) ابن الاثير : الكامل ٤٦٠/٩ .
(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ٢٦٨/١٠

بعض القبائل العربية تجاه الروم هو غزوهم المستمر لاراضي المسلمين وخاصة مدن الشام كأفامية (١) وارتاخ (٢) ومنبج (٣) وحلب (٤) وانطاكية (٥) واستمرت الغزوات بين الطرفين واستطاع المسلمون ان يضعوا حداً لقوة الروم بانتصارهم في معركة فاصلة بين الطرفين هي معركة ملازكرد (٦) من باد اخلاط والتي قادها الب ارسلان السلجوقي سنة ٤٦٣هـ بقيادة ملكهم ارمانوس. ولا شك ان هذه المعركة دفعت المسلمين الى ان يوجهوا جيوشهم نحو بلاد الروم وأن يعيدوا بعض الاراضي التي فقدوها طيلة الفترة السابقة كتلك الحملة التي قادها محمود بن صالح بن مرداس ٤٦٥هـ وفتح فيها السبن(٧).

اما في الجزيرة فقد وردت الاشارة الى وجود علاقة لبني نمير مع الروم فقد راسل ابن عطير النميري ارمانوس ملك الروم وعرض عليه بيع مايملكه من الرها بعشرين الف دينار ودخلها الروم وقتلوا المسلمين وصالحهم ابن وثاب النميري على حران وسروج واستقر ابن نمير من جديد في الرها مما جعل سيمون ملك الروم ان يقصد الجزيرة لغرض اصلاح الرها وحرب عرب النميريين (٨) وبعدها تنقطع الاخبار عن علاقة الطرفين في الجزيرة ويمكن تفسير العلاقة بين الطرفين بانها علاقة حربية تتخللها فترات سلم متقطعة .

* علاقة القبائل بالخلافة العباسية والسلاجقة :

سيطر البويهيون على بغداد خلال القرن الرابع الهجري وقد شاركوا في بعض الفترات

---

(١) راجع غزوهم لأفامية : سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ١٣٦ (القسم المطبوع) ابن الوردي تتمة المختصر ٥١٨/١

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٥٠ — ٥١ ، ابن العديم زبدة الحلب ١٩٢/١ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ٥٧/١٠

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ١٣٦

(٥) ابن العديم زبدة الحلب ١٣/٢

(٦) انظر هذه المعركة : ابن الاثير : الكامل ٦٤٣/٩ ، الراوندي راحه الصدور وآية السرور ١٨٩ ، البنداري : تاريخ آل سلجوق ٣٨ — ٤٤ ، ابن ايبك كنز الدرر ٣/ ج٦، ٢٢٥ — ٢٢٦ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ١٤٦، الذهبي : تاريخ الاسلام ١٠٢/٩ — ١٠٣ ، ابن الوردي ٥١٩/١. كما ورد ذكر هذه المعركة في ابن الجوزي : المنتظم ٢٦٠/٨ — ٢٦٤ .

(٧) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٩٨ .

(٨) راجع ابن الاثير ٤١٣/٩ ، ٤٤٨ ، الانطاكي : ٢٦٩/٢ .

الخليفة في الخطبة والسكة (١) وحصلوا على الالقاب والكنى (٢) ووقف البويهيون في عداء مستمر مع الفاطميين في الشام ومصر ابان حكمهم لهما ، وبحكم ضعف الخلافة العباسية وهيمنة الخلافة الفاطمية عليهما ، وأصبحت ممارسة العباسيين لنفوذهم ضعيفاً في الشام والجزيرة ومع هذا كله نلاحظ وجود اشارات قليلة عن علاقتهم بالقبائل العربية في الشام والجزيرة تتمثل في اقامة الخطبة للعباسيين بعد قطع الخطبة الفاطمية ومن هذه القبائل بنو نمير على عهد اميرهم شبيب بن وثاب النميري صاحب حران والرقة للامام القائم بامر الله العباسي وقطع خطبة المستنصر بالله العلوي سنة ٤٣٠ هـ (٣) وعلى مايبدو خلال سير الاحداث انها لم تستمر طويلا .

ان قطع بني نمير الخطبة الفاطمية كانت تمليه الظروف السياسية بما فيها علاقتهم السياسية مع بني مروان في ديار بكر وحسبما تتطلبه مصالحهم الشخصية المتعلقة بحكمهم في المنطقة ولهذا وقعوا تحت تأثير نصر الدولة بن مروان بعد سماعه بان انوشتكين الدزيري نائب الفاطميين على الشام يرغب بالهجوم على بلادهم فلذلك رفعوا لواء العصيان للفاطميين ، وقيل خطب محمود بن صالح بن مرداس في حلب للخليفة القائم بامر الله (٤) نستطيع ان نتلمس الدوافع التي دفعت بني كلاب إلى اقامة الخطبة للعباسيين هو خوفهم من قوة السلاجقة إلى جانب انتشار دعوتهم في المنطقة وعلى هذا الاساس جمع الامير محمود اهل حلب واستشارهم بالامر فوافقوه . (٥) ويضيف ابن العديم سببا اخر هو ضعف وزوال حكم الفاطميين من المنطقة ، ونجد ماسبق في جملة قالها الامير محمود بن نصر الكلابي لاهل حلب حول السلاجقة ومنها (قد ذهبت دولة المصريين وهذه دولة جديدة ومملكة سديدة ونحن تحت الخوف منهم) (٦) هذا كله في وقت قد وافق وصول رسول الخليفة نقيب النقباء طراد محمد الزينبي إلى حلب بعد ان اخذ البيعة من ابن مروان وسار إلى الرها ومنها إلى حلب (٧) ومعه كتب ضمنت اقامة الخطبة للخليفة والسلطان (٨) فكان هذا الامر بداية

---

(١) مسكويه : تجارب الامم ٨٥/٢ ، حافظ حمدي : الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي ٣٢

(٢) حسن باشا : الالقاب الاسلامية ٦٢

(٣) ابن الاثير : الكامل ٤٦٠/٩

(٤) ابن الاثير : الكامل ٦٣/١٠ ، ٦٤ ، ابن الوردي : تتمة المختصر ٥١٩/١٠

(٥) ابن الاثير : الكامل ٦٤/١٠ ، سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ١٤٢ (القسم المطبوع)

(٦) ابن العديم : زبدة الحلب ١٧٦/٢ .

(٧) ابن الاثير : الكامل ٦٤/١٠ ، ابن خلدون : التأريخ ٢٧٢/٤

(٨) ذكر ابن العديم ان محمود بن نصر بن صالح هو الذي راسل السلطان العادل ألب أرسلان واستقر الامر على ان يخطب محمود للخليفة القائم وبعده للسلطان : انظر ابن النديم : زبدة الحلب ١٧/٢

لزوال النفوذ الفاطمي من الشام والجزيرة وعودة النفوذ العباسي اليهما .

أما علاقة السلاجقة بالشام والجزيرة فتعود إلى سنة ٤٦٣ هـ (١)حيث مر ألب أرسلان بارض الجزيرة وديار بكر وهو في طريقه إلى الشام(٢) قاصداً بلاد الروم (٣) إلى ملاز كرد ولما وصل حلب راسل امراء بني كلاب فساروا اليه ،وكان من بين من لقيه الأمير محمود بن نصر ، فأسرع إلى وطء بساط السلطان وخدمته (٤) .

ان اعلان الولاء للسلطان السلجوقي لم يكن دليلا على توطد نفوذ السلاجقة في حلب حيث وصل إلى أعمال حلب القبلية في سنة ٤٦٨هـ أتسز بن اوق التركي وترددت الرسل بينه وبين صاحبها نصر بن محمود وانتهى بالاتفاق (٥) على ان يبعث له خمسة عشر الف دينار ورجع إلى حصار دمشق فتسلمها وخطب (٦) للمقتدي بالله العباسي ، ولم يخطب بعدها للفاطميين (٧)وتجددت صلة بني كلاب بالسلاجقة على قدر ماتتطلبه المصالح الشخصية فقد سار وثاب بن محمود ومبارك بن شبل وحامد بن زغب جميعاً إلى باب السلطان ابن الفتح ملكشاه بن الب أرسلان وحضروا عنده وطلبوا منه اعانتهم ضد سابق — بعد أن ملك حلب فنازعه أخوه على حكمها—وسير معهم تاج الدولة تتش إلى الشام سنة ٤٧٠هـ(٧) وأقام بالمروج إلى ان وصلته بنو كلاب بالظعن ونزلوا حلب سنة ٤٧١هـ (٩) ولم يستطع فتحها فرحل إلى دمشق وتسلمها من أتسز بن اوق التركي. أما حلب فطمع في حكمها شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي .

---

(١) ربما أخطأ سبط بن الجوزي في تثبيت تاريخ وصول السلطان إلى حلب حيث جعله سنة ٤٦٢هـ عندما حدثنا عن خروج السلطان للقاء الروم : انظر سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ١٤٣ — ١٤٥ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ٦٤/١٠ البنداري / تاريخ ال سلجوق /٣٧ . الحسني : أخبار الدولة السلجوقية ٣٤ — ٣٨ .

(٣) أحمد بن يوسف الفارقي : تاريخ آمد وميافارقين : ورقة ٦٣(قسم المخطوط . عزالدين بن شداد : الاعلاق الخطيرة ورقة ٩١ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحليب ٢٢/٢ .

(٥) ذكر ابن العديم لم يستقر بينهما أمر فسار إلى دمشق فتسلمها : ابن العديم زبدة الحلب ٤٧/٢

(٦) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ١٧٨ .

(٧) انظر ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق /١٠٩ ، ابن الوردي تتمة المختصر /٥١٩/١

(٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق /١١٢

(٩) ابن العديم : زبدة الحلب ٥٧/٢

وكاتبه الاحداث (١) وبنو كلاب ليدفع عنهم الغز (٢) واجتمع اليه بنو كلاب ونمير وكلب وجميع القبائل وحاصرها واستلم المدينة(٣)وزال حكم بني مرداس في حلب (٤) فيها مسلم للخليفة وللملك شاه وكتب الى الخليفة فبعث بعهدها اليه (٥) وبدا يوسع سيطرته حتى شملت الشام ، وكان من نتائج سيطرته على الشام ان قبض على اكثر اقطاع بني كلاب بالشام ، وعاد الى حلب وقبض على حسن بن وثاب النميري امير نمير وكان قد خسرها في العام الخالي فسلمها اليه ان اعتقله بحلب وقتله بعدها (٦) وما ان قوي امر مسلم بن قريش حتى نرى دخول القبائل العربية في طاعته والقتال معه فقد اذعن له اكثر بني كلاب وبني نمير وبعض بني عقيل كما وصل اليه بنو طي وكلب وبقي الامر كذلك الى سنة ٤٧٩ هـ (٧) ..

هكذا تبقى القوة هي التي تتحكم في توجيه القبائل واخضاعها الى دائرة النفوذ السياسي للسلطة المركزية او المحلية مثلما تتحكم في نفس المنازعات بين القبائل او منع التجاوزات. واخيراً انتقل حكم حلب الى نفوذ السلطان ملكشاه اذ وصلها في الثالث والعشرين من شعبان سنة ٤٧٩ هـ (٨) ومعها يضعف نفوذ القبائل العربية ودورهم السياسي في الشام والجزيرة ، وتبقى المعلومات حولهم قليلة متناثرة ، كقبائل مقاتلة ضمن الجيوش المركزية.

واخيراً نستنتج ان القبائل العربية من بني طي وكلاب ونمير لم يخضعوا للسلطة المركزية بل سيرتهم النزعة البدوية الى احياء تقاليدهم السائدة فيما قبل الاسلام كعادة الغزو ، التي اتسمت بطابع النهب والسلب ، والثورة على قانون السلطة المركزية ، ونظامها في حين بقي ولاءهم السياسي وتبعيتهم العسكرية مضطربة تتحكم فيهما المصالح الشخصية وتحددها زعامتهم العشائرية ...

---

(١) ذكر ابن العديم : ان سابق بن محمود كاتبه يبذل له التسليم اليه (يعني تسليم حلب) راجع ابن العديم زبدة الحلب ٥٧/٢ .

(٢) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان ٢٠٢ .

(٣) القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ١١٣ ، ابو الفداء المختصر ١٩٤/١ ، ابن العديم : زبدة الحلب ٧٠/٢ ، سبط بن الجوزي مرآة الزمان ٢٠٣ .

(٤) ابن العديم زبدة الحلب ٧٠/١ ، سبط بن الجوزي مرآة الزمان ٢٠٣

(٥) سبط بن الجوزي مرآة الزمان ٢٠٣ (قسم مطبوع)

(٦) ابن العديم زبدة الحلب ٧٨/٢

(٧) المصدر السابق ٨٠/٢

(٨) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ١١٩ ، ابن العديم زبدة الحلب ١٠٠/٢ ، سبط بن الجوزي مرآة الزمان ٢٤٠ ، ابو الفداء المختصر ١٩٧/٢ — ١٩٨ .

في عملية البناء الحضاري بل على العكس اذ نراهم يمثلون دور التخريب والعبث والفساد في المدن والقرى والاراضي التي تعرضت إلى غزوهم كما إنهم اخذوا يشكلون في بعض الفترات مصدر قلق في نظر السلطة المركزية وخاصة الخلافة الفاطمية .. واخيراً استطاعوا ان يصلوا إلى حكم المدن كحكم بني مرداس من بني كلاب لحلب وحكم طي للرملة في فلسطين ونمير لحران والرها .

المصادر والمراجع

أ. المخطوطات —

١ ـ ابن ايبك: أبو بكر عبدالله الدواه دارى (كان موجوداً في سنة ٧٣٦هـ)
كنز الدرر وجامع الغرر ـ مخطوطة مصورة في دار الكتب (٩) أجزاء رقم (٢٥٧٨) تاريخ .

٢ ـ ابن شداد : عز الدين ابو عبدالله محمد بن علي (ت٦٨٤هـ) .
الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ـ قسم الجزيرة ـ مخطوطة اكسفورد تحت رقم ؟

٣ ـ ابن العديم : كمال الدين ابي القاسم عمر بن احمد هبة الله (ت ٦٦٠هـ)
بغية الطلب في تاريخ حلب مصورة من مكتبة احمد الثالث في معهد المخطوطات بالجامعة العربية رقم (٢٩٢٥).

٤ ـ الازدى(ابن الظافر): جمال الدين ابو الحسن علي بن كمال الدين(ت٦٢٣هـ)
الدول المنقطعة (أخبار الزمان في تاريخ بني العباس) :
دار الكتب المصرية رقم (٨٩٠)

٥ ـ الذهبي : شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد (ت٧٤٨) .
تاريخ الاسلام مخطوطة في معهد احياء المخطوطات — بالجامعة العربية القاهرة ج٩ رقم (٩٨) .

٦ ـ سبط ابن الجوزي: شمس الدين ابو المظفر يوسف بن قيزاوغلي (ت٦٥٤هـ) .
مرآة الزمان في تاريخ الاعيان مخطوطة في دار الكتب المصرية رقم (٥٥١) .

٧ ـ العيني : بدر الدين محمد بن محمود بن احمد (٨٥٥هـ)
عقد الجمان (المعروف بتاريخ العيني) ـ مخطوطة في دار الكتب المصرية رقم (١٥٨٤) .

٨ ـ الفارقي : احمد بن يوسف علي بن الفارقي (ت٥٧٨هـ) تقريباً تاريخ آمدوميافارقين ـ مخطوطة مصورة ـ اكسفورد (6/310) محفوظة لدى الدكتور صالح حمد العلي

ب. المصادر العربية القديمة (المطبوعات)

١ ـ ابن الاثير : ابو الحسن بن ابي الكرم عبد الكريم الجزري (ت ـ ٦٣٠هـ)
الكامل في التاريخ ـ دار صادر للطباعة والنشر ـ بيروت ١٩٦٦م. اللباب في تهذيب الانساب ـ ٣أقسام ـ دار صادر ـ بيروت اعادت طبعه بالاوفسيت مكتبة المثنى ، بغداد

٢ ـ ابن تغري بردي : جمال الدين ابي المحاسن الاتابكي (٨٧٢ هـ)
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة طبعة المؤسسة المصرية القاهرة (١٤) جزءاً ١٩٦٣

٣ ـ ابن الجوزي جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ)
المنتظم في تاريخ الملوك والامم .
المجلد الثامن ، الطبعة الاولى ـ مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد / الدكن سنة ١٣٥٩هـ .

٤ ـ ابن حزم ابو محمد علي بن احمد بن سعيد الاندلسي (ت٤٥٦هـ)
جمهرة انساب العرب تحقيق عبد السلام هارون ـ دار المعارف ـ مصر ١٣٨٢هـ ١٩٦٢م .

٥ ـ ابن حوقل ابو القاسم محمد بن علي النصيبي (ت٣٦٧هـ) .
صورة الارض ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت (قسمان في مجلد واحد) .

٦ ـ ابن خلدون عبد الرحمن بن خلدون المغربي (ت٨٠٨هـ)
التاريخ المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ٧ أجزاء منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ـ بيروت ـ ١٣٩١هـ/١٩٧١م. (الجزء الرابع) .

٧. ابن دريد : ابو بكر محمد بن الحسن بن دريد الازدي (ت٣٢١هـ) . الاشتقاق
(تحقيق عبد السلام محمد هارون) .
مطبعة السنةالمحمدية ـ القاهرة ـ ١٣٧٨هـ ١٩٥٨م.

٨. ابن ظافر : جمال الدين علي بن ظافر (ت
اخبار الدول المنقطعة ـ دراسة وتحليل القسم الخاص بالفاطميين
تقديم وتعقيب ـ اندريه مزيه ـ مطبوعات المعهد الفرنسي -
القاهرة ـ ١٩٧٢م .

٩. ابن عبد البر : ابو عمر يوسف النمر القرطبي (٤٦٣هـ (.
الانباه على قبائل الرواة مطبوع مع كتاب القصد والامم ـ
المطبعة الحيدرية ـ النجف ، ١٩٦٦ .

١٠. ابن العبري : ابو الفرج غريغوريوس هارون المالطي (ت٦٨٥) .
تاريخ مختصر الدول ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ، ١٨٩٠م

١١. ابن العديم : كمال الدين ابي القاسم عمرو بن احمد (ت٦٦٠هـ) .
زبدة الحلب من تاريخ حلب (جزءان) .
تحقيق سامي الدهان دمشق ،١٩٥١ ، ١٩٥٢م

١٢. ابن القلانسي : ابو يعلي حمزة بن أسد القلانسي (ت٥٥٥هـ) .
ذيل تاريخ دمشق باعتناء هـ.ف أمدروز ، مطبعة الآباء اليسوعيين
، بيروت ١٩٠٨ .

١٣. ابن الوردي : أبو عمر زين الدين عمر بن الوردي (٧٤٩هـ) .
التاريخ المعروف بتتمة المختصر في أخبار البشر٦.
منشورات الطبعة الحيدرية ـ النجف ط٢،١٩٩ م .
عماد الدين اسماعيل صاحب حماة (ت٧٣٢) .
١٤. ابو الفداء : المختصر في اخبار البشر جزءان في مجلد واحد ، الطبعة الاولى ،
ـ المطبعة الحسينية المصرية ـ القاهرة ، بدون سنة طبع .

١٥. ابن الاصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد القرشي (ت٣٥٦هـ) .
الاغاني ١٦ جزءاً ، حققته لجنة مطبعة (دار الكتب المصرية) ، ١٩٢٧ ـ
١٩٦١ م .

١٦. الانطاكي : يحيى بن سعيد الانطاكي (ت٦٧٥هـ) .
تاريخ يحيى بن سعيد ، مطبوع مع كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق لسعيد بن بطريق باعتناء شيخو/ مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت . ١٩٥٤ م .

١٧. البلاذري : أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ) .
فتوح البلدان ثلاثة أقسام – تحقيق صلاح الدين المنجد، مطبعة لجنة البيان العربي – القاهرة – ١٩٥٦ / ١٩٥٧ .
أنساب الأشراف – الجزء الخامس الطبعة الاولى – بيت المقدس ١٩٣٦ – بتحقيق جويفن .

١٨. البنداري : الفتح بن علي بن محمد الاصفهاني (ت٦٤٣ هـ)
تاريخ آل سلجوق وهو في الأصل من انشاء عمادالدين محمد الاصفهاني نصرة الفترة وعصرة الفطرة واختصره أبوعلي البنداري– مطبعة الموسوعات– القاهرة ، ١٩٠٠ م .

١٩. الازدي : أبو زكريا يزيد بن محمد بن اياس (ت ٣٣٤ هـ)
تاريخ الموصل . الجزء الثاني بتحقيق الدكتور علي حبيبه ، القاهرة – ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧

٢٠. الحسيني أبوالحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي (ت ٦٢٢ هـ).
أخبار الدولة السلجوقية (المسمى زبدة التواريخ في أخبار الامراء والملوك السلجوقية) اعتنى بتصحيحه محمد اقبال نشريات كلية فنجاب – لاهور ١٩٣٣ م .

٢١. الراوندي : راحة الصدور وآية السرور. نقله إلى العربية ابراهيم أمين الشواربي وجماعته – دار القلم .القاهرة ١٣٧٩ هـ ١٩٦٠ م .

٢٢. الروذ راوري : أبو شجاع أحمد بن الحسين الملقب ظهيرالدين (ت٤٨٧ هـ).
ذيل تجارب الامم باعتناء هـ.ف– آمدروز ، شركة التمدن الصناعية بمصر ١٣٣٤ / ١٩١٦ م .

٢٣. سبط بن الجوزي : شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قيزاوغلي
مرآة الزمان في تاريخ الاعيان– الحوادث الخاصة بتاريخ السلاجقة بين السنوات ١٠٥٦ / ١٠٨٦ م . عني بنشره – علي سويم – مطبعة الجمعية التاريخية ، أنقرة ١٩٦٨ م .

٢٤. السمعاني : أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي(ت٥٦٢هـ)
الانساب – اعتنى بنشره د.س. مرجليوث–اعادت طبعه بالاوفسيت
مكتبة المثنى ، بغداد ١٩٧٠ م .

٢٥. السيوطي : جلال‌الدين عبدالرحمن بن أبي بكر (ت – ٩١١هـ)
لب الالباب في تحرير الانساب – أعادت طبعه بالاوفسيت –
مكتبة المثنى – بغداد .

٢٦. الشيرازي : (المؤيد في الدين) هبةالله بن موسى بن داود (ت٤٧٠ هـ) سيرة
المؤيد في الدين داعي الدعاة . ترجمة حياته بقلمه ، تحقيق محمد كامل
حسين – دار الكاتب المصري – القاهرة ،١٩٤٩ .

٢٧. الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠ هـ)
تاريخ الامم والملوك (تاريخ الطبري) (١٠) أجزاء .
تحقيق : محمد أبو الفضل ابراهيم –دار المعارف بمصر – للقاهرة،
١٩٦٠ – ١٩٦٩ .

٢٨. القلقشندي : أبو العباس أحمد بن عبدالله (ت ٨٢١ هـ) :
صبح الاعشى في صناعة الانشا (١٤) جزءاً ج١ ، ٢ في دار الكتب
المصرية القاهرة ١٩٢٢ بقية الاجزاء المطبعة الاميرية
مآثر الانافة في معالم الخلافة ج١ : تحقيق عبدالستار أحمد فراج –
الكويت ، ١٩٦٤ م .
قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق: ابراهيم
الابياري ط١ / مطبعة السعادة القاهرة ١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م

٢٩. المبرد : أبو العباس محمد بن يزيد (ت٢٨٥ هـ)
نسب عدنان وقحطان – نسخ وتصحيح– عبدالعزيز الميمني .
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – الهند – ١٩٣٦ م .

٣٠. مسكويه : أبو علي أحمد بن محمد (ت٤٢١هـ) .
تجارب الأمم – الجزء الثاني – باعتناء هـ .ف . امدروز .
شركة التمدن الصناعية المحمية – ١٣٣٣ / ١٩١٥ م .

٣١. المقدسي : محمد بن أحمد بن أبي بكر بن البناء المعروف بالبشاري(ت٣٧٥هـ)
أحسن التقاسيم إلى معرفة الأقاليم نشر غويه – بريل –ليدن، ١٩٠٦م

٣. ناصري خسرو : أبو معين الدين القياداني المـروزي (ت ٤٨١ هـ) .
سفر نامة — ترجمة الدكتور يحيي الخشاب .
الطبعة الثانية — دار الكتاب الجديد — بيروت ١٩٧٠ م .

٣٣. الهمـــداني : محمد بن عبدالملك بن ابراهيم بن أحمد (ت ٥٢١ هـ) تكملة تاريخ الطبري — تحقيق البرت يوسف كنعان ،
المطبعة الكاثوليكية — بيروت ، ١٩٦١ م .

٣٤. الهمـــداني : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤ هـ) .
صفة جزيرة العرب راجع (طبعة ليدن ١٨٨٤) م ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٣ م .

٣٥. ياقــوت : شهاب‌الدين أبو عبيدالله ياقـوت الحمـوي (ت٦٢٦ هـ) .
معجم البلدان (٥)أجزاء . دار صادر — بيروت — ١٩٥٧م.

٣٦. اليعقـــوبي : أحمد بن يعقوب بن واضح الكاتب (ت٢٨٤ هـ) .
البلدان — طبع مع كتاب الاعلاق النفيسة . لابن رسته ليدن — بريل ١٨٩١م .

ج. المراجع الحديثة :

١. الباشا حسن : الألقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والآثار .مطبعة لجنة البيان العربي ، القاهرة ، ١٩٥٧ م .

٢. بــــــول : استانلي لين .
طبقات سلاطين الاسلام .
ترجمه للفارسية عباس اقبال .
ترجمه عن الفارسية مكي طاهر الكعبي ، حققه وقابله : علي البصري .
دار منشورات البصري ، ١٣٨٨ هـ — ١٩٦٨ م .

٣. حمـــدي : حافظ أحمد
الشرق الاسلامي قبل الغزو المغولي — مطبعة الاعتماد ، مصر ١٩٥٠ م .

٤ . الدوري : عبدالعزيز .
دراسات في العصور العباسية المتأخرة – مطبعة السريان ، بغداد١٩٤٥م
تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري – مطبعة المعارف بغداد ، ١٩٤٨ م .

٥ . زامباور : ادورد فــون .
معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، جزءان ترجمة زكي محمد حسن ورفاقه . مطبعة جامعة فؤاد الاول – القاهرة – ١٩٥١ م .

٦ . السامر : فيصـــل
الدولة الحمدانية في الموصل وحلب .
جزءان ، جا ، ط١ مطبعة الايمان ، بغداد ١٩٧٠ م .
الجزء الثاني – مطبعة الجامعة – بغداد ، ١٩٧٣ م .

٧ . السـويدي : أبو الفوز محمد أمين البغدادي .
سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب . بغداد ، ١٢٨٠ هـ .

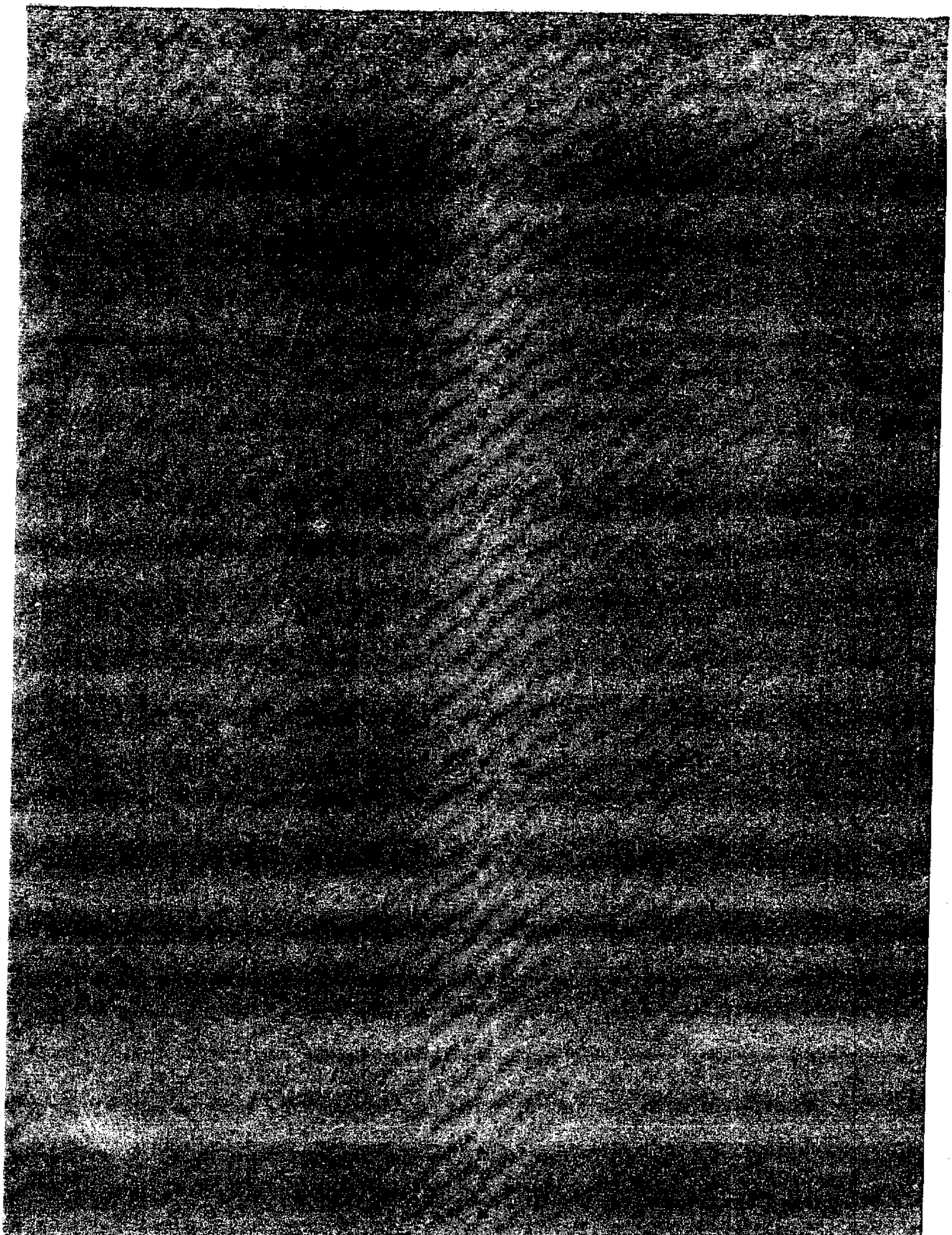
٨. القـلامـي : عبدالمنعم
الانساب والاسر .
جا ، ط١ – مطبعة شفيق العاني ، بغداد ، ١٩٦٥ م .

٩ . فـــوزي : فاروق عمر .
الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية .
الطبعة الاولى – مطبعة دار السلام – بغداد ، ١٩٧٣ م .

١٠. كحالة : عمر رضا
معجم قبائل العرب القديمة والحديثة – ٣أجزاء .
دار العلم للملايين ، بيروت ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

١١ . كلود : كاهن .
تاريخ العرب والشعوب الاسلامية .
المجلد الاول – ترجمة الدكتور بدرالدين القاسم .
الطبعة الاولى/ دار الحقيقة للطباعة والنشر – بيروت – ١٩٧٢م.

١٢. ماريوس : كنارد .
نخب تاريخية وأدبية لاخبار الدولة الحمدانية
طبع ليتيبو ليطووجول كربوينل – الجزائر – ١٩٣٤ م .
١٣. المعاضيدي : خاشع .
دول بني عقيل في الموصل .
مطبعة شفيق العاني – بغداد – ١٩٦٨ م .



نسب النميريين

(بالرها وحران وسروج والرقة)

المظفر
سنة ٣٨٠

|

وثاب
(توفي سنة ٤١٠)

|

شبيب
(٤١٠ – ٤٣١)

|

منيع
(٤٥٢)

|

بنو وثاب
(بحران سنة ٤٧٤)

|

محمد بن الشاطر
(سلم حران للمكشاو سنة ٤٧٩)

عطير
(٤١٠ – ٤١٨، قتل سنة ٤١٨)

|

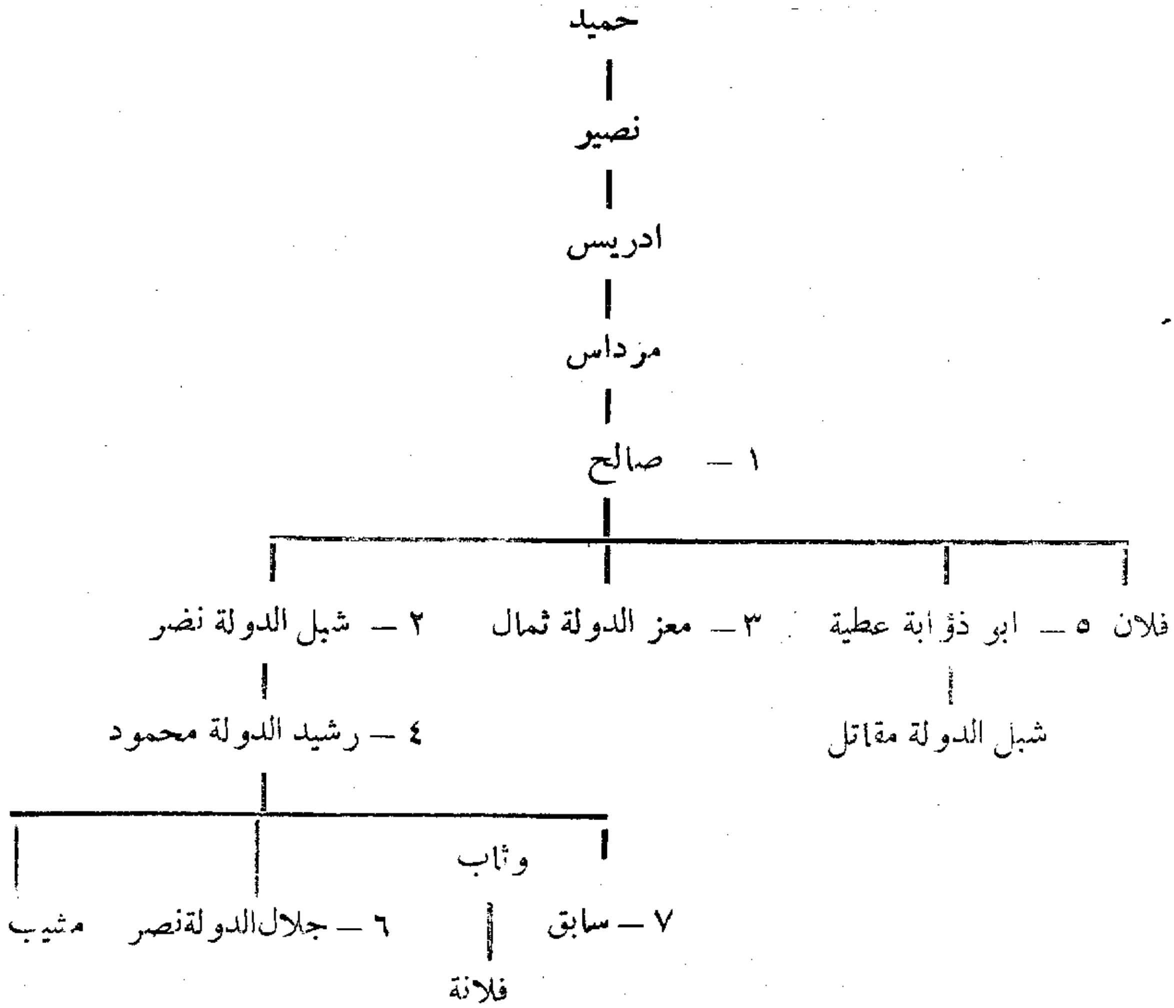
سلمان وابن شبل النميري
(٤١٨ – ٤٢٧)

|

عطير النميري
(سنة ٤٧٦)

انظرهم في: –
زامباور: الاسر الحاكمة صفحة ١٢٦

نسب بني مرداس



رامباور: الاسرات الحاكمة
ص ٢٠٥

صلاح عبد الهادي الحيدري *

يعقوب بن الليث الصفار
٢٥٤هـ - ٢٦٥هـ
مؤسس الدولة الصفارية (١)

(١) سميت بالدولة الصفارية نسبة الى الصفار وهو لقب يعقوب مؤسس الدولة .

ينفرد صاحب كتاب سيستان بذكر نسب يعقوب فيقول هو«يعقوب بن الليث بن معدل بن حاتم بن ماهان بن كيخسرو بن أردشير بن قباد بن خسرو أبرويرويز بن هرمز بن خسروان بن أنوشروان بن قباد بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور ...»(٢).

وعلى هذا الاساس فاذا أخذنا بهذه الرواية فان يعقوب ينحدر من أصل ايراني رفيع يتصل بملوك آل ساسان ، ويبدو أن يعقوب وغيره من حكام بلاد فارس كانوا يختلقون الأنساب التي تتصل بالملوك الساسانيين لتبرير وجودهم وحكمهم آنذاك. أضف إلى ذلك أن صاحب كتاب سيستان يرفع من منزلة يعقوب في هذه الفترة أيضاً .

إلا أننا نفهم من كتب التراجم والمصادر التاريخية الأخرى أن يعقوب كان ينتمي إلى أسرة فقيرة من عامة الناس تزاول بعض الأعمال البسيطة ، فقد ذكر بأن يعقوب كان يشتغل في حداثته بعمل الصفر (النحاس) وبأجر قدره (١٥) خمسة عشر درهماً في الشهر. أما أخوه عمرو بن الليث فكان يشتغل نجاراً ثم مكاراً (٣). ثم انخرطا في سلك المتطوعة (٤) .

وإذا أخذنا بهذه الرواية الثانية فان يعقوب وأخاه عمراً كانا مجهولي النسب ، ومن عائلة فارسية فقيرة .

وعلى كل حال فان يعقوب كان فارسي الأصل (٥) ، له المام قليل باللغة العربية (٦).

(٢) مجهول المؤلف – تاريخ سيستان – ص ٢٠٠ – ص ٢٠١ بأعتناء شادران محمد تقي بهار – ١٣١٤ هـ – طهران .

(٣) المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين – مروج الذهب ومعادن الجوهر – ج ٤ ص ١١٢ بيروت ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦ ، ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد – وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان – ج ٦ ص ٤٠٢ ، طبعة صادر – بيروت ، الزركلي خير الدين – الاعلام ج ٩ ص ٢٦٥ ط ٢ ، الدوري ، عبد العزيز – دراسات في العصور المتأخرة – ص ١١٣ بغداد – ١٩٤٥ م .

(٤) المتطوعة : جاء في هامش مقالة بعنوان جيش الصفاريين – للاستاذ سي . اي . بوزورث (بان المتطوعة هم اولئك الذين ينجزون عملا فائضا عن المطلوب وبصورة اختيارية دون مقابل ، وهم اولئك الذين يتخطون ماهو ملزم لهم .
في القتال ... والمطوعي (نسبة إلى المطوعة)... الا أن المطوعة وحركتها في سجستان وخراسان تشكلت نتيجة لتمرد الخوارج وثوراتهم الكثيرة التي ازعجت ولاة خراسان واربكتهم ادارياً وسياسياً (مجلة كلية الآداب – جامعة البصرة – العدد (٧) – ص ١٨٩ لسنة ١٩٧٢ م .

(٥) حمدي ، حافظ احمد – الشرق الاسلامي قبيل الغزو المغولي – ص ٢٦ القاهرة ١٩٥٠ م .

(٦) يشير الدكتور رضا زادة شفق – في كتابة الادب الفارسي – ص ٢٤ (إلى أن يعقوب بن الليث لم يفهم ماكان يمدح به باللغة العربية على منابر المساجد ايام الجمعة ، وقد كان يترجمها له بالفارسية شعرا كاتبه محمد بن وصيف) القاهرة ١٩٤٧ – ترجمة محمد هنداوي .

كانت تميزه علامة منكرة على قصبة أنفه ووجنته (٧) .وكان متزوجاً من امرأة عربية من أهالي سجستان إلا أنها لم تخلف له طفلاً (٨) .

ولد في قرية (قرنين) على بعد فرسخ من (زرنج) عاصمة سجستان (٩) ، ثم انتقل من قريته الصغيرة تلك قاصداً المدينة ليمارس بعض الأعمال التي أشرنا اليها . وكان آخر عمل يتوم به بعد مزاولته صناعة الصفر ، تجنده (١٠) في خدمة جماعة ظهرت في تلك الجهات تطلق على نفسها اسم (المتطوعة) ، كانت برئاسة صالح بن النضر الكناني

---

(٧) سأل يعقوب يوما عن ذلك فرد قائلا انه اصابه ذلك في احدى وقائع الشراة وانه طعن رجلا منهم ، فرجع اليه فضربه هذه الضربة فسقط نصف وجهه حتى رد وخيط ، فمكث عشرين يوما وفي فمه انبوب قصب يصب منه الغذاء اليه . (انظر — ابن خلكان ، ابا العباس شمس الدين أحمد — وفيات الاعيان وأنباء ابناء الزمان — ج ٦ — ص ٤٠٥ طبعة دار صادر بيروت).

(٨) ابن خلكان — وفيات الاعيان —ج ٦ — ص ٤٢٩ .

(٩) سجستان — وهي احدى الاقاليم الفارسية . وتعرف ايضا باسم سيستان — ويقول لسترنج — في كتابه بلدان الخلافة الشرقية — ص ٣٧٢ بأنه اسم معرب عن اسمها الفارسي سكستان وسيستان يقال لها بالفارسية ينمروز ايضا ومعناه نصف يوم أو الأرض الجنوبية .... ويقال انها سميت بذلك لوقوعها في جنوبي خراسان . أما حدود سيستان فيحدها شرقا بحر السند وشمالا اقليم خراسان ، وجنوبا اقليم مكران . وقد ذكر اليعقوبي في كتابه البلدان — ص ٤٧ أنه اقليم يتكون من ست مناطق رئيسة هي : منطقة خواش — ومنطقة زمين داور — ومنطقة رخج — ومنطقة زابل — ومنطقة كابل — ومنطقة زرنج — وهي عاصمة سجستان كلها وبها دار الامارة ، وكانت ايام الملوك الساسانيين مدينة عظيمة (انظر — لسترنج — بلدان الخلافة — ص ٣٧٣) ولقد اتفق كل من الاصطخري في المسالك — ص ١٣٩ وابن حوقل — في المسالك — ص ٢٩٧ على ان زرنج هي عاصمة اقليم سجستان ، اما اليعقوبي في البلدان — ص ٤٧ فقد ذكر ان العاصمة هي بست وهو رأي لا نأخذ به لمخالفته اجماع المؤرخين والجغرافيين .

(١٠) وربما يكون يعقوب مدفوعاً منذ تلك الفترة إلى التطلع إلى السلطة واحياء روح النزعة « القومية» باعتباره فارسي الأصل وهذا ماسوف نلاحظه من سير أعماله وحياته من خلال هذا البحث.

وعملها في الظاهر محاربة الخوارج (١١) الشراة (١٢)، الذين عاثوا في بلاد خراسان وسجستان فساداً، فأصبحوا مصدراً للفوضى والأضطراب هناك (١٣). وحتى اضطر والي سجستان الطاهري ابراهيم بن الحسين إلى تركها والتخلي عنها. فاستولى عند ئذ صالح بن النضر عليها وأعلن نفسه حاكماً سنة ٢٣٨هـ وكان يعقوب أحد أعوانه المخلصين وبقي كذلك حتى سنة ٢٤٤ هـ. وهنا تشير المصادر إلى أن طاهر بن عبدالله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان إذ ذاك استطاع أن يستردها من هؤلاء المطوعة (١٤). وهنا تنقطع المصادر التاريخية عن ذكر أخبار صالح بن النضر وربما يكون قد توفي أو قتل خلال هذه الفترة، ولكنها ترجع وتشير إلى أن هناك شخصاً آخر قد خلف صالحاً في رئاسة المطوعة وهو درهم بن الحسين الذي استطاع التغلب على ولاية سجستان فعين يعقوب حاكماً على مدينة بست.

ولكن سرعان ماظهر عجزه فولى جنده قائده يعقوب بن الليث أمورهم ودانوا له بالطاعة وذلك سنة ٢٤٧ هـ، وقد أشار أبن خلكان إلى ذلك بقوله «ولما رأى أصحاب درهم ضعفه وعجزه اجتمعوا على يعقوب بن الليث، وملكوه أمرهم. لما رأوا من تدبيره وحسن سياسته وقيامه بأمرهم» (١٥). وقيل أن درهماً لما رأى ذلك لم ينازعه في الأمر بل

(١١) الخوارج – «وهم كل فرقة أظهرت رأياً ودعت اليه وقاتلت عليه وصار لهم شوكة منيعة وبقعه معينة وشهرت السلاح على الجماعة» انظر – السمناني، ابا القاسم علي – روضة القضاة وطريق النجاة – ج ٣ – ص ١٢١٥ بغداد ١٣٩٣ هـ ١٩٧٣ م «وقد تعددت فرق الخوارج في الأسلام حتى اصبح لكل منهم رئيس، وهم يسيرون وفق مذهب معين». انظر البغدادي، عبد القاهر – الفرق بين الفرق – ص ١٧، ص ٧٠ ص ٧٢، ص ٢٦٤ بيروت ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م. الا أنه يبدو أن خوارج سجستان وخراسان الذين ظهروا في أواخر عهد الدولة الظاهرية لم يكونوا المقصودين بقول السمناني وانما هم أناس خرجوا على القانون والنظام وعاثوا في البلاد فساداً.

(١٢) الشراة: وهو الاسم الذي اطلقه غلاة الخوارج على انفسهم وهذا الاسم ذو الدلالة الدينية مأخوذ من القرآن من قوله تعالى «ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله»..

(١٣) الطبري – تاريخ الرسل والملوك – ج ٩ – ص ٥٠٧. كما يذكر فريزر أن هذه المنطقة لم تكن تقيم في ذلك الوقت وزناً كبيراً للادارة العباسية.

(١٤) ابن الاثير الكامل في التاريخ – ج ٧ – ص ١٨٤ – ص ١٨٥. ابن خلكان – وفيات – ج ٦ – ص ٤٠٣، حسن ابراهيم – تاريخ الاسلام السياسي – ج ٣ – ص ٨٦ القاهرة – ١٩٤٩ م.

(١٥) وفيات الأعيان – ج ٦ – ص ٤٠٣

سلم أموره اليه نهائياً عن أمر المطوعة .وهكذا أستبد يعقوب بالأمر وقويت شوكتــه حتى « قصدته العساكر من كل ناحية » (١٦) .

تولى يعقوب أمر المطوعة . وكان أول عمل يقوم به هو محاربته الخوارج الشراة بالرغم مما وصف به من أنه كان خارجياً (١٧). فقد ذكر أنه « رزق الظفر بهم حتى أفناهم وأخرب ضياعهم ...» (١٨) .ولقد أخذت شخصية يعقوب تزدادقوةحتى أطاعه أصحابه طاعةلم يطيعوها أحداً كان قبله ،وهكذا أشتدت شوكته وصولته إلى أن دانت له ولاية سجستان كلها وهراة وبوشنج وماوالاها (١٩) ثم امتد نفوذه إلى وادي كابل والسند ومكران وكرمان (٢٠) .

أما عن حياته الخاصة فأن معظم المصادر التاريخية تتفق على أن يعقوب عاش عيشة خشنة ، إذ كان يلبس الملابس القطنية ويجلس على الأرض وينام ورأسه على درعه (٢١) وقيل أنه لما أسر أحد خصومه العسكريين وهو طوق بن المغلس دعا بعض من معه فأمر بمد خفه من رجله فلما نزعه تناثر خبز يابس فقال : ياطوق هذا خفي لم أنزعه من رجلي منذ

---

(١٦) نفس المصدر — ج ٦ — ص ٤٠٣

(١٧) نفس المصدر السابق — ج ٦ — ص ٤٠٢ ، كذلك انظر — بوزورث — جيش الصفاريين — مجلة كلية الاداب — البصرة — ص ٢٠٢ ، ص ٢٠٦ .
(يشير الأستاذ بوزورث ان سبب ذلك يعود إلى استخدامه أعداداً كبيرة من الخوارج في صفوف جيشه بناء على المراسلات التي دارت بينه وبين زعمائهم حيث ذكر انه نتيجة لهذه المراسلات فقد انضم « ١٠٠٠ » خارجي إلى جانبه ، وقد خلع يعقوب على زعمائهم خلعاً ووعدهم بأنه سوف يزيد من مراتبهم .. كما وعد كل جندي منهم يلاحظ فيه كفاءة خاصة او شجاعة بالترقية والجميل . كما يضيف الاستاذ بوزورث بأن يعقوب كان في احد مراسلاته التي يخاطب فيها احد زعماء الخوارج الذين انضموا اليه قائلا له : كن جلداً أنت واشياعك فان القسم الأعظم من جيشي وقوادي هم في الأصل من الخوارج ، ولهذا فانك سوف لا تشعر بالغربة بينهم . وعلى هذا الأساس فقد اتهم يعقوب بأنه كان خارجياً) انظر بوزورث — جيش الصفاريين — ص ٢٠٣ — ص ٢٠٦ .

(١٨) ابن خلكان — ج ٦ — ص ٤٠٣ ، الزركلي — الاعلام — ج ٩ — ص ٢٦٥

(١٩) ابن خلكان — ج ٦ — ص ٤٠٣ .

(٢٠) المسعودي — مروج — ج ٤ — ص ١١٢ ، الدوري — دراسات — ص ١١٣

(٢١) الدوري — دراسات — ص ١١٦ .

شهرين ، وخبزي في خفي منه آكل لا أطأ فراشاً وأنت جالس في الشرب والملاهي بهذا التدبير أردت حربي وقتالي (٢٢) . ورغم أن هذه الرواية لاتخلو من المبالغة إلا أنها تؤكد البساطة التي كان يحياها يعقوب خلال حياته . وهذا ما أكده هو نفسه قائلاً «ان رئيس القوم يأتم به أصحابه في مايظهر من أفعاله » (٢٣). وقد جاء على لسان خصومه مايؤكد هذه الصفة فيه ، فقد ذكر أن محمد بن اوتامش التركي قائد الجيش العباسي الذي خرج لقتال يعقوب حينما طعن أثناء القتال كان يتوهم أنه خادم ، حيث قال لاصحابه : مارأيت في عسكرهم مثل هذا الخادم (٢٤).

أما طعامه فكان يتكون في الغالب من المحاصيل التي تنتج في سجستان مثل الخبز والرز والشعير والسمك وبناء على ماأورده المسعودي(٢٥)فان عشرين شاة كانت تذبح كل يوم في معسكره وتطبخ في خمس قدور كبيرة من الصفر ،ويشترك يعقوب مع جنده في اكل هذا اللحم مع خبيصة (وهي عبارة عن مرق يصنع من عنب وتمر ويخلط مع نشاء) او فالوذج (وهي حلوى من نشاء وعسل) ويقسم الباقي بين خاصة غلمانه وحاشيته .وبالرغم مما استخدمه من قوة وقسوة في ضرب خصومه ومنافسيه السياسيين فانه كان حليماً متواضعاً في كثير من الاحيان فقد اشار الطبري(٢٦) في سياق حديثه عن حرب يعقوب مع علي بن الحسين ان اصحاب علي كانوا يشتمونه ويقولون له : لنردك إلى شعب المراجل والقماقم ياصفار وهو ساكت لايرد عليهم شيئاً .

وعلى الاغلب ان هذه السياسة الحكيمة التي اتبعها يعقوب في معاملة خصومه وشعبه وجيشه جعلته يكسب حب الجميع حتى تفانى انصاره في خدمته والقتال معه . وعلى هذا الاساس فقد وصفه الزركلي (٢٧)بأنه «احد الامراء الدهاة الكبار»ووصفه ابو الفداء(٢٨) بانه كان حازماً عاقلا .وكان الحسن بن زيد العلوي يسميه « السندان » (٢٩) لثباته

---

(٢٢) الطبري، ابو جعفر محمد – تاريخ الرسل والملوك –ج ٩ – ص ٣٨٤ القاهرة –١٩٦٨م

(٢٣) المسعودي – مروج – ج ٤ – ص ١١٧

(٢٤) نفس المصدر – ج ٤ – ص ١١٣

(٢٥) المسعودي – مروج – ج ٤ – ص ١١٧، بوزورث – جيش الصفارين – ص ١٩٣ .

(٢٦) الطبري – تاريخ ج٩ – ص ٣٨٥ .

(٢٧) الزركلي – الاعلام – ج ٩ – ص ٢٦٥ .

(٢٨) أبو الفداء ، عماد الدين اسماعيل – المختصر في اخبار البشر – ج ٢ – ص ٥٢

(٢٩) أي سندان الحداد .

وقلما يرى مبتسماً .... وكان يقول : كل من عاشرته اربعين يوماً ولا تعرف اخلاقه لاتعرفها في اربعين سنة (٣٠).

الا انه من جانب آخر كانت حياته لاتخلو من بعض مظاهر الابهة ،ومضاهاة الأمراء والملوك الساسانيين اذا صح التعبير ، فقد ذكر بانه كان قد اتخذ لنفسه عريشاً من خشب يشبه السرير حيثما توجه من مسيره فيكثر الجلوس عليه ، ويشرف منه على اهل عسكره (٣١) كما كان يظهر الأبهة في بعض المراسيم والاحتفالات ، فاذا سار كان يصطف على الجانبين الف رجل نصفهم يحمل اعمدة الذهب والنصف الآخر يحمل الاعمدة الفضية (٣٢) كذلك اتخذ له غلماناً من خواصه ، فاذا احتاج إلى امر صاح بهم ، فخرجوا اليه ...وقد بلغ عددهم حوالي خمسمائة غلام (٣٣) .

ويذكر المسعودي (٣٤) ان للقواد والرؤساء والعظماء عنده مراتب في الدخول بباب مضربه بحيث تقع عينه عليهم ويرى مداخلهم ، فيمرون مع أطناب (٣٥) الشقاف إلى خيمة مضروبة بحيث لايرى هو موضعها لكنه يرى مداخلهم اليها ومخرجهم منها . فمن احتاج اليه منهم واحتاج إلى كلامه او امره او نهيه دعاه فامره . وكان دخولهم بحيث يقع نظره عليهم عوضاً من السلام عليه (٣٦) وكان على مايبدو يشرف على تنظيم ذلك شخص واحد كان يلقب « بالعزيز » (٣٧) .

---

(٣٠) ابن خلكان – وفيات – ج ٦ – ص ٤٢١ .

(٣١) المسعودي – مروج – ج ٤ – ص ١١٥ .

(٣٢) نفس المصدر – ج ٤ – ص ١١٥ – ص ١١٦ ويذكر الاستاذ بوزورث بان عددهم كان حوالي ٢٠٠٠ جندي منتخبين من قبل يعقوب وكانوا يستعرضون في الأحتفالات كالأعياد أو حينما يرغب مباهاة الاعداء) . انظر ج . صفاريين – ص ٢٠٩ ، كذلك انظر — Barthold . p. 220

(٣٣) المسعودي – مروج – ج ٤ – ص ١١٧

(٣٤) نفس المصدر – ج ٤ – ص ١١٧

(٣٥) جمع طنب وهو الحبل الذي تشد به الخيمة .

(٣٦) المسعودي – مروج – ج ٤ – ص ١١٧

(٣٧) نفس المصدر – ج ٤ – ص ١١٧ (وقد سماه ابن خلكان في وفياته – ج ٦ – ص ٤٠٤ « الحاجب » وعلى هذا الاساس فان لقب العزيز يبدو هو نفسه الحاجب وهي وظيفة من الوظائف العليا في الدولة الاسلامية . يقول ابن خلدون في مقدمته ص ٢٤٠ القاهرة – ١٣٧٩ هـ = ١٩٦٠ م – بأن هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الأموية والعباسية بمن يحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواقيته)

ويبدو ان يعقوب بن الليث كان اول من دخل اسمه في الخطبة مع اسم الخليفة (٣٨) مخالفاً بذلك التقليد الذي كان سائداً في عهد الدولة الطاهرية .

وعلى كل حال فان يعقوب كان يجمع بين البساطة وبين مضاهاة العظماء وهذه سياسة قلما نجدها في شخص مثله . هذه السياسة التي لم يسمع بمثلها من اسلاف الملوك في الامم الغابرة من الفرس وغيرهم من سلف وخلف على حد تعبير المسعودي(٣٩) ولعل اصله المتواضع جعله يسلك سلوك البسطاء ، في بداية امره فاستطاع ان يرسم مثالا لبقية جنده وربما دفعته الظروف — بعد ترسيخ قواعد دولته —ان يستجيب لمظاهر الأبهة ، ولمضاهاة من حوله من ملوك وامراء ، اى ان الواقع فرض عليه ذلك خاصة اذا ماعرفنا ان اعداءه كانوا يتوهمون انه خادم او انهم كانوا يحقرونه بشعب المراجل والقماقم كما ذكرنا من قبل .

الا ان المآخذ التي كانت تؤخذ عليه على ما يبدو أنه كان مستبداً برأيه لايحبذ ان يشاركه احد فيه فقد ذكر « انه كان لايطلع احد على سره ، ولا يعرف احد بتدبيره وعزمه واكثر نهاره خالياً بنفسه يفكر فيما يريده ،ويظهر غير ما يضمره ولا يشرك احد فيما يدبره برأي ولا غيره » (٤٠) .

لقد استطاع يعقوب ان يقيم دولته المسماة بالدولة الصفارية ، وعد المؤسس لها نتيجة لظروف ساعدته إلى قوة الشخصية التي كان يتمتع بها

والدولة الطاهرية التي اتخذت من خراسان مركزاً لها. كانت في عهد طاهر بن عبدالله بن طاهر (٢٣٠هـ — ٢٤٨هـ) (٤١) تنعم بالاستقرار والهدوء لقوة شخصيته ومقدرته الادارية (٤٢) وبعد وفاته ولى الخليفة المستعين ابنه محمداً خلفاً له (٢٤٨هـ —٢٥٩هـ) بيد ان محمداً هذا كان يوم ولي امارة خراسان حدث السن (٤٣) فاهمل امور ولايته

---

(٣٨) الدوري — دراسات — ص ١١٩ .

(٣٩) المسعودي — مروج — ج ٤ — ص ١١٤ .

(٤٠) نفس المصدر — ج ٤ — ص ١١٦ .

(٤١) البلاذري ، أبو العباس احمد بن محمد — فتوح البلدان — ص ٣٣٩ القاهرة ١٩٥٩ اليعقوبي — تاريخ اليعقوبي — ج ٣ — ص ١٩٠ ، ص ٢٢٧ النجف ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ ، البلدان — ص ٣٠٧ ليدن ١٨٩٢ م .

(٤٢) اليعقوبي — تاريخ — ج ٣ — ص ٢١٤ ، البلدان — ص ٣٠٧ ،

(٤٣) نفس المصدر — ج ٣ — ص ٢٢٧

وانشغل بشرب الخمور والطرب والمسرات وبذلك اضطربت الامارة في عهده (٤٤) فقام الخوارج الشراة وغيرهم بثورات واضطرابات عدة في نواحي خراسان وخاصة في الاطراف البعيدة عنها ، وكذلك في ولاية سجستان التي كانت تابعة آنذاك لحكم الطاهريين إلى درجة انهم ازعجوا واليها الطاهري الذي اضطر إلى التخلي عنها على اثر ذلك كما ذكرنا من قبل ، مما ادى إلى افساح المجال امام المطوعة لحماية السكان وتنظيم الامور فيها ، وعلى هذا الاساس يمكن القول ان من بين صفوف المطوعة هذه ظهرت الدولة الصفارية .

وذكر ان يعقوب عندما احتل نيسابور عاصمة خراسان كتب اهلها اليه انه قد ظهر هنا من الخارجة اى الخوارج والشراة ما قد ضعف محمد بن طاهر عنهم وغلبوا عليه ، وقد غلب هو عن ضبط خراسان ، وان اهل خراسان سألوا يعقوب بن الليث ان يسير اليهم لينقذهم(٤٥) ومن العوامل الأخرى التي مكنت من قيام الدولة الصفارية ثورة الزنج(٤٦) سنة ٢٥٥هـ التي ادت إلى اضطراب شؤون الخلافة . فعند اندلاع ثورتهم بدأوا بشن غاراتهم المتتالية على القرى المجاورة وعلى مدينة البصرة حتى قيل انهم لما دخلوا البصرة

---

(٤٤) الطبري — تاريخ — ج ٩ — ص ٣٨٢ ، ص ٣٨٣ ، اليعقوبي — تاريخ — ج ٣ — ص ٢٢٧ ، ص ٢٣٠ ، البلدان — ص ٣٠٧ — ص ٣٠٨

(٤٥) الطبري — تاريخ — ج ٩ — ص ٥٠٧ ، مجهول المؤلف — العيون والحدائق في اخبار الحقائق — ج ٤ — ق ١ — ص ٧١ — ص ٧٢ النجف — ١٣٩٢ =١٩٧٢ .

(٤٦) الزنج : الزنج هم العبيد الأفريقيون الذين جلبوا من أفريقية الشرقية خاصةمن أجزائها الساحلية نتيجة لتجارة الرقيق .انظر —فيصل السامر— ثورة الزنج —ص ٢١ —ص٢٢ ويرى الدوري —(أن هؤلاء العبيد ثاروا في وجوه أسيادهم سنة ٢٥٥ هـ مستهدفين من وراء ذلك رفع منزلتهم وتحسين وضعهم —) دراسات — ص٧٥ ويبدو أن هؤلاء كانوا قد ثاروا قبل هذا التأريخ — انظر— ابن الأثير — الكامل في التأريخ —ج ٤ —ص ٣٨٨ إلا أن ثورتهم بلغت عنفها في هذا العام المذكور أي في خلافة المهتدي —وكان يتزعمها شخص يدعي أنه من آل علي ابن أبي طالب وان اسمه علي بن محمد ، وكان من قرية من اعمال الري يقال لها ورزنين — انظر — الطبري — تأريخ —ج ٤ —ص ٤١٠ ، المسعودي مروج —ج ٤ — ص ١٠٨ ويبدو انه اختار هذا النسب لكسب الأنصار والمؤيدين له ، هذا إذا ما علمنا أن أن الناس في ذلك الوقت تتمثل فيهم روح البساطة . وبقيت ثورتهم قائمة حتى خلافة المعتمد الذي سير لهم أخاه الموفق سنة ٢٦٧ هـ الذي سار على رأس جيش كبير لمقاتلتهم ، وقد حصلت بينه وبينهم معارك دامية إلى أن استطاع القضاء عليهم سنة ٢٧٠هـ ، فكانت أيامه أربع عشرة سنة واربعة أشهر .

فتلوا اعداداً كثيرة من الناس في وقعة واحدة (٤٧) وقد راع هذا الحادث صاحب كتاب العيون حتى قال « انه كان امراً عظيماً فظيعاً هائلا » (٤٨) .

وبعد نشوء الدولة الصفارية كانت حركة الزنج قد اخذت في التوسع والانتشار حتى شملت مناطق واسعة من جنوب العراق ، وقد اقترح صاحب الزنج التحالف مع يعقوب بن الليث الا ان الاخير رفض هذا الاقتراح لانه اعتبرهم مارقين ، ولكن الضرورة العسكرية جعلت الطرفين يقنعان بالهدنه على حد تعبير الدوري (٤٩) .

وعلى هذا الاساس يمكن القول بان يعقوب كان سياسياً قديراً لانه رأى من السياسة ان لايظهر نفسه امام الخلافة بانه ضدها — ولكنه في نفس الوقت كان يستغل تلك الظروف لخدمة اغراضه التوسعية .

ومن العوامل المهمة التي ساهمت في قيام دولة الصفاريين — على ما يبدو — ضعف الخلافة العباسية ، خاصة عندما اخذ الاتراك يتدخلون في شؤون الدولة منذ خلافة المتوكل سنة ٢٣٢ هـ ، وبتدخلهم هذا صارت الخلافة العوبة بأيديهم يسيرونها كيفما شاءوا ورغبوا (٥٠) وان « الخليفة كان بيدهم كالأسير ان شاءوا أبقوه وان شاءوا خلعوه وان شاءوا قتلوه »(٥١)

ويرى ابن الطقطقي (٥٢) ان انحطاط الخلافة يرجع إلى انعزال الخلفاء عن رعيتهم وعدم الالتفات عليهم والشفقة عليهم مما ادى إلى حدوث رد فعل سيء لدى الرعية ، فتغيرت نياتهم وفسدت بواطنهم . قال « وما اكثر مارأينا الرعية او الجند قد وثبوا على ملوكهم فسلبوهم رداء المملكة بل رداء الحياة .. فانظر منذ عهد المتوكل إلى عهد المقتفي

---

(٤٧) المسعودي — مروج — ج ٤ — ص ١١٩ « وقد ذكر المسعودي بأن عدد القتلى بلغ حوالي ثلثمائة الف نسمة » .

(٤٨) العيون والحدائق — ج ٤ — ق ١ — ص ٦٤ .

(٤٩) الدوري — دراسات — ص ٩٢ .

(٥٠) اليعقوبي — تأريخ اليعقوبي — ج٣ — ص٢١٧ . ص٢٢٥ النجف ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤م ، المسعودي — مروج — ج٣ — ص ٤٧٧ ، مسكويه ، أبو علي أحمد — تجارب الامم — ج٦ — ص٥٥٨ ص٥٥٩ ، ص ٥٦٢ ، ص ٥٦٥ .
ايدن ١٨٦٩م ، الخطيب البغدادي — تأريخ بغداد — ج ٧ — ١٦٥ بيروت — دار الكتاب العربي.

(٥١) ابن الطقطقي — الفخري في الآداب السلطانية — ص ٢٤٣ بيروت . ١٣٨٠ هـ = ١٩٦٠م.

(٥٢) المصدر السابق — ص ٢٢١ — ٢٢٢.

ما جرى على واحد من الخلفاء من القتل والخلع والنهب ، بسبب تغير نيات جنده ورغبته فهذا اسمل وذاك قتل والآخر عزل » .

وهناك اسباب اخرى لتدهور الخلافة منها سياسة تولية العهد لاكثر من واحد (٥٣) فقد فسح هذا المجال لتدخل الاتراك في الامر وتنصيب الضعيف منهم ليتمكنوا من تسخيره لخدمة مصالحهم المادية (٥٤) وقد حاول بعض الخلفاء امثال المتوكل والمهتدي الحد من نفوذ الاتراك الا انهم وقعوا ضحية تلك المحاولة (٥٥) وهكذا ساد الارتجال وتحكمت الفوضى في شؤون الدولة . وبلغت الفوضى ذورتها في عهد المستعين (٢٤٨هـ - ٢٥٢هـ) الذي لم يكن مؤهلا للخلافة الا ان الاتراك بايعوه جريا على خطتهم في استبعاد الاقوياء وتنصيب الضعفاء ، فكان الغالب على امره في بداية حكمه - اوتامش التركي وشجاع بن القاسم كاتب او تامش واحمدبن الخصيب ، ثم وقع تحت سيطرة وصيف وبغا التركيين فسلباه جميع سلطاته السياسية والادارية (٥٦) . حتى قال فيه أحد الشعراء (٥٧) :

خليفـــة فـــي قفصـــ بـين وصيـــف وبغـــا
يقـــول مـــا قـــالا لـــه كمـــا تقـــول الببغـــا

وقد سببت تلك الاوضاع السيئة اضطراب الجهاز الاداري وحدوث أزمة مالية شديدة نتيجة التبذير الذي سار عليه الخليفة والحرم ومن التف حولهم من الحاشية (٥٨) ، وأخذت

---

(٥٣) بايع المتوكل على ولايته العهد من بعده لابنه المنتصر ثم لابنيه المعتز ولابراهيم ولما شعر المنتصر بنية والده استبعاده عن الخلافة تآمر مع الأتراك على قتله وتولي الخلافه وخلع أخويه بناء على ضغط الأتراك الذين خافوا من عواقب فعلتهم مع المتوكل ، واجمع رأيهم على أن لا يولوا أحداً من ولد المتوكل لئلا يغتالهم بدم أبيه - انظر - اليعقوبي - تأريخ - ج٣ - ٢٢٠ ، ص ٢٢٦ ، المسعودي - مروج - ج٤ - ص٥.

(٥٤) الدوري - دراسات - ص ١٥ ، ص ٦٦.

(٥٥) اليعقوبي - تأريخ - ج٣ - ص ٢١٨ ، ص ٢٢٥ ، ص ٢٣٧ ، المسعودي - ج٤ - ص ١٠٠ ، مسكويه - تجارب - ج٦ - ٥٤٣ - ٥٤٢ ، الدوري - دراسات - ص١٤ ص ٤٥ - ص ٤٨.

(٥٦) اليعقوبي - تأريخ - ج٣ - ص ٢٢٦ ، المسعودي - مروج ج٤ - ص٦٠ ، مسكويه ج ٦ - ص ٥٦٢ ، ابن الطقطقي - الفخري - ص ٢٤٠ - ص ٢٤٢ .

(٥٧) المسعودي - مروج - ج٤ - ص ٦١ ، السيوطي - تأريخ الخلفاء - ص ٣٥٨ القاهرة ١٣٧١هـ = ١٩٥٢ م .

(٥٨) اليعقوبي - تأريخ - ج٣ - ص ٢٣٣ ، مسكويه - ج٦ - ص ٥٦٦

الواردات بالتناقص لقلة الأموال التي ترد من الولايات وتأخيرها (٥٩) ، وتدهور نظام الري وتعسف الجباة والملاكون (٦٠) ، يضاف إلى ذلك استئثار الأتراك بأموال الجباية (٦١)، وقد ترتبت على اضطراب الادارة وافلاس الخزينة انعدام الاستقرار ، فحدثت سلسلة من الاضطرابات والثورات في أنحاء متفرقة من الدولة العباسية (٦٢) ، ثم سرت إلى المراكز فثارت العامة في بغداد وسامراء وشغب الجند بسبب تعطل أرزاقهم(٦٢) ، وارتفعت أسعار المواد المعاشية (٦٤) ، وهكذا بلغت الدولة العباسية في عهد المستعين درجة شديدة من الضعف والانحلال حتى ان الحكومة المركزية أصبحت عاجزة عن تمويل الجيوش لصد هجمات الروم الذين أغاروا على المسلمين ، وبلغ من عجز الحكومة انها استعانت بالأغنياء من أهل بغداد وسامراء فكانوا يتبرعون بالاموال لتسويق المتطوعين إلى ساحات الجهاد في الجبهة الرومية (٦٥) . كل هذا وذاك أدى إلى شلل الحكومة المركزية وتقوية الميول الانفصالية عند الامراء وإلى قيام الثورات في جهات متعددة.

وهكذا تظافرت تلك الظروف والعوامل لتمهد الطريق أمام نشوء الدولة الصفارية تحت زعامة يعقوب بن الليث الصفار الذي استطاع بسياسته الحكيمة التي اتبعها ونوز [illegible] أن يوطد دعائم دولته الفتية .

لقد بسط يعقوب نفوذه على بلاد سجستان كما تقدم، ولم يكن في أول أمره يريد أن يستقل عن الخلافة ، وانما كان يرغب في أن يكون أميراً من قبل الخليفة العباسي ، بدليل أنه كان يرسل الهدايا السنية إلى الخليفة في بغداد ، فقد ذكر أن من جملة ما أرسله يعقوب للخليفة

---

(٥٩) اليعقوبي – تأريخ – ج٣ – ص ٢٣٣ ، المقريزي ، تقي الدين أحمد – شذور العقود في ذكر النقود – ص ٢١ النجف – ١٣٨٧ هـ .

(٦٠) الدوري – دراسات – ص ١٧.

(٦١) نفس المصدر – ص ١٥ – ص ١٦.

(٦٢) اليعقوبي – تأريخ – ج٣ – ص ٢٢٧ – ص ٢٣١ ، ابن الطقطقي – الفخري – ص ٢٤٠ ص ٢٤٢ .

(٦٢) اليعقوبي – تأريخ – ج٣ – ص ٢٢٨ ، ص ٢٣١ مسكويه – ج٦ – ص ٥٦٤

(٦٤) نفس المصدر – ج ٣ – ص ٢٣١ .

(٦٥) نفس المصدر السابق ج٣ – ص ٢٢٨ ، مسكويه – ج٦ – ص ٥٦٤ ص٥٦٥.

المعتز « دواب وبزاة ومسك » (٦٦) ، « ومسجد فضة محلع... » (٦٧) ، « وأظهر التمسك بطاعة الخليفة ، وكاتبه ، وصدر عن أمره ، وأظهر أنه هو أمره بقتال الشراة... »(٦٨).

ولكن يعقوب سرعان ما ظهرت نواياه التوسعية فهاجم أملاك الطاهريين (٦٩)، فغزا بوشنج وهراة سنة ٢٥٣ هـ(٧٠). وأستولى على كرمان سنة ٢٥٥ هـ بعد أن كان الخليفة المعتز قد أعطاها له ولوالي فارس الطاهري علي بن الحسين في نفس الوقت ليوقع الخصومة بينهما فقد ذكر الطبري (٧١) أنه « أي — المعتز — كان يلتمس في ذلك اغراء كل واحد منهما بصاحبه ليسقط مؤنة الهالك منهما عنه ويتفرد بمؤنة الآخر ، اذ كان كل واحد منهما عنده حرباً له وفي غير طاعته » ... فدحر يعقوب خصمه وأستطاع من دخول كرمان .

وفي نفس هذا العام توجه يعقوب إلى ولاية فارس بعد أن لجأ اليها علي بن الحسين وأستطاع أحتلالها ودخول عاصمتها شيراز ، والقاء القبض على علي بن الحسين ومن أسر معه ثم جبى خراج فارس ثم شخص منها متوجها إلى سجستان (٧٢) .

وفي نفس الوقت تقرب إلى الخلافة بأرسال الهدايا إلى بغداد وأستطاع بفضل هذه السياسة المرنة ان يستولي على مناطق واسعة من الاراضي الفارسية اذ مالبثت نيسابور قاعدة الدولة الطاهرية ان سقطت في يده سنة ٢٥٩ هـ والقى القبض على محمد بن عبدالله بن طاهر

---

(٦٦) الطبري — تأريخ — ج٩ ص ٣٨٦ ، ابن الأثير — الكامل — ج٧ — ص ١٩٤.
(٦٧) ابن خلكان — وفيات — ج ٦ — ص ٤٠٥ .
(٦٨) ابن الأثير — الكامل — ج ٧ — ص ١٨٥ .
(٦٩) Lone - Pole - Mohammedan Dynasties. p. 117 Paris. 1925
(ويذكر لين بول أن سياسة يعقوب بدأت في هذا التحول سنة ٢٥٥هـ ولكن ابن الأثير يذكرها في الكامل — ج٧ — ص ١٨٥ في حوادث سنة ٢٥٣ هـ.
(٧٠) ابن الأثير — الكامل — ج٧ — ص ١٨٥ .
(٧١) الطبري — تأريخ — ج٩ — ص ٣٨٢ — ص ٣٨٣
(٧٢) لقد أورد الطبري في تأريخه — ج٩ — ص ٣٨٤ — ص ٣٨٦ تفاصيل احتلال يعقوب لولاية فارس والمعارك التي دارت بينه وبين علي بن الحسين . ثم يضيف أيضاً أن يعقوب زحف مرة أخرى سنة ٢٦١ هـ على فارس وكانت تابعة لابن واصل الخازن (وهو أحد ولاة العباسيين) فالتقى به فهزمه وحاصر قلعته المسماة قلعة ابن واصل وأخذها . وأخذ مافيها من الأموال التي بلغت أربعين الف الف درهم . واخذ خال ابن واصل المسمى « مرداس» واوقع بالأكراد الذين مالوا لأبن واصل . انظر الطبري — ج٩ — ص ٥١٤ . مؤلف مجهول العيون والحدائق — ج٤ — ق١ — ص ٧٥

مدعياً أن أهل خراسان قد بعثوا اليه (٧٣). الاأنه على مايبدو كان قد فتحها عنوة وقهراً (٧٤). لأ ن محمد بن طاهر كان يؤوي أعداءه — أي أعداء يعقوب — (٧٥) . وقيل عندما تساءل أشراف خراسان وعلماؤها عن شرعية عمله هذا أرسل يعقوب دعوة لهم للاجتماع به ، ثم أمر حاجبه أن يخرج الوثيقة التي تؤهله حكم خراسان ، فأخرج الحاجب سيفاً يمانياً أفزع الحاضرين ، ولكن يعقوب طمأنهم قائلا ، لقد تساءلتم عن الوثيقة التي تبرر لي حكم خراسان وهذه هي . ألم يجعل السيف أمير المؤمنين يجلس على كرسي الخلافة في بغداد ؟ أن هذا السيف هو الذي أعطاني ولاية خراسان وبذلك فأنا والخليفة سيان في الحجة (٧٦) .

وفي العام التالي أي في سنة ٢٦٠ هـ زحف يعقوب بقواته نحو طبرستان وطرد منها الحسن

---

(٧٣) ويرجح نولدكة Lone—Pole, Mohammedan-P.129.
Noldeke, Sketches from Eastern history P. 118. Beirut. 1963.
السبب في انتصارات يعقوب الصفار المتتالية الى النظام الذي اتبعه مع قواته فكان الجندي الذي يلحق بخدمته يسلم اليه كل متاعه ولا يحمل الا سلاحه الذي يقاتل به ولا يفكر الا في القتال واطاعة أوامر يعقوب حتى لايطرد من الخدمة . وكان يعقوب مقابل ذلك يمنح جنوده مرتبات مجزية للغاية تدفعهم الى الحرص على طاعته . هذا في الوقت الذي كان فيه يعقوب يعيش بينهم كواحد منهم في تقشف شديد.

(٧٤) النرشخي ، . أبو بكر محمد — تاريخ بخارى — ص ١٠٨ دار المعارف —مصر . الزركلي — الاعلام — ج٩ — ص ٢٦٦ .

(٧٥) انظر — Barthold- Turkestan P.217.
(وقد اشار بارتولد نقلا عن كارديزي — الى المحادثات التي جرت بين سفراء محمد بن طاهر من جهة ويعقوب بن الليث من جهة أخرى فقد ذكر ان محمداً أمر وفداً ان ينقلوا الى يعقوب « لو أنت قدمت بأمر أمير المؤمنين اذا بين لنا اثباتك حتى اقدر ان اسلم لك الاقليم . واذا أنت تعجز عن ذلك ... فارجع » وردا على ذلك « فقد اخرج يعقوب سيفه تحت سجادة الصلاة وقال : هو اثباتي ودليلي .... » .
وذكر ابن خلكان — وفيات — ج٦ — ص ٤٠٦ بأن يعقوب أرسل كتاباً الى طوق بن المغلس قائد علي بن الحسين يعلمه انه أخطأ اذ دخل عملا ليس اليه . فرد عليه طوق : أنت بعمل الصفر أعلم منك بعمل الحروب ، فعظم ذلك على يعقوب .

(٧٦) الدكتور عمر ، فاروق — الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية — ص ١٨١ بغداد ١٩٧٤ م .
Barthold -P. 215-222

ابن زيد العلوي واستولى على مدينة سارية وآمل وجبى منها خراج سنة كاملة واموالا عظيمة(٧٧).

وفي سنة ٢٦١ هـ بدأت أطماع يعقوب بن الليث تظهر ظهوراً بيناً ، وادرك الخليفة العباسي المعتمد مدى الخطر الذي تستهدف له دولته من جراء ازدياد نفوذه ، فأضمر له العداء ، وجمع ببغداد حاج خراسان والري وطبرستان وجرجان في شهر صفر وقرىء عليهم كتاب الخليفة بلعن يعقوب وأرسلت عشرات النسخ من هذا الكتاب إلى الامصار لتذاع بين الناس (٧٨) . وقد أثارت هذه التصرفات يعقوب ، فأعد عدته لغزو العراق . وفعلا سار بقواته نحو الاهواز ، وهنا يبدو أن الموفق (٧٩) القائم بأعمال أخيه المعتمد على الله قد راعه ذلك فتراجع عن قراره السابق فأصدر بناء على طلب يعقوب بياناً أقره فيه على ولاية خراسان وبلاد فارس وما كان مضموماً إلى آل طاهر بن الحسين من الكور وشرطتي بغداد وسامراء ، كما عقد له فيه على طبرستان وجرجان والري واذربيجان وقزوين وكرمان وسجستان والسند . وأحضر من قرئت عليهم الكتب السابقة ، وقرأ عليهم خلاف ماقرأ من قبل ليبطل ذلك الكتاب بهذا الكتاب (٨٠) .

الا أن أطماع يعقوب على مايبدو لم تقف عند حد ، فلم يقنع بتوليه الخليفة العباسي له على هذه البلاد بل عمل على قصد بغداد نفسها وحمل الخليفة على الاذعان لمطالبه ، وقد عبر هو نفسه عن ذلك بقوله « لا يرضيني ما كتب ألي دون أن أصير إلى باب المعتمد » (٨١) .

يتضح من هذا أن هناك أزمة ثقة ، كانت قائمة بين الجانبين ، اذ لم يعد يثق الواحد بالآخر فقد أورد الاستاذ بوزورث (٨٢) نقلا عن تاريخ سيستان بأن « يعقوب كان معتادا في الغالب

(٧٧) العيون والحدائق – ج٤ – ق١ – ص ٧٢ ، ابن خلكان – ج٦ – ص ٤١١ .

(٧٨) ابن خلكان – ج٦ – ص ٤١٢ – ص ٤١٣ .

(٧٩) هو الموفق بالله ابو احمد طلحة بن المتوكل على الله أخو الخليفة المعتمد على الله . وكان هو المستولي على الامور وليس للمعتمد معه سوى اسم الخلافة لاغير .

(٨٠) العيون والحدائق – ج٤ – ق١ – ص ٧٧ . ابن خلكان – ج٦ – ص ٤١٣ .
Barthold – P.218.

(٨١) الطبري – تاريخ – ج٩ – ص٥١٦ . العيون والحدائق – ج٤ – ق١ – ص٧٧ ويذكر نولدكه في كتابه . Sketches from eastren – P.181.
ان يعقوب لم يلجأ الى غزو العراق الا لأنه لقى تشجيعاً من أحد أمراء البيت العباسي وهو عبدالله بن الواثق الذي دعاه لاسقاط حكم المعتمد لكي يحل محله .

(٨٢) بوزورث – جيش الصفاريين – ص ١٩٢ .

أن يقول بأن العباسيين قد ثبتوا حكمهم على الحيلة والخديعة ، ألم تشاهد ما عملوه مع أبي سلمة ، وأبي مسلم ، وعائلة البرامكة ، والفضل بن سهل على الرغم من كل ما عمله هؤلاء الرجال بالنسبة للدولة العباسية ؟ فلا تدع أحداً يثق بهم أبداً » .

ولما أطلع الخليفة المعتمد على نوايا يعقوب وتحركاته ، سار من وقته من سامراء ثم تحرك نحو سيب بني كوما (٨٣) ، وأقام فيها يجمع عساكره ، وبعد أن اجتمعت جعل عليها أخاه الموفق .

أما يعقوب فقد زحف إلى دير العاقول (٨٤) وهناك التقى الجيشان العباسي والصفاري ودارت بينهما معركة انتهت بهزيمة جيش يعقوب حتى أنه أصيب بثلاثة أسهم في حلقه(٨٥). ويضيف ابن خلكان بقوله » وما أفلت من أصحابه رجل الا بسهم أصابه » (٨٦) ؛

وتذكر المصادر التاريخية أن سبب هزيمة يعقوب في هذه المعركة هو أنه « أظهر كثير من اصحابه كراهة قتال الخليفة » (٨٧) . خاصة وأن خشتج (٨٨) — وهو أحد قواد الخليفة كان ينادي أصحاب يعقوب ويقول لهم : يا أهل خراسان وسجستان ما عرفناكم الا بطاعة السلطان وتلاوة القرآن وحج البيت وطلب الانكار ، وان دينكم لايتم الا باتباع الامام وما نشك أن هذا الملعون قد موه عليكم . وقال لكم : ان السلطان قد كتب اليه بالحضور وهذا السلطان قد خرج لمحاربته ، فمن آثر منكم الحق وتمسك بدينه وشرائع الاسلام فلينفرد عنه اذا كان شاقاً للعصا محارباً للسلطان (٨٩) .

---

(٨٣) سيب بني كوما : يقع بالقرب من دير العاقول — الذي يقع بالقرب من النعمانية . وقد خرب بخراب النهروان — انظر — ياقوت الحموي — معجم البلدان — ج٣ — ص ٢٩٣ بيروت / دار صادر .

(٨٤) دير العاقول : يقع بين المداين والنعمانية ، كان على شاطيء دجلة ثم تحول دجلة فصار بينه وبين دجلة مقدار ميل وكان عنده بلد عامر واسواق ايام كان النهروان عامراً — انظر — ياقوت الحموي — ج٢ — ص ٥٢٠ .

(٨٥) العيون والحدائق — ج ٤ — ق١ — ص٧٧ — ٧٨ .

(٨٦) ابن خلكان — وفيات — ج٦ — ص٤١٥ .

(٨٧) العيون والحدائق — ج٤ — ق١ — ص ٧٨ .

(٨٨) ويسميه الطبري حشنج — انظر الطبري — ج٩ — ص ٤٦٥ .

(٨٩) ابن خلكان — وفيات — ج٦ — ص ٤١٤ .

وقيل أن سبب هزيمة يعقوب وجيشه أيضاً هو أن جماعة من عسكر الخليفة كانت قد بجحت في فتح الماء على طريق الصفار ، فأخذوا عليه الطريق وهو لايدري (٩٠)

والواقع أن الخليفة المعتمد حاول أن يستميل اليه يعقوب ويترضاه ليأمن جانبه فأرسل اليه رسولا ، نوصل الرسول ويعقوب مريض ، نجلس له وجعل عنده سيفاً ورغيفاً من خبز الخشكار ومعه بصل ، واحضر الرسول فأدى الرسالة وقال له : قل للخليفة اني عليل ، فان مت فقد استرحت منك واسترحت مني ، وان عوفيت فليس بيني وبينك الا هذا السيف حتى آخذ بثأري أو تكسرني فأعود إلى هذا الخبز والبصل . وعادالرسول ، فلم يلبث يعقوب أن مات سنة ٢٦٥هـ (٩١) . وهو يومئذ في جنديسابور وقيل ان سبب وفاته هواصابته بمرض القولنج فأشير عليه بالعلاج فامتنع واختار الموت عليه (٩٢) ، وقد دفن يعقوب في مدينة جنديسابور وكان مكتوباً على قبره :

ملكت خراسـان وأكنـاف فارس — وما كنت من ملك العـراق بآيس

سلام عـلى الدنيـا وطيـب نسيمها — اذا لم يكن يعقوب فيها بجالس (٩٣)

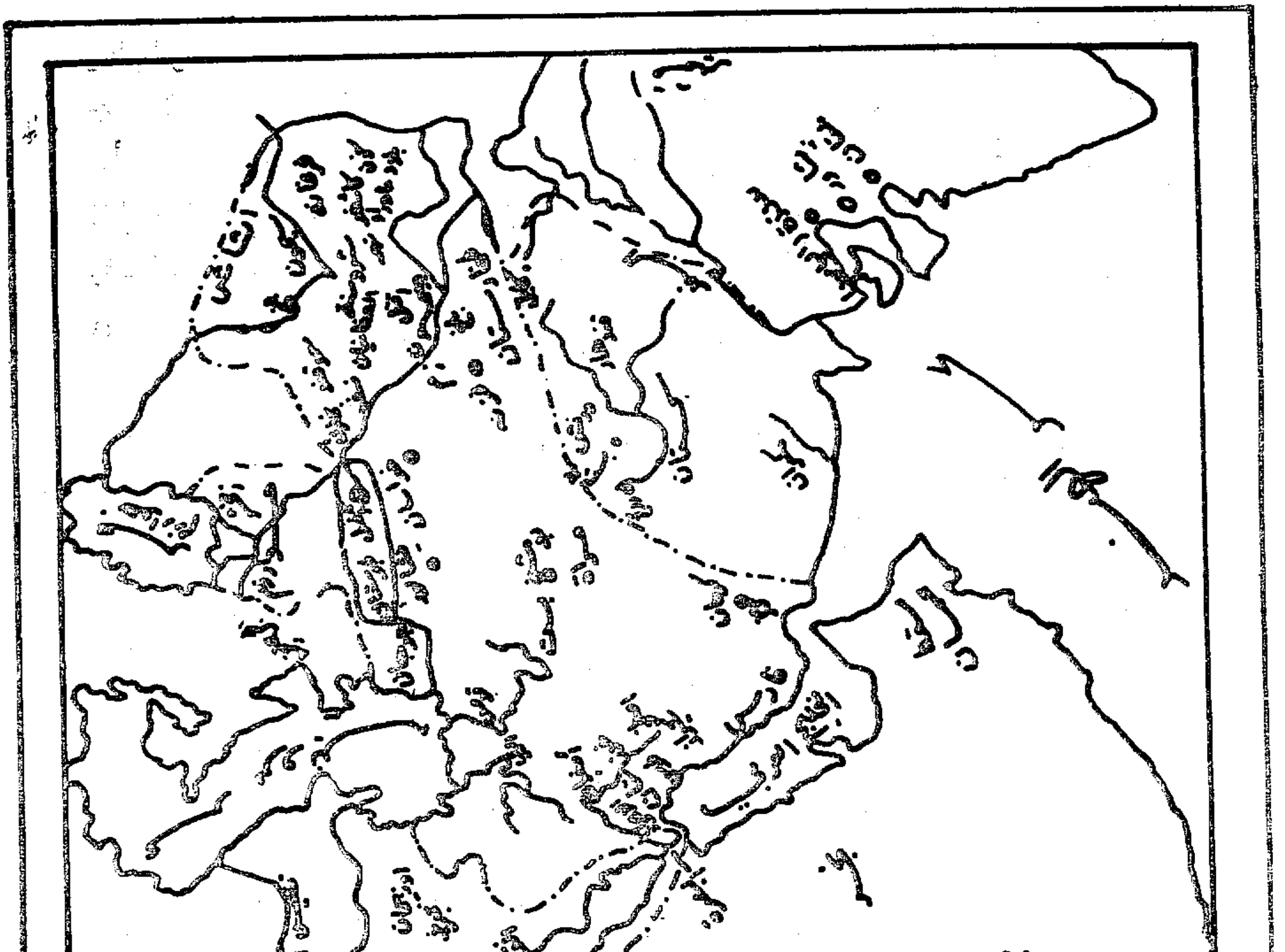
وأخيراً يمكن القول بأن يعقوب امتاز باليقظة وحسن التدبير . فكان يحسن اختيار رجاله و كما كان يحسن تنظيم جيوشه واعدادها بالعدة والسلاح — وهذا مكنه من تحقيق الانتصار تلو الانتصار ، وقد امتلأت خزائنه بالأموال حتى بلغت أربعة آلاف الف دينار وخمسون الف الف درهم (٩٤) .

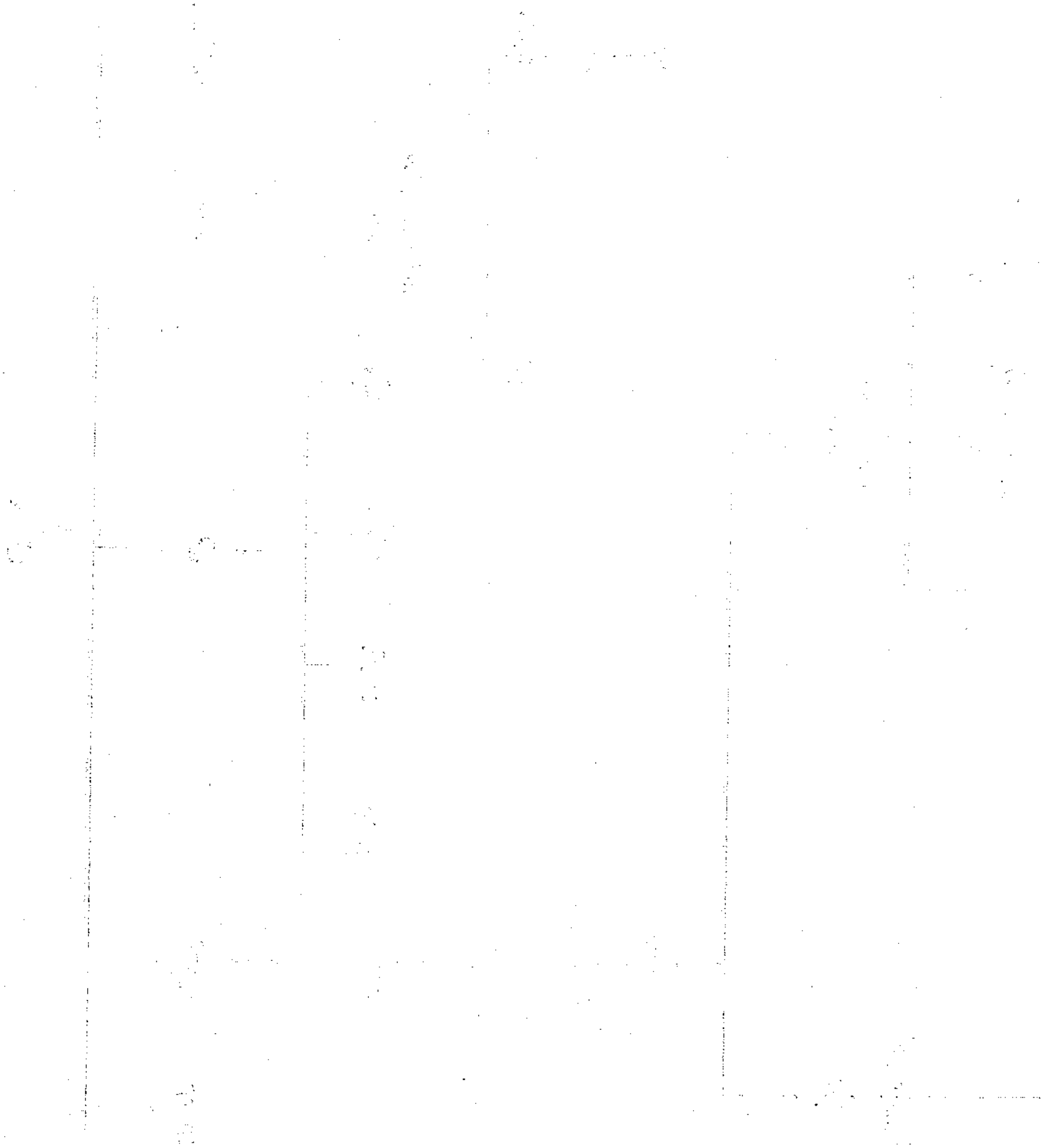
كما استطاع تكوين دولة قوية هابتها الملوك وأذعنت لها الخلافة ، وقد اختلف الكتاب والمؤرخون حول طبيعة حكم يعقوب ودولته فيرى بعضهم (٩٥) انه يمثل عودة الفرس إلى تقلد زمام الامور بينما يرى البعض الآخر (٩٦) ان العوامل « القومية » لم يكن لها أي تأثير على دولته ذلك لان حياته وأغلب ادارته لم تكن مصطبغة بالطابع الفارسي . ولكننا على على أي حال لانستطيع أن نبعد تأثير الميول القومية عنه (٩٧) .

(٩٠) نفس المصدر — ج٦ — ص ٤١١ .
(٩١) نفس المصدر — ص٦ — ص٤٢١ .
(٩٢) نفس المصدر — ج٦ — ص٤٢٠ .
(٩٣) ابن خلكان — وفيات — ج٦ ص٤٢٠
(٩٤) نفس المصدر — ج٦ —ص ٤١٩ .
(٩٥) Prowne, Aliterary history of persia.P. 346 Cambridge–1956–,Barthold – .P. 222
(٩٦) Siddiqi, Caliphate and kings ship–"In Islamic Culture". Vol–10
(٩٧) انظر صفحة P.102

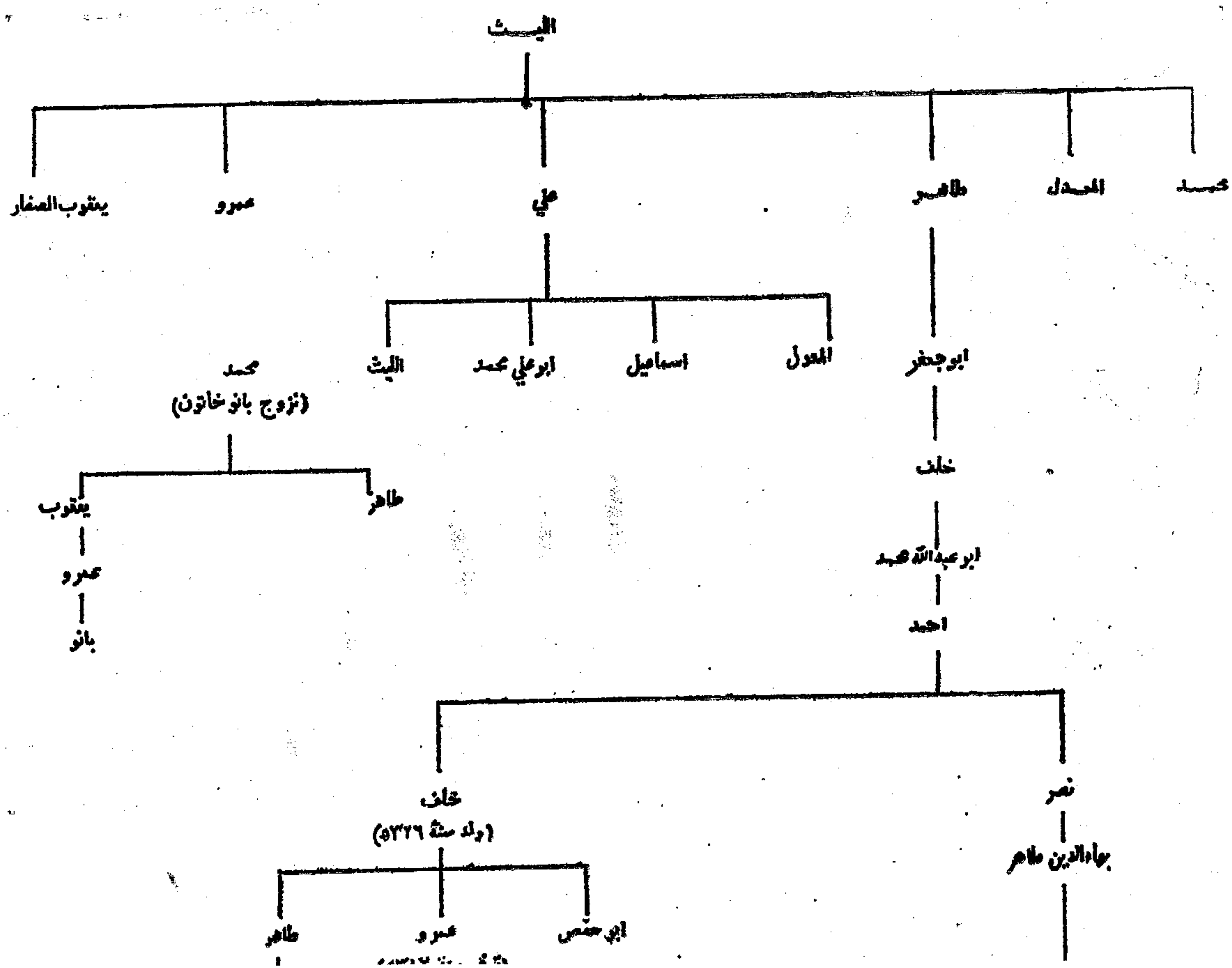
وعلى الرغم من ذلك فان يعقوب ودولته الصفارية التي أسسها وأكمل بناءها اخوه عمرو بن الليث قد أسهمت مساهمة فعالة حسب قدرتها وطاقتها في خدمة واغناء العالم الاسلامي سياسياً وحضارياً (٩٨) . فقد حارب يعقوب ملوك الترك الذين كانوا يدعون باسم رتبيل ، فقتل ملك المولتان وملك الرخج وملك الطبسين ، وملك زابلستان وملك السند ومكران ، واستطاع أن يضمها إلى دائرة الاسلام . كما أن أخاه عمراً قدساهم هو الآخر مساهمة في نشر الاسلام في شرق البلاد الاسلامية .

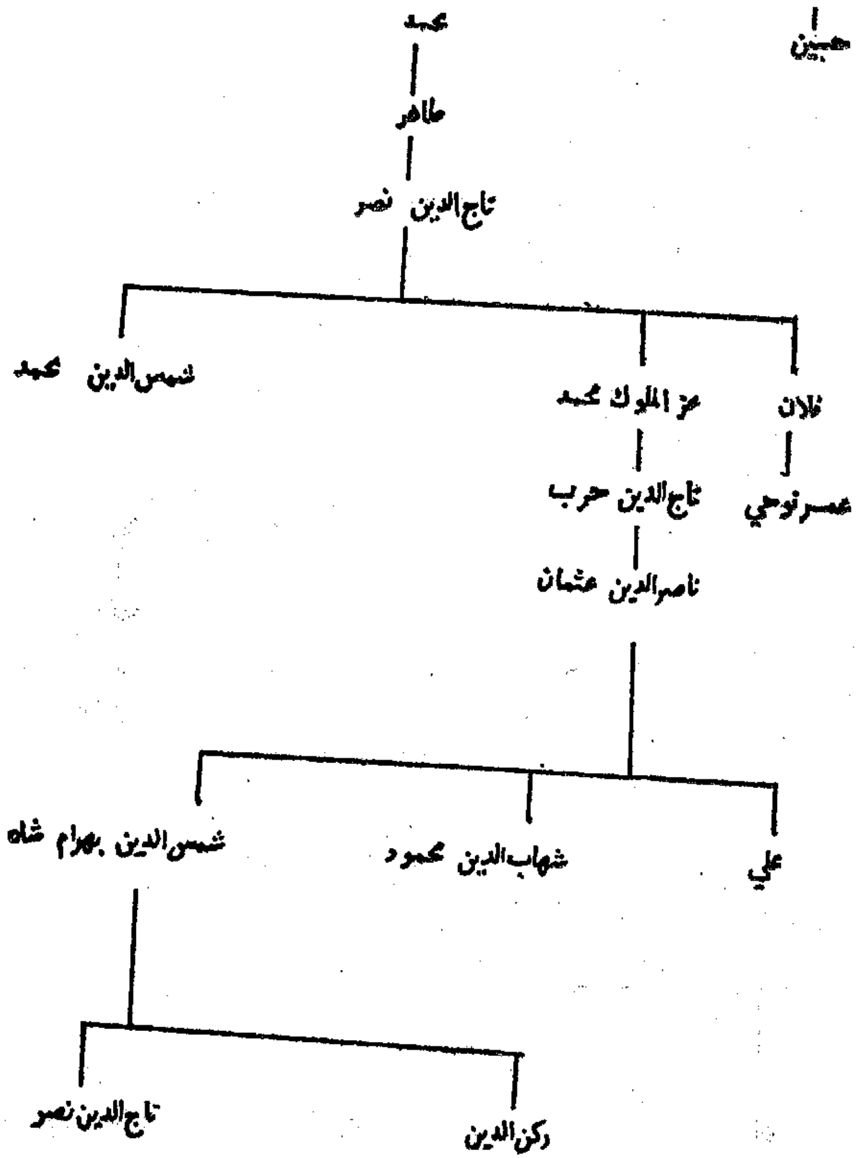
(٩٨) اي في المجالات العلمية والعمرانية والاقتصادية والادارية .

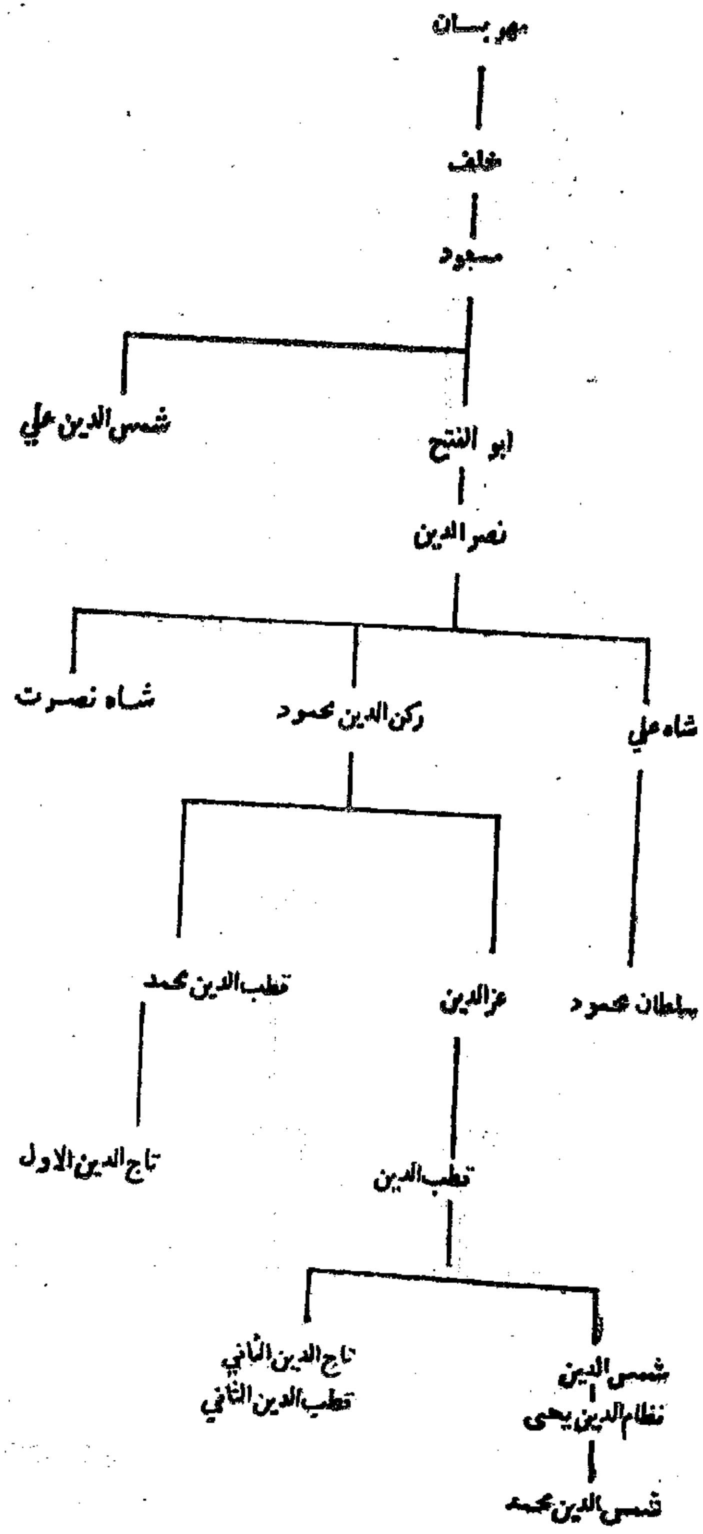




بنو الليث الصفاريون (1)







(١) انظر زامباور – معجم الانساب والاسرات الحاكمة – ص٣٠٤ – ص٣٠٥

ابراهيم خليل

أوضاع ولاية الموصل الاقتصادية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقد الأول من القرن العشرين

دخلت الموصل في حوزة الدولة العثمانية سنة ١٥١٥ م في اعقاب انتصار السلطان سليم الاول (١٥١٢ — ١٥٢٠) في معركة جالديران سنة ١٥١٤م على الشاه اسماعيل الصفوي (١) وفي سنة ١٧٨٩م اصبحت الموصل ولاية قائمة بذاتها تتألف من سنجقي (٢) كركوك والسليمانية إضافة إلى سنجق الموصل نفسه. وقد عاشت الموصل في ظل الحكم العثماني حتى اواسط القرن التاسع عشر في حالة من الفوضى والاضطراب في اوضاعها الاقتصادية والاجتماعية. ولم يجر فيها اى اصلاح ملحوظ. كما فشلت الحكومة العثمانية في توطيد الامن وتوطين العشائر. واقتصرت جهودها على ارسال الحملات التأديبية للعشائر العربية والكردية. فقد ارسلت على سبيل المثال سنة ١٨٣٥ محمد اينجة بيرقدار (٣) إلى الموصل، فقصد تلعفر وسنجار وقتل. الكثير من رؤسائهما. كما حمل على عشيرة شمر الجربا، واسر احد شيوخها واتى به إلى الموصل (٤) وقد تمكن كذلك من تصفية الامارة البهدينانية (٥)، وانهاء حكم ميركور في راوندوز (٦).

الا ان الحكومة العثمانية، اتخذت بعد ذلك، سلسلة من التدابير الاصلاحية، تمثلت

---

(١) شاكر صابر الضابط، موجز تاريخ التركمان في العراق، ج١، (بغداد، ١٩٦٠)، ص ١٥٣ نقلا عن كتاب تاريخ سياسي دولت عثمانية.

(٢) السنجق كلمة تركية معناها: علم أو راية، وهي وحدة ادارية تابعة للولاية التي يحكمها متصرف وهي بمثابتة (اللواء).

(٣) ولد محمد اينجه بيرقدار في قصبة بارطين من أعمال قسطموني. وقد خدم في السلك العسكري في مصر. وكان محمد باشا تركي الأصل. اشتهر في الموصل بتعميره دور الحكومة. كما شيد الثكنة العسكرية والمستشفى واهتم ببناية معمل لصنع المدافع والبارود. ويعتبر محمد اينجه بير قدار أول من عمل على تطبيق التجنيد الاجباري والتدريب الحديث في الموصل تنفيذاً لسياسة السلطان محمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) وكان يشغل منصب متصرف كركوك سنة ١٨٣٣. وفي ١٨٣٥ صدر فرمان سلطاني بتعيينه متصرفاً للواء الموصل. وقد توفي في الموصل سنة ١٨٤٣ ودفن في في جامع نبى الله شيت. أنظر: احمد علي الصوفي، تاريخ المحاكم والنظم الادارية في الموصل (الموصل. ١٩٤٩)، ص ١٤ — ١٧.

(٤) عباس العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، ج٧، (بغداد، ١٨٥٦)، ص ٣٥ — ٣٧.

(٥) وتقع في الشمال الشرقي من الموصل. ويقال: أن مؤسسها يرجع في نسبه الى أحد أبناء المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ببغداد. وقد ازدادت أهمية الامارة البهدينانية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في السياسة العثمانية الى حد انها اعتبرت وحدة سياسية قائمة بذاتها ترتبط مع الاستانة. للتفاصيل انظر: عماد عبد السلام رؤوف. الموصل في العهد العثماني، (النجف، ١٩٧٥)، ص ١٦٠ — ١٦٢.

(٦) وميركور هذا هو حاكم الامارة السورانية التي اتخذت من حرير مركزاً لها وتوسعت بعد ذلك على حساب الامارات المجاورة وبخاصة الامارة البابانية. وقد بدأ حكمه في راوندوز (المقر الجديد للامارة) في سنة ١٨٢٦ وعمل على توسيع امارته حتى اربيل والعمادية وزاخو ودهوك وجزيرة ابن عمر. وبعد ان فرغ العثمانيون من مشاكلهم الخارجية بعثوا بمحمد اينجه بير قدار فقضى على الامارة السورانية. للتفاصيل أنظر: عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث، (القاهرة ١٩٦٨)، ص ١٠١ — ١٠٤.

بمجهودات مدحت باشا (١٨٦٩ — ١٨٧٢) ، الذي عين والياً على بغداد وكان قد زود بصلاحيات واسعة لتنفيذ اصلاحاته في الولايات الثلاث : الموصل ، وبغداد، والبصرة. وقد تجلت آجراءاته في ادخال الاصلاحات الادارية والاقتصادية وخاصة حل مشاكل الاراضي ، وكانت الغاية الرئيسية من وراء تلك الاصلاحات العمل على ربط الولايات العراقية الثلاث بعضها مع البعض الآخر ، وتقوية السلطة المركزية عليها ، خاصة وان سلطة الحكومة لم تكن تتجاوز قبل ذلك حدود المدن الكبيرة (٧) .

يعتبر نظام الطابو ، اهم ما يلفت النظر في اعمال مدحت باشا الاقتصادية (٨) وكان الهدف الرئيس من هذا النظام محاولة ايجاد حل لمشكلة استقرار العشائر ، ووضع حد لتمرداتها المستمرة، وتحويل افرادها إلى مواطنين مستقرين وذلك بتوفير سبل العيش وتحسين وسائل الري (٩) وقد أثمرت سياسة توطين العشائر التي اتبعها مدحت باشا في اماكن متعددة فاستقر رئيس قبائل شمر الجربا « فرحان بن صفوك » في منطقة الشرقاط . فمنح لقب : (باشا)، واصبح واسطة لاسكان البدو من افراد عشيرته، واخذ يتسلم راتباً شهرياً من الدولة ، وزار الاستانة ، وقد اصبح ميالا للتفاهم مع السلطة العثمانية ، ويشجع عشيرته على ممارسة الزراعة ، مما ادى إلى اغاضة عدد من التابعين له بتخلقه بالعادات التركية وتزوجه بازواج مدنيات وباقامته لاجل الزراعة على دجلة بكل خضوع (١٠) ويبدو ان المغتاضين كانوا من اولئك الذين لم يدركوا القيمة الحقيقية للاستقرار (١١) او من الذين لم يكن بأمكانهم الحصول على الاراضي بسبب التنافس العشائري على الزعامة .

ادت سياسة مدحت باشا إلى ان يتحول شيوخ العشائر إلى ملاكين للاراضي . ولم تعد العلاقات داخل القبيلة تعتمد على المساواة بين افرادها، بل اصبح مقدار ما يملك الشخص المعيار الاساس للتمييز بينهم (١٢) وصار بامكان الشيخ ان يمنح اي جزء من الاراضي للاستغلال المؤقت، من قبل افراد قبيلة اخرى، وهذا ما عرف بمبدأ « الخوة»(١٣).

(٧) للتفاصيل انظر : عبد الله الفياض . الثورة العراقية الكبرى . ط١ ، (بغداد . ١٩٦٢)، ص١٧ ، ٢٠، نوار . المصدر السابق ، ص ٣٥٦ .

(٨) S.H. Longrigg, Four Centuries of Modern Iraq, (Beirut, 1968), P.305

(٩) عبد الجليل الطاهر ، البدو والعشائر في البلاد العربية ،(بغداد ، ١٩٥٤) ، ص ٣٧ .

(١١) نوار ، المصدر السابق ، ص ١٦٩ .

(١١) ل ن . كوتلوف ، ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق ، ترجمة عبد الواحد كرم ، (بغداد، ١٩٧١) ، ص ٣٢ .

(١٣) أو الخاوة بالتعبير الدارج ومعناها الأتاوة التي يدفعها المرء رغم أنفه .

كانت « الخوة » تفرض على اغنام ومواشي القبائل الاخرى ، وعلى القوافل التي تمر ضمن الطرق التي تسيطر عليها القبيلة(١٤) وكان المفروض ان يتم توزيع هذه « الاموال» على افراد العشيرة بالتساوي ، لكن الذي كان يحدث هو ان اولاد فرحان اخذوا يقتسمونها فيما بينهم (١٥) مما ادى إلى ان يكون ذلك وسيلة للنزاع الدائم بين افراد القبيلة وزعمائها وبهذا يسهل على الحكومة السيطرة على الفريقين عند الحاجة (١٦) .

نشأت الخوة ، من اعتقاد شمر الجربا بان منطقة الجزيرة — وهي ما بين بغداد والموصل وماردين واورفة والرقة ودير الزور وعانة وراوة والرمادي — ملكهم ، لان جدهم فارس الجربا اخذها غصباً من العبيد وطي ، فكل من يسكن أويتجول فيها باغنامه وابله فهي له ولا يستطيع احد من عشائرهم ان يغير او ينهب شيئاً منها الا باذن منهم ، واذا سمحوا لاحد بالنهب فلهم ثلث ما نهبه ، ومن نهب بغير اذنهم يأخذون منه جميع مانهب(١٧).

امتدت ايدي شمر الجربا إلى تجار الاغنام والماشية في الموصل وبغداد وغيرهما. وتوجد احصائية تقديرية بمقدار ماأخذته شمر من اولئك سنة ١٩١١ وهو (٥٠٠٠) ليرة عثمانية (١٨) فقد لحق رأس الجمل في السنة نصف ليرة ، ولحق رأس الدابة من البقر قرشان ونصف وعلى الحصان ليرة عثمانية وعلى الاغنام قرش ونصف ، وكان الشمريون يأخذون من تجار الاغنام الموصليين سنة ١٩٠٩ مايزيد عن (٦٠٠٠) ليرة عثمانية (١٩) .

لم تكتف شمر بما كانت تأخذه من « خوة » بل كانت تسطو في معظم الاحيان على القوافل ، فتنهب مواشيها وما تحمله من اموال وامتعة ، وقد امتلأت الصحف

---

(١٤) M. F. Jamali; The new Iraq, Its Problem of Bedoun Education, : (New york, 1934), P. 66.

(١٥) Great Britain, India Office, Review of the Civil Administration of: Mesopotamia, 1914 – 1920. By G. L. Bell, (London, 1920), P. 218; Hereafter Cited as, Bell, Review of the Civil Administration,

(١٦) عبد الله الفياض ، « الزراعة والتجارة في العراق في النصف الثاني من القرن التاسع عشر» مجلة الاستاذ ، المجلد ١١ ، بغداد ، ١٩٦٢ — ١٩٦٣ ، ص ٣٩٦ — ٣٩٧ .

(١٧) جريدة النجاح ، ٢٣ ربيع الثاني ١٣٢٩ (٢٢نيسان ١٩١١) .
والجدير بالذكر أن شمر الجربا دخلت العراق في اوائل القرن التاسع عشر بقيادة فارس بعد ان ازاحهم السعوديون من هناك وتسلطوا على شبه الجزيرة العربية .

(١٨) الليرة سنة ١٩٠٣ كانت تساوي ١٠٨ قروش والقرش يساوي آنذاك (١٠) فلوس .

(١٩) جريدة النجاح ، ٢٣ ربيع الثاني ١٣٢٩ ، ٢٢ ذي الحجة ١٣٢٨ .

في تلك الفترة بالكثير من اخبار تلك الاعتداءات المتكررة (٢٠) لذا اخذت الحكومة تستعين برؤساء شمر لتحصيل الضرائب الاميرية وخاصة « رسوم الكودة » (٢١) فقد كان الحميدي رئيس عشائر شمر يصطحب معه مجموعة من العساكر لتحصيل هذه الضرائب (٢٢) وبذلك حققت الحكومة الهدف السياسي الذي توخته من اجراءات توطيد العشائر ، اذ ان الحكومة تستطيع ان تجبي الضرائب ،وتفرض الجندية على القبائل المستقرة بشكل اسهل مما لو كانت متنقلة (٢٣) .

لقد ادت سياسة التعاون بين السلطة الحكومية وشيوخ العشائر إلى زيادة التذمر بين تجار الاغنام والماشية من الموصليين وغيرهم ، فتساءلوا سنة ١٩١٢ بأن « الحكومة تستوفي منا في السنة مرة رسم (الكودة) وشيخ شمر في كل شهر له علينا (رسم كودة) ماعدا (الخاوة) وصناديق السكر واكياس الشاي ... والحكومة تتقاضى من شمر رسماً سنوياً مقداره (٧٠,٠٠٠) قرش وتنفق على معاشات رؤسائهم (١٥٠,٠٠٠)قرش فما هو النفع العائد اذاً للدولة ! ؟ » (٢٤) .

هذا كما لجأ رؤساء شمر في كثير من الاحيان إلى رشوة موظفي الحكومة . فقد دعين شلال بن فرحان باشا شيخاً برشوة قدرها (٤٠٠) ليرة دخلت في جيب (المكتوبجي) رمزي بك ، وكان للوالي بالوكالة حمدي باشا سنة ١٨٩٨ نصيبه من هذه الرشوة(٢٥). وقد جرت العادة ان يتناسى هؤلاء خصومتهم مع عنزة (٢٦).ويتفق الطرفان للاغارة على

(٢٠) جريدة صدى بابل ، ١١ تشرين الاول ١٩١٢ ، جريدة النجاح ، ٢٣ ربيع الثاني ١٣٢٩ ، مجلة لغة العرب ، آب ١٩١٢ .

(٢١) رسوم الكودة : عبارة عن الرسوم المدفوعة عن الاغنام وكانت نسبتها آنذاك تبلغ ٥ ، ٩ قرش عن الرأس الواحد .
أنظر :
Bell, Review, P.54

(٢٢) مجلة لغة العرب ، ج٢،آب ١٩١٢ .

(٢٣) الفياض ، المصدر السابق ، ص٣٩٦ — ٣٩٧ .

(٢٤) جريدة صدى بابل ، ١١ تشرين الاول ١٩١٢ .

(٢٥) صديق الدملوجي ، امارة بهدينان ، (الموصل ، ١٩٥٢) ص٦٩ .

(٢٦) تعتبر عنزة من اكبر العشائر في العالم العربي . وقد دفعت في القرن الثامن عشر الفرع الشمالي من شمر خارج الصحراء السورية الى الجانب الاخر من نهر الفرات .
وكانت عنزة في خصومة مستمرة مع شمر . انظر :
Admiralty,Naval Staff, Intelligence Department, A Handbook of Vol,I, (London,1918).P.103.Hereafter Cited as A Handbook .

المناطق المجاورة (٢٧) ولم يسلم الحديديون (٢٨) والعدوان (٢٩) والجحيش (٣٠) والجبور (٣١) من دفع الخاوة لشمر (٣٢) .

ولم يقف رؤساء هذه القبيلة عند هذا الحد، بل امتدت ايديهم إلى فلاحيهم المستقرين ايضاً ، ففرضوا عليهم (الخوة) بحجة حمايتهم ضد القبائل الاخرى ، وقد تراوحت هذه الضرائب بين (٥٠ — ٨٧٪) من الحاصل (٣٣) .

لقد ساهمت مسألة (الخوة) هذه في عملية تحول رؤساء العشائر إلى ملاكين كبار. فقد اخذ الشيخ عجيل الياور يزرع منطقة نجمة بالقرب من الشورة بالاشتراك مع الحاج (محمد النجفي) وهو احد اثرياء الموصل (٣٤). كما زرع منطقة وادي الكصب بالقرب من الشورة اما في المناطق الاخرى ، فقد ادى تطبيق سياسة الطابو إلى ان يحصل اشراف المدن والاغوات الاكراد وبعض شيوخ العشائر على معظم الاراضي، وقد استفاد هؤلاء من تطبيق قانون الاراضي وذلك بتمكنهم من الحصول على سندات الاراضي واسعة فوق رؤوس الفلاحين الشاغلين لها، باسم الحق المكتسب . وكان اصحاب رؤوس الاموال في المدن وبعض المتنفذين اسرع من غيرهم إلى الافادة بالشراء وبالاستيلاء على الارض نتيجة الديون المتراكمة على الفلاحين . هذا إلى ان فساد الادارة ساعد على التلاعب في اعطاء السندات للمتنفذين على حساب الفلاحين (٣٥) .

---

(٢٧) جريدة النجاح ٢٣ ربيع الثاني ١٣٢٩ ٢٢ نيسان ١٩١١) .

(٢٨) الحديديون : ويقدر عددهم آنذاك بـ (١٥٠٠) خيمة . وهم من العشائر العربية ونصف المستقرة . ويقضي قسم منهم فصل الصيف بين الزاب ودجلة على الجانب الايسر من دجلة وفي الشتاء يسكنون في انحاء الحضر . ويتجول القسم الآخر في انحاء وادي الثرثار شتاء وبين الموصل والزاب صيفا . ويشتهر الحديديون بكونهم رعاة اغنام تجار الموصل . وقد نزح قسم منهم تحت ضغط شمر الى سوريا . للتفاصيل : انظر A Hand book, Vol,I,P.104.

(٢٩) العدوان : عشيرة عربية تقع مواطنها قرب ويران شهر بجوار نصيبين .

(٣٠) الجحيش : وتمتد مواطنهم على طول قاعدة جبل سنجار الجنوبية نحو تلعفر .

(٣١) الجبور : وهم عشائر كثيرة يسكنون اواسط دجلة بين الموصل وسامراء وهناك ايضاً جبور جوار نهر الخابور ورأس العين.انظر : A Handbook, Vol,I, P.194,

(٣٢) A Handbook, Vol,I,P, 104

(٣٣) كوتولوف ، المصدر السابق ، ص ٣٥

(٣٤) Bell, Review,P.41.

(٣٥) عبد العزيز الدوري : مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، (بيروت ، ١٩٦٩) ص ١٣٠

وتعلل دورين وارنر سكوت الحكومة العثمانية عن تسجيل الاراضي والقرى الكردية بصورة خاصة باسماء الاغوات والمختارين خلافاً لما نص عليه قانون الاراضي من عدم جواز تسجيل القرى باسم شخص واحد ، إلى رغبة الحكومة في الابقاء على استتباب الأمن في تلك المناطق (٣٦) ويضيف احد الباحثين إلى ذلك قوله : ان تفويض الاراضي إلى الاغوات واشراف المدن يرجع إلى غموض السندات في تحديد مساحة الارض من جهة ونظام جباية الضرائب بالمزايدة من جهة اخرى ، إلى جانب عدم وجود جهاز اداري كفء يستطيع تثبيت الحقوق التصرفية في الاراضي ، كل ذلك ادى إلى الحاق قطع إضافية من الاراضي باراضي الاثرياء ووجهاء المدن والاغوات والشيوخ (٣٧) وتحول الفلاحون إلى مجرد مؤجرين ، وتم هذا في الوقت الذي كانت فيه الروابط العشائرية تأخذ بالانحلال ، وحيث اخذت الروح التجارية تنتشر في المجتمع العشائري المتصف بالاكتفاء الذاتي (٣٨).

اما الاراضي التي ظلت اميرية صرفة ، فقد اجرت بالمزايدة إلى من يدفع بدلا اكثر من غيره ، وبهذه الطريقة انتزعت من ايدي فلاحيها الفعليين ، وانتقل التصرف بها إلى ايدي الاغوات ووجهاء المدن . فقد رست ، على سبيل المثال ، معظم الاراضي التي كانت لعشيرة (دهلو) شرقي كفري وغربيها على رؤساء عشائر الجاف وبازيان والسادة (٣٩) .

لقد اصبح الفلاحون ، من جراء ذلك ، بين نارين ، نار الحكومة ونار الملاكين . حيث كانت بدلات التزام وحصة المستأجرين الجدد تجبى بصعوبة كبيرة ، بسبب المقاومة التي يبديها الفلاحون . لهذا اصبحت الاغارة على الفلاحين بقوات (الجندرمة) لتحصيل الضرائب الحكومية او حصة المستأجرين بالقوة امراً مألوفاً . فقد كانت قوة رئيس عشيرة الجاف الخاصة من الفرسان والمسماة (پشت مالة) (٤٠) على سبيل المثال ، مستعدة للاغارة على

---

(٣٦) دورين وارنر ، الارض والفقر في الشرق الاوسط ، ترجمة حسن احمد السلمان ، (القاهرة ، ١٩٥٠) ، ص ١٧٧ .

(٣٧) مكرم الطالباني ، ابراهيم خان ثائر في كردستان (بغداد ، ١٩٧١) ، ص ٣٠

(٣٨) محمد سلمان حسن ، التطور الاقتصادي في العراق ، جـ١ ، (بيروت ، ١٩٦٥) ، ص ١٨٩ — ١٩٠

(٣٩) الطالباني ، المصدر السابق ، ص ٣٠ — ٣١ .

(٤٠) كلمة كردية تعني : حراس الامير .

اية مجموعة من العشيرة تعصي اوامره في دفع الضرائب. زيادة على ذلك، كان للامير ضرائبه الخاصة به امثال ضريبة (دوخة) (٤١)، و (سووزانة) (٤٢)، و (الديوان)(٤٣) وتزداد هذه الضرائب لتصبح مرهقة للفلاحين في بعض القرى (٤٤). إلى جانب ذلك مارست بعض الاتحادات القبلية الكردية (كاتحاد الهماوند) دورها في الحصول على الاراضي، فقد كوفيء زعماء الهماوند بعد مساهمتهم في حرب الدولة العثمانية مع روسيا (١٨٧٧ – ١٨٧٨) بتوسيع اراضيهم في منطقة بازيان (٤٥).

اما في مناطق انتشار اليزيدية في سنجار والشيخان فقد اكتسب (المير) وهو رئيس اليزيديين الديني والدنيوي مكانة كبيرة (٤٦)، اصبح بواسطتها يستولي على نسبة معينة من المحصول والماشية من كل فلاح، كما كان يلزم أتباعه بجمع مبالغ كبيرة لحساب مزار الشيخ عدي (عادي) (٤٧) بن مسافر الاموي (٤٨). هذا بالاضافة إلى ان العديد من

(٤١) هي اخذ نسبة معينة من الاغنام مع خرافها ايام الربيع، ومن مجموعها يتشكل قطيع يستفيد الاغا او الامير من حليبه، وتكون الخراف له، ويعيد الاغنام الى اصحابها في الخريف، وتتجدد هذه العملية في كل ربيع.

(٤٢) هي الضريبة على الزواج، وتؤخذ من العريس والعروس.

(٤٣) هي الضريبة التي تؤخذ لادارة الديوان. وهناك ضريبة تسمى (ميرانه) يفرضها الاغا للصرف على الديوان، كصاريف ودعوات الامير او الاغا. وكان الشيخ او الاغا الكردي يمارس سياسة اقراء ابوية، فكل من يقصد بيت الشيخ يحصل على طعام وبهذه الطريقة اصبح جميع الافراد من ذوي الشأن بين السكان اتباعاً للشيوخ.

G.J. Edmonds, Kurd, Turk and Arabs (London, 1957), P.13

(٤٤) أنظر :

E.B.Soane, To Mesopotamia and Kurdistan in Disyuise,(London 1926).P.187

(٤٥) باسيل نيكيتين، الاكراد، طبعة دار الروائع (بيروت ١٩٦٧)، ص ١٤٣

(٤٦) E.S. Stevens, By Tigris and Eughrates, (London, 1923).

(٤٧) ويقع المزار في وادي لاش في الشمال الشرقي من مدينة الموصل.

(٤٨) كانت واردات الشيخ عادي كثيرة، تأتي من سنجار والشيخان وحلب وروسيا ومناطق أخرى وتؤول هذه الواردات الى يد ميران (امير الامراء) اليزيدية. وكثيراً ما كانت تحصل خصومات بين الاسرتين المتنافستين وهما اسرة علي بك واسرة اسماعيل بك حول هذه الواردات. اضافة الى ذلك، ان علي بك، مثلا، كان يأخذ من اليزيدية سنوياً نحو (٤٠٠٠) ليرة ذهبية بدلا عسكرية ولا يسلم منها الى الحكومة الا مبلغاً ضئيلا، فعلى سبيل المثال وجد بعد مراجعة السجلات الرسمية أثر شكوى تقدم بها منافسة اسماعيل بك سنة ١٩١٠ بانه لم يسلم منها خلال ثماني سنوات سوى ٢٠,٠٠٠ ليرة فقط. انظر اسماعيل بك جول، اليزيدية قديماً وحديثاً، نشره قسطنطين زريق، (بيروت ١٩٣٤)، ص ٣٢، ص ٦٩.

قرى اليزيدية في الشيخان دخلت في أيدي الملاكين الموصليين ، فقد أصبح أحدهم يملك بين (٣ — ٥٠) قرية . في الوقت الذي عجز أحد من هؤلاء أن يتملك شبراً واحداً من قرى سنجار . ويعلل أحد المطلعين ذلك ، بان الملاكين الموصليين لم يتعدوا مناطق الجبال حيث القوة والعصبية . ولكن سرعان ما أمتدت أيدي هؤلاء إلى قرى سنجار بعد أن مال اليزيدية إلى الطاعة ، وأخذت تنال منهم بواسطة المحاكم (٤٩) .

كما نجحت أسرة شيوخ البرزنجة (٥٠) في الاستحواذ على معظم القرى والبساتين المحيطة بالسليمانية ، مستفيدة من مكانتها الدينية وصلة رؤسائها بالحكومة العثمانية (٥١) وبلغت القرى التي دخلت في حوزتهم حوالي (٦٠) قرية ، ببدل زهيد لا يساوي — كما يقول أحد المطلعين — عشر معشار أثمانها الحقيقية (٥٢) .كما بدأ الشيوخ بنظام ضرائب محصلة دفع ٣٠٠٪ على أحمال الفاكهة التي تدخل المدينة باعتبار ذلك رسم دخول خاص (٥٣) .

أما في تلعفر ، فقد استولى اغواتها على معظم الاراضي (٥٤) . كما دخلت بعض قرى زاخو وعقرة والزيبار في أيدي الملاكين ، وقد كشفت التقارير البريطانية فيما بعد ، عن أسماء الشخصيات الكردية ،وجميعهم من الاغوات والمختارين والشيوخ وغيرهم من أصحاب النفوذ ، التي تمتلك أكثر قرى هذه المناطق (٥٥) . وقد تحولت ملكيتها اليهم بحيل عديدة يتعلق معظمها بطريقة تسجيل الاراضي ، أو اغراق الفلاحين بالديون

(٤٩) الدملوجي ، المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

(٥٠) نسبة الى قرية البرزنجة وتقع شرقي مدينة السليمانية وتبعد عنها حوالي ٦٠ كم وكان الشيخ سعيد البرزنجي يترأس اسرة الشيوخ هذه . وهي من الاسر الدينية التي كانت تتمتع بنفوذ كبير بين الاكراد وترجع اهميتها الى مكانة مؤسسها (كاك أحمد الشيخ) ابن الشيخ معروف النودهي مرشد الطريقة القادرية . وكان الشيخ سعيد من المقربين للسلطان عبد الحميد الثاني وقد زار الاستانة سنة ١٩٠٤ .

(٥١) Soan, op. cit,P.187.

(٥٢) محمد طاهر العمري ، تاريخ مقدرات العراق السياسية ، جـ٣ ، (بغداد ، ١٩٢٥) ص١١٩

(٥٣) Soan, op. cit. P. 187.

(٥٤) Bell, Review, P. 54.

(٥٥) المركز الوطني لحفظ الوثائق،ملفات وزارة الداخلية،ملفة شؤون عامة دهوك رقم 2/20/B تسلسل ١٧٧ Reports on who's who in Zakho Districts

وقد أوردت التقارير البريطانية اسماء هؤلاء الملاكين منهم على سبيل المثال حازم بك بن حاجي يوسف باشا وحاجي بدريه وعبد الرحمن بن حاجي صالح وسيد اسماعيل بن سيد احمد ورشيد اغا بن حاجي اغا وحاجي أحمد بن حاجي عبد الحليم .

وهناك طرق أخرى تحولت بها هذه الارض من أصحابها إلى أيدي هؤلاء الملاكين منها ؛ أخذ بعض الفلاحين يلجأ إلى وجيه من الوجهاء بعد أن يعجز عن دفع الضرائب ، فيطلب حمايته ، بعد أن يفرغ عليه أرضه بدل هذه الحماية . وقد يتواطىء بعض الملاكين مع رجال (الجندرمة) للحصول على أراضي الفلاحين ، فيلقى القبض عليهم بتهمة قتل أو سرقة أو اخلال بالامن ،ويودعون السجون ، فتصدر المحكمة الحكم عليهم ثم يأتي في أليوم التالي (محرر المقاولات) أي كاتب العدل ويوقعون على يده صك العبودية ويطلق سراحهم . وقد شهدت الموصل في الفترة التي نحن بصددها ، أمثال هؤلاء المتواطئين من رجال الجندرمة ، لعل (ابن هبوكة) ، و(كل أمين) ، و (خورشيد جاويش) أشهرهم على الاطلاق . وهناك أساليب ملتوية أخرى للاستحواذ على الاراضي ؛ وهي أن بعض الوجهاء يلجأ إلى أن يوسع أرضه على حساب القرى المجاورة ، فتخرب تلك القرى وتصبح ملكاً له « أو أن يملك الوجيه الثري جزءاً صغيراً من قرية ثم يعمل على وضعها في (الشيوع) ويطرد أصحابها عنها » (٥٦) .

لقد أدى ذلك كله ، إلى ظهور طبقة من الملاكين لا تمت بصلة إلى الزراعة ، وهؤلاء هم « الملاكون الغائبون » فقد امتدت يد الملاكين الموصليين إلى قرى سنجار ، على سبيل المثال ، ومن هؤلاء الملاكين من لم يروا أراضيهم بأعينهم مطلقاً (٥٧) . وقد يكون من المناسب أن نشير إلى الاستنتاج الذي توصل اليه الدكتور صالح حيدر بالنسبة لاوضاع ملكية الاراضي في ولاية الموصل عندما قال : « بان انعدام التحريات بالنسبة إلى الحقوق المكتسبة سمح لاشراف المدن والاغوات الاقطاعيين (الشيوخ الاكراد) بالحصول على سندات قانونية لملكية الأرض من فوق رؤوس الفلاحين الشاغلين للارض ، وبالنتيجة فان غموض الحدود والمساحات المذكورة في السندات ونظام جباية الضرائب بالمزايدة كانت وسائل لانتفاع الاغوات وأشراف المدن بواسطتها والحاق قطع اضافية من الأراضي بأراضيهم واختزال عدد متزايد من الفلاحين وجعلهم مؤجرين » . ويضيف إلى ذلك قوله « إن نظام الطابو الذي ادخل بالدرجة الأولى لغرض حماية الفلاحين بدأ يستخدم كوسيلة

---

(٥٦) الدملوجي ، المصدر السابق ، ص ١٢٨ – ١٢٩ . وكذلك

W.A Wigram, and T. A. Wigram The Cardle of Mankind,(London,– 1914) .P .72.

حيث يذكر المؤلفان اساليب اخرى من اجل الاستحواذ على الاراضي .

(٥٧) الدملوجي ، المصدر السابق ، ص ١٢٨

لاضطهادهم » . وقد جرى كل ذلك مع انتشار الروح التجارية الجديدة ، وتقلص الوسائل التقليدية لحماية الفلاحين كالروابط العشائرية ، وندرة العمل وفيض الارض وغير ذلك (٥٨) .

وفوق ذلك ، هناك الاراضي السنية ، وهي التي تعود للسلطان عبد الحميد الثاني . وكان لها ادارة خاصة تسمى « الادارة السنية » .وقد جعلت (زمار) مثلا شعبة من الاملاك السنية ، تدار من قبل مدير مرتبط بإدارة الاملاك السنية في الموصل مباشرة (٥٩) .وقد شملت الاراضي السنية مساحات واسعة قرب مدينة الموصل،والسهول الواقعة بين الزاب الاعلى والزاب الاسفل ، ومناطق ديلين ومالوان وباقره جو في السليمانية ، وأراضي واسعة في قضاء مخمور في أربيل (٦٠) . كما انتشرت الاراضي السنية لتشمل أخصب المناطق الزراعية في الولاية . ويذكر أحد الباحثين أن أراضي السلطان عبد الحميد كانت واسعة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بحيث تؤلف حوالي $\frac{١}{٣}$ أراضي العراق الخصبة (٦١) . فقد كانت كفري نصف سنية ، بينما كانت معظم أراضي طوزخرماتو سنية ، أما قرةتبة فكلها أراضي سنية (٦٢)

لقد كانت حالة الفلاحين في الأراضي السنية أحسن من حال سائر الفلاحين في العراق إذ كان مستأجروها يحصلون على نصف الحاصل ، ويضمنون في حالة قلة المحصول أن يحصلوا على بعض التعويضات والمساعدات كالسلف والبذور ، . كما كان فلاحو هذه

---

(٥٨) Salih Haider, Land Problems of Iraq, A doctoral dissertation, The London School of Economic, Cambridge, 1942, P.553.
كما ورد في محمد سلمان حسن ، المصدر السابق ،ص ١٩٠

(٥٩) دائرة اوراق متصرفية لواء الموصل ، ملفة رقم ٧/ ٤/٣/٢ ، تقرير رسمي منظم من قبل مصطفى العمري ،قائمقام قضاء تلعفر بتاريخ ١٤ / ٦ / ١٩٢٧.ص ١.

(٦٠) عماد احمد الجواهري ، تاريخ مشكلة الاراضي في العراق ١٩١٤-١٩٣٢ ، رسالة ماجستير قدمت لجامعة بغداد ، آيار ١٩٧٥ ، غير منشورة ، ص ٤٣ .
يجدر الاشارة هنا الى ان الطبقة العاملة كانت في هذه المرحلة في دور التكوين، كما انها لم تكن منظمة . لذلك لم يكن لها اي دور في حياة المجتمع آنذاك .

(٦١) الفياض ، المصدر السابق ، ص ٣٩٨ .

(٦٢) Reports of Administration for 1918 of Divisions and Districts of the Occupied Territories in Mesopotamia , Vol , I . P . 417 .

الأراضي معفوين من الخدمة العسكرية . وقد بقيت هذه الأراضي ، من الناحية العملية، تحت التصرف الفعلي للزراع ، وكانوا يدفعون حصتي الطابو والحكومة معاً إلى الإدارة السنية بنسبة ٢٠ ٪ من الحاصل لكل من الحصتين (٦٣) . ويرى الدكتور صالح حيدر أن أهم التطورات الاقتصادية والعمرانية التي شهدها العراق في أواخر القرن التاسع عشر كانت بفعل وتأثير دائرة السنية وجهودها المباشرة وغير المباشرة (٦٤) .

كانت واردات الأراضي السنية ، تزيد على عشرات الألوف من الليرات العثمانية: ولعلها بلغت مئات الألوف ، ولم يدخل في خزينة الولايات منها شيء (٦٥) . وبعد قيام ثورة الاتحاديين في ٢٣ تموز ١٩٠٨ تنازل السلطان عبدالحميد عن الأراضي المذكورة. فدورت بأسم الخزانة العامة ، وصارت تعرف بالأراضي المدورة . وبعد تدوير هذه الأراضي ، فقدت تلك الامتيازات وامتدت اليها يد الخراب والاهمال ، وعندها أخذت أحوال فلاحيها بالتدهور (٦٦) .

أما القرى الموقوفة على التكايا وأصحاب المراقد ، فقد كان ضررها أشد من الملكية نفسها ،إذ يجوز أن تتحول الملكية أو تزول ويطلق الفلاحون من الأسر ، ولكن الأراضي الوقفية يبقى أهلها في حالة العبودية مدى الدهر (٦٧) . ومما يلفت النظر أن يحتفظ المسيحيون في القرى المحيطة بمدينة الموصل باراضيهم ، وسط هذا كله ، فقد تمكنوا من ابعادها

---

(٦٣) الجواهري ، المصدر السابق ، ص ٤٣ — ٤٤ .

(٦٤) يمكن تفسير عملية تفويض الاراضي بانها محاولة قصدت منها الدولة العثمانية التهرب من قسم من التزاماتها تجاه عمران الارض ورفع مستوى الانسان . فباعت حقوق الطابو الى المتفوضين واشترطت عليهم عمرانها الدائم . ومما يدعم هذه النظرية هو ان مشاريع العمران الرئيسة في العراق في العهد العثماني قد انجزت في هذه الفترة القصيرة التي لاتتجاوز الاربعين عاماً . فبذلت جهوداً لكري الانهار والقنوات وانجز بناء سدة الهندية سنة ١٨٨٩ وظهرت مدن جديدة واستقدم ويلكوكس ليقوم بمسح عام للري في العراق والجدير بالذكر ان هذه الجهود المبذولة وغيرها انجزت بسعي او نفوذ دائرة السنية كما مولت خزانة السلطان الخاصة وبقية الملاكين القسم الاعظم منها . مما ادى الى التحولات في أسس الاقتصاد العراقي وربطه بأسس الاقتصاد الرأسمالي .كما ورد في الجواهري، المصدر السابق ، ص ٤٤ — ٤٥ .

Haider, P . 425

(٦٥) الفياض ، الثورة العراقية ، ص٢٠٦ .

(٦٦) الجواهري ، المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٦٧) الدملوجي ، المصدر السابق ، ص ١٢٦ ، ١٢٨ .

عن ايدي الملاكين الموصليين (٦٨) وربما يرجع ذلك إلى مجهودات بطاركتهم واساقفتهم الذين كانوا يتولون حمايتهم زيادة على ذلك استفادتهم من حماية فرنسا وغيرها من الدول الاوربية ، خاصة اولئك الذين يعتنقون المذهب الكاثوليكي .

ان الملاكين الجدد شددوا – اكثر من سابقيهم – على الفلاحين من اجل زيادة الانتاج الزراعي ، على الرغم من عدم تقدم وسائل الانتاج التي ظلت بدائية بسيطة حتى أواخر العهد العثماني ، فكان المحراث الخشبي والفأس بمثابة اكثر الادوات الزراعية انتشاراً في العراق كله. ولم يستعمل المحراث الحديدي المثبت على سكة خشبية الا بنطاق ضيق ، واستخدمت الحيوانات على نطاق كبير في الاعمال الزراعية اما الآلات المستخدمة في الارواء فكانت بدائية كذلك (٦٩) وتحت تأثير ضغط الملاكين اتجه الاقتصاد على العموم من اقتصاد طبيعي قائم على الانتاج لغرض سد الحاجة المحلية إلى اقتصاد التسويق (Market Economy) القائم على الربح ، وإلى الانتاج الزراعي لغرض السوق (٧٠) فكانت الزراعة قبل ذلك مبنية على تلبية احتياجات الاسرة كوحدة انتاجية ، وفي نفس الوقت ، كانت العائلة الفلاحية ، بصورة عامة ، تعتمد على نفسها في انتاج ما تحتاجه من ادوات زراعية كالمحراث والمسحاة والمذراة ، كما كانت تعمل على تهيئة احتياجات الاسرة الفلاحية الاخرى عن طريق العمل اليدوي (٧١) .

تعتبر ولاية الموصل ، اسرع من باقي مناطق العراق الاخرى ، في تطور العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الجديدة . فقد كثر مثلا ، الاقبال على زيادة المساحات المزروعة في جنوبي سنجار ، والاقسام الغربية من كردستان (٧٢) ولعل ذلك يرجع إلى اهمية موقع الموصل ، وكونها سوقاً للمنتجات الزراعية والحيوانية ، فهي ملتقى طرق ، وتضم مدناً تجارية مهمة (٧٣) وكذلك لظروفها المتميزة في وفرة امطارها ، وقرب الاراضي

---

(٦٨) Bell, Review . P . 54

(٦٩) جاسم محمد حسن ، العراق في العهد الحميدي ، رسالة ماجستير قدمت لجامعة بغداد في آيار ١٩٧٥ ، غير منشورة .

(٧٠) الدوري ، المصدر السابق ، ص ١٤٠ .

(٧١) Hashim Jawad, The Social Structure of Iraq, (Jerusalem, 1954), P.26

(٧٢) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٧٦ .

(٧٣) عصبة الامم ، مسألة الحدود بين تركية والعراق (بغداد ١٩٢٤) ، ص ٨٥

الزراعية من الادارة المركزية التي اعطتها درجة كافية من الامان والاستقرار وجعلت الزراعة والسكنى فيها ممكنة (٧٤) .

وقد كان لعدم شمول الولاية بالارادتين السنيتين (٧٥) اللتين منعتا انتقال الاراضي بالطابو في ولايتي بغداد والبصرة ، دور كبير في تحول الفلاحين من مالكين للارض إلى مستأجرين لها (٧٦) .

اما عن اوضاع الفلاحين في ولاية الموصل فليس هناك على العموم مايدل على انها حسنة في ظل العلاقات القبلية او الاقطاعية ، واسوأ منها في ظل علاقات الانتاج الجديدة (علاقات الانتاج التي اوجدها نظام الطابو) مارس الاغوات والملاكون ساطة شديدة على الفلاحين (٧٧) بل ان قسوة وشدة الملاكين في السليمانية دفعت الفلاحين إلى حرق اشجارهم وتخريب قنوات الري والهرب بارواحهم نحو ايران للاشتغال في زراعة التبغ ، وبذلك ساهم الشيوخ والاغوات في تدهور الاوضاع الاقتصادية في المنطقة (٧٨) .

ساعدت التطورات الجديدة تلك على احداث تغيير في علاقات الانتاج وايجاد روابط قوية بالسوق الخارجية ، واسهمت في ذلك عوامل اخرى داخلية وخارجية (٧٩) فبعد افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ برزت ظاهرة نشوء واتساع تجارة التصدير إلى اوربا (٨٠) ففي الوقت الذي

---

(٧٤) الجواهري ، المصدر السابق ، ص ١٥ .

(٧٥) وصدرت الاولى سنة ١٨٨٠م والثانية سنة ١٨٩٠ م . وقد منعت الارادة الاولى منح اراضي اخرى بالطابو سواء بدفع بدل المثل او بوساطة المزايدة ، كما ابطلت الثانية حق القرار وهو الحق الذي يقضي بتسجيل الارض بالطابو باسم مستثمرها الفعلي مجاناً اذا كان قد تصرف بها لمدة عشر سنوات متتالية قبل اصدار القانون . للتفاصيل انظر : الجواهري ، المصدر السابق ، ص ٤٠ — ٤١ .

(٧٦) Haider, op. cit, P. 495, 497

كما ورد في الجواهري ، المصدر السابق ، ص ١٢٧

(٧٧) الجواهري ، المصدر السابق ، ص ١٢٨ .

(٧٨) Soan, op. cit. P. 187

(٧٩) تتمثل العوامل الخارجية في دخول طرق المواصلات الحديثة الرخيصة وفي السياسة التجارية العثمانية وخاصة تخفيض التعرفة الكمركية على الصادرات في سنة ١٨٦١ . اما العوامل الداخلية فتتمثل في اخضاع شيوخ العشائر والاغوات للسلطة المركزية فتوحيد الولايات العراقية حول بغداد منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر وتطبيق قانون الولايات واصلاحات مدحت باشا الاقتصادية والادارية . انظر محمد سلمان حسن ، المصدر السابق ، ص٨٨ — ٨٩

(٨٠) محمد سلمان حسن ، المصدر السابق ، ص ١٣١

أصبح فيه مستوى صادرات الموصل عبر الطريق البري شمالاً إلى تركيا وغرباً إلى سوريا وشرقاً إلى ايران في تدهور مستمر في الفترة مابين ١٨٧٤ — ١٨٧٥ حيث لم تكن صادرات الموصل تزيد على ٣٩ الف جنيه استرليني (٨١) ، وبلغت في الفترة ١٨٨٤—١٨٨٥ (٢٥١,٥٣٩)جنيه استرليني صدر منها ماقيمته ١٧٢٦٠٢ جنيه استرليني إلى بريطانيا العظمى وأوربا .ومنها ما قيمته ٧٥٨٦٤ جنيه استرليني إلى بريطانيا وحدها (٨٢) في حين بلغت قيمة الصادرات الى بريطانيا سنة ١٩١٠ (١٧٦٥٠٠) جنيه استرليني ، أي بنسبة تغير (٢٠٠٪)عن سنة الاساس ١٨٨٤ — ١٨٨٥ .

هذا وتشمل صادرات الموصل اعتيادياً ، الحبوب كالحنطة والشعير والعدس ، ومواد الدباغة والمصارين ، والجلود ، والحيوانات الحية وغير ذلك (٨٣) .

لم تقف تجارة التصدير عند هذا الحد ،إذ مالبثت في الزيادة ، ويممت صادرات الموصل وجهها شطر الاسواق الاوربية ، إلى درجة أصبحت معه هذه الاسواق تشتري ،قبل الحرب العالمية الاولى،أكثر من ثلثي صادرات هذه الولاية.فقد أظهرت تقارير القنصلية البريطانية في ولاية الموصل بين ١٩٠٩ و١٩١٢ أن هناك زيادة في صادرات ولاية الموصل إلى بريطانيا .ففي الوقت الذي بلغت قيمة الصادرات الموصلية سنة ١٩٠٩ إلى بريطانيا ١٦٤,٣٠٠ جنيه استرليني أصبحت قيمتها سنة ١٩١٠ حوالي ١٧٦,٥٠٠ جنيه استرليني . أما في سنة ١٩١١ فقد بلغت ١٦٣,٥٠٠ جنيه استرليني وبعبارة أخرى أن المعدل السنوي لقيمة صادرات الموصل هو ٤٧٣٠٠٠ جنيه استرليني خلال الفترة ١٩٠٩ — ١٩١٢ صدر منها ماقيمته ١٩٥,٠٠٠ جنيه استرليني إلى بريطانيا والهند وحدهما (٨٤) وبلغت نسبتها السنوية للسنة ١٩٠٩ (٢٨٪) وللسنة

---

(٨١) المصدر نفسه، ص ١٣١
(٨٢)

Great Britain, Foriegn Office British Partimentary Papers, Report on the Trade of the Wilayet of Mosul, Vol, LxxLx, 1884-1885, P.14 77;B Hereafter Cited, Report on the Trade of the Wilayet of Mosul.

(٨٣) عصبة الامم، مسألة الحدود، ص ٨٥ .

(٨٤) المركز الوطني لحفظ الوثائق، ملفات البلاط الملكي، ملفة قضية الموصل رقم ٦١٤٤٦ المذكرة البريطانية المقدمة الى عصبة الامم رقم ١٠٨٤٤٧٦٥ بتاريخ ٣ كانون الاول ١٩٢٤

١٩١٠ (٢٩ ٪) وفي سنة ١٩١١ (٥٠ ٪) وفي سنة١٩١٢ (٣٨ ٪)من مجموع الصادرات(٨٥) وادناه الاحصائية التي أرسلها القنصل البريطاني في الموصل يبين فيها خلاصة (٨٦) الصادرات الموصلية للسنوات ١٩٠٩ ، ١٩١٠ ، ١٩١١ .

التفاصيل	سنة ١٩١١	سنة ١٩١٠	سنة ١٩٠٩
مجموع الصادرات إلى بريطانيا	١٦٣٥٠٠	١٧٦٥٠٠	١٦٤٣٠٠
مجموع الصادرات إلى الهند	٢٥٠٠٠	٣٠٠٠٠	٣٥٠٠٠
إلى أقطار أجنبية أخرى	٤٣٤٨٠	٤٩٩٨٠	٥٠٠٤٠
إلى أجزاء مختلفة من تركيا	١١١٣٥٠	٣٥٢٩٥٠	٣٢٢٥٠٠
المجموع	٣٤٣٣٣٠	٦٠٩٤٣٠	٥٧١٨٤٠

لقد حاولت الأسواق الألمانية والاميركية ، بعد أن رصدت اتجاهات الصادرات الموصلية نحو الاسواق الانكليزية ، السيطرة على صادرات الموصل من المصارين وعرق السوس فانشأ الاميركان شركة لأستخراج وكبس عرق السوس وتصديره في الموصل سنة ١٩١١ إلا أنها لم تنجح ، ولم تستوعب الاسواق الاميركية إلا نسبة قليلة من صادرات الموصل لا تكاد تذكر (٨٧) .

تدفقت رؤوس الاموال الاجنبية على العراق عامة ، والموصل خاصة نتيجة لنمو تجارة التصدير . واتجه التجار الاوربيون إلى أن يجعلوا من العراق كله منتجاً للخامات وسوقاً لمصنوعاتهم محاولين ربط اقتصاده باقتصاد السوق العالمية (٨٨) . وقد ساهمت البنوك في تسهيل عملية التعامل المصرفي ، فكان في الموصل فرع للبنك الامبراطوري العثماني الذي أسس سنة ١٨٦٣ وهو مؤلف من رؤوس أموال انكليزية وفرنسية وهناك

(٨٥) انظر : A Handbook of Mesopotamia, Vol, I, p. 201 .

(٨٦) Reports on the Trade of the Wilayet of Mosul,, 1912–1913,

(٨٧) محمد سلمان حسن ، المصدر السابق ، ص١٣١ .

(٨٨) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص٧٨

أيضاً للبنك الشرقي المسمى (ايسترن بنك Eastern Bank) ورأسماله مؤلف من أسهم انكليزية فقط ، أما ادارته المركزية فهي في لندن وله فرع في الموصل (٨٩) .

هذا وكان لتجار الموصل فعاليات مهمة في مجال الاستيراد . وكان لنمو تجارة التصدير أثر كبير في نشوء فئات برجوازية تجارية. بدأت تأخذ دورها في تنمية تجـارة الاستيراد وتشير تقارير القنصلية البريطانية للسنوات ١٩٠٩ – ١٩١١ أن هناك تزايداً في استيراد البضائع الاوربية وخاصة البريطانية منها . إذ بلغت قيمة مستوردات ولاية الموصل لهذه السنوات حوالي ١٥٠,٠٠٠ جنيه استرليني منها ماقيمته ١٢٠,٠٠٠ جنيه استرليني جاءت من بريطانيا والهند والدول الاوربية ، والبقية أتت من بغداد وحلب وديار بكر .

وأدناه تفاصيل ذلك (٩٠) :

سنة ١٩٠٩	سنة ١٩١٠	سنة ١٩١١	التفاصيـــل
٤٢١٤٠	٣٧٨٥٠	٤٣٠١٥	مجموع الواردات من المملكة المتحدة
٣٢٩٠٠	٣٥٨٠٠	٣٨٨٥٠	مجموع الواردات من الهند
٤٥٧٢٠	٤٣٨٩٠	٥٣٨٢٥	من أقطار أجنبية أخرى
٢٦٥٥٠	٢٤٤٠٠	٢٩٢٥٠	من أجزاء مختلفة من تركيا
١٤٧٣١٠	١٤١٩٤٠	١٦٤٩٤٠	المجمـــوع

وقد بلغت النسبة المئوية لاستيرادات ولاية الموصل من بريطانيا سنة ١٩٠٩ (٢٩٪) وفي سنة ١٩١٠ (٢٦٪) وفي سنة ١٩١١ (٢٧٪) وفي سنة ١٩١٢ (٢٨٪) من مجموع للواردات (٩١) .وأهم البضائع المستوردة :الأقمشة القطنية والاجواخ والسكر والآنية النحاسية والزجاجية وتأتي هذه من أوربا. أما الوارد اليها من الهند عن طريق بغداد فهو الشاي والأقمشة وأنواع الحلويات. ومن بلاد فارس البسط بانواعها والأقمشة الحريرية والطنافس (٩٢).

(٨٩) مجيد خدوري ، أسباب الاحتلال البريطاني للعراق ، (الموصل ، ١٩٣٣) ، ص ٦٩.

(٩٠) انظر : Reports on the Trade of the Wilayet of Mosul,1912-1913,p.7.

(٩١) انظر : A Handbook of Mesopotamia,Vol,I,P.201.

(٩٢) سليمان صايغ. تاريخ الموصل ، جـ١ (القاهرة ، ١٩٢٣) ، ص ٣٣٧.

وقد يكون من المناسب أن نشير إلى أن الهبوط في قيمة المستوردات إلى الموصل من حوالي ٥٦٣١٣٩ جنيهاً استرلينياً في ١٨٨٤ – ١٨٨٥ إلى ١٤٧٣١٠ جنيهات استرلينية في سنة ١٩٠٩ و ١٤١٩٤٠ في سنة ١٩١٠ والى ١٦٤٩٤٠ في سنة ١٩١١ كان يعزى إلى الهبوط في التجارة المباشرة بين الموصل واوربا .

فقد صار من الأوفق لتجار الموصل الحصول على مستلزماتهم من بغداد وحلب والاستانة ، وقد انتفع أكثر التجار من مراكز التوزيع التجارية هذه بفوائد المستوردات على نطاق واسع . وفي الحقيقة ، فان تجار الموصل الذين كانوا يستوردون مباشرة من اوربا في سنة ١٨٩٧ تكبدوا خسارة تقدر بـ (٣٪) من رؤوس أموالهم ، وبالمقارنة مع اولئك الذين كانوا يستوردون مستلزماتهم من بغداد والاستانة . بينما كان التجار من الصنف الاول يتحملون مصروفات اضافية في الشحن والنقل والتأمين ، كان كبار التجار من الصنف الثاني يحققون وفراً في هذه التكاليف (٩٣) .

لقد أصبحت الموصل – شأنها في ذلك شأن معظم الولايات العثمانية – سوقاً لترويج البضائع الاوربية . وتحولت مدن الولاية الرئيسة : الموصل ، كركوك ، السليمانية إلى مراكز للمعاملات التجارية بصورة خاصة . فاتسعت عمليات تبادل المنتجات الزراعية بين المناطق المختلفة من الولاية . وقد تمثلت مراكز التجارة في السليمانية وكركوك والتون كوبري ، وخاصة فيما يتعلق بالمنتجات الزراعية والحيوانات الحية . واتسعت صادرات المنطقة لتشمل التبغ والصوف والصمغ ومن السماء والكثيراء والاغنام والماشية (٩٤) واخذت هذه المواد طريقها بكميات كبيرة الى بغداد ثم إلى اوربا . ويعتبر التبغ المادة الرئيسية في التصدير ، وقد بلغت قيمة صادرات السليمانية منه – على سبيل المثال – سنة ١٩١٣ (٢٠) الف ليرة عثمانية (٩٥). كما اخذت القبائل الرحل ، تعرض في اسواق الموصل اعداداً كبيرة من الاغنام والمواشي ، وقد قدر ماارسلته الموصل من

---

(٩٣) محمد سلمان حسن ، المصدر السابق ، ص ٢٥٥ .

(٩٤) Report on the Sulaimania District of Kurdistan by M.E.B. Soan, (Culcutta, 1918), PP. 96—97.

(٩٥) ابراهيم حلمي العمر « السليمانية » مجلة لغة العرب ، ج٤ ، السنة ٣ ، تشرين الاول ١٩١٣ ، بغداد ١٩١٣ ، ص ١٩١ .

الاغنام إلى سوريا سنة ١٩٠٨ حوالي (١٠٠,٠٠٠) رأس من الغنم خمنت قيمتها ، ﺑ(٨٠,٠٠٠) جنيه استرليني (٩٦) .

وبلغت قيمة صادرات الموصل من الجلود في سنة ١٩٠٩ (٤٠٠٠) جنيه استرليني وفي سنة ١٩١٠ (٥٠٠٠) جنيه استرليني . وبلغت قيمة صادرات الموصل من الماشية سنة ١٩٠٩ (٢٥٠٠٠) جنيه استرليني وفي سنة ١٩١٠(٣٠٠٠) جنيه استرليني .

ومن الفرو سنة ١٩٠٩ (٢٥٠٠) جنيه استرليني وفي سنة ١٩١٠ (٣٠٠٠) جنيه استرليني

وبلغت قيمة صادرات الموصل من العفص سنة ١٩٠٩ (٥٠٠٠) جنيه استرليني (٩٧). اما قيمة صادرات الموصل من الماعز ، قدرت قيمتها في مطلع القرن العشرين بما يتراوح بين ٣٠,٠٠٠ — ٨٠,٠٠٠ جنيه استرليني (٩٨). كذلك اشتملت صادرات الموصل على الجمال وقد قدر عدد ما صدر منها في اواخر القرن التاسع عشر بحوالي (٢٠٠٠) رأس سنوياً (٩٩).

كما كانت خيول الموصل من اجود الخيول العربية ،وكانت تجارتها رائجة في الهند بصورة خاصة (١٠٠) . وقد برز من اهالي الموصل من يتخصص في تجارة الخيول بين الموصل والهند. ومن هؤلاء الحاج علي الطالب وجارالله الطالب وغيرهم (١٠١). وعلى الرغم من ان تجارة المنتجات الزراعية في المناطق القريبة من المدن ، قد نشطت ايضاً ، الا ان التجارة الخارجية احتلت المنزلة الاولى في العمليات التجارية .

ومما يدل على خضوع التجارة للسيطرة المباشرة لرؤوس الاموال الاجنبية ، هو ان كل ما ارسل من المرعز إلى بغداد والموصل ارسل به إلى لندن والولايات المتحدة ولم يبع منه شيء في العراق (١٠٢) .

---

(٩٦) A Handbook of Mesopotamia, Vol,1,P 223.

(٩٧) Report on the Trade of the Wilayet of Mosul, 1912—1913, P.7.

(٩٨) كوتلوف ، المصدر السابق ، ص ٩١

(٩٩) جاسم محمد حسن ، المصدر السابق .

(١٠٠) داؤد الجلبي « مكانة الموصل في الاقتصاديات العامة » مجلة غرفة تجارة بغداد ، العدد ٨ السنة ٤ ، ٨ تشرين الاول ، بغداد ١٩٤١ ، ص ٥٩٧ . كما ورد في الفياض ، الثورة العراقية ، ص ٣٥ .

(١٠١) سليمان فيضي ، في غمرة النضال ، نشر عبد الحميد سليمان فيضي (بغداد، ١٩٥٢) ، ص ١٤١ .

(١٠٢) أنستاس الكرملي « الزراعة والتجارة في العراق سنة ١٩٠٣ » مجلة غرفة تجارة بغداد ، العدد ٨ ، السنة ٤ ، تشرين الاول ، بغداد ، ١٩٤١ ، ص ٦٥٢ كما ورد في الفياض ، الثورة العراقية ، ص ٣٥

لقد ادى ازدياد الطلب على المنتوجات الزراعية والحيوانية نتيجة الاندماج بالسوق الرأسمالية العالمية إلى ازدياد الاستغلال الاقطاعي والخروج من الانتاج الطبيعي ،ودخول النقد كعامل حاسم في تنظيم العلاقات الاقتصادية . كما ان موجة البضائع الاوربية الرخيصة التي غزت الاسواق ادت إلى تدهور الصناعات الحرفية القديمة فكان لابد للصناعة المحلية وخاصة صناعة النسيج من ان تتطور او تضمحل (١٠٣) وتتلاشى تدريجياً(١٠٤) وقد اخذت انوال النسيج في الموصل تتقلص (١٠٥) .

لم تجر محاولة جدية من الحكومة العثمانية لمواجهة الخطر الاوربي المتمثل بالتغلغل الرأسمالي ، لذلك اكتسحت الثورة الصناعية الاوربية الاسواق ، ولم يبق في البلاد الا آثار من الصناعات الموروثة (١٠٦) .

لقد شهدت تلك الفترة ظهور فئات برجوازية اصبح لها شركاتها التجارية ، وقد عملت هذه الفئات على تنظيم نفسها داخل ماسمي « تجارت اورطه سي» اى غرفة التجارة (١٠٧). فقدوردت إشارات كثيرة إلى وجود هذه الغرفة منذ سنة ١٨٩٤ .وكانت لغرفة التجارة والزراعة في الموصل(١٠٨) في هذه السنة رئيسان هما حاج امين افندي و محمد جلبي الصابونجي (١٠٩).

(١٠٣) ذكر محمد سلمان حسن على الصفحة (٢٨٣) من كتابه «التطور الاقتصادي في العراق» ان عدد حائكي الانوال اليدوية في الموصل سنة ١٩١١ هبط الى (٥٠٠) حائك .

(١٠٤) اشار محمد جميل بيهم على الصفحة (٣٩) من كتابه : العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب (بيروت ، ١٩٥٧) ان الموصل كانت من مراكز انتاج المنسوجات وكان فيها في اواخر القرن الثالث عشر (٩٠٨) دور للحياكة وان عدد الانوال فيها كانت تبلغ (٧٥٠٠٠) نول .

(١٠٥) لم يمنع تدهور صناعة النسيج في الموصل دون تصدير بعض منتجاتها ولكن بنطاق ضيق . فعلى سبيل المثال بلغت قيمة صادرات الموصل من العباءات الصوفية في سنة ١٩٠٩ (٥٠٠) جنيه استرليني ومن الازارات في السنة ذاتها بما قيمته (١٨٠٠) جنيه استرليني انظر :
Report on the Trade of the wilayet of Mosul, 1912-13,P.7.

(١٠٦) الدوري ، المصدر السابق ص١٣٨ .

(١٠٧) موصل ولايتي ، سالنامه رسميسيدر ، ١٣١٢هـ، ص ٥٢ وقد حدثني حمدي جلميران ، وهو احد تجار الموصل في مقابلة معه بتاريخ ٢٠ / ٩/ ١٩٧٣ انه كانت هناك جمعية بأسم جمعية التجارة والزراعة في الموصل قبل الحرب العالمية الاولى ، وان الحاج حسين حديد كان يرأس هذه الجمعية .

(١٠٨) يشير محمد سلمان حسن على الصفحة (٤٦٢) : التطور الاقتصادي في العراق ، ج ١ ، الى أن طلائع تأسيس غرفة تجارة الموصل ترجع الى الفترة ١٨٨٠ — ١٨٨٤ .

(١٠٩) موصل ولايتي ، ، سالنامه رسميسيدر ١٣١٢ هـ ، ص ٥٢

وسيتضح تأثير هذه الفئات ، على احداث الموصل في الفترة اللاحقة ، خاصة إذا ما علمنا ان هذه الفئات تسعى للسيطرة على السلطة السياسية، واقامة نظام حكم مركزي وتخليص السوق الوطنية — لمصلحتها — من ايدي الرأسمالية الاجنبية وذلك بتبنيها للافكار القومية . *

وسيتضح كذلك ان هذه الفئات البرجوازية الجديدة تعمل على ان تزيد من وزنها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وسوف يبرز تعاونها الوثيق كذلك مع الاوساط الاقطاعية المحلية . وقد ظهر واضحاً — فيما بعد — ان العوائد الاقتصادية في الموصل حتى الحرب العالمية الاولى ظلت مقتصرة — كما يقول احد المطلعين — على «عوائل قليلة العدد، كثيرة المال » (١١٠) تسيطر على التجارة الداخلية والخارجية ومن هؤلاء آل الجادر وآل الصابونجي . كما حظيت هذه الفئات إلى جانب السيطرة الاقتصادية، . بنفوذ سياسي وإلى شيء من هذا القبيل يشير لونكرك (١١١) فيقول : « إن آل الجلبي وآل العمري وآل خياط في الموصل وآل بابان في السليمانية استطاعوا ان يحافظوا على وضعهم الممتاز في مضمار السيادة والنفوذ حتى في فترة الاحتلال البريطاني .

* يجدر الاشارة هنا الى ان الطبقة العاملة كانت في هذه المرحلة في دور التكوين ، كما انها لم تكن منظمة لذلك لم يكن لها اي دور في حياة المجتمع آنذاك .

(١١٠) عبد الرحمن صالح ،كتاب العمر ، مذكرات شخصية غير منشورة ، الورقة ، ٨٠ .

(١١١) S. H. Longrigg, Iraq, 1900 to 1950, (Eeirut, 1968), P. 47.

المصادر والمراجع

أ) الوثائق الرسمية غير المنشورة :

(١) وثائق دائرة السجلات العامة في لندن

Great Britain Forgien Office, British Parliamentary Papers, Roports on the Trade of the Wilayet of Mosul, Vol, LXXIX 1889-1885: and Vol, C. 1912-1913

نسخة مصورة محفوظة في المكتبة المركزية التابعة لجامعة بغداد .

(٢) وثائق المركز الوطني لحفظ الوثائق والمشار اليه : م.ح.و.

أ ــ ملفات وزارة الداخلية ، ملفة شؤون عامة دهوك رقم C/20/B تسلسل ١٧٧.

ب ــ ملفات البلاط الملكي ، ملفة قضية الموصل رقم ٥/٤/١

(٣) دائرة اوراق متصرفية لواء الموصل (محافظة نينوى)

أ ــ ملفة رقم ٧/٤/٣/٢

ب) الوثائق المنشورة :

(١) التقارير والوثائق البريطانية :

British Government,Reports of Administration For 1918 of Division and Districts of the Occupied Territores in Mesopotamia, VoI, I.

Great Britain, India Office, Review of the Civil Administaration of Mesopotamia, 1914-1920, By Gerttnde Bell, (London, 1920) Cmd .1061.

Great Britain, Admiralty Inteeligence Department, A Handbook of Mesopotamia,Vol;1; (London , 1918).

التركية :

موصل ولايتي ، سالنامه رسميسيدر ، ١٣١٢(١٨٩٤) (موصل ١٣١٢)

الرسائل الجامعية غير المنشورة :

الجواهري ، عماد احمد ، تاريخ مشكلة الاراضي في العراق ١٩١٤ ــ ١٩٣٢، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة بغداد ، ايار ١٩٧٥ .

حسن ، جاسم محمد، العراق في العهد الحميدي ، رسالة ماجستير قدمت لجامعة بغداد ايار ١٩٧٥ ، غير منشورة .

وثائق عصبة الامم :

عصبة الأمم ، مسألة الحدود بين تركيا والعراق ، (بغداد ، ١٩٢٤) .

الكتب العربية والمترجمة :

بيهم ، محمد جميل ، العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ، (بيروت، ١٩٥٧)

جول ، اسماعيل بك ، اليزيدية قديماً وحديثاً ، نشر قسطنطين زريق ، (بيروت ، ١٩٣٤).

حسن ، محمد سلمان ، التطور الاقتصادي في العراق ١٨٦٤ – ١٩٥٨، ج١ ، (صيدا – بيروت ، ١٩٦٥).

خدوري ، مجيد ، أسباب الاحتلال البريطاني للعراق ، (الموصل ١٩٣٣) .

الدملوجي ، صديق ، امارة بهدينان ، (الموصل ، ١٩٥٢) .

الدوري ، عبد العزيز ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، (بيروت ، ١٩٦٩) .

رؤوف ، عماد عبدالسلام ، الموصل في العهد العثماني ، (النجف ، ١٩٧٥) .

صالح ، عبدالرحمن ، كتاب العمر ، مذكرات خطية غير منشورة .

الصوفي ، أحمد علي ، تاريخ المحاكم والنظم الادارية في الموصل (الموصل ، ١٩٤٩)

صايغ ، سليمان ، تاريخ الموصل ، ج١ (القاهرة ، ١٩٢٣) .

الضابط ، شاكر صابر ، موجز تاريخ التركمان ، ج١ ، (بغداد ، ١٩٦٠) .

الطالباني ، مكرم ، ابراهيم خان ثائر في كردستان ، (بغداد ، ١٩٧١) .

الطاهر ، عبد الجليل ، البدو والعشائر في البلاد العربية ، (بغداد ، ١٩٥٤) .

العزاوي ، عباس ، تاريخ العراق بين احتلالين ، ج٧ ، (بغداد ، ١٩٥٦) .

العمري، محمد طاهر ، تاريخ مقدرات العراق السياسية ، ج٣ ، (بغداد ، ١٩٢٥) .

الفياض ، عبدالله ، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠ ، (بغداد ١٩٦٣) .

فيضي ، سليمان ، في غمرة النضال ، نشر عبدالحميد سليمان فيضي ، (بغداد ١٩٥٢) .

كوتلوف ، ل ، ن ، ثورة العشرين الوطنية التحررية ، ترجمه عن الروسية عبدالواحد كرم ، (بغداد ، ١٩٧١) .

نوار ، عبدالعزيز سليمان، تاريخ العراق الحديث ، (القاهرة ، ١٩٦٨) .

نيكيتين ، باسيل ، الأكراد ، الترجمة العربية ، (بيروت ، ١٩٦٧) .

وارنر ، دورين، الأرض والفقر في الشرق الأوسط ، ترجمة حسن احمد السلمان ، (القاهرة ، ١٩٥٠) .

الكتب الاجنبية

Longrigg, S.H., Four Centuries of Modern Iraq ,(Beirut, 1968).
Iraq, 1900 to 1950, (Beirut, 1968).
Jamal M.F, The New Iraq Its problem of Bedoun Education, (New York, 1934).
Soan, E.B., To Mesopotamia and Kurdistan in Disguise,(London 1926).
Edmonds, G.J., Kurd, Turk and Arabs (London, 1957).
Stevens, E.S., By Tigris and Eughrates, (London 1923).
Wigram, W.A and T.A., The Cardle of Mankind, (London 1914).
Jawad, Hashim, The Social Stucture of Iraq, (Jerusalem , 1945).

عبد الواحد الرمضاني

التأثيرات الأجنبية

على السكة النحاسية الموجودة في مركز البحوث الآثارية والحضارية في جامعة الموصل

* مقدمة :

يضم مركز البحوث الاثارية والحضارية لجامعة الموصل طائفة من النقود النحاسية الاتابكية (غير المدروسة) والتي اكتشف قسم منها في التنقيبات الاثارية التي اجرتها جامعة الموصل في منطقة باشطابية او وصل مركز البحوث عن طريق الشراء او الاهداء .

وهذا البحث يحوي دراسة تحليلية دقيقة للمسكوكات الاتابكية النحاسية ذات الصور المتأثرة بالتأثيرات الاجنبية .

وقد مهدت لبحثي هذا بمقدمة عن الدولة الاتابكية بفروعها المختلفة وببحث موجز عن التصوير في الاسلام ومختلف الاراء التي قيلت فيه . ولقد كان التطور الزمني لمسار السكة النحاسية الاتابكية (الفلوس) هو الاساس الذي ارتكزت في طريقة بحثي لها ، فقد تضمن دراسة نصوص كتاباتها واماكن ضربها واسماء امرائها وسني حكمهم كما تضمن وزن جميع هذه القطع النقدية وقياس اقطارها . واوضحت هذا كله في جدول زمني يحوي ارقامها في مركز البحوث الاثارية ، الذين قاموا بسكها .

وقد قمت بدراسة تصاوير هذه النقود الاتابكية دراسة تحليلية شاملة اوضحت مختلف التأثيرات الاجنبية التي وقعت على صورها مبيناً اصولها اليونانية او الساسانية او العراقية القديمة او الحيثية) وقد جئت بأمثلة لها من مختلف التحف الاثرية لهذه العصور التاريخية سواء كانت نقوداً معدنية تتصل من حيث مادتها اساساً بموضوع بحثي او كانت تحفاً معدنية كالميداليات الفضية او الاواني الخزفية او النصب التذكارية .

وقد شملت دراستي للتصاوير هيئات الاشخاص الادمية المصورة وحالاتها من حيث طريقة جلوسها او اتجاهاتها ومن حيث الملابس والاردية واغطية الرؤوس والعصائب والاكاليل التاج والشعر المسترسلة او الملفرقة او السوالف .

كما قمت بدراسة الحيوان الخرافي (النسر ذو الرأسين) واصوله الحقيقية والذي جاءت صورته على بعض تحف الدول الاسلامية الاخرى خلاف الاتابكية .

واتماماً للفائدة فقد ألحقت بالبحث لوحات تحليلية دقيقة وواضحة لمختلف السكة التي جاءت في هذا البحث ، واتبعت هذا بنماذج من صور العملة الاتابكية المدروسة .

• الاتابكة :

اتابكة كلمة تركية مركبة من (اتا) ومعناها اب و(بك) ومعناها سيد او امير ، وكانت تطلق اصلا على مؤدب الامراء الاتراك الذين كانت تربيتهم تعهد الى بعض الامراء البارزين ايام السلاجقة ومن ثم اصبح لفظاً ثابتاً يطلق على الامراء الاقوياء (١) .

واول من تلقب بهذا اللقب هو الوزير نظام الملك حين فوض اليه ملكشاه بن الب ارسلان . السلجوقي في تدبير المملكة في سنة ٤٦٥ هـ .

وظهور الاتابكيات هذه هي مظهر من مظاهر الحكم السلجوقي في العالم الاسلامي كنظام اقطاعي ابتدعوه وأصبح عنصراً هاماً من نظمهم السياسية والاجتماعية (٢) .

وادى هذا النظام الى انقسام الدولة السلجوقية الى دويلات متناثرة اضاعت هيبة الخلافة العباسية وسمعتها مما اثار بعض هؤلاء الخلفاء لاسترداد بعض سلطاتهم المهضومة . كما ادى هذا الانقسام الى اتاحة الفرصة للصليبيين لشن حروبهم على البلاد الاسلامية فضلا عن المغول (٣) حيث سقطت بغداد عام ٦٥٦ هـ – ١٢٥٨م .

ومن اشهر الاتابكيات في العالم السلجوقي هي :

اتابكية الموصل اسسها عماد الدين زنكي في سنة ٥٢١ – ٦٣١هـ

اتابكية خوارزم ٤٩٠ – ٦٢٨هـ

اتابكية دمشق ٤٩٧ – ٥٤٩هـ

اتابكية ارمينية ٤٩٣ – ٦٠٤ هـ

اتابكية اذربيجان ٥٣١ – ٦٢٢ هـ

اتابكية فارس ٥٤٣ – ٦٨٦ هـ

اتابكية الجزيرة ٧٥٦ – ٦٤٨ هـ (٤)

---

(١) احمد الستناوي ورفقاؤه / دائرة المعارف الاسلامية مجلد اول عدد (١) ، سنة ١٩٣٣ ص٤٢٣

(٢) رشيد الجميلي / الدولة الاتابكية في الموصل بعد عماد الدين زنكي / الطبعة الاولى دار النهضة العربية بيروت ص ٢٧ ، ١٩٧٠ .

(٣) استانلي لين بول / طبقات سلاطين الاسلام / ترجمه للفارسية عباس اقبال وترجمه للعربية مكي طاهر الكعبي منشورات البصري ١٩٦٨ ، ص ١٤٩ .

(٤) انظر رشيد الجميلي / نفس المصدر السابق ص ٢٩ – ٣٠
وانظر استانلي لين بول / نفس المصدر السابق ص ١٥٤ .

يلاحظ ان مايميز نقود هذا البحث هو التصاوير المضروبة عليها ، والحقيقة فان موضوع التصوير في الاسلام موضوع تعرض له الكثيرون (١)فمنهم من حرمه وكرهه واستباح مسحه واتلافه ومنهم من حلله واباحه مستنداً الى تداول الرسول صلى الله عليه وسلم بالسكة ذات الصور .ولقد كان الاعتراض متأتياً من الصحابة الذين وصلتهم هذه النقود المصورة زمن عبدالملك بن مروان ٦٥– ٨٦هـ «فلم ينكروا منها سوى نقشها فان فيها صورة » (٢) فلقد كان عبدالملك بن مروان أول من نقش صورته على النقود الاسلامية رغبة في ان لايجد الناس فرقاً عظيماً بينها وبين سائر العملة البيزنطية المتداولة والتي نقش عليها صورة امبراطور بيزنطة (٣) .

(١) المقريزي. نشر الاب انستاس الكرملي في كتابه (النقود العربية) الجزء الخاص بالنقود من كتاب المقريزي (النقود القديمة الاسلامية) القاهرة ١٩٣٩ . ص٣٤ .

– احمد تيمور باشا – التصوير عند العرب / اخرجه وزاد عليه د.زكي محمد حسن، القاهرة / مطبعة لجنة التأليف والنشر والترجمة سنة ١٩٤٢ص١١٧وما بعدها .

– حسن الباشا /التصوير الاسلامي في العصور الوسطى /مكتبة النهضة – القاهرة سنة ١٩٥٩/ ص ١٧ .

– محمدكرد علي /خطط الشام / طبع في مطبعة الترقي بدمشق ، سنة ١٣٤٥هـ – ١٩٢٦م، ج٤ ،ص١١٤

–Creswell: E.M.A. Vol. 1: P 270.

–T. Arnold : Painting in Islam note IP.11. etc .

Lane - Poole, S, The Coins of the Urtukis, in Marsden Numismatic Chronicle . P.I

كما تعرض له الدكتور عبد الرحمن فهمي في جميع كتبه وابحاثه تقريباً انظر مثلا :

فجر السكة العربية / القاهرة / ١٩٦٥ .

النقود العربية ماضيها وحاضرها / المكتبة الثقافية العدد (١٠٣) .

التصوير الأسلامي على المسكوكات (فصلة مطبوعة في محاضراته لطلبة الدراسات العليا ١٩٧١).

وقد حذا حذوه تلميذه محمد باقر الحسيني في كتابه :

العملة الاسلامية في العهد الأتابكي، مطبعة الجاحظ / بغداد ١٣٨٦هـ– ١٩٦٦م

تطور النقود العربية الاسلامية، مطبعة الجاحظ / بغداد / ١٩٦٩ .

وانظر كذلك عيسى سليمان / المسكوكات المصورة / مجلة المسكوكات / مديرية الآثار العامة / بغداد / عدد (٢) .

(٢) المقريزي – الكرملي – ص٣٤

(٣) احمد تيمور – التصوير عند العرب، ص ١٢٥

والحق فقد اختلف الباحثون في هذا الموضوع وتعرضوا له بشكل مستفيض وانقسموا بين من حرمه وكره وجوده وبين راض ومحلل في ابحاثه تأسيا بالرسول العظيم حين تداول العملة البيزنطية والساسانية المصورة ولم ينكرها .

ويشير أحد الباحثين ان كراهية السكة المصورة (لم تكن حقيقة قائمة) (١) بعد ان تداول بها الرسول وبعد ان قامت كافة الدول الاسلامية التي حكمت العالم الاسلامي بسكها منذ الدولة الاموية وحتى نهاية الدولة العباسية مروراً بالامارات والدويلات الاسلامية المنتشرة في انحاء العالم الاسلامي .

ولقد كانت الدولة الاتابكية (موضوع بحثنا) قد نحت هذا النحو وضربت سكتها مصورة بمختلف التصاوير الآدمية والحيوانية والزخرفية وكان حالها هذا حال مختلف الدول الاسلامية الأخرى ، الا ان مايجلب الانتباه في هذه السكة الاتابكية المصورة هو التشابه التام تقريباً بينها وبين السكة اليونانية ....
في سحن الوجوه البشرية بشكل خاص وطاقيات وقلانس الرؤوس وأوراق الغار والاردية بشكل عام وقد يكون هذا بسبب العلاقات التي كانت قائمة بين الدولة الاتابكية والبيزنطيين وارثي الحضارة اليونانية القديمة فضلا عن جلب الاتابكة مجموعة من ضرابي الدولة البيزنطية وفنانيها ليقرموا بسك نقودهم داخل دور السك الاسلامية (٢) أو مجيئهم فيما بعد أثناء الحروب الصليبية .

ولم تقتصر التأثيرات اليونانية على السكة الاتابكية فحسب بل هناك تأثيرات عراقية قديمة وفرعونية وساسانية والتي ظهرت في طريقة الجلوس المربعة والطواقي والقلانس والمدبية والشعر المسدلة والعصابات وأربطة الرؤوس والدوائر ذات الحبيبات وعقود اللؤلؤ والملائكة المجنحة (٣)

---

(١) عبد الرحمن فهمي — فجر السكة العربية ص٤٤
(٢) محمد باقر الحسيني — العملة الاسلامية في العهد الاتابكي ص٤٠
(٣) سنتطرق الى ذلك في تحليل التصاوير على النقود، في البحث

وكان هذا متأتياً من امتزاج بقايا الحضارات القديمة بالحضارة الساسانية وامتزاج هذا كله بالحضارة العربية الاسلامية بعد الفتوحات والتي برزت سماتها على العمارة والفنون الاسلامية ومنها السكة ، وفضلا على هذه التأثيرات فثمة تأثيرات حقيقية أيضاً ظهرت واضحة في بعض هذه النقود وخاصة الحيوان الخرافي « النسر ذو الرأسين » كما سنلاحظ في نماذج السكة في هذا البحث .

كما لابد من الاشارة الى الخط العربي الذي عرفه المسلمون وتفننوا وأبدعوا في رسمه فقد عرفوا الخط الكوفي (١) بأنواعه ، كما عرفوا الخطوط العربية المدورة (٢) .

ه اتابكة الموصل

قطب الدين مودود ٥٤٤ — ٥٦٥ ه

١١٤٥ — ١١٦١م

فلس نحاسي

رقم التسلسل (١)

رقم القطعة ١٢س

نوع المعدن نحاس

---

(١) ومن انواع الخط الكوفي:

أ — الكوفي البدائي أو البسيط

ب — الكوفي ذو النهايات المتطورة

جـ — الكوفي المخمل أو الكوفي ذي الارضية النباتية « وهو الذي تستقر فيه الكتابة فوق أرضية من السيقان النباتية » .

د — الكوفي المزهر

هـ — الكوفي المظفور

و — الكوفي المعماري

ز — الكوفي المربع .

انظر احمد قاسم الجمعة / محاريب مساجد الموصل الى نهاية حكم الاتابكة ٦٦٠هـ « رسالة ماجستير » ١٩٧١ص٤١ رقم القيد ١٤٠٦٦٢/ المكتبة المركزية لجامعة الموصل .

وانظر محمد باقر الحسيني / نقود السلاجقة / رسالة دكتوراه ١٩٦٨،ص٢٢٣ رقم القيد ٦٢٧ مكتبة جامعة القاهرة .

وهي خط النسخ والثلث والرقعة والريحاني والديواني والمغربي ، وقد برع الايرانيون في خط التعليق والتسليق .

(٢) انظر زكي محمد حسن / فنون الاسلام / الطبعة الاولى / القاهرة ، ١٩٤٨،ص٢٣٧

القطر بالمليمتر	٣٨ مليمتر
الوزن بالغرام	١٧٥ر١٣غم
سنة الضرب	٥٥٥ هـ
مكان الضرب	الجزيرة ؟

الوجه

المركز :

صورة رأس لشخص مقابل يعتمر اكليلا من الغار وفوق رأسه ملكان مجنحان طائران .

الهامش :

هامش كتابي دائري يدور عكس عقرب الساعة نصها :......

من اليمين وخمسة

من اليسار خمس و .....

الظهر :

المركز : كتابة من خمسة اسطر متوازية نصها :

بن زنكي بن

الملك العادل (١)

العالم ملك أميرا

الشرق والغرب

طغر لتكين اتابك

وصورة النقد ذات تأثيرات يونانية واضحة فالشبه واضح بين هذا النقد الذي ضرب في القرن السادس الهجري وبين تلك النقود التي ضربت قبل الاسلام في بلاد اليونان من حيث صورة الوجه والشعر المسدل على الوجه (٢) ، أما الملكان المجنحان الطائران

(١) من القاب القطب الدين مودود .
انظر محمد باقر / العملة الاسلامية في العهد الاتابكي ص ١٧٧

(٢) نفس المصدر السابق ص ٩٨

فهي تأثيرات ساسانية ، فقد نقشت هذه الصور على بعض كهوف طاق بستان في ايران في القرن السابع الميلادي (١) .



لوحة رقم (١)

وجه



ظهر



شكل رقم (١)

(١) Gardener(E .A.) The Art of Greece PL.42No.12(London)1925
Pope (A.U.) The Artchitecture of the Islamic Period in Survey of Persian Art Vol. V. PL 515 New York 1939.

انظر لوحة رقم (١)
وانظر شكل رقم (١)

أتابكة الموصل

سيف الدين غازي الثاني

٥٦٥ — ٥٧٦ هـ

١١٦٩ — ١١٨٠ م

فلس نحاسي

رقم التسلسل	(٢)
رقم القطعة	٤٥ س
نوع المعدن	نحاس
القطر بالمليمتر	٣٤ مليمتر
الوزن بالغرام	١٢و٨١٥ غم
سنة الضرب	٥٦٦ هـ
مكان الضرب	(الجزيرة) ؟

الوجه

المركز :

صورة رأس لشخص مقابل يعتمر اكليلا من الغار وفوق رأسه ملكان مجنحان طائران :

الهامش

متابعة دائرية تدور عكس عقرب الساعة نصها :

على اليمين و (خمسماية)

على الشمال سنة ست (وستين)

الظهر

المركز :

كتابة من خمسة أسطر متوازية نصها :

غازي (بن) (١)

---

(١) من القاب سيف الدين غازي الثاني

انظر باقر الحسيني / نفس المصدر السابق ص١٧٧

الملك العادل

(مودود)

العالم ملك امر (١)

الشرق والغر(ب)

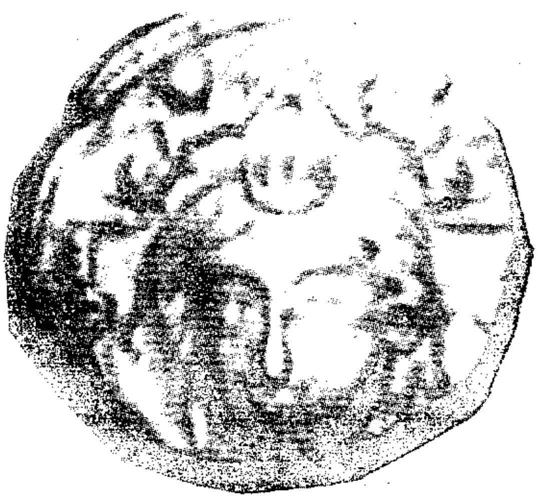
طغر لتكين آتابك

وصورة النقد والتأثيرات مشابه للعملة السابقة رقم (١) تماماً :



لوحة رقم (٢)

وجه — ظهر





شكل رقم (٢)

انظر لوحة رقم (٢)

انظر شكل رقم (٢)

• **أتابكة الجزيرة**

معز الدين سنجر شاه

٥٧٦ — ٦٠٥ هـ   ١١٨٠ — ١٢٠٨ م

فلس نحاسي

رقم التسلسل	(٣)
رقم القطعة	٥٧ مس
نوع المعدن	نحاس
القطعة بالمليمتر	٤٠ مليمتر
الوزن بالغرام	١٥/١٥٠ غم
سنة الضرب	٥٨٤ هـ
مكان الضرب	(لايوجد على النقد مكان الضرب وقد تكون ضربت في الجزيرة بمقارنتها مع قطع أخرى مشابهة)

الوجه

المركز

صورة لوجه انسان مقابل يكلل رأسه بأوراق شجرة الغار .

الهامش

كتابة دائرية تحيط الصورة ، تدور عكس عقرب الساعة نصها : الملك (١) المظفر (سنجر شاه بن) غازي

الظهر :

المركز :

كتابة مركزية من خمسة سطور نصها :

سنة اربع (٢)

(خمسمائة) الناصر لدين (الله)

أمير المؤمنين

الملك (النا) صر (٣) (وثمانين)

يوسف (بن ايو) ب

---

(١) من القاب معز الدين سنجر الشاه .
محمد باقر الحسيني / نفس المصدر السابق ص١٨٣ .

(٢) وهو الخليفة العباسي ابو العباس احمد بن المستضيء ٥٧٥ — ٦٢٢هـ
محمد باقر الحسيني / نفس المصدر السابق ص١٩١

(٣) وهو الملك صلاح الدين يوسف (ايوبي) ٥٦٤ — ٥٨٩هـ
محمد باقر الحسيني / نفس المصدر السابق ص١٩٠ .

والسكة هذه ذات تأثيرات يونانية واضحة فنشاهد مثلاً صورة على سكة يونانية تمثل رأس اله الشمس (هيليوس) بشكل مواجه يكلل هامته اكليل من الغار مشابه لهذه العملة تماماً (١)



لوحة رقم (٣)

وجه　　　　ظهر



شكل رقم (٣)

I S.a

I; See by (H.A) Greck Coins and their Values. 2nd.Ed. No. 1808 A.P. 140 London 1960.

انظر لوحة رقم (٣)

انظر شكل رقم (٣)

كما نشاهد شبه هذه الصورة على نقد يوناني آخر يمثل رأس الاله (ابولو) (١)

أتابكة سنجار

قطب الدين محمد ٥٩٤ — ٦١٦ هـ

١١٩٧ — ١١٩٨ م

فلس نحاسي

رقم التسلسل	٤
رقم القطعة	٥٣ مس
ع المعدن	نحاس
القطر بالمليمتر	٣٨ مليمتر
الوزن بالغرام	١٢٫٨٦٥ غم
سنة الضرب	٦٠٠ هـ
مكان الضرب	سنجار

الوجه

المركز :

صورة الحيوان الخرافي (النسر ذو الرأسين) وهو ناشر جناحيه .

الهامش :

هامش كتابي دائري محصور بين دائرتين تحيطان الحيوان الخرافي في مركز العملة وهو يدور عكس اتجاه عقرب الساعة نصه :

(الملك المنصور قطب) الدنيا والدين محمد بن زنكي بن مودود (ولي عهده سنجر شاه نوح) .

(١) : Gardener: OP. Cit, PL. 11 No. 2.

الظهر :

المركز :

كتابة مركزية من سبعة سطور متوازية نصها :

(ستة)
الامام النصر (١)
لدين الله (امير)
المؤمنين) الملك (٢)
العادل سيف
الدين أبو بكر
بن (ايوب)

(سنجر شاه) (سنجار)

والتأثيرات الأجنبية على هذا النقد تتمثل بصورة الحيوان الخرافي (النسر ذو الرأسين). والحيوانات الخرافية والمركبة استعملت في فنون شعوب العالم السابقة للاسلام كالفن السومري والبابلي والفينيقي والحبشي والفرعوني والاغريقي والروماني والبيزنطي والساساني (٣) ، كما شاعت على معظم المخلفات الاسلامية كالعمائر والفخار والخزف والمخطوطات والمعادن والنسيج (٤).

أما (النسر ذو الرأسين) فقد استعمل كذلك في مختلف الدول الاسلامية فقد استعمله الايوبيون (٥)، والمماليك (٦) في أوانيهم الخزفية الملونة كما استعمل كزخرفة محفورة أيضاً على أحد أبراج قلعة أحد الاسلامية (٧).

(١) هو الخليفة العباسي احمد بن المستضيء ٥٧٥ — ٦٢٢هـ

(٢) ان ورود اسم الملك الايوبي هذا على هذه القطعة هو دخول قطب الدين محمد اتابك سنجار في طاعة الايوبيين سنة ٦٠٠هـ — ١٢٠٣م .
انظر محمد باقر الحسيني / نفس المصدر السابق ص١٣٢ .

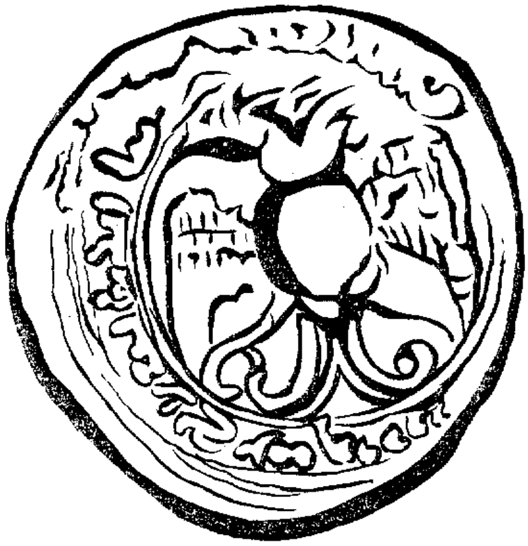
(٣) الدكتور احمد قاسم الجمعة / الآثار الرخامية في الموصل خلال العهدين الاتابكي والايلخاني/ رسالة دكتوراه ١٩٧٥ المجلد الاول ، ص ١٤١ رقم القيد ج ٥٥٢ المكتبة المركزية / جامعة الموصل

(٤) الدكتور احمد قاسم الجمعة / نفس المصدر السابق ص١٤٠ .

(٥) Fantastic Fauna/ Cleves Stead
Pl 115. fig 111 March / Cairo 1935

(٦) Ibid ; Pl. 112, 113 fig 1,2.

(٧) Berchem / Max Van / Amida
PL. XIX
No. 30 / Paris 1910



لوحة رقم (٤)

وجه ظهر



شكل رقم (٤)

انظر لوحة رقم (٤)
انظر شكل رقم (٤)

أتابكة سنجار

عماد الدين زنكي بن مودود

٥٦٦ – ٥٩٤هـ

١١٧٠ – ١١٩٧ م

فلس نحاسي

رقم التسلسل	٥	
رقم القطعة	؟	
نوع المعدن	نحاس	
القطر بالمليمتر	٣٠ مليمتر	
الوزن بالغرام	١٥٠ / ٥ غم	
سنة الضرب	؟	
مكان الضرب	؟	(لايوجد على النقد مكان الضرب وقد تكون ضربت في سنجار بمقارنتها مع قطع أخرى)

الوجه

المركز

صورة الحيوان الخرافي (النسر ذو الرأسين) وهو ناشر جناحيه .

الهامش

كتابة هامشية تدور عكس اتجاه عقرب الساعة نصها :

نظراً لتلف القطعة فلا يظهر من الهامش سوى كلمة واحدة فقط (الدين)

الظهر

كتابة مركزية من خمسة سطور نصها :

(بن زنكي)
(   ) العادل (١)
العالم عماد
الدنيا والدين
زنكي بن
(مودود)

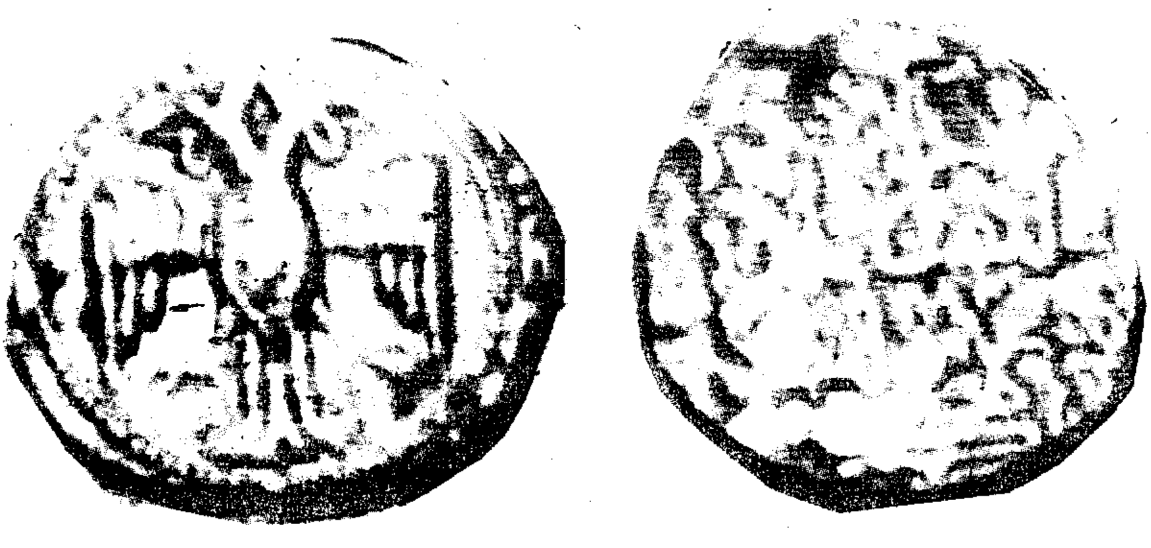
والتأثيرات الأجنبية على هذا النقد مشابهة للقطعة السابقة (٤) في مضمونها .



لوحة رقم(٥)

وجه

ظهر



شكل رقم (٥)

---

(١) وهي من القاب عماد الدين زنكي بن مودود
انظر لوحة رقم (٥)
انظر شكل رقم (٥)

نور الدين ارسلان شاه الاول
٥٨٩ – ٦٠٧هـ
١١٩٣ – ١٢١٠م

فلس نحاسي

رقم التسلسل	٦
رقم القطعة	٦٣
نوع المعدن	نحاس
القطعة بالمليمتر	٣٧ مليمتر
الوزن بالغرام	١٢/٨٨٠ غم
سنة الضرب	٦٠٧هـ
مكان الضرب	الموصل

الوجه

المركز

صورة نصفية لشخص متجه نحو اليسار يلف رأسه رباط يتدلى منه شريطان على رقبته ويزين رقبته قلادة من حبات اللؤلؤ الساسانية : ويتشح وشاحاً بيزنطياً .

الهامش :

شريط كتابي دائري يدور عكس اتجاه عقرب الساعة نصه : ؛:. ضرب هذا بالموصل سنة (سبع وستماية) ؛

الظهر :

المركز : كتابة من سبعة اسطر متوازية نصها :

رسول الله
لااله الا الله محمد
الناصر لدين الله (١)
امير (المؤمنين)
عز (الدنيا والدين)
اتابكة (مسعود بن)
(ابو) بكر

هو الخليفة العباسي ابو العباس احمد بن المستضيء ٥٧٥ – ٦٢٢ هـ

الهامش : هامش دائري نصه :

من اليمين الملك العادل (١)

من اليسار (ارسلان شاه)

والصورة على وجه العملة ذات تأثيرات عراقية قديمة ويونانية وساسانية فمن ناحية عصابة الرأس والشريطين المدليين على الرقبة من الخلف فهناك تأثيرات سومرية (٢) وكذلك تأثيرات يونانية واضحة فهي تشبه تماماً الصورة الموجودة على درهم فضي لفيليب ملك مقدونيا (٣٧٢ – ٣٣٦ق.م) (٣) .

اما الوشاح فهو ذو تأثيرات سومرية (٤) قديمة وبيزنطية وقد كان البيز نطيون يلفون اجسادهم به وشده بزرار جانبي او وسطي (٥) .

والصورة ايضاً تشبه الصورة الموجودة على مدالية فضية بيزنطية ضربت سنة ٤٠٩ م (٦) اما قلادة حبات اللؤلؤ فهي ذات اصول عراقية قديمة وساسانية فقد تحلى السومريون والآشوريون (٧) بقلائد مختلفة اما الساسانيون فقد استعملوا عقود اللؤلؤ بكثرة وزينوا

---

(١) سبق الكلام عن الملك العادل في القطعة رقم (٤)

(٢) الازياء السومرية / الازياء العراقية عدد (١) شكل رقم ٥٩ مديرية الآثار العامة / بغداد ، ١٩٦٧

(٣) Hill3/Historical Greek Coins/PL.X NO.79

(٤) انظر الازياء السومرية / نفس المصدر / شكل رقم ٥٨ .
وانظر انطوان مورتكات / الفن في العراق القديم / ترجمة وتعليق الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي / وزارة الاعلام بغداد ١٩٧٥ .
لوح رقم ٦٣ تمثال من حجر الكلس لامرأة من خفاجي . معروضة في المتحف العراقي في بغداد ، ص ٢٠٧ وانظر لوح رقم ١٦٥ تمثال من حجر الديورايت لكوديا حاكم لكش من تلو معروض في متحف اللوفر في باريس ص ٢٠٧ .

(٥) L ' Art Byzantine Tome I No, 20, Libriric De France/Paris .

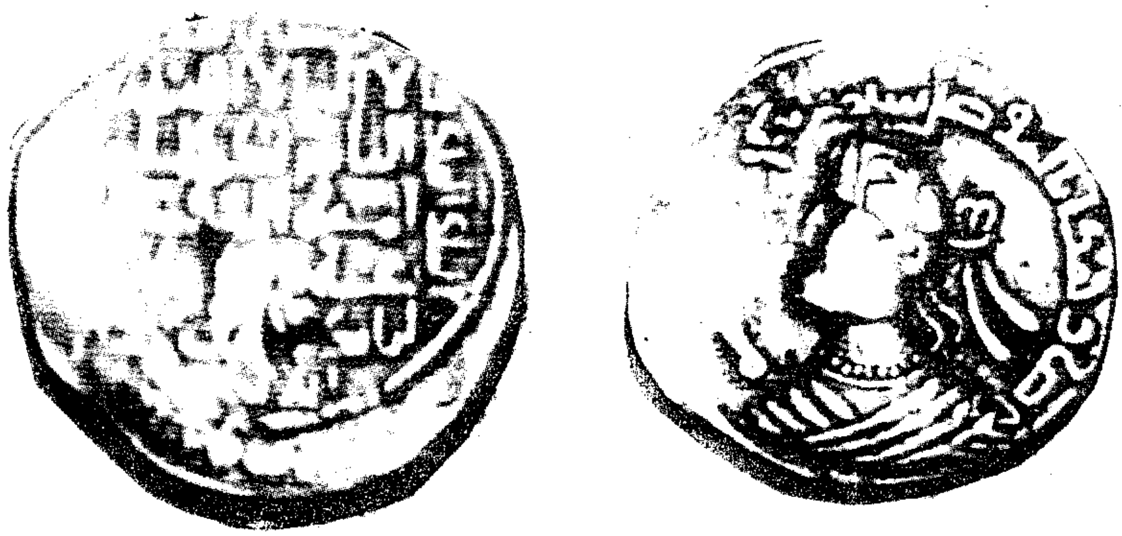
(٦) L , Art Byzantine, Tome I, No.88a.

(٧) يشاهد قلادة من اوراق على نموذج الفتاة السومرية لعلها الملكة شويار من اور ترجع إلى ٢٥٠٠ ق . م . انظر ثروت عكاشا / الفن العراقي القديم (سومر بابل آشور) بيروت ١٩٧٢ لوحة ١٧٩ ص ٢٤٢ . كما يشاهد نماذج من القلائد الاشورية كالخرز الذي يشبه حبات .
انظر وليد الجادر وهيفاء العزاوي / الملابس والحلي عند الآشوريين / وزارة الثقافة والاعلام / بغداد / ١٩٧٠ لوحة ٢٢ ، ص ٦٣ . لوحة ٣٢ ، ص ٨٥ .



لوحة رقم (٦)

ظهر وجه



شكل رقم (٦)

---

(١) كريستنسن / ايران في عهد الساسانيين ص٧٨ ترجمة يحيى الخشاب ومراجعة عبد الوهاب عزام / القاهرة ١٩٥٧ .

(٢) نفس المصدر ، السابق شكل ٢١ ، ص ٢٢١
انظر لوحة رقم (٦)
وانظر شكل رقم (٦) .

اتابكة الموصل :

ناصر الدين محمود (١)

٦١٦ – ٦٣١هـ　　　١٢١٩ – ١٢٣٣م

فاس نحاسي

رقم التسلسل	٧
رقم القطعة	٥١ مش
نوع المعدن	نحاس
القطر بالمليمتر	٤٠ مليمتر
الوزن بالغرام	١٠٠/ ١٥ غم
سنة الضرب	٦٢٠هـ
مكان الضرب	الموصل

الوجه :

المركز :

صورة رأس لشخص مقابل يعتمر اكليلا من الغار تنساب سوالفه على جانبي وجهه وفوق راسه ملكان مجنحان طائران .

الهامش :

هامش دائري يدور عكس اتجاه عقرب الساعة

اليمين　　ضرب بالموصل سنة

اليسار　　عشرين (و) ستماية

---

(١) عدة الدنيا والدين ابو نصر محمد وهو لقب ولي العهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله ابو نصر محمد . تولى ولاية العهد مرتين : ٥٨٥ – ٦٠١هـ ، ٦١٢ – ٦٢٢هـ
محمد باقر الحسيني / نفس المصدر ص١٨٩ .

الظهر :

المركز :

كتابه من سبعة اسطر متوازية نصها :

اتابك (محمود)

لااله الا الله محمد

رسول الله الناصر

لدين (الله امير) المؤ

منين عد (ة ال) دنيا (و)

الدين ابو نصر محمد

الملك الاشرف (٢)

ناصر الدين

الملك الكامل (٣)

والتاثيرات اليونانية والساسانية واضحة على هذه الصورة وهي تشبه قطعة رقم (١) تماما

ظهر — وجه



شكل رقم (٧)

---

(٢) الملك الاشرف وهو لقب الملك الايوبي مظفر الدين ابو الفتح موسى .
محمد باقر الحسيني / نفس المصدر ص١٨٨ .

(٣) الملك الكامل هو الملك ناصر الدين محمد .
محمد باقر الحسيني / نفس المصدر ص١٨٧ .

انظر لوحة رقم (٧)

انظر شكل رقم (٧)



لوحة رقم (٧)

اتابكة الموصل

بدر الدين لؤلؤ
٦٣١ — ٦٥٧هـ
١٢٣٣ — ١٢٥٩م

فلس نحاسي

رقم التسلسل	٨
رقم القطعة	؟
نوع القطعة	نحاس
القطر بالمليمتر	٣١ مليمتر
الوزن بالغرام	٨٠٠/ ٧ غم
سنة الضرب	٦٣١هـ
مكان الضرب	الموصل

الوجه :

المركز :

صورة رأس انسان متجه نحو الشمال في وضع جانبي « Profile » شعره ذو تلافيف يحصره بشريط من الامام ويتدلى من الخلف على رقبته وتحت ذقن الصورة نجمة ثمانية الاضلاع والصورة داخل مربع من حبيبات .

الهامش :

كتابة تحيط بثلاثة جوانب من المربع نصها .

ضرب بالموصل سنة احد وثلثين (وستماية)

الظهر :

المركز :

كتابه مركزية من اربعة سطور نصها :

الامام

المستنصر (١)

بالله امير

المؤمنين

الهامش :

كتابة هامشية تدور عكس اتجاه عقرب الساعة نصها :

(بدر الدنيا والدين لؤلؤ الملك الكامل الاشرف)

وقد تأثرت صورة هذا النقد بالتأثيرات اليونانية وخاصة في الشعر المجعد بتجاعيد خفيفة وهو يشبه بهذا صورة النقود اليونانية (٢) اما عصابة الرأس فهي تأثيرات عراقية قديمة فقد استعملها السومريون (٣) لشد رأسهم كما استعملها الآشوريون (٤) كذلك والبيزنطيون أيضاً كما تشاهدها على رؤوس الاشخاص في بعض الميداليات البيزنطية كالعصابة المرسومة على رأس شخص في وجه الميدالية البيزنطية من القسطنطينية (٥) .

---

(١) المستنصر بالله : هو الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور بن الظاهر ٦٢٣ – ٦٤٠هـ
أنظر محمد باقر الحسيني نفس المصدر السابق ص٥٧ .

(٢) Hill:OP. Cit PL III No.27,PL,IV.

ويلاحظ الشعر ذو التلافيف (المجعد) في التماثيل الاشورية كذلك كالنحت البارز الذي يمثل الملك سنحاريب ٦٨٠ق.م جالسا على العرش في نينوى وامامه مجموعة من الرجال ذوي شعور مجعدة . (نحت بارز في المتحف البريطاني) .

Andre Parrot/ Neneve and Babylon/ France/ 1961 ,fig 49, P. 41

(٣) الازياء السومرية / نفس المصدر السابق / لوحة رقم ٦١، ٦٢، ٦٣

(٤) الازياء الاشورية / الازياء العراقية / مديرية الآثار العامة / لوحة رقم :
١٤، ١٥، ١٦، ص٤٥، ٤٧، ٤٩، على التوالي بغداد، ١٩٧١ .

(٥) L'Art Byzantine: OP. Cit, Tome. I, No. 20.



لوحة رقم (٨)

وجه

ظهر



شكل رقم(٨)

انظر لوحة رقم (٨)
انظر شكل رقم (٨)

بدر الدين لؤلؤ

٦٣١ – ٦٥٧هـ

١٢٣٣ – ١٢٥٩م

فلس نحاسي

رقم التسلسل	٩
رقم القطعة	؟
نوع المعدن	نحاس
القطر بالمليمتر	٣٣ مليمتر
الوزن بالغرام	٦/٦٠٠ غم
سنة الضرب	٦٣١هـ
مكان الضرب	الموصل

الوجه :

المركز :

القطعه هذه مشابهة للقطعة رقم (٨) في النصوص والصورة تماماً .
وهي مكسورة الحافة :



لوحة رقم (٩)

ظهر وجه



شكل رقم (٩)

اتابكة الموصل

بدر الدين لؤلؤ

٦٣١ ــ ٦٥٧هـ

١٢٣٣ ــ ١٢٥٩م

رقم التسلسل	١٠
رقم القطعة	٥٦ مس
نوع المعدن	نحاس
القطر بالمليمتر	٣٣ مليمتر
الوزن بالغرام	٨٨٠/٦ غم
سنة الضرب	٦٣١هـ
مكان الضرب	الموصل

الوجه :

المركز :

صورة رأس انسان يتجه نحو اليسار في وضع جانبي « Profile » وشعره مجعد يشده من الامام بشريط حبيبي وتحت ذقن الرجل نجمة والصورة داخل مربع من حبيبات .

الهامش :

كتابه من جانبين (الاعلى والايسر)
من الاعلى ضرب سنة
من اليسار .... احد وثلثين (وستماية)

الظهر :

المركز :

كتابة من اربعة سطور متوازية نصها :

الامام
المستنصر
بالله امير
المؤمنين

الهامش :

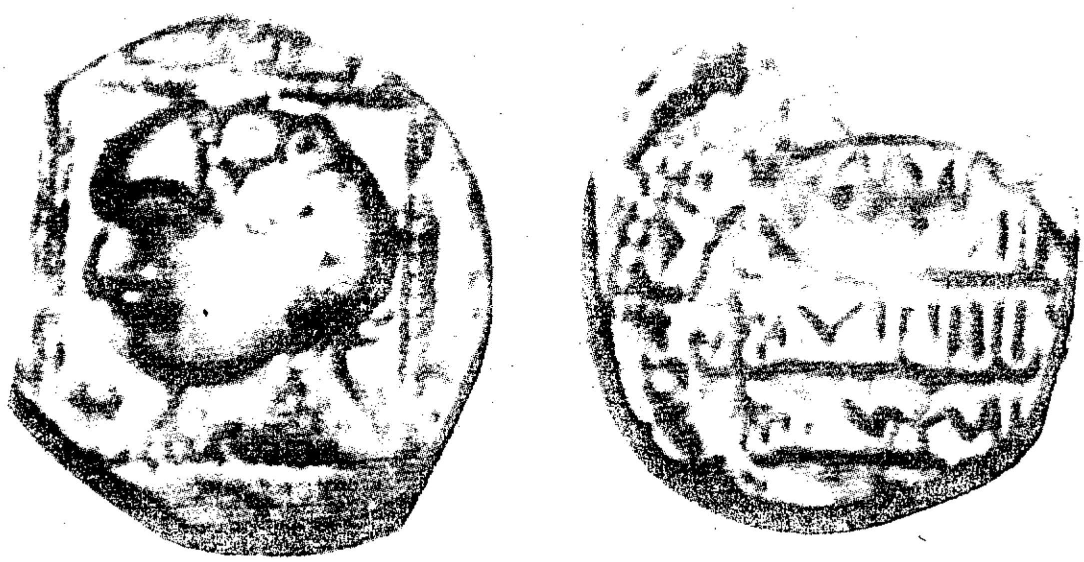
كتابة دائرية تدور عكس اتجاه عقرب الساعة نصها :
(ناصر) الدنيا و (الدين) ابو المالك (الكامل والملك الاشرف) والكتابة داخل دائرة من حبيبات .
والنقد يشبه النقد رقم (٨) في التأثيرات الواقعة على الصورة .

انظر لوحة رقم (١٠) .
انظر شكل رقم (١٠) .



لوحة رقم (١٠)

ظهر وجه



شكل رقم (١٠)

أتابكة الموصل

بدر الدين لؤلؤ

٦٣١ – ٦٥٧هـ

١٢٣٣ – ١٢٥٩م

فلس نحاسي

رقم التسلسل	١١
رقم القطعة	؟
نوع المعدن	نحاس
القطر بالمليمتر	٣٣ مليمتر
الوزن بالغرام	٦٠٠ / ٩ غم
سنة الضرب	٦٤٧ و ٦٤٩هـ
مكان الضرب	الجزيرة

الوجه :

المركز :

كتابة من اربعة سطور متوازية نصها :

الامام

لااله الا الله

المستعصم بالله (١)

امير المؤمنين

الهامش :

ضرب هذا الفلس (بالجزيـرة سنة سبع (تسع) (واربعيــن وستمايــة)

---

(١) المستعصم بالله العباسي الذي بدأ حكمه سنة ٦٤٠ وانتهى سنة ٦٥٦ بعد سقوط بغداد . محمد باقر الحسيني / نفس المصدر السابق ص ٨١ .

الظهر :

المركز :

كتابة من اربعة سطور متوازية نصها :

لؤلؤ

الملك الناصر

محمد رسول الله

بدر الدنيا (١)

والدين اتابك

يوسف

والكتابة المركزية والهامش داخل دائرة من حبيبات .

اتابكة الموصل

بدر الدين لؤلؤ

٦٣١ – ٦٥٧هـ ١٢٣٣ – ١٢٥٩م

فلس نحاسي

رقم التسلسل	١٢
رقم القطعة	٤٥ مس
نوع المعدن	نحاس
القطر بالمليمتر	٣٠ مليمتر
الوزن بالغرام	٥٥٠/ ٦ غم
سنة الضرب	٦٥٥هـ
مكان الضرب	الموصل

الوجه :

المركز :

صورة رجل جالس بشكل مقابل وعلى الطريقة (المتربعة) يعتمر قبعة ذات حافة محببة ويمسك بيديه هلالاً مرفوعاً إلى الاعلى وفي داخل الهلال كتب

من اليمين ستة

من اليسار خمس

وفي خارج الهلال كتب من اليمين ضرب بالموصل.

ومن اليسار خمس (بن وستماية)

(١) ولا هي من ألقاب الملك بدر الدين لؤلؤ. باقر الحسيني / نفس المصدر السابق ص ١٧٩ .

الظهر :

المركز :

كتابة من خمسة اسطر متوازية نصها :

الامام

لااله الا الله

محمد رسول الله

المستعصم بالله

امير المؤمنين

الهامش : هامش دائري يدور عكس اتجاه عقرب الساعة نصه :

الملك (الرحيم) بدر الدنيا والدين ابو الفضا (ئل اتابك) لولو

ويلاحظ في هذه الصورة تأثيرات عراقية قديمة ومصرية وبوذية (١) وساسانية (٢) تبدو واضحة في جلسة الرجل المربعة ، والتي الفناها في كثير من التحف (٣) والمخطوطات الاسلامية ، اما صورة الشخص وبيده الهلال فهي قد تكون ذات علاقة باحدى العادات الشعبية الساسانية التي ظهر فيها الملك القمر (ماه) جالساً على عرشه داخل هلال (٥) .

---

(١) الدكتور أحمد قاسم الجمعة / الآثار الرخامية في الموصل خلال عهد الاتابكة والايلخاني ص٢٠ . وانظر جيمس هنري برستيد /تطور الفكر والدين في مصر القديمة / ترجمة زكي سوسى صورة تمثال كلكاتب في جلسة متربعة من الاسرة الخامسة معروض في متحف الآثار المصرية بالقاهرة ص ٤٣٦ — دار الكرنك / القاهرة ١٩٦١ .

(٢) كرستنسن / ايران في عهد الساسانيين / شكل ١٨٩ ص ١٦٦

(٣) زكي محمد حسن / فنون الاسلام / شكل ١٨٩ ص ٢٦٥

(٤) زكي محمد حسن /أطلس الفنون الاسلامية شكل ٨٨٤ ، ص ٣٠٧ والصورة في مخطوطة من كتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل لابن الجزري / آواخر القرن ١٢ الميلادي /من مجموعة متحف الفنون الجميلة لمدينة بوستن .

(٥) محمد باقر الحسيني /نفس المصدر السابق ص ١١٢

انظر لوحة رقم (١١)

انظر شكل رقم (١١)



لوحة رقم (١١)

ظهر　　　وجه



شكل رقم (١١)

اتابكة الموصل

بدر الدين لؤلؤ
٦٣١ ـ ٦٥٧هـ
١٢٣٣ ـ ١٢٥٩م

فلس نحاسي

رقم التسلسل ١٣
رقم القطعة ٦٨ مس
نوع المعدن نحاس
القطر بالمليمتر ٣٢ مليمتر
الوزن بالغرام ٧/٢١٠ غم
سنة الضرب ؟
مكن الضرب (لايوجد على النقد مكان الضرب وقد تكون ضربت في الموصل بمقارنتها مع قطع اخرى مشابهة)

الوجه :

المركز :

كتابة مركزية من اربعة سطور متوازية نصها :

الامام
لااله الا الله
المستعصم بالله
(   )

الهامش :

كتابة هامشية تدور عكس عقرب الساعة
بسم الله ضرب هذا ....

الظهر :

المركز :

كتابة مركزية من اربعة سطور متوازية نصها :

لولو
محمد رسول الله
بدر الدنيا
والدين اتابك
يوسف

الهامش :

كتابة هامشية تدور عكس اتجاه عقرب الساعة نصها :

(بسم الله الرحمن الرحيم نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين)

– جدول الاقطار والاوزان والسنين واماكن الضرب –

رقم القطعة في المركز		نوع المعدن	الوزن بالغرام	سنة الضرب	القطر بالليمتر	مكان الضرب
١	١٢ مس	نحاس	١٢/١٧٥غم	٥٥٥هـ	٣٨مليمتر	الجزيرة ؟
٢	٤٥ مس	نحاس -	١٢/٨١٥غم	٥٦٦هـ	٣٤ مليمتر	الجزيرة ؟
٣	٥٧ مس	نحاس	١٥/١٥٠غم	٥٨٤هـ	٤٠ مليمتر	لايوجد على النقد مكان الضرب
٤	٥٣ مس	نحاس	١٢/٨٦٥غم	٦٠٠هـ	٣٨ مليمتر	سنجار
٥	؟	نحاس	٥/١٥٠ غم	؟	٣٠ مليمتر	لايوجد على النقد مكان الضرب
٦	٦٣ مس	نحاس	١٢/٨٨٠غم	٦٠٧هـ	٣٧ مليمتر	الموصل
٧	٥١ مس	نحاس	١٥/١٠٠غم	٦٢٠هـ	٤٠ مليمتر	الموصل
٨	؟	نحاس	٧/٨٠٠ غم	٦٣١هـ	٣١ مليمتر	الموصل
٩	؟	نحاس	٦/٦٠٠ غم	٦٣١هـ	٣٣ مليمتر	الموصل
١٠	٥٦ مس	نحاس	٦/٨٨٠ غم	٦٣٧هـ	٣٣ مليمتر	الموصل
١١	؟	نحاس	٩/٦٠٠ غم	٦٤٧هـ	٣٣ مليمتر	الجزيرة
١١	؟	نحاس		٦٤٩هـ		
١٢	٤٠ مس	نحاس	٦/٥٥٠ غم	٦٥٥هـ	٣٠ مليمتر	الموصل
١٣	٦٨ مس	نحاس	٧/٢١٠ غم	؟	٣٢ مليمتر	لايوجد على النقد مكان الضرب

المراجع العربية والاجنبية

١ ـ احمد قاسم الجمعة (الدكتور)
محاريب مساجد الموصل إلى نهاية حكم الاتابكة ٦٦٠هـ (رسالة ماجستير)
ـ القاهرة ١٩٧١م رقم القيد ١٤٦٦٢ ـ المكتبة المركزية ـ جامعة الموصل
الآثار الرخامية في الموصل خلال العهدين الاتابكي والايلخاني (رسالة دكتوراه)
ـ القاهرة ١٩٧٥م ـ رقم القيد ج ٥٥٢ ـ المكتبة المركزية ـ جامعة الموصل ـ

٢ ـ احمد تيمور
التصوير عند العرب (نشر وتعليق الدكتور زكي محمد حسن) القاهرة ١٩٤٢ م

٣ ـ احمد الستناوي ورفقاؤه
دائرة المعارف الاسلامية مجلد اول عدد (١) القاهرة ١٩٣٣م .

٤ ـ برستيد (جيمس هنري)
تطور الفكر والدين في مصر القديمة ترجمة زكي سوس ـ دار الكرنك ـ القاهرة ١٩٦١م .

٥ ـ حسن الباشا (الدكتور)
التصوير الاسلامي في العصور الوسطى مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ١٩٥٩م .

٦ ـ رشيد الجميلي
الدولة الاتابكية في الموصل بعد عماد الدين زنكي ـ الطبعة الاولى ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ، ١٩٧٠

٧ ـ زكي محمد حسن (الدكتور)
اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ـ القاهرة سنة ١٩٥٦ م.

٨ ـ عبد الرحمن فهمي محمد (الدكتور)
فجر السكة العربية ، القاهرة ـ ١٩٦٥م
النقود العربية ماضيها وحاضرها ـ المكتبة الثقافية العدد (١٠٣) القاهرة ١٩٦٤م :

٩ ـ عيسى سلمان (الدكتور)
المسكوكات المصورة مجلة المسكوكات ، مديرية الآثار العامة عدد (٢) بغداد ١٩٧١ م

١٠ — كريستنسن « ارثر »
ايران في عهد الساسانيين / ترجمة يحيى الخشاب ومراجعة عبد الوهاب عزام، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ، ١٩٥٧
١١ — لين بول « ستانلي »
طبقات سلاطين الاسلام ، ترجمة عباس اقبال ونقله من الفارسية مكي طاهر الكعبي ، دار منشورات البصري عام ١٩٦٨ م .
١٢ — محمد باقر الحسيني « الدكتور »
العملة الاسلامية في العهد الاتابكي مطبعة دار الجاحظ — بغداد — ١٣٨٦ هـ — ١٩٦٦م .
١٣ — محمد كرد علي
خطط الشام / طبع في مطبعة الترقي بدمشق سنة ١٣٤٥هـ — ١٩٢٦م .
١٤ — المقريزي
« تقي الدين احمد بن علي » ت ٨٤٥هـ
(النقود الاسلامية القديمة) نشره الاب انستاس
الكرملي في كتابه (النقود العربية وعلم النميات) ١٩٣٩م.
١٥ — مورتكات (انطون)
الفن في العراق القديم / ترجمة وتعليق الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي.
وزارة الاعلام — بغداد ، ١٩٧٥م .
١٦ — وليد الجادر وهيفاء العزاوي/
الملابس والحلي عند الآشوريين
وزارة الثقافة والاعلام / بغداد ، ١٩٧٠م.

17. Arnold (T.W.) painting in Islam
Oxford, 1928 .

18. Berchem (Max Van)
Amida Paris – 1910 .

19. Creswell (K.A.C.), Early Moslim Architecture,
Umaxxads, Early Abbasids & Tulumids. 11 vols.
Oxford 1932 – 1940 .

20. Gardener (E.A.)
The Art of Greece · London – 1925 .

21. Hill (George)
Historical Creek Coins, argonaut Library.
Chicago , 1960.

22. Lane – Poole (Stanly)
The Coins of the Urtukis, in Marsden
Numismatic chronicle. Chicago, 1967 .

23. Librairie De France
L' Art Byzantine. Paris 1934 .

24. Parrot (Andre)
Neneve and Babylon. France 1961 .

25. Pope (A. U.)
The Architecture of the Islamic Period in Survey of Persian Art.
New York 1939 .

26. Sea by (H.A.)
Creek Coins and their values. 2nd. ed London 1966 .

الدكتور حازم الحاج طه

التشبيه عند المبرّد
في كتاب الكامل

اذا كان النحو العربي قد نضج واحترق عند بعض الدارسين، فان البلاغة العربية مازالت مجالا واسعاًللنظر ، وبخاصة اذا عرفنا حاجتنا في دراستها الى الذوق السليم ، وحسن التناول ، وعرفنا أنها تخدم درسنا الأدبي الحديث ايضاً . وقد اردت لدراستي هذه أن تكون مشاركة في تمثل موقف من مواقف علمائنا القدامى في دائرة البلاغة ، وصاحب هذا الموقف هو أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت ٢٥٨ هـ) وهو من هو في تاريخ عربيتنا الزاهرة . وأكثر الذين أرخوا للبلاغة العربية يعدونه من اولئك السابقين الأولين الذين كانت لهم مشاركات في العناية بوجوه الفن البلاغي الذي تتسم به العبارة العربية (١) ، وجهوده في هذا الميدان معروفة ، وهي تمثل ملامح عرضية من خلال الدرس اللغوي للنصوص الأدبية ، وحين تأتي اشاراتهم على النحو الذي نقرؤه في دراساتهم فان ذلك مستمد من طبيعة المرحلة التي بلغها الدرس البلاغي وهي مرحلة الوصف والاشارات دون التقعيد والتقنين.

وقد تهيأ لي من خلال صحبة طويلة لكتاب (الكامل) أن أقف عند دراسة مؤلفه للتشبيه لأكشف عن طبيعة منهجه في درس هذا الفن الذي نما وتطور على ايدي البلاغيين من بعده، لأن المبرد كان أول العلماء الذين درسوا هذا الفن وكتبوا فيه مثل ذلك البحث المستفيض الذي يدل على سعة الاطلاع ، وغزارة المعرفة كما يدل على بصره بالأدب وأسباب الجمال في العبارة ، وان كان في بحثه اثر للتقليد وذلك في استحسانه التشبيهات التي أثرت عن السابقين استحساناً مطلقاً مع اعترافه بأن التشبيه أكثر كلام الناس من غير تفريق بين جنس ، ولاشك أنه من خصائص العبارة الأدبية في جميع الآداب على رأي الدكتور بدوي طبانة (٢) . وقد انصب اهتمام العلماء على التشبيه من أول الأمر لأنه أقرب إلى الواقع الحسي ، وأقرب إلى طبيعة الشعر في العصر الجاهلي وصدر الاسلام حتى ان الدكتور عبد العزيز الأهواني قد اعتبره في كثير من الحالات مظهراً من مظاهر البدائية في التفكير والسذاجة الأولية في التعبير ، وقد انتبهوا إلى روعة التشبيه وجماله أن يلتفتوا إلى روعة الاستعارة ، وسحرها (٣)،لان الاستعارة من الزاوية الذوقية تعد تطوراً متقدماً للتشبيه وللوصول

(١) ينظر على سبيل المثال في تاريخ البلاغة العربية ، ٤٠ وما بعدها ، الدكتور عبد العزيز عتيق.

(٢) علم البيان ٣٧ — ٣٨

(٣) الدكتور احمد مطلوب ، القزويني وشروح التلخيص ٣٢٢ ،وانظر د.عبد العزيز الأهواني ، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ١٢٨

اليها لابد للدارس أن يقف ملياً عند التشبيه يسبر أغواره ويفيد من ثروته الدلالية الممتازة قبل أن ينتقل إلى حقل أكثر تعقيداً وأوفر عطاء . والمبرد حين يدرس التشبيه لايحذو حذو أحد ، ومن هنا كان له موقف خاص أردت أن أتناوله بالدرس في هذا البحث الذي سأجعله على النحو الآتي :

١ ـ أضرب التشبيه

٢ ـ منابعه وحدوده

٣ ـ نماذج من التشبيهات المستحسنة

وهذه العناصر من شأنها فيما أقدر أن تقدم لنا صورة واضحة لحقيقة موقف المبرد في هذه الدائرة البلاغية الواسعة ، حتى انه قد وضع لنفسه مقاييس خاصة سيعرض لها هذا البحث بالتفصيل وسأسوقها تحت العنوان الآتي :

** ١ ـ أضرب التشبيه :

نحن نعلم أن في (التشبيه علاقة مقارنة تجمع بين طرفين ، لاتحادهما أو اشتراكهما في صفة أو حالة ، أو مجموعة من الصفات والأحوال . هذه العلاقة قد تستند إلى مشابهة حسية ، وقد تستند إلى مشابهة في الحكم أو المقتضى الذهني الذي يربط بين الطرفين المقارنين ، دون أن يكون من الضرورة أن يشترك الطرفان في البيئة المادية ، او في كثير من الصفات المحسوسة فان العلاقة التي تربط بينهما هي علاقة مقارنة أساساً وليست علاقة اتحاد أو تفاعل ، بمعنى أنه لايحدث ـ داخل التشبيه ـ تجاوز مفرط في دلالة الكلمات ، بحيث يصبح هذا الطرف ذاك الآخر ، ولو على سبيل الايهام أو تتفاعل دلالات الأطراف مكونة دلالة جديدة هي محصلة لهذا التفاعل كما قد يحدث في الاستعارة. ان التشبيه هو محض مقارنة بين طرفين متمايزين لاشتراك بينهما في الصفة نفسها ، أو في مقتضى وحكم لها) (٤) . ولهذا كان التشبيه عند العربي مجالا فنيا للتلوين والتخيل في كثير من الأحيان وقد يصل الأمر بهم إلى مبالغ مختلفة في التدقيق أو السطحية أو غير ذلك ولهذا نرى المبرد يجنح إلى تحقيق شيء من ذلك في تقسيماته للتشبيه ، فيقول : (والعرب تشبه على أربعة أضرب : فتشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد يحتاج إلى التفسير ولا يقوم بنفسه وهو أخشن الكلام) (٥) .

(٤) دكتور جابر احمد عصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي

(٥) المبرد : الكامل ، تعليق محمد أبي الفضل ابراهيم ١٢٨/٣

• الأول : المفرط

فالنوع الأول عند المبرد : هو الذي لايتوفر فيه وجه الشبه في المشبه بصورة تتكافأ وتنسجم مع الواقع ، اذ أن وجه الشبه في المشبه لايداني موقعه من المشبه به ، بل ان بينهما فارقاً قصياً يؤول إلى غلو أو اغراق في تشخيص وجه المشبه ، وما يراد بذلك الا رفع المشبه إلى مقام يكون الذروة في التشبيه مدحاً كان التشبيه أم ذماً . فالاديب الذي يوقع مثل هذا هذا التشبيه في كلامه مبالغ في ذلك ، فتشبيه الرجل الكريم بالبحر مثلا أمر بدهي لكن تدفق كرم الرجل لايبلغ تدفق البحر مهما كان الكرم وكانت السماحة .... ويورد المبرد أمثلة لذلك فيقول : (فمن التشبيه المفرط المتجاوز قولهم للسخي : هو كالبحر . وللشجاع : هو كالاسد ، وللشريف : سما حتى بلغ النجم ثم زادوا فوق ذلك ، فمن ذلك قول بعضهم وهو بكر بن النطاح ، يقوله لأبي دلف القاسم بن عيسى :

له همم لامنتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر
له راحة لو أن معشار جودها(٦) على البر صار البر أندى من البحر
ولو أن خلق الله في مسك فارس وبارزة كان الخلي من العمر) (٧)

حقاً ان هذا المدح — كما عده المبرد — من الافراط المتجاوز ، فالشاعر قد عرض صورة بالغ أشد المبالغة فيها ، اذ تخيل العالم كله في شخص رجل فارس ثم جعله بشجاعته الفذة ندا للمدوح ، وسنجد في آخر الأمر أن هذا الفارس الاسطوري ينسلخ عن الحياة بقدرة الممدوح ، وهذا مانفهمه من قوله :

ولو أن خلق الله في مسك فارس وبارزة كان الخلي من العمر

والسؤال بعد هذا البيت : ماتقدير الشاعر بضراوة ممدوحه أبي دلف وقوته وهنا تكمن المبالغة . وقد أشار اليها المبرد بأنها من التشبيه المفرط المتجاوز وهذا مايفسره لنا خبر ساقه بعد ايراده هذه الأبيات (وقد قيل ان أمراة عمران بن حطان قالت له : أما زعمت أنك لم تكذب في شعر قط ؟ : أو فعلت قالت : أنت القائل :

فهناك مجزأة بن ثور كان أشجع من اسامة

أفيكون رجل أشجع من الأسد ؟ قال : فقال : أنا رأيت مجزأة بن ثور فتح مدينة والاسد لايفتح مدينة (٨) .

---

(٦) مسك — بفتح وسكون — الجلد
(٧) المبرد : الكامل ١٢٨/٣
(٨) المصدر نفسه ١٢٨/٣

وقد وقف المبرد من بعض نماذج هذا النوع من التشبيه وقفة نقدية لماحة دالة على نفوذ فكر، وبصيرة نيرة ، واحساس بأسرار الكلام . فقال : (ومن عجيب التشبيه في افراط غير أنه خرج في كلام جيد ، وعني به رجل جليل فخرج بإب الاحتمال إلى باب الاستحسان ، ثم جعل لجودة ألفاظه ، وحسن رصفه واستواء نظمه ، في غاية مايستحسن – قول النابغة يعني حصن بن حذيفة :

يقولـون حصن ثـم تأبـى نفـوسهم (٩) وكيـف بحصـن والجبـال جنوح
ولـم تلفـظ المـوتى القبور ولم تـزل نجـوم السمـاء والأديـم صحيـح
فعمـا قليـل ثـم جـاء نعيـه فظـل نـدي الحـي وهـو ينوح) (١٠)

وكان صائب الرأي في جعل هذه الأبيات من عجيب التشبيه المفرط ، مع انه جعله في غاية مايستحسن لجودة الفاظه ، وحسن رصفه ، واستواء نظمه ، وعده من التشبيه المفرط لأن المشبه به كما نتصوره هو حلول يوم القيامة وفيه تجنح الجبال للانثيال والزوال، وتلفظ القبور الموتى ، وتزول الجبال ، ولكن حين مات حصن بن حذيفة ، وان كان موته كهول هذا اليوم فقد بقيت الجبال قائمة في أماكنها فلم تضطرب ، والموتى راقدة في قبورها ، والنجوم في مواقعها ، وأديم الأرض لم يتشقق ، وقد شعر الشاعر بعظم حدث الموت وبدا له ان يشبهه أول الامر بيوم القيامة . وتساؤله فيه استنكار لبقاء الكون على حاله على الرغم من هذا الحدث الجلل ، وهذا يؤكد تشبيه الحدث بيوم القيامة ، ويضفي عليه روعة ، على الرغم من مبالغته (فالافراط في التشبيه ليس كذابا وانما هو قول صدق موشى بزينة المبالغة تلك التي لاحظها المبرد وأعجب بها ايما اعجاب) (١١) .

أما الثاني ، وهو المصيب – وقد عبر عنه أحياناً بالقاصد الصحيح (١٢) فهو الذي يتعادل فيه وجود وجه الشبه بين الطرفين بصورة لانحس فيها أية مغالاة أو مجافاة للحقيقة ، وهذا النوع المنطقي من التشبيه يأتي على أصل تصور المعاني . ومن أمثلة هذا الضرب عند المبرد قول النابغة :

---

(٩) نفوسهم : ان تصدق هذا النبأ لفداحته وعظمه . وجنوح : مصدر جنح – مال وسكن ، يريد مابال الجبال ساكنة مطمئنة لم تتصدع لموته .
(١٠) المصدر نفسه ١٢٨/٣
(١١) دكتور عبد القادر حسين ، أثر النحاة في البحث البلاغي ٢١٤
(١٢) المبرد : الكامل ١٣٠/٣

وعيد ابي قابوس في غير كنهه (١٣) أتاني ودوني راكس فالضواجع
فبت كأني ساورتني (١٤) ضئيلة من الرقش في انيابها السم ناقع
يسهد من نوم العشاء سليمها لحلي النساء في يديه قعاقع
تناذرها (١٥) الراقون من سوء سمها تطلقه طوراً وطوراً تراجع) (١٦)

وعلق المبرد على هذا بقوله (فهذه صفة الخائف المهموم ، ومثل ذلك قول الآخر :

تبيت الهموم الطارقات يعدنني كما تعتري الاوصاب رأس المطلق

والمطلق هو الذي ذكره النابغة في قوله (تطلقه طوراً وطوراً تراجع) ، وذلك ان المنهوش إذ الح الوجع به تارة ، وامسك عنه تارة ، فقد قارب ان يوؤس من برئه ، وانما ذكر خوفه من النعمان وما يعتريه من لوعة في اثر لوعة ، والفترة بينهما ، والخائف لاينام الا غراراً فلذلك شبهه بالملدوغ المسهد . وقوله (لحلي النساء في يديه قعاقع) لأنهم كانوا يعلقون حلي النساء على الملدوغ ان ذلك من اسباب البرء ،لانه يسمع تقعقعها فيمنعه النوم فلا ينام ، فيدب السم فيه ، ويسهد لذلك) (١٨) .

اننا لنحس ان ترتيب الابيات التي قام عليها هذا الشرح غير منطقي لأن فيه خللاً يتجلى في عدم الترابط بين مكونات الصورة بشكل منسق ومنضبط ولو رتبت الابيات على النحو الآتي : (وعيد ، فبت ، تناذرها) لكان الترابط حينئذ اكثر دقة ،بل انه الواجب الذي لابد ان نتمسك به ، إذ تستقيم الصورة التي ارادها الشاعر ، فمساورة الحية لفريستها، ووجود السم مجتمعاً في انيابها وخطورة هذا السم الذي تطلقه طوراً وطوراً تراجع مما جعل الراقين يتناذرونها ويتحاشونها ثم لو حدث ونالت من فريستها لكانت الفريسة في حالة من السوء لاتعرف معها النوم نتيجة تقعقع حلي النساء في يديها . هذه المقدمات كلها مما تثير فزعاً ما بعده من فزع في نفس الفريسة التي تتواثبها هذه الافعى ،فالفزع قبل وقوع البلاء اشد منه بعد وقوعه . وهذه حال الشاعر يتلقى الوعيد قبل وقوعه ، ولذلك يكون

---

(١٣) كنه الشيء : حقيقته . وراكس : اسم واد ، والضواجع : موضع ، وكلاهما بديار غطفان
(١٤) ساور : من المساورة وهي المواثبة . والضئيلة : الحية الدقيقة . والرقش : جمع رقشاء ، وهي الحية التي فيها نقط سود وبيض . وناقع : ثابت مجتمع ، من نقع الماء في الغدير نقوعاً : ثبت واجتمع .
(١٥) تناذرها الراقون : أنذر بعضهم بعضاً أن لا يتعرض لها .
(١٦) المبرد : الكامل ٣/١٣٠
(١٧) هو شاس بن نهار العبدي
(١٨) المصدر نفسه ٣/١٣٠ - ١٣١

التشبيه اكثر توازناً بين الحالتين مما يتحقق معه التشبيه المصيب ، ونظن ان الصواب قد جانب المبرد في شرحه لهذه الابيات وتعليقه عليها كما نقلناه آنفاً . فالصورة كما تبدوا لنا من الابيات وتعليقه عليها كما نقلناه آنفاً. ان وعيد ابي قابوس ليس مقصوداً به حقيقته لقوله(في غير كنهه) وعلى الرغم من ذلك فقد اورث النابغة ارقاً لايقر معه قرار ، فما بالنا لو كان هذا الوعيد حقيقة مقصودة ونية مبينة . وهنا تتضح الصورة اجمل في المبالغة في الخوف على الرغم من عدم حقيقة الوعيد ، وربما كانت الصلة اوضح بين هذا الوعيد الذي هو في غير كنهه وبين سم الافعى الذي (تطلقه طوراً وطوراً تراجع) فالحية لم ترسل سمها حقاً . وانما هي بين ارساله وحجبه كوعيد ابي قابوس المرسل واحتمال حجبه . وعلى هذا نتصور ان يكون ترتيب الابيات على النحو الذي افترضناه .

وقد اراد المبرد ان يدقق في وصف التشبيه المصيب فرأى ان احسنه (ماجاء باجماع الرواة قول امرىء القيس : (١٩)

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها (٢٠) العناب والحشف البالي

وهو على رأيه كلام مختصر وقع في بيت واحد وشبهت فيه حالتان مختلفتان بشيئين مختلفين. واضاف المبرد على هذا قوله في شرح معنى البيت (فهذا مفهوم المعنى ، فان اعترض معترض فقال : فهلا فصل فقال كأنه رطباً العناب. وكأنه يابساً الحشف قيل له : العربي الفصيح الفطن اللقن يرمي بالقول مفهوماً ، ويرى مابعد ذلك من التكرير عيا . قال الله جل وعز وله المثل الاعلى (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله)(٢١) علماً بأن المخاطبين يعلمون وقت السكون ووقت الاكتساب) (٢٢) .

فنرى المبرد يتخيل معترضاً على ترتيب التشبيهين في البيت . ثم يرد عليه مبيناً وجه الصواب في البيت مستأنساً بالآية الكريمة . والبيت جمع إلى سمو المعنى روعة التصوير . وحلوا اللفظ . وحسن المقابلة . ودقة الجمع . اذ شبه الرطب الطري من قلوب الطير بالعناب في (الشكل واللون والمقدار) وشبه اليابس العتيق منها بالحشف البالي . فالمشبه متعدد وهو الرطب الطري من قلوب الطير . واليابس العتيق منها، والمشبه به متعدد كذلك وهو العناب والحشف البالي،اما الثالث —وهو المقارب — : فهو الذي نرى فيه المشبه قريباً جداً من صورته في المشبه به . ولا يتم بينهما اتفاق كامل كما نرى في النوع الثاني . كما

(١٩) المبرد : الكامل ٣/٢٣

(٢٠) الوكر : عش الطائر . والعناب : حب أحمر مائل الى الكدرة في حجم قلوب الطير الرطبة.
والحشف البالي : رديء التمر .

(٢١) سورة القصص .. آية ٧٣

(٢٢) المصدر نفسه ٣/٣٢

لاتقوم بينهما مبالغة مسرفة كما ورد في النوع الاول.ومن امثلته قول ذي الرمة :(٢٣).

ورمل كأوراك العذارى قطعته وقد جللته (٢٤) المظلمات الحنادس

ظاهر البيت إرادة وصف الرمل الذي تغوص فيه الاقدام والشاعر يخب فيه ثم لايجد صورة تناظر هذه الصورة بدقة وجمال الا صورة اوراك الفتيات العذارى للينها واكتناز لحمها. ووجه الشبه بين هاتين الصورتين ان فيهما مطارعة وفيهما ترة في الوقت نفسه، فالرمل تغوص فيه القدم ولكنه يتحمل ثقل السالك فلا ينخرق تحت اقدامه وكذلك هذه الاوراك .. وامعان النظر في هذا النص يقفنا على رأي يخالف التصور الذي يوحي به ظاهر البيت وهو خلاف مارأى المبرد منه ايضاً حتى عده من (حلو التشبيه وقريبه وصريح الكلام وبليغه) (٢٥) ورأى ان هذا التشبيه على الرغم من موازنته بين الطرفين في تلك الخاصية المشتركة بين طبيعة الرمال عند وطئها واوراك العذارى الا ان الصورة التي يسوقها ذو الرمة لاتعتمد على طبيعة تركيبها وحدها دون ان يكون خيال السامع وتصوره لهذه الصورة وانفعاله بها مشاركاً للشاعر . وفي هذه الصورة التي ساقها احتمال انصراف ذهن السامع عن حقيقة المعنى الذي اراد . بل قد يقع في ذهنه توهم لمعنى آخر غير هذا المعنى تماماً في وطء اوراك العذارى من متعة معينة خاصة في ظلمة الليل الحالك مما يجعل قسوة السير على الرمال في هذه الحالة — وهو المعنى الذي اراده — يتوارى تماماً وتبهت صورته في مخيلة السامع مما يمثل عامل ضعف لهذا التشبيه . بل قد يجعله في غير موضعه .

اما الرابع — وهو البعيد :— فهو الذي يجعل الناظر في التشبيه لا يدرك عفواً ملامح وجه الشبه بين الطرفين . بل انه يحس بأن التشبيه ليس بصحيح. ولكن بعد كد ذهن، وارهاق خاطر يدرك مع تحفظ وجود هذا الشبه بين الطرفين . وقد ضرب المبرد لهذا النوع مثلا واحداً وهو قول الشاعر :

بل لو رأتني اخت جيراننا اذ انا في الدار كأني حمار

وعلق عليه بقوله :(فانما اراد الصحة . فهذا بعيد لان السامع انما يستدل عليه بغيره . وقد قال الله جل وعز — وهذا البين الواضح — كمثل الحمار اسفاراً (٢٦) والسفر الكتاب

---

(٢٣) المبرد : الكامل ٣/١٠٩

(٢٤) جللته : لبسته . والحنادس : الليالي المظلمة . والحندس : الظلام

(٢٥) المصدر نفسه ٣/١٠٩

(٢٦) سورة الجمعة :اية ٥

وقال (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها امثل الحمار) (٢٧) انهم قد تعاموا عنها وأضربوا عن حدودها وأمرها ونهيها حتى صاروا كالحمار الذي يحمل الكتب ولا يعلم مافيها) (٢٨) .

شبه اليهود وقد حملوا التوراة وقرأوها وفقهوها وعلموا ماحوت من أوامر ونواه وعبر وعظات ولكنهم لم يعملوا بها.ولا انتفعوا باياتها بحال حمار يحمل أسفاراً هي أوعية العلوم ، ومستودع ثمر العقول وهو جاهل بما تحويه . لاحظ له منها الا مايناله من النصب والتعب. وأوجه الشبه اذن عناء كل بما يحمل وماله من المنافع العظيمة .والفوائد الشريفة من غير أن يحصل على شيء من تلك المنافع أو يعود عليه بعض تلك الفوائد.

ثم قال :(وهجا مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة قوماً من رواة الشعر بأنهم لايعلمون ماهو على كثرة استكثارهم لروايته فقال :

زوامـــل (٢٩) للاشعار لاعلم عندهم
بجيـدهـا الا كعلـــــم الاباعـــــر
لعمـــرك مايدري البعير إذا غـــدا
بأوساقـه أوراح مافـــي الغـــرائـــر)(٣٠)

ان هؤلاء الرهط جمعوا روائع الشعر .لكنهم لم يعوا مافيها من مثل . وحوافز ماهو حسن وما هو مرضي .فشأنهم كشأن الابل تعلو ظهورها أو ساق موقرة بالحكم .

ولكن ليس لها من هذا الحكم غير عناء الحمل وشقائه .وفي هذا العرض الذي قدمناه توضيح لمنهج المبرد في موقفه من التشبيه ونظرته إلى شواهده .وطبيعة دراسته لها من خلال تقسيماته الأساسية التي وقفنا عليها (فالمبرد ــ اذن ــ أول من قسم التشبيه إلى هذه الأقسام المتعددة التي ذكرناها ثم جمعها وجعلها أربعة فقط .مفرط . ومصيب . مقارب .وبعيد. وفي كل قسم من هذه الأقسام كان يتمثل بالشعر .ويكثر من الاستشهاد به .وهو في كل ذلك لم يذكر تعريفاً بهذه الاقسام حتى تتميز عن بعض .ولم يضع لها الضوابط والحدود ولكن شواهده التي ساقها كانت دليلاً على كل قسم وتمييزاً له عن غيره فنرى من شواهد

---

(٢٧) كان يكفيه كمثل الحمار من قوله تعالى (مثل الذين حملوا التوراة) حتى لايتوهم ان هذا مثال آخر .

(٢٨) المبرد : الكامل ١٣٢/٣

(٢٩) زوامل : جمع زاملة . وهي البعير يحمل عليه المتاع والطعام . والأوساق : جمع وسق وهو حمل البعير . والغرائر : جمع الغرارة . وهي الاوعية التي تسمى بالجوالق

(٣٠) والمصدر نفسه ١٣٢/٣

التشبيه المفرط شيئاً من المبالغة ، وفي أمثلة التشبيه المصيب انطباقاً يجري في حدود الممكن والواقع ،وفي دلائل التشبيه المقارب نوعاً من الوضوح والصراحة ،وفي التشبيه البعيد حاجةإلى التأمل والتفسير .ولعله اكتفى بهذه الشواهد وما بها من دلائل على الفرق بين قسم وآخر دون أن يلجأ إلى التمييز بطريقة التعريف ، أو تحليل الشاهد وبيان كونه من هذا القسم دون ذاك (٣١) .

* منابع التشبيه وحدوده

وبعد ان فرغت من عرض كلام المبرد على أضرب التشبيه من حيث الافراط فيه أوالموازنة بين طرفيهاو اصابة الهدف منه والقرب أو البعد عن ذلك واشارتنا إلى أنه يستعمل المصطلحين الآتيين (التشبيه المتجاوز ، والتشبيه القاصد الصحيح) في ثنايا ذلك . وهما في الواقع لا يجاوزن ماذكره من الأضرب الأربعة المتقدمة .

أرى الاشارة إلى أمرين رأى المبرد فيهما شرطين ليكون التشبيه مستحسناً وهما ما أسميتهما بمنابع التشبيه وحدوده .وهو حين يذكر التشبيه مستحسناً عن أي طريقة تحقق له هذا الحسن ، وكيف يدرك الناقد حقيقة ذلك ،أيكون للذوق أثره المباشر أم لا فالمبرد يذكر أن المستحسن هوالذي أخذالعربي أصله المشبه به عن شيء وهذا الشيء– كما نعلم – لابد أن يكون متوفراً في بيئته التي يتحركفيها. لأنه لو لم يكن معروف الأصل لدخل في حد التشبيه الغريب ؟ ونحن حين نشير إلى أن المبرد يتوسع في مفهوم التشبيه بعض التوسع حتى يجعل الوصف طرفاً منه؛ لا يعني هذا بالضرورة أنه يجيز لصاحب التشبيه أن يخرج عن الحدود المفروضة للصورتين المتقابلتين . ولهذا يقول (واعلم أن للتشبيه حداً) لأن الأشياء تشابه من وجوه وتباين من وجوه فانما ينظر إلى التشبيه من أين وقع .فاذا شبه الوجه بالشمس والقمر ،فانما يراد به الضياء والرونق ، ولا يراد به العظم والاحتراق . قال الله جل وعز (كأنهن بيض مكنون) (٣٢) والعرب تشبه النساء ببيض النعام تريد نقاءه ورقة لونه ،قال الراعي كأن بيض نعام في ملاحفها (٣٣) إذا اجتلاهن قيظ ليلة ومد) (٣٤) .

(٣١) دكتور حسين عبد القادر ، أثر النحاة في البحث البلاغي ٢١٦

(٣٢) سورة الصافات اية ٤٩

(٣٣) الملاحف : الأغطية . والومد: ندى يجيىء في صميم الحر من قبل البحر مع سكون الريح.

(٣٤) المبرد : الكامل ٥٢/٣

ومعنى حد التشبيه الا يفترض صاحبه وجه شبه ليس بمنطقي كأن يشبه المرأة مثلا بالقمر لغير ارادة استدارة الوجه والاشراق . اما ان يشبهها به في العلو فذلك امر مرفوض لايرتضيه المنطق ولا الواقع . وقد استحسن المبرد وصف جرير صاحبته ام نوح بأنها كالمزنة في قوله :

ماستوصف الناس عن شيء يروقهم ... الا رأوا أم نوح فوق ما وصفوا
كأنها مزنة غـراء رائحة ... او درة لايواري ضوءها الصدف

وعلـق عليه بقوله : (فالمرأة تشبه بالسحابة لتهاديها وسهولة مرها قال الاعشى :

كـأن مشيتهـا مـن بيـت جارتهـا ... مـر السحابـة لاريـث ولا عجل) (٣٥)

وهو لايروم بهذا التشبيه غير وصفها بالتهادي والاتزان في سيرها عزة وعفافاً وحشمة . وكبراً وهذه هي الصفات المستحسنة في النساء ، كما انه لم يرد ايضاً غير اشراق وجهها ووسامته عندما شبهها بالدرة . ولو اراد ان يشبهها بهذه لغرض الصلابة مثلا لانتفى التشبيه .

والتشبيه عند المبرد من اكثر كلام الناس وهذا استنتاج سليم لان المنطق يحتم على المتكلم ان يفصح عن اغراضه العقلية وفي بعض المواقف لايمكن ان يتم هذا الافصاح الا بقرينة وهذه القرينة ربما تكون حركة باليد او إشارة بالرأس . وربما تكون صورة تساعده على الفهم او تعميق دلالة على ما يريد المتكلم به ان يقدمه إلى السامع . والمشبه باعتباره كفة الميزان الاخرى عند المتحدثين قد يكون ما وضع فيها مأخوذا عن اصل معروف ولهذا قال المبرد : (والتشبيه كما ذكرنا من اكثر كلام الناس . وقد وقع على ألسن الناس من التشبيه المستحسن عندهم . وعن اصل اخذوه ان يشبهوا عين المرأة والرجل بعين الظبي او البقرة الوحشية . والأنف بحد السيف . والفم بالخاتم . والشعر بالعناقيد . والعنق بابريق فضة . والساق بالجمار . فهذا كلام جار على الألسن) (٣٦) .

وقد أضاف في موطن آخر : والعرب تشبه المرأة بالشمس والقمر والغصن الكثيب والغزال والبقرة الوحشية . والسحابة البيضاء . والدرة . والبيض وانما تقصد كل شيء إلى شيء) (٣٧) .

---

(٣٥) المبرد : الكامل ٣/٥٣

(٣٦) المصدر نفسه ٣/١٣٢ — ١٣٣

(٣٧) المصدر نفسه ٣/٥٤

ومن امثلة ذلك قول ذي الرمة :

ومـية أحسـن الثقليـن جيداً (٣٨) وسالفة وأحسنهـم قـذالا
فلـم ار مثلهـا نظـراً وعينـاً ولا أم الغـزال ولا الغـزالا
تـريك بيـاض (٣٩) غـرتها روجهـاً كقـرن الشمس أنتـق (٤٠) ثم زالا
أصاب خصاصـة (٤١) فبدا كليلا كلا وانفـل سائره انفـلالا (٤٢)

فها هو ذو الرمة يشبب بمية فيرى من محاسنها ما لم يترفر في مثلها لاني الانس ولا في الجن لقد اوتيت جيداً وسالفة وقذالا لم يؤتهن غيرها ولو ان معترضاً انكر هذه المحاسن وأراد ان يشبهها فجعل نظرتها كنظرة غيرها رعينها كعين من سواها . وانها توشك ان تكون غزالا او ام غزال لجافى الصواب . ووضع الشيء في غير موضعه . انها لما تعرض لك ترى منها غرة تتلألأ . رىبياض وجه يشرق نكأنها الشمس عندما تتبدى ثم تتوارى . فظهور الشمس من خلال السحاب كنظرة سريعة من خصاصة . ونور الشمس في مثل هذه الصورة يكون كليلا متراوحاً بين الجلاء والاختفاء . ولكن إلى الاختفاء اميل لأن الشمس ستوغل بعد ذلك في ثنايا السحب ان ذا الرمة في تشبيهه مصور بارع ينقل لنا في شعره صورة مطابقة كل المطابقة لما يصوره من اشياء : هو فني في تصويره . استمع اليه في قوله :

تريك بيـاض غـرتهـا ووجهـاً كقـرن الشمس افتـق ثم زالا

فانه تشبيه رائع يدل على دقة الملاحظة لمظاهر الأشياء . اذ شبه بياض غرتها ووجهها بقرن الشمس وجد فتقاً فبدا ثم توارى .

---

(٣٨) الثقلين : الانس والجن . رسالفة : السالفة . ناحية العنق . والقذالا ن : ناحيتا القفاس الرأس

(٣٩) بياض غرتها : في ديوانه (بياض لبتها)

(٤٠) افتق قرن الشمس : اصاب نتقاً من السحاب نبدا منه . تقرل العرب : دام علينا القيم ثم انتقنا ، راذا نظر الى الشمس والقمر من فتق السحاب فهو أحسن مايكرن وأشده استنارة.

(٤١) خصاصة : هي كل ثقب من سحاب رباب رمصفاة . وكلا : يريد في سرعة مابدا ثم غاب والعرب اذا أرادت تقليل مدة أو ظهور شيىء خفي قالت : (كان فعله أو ظهوره كلا) وانفل : دخل واستتر .

(٤٢) المصدر نفسه ٥٤/٣

ولعل فيما تقدم مايلفت الانظار إلى ان هذه التشبيهات تقع ضمن المحسوسات اذ أنها لاتوغل في الامور المعنوية والخيالية . ولو تصورنا رساماً متخصصاً ينقل هذه الصور اللفظية إلى صورة مرئية لرسم لوحة فنية للمرأة المتصفة بهذه الصفات التي اوردها ونمقها فكر ذي الرمة لأبرز لنا صورة رائعة اشد الروعة بما تحويه من الجمال المتناسق الذي يقع ضمن الموازين الجمالية لعصر ذي الرمة . ولعل العديد من هذه الموازين يصلح للجمال المثالي في عصرنا وقال المبرد ايضاً في موطن آخر مشيراً إلى التشبيه المطرد عند العرب :

(ومن التشبيه المطرد على ألسنة العرب ماذكروا في سير الناقة وحركة قوائمها قال الشماخ :

كأن ذراعيها ذراعا مدلة (٤٣)
بعيد السباب حاولت ان تعذرا

من البيض (٤٤) اعطافها اذا اتصلت دعت
فراس بن غنم او لقيط بن يعمرا

بها شرق من زعفران وعنبر (٤٥)
اطارت من الحسن الرداء المحبرا

وتقول وقد بل الدموع خمارها
أبى عفتي ومنصبي ان أعيرا

كأن بذفراها (٤٦) مناديل فارقت
أكف رجال يعصرون الصنوبرا

كأن ابن آوى موثق تحت غرضها (٤٧)
اذا هو لم يكلم بنابيه ظفرا) (٤٨)

---

(٤٣) مدله : أدلت المرأة بجمالها : اجترأت عليك تظهر محاسنها . وبعيد السباب أي عقب المسابه .

(٤٤) البيض : جمع بيضاء . وهي النقية العرض من الدنس . والأعطاف : الجوانب واتصلت : انتسبت . وفراس : رجل عزيز وغنم – بالفتح – وهو إبن تغلب . أو لقيط (أو) بمعنى (الواو) . ولقيط بن يعمر : رجل عزيز .

(٤٥) شرق وصدر شرق بالطيب : اذا امتلأ . وأطارت : زمت . والمحبر : المزين

(٤٦) الذفري : من نصف المقذ الى اصول الاذنين . وفارقت : قاربت . و يعصرون الصنوبر : يستخرجون ما فيه

(٤٧) موثق : مكتوف . والغرض : حزام الرحل . ويكلم : يجرح . وظفرا : أصابها بأظافره

(٤٨) المصدر نفسه ١٠٣٣

شبه سرعة ذراعي ناقته في السير بذراعي امرأة مدلة بحسنها وجمالها تريد براءة ساحتها عما رموها به ، وهي النقية العرض من الدنس ، الطاهرة الذيل ، الحصان التي لا تنزل الريبة بساحتها ، اذا انتسبت،انتسبت إلى اشراف الناس . ولهذا فانها لاتفتر عن نفي ما رميت به، وانها لا تختمر كيلا تحتجب مفاتنها عن الناظرين،ولا بتواجها لكل ما في وجوهها من المفاتن والمحاسن . ولربما عد هذا التبرج عيباً فيها ولكنها تنفي ذلك بدموعها وتقول انني ذات عفة ومنصب ونسب .... ثم يعود إلى ناقته وقد اغذت السير . واصابها النصب ، ووالت العدو حتى اسودت ذفراها كأنها مناديل رجال قد اعتصروا الصنوبر ، وكأن ابن آوى قد توارى تحت غرضها الذي يعلو ويهبط من شدة العدو ، فهوان لم يجرحها بنابيه خدشها ، فهي لا تهدأ ولا تجد برد الطمأنينة .

هذا التشبيه البارع المصور للمرأة وهي تذب عن عرضها وتحمي حصانتها هو الدافع إلى انفعالها وغضبها وتحمسها في المسابة والاعتذار كل اولئك مما يجعل يديها اشد سرعة ، وأقوى حركة ، وهذا ما حدا بالشاعر ان يستمد من هذه الصورة الاجتماعية المألوفة السمات الفنية لابراز الخصائص القوية التي اتسمت بها هذه الناقة .

وإذ قد ترامى بنا الحديث على منابع التشبيه وحدوده . وتباعد اطرافه وجب علينا ان نقف وقفة عند لون من التشبيه تعرض له المبرد فيه شيء من العمق والدقة، وهو التشبيه الذي لم يرد صريحا على ما الف في هذا الباب . فيقول : (والعرب تختصر في التشبيه ، وربما اومأت به ايماء . قال احد الرجاز :

بتنا بحسان (٤٩) ومعزاه تئط ... مازلت اسعى بينهم والتبط
حتى اذا كاد الظلام يختلط ... جاءوا بمذق هل رأيت الذئب قط

فالمذق عنده مقول في لون الذئب . واللبن اذا جهد (٥٠) وخلط بالماء ضرب إلى الغبرة) (٥١) .

---

(٤٩) بحسان : اسم رجل استضافه . وتئط : من الاطيط . وهو صوت الامعاء من الجوع واسعى بينهم . يريد بين حي حسان.والا لتباط :العدو والوثوب . يريد بذلك طلب الغذاء
(٥٠) جهد اللبن : اخرج زبده كله .
(٥١) المصدر نفسه ١٤٩/٣

هذه لفتة من المبرد لطيفة دقيقة ، وكأنه يقول ان من صور التشبيه ما لايجيء بالأدوات المعروفة ، وانما تجيء باسلوب آخر في صورة الاستفهام مثلا ، بحيث يكون مضمون الاستفهام دالا على المقصود من التشبيه ، وهذه الملاحظة مهد بها المبرد لتسمية هذا اللون التشبيهي عند البلاغيين بالتشبيه الضمني . (فكلمة الذئب هنا أغنتنا من تفصيل كثير كنا في حاجة اليه لو لم يأت التشبيه) (٥٢) ذلك أننا لو أردنا التفصيل لكان علينا أن نقول ان هذا اللبن الذي ضرب بلونه الى الغبرة بعد خلطه بالماء يشبه لون الذئب الضارب جلده الى الغبرة .

٣ – نماذج من التشبيهات المستحسنة :

ولعلنا استطعنا فيما تقدم أن نرسم صورة لمذهب المبرد في دراسة التشبيه ، وتحديد ما يتعلق بأضربه ومنابعه وحدوده ، ولا مندوحة لنا من وقفة عند نصوص في التشبيه أثارت في نفسه الاعجاب والاستحسان والنقد لتستبين لنا رقة ذوقه ، ودقة فهمه ، وحسن تفضيله . ومما يجدر بنا ان نشير اليه في هذا المقام انه لم يقتصر على آثار القدماء وما ورد لهم من تشبيهات رائعة ، بل انه استحسن كثيراً من شعر المحدثين ووقف منه موقف الاعجاب لقيمة ما أتوا به ، وجودته ونفاسته ، واتخذ من شعرهم الحسن بن هانيء نموذجاً لروائع التشبيهات ، وقرن اليه شعر آخرين من بشار وغيره .

أ – قال أمرؤ القيس :

اذا ما الثريا في السماء تعرضت
تعرض أثناء الوشاح المفصل

وقد علق المبرد عليه قائلا : (وقد اكثر الناس في الثريا فلم يأتوا بما يقارب هذا المعنى ، ولا بما يقارب سهولة هذه الالفاظ) (٥٣) .

كان يجدر به أن يستعرض طرفاً مما قاله الشعراء في الثريا كي يتمكن القارىء ان يوازن ثم يحكم ، وان كنا نرى البيت يستأثر بكثير من سمو المعنى ، وروعة التصوير . والشعراء الذين وصفوا الثريا كثيرون نختار منهم واحداً ونوازن بينه وبين امرىء القيس .

(٥٢) على الجندي : فن التشبيه ٥٨/١
(٥٣) المبرد : الكامل ٣٣/٣

قال أبو قيس بن الأسلت : (٥٤)

وقد لاح في الصبح الثريا لمن رأى

كعنقود ملاحية (٥٥) حين نورا

لقد شبه امرؤ القيس (الثريا) بالوشاح المطوي المطرز الذي فصل مابين كل خرزتين فيه بلؤلؤة أو حبة من فضة . اذ كان العرب يحلون الوشاح بأجرام مستديرة بيض على شكل مثلث ليست متصلة ولامتباعدة ليتحقق التشبيه ، ولو كانت الأجرام على سنن واحد طوالا ، أو كانت متلاصقة لبطل التشبيه .

وأما أبو قيس فقد شبه (الثريا) بعنقود ملاحية حين لاحظ في الثريا الأنجم نفسها وشكلها ولونها وانتظامها على هيئة مثلث ثم طلب لذلك نظيراً فأصابه في عنقود العنب حين يظهر نوره فان فيه أجراماً صغاراً بيضاً مستديرة مؤلفة على شكل ليست متلاصقة ولا متباعدة . ووجه الشبه بين البيتين هيئة اجتماع صور بيض مستديرة صغار المقادير لا هي منضمة شديدة الانضمام ، ولا هي متباعدة شديدة البعد ، والملحوظ أن البيتين قد توفرا على مجموعة من الصور الحسية المنظورة . والبلاغيون يعدون تقابل الصور وتناظرها تمثيلا بسبب التركيب الذي تتمخض عنه صورة من الصورتين ، ولا يمكن أن يصل الأديب الى احسان هذا النوع من الفن البلاغي الا اذا نظر نظرة امعان وروية يخرج منها مايدعو الى الاستحسان والاعجاب . ولهذا تفاوت الأدباء في قدرتهم على ذلك ، وحين تبدر من أحدهم قولة فيها شيء منه تبدو مثار الدهشة اذا نظر فيها الى عبقرية الأديب على التنظير بين الصورتين ، ولعل اعجاب المبرد ببيت امرىء القيس مصدره أن الثريا كانت قد علت الأفق فانكشفت وأبدت محاسنها للناظرين ، وعلى هذا لم يكن المشبه مفرداً ، بل انه الثريا بما دار حولها من مكملات صورتها ، ويقابلها في الطرف الآخر الوشاح الذي تتمنطق به الحسناء وفيه من الأحجار الكريمة والفضة ما يلمع في طياته ، ولم يرد الشاعر الوشاح مجرداً لأنه قد يوجد وشاح يخلو من كل ذلك ، كما أن المشبه به في بيت ابن الأسلت لم يكن أي عنقود من العنب ، بل انه (عنقود ملاحية حين نوره بالظهور) .

---

(٥٤) الاسلت : لقب ابيه واسمه عامر بن هاشم بن وائل . وهو من شعراء الجاهلية

(٥٥) الملاحي : - بضم الميم - عنب ابيض في حبه طول . ونور : تفتح نوره .

ب- وقال أيضاً في ثبات الليل وطوله (٥٦) :

فيالك (٥٧) من ليل كأن نجومه
بكل مغار الفتل شدت بيذبل

عانى امرؤ القيس الأرق لما به من هموم مبرحة ، وآلام مضنية ، وأحزان مقيمة وكان يرقب النجوم فلم يرها تزايل مكانها أو تبرح مواقعها ، فتخيلها كأنها مشدودة بأمراس شدت الى جبل يذبل فغدا طول الليل مثار شكواه ، ومناط عجبه .

ج- ومن أعجب التشبيه قول النابغة (٥٨) :

فانك كالليل الذي هو مدركي
وان خلت ان المنتأى عنك واسع

ان النابغة في هذا البيت يمدح النعمان ، وان كنا نحس خوفه الا انه خوف شاعر بارع بأساليب البيان، مفتن فيها ، دقيق الاشارة ، لطيفها ، فهو يصور سلطان النعمان، وانه لايفوته هارب ، ولذا شبهه بالليل الذي يعم الارض، ويلف برواقه كل قاص ودان : وهو تشبيه رائع جديد بأن يثير الاعجاب والروعة ، لان التشبيه بالليل واقع موقعه ، ولا يقوم مقامه التشبيه بالنهار - وان كان مثله يعم الأرض - لأن المقام مقام رهبة وغضب .

د- وقال ذو الرمة (٥٩) :

وماء قديم العهد بالانس آجن (٦٠)
كأن الدبا ماء الغضا فيه تبصق

وردت اعتسافاً (٦١) والثريا كأنها
على قمة الرأس ابن ماء محلق

فادلى غلامي دلوه يبتغي بها
شفاء الصدى والليل أدهم أبلق (٦٢)

---

(٥٦) المبرد : الكامل ٣/٩٠

(٥٧) فيالك من ليل : تعجب من طول الليل . ومغار الفتل : مشدودة ويذبل : اسم جبل

(٥٨) المصدر نفسه ٣/٣٣

(٥٩) المصدر نفسه ٣/٣٤ آثرنا ترتيب الا بيات على النحو الوارد بالديوان لتظل الصورة واضحة المعالم . منتظمة الاطراف على غير ما جاء به من تقديم وتأخير تفسد معه الصورة، انظر ديوان ذي الرمة ٤٨٩/١ ، ٤٩٦ تحقيق الدكتور عبد القدوس ابي صالح .

(٦٠) آجن : متغير الطعم واللون والدبا : الجراد والغضا شجر له هدبه اذا أكلته الا بل اشتكت بطونها

(٦١) الاعتساف : السير على غير هدى . وابن الماء: طير من الطيور ومحلق على مرتفع

(٦٢) ادهم ابلق : فيه سواد وبياض

فجاءت بنسج العنكبوت كأنه على عصويها (٦٣) سابري مشبرق

رب ماء آجن لا عهد له بالواردين منذ أمد بعيد ، وأن العناكب ضربت بيوتها عليه . قد ورده بليل وكاد الصدى يرديه فأرسل دلوه يمتح وهو يبتغي برءاً من هذا الصدى ، فاذا بالماء أصفر مشوب بالسواد كأن الجراد قد امتص من شجر الغضا ثم بصقت فيه.

بلغ ذو الرمة في دقة الوصف حد الاتقان والجودة ، ورسم صوراً محكمة التصوير صادقة لكل ما وقعت عليه عينه ، فوفق أيما توفيق ، وأبدع ما شاء له الابداع في هذه الأبيات الغنية بالتشبيهات الرائعة فهو يشبه الماء المتغير لونه بما تحلب من شجر الغضا في الصفرة المشوبة بالسواد ، وأضفى على التشبيه بهجة وراء تخيله أن الجراد امتص من هذا الشجر ثم بصقت فيه والثريا يطير ويحلق ونسيج العنكبوت بثوب رقيق تمزق،والليل وقد نجم فيه الفجر مغرس أدهم أبلق .

هـ – وقال عمر بن أبي ربيعة :

أبصرتها ليلـــة ونسوتهـــا يمشين بين المقـــام والحجـــر
يـرفـلـن (٦٤) في الـريط والمروط كما تـمـشـي الهـويـنى سواكن البقر

علق المبرد عليهما بقوله : (فهذه تشبيهات غريبات مفهومة) والغرابة التي ينبه عليها المبرد أن الشاعر شبه محبوبته بمشيء سواكن البقر ولكن المقصود من هذا التشبيه انما هو التهادي في أناة ولا ينظر الى شيء آخر سواه . ويبدو للقاريء أول وهلة التناقض بين وصف المبرد للتشبيهات في هذين البيتين بالغرابة وبين وصفه اياها بالفهم أي بالوضوح . ولا تناقض بين الوصفين فان العرب تدرك بيسر وجه الشبه بين صفوة من النساء يتهادين ويتمايلن وبين سرب من البقر يسير متهادياً متمهلا . فالصورة واضحة لا يكد الذهن في استيعاب أبعادها ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، ففي الصورة جمال وبراعة وابداع كل أولئك لفتت الأذهان ، واستأثرت بالاعجاب . وهنا تكمن الغرابة ، وبذلك نستطيع أن نقرر باطمئنان أن المبرد أعطى للغرابة مدلولا جمالياً جديداً حيث وصف بالغرابة كل صورة تتجاوز الاطار التقليدي الى هيئة تستأثر بالاعجاب .

وبعد أن أوردنا فيما تقدم نصوصاً من شعر المتقدمين نرى من المناسب أن نعرض لأخرى من نصوص المحدثين جديرة بالدراسة من خلال ما قاله المبرد عنها .

---

(٦٣) العصوان : عرقوبا الدلو . والعرقوبان : الخشبتان اللتان تمترضان على الدلو. والسابري، الرقيق والمشبرق : الممزق .

(٦٤) يرفلن : – بضم الفاء – من رفلت في ثيابها رفلا . جرت ذيلها وماست . والريط جمع ريطة . وهي الملاءة غير ذات لعقين كلها نسيج واحد. والمروط : جمع مرط. وهو كساء من صوف أو كتان .

أ ـ قال المبرد : (ومن أكثرهم (٦٥) تشبيهاً .لاتساعه في القول. وكثرة تفننه .واتساع مذاهبه . الحسن بن هانيء . قال في مديحه الفضل بن يحي بن خالد بن برمك :

وكنا إذا ما الحائن الجد غره(٦٦) سنا برق غاو أو ضجيج رعاد
تردى له الفضل بن يحي بن خالد بماضي (٦٧) الظبا أزهاه طول نجاد
أمام خميس (٦٨) أرجوان كأنه قميص محوك من قنا وجياد
فما هو إلا الدهر يأتي بصرفه على كل من يشقى به ويعادي (٦٩)

ففي قوله (أمام خميس أرجوان كأنه قميص محوك من قنا وجياد) يستأثر باعجابنا ما فيه من تنسيق وتقسيم حيث ان الصورتين المتقابلتين فيه صورة الجيش بعدده الكاملة بأنواعها المختلفة . فمنها مايلمع سيفاً أو سناناً ومنها ماهو أسمر رمحاً . وبين هذا وذاك تملأ الأرض ألوان الجياد ، والذي يستشرف هذا المنظر من عل يراه قميصاً محوكاً من قنا وجياد، ومبعث الروعة في هذا التصوير انما هو استغراب من الصورة التي وصفناها . والأغرب من ذلك أن يكون المقابل قميصاً وهو ـ كما نعلم ـ لابد أن يكون شيئاً مفهاذاً ليناً والذي يحير اللب ويشده البصيرة أن حياكته من القنا والجياد فالشاعر أفتن في دقة التصوير افتناناً بعيد المدى واسع الخيال . وان دل هذا على شيء فانما يدل على دقة الشاعر المحدث . ولطف نظره ، ونفاذ خاطره، وتموج عاطفته، والقدرة البارعة على الأداء والتصوير .

على أننا ونحن بازاء الحديث عن ابداع المولدين في التشبيه وتجويدهم فيه . وان مصدر ذلك ماجد في حياة الأمة من حضارة ولين في العيش . واتساع في ألوان الحياة كل ذلك كان له أبلغ الأثر فيما نظم الشعراء وفي تنظير الأشياء بأمثالها ، يبدو ذلك سمة عامة يتسم بها شعرهم وإن كان الشعر القديم لايخلو من مثل هذه السمة الفنية الطريفة على بداوه الشعراء وبعدهم عن الحضارة وبساطة حياتهم في الصحراء . وقلة مايبعث فيها الحس ويثير الخيال لأنها لاتعدو أن تكون فضاءً واسعاً، أو كثبان رمال ، أو نباتاً موزعاً هنا وهناك، وهناك تردد بين جنباتها صنوف من الحيوان عني الشاعر القديم بوصفها وافتن أيهما افتنان في ذلك ولاسيما الظبي .

---

(٦٥) الضمير يعود الى المحدثين

(٦٦) الحائن الجد : يقال حان الرجل : إذا دنا موته، والجد : الحظ ، ولعله يريد عاثر الجد والحظ والغاوي : من الغي وهو الضلال. والرعاد : جمع الرعد وهو صوت يدوي عقب وميض البرق.

(٦٧) ماضي الظبا : الماضي : القاطع . والظبا : ظبة كل شيء حده . ويقال : وخزه بظبة السيف : يراد بذلك حد طرفه . وأزهاه : رفعه وأعلاه . والنجاد : حمائل السيف .

(٦٨) خميس ارجوان : الخميس : الجيش والارجوان بضم الهمزة صبغ احمر شديد الحمرة.

(٦٩) المصدر نفسه ١٣٥/٣ .

وإن بين أيدينا بيتين من شعر المولدين برع الشاعر المولد أشد البراعة في تصوير موقف الوداع والرحيل إذ وصف(الظبي) وصفاً استوقف المبرد وأثار كوامن اعجابه ،وعده من مليح التشبيه وهو قول أبي نؤاس (٧٠)

ب ــ وكأن سلمى إذ تودعنا   وقد اشرأب (٧١) الدمع أن يكفا
رشا (٧٢) تواصين القيان به   حتى عقدن بأذنه شنفا

إن الشاعر في هذا التشبيه المليح ــ كما وصفه المبرد ــ يشبه صاحبته التي تهم بالرحيل بالظبي وقد بدأ الدمع يكف من عينيها ناصعاً براقاً ولكن كيف يكون الظبي مشبهاً به ازاء هذه الصورة ليس الظبي الشارد في الفلوات .بل أنه الظبي الأليف الذي تتواصى الفتيات بتعليق الأشناف البراقة في أذنيه على امتناع منه واباء وصاحبة الشاعر تبكي ولكنها تعاصي البكاء ويغلبها الدمع وهنا تتماثل الصورتان بشكل دقيق . وان المتأمل في هذه الصورة الرائعة لايخالفنا في أن الشاعر موفق جد التوفيق فيها فأوقعها أحسن موقع .

ونعود ثانية مؤكدين ابداع المحدثين في التشبيه . ومتخذين بشاراً لأنه كان ذاً قدرة فائقة في الوصف، واسع الخيال ، تام الجودة ، رائع التصوير ،ومن أروع الصور التي نمقها فكره، وأضفى عليها بيانه حللاً من الرواء والبهجة قوله يصف كلام صاحبته .قال المبرد فيه :

ومن حسن تشبيه المحدثين قول بشار بن برد العقيلي : (٤)

وكأن تحت لسانها   هاروت ينفث فيه سحراً
وتخال ما جمعت عليه   بنانها ذهباً وعطراً

ان بشارا يصف حلاوة كلام صاحبته أبدع تصوير وأروعه . ثم يجهل من أن تأتي هذه الحلاوة أنها سحر بكلامها . وكأن هاروت ذلك الملك الذي أُشير أنه كان ببابل فهي وصف جسد هذه الفتاة لاشك في أنه يجهل لون بشرتها وان كان لا يجهل طيب رائحتها . فان ثيابها عنده لم تنضم إلا على جسد من الذهب مضمخ بالعطر . وله الحق في أن يغلو مثل هذا الغلو

(٧٠) المصدر نفسه ٣/١٤٢

(٧١) اشرأب الدمع : يقال : اشرأب لأن يكلمني . اذا تهيأ لكلامك . واشرأب الدمع . تهيأ الوكف .

(٧٢) الرشا : الظبي اذا قوي واشتد ساعده . وتواصين : اوصت بعضهن بعضا .

نظراً إلى ظرفه الخاص. وبعبارة أصح أن الشاعر كان يتخيل الأشياء ولا يراها . وادراكه لتناظر الصور مسألة عقلية مجردة استطاعت شاعريته الفذة أن تجعلها متسمة بالطابع الفني الذي يتمتع به كثير من الشعراء المبصرين. ولولا الاطالة لسقنا كثيراً من روائع بشار التي بزّ بها كثيراً من الشعراء المبصرين . . .

وخاتمة المطاف أن رأينا فيما تقدم دوران المبرد حول التشبيه . يقسمة ويذكر النماذج لكل قسم ثم يغوص في اصوله وما يراد به في كل حال. وينفي عنه بعض صور الاحتمال التي قد تخرج به عن المقصود . ولأول مرى نرى اماماً في النحو واللغة يعده الناس حجة في النحو واللغة يتناول التشبيه بهذه النظرات الدقيقة النافذة إلى خفايا المعاني . وهو بعد هذا كله لا يزعم أنه أحصى فنون التشبيه وصوره المنوعة التي يجيء عليها فيقول : (والتشبيه كثير وهو باب كأنه لا آخر له. وانما ذكرنا منه شيئاً لئلا يخلو هذا الكتاب من شيء من المعاني) (٧٣) ولعل أظهر مايظهر من ثنايا ماتقدمنا من نصوص أن المبرد كان يفهم التشبيه فهماً أدبياً أسلوبياً ،(ويعتبره معنى من المعاني. وليس مجرد صنعه لفظية) (٧٤) وهو بهذا من أولئك العلماء الذين يركن إلى فهمهم الدقيق لعلاقة الفكر بالصورة الفنية وهو في كل ماتقدمه لم يرد وضع قاعدة لهذا النوع من الرسم بالكلمات كما فعل علماء البلاغة حين جعلوا من التشبيه آلة قانونية كما جعل النحاة نحوهم آلة قانونية مع اغفالهم علاقة الذوق بكل ذلك . وهذا يعني أيضاً أنه لم يكن يطمح إلى شيء من التقنين للتشبيه وتقعيده بل أنه رسم له ملامح وسمات عامة يتضح لنا جلياً من خلال تقسيماته وتفصيلاته السابقة . فهو في استعماله لعبارات (المفرط المصيب . المقارب . البعيد . المليح . الحسن ...) لم يهدف إلى وضع مصطلحات محددة لأنواع التشبيه بقدر ماأراد أن يصف هذه الأنواع من خلال الموقف الذوقي الذي حدد في ضوئه تلك الأنواع وفق المنهج الذوقي الذي حدد في ضوئه تلك الأنواع وفق المنهج الذوقي في النقد يصف ولا يحدد .ولست بمسرف إن قلت أن المبرد خطا بالتشبيه خطوات أظهرت نوائده . وأنارت السبيل لمن بعده من العلماء يأخذون عنه، ويأتون بالمزيد من من الروائع في هذا الفن. وان نظرة إلى المؤلفات التي ألفت في البلاغة من بعده ترينا أكثر الشواهد قبس من جهوده المبثوثة في تضاعيف الكامل . وقد حاول الأستاذ علي الجندي الربط بينه وبين ابن المعتز فقال متكلماً على المبرد (ولعله كان قدوة لابن المعتز في ذلك)(٧٥). وقال مشيراً إلى ابن المعتز

(٧٣) المصدر نفسه ٣/١٥٢

(٧٤) دكتور عبد القادر حسين . أثر النحاة في البحث البلاغي ٢١٦

(٧٥) علي الجندي : فن التشبيه ٤٠/١

(وعقد باباً سماه حسن التشبيه عرض فيه أمثالا كثيرة للتشبيهات الرائعة البديعة لجماعة من الشعراء القدامى والمحدثين مبتدئاً بأمرىء القيس أيضاً كما ابتدأ المبرد) (٧٦) وأشار الدكتور احمد مطلوب الى ان الخطيب القزويني قد استفاد فيما استفاد مما كتبه المبرد في هذا الفن أيضاً) (٧٧) مما يؤكد انه كان رائداً في دراسة التشبيه ومحاولة وضع معايير له من خلال التقسيمات التي اوضحناها في البحث ومن خلال الامثلة التي ساقها طي كتابه (الكامل) .

المصادر

١ ــ أثر النحاة في البحث البلاغي : الدكتور عبدالقادر حسين . مطبعة نهضة مصر ــ القاهرة ١٩٧٠

٢ ــ البديع : ابن المعتز . طبع بريطانيا ١٩٣٥

٣ ــ ديوان ذي الرمة : تحقيق الدكتور عبدالقدوس ابي صالح . مطبعة المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٧٢

٤ ــ الصور الفنية في التراث النقدي والبلاغي : الدكتور جابر أحمد عصفور . طبع دار الثقافة للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٩٧٤ .

٥ ــ علم البيان : الدكتور بدوي طبانه . مطبعة الرسالة ــ مصر ١٩٦٢

٦ ــ القزويني وشروح التلخيص : الدكتور احمد مطلوب . مكتبة النهضة ــ بغداد ١٩٦٧

٧ ــ فن التشبيه : علي الجندي . مطبعة نهضة مصر ــ القاهرة ١٩٥٢

٨ ــ في تاريخ البلاغة العربية : الدكتور عبدالعزيز عتيق . طبع دار النهضة العربية بيروت ١٩٧٠

٩ ــ الكامل : المبرد : تحقيق ابي الفضل ابراهيم والسيد شحاتة . مطبعة نهضة مصر ــ القاهرة

---

(٧٦) المصدر نفسه : ١/٤١ . وانظر ايضا كتاب البديع لعبد الله بن المعتز نشر وتعليق أغناطيوس كراتشفوفسكي ٦٨ــ٧٢ .

(٧٧) القزويني وشروح التلخيص . الدكتور احمد مطلوب ٢٥٤

الدكتور سالم الحمدانى

المنهج العلمي

بين الجاحظ وابن خلدون

صلتي بهذا البحث بعضها قديم ، يرجع الى ايام دراسة الماجستير ، حين كانت كلية الآداب بجامعة القاهرة ، تقضي الالمام بعبقرية ابن خلدون ، شرطا لاجتياز امتحان السنة الاولى فيها . وقد وقفت حينئذ على شيء كثير من جوانب فكر الرجل ، في ثقافته وعبقريته يتمثل بالنظريات الاجتماعية التي لاتزال جامعات الشرق والغرب تعتمدها الى الآن .

أما الجانب الآخر الذي يصلني بهذا الموضوع فهو جديد ، بدأ حين عهد الي تدريس (البيان والتبيين) للجاحظ في السنة الرابعة بقسم اللغة العربية ، فقد كان لابد ان احيط بفكر الرجل من جوانبه المختلفة ، لا من خلال هذا الكتاب فحسب ، بل من خلال كتبه الأخرى ، وعلى الأخص كتاب الحيوان .

وحين اطلت الوقوف على هذا الكتاب شدني اليه ما شدني الى مقدمة ابن خلدون . وعدت بذاكرتي الى سنين مضت ، فاذا الاثنان يلتقيان في أكثر من جانب ، ولكن أساس هذا اللقاء في ما رأيت ، المنهج العلمي الذي جمع بين العقلين الكبيرين .

واذا كان منهج البحث هو الطريق الذي يصل به الباحث الى الحقيقة ، وانه يستخدم في الوصول اليها وسائل معينة يقف بها على حقائق الامور ، فما اجدر ان يكون لكل من الجاحظ وابن خلدون منهج يقوم على التفكير العلمي الى حد ما . واقول الى حد ما لأحتاط من بعض ما يوجه من نقد الى الرجلين فيما توصلا اليه من الحقائق ، اذ لابد من ملاحظة بعد المسافة الزمنية التي تفصل بين عصرنا وعصر هذين المفكرين (١) . فقد مات الجاحظ في منتصف القرن الثالث الهجري ، بينما ودع ابن خلدون الحياة في (٨٠٨هـ) فاذا علمنا ان (بيكون) العالم الفرنسي الذي استمد الكثير من قضايا الطبيعة مما تركه الجاحظ عاش في القرن السابع عشر الميلادي ، وان (اوجست كونت) الذي اعتمدت نظرياته في علم الاجتماع على ماقرره ابن خلدون في هذا العلم ، قد عاش حتى مفتتح القرن التاسع عشر ، ادركنا ضخامة العقل وروعة الفكر الذي دفع بي الى الربط بين الرجلين . وقد يكون السؤال معقولا ومقبولا ، اذا تذكرنا انهما لايجتمعان على اختصاص واحد فقد اختص ابن خلدون بكتابة التاريخ ، واشتهر بمقدمته المعروفة ، بينما عرف الجاحظ عن طريق (البيان والتبيين) وبواسطة كتاب (الحيوان) والبخلاء والكتب التي لاتمت بصلة في اكثرها الى التاريخ ، فالأول اقرب الى ان يكون مؤرخا ، والثاني اكثر ميلا الى الأدب منه الى أي شيء آخر ، ويكون الرد حينئذ ، ان القصد من البحث ليس المقارنة

---

(١) انظر : علي عبد الواحد وافي : عبقريات ابن خلدون ص ٢٠٦ .
وجورج غريب : الجاحظ ص ٦١ .
ومحمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٣٤٦

بين جوانب التخصص وأنواع المعارف عند الرجلين ، فذلك مما يختلف فيه أحدهما عن الآخر ، فابن خلدون هدف الى تخليص بحوث التاريخ مما اصابها من ضعف وبعد عن الحقيقة ، وتجاهل لنواميس الكون والطبيعة وتطور حياة المجتمعات الانسانية من جيل الى جيل ، ووصلت به هذه البحوث الى جملة من النظريات الاجتماعية والفلسفية التاريخية ، فكان مقياسه في ذلك عقل علمي وبحث يعتمد على التجربة والمشاهدة ورفض لواقع التفكير السائد في عصره . ومن هنا اعتبره الباحثون (سابقاً لعصره ، وانه اصدق شاهد على عبقريته وعلى اتجاهه العلمي في دراسة المجتمع ، انه حدد الطريقة في علم الاجتماع واهتدى الى كشف عن كثير من حقائق هذا العلم) (٢) واما الجاحظ فقد توصل بشغفه العلمي وعقله الفذ الى جملة من التجارب التي اسمح لنفسي ان اسميها (تجارب مختبرية) وذلك من خلال حس دقيق وملاحظة عميقة وتجربة علمية يستخدم في سبيلها كل ماوقع تحت يده من وسائل حسية ومشاهدة عينية ونظرة موضوعية ومساءلة منطقية ليؤكد بها عقله الذي رفض الكثير مما كان يسود عصره . وهذا السلوك العلمي هو الذي جعلني اجمع بين هذين المفكرين المسلمين .

ومن هذا الجانب يراه بعض الدارسين واحدا (من رجال العلم الطبيعي . ومع انه استمد كثيرا من معلوماته في الحيوان ...من الروايات الغريبة ... فانه كان ذا ميل صحيح الى العلوم الطبيعية . وفي كتابه ملاحظات قيمة في التطور واثر البيئة وفي علم النفس عند البشر والغرائز في الحيوان . والجانب التجريبي في كتاب الحيوان بارز جدا . ثم ان الجاحظ استطاع أن يستخرج روح النشادر وملح النشادر بالتقطير الجاف) (٣) .

والمنهج الذي سلكه هذا البحث يقوم على اساسين :

الاول : اثبات ان الطريق الذي اتخذه الرجلان في البحث يعتمد على منهج علمي يتوافر فيه بعض ما يتوافر في مناهج العصر الحديث (٤) ، وفي هذا المجال يؤكد الدكتور محمود قاسم (اما الطريقة العلمية التي يوصي ابن خلدون باتباعها فهي طريقة مبتكرة تعتمد على دراسة القوانين التي يخضع لها المجتمع . وعلى المقارنة بين انواع المجتمعات ومختلف الشعوب ..... وهنا نرى انه يريد منهجا علميا بمعنى الكلمة لانه يهدف به الى الكشف عن القوانين التي يمكن استخدامها في تفسير الماضي والتنبؤ بالمستقبل . وليس هذا المنهج

(٢) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ص ٣٤٦ .وانظر علي عبدالواحد وافي : عبقريات ابن خلدون ص ٢٠٦ .

(٣) عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي ص ٢٩٥ .

(٤) انظر علي عبد الواحد وافي : عبقريات ابن خلدون : ٢٠٤ .

المبتكر الذي يحدثنا عنه الا طريقة المقارنة بين مختلف الظواهر الاجتماعية ، وهي الطريقة التي يعترف علماء الاجتماع في الوقت الحاضر انها من افضل طرق البحث) (٥). كما يؤكدفكتور شلحت (ان النزعة العلمية العقلية المنطقية التي تنزع اليها المعتزلة تتجلى عند الجاحظ في تسجيل الواقع تسجيلا شاملا بواسطة الملاحظة والمعاينة والسماع والتجربة)(٦).
والاساس الثاني : هو التأكيد على ان الباحثين يسلكان هذا المنهج ويلتقيان عنده في موضوعات واحدة احيانا او تكاد . وانهما قد توصلا بفضل ذلك المنهج الى نتائج واحدة احيانا او احكام متقاربة الى حد بعيد احيانا اخرى .

والمسائل التي اجتمع عندها الباحثان على هذا المنهج هي: العقل والشك والملاحظة والمشاهدة ، وما ينجم عن هذه المسألة الاخيرة من دراسة في اثر البيئة الطبيعية ، ووقوف امام النفس الانسانية .

فهل هناك ضرورة تستدعي البحث في الجاحظ وابن خلدون ، في حين ان كثرة من الدراسات قد تناولت كلا منهما بالبحوث العديدة ؟ — ولكي يكون ضرورياً ما نبحث فيه نقول: ان الكثيرين قد بحثوا الجاحظ من أمثال شفيق جبري وطه الحاجري وداود سلوم وحنا الفاخوري وجورج غريب واحمد امين وعبد المنعم خفاجي وفكتور شلحت وصموئيل عبد الشهيد وبلات ووديعة النجم (٧) .

كما ان كثيرين قد درسوا ابن خلدون من امثال عمر فروخ وعلي عبد الواحد وافي ولاكوست وطه حسين وساطع الحصري ومحمد عبد الله عنان وغيرهم (٨) . ولكن تلك الدراسات وهذه الابحاث قد تناولت كل واحد من الرجلين على حدة . كما انها تناولتهما في مسائل محددة . واهم من هذا ان تلك الدراسات والابحاث لم تتطرق الى مسألة المنهج وعلميته . وانها لم تلتفت الى ما التفت اليه هذا البحث وهو اجتماع الباحثين حول هذا المنهج العلمي . وقد كان هذا الحافز الذي يؤدي الى ما اطلقت عليه (الضرورة) في قيام هذا البحث .

وها نحن اولا نتناول هذه المسائل واحدة فواحدة :

---

(٥) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث : ٣٤٣ .
(٦) فكتور شلحت : النزعة الكلامية في اسلوب الجاحظ : ١٥٥ .
(٧) انظر : قائمة المراجع في نهاية هذا البحث .
(٨) انظر : قائمة المراجع في نهاية البحث

١ ــ العقل :

من افضل الوسائل التي اعتمدها الجاحظ في بحثه العقل ، فما انسجم مع العقل اخذ وما تعارض معه عزف عنه . ويجب الا نستغرب من استخدام الجاحظ العقل . فهو (اعظم رجل اخرجته مدرسة النظام ، وهو فيلسوف طبيعي سار على غرار النظام في منهج البحث وتحرير العقل وفي الشك والتجربة قبل الايمان واليقين) (٩) والجاحظ لم يقف عند حدود ما يقال او يشاع ، بل كان يعرض كل شيء على العقل ويركن الى سلطانه (وقد ورد في كتاب الحيوان في مواضع كثيرة ما يدل على انه كان يرد الرأي الى العقل ، ولا يأخذ بأي شيء حتى يحكم عقله ويجعله المرجع الأخير . فان أجاز العقل ذلك الرأي او الشيء اجازه واخذ به وان لم يجزه اهمله ورماه) (١٠) وذلك يدل على قوه عقل الجاحظ وعمق نفاذه وسيطرته على تفكيره . وقد يبدو للنظرة الاولى ان هذا الامر يتعارض مع اعتماد الرجل على الحواس . ولكن واقع الامر ليس كذلك لان ما تؤكده الحواس كما يرى الجاحظ انما هو حكم ظاهر بينما يؤكد العقل حكم الباطن فاذا اخطأ الاول في رأيه ، فان الثاني يصيب (لعمري ان العيون لتخطيء فلا تذهب الى ما تريك العين واذهب الى ما يريك العقل ، والأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجة).

ومن هنا لم يستسغ الجاحظ كثيراً من أوهام عصره وخرافات زمانه وقلما رفضها لمجرد الرفض بل كان يعرضها على العقل ، يجادل فيها ويناقش ، فاذا ثبت بعدها عن العقل يرفضها بعد ذلك . وكثيراً ما هزأ بها وتهكم على رواتها ومصدقيها . من ذلك هزؤه بروايات العرب عن السعالى وأولاد السعالى من البشر وبما روي من الشعر في رؤية الجن وأحاديثهم) (١١) .

ولا شك ان الاعتماد على العقل في منهج البحث له ما يبرره في كل عصره. ولعل هذا العصر أشد الحاحاً في اعتماده على العقل . أما على عهد الجاحظ فهو دلالة ايجابية تدل على عقلية الباحث الفذ في وقت لم تكتمل فيه وسائل البحث العلمي على الشكل الذي نراه اليوم . وقد كان الجاحظ واحداً من أشهر رجال المعتزلة الذين اعتمدوا على العقل في جدالهم واثبات قضاياهم ، فقد كان كل من الجدل والمنطق والعقل رائد المعتزلة كما يعرف . (وايمان الجاحظ بالعقل الى هذا الحد جعله يشكك في كل أمر حتى يبلغ

(٩) قدري طوقان : مقام العقل عند العرب : ٩٤

(١٠) المصدر السابق : ٩٨ . وانظر داود سلوم : النقد المنهجي عند الجاحظ : ١٤٨ .

(١١) محمد عبد المنعم خفاجي: الجاحظ : ١٦٩ – ١٧٠

فيه اليقين فالأفكار المسبقة في النظر الى الأمور حاول ان يتجنبها قبل (باكون) ومن هنا كان نقاشه في شؤون كثيرة سمعها ولم يرض عنها عقله ، ومن هنا محاجته ارسطو في قضايا رأى فيها غير رأيه) (١٢) . فقد سخر مما قاله ارسطو عن الفيل (وقد سمعنا ما قاله صاحب المنطق من قبل ، وما يليق بمثله ان يخلد على نفسه في الكتب شهادات لايحققها الامتحان ، ولا يعرف صدقها اشباهه من العلماء) (١٣) وطالما استخدم اساوب التهكم في خبر سمعه فاستنكر وقوعه أو أمر استعصى عليه قبوله بواسطة العقل . من ذلك تهكمه بارسطو أيضاً حين ادعى ان الكلاب السلوقية كلما دخلت في السن كانت أقوى على المعاظلة فيقول (وهذا غريب جداً وقد علمنا ان الغلام احر مايكون وأشبق وانكح واحرص عند اول بلوغه ثم لايزال كذلك حتى يقطعه الكبر) (١٤) . وقد عاب إرسطو (اموراً كثيرة منها أنه لم يبن في تحقيقه على الاصول التي بنى عليها الجاحظ نفسه أي لم يثبت اموره بالعيان أو بمعرفة السماع ومما اهتدى اليه الجاحظ بعقله الحاد ان النمل تأخذ من الحب الذي تدخره للشتاء جزء الانبات والتناسل لئلا يفسد ويتعفن) (١٥)

ولا شك ان العلم الحديث يؤكد هذه النظرة حتى يومنا هذا . وهذا هو الذي دفع بروكلمان الى الاعتقاد بأن الجاحظ (قد اهتدى اليها بتجربته الخاصة ، فهذا ونحوه يدل على ان الجاحظ لم يحمله الاستغراق في قراءة الكتب على التنازل بالكلية عن حاسته وملكته الفطرية في دراسة الطبيعة والاحياء) (١٧) .

واذا كان كتاب الحيوان يعج بمئات من هذه الأمثلة التي تدل على اعتماد الجاحظ على العقل في تصديق الخبر واجراء التجارب وعرض الأمور على بساط المشاهدة والملاحظة ، فان هذه الوسيلة — أي العقل — لايقف استخدام الجاحظ لها عند حدود طبائع الحيوان وسلوكه فحسب ، فان العقل كان أقوى وسيلة امتلكها الجاحظ في تأكيد أي رأي واثبات اية قضية عرضت له دونما تحديد أو تخصيص. من ذلك مثلا تحكيمه العقل كأساس (من أسس التشريع . وعلى هذا فالعقل عند الجاحظ هو المرجع وهو الحكم في التفسير والأخذ بالأحاديث النبوية) (١٨) . ومن هنا يقف الجاحظ ليحكم عقله في تفسير المفسرين لبعض الآيات

---

(١٢) جميل جبر : الجاحظ في حياته وأدبه وفكره : ٧٨

(١٣) الجاحظ : الحيوان ١ / ٢١ .

(١٤) المصدر السابق : ٣ / ٣٣ . وانظر صموئيل عبد الشهيد : ٤٤

(١٥) محمد عبد المنعم خفاجي : الجاحظ : ١٧٩ .

(١٧) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ٣ / ١٠٧ .

(١٨) قدري طوقان : مقام العقل عند العرب : ١٠١ .

وفي قبول أو رفض بعض الأحاديث التي لايراها تتفق مع العقل : من ذلك (تهكمه من مجرد ذكره لتفسيرهم من هذا النوع قوله .... وزعم بعض المفسرين وأصحاب الأخبار أن أهل سفينة نوح كانوا تأذوا بالفار فعطس الأسد عطسة فرمى منخريه بزوج سنانير ... فكفيناهم مؤونة الجرذان ... وهذا الحديث نافق عند العوام وعند بعض القصاص ... الخ) (١٩).

وفي مجال الاعتماد على العقل فان ابن خلدون لايختلف عن الجاحظ سواء كان ذلك الاعتماد مباشراً ام كان عن طريق الملاحظة والمشاهدة الحسية . واعتماده على العقل جعله يشك في ما يصل اليه من أخبار فكان يسلط عليها كل وسيلة تعتمد على العقل فهو وحده الذي يستطيع تمييز الممكن عن الممتنع ، وهذا دون شك تفكير علمي صائب لايزال عصرنا الحديث يعتمده وسيلة من الوسائل التي لاتتناقض مع مايصل اليه من نتائج العلم .

ومن هنا وقف ابن خلدون يكذب الخرافات الشائعة على عصره وخصوصاً مالا يقع منها تحت حس أو تجربة علمية أو مبدأ فلكي . ووسيلته في ذلك حس عقلي نافذ يقيس به الأشياء . وفي ذلك يقول في معرض رده على بعض ما تناقلته العامة من امور وأساطير وخرافات (وقد حملت على الاعتقاد ان ليس شيئاً من صحيح لأن كل هذه الاشارات ليست مبنية على مبدأ علمي أو فلكي أو أي مبدأ آخر) (٢٠) .

وقد انتبه الدكتور طه حسين الى اهمية هذا المبدأ في معرض حديثه عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية وهو يشير الى منهجه في دراسة التاريخ فرأى ان كل ماسلكه من (قواعد الفحص والتحقيق ترجع الى اصل واحد وهو وجوب البحث بطريقة نظرية عما اذا كانت واقعة من الوقائع ممكنة في ذاتها وعما اذ لم تك مناقضة لطبائع العمران وما اذا كانت تتفق مع الزمان والمكان اللذين حدثت فيهما) (٢١) .

فطه حسين يؤكد على هذا الاساس مبدأ العقل الذي اتخذه ابن خلدون في فحص الحقائق بل انه على هذا الاساس يخضع كل الوسائل الممكنة الاخرى لعملية يجري عليها العقل ويخضعها له . وقوله (ممكنة في ذاتها وليست متناقضة لطبائع العمران) هي في الواقع عملية عقلية ليس الا وقد كانت من قديم الزمان وسيلة لايستغنى عنها في بحث الحقائق

(١٩) انظر الجاحظ : الحيوان — / ٦٧ . وشفيق جبري : الجاحظ معلم العقل والأدب ص ١٨٤ — ١٨٥ ، وحنا الفاخوري : الجاحظ : ٥٨ .

(٢٠) لاكوست : العلامة ابن خلدون ، ص ٢١٠ . وانظر المقدمة ص ٢٣١ .

(٢١) طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ص ٣٢ .

الكونية والبشرية . ولا تزال هذه الوسيلة تفعل فعلها في عملية البحث العلمي وخاصة في علم الاجتماع . وابن خلدون في مجال استخدام العقل ينطلق من نفس منطلق سلفه وهو الايمان بما يتفق مع العقل والرفض لما ترسمه اوهام الناس وخرافاتهم واساطير اجدادهم . ومن هنا يرفض مايردده الناس على عهده الخرافة التي تقول انسواد ولد حام كان بسبب دعوة أبيه عليه « وقد توهم بعض النسابين ممن لاعلم لديه بطبائع الكائنات ان السواد هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من ابيه ظهر اثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه . وينقلون ذلك حكاية من خرافات القصاص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد » (٢٢) .

ولم يقف ابن خلدون عند رفض هذه الخرافة بل هداه عقله الى ان يناقشها في ضوء المشاهدة والملاحظة التي تتخذ من العقل سبيلا الى الانطلاق فيقول « وفي القول بنسبة السواد غفلة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين كل سنة قريبة احداهما من الاخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر) (٢٣) .

وفي هذا السلوك منهج علمي سليم لايعتمد العرض أو الرفض فحسب وانما يتبع ذلك بمناقشة قوامها الملاحظة والمشاهدة وأساسها العقل . ومن هنا وقف الدارسون المحدثون يشيدون بمنهج الرجل الذي لايكتفي بعرض الحقائق عرضاً سطحياً وانما يميزونه على غيره بسبب استخدامه قانون السببية كما يسميه (ايف لاكوست) في بحثه عن ابن خلدون فيرى الباحث (ان المواد التي استخدمها ابن خلدون متأتية من تبحره وخاصة من ملاحظاته ومن اختباره الملموس كرجل سياسة وما يميزه أساساً بالنسبة لمؤرخين آخرين هو اهتمامه البالغ بقانون السببية . فهو يتجاوز تحليل الاسباب المباشرة لكي يتقدم في البحث عن الأسباب العميقة في الاصعدة التي لاتصدر عن الفكر التاريخي التقليدي . فاذا كان التاريخ بشكله الخارجي ينص على (تسجيل الاحداث) فان خصائصه الداخلية هي تحليل وتصويب الوقائع والتقصي اليقظ للأسباب التي أوجدتها والمعرفة العميقة للطريقة التي جرت فيها الاحداث وتولدت منها . ان العمل لأجل الافهام هو المحرك الاساسي لدى ابن خلدون والهدف الذي يحدد منهجه) (٢٤) .

---

(٢٢) و (٢٣) المقدمة : ص ٨٣ — ٨٤ .

(٢٤) لاكوست : العلامة ابن خلدون . ٢٢٢ .

وهذا حكم رجل لايمت إلى ابن خلدون بصلة ، ولكن الروح الموضوعية هي التي املت عليه حكمه .

ان ابن خلدون يتميز على غيره في رأي الدارس كونه لايقنع بما يقال بل هو يحكم العقل الذي يأخذ قانون السببية .

ويضيف علي عبدالواحد وافي إلى تحكيم العقل سبباً آخر هو التعليل بحقائق الطبيعة أو علم النفس . فابن خلدون يعتمد (الاستدلال المنطقي الخالص ان كان في الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الانسان عن طريق الدليل العقلي وإلى التعليل بحقائق العلوم الطبيعية أو علم النفس ان كان في الموضوع بعض عناصر يقتنع بها الانسان عن طريق هذه الحقائق) (٢٥) . وهذا يدل على أن ابن خلدون لم يقف أمام الاحداث وقفة رجل عادي بل هو يفكر ويشغل عقله ويعمل فكره ، ويكون حصيلة ذلك عنده ان احداث التاريخ لا يمكن ان تدور بدون سبب ، هي لاتدور في الهواء كما يتراءى للرجل الساذج ، اذ لابد ان تتحكم فيها قوانين من الحياة والكون تفعل فعلها في المجتمع ، ومن خلال مايدور فيه أو يتحرك ضمن نطاقه . وذلك هو ما اطلق عليه ابن خلدون قانون (العمران البشري) فسقوط دولة ونشوء أخرى وموت جيل وحياة آخر واندحار جيش وانتصار آخر ، كل ذلك لايتم دونما سبب أو داع . ولولا العقلية الفذة واستخدامها العميق لما توصل ابن خلدون إلى ابتداع ما انتهي الى تسميته (بعلم الاجتماع) الذي يزعم اكتشافه الغربيون في عصرنا الحاضر .

٢ — الشك :

ونتيجة حتمية لاستخدام العقل كان اللجوء إلى الشك فيما يعرض للباحث من اخبار . وقد اتخذ عصرنا الحديث الشك في مناهج البحث وسيلة للوصول إلى الحقائق ، وصار اسم ديكارت يقترن بهذا المنهج الذي سمي بمنهج الشك ، وتبعه في ذلك باحثون من الشرق من امثال طه حسين وغيره بحيث صار لازمة من لوازم البحث العلمي الدقيق . والحق أن الجاحظ يقترب من ديكارت احيانا في موقفه من الشك فهو الذي يقول : (اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له). ومعنى هذا كله : اعرف الشك لتعرف به اليقين .

(٢٥) علي عبد الواحد وافي . عبقريات ابن خلدون : ٢٠٤ .

فالشك في نظره سبيل إلى اليقين فهو لايشك في الامور من أجل الشك وحده وانما يشك فيها حتى يصل الى يقين قاهر .

وكذلك ديكارت فانه لايشك في الامور من أجل الشك وحده وانما يشك فيها على امل ان يصل إلى حقائق يثبتها البرهان) (٢٦) :

وقد نسي الذين يتخذون من الشك وسيلة لتقويم النص أو للوصول إلى الحقائق العلمية الثابتة ان العرب والمسلمين قبل عدة قرون مارسوا هذا المبدأ واستخدموه من أجل الحقيقة ولاجل دعمها :

ولا أقول ذلك من أجل ابن خلدون او الجاحظ فقد كان جامع الحديث يسلك سلوكاً علمياً بحتا حين لايتثبت من الحديث قبل أن يتثبت من حامله وراويته . وفي مسائله العلمية كان الجاحظ (يتثبت من صدق حامل الخبر قبل الخبر فيقول مثلا : « حدثني بعض أهل العلم فيمن طال ثواؤه في أرض الجزيرة وكان صاحب اخبار وتجربة وكان كلفاً بحب التبين معترضاً للامور يحب ان يفضي الى حقائقها وتثبيت اعيانها بعللها وتميز اجناسها (فكان يعرف للعلم قدره وللبيان فضله .... الخ) (٢٧) او يقول : (وخبرني هذا الرجل وغيره من أهل النظر واصحاب الفكر انهم رأوا ... الخ) (٢٨) .

ولست بحاجة لان أجزىء هذا النص من أجل توضيح مايدل فيه على التثبيت الذي يمكن صاحبه في الوصول إلى الحقيقة الناصعة ، والواقع ان كتاب الحيوان يمتليء (بمثل هذه الاشارات التي يرى فيها الجاحظ اسا ينطلق منه في قبول مايبلغه من روايات أو طرائف أو غرائب شريطة ان تكون موافقة للعقل والمنطق وحين ينكر خبراً أو يرفض رواية يستخدم لفظة زعم ويزعمون وقيل . وفي هذه الالفاظ مافيها من الريبة والشك ... ولايكتفي بذلك بل يعمل على مناقشته وتفنيده ويخرج منه باستدلالات يدحض بها كثرة من الخرافات والاساطير) (٢٩) ومن ذلك قوله (زعموا ان النمر الانثى تضع في مشيمة واحدة جروا وفي عنقه افعى تطوقت به . واذا لم يأتنا في تحقيق هذه الاخبار شعر رائع أو خبر مستفيض لم نلتفت لفته) (٣٠) .

---

(٢٦) شفيق جبري : الجاحظ معلم العقل والأدب : ١٥٤ .
(٢٧) صموئيل عبد الشهيد : الروح العلمية عند الجاحظ ص ٣٠ .
(٢٨) المصدر نفسه : ص ٤٠ .
(٢٩) المصدر نفسه ص ٤٠ — ٤١ .
(٣٠) الجاحظ : الحيوان ٧ / ١٦٨ .

فالجاحظ هنا يرفض هذا الزعم لسببين : الاول ان الخبر لايؤيده عقل او يؤكده علم والثاني : لاتؤيده أخبار أو أشعار أو أقوال السابقين وواضح من أول كلامه استخدام كلمة (زعموا) . وهذا التفكير العلمي عند الجاحظ لايعتمد رفض الروايات والاخبار من أجل الرفض بل هو يحيل القضايا على العقل والمنطق والواقع ، لانه يرى ان تلك الاخبار ربما خالطتها الاكاذيب وبالغت فيها الاقاويل ، فالعقل هنا هو الفيصل الاخير (لذلك يشدد النكير على الكذابين من رواة الغرائب والاعاجيب وكان ارسطو الهدف الاكبر لمرمى سهام الجاحظ . وزيادة في الموضوعية فان الجاحظ لايبت في حكم بتاً نهائياً ففي حالات كثيرة نراه يستخدم اصطلاحات علمية نقتدي بها نحن اليوم في ابحاثنا .

من مثل (وارى جواز الامر او (ولست ابت بانكار الشيء) في مثل حديثه عن ولد الكركدن وهو قوله حين يشك في الخبر (ولكن العجب كل العجب ماذكروا من اخراج ولد الكركدن راسه واعتلافه ثم ادخاله راسه بعد الشبع والبطنة ولا اقر الولد يخرج راسه من فرج امه حتى يأكل شبعه وارى جوازه موهوماً . الا ان قلبي ليس يقبله ... ولست ابت بانكاره وان كان قلبي شديد الميل إلى رده) . (٣٢)

ولست ابالغ اذا قلت ان هذه العبارات وغيرها كثير ، دليل على روعة الروح العلمية التي كان الجاحظ يتمثلها اروع تمثل ، ولتأكيد مدى ما كان من اهتمام الجاحظ بالشك من أجل الحق والمعرفة اورد قولته المشهورة فيه كأنه فيها يوجه كلامه الى كل باحث عن الحق حيث يقول (اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له لتعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له . وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلماً . فلو لم يكن في ذلك الا تعرف التوقف ثم التثبت لقد كان ذلك مما يحتاج اليه . ثم اعلم ان الشك في طبقات عند جميعهم. ولم يجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف) (٣٣)

وجدير بكل باحث عن الحق ان يتمسك بقولة الجاحظ هذه . اذن لاطمأن الناس إلى أن المعرفة لاخوف عليها من عبث العابثين . وفي مبدأ اتخاذ الشك وسيلة من وسائل التحقيق العلمي يلتقي الجاحظ مع ابن خلدون . ولعل من جملة ماهدف اليه بواسطة الشك هو

---

(٣١) جورج غريب : الجاحظ : ٦٢ — ٦٣ .

(٣٢) الجاحظ : الحيوان ٧ / ١٢٥ وانظر فكتور شلحت : النزعة الكلامية : ص ١٥٦.

(٣٣) الجاحظ : الحيوان ٦ / ٣٥ وانظر محمد عبد المنعم خفاجي : أبو عثمان الجاحظ ص ١٧١ — ١٧٢ .

تخليص البحوث التاريخية من الكذب والخرافات والاساطير مما لاتخضع لعقل او تقـ تحت الحقيقة (وكانت هذه الخرافات لاتزال سائدة في العامة .... ومع ذلك فقد كان دأب علامتنا ابن خلدون أن يكافح الخرافات) (٣٤) .

ولقد اشار ابن خلدون إلى ذلك اشارات كثيرة في مستهل الكتاب الاول في مقدمته اذ يقول : (ومن الاسباب المقتضية له ــ اي تأليف الكتاب ــ وهي سابقة على جميع ماتقدم، الجهل بطبائع الاحوال في العمران فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان او فعلا لابد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من احواله . فاذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها اعانه ذلك في تمحيص الخبر على تميز الصدق من الكذب وهذا ابلغ في التمحيص من كل وجه يعرض وكثيراً ما يعرض للسامعين قبول الاخبار المستحيلة وينقلونها وتؤثر عنهم) (٣٥) .

وواضح من قوله (تميز الصدق من الكذب) والذي يجعله (ابلغ في التمحيص) انه يؤكد مبدأ الشك الذي يصل بصاحبه إلى الخبر اليقين أي (الحق) ودليل ذلك أنه أورد بعد هذا الكلام رواية نقلها (المسعودي عن الاسكندر لما صدته دواب البحر عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذ صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قعر البحر حتى صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها وعمل تماثيلها من اجسام معدنية ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها وتم بناؤها في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة) (٣٦) فهذا الخبر وأمثاله كثير، لايمكن أن يلقى قبولا من ابن خلدون كما لم تلق تلك الخرافات التي ردها الجاحظ بالحجة والمنطق والعقل .

وهذا وذاك عند ابن خلدون والجاحظ انما يدلان على فهم عميق لطبيعة العمل الذي هدف اليه كل من المفكرين وخاصة في اتخاذ مبدأ الشك واحداً من المبادىء التي تشكل حجر اساس ثابت ومكين في منهج البحث العلمي .

وفي مقدمة ابن خلدون تأكيد واضح على هذا المبدأ، ورد أوضح لكل ما لايقع تحت نظر او تجري عليه مشاهدة اولا يصدقه عقل ولذلك نجده يؤكد على ما يسميه في أغلب

---

(٣٤) عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة، ص ٥١ .
(٣٥) ابن خلدون : المقدمة . ص ٣٥ — ٣٦ .
(٣٦) المصدر السابق ص ٣٦ .

الاخبار (امكان وقوع الشيء) أو (تمييز الحق من الباطل) أو (الامكان والاستحالة) وهذه عبارات تؤدي كلها إلى شيء واحد وهو الشك في الخبر أو الحدث أو في كل ما لا يمكن قبوله أو وقوعه وحدوثه واما الاخبار عن الواقعات فلا بد من صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة . فلذلك وجب أن ينظر في امكان وقوعه وصار فيها ذلك أهم من التعديل ومقدماً عليه .... فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالامكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ونميز مايلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه وما يكون عارضاً لايعتد به وما لايمكن أن يعرض له وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق والكذب بوجه برهاني لامدخل للشك فيه وحينئذ فاذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران علمنا مانحكم بقبوله ومانحكم بتزييفه) (٣٧) .ولست أجدني محتاجاً للتعليق على قيمة الشك ومبلغه في رأي ابن خلدون وقد عمدت إلى تسجيل هذا النص لاستقصاء رأيه في أهمية التثبت من قبول الخبر أو عدمه . وابن خلدون في هذا ليس أقل من الجاحظ اعتداداً بالشك واهتماماً باستخدامه على رغم اختلاف كل منهما عن الآخر فيما استخدم هذا المبدأ من أجله إلا أن الذي اتفق عليه الرجلان أن مبدأ الشك ضروري ضرورة شديدة في منهج البحث .

٣ ـ الملاحظة والمشاهدة :

ونقصد بالملاحظة هنا . الملاحظة العلمية التي تقوم على منهج و (يقوم بها الباحث بصبر وأناة للكشف عن تفاصيل الظواهر وعن العلاقات الخفية التي توحد بين عناصرها او بينهما وبين بعض الظواهر الاخرى) (٣٨) وهذه الملاحظة هي (المشاهدة الدقيقة لظاهرة ما مع الاستعانة باساليب البحث التي تتلائم مع طبيعة هذه الظاهرة) . (٣٩)

واذا كان الشك قد صار لازمة من لوازم البحث العلمي فان الملاحظة والمشاهدة تعتبر واحدة من الاسس التي يقوم عليها اى بحث يتسم بالعلمية ومهما تعددت الوسائل والسبل التي توضع امام الباحث العلمي فانه لايستغني عن هذه الملاحظة لكي يصل إلى نتائج بحثة

---

(٣٧) المصدر نفسه : ص ٣٧-٣٨ .

(٣٨) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث : ص ٩٦ .

(٣٩) المصدر نفسه : ص ٩٢ .

بعد طول موازنة وأعمال فكر وولع في الوقت امام أية ظاهرة من الظواهر . ولعل اروع اروع ما يسجل للجاحظ وابن خلدون في هذا المجال ما اثر عنهما من آراء وتعليلات كانت نتيجة من نتائج الوقفة الطويلة والنظرة العميقة والاستكشاف الدقيق يرافق ذلك حسن التعليل لظواهر الطبيعة او الحياة او الانسان .

فهذا هو الجاحظ يدحض بطول المشاهدة وعمق الملاحظة ودقة التعليل ماردده خرافات القدماء وأساطير الأولين وتناقلته كتب التأريخ بشأن (السواد والسود فيرده إلى البيئة الطبيعية الطبيعية أو إلى الأرض التي يعيشون فيها يقول على لسانهم : والسواد والبياض انما هو من قبيل الخلقة والبلدة وما طبع الله عليه الماء والتربة ومن مثل قرب الشمس وبعدها وشدة حرها ولينها وليس ذلك من قبل نسخ ولاعقوبة ولا تشويه ولا تفضيل) (٤٠) .

والعجيب ان ابن خلدون يعالج المسألة نفسها في معرض رده ايضا على الخرافات والأوهام وهو يكشف عن ذلك أوهام المؤرخين وجهلهم ، ثم يعلل ذلك تعليلا علمياً دقيقا فيرده ايضا إلى تأثير الحرارة فيما يصل بالقاريء إلى قناعة تامة لاتترك أي شك في نفسه :

(وقد توهم بعض النسابين ممن لاعلم لديه بطبائع الكائنات ان السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا بلون السواد لدعوة عليه من ابيه ظهر اثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه وينقلون ذلك حكاية من خرافات القصاص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر السواد) (٤١) .

وشأن ابن خلدون في هذه المسألة شأنه في غيرها من المسائل لايكتفي برفض ما يأباه عقله او مايمتنع على طبيعة منهجه العلمي وانما هو يعلل ليصل بتعليله إلى قناعة وليقنع الآخرين بالحجة والدليل وهو يستخدم في ذلك ملاحظاته ومشاهداته وطول نظره فيقول : (وفي القول بنسبة السواد غفلة عن طبيعة الحر والبرد . واثرهما في الهواء فان الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة ، قريبة احداهما من الاخرى فتطول المسامتة عامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر) (٤٢)

وهو تعليل ينم عن عقلية فذه تدل على طول تفرغ للمسألة التي ينظر اليها ابن خلدون بل مجالدة وتحكيم عقل ودقة ملاحظة .

---

(٤٠) وديعة طه النجم : الجاحظ والحاضرة العباسية ، المقدمة ، ص ٩ .

(٤١) ابن خلدون : المقدمة ، ص ٨٣ .

(٤٢) المصدر السابق : ص ٨٤ .

هذه مسألة لايختلف فيها اذن ، الجاحظ وابن خلدون وهي ان كانت حقيقة او شبه حقيقة جغرافية فانها نتيجة من نتائج استخدام المشاهدة الدقيقة والملاحظة الطويلة. واذا سلمنا بروعة النتائج التي توصل اليها كل من الباحثين في هذه المسألة فلربما يزيد اعجابنا بهما اكثر اذا عرفنا ان عامل الملاحظة عندهما لم يقف عند هذا الحد فقد تعداها إلى دراسة الشعوب وتطور المجتمعات بل إلى اكثر من ذلك حين يعزى إلى البيئة العنصرية والولادية نوع التطور الذي يجري على الافراد والجماعات وبالتالي ينعكس ذلك على اون الحضارة ومقدار تقدمها ومدى تطورها ويمتد اثره على المشاعر والعواطف ونوع التفكير.

فهذا هو ابن خلدون يلاحظ (في دراسة الدول وقيامها وسقوطها ان اسباب هذه التطورات لاترجع فقط إلى البواعث والاطماع وإلى الاغراض والغايات وإلى قوة الارادة لدى الافراد ولاحظ ان تأثير هذه العوامل لايخضع فقط لخواص الجماعات التي تنتمي اليها ولكنها تخضع ايضا للظروف الاجتماعية العامة وقد حمله ذلك على أن يبحث العوامل التي تؤثر في هذه الظروف الاجتماعية وتكفيها وانتهى إلى انها ترجع إلى خواص قومية وجنسية ولكنه لاحظ أيضاً ان هذه الخواص نفسها ترجع إلى مؤثرات الوسط الطبيعية كالاقليم والماء والأرض والموقع والغذاء . واذن فمن الضروري لكي نفهم التطور السياسي أن ندرس كل مظاهر الحياة الاجتماعية ولكي نفهم هذه يجب أن نحسب حساباً للعوامل الطبيعية) (٤٣) .

فابن خلدون حين يربط بين النظم السياسية وطبيعة البشر وحين يخضع ذلك كله إلى ظروف العلاقات الاجتماعية وبواعثها وحين يربط بين هذا كله وبين الجنس وما يخضع له من مشاعر وعواطف لايجد سبيلا إلى اشباعهم في القناعة ولذلك فانه يعتقد ان لعوامل البيئة الطبيعية أثراً لايمكن اغفاله للحكم على كل مظاهر التطور والهبوط والانكماش للجماعات والدول . وهو تعليل لايمكن تحقيقه (بجرة قلم) كما يقول المثل وانما يحتاج إلى طول المشاهدة والملاحظة واحكام العقل وتتبع لكل الظواهر الاجتماعية وما يتبعها من حركة وسكون وإلى ربط ذلك كله بالبيئة الطبيعية المتفاعلة مع الانسان . ومن هنا يرى بعض الدارسين ان ابن خلدون ليس (فيلسوفاً اجتماعياً فحسب ، بل هو عالم اجتماعي وواضع علم الاجتماع على اسسه الحديثة ، لم يسبقه إلى ذلك أحد . ثم ان علماء الاجتماع الذين جاءوا بعده من الغربيين أنفسهم كانوا دائما مقصرين عنه في بعض النظريات الاجتماعية أو غافلين تمام الغفلة عن

---

(٤٣) محمد عبد الله عنان : ابن خلدون ، ص ١٥٨ . وارجع ذلك الى فصول الباب الثاني من المقدمة .

عدد من قوانين العمران التي استخرجها هو في القرن الثامن الهجري) (٤٤) .

واذا كان هدف ابن خلدون في هذه المحاولة تقرير حالة يهدف من ورائها إلى دراسة أحوال المجتمع دعاه اليها تخليص البحوث التاريخية — كما ادعى — مما أصابها على أيدي المؤرخين فان العجب ليأخذ الدارس حين يجد الجاحظ يقترب من هذه الدراسة ويعطي أحكاماً مقاربة من قبل ابن خلدون وهو كما نعرف رجل أدب لاباحث تاريخ أو عالم اجتماع .

فالجاحظ يشبه (المجتمعات بالكائنات الحية التي تنمو باطراد فتنوع البيئات والأوضاع يفرض عليها التنوع في التركيب والانفعال وهو بذلك يمهد السبيل أمام النظريات الحديثة التي تقول ان البيئة العنصرية والولادية تفرض على الافراد عقليات وعادات وثقافات خاصة تبدو وكأنها انعكاسات البيئة على الضمائر الفردية . ولطالما أعلن الجاحظ ان فوارق المدينة والامكانات عند مختلف الشعوب انما تخضع لمواهب غريزية عند كل جنس كما تخضع إلى تركيبه وإلى الجو الذي يعيش فيه) (٤٥) .

فالذي يقرره الجاحظ هنا لايختلف في شيء عما يقرره ابن خلدون وهو تأثير العوامل البيئية على طبائع البشر وأثرها في أمزجتهم وتصرفاتهم ومستوى معيشتهم بل ان تأثير ذلك ليمتد إلى لون البشرة وغيره .

وبالتالي فان هذا التفاعل ينسحب أثره على العادات والعقليات والثقافات ولايختلف اثنان — على ماأظن — في أن الباحثين الكبيرين قد قررا حقيقة واحدة ودرسا ظاهرة واحدة ، بل وتوصلا إلى نتيجة ان لم تكن واحدة فهي متقاربة إلى أبعد الحدود . ولست أعتقد ان ابن خلدون كان يعول على الجاحظ في اقرار هذه النظرية التي أقرها علم الاجتماع حديثاً لسبب بسيط هو ان ماتوصل اليه ابن خلدون في هذا المجال ليس الا جزء ضئيلا مما درسه وقرره حتى لقد اقترنت به كل الدراسات الاجتماعية التي صارت علماً يحسب له حساب في عصرنا الحديث .

والمدهش حقاً ان كثيراً مما رصدته (المشاهدة والملاحظة) عند الجاحظ وابن خلدون قد أدى إلى نتائج بعيدة . فهذا الجاحظ تصل به ملاحظاته ومشاهداته إلى نتائج علمية في الطبيعة والكيمياء والفيزياء . من ذلك مايقرره بشأن الضوء والصوت اذ يقول : (ومتى رأيت البرق سمعت الرعد بعده والرعد يكون في الأصل قبله ولكن الصوت لايصل اليك في سرعة

---

(٤٤) عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة ، ٦٩٥ .

(٤٥) جميل جبر : الجاحظ في حياته وفكره ، ص١٤٧ و ١٤٨ .

البرق لأن البارق والبصر أشد تقارباً من الصوت والسمع) (٤٦) .

أرأيت طرافة تعليل الجاحظ التي لاتختلف الا في العمق عما تطرحه نظريات العصر الحديث بهذا الشأن . ومن هنا يمكن أن نقرر ان ظاهرة المشاهدة عند الجاحظ تمثل واقعية حسية لاتدع مجالا لتقول قائل على الاطلاق بدليل ان الرجل كان يشاهد مسائله مشاهدة شخصية ولايتركها الا وهو يقرر فيها مايقرر .

من ذلك ما قرره بشأن مايطرأ على طبيعة المخصي بعد خصيه اذ يقول : (قد رأيت أنا بعضهم خصى أربعة هو أحدهم ، ورأيت الخصاء قد جذبه إلى حب الحمام وعمل التكك والهراش بالديوك وهذا شيء لم يجر منه على عرف وانما قاده اليه قطع ذلك العضو)(٤٧).

ويسمع الجاحظ ان القطران والكبريت الاصفر اذا صبا في أفواه بيوت النمل قتلاه فلا يكفيه ما يسمع فيجري التجربة بنفسه ليتأكد مما يشاع بهذا الشأن (وقد جربنا ذلك فوجدناه باطلا) (٤٨) .

والجاحظ لايهدف في تجاربه إلى اثبات ظاهرة بعينها فحسب ، فهو في ذلك شأن العالم الذي يريد اقرار ظاهرة ليعممها وليخرج فيها بنظرية معينة أو مبدأ معين فهو يصور لنا مثلا (كيف قطع أعضاء بهيمة وراح يشرحها دارساً خصائصها ووظائفها . أو كيف ألقى عليها عنصراً كيمياوياً ليرى انفعالاتها ، أو غير ذلك من شؤون التجربة العلمية التي كان يستند غالباً الى نتائجها المشابهة ليقرر مبدأ معيناً) (٤٩) .

ومن هنا يقرر أحمد أمين ان الجاحظ سبق إلى اتجاهات قيمة فيما تسمى الان سيكولوجية الحيوان ، فهو يراقب نداء الديك بالليل ويبحث هل اذا كان في قرية واحدة يصيح أولا ؟ ليعلم هل تصيح الديكة بالتجارب أو بطبعها ؟) (٥٠) .

ويمتلك الجاحظ روح العالم الفذ الذي لاتغريه قدرته فيتجاهل قدرات الاخرين وكذلك كان لا يتردد في سؤال ذوي الخبرة وأهل المعرفة ممن هم أوسع معرفة وأكثر اطلاعاً وأقرب إلى الاختصاص من ذلك سؤاله أحد البحريين عما زعمه أرسطو ان السمك لا يبتلع

---

(٤٦) الجاحظ : الحيوان ، ٤٠٨/٤ .

شيئاً من الطعم الا ببعض الماء . وحين يكون جواب الرجل بالنفي يطمئن الجاحظ إلى الجواب ويقول : (وهذا البحري صاحب كلام وعلل وهو يتكلف معرفة العلل) (٥١) وفي هذا مايدل على خلق العالم الحق .

ولعل الجاحظ لم يتكلف هذه الاساليب الا وصولا إلى الحقيقة وابتغاء لها فهو لايتعجل الامور ولا يطلق الكلام قبل أن يتحقق من نتيجته ويصل إلى صحته ، ومن هنا كانت دقة الملاحظة والاختبار الشخصي تلازمان كل تحقيقاته العلمية ولعل من مظاهر ذلك كثرة استخدامه الفاظ (رأيت ولاحظت) وأمثالها مما يدل على ممارسة الرؤية ممارسة شخصية .

واذا كان لجوء الجاحظ إلى المشاهدة الحسية قد وصل به إلى ماقررنا فان هذه الظاهرة (المشاهدة والملاحظة) قد وصلت نتائجها عند ابن خلدون إلى ابعد من ذلك . نعم لقد اعتمدها الباحث في رصد الظواهر الاجتماعية . وما ينتج عن تفاعلها وحركاتها ، ولقد وقف علي عبدالواحد وافي على عين الصواب حين رأى ان ابن خلدون (في بحثه للظواهر الاجتماعية يجتاز مرحلتين تتمثل أولاهما في ملاحظات حسية تاريخية لظواهر الاجتماع أو بعبارة أخرى تتمثل في جمع المواد الاولية لموضوع بحثه من المشاهدات ومن التاريخ الخ(٢٥).

فالمشاهدة والملاحظة اذن جانباً اساسياً في ما اعتمد عليه ابن خلدون حين اصدر نظرياته الاجتماعية ، فاذا علمنا ان هذا الجانب من اهتمامات ابن خلدون هو أهم جوانب بحوثه التي رفعت من شأنه أدركنا مدى قيمة هذا السلوك في بحوثه . وفي مكان آخر يشدد (علي وافي (بصورة اكثر تأكيدا على قيمة مبدأ (الملاحظة والمشاهدة) فيقول : (وجميع قوانين ابن خلدون وافكاره مستمدة من ملاحظاته لظواهر الاجتماع في الامم التي شاهدها أو عرف تاريخها) (٥٣) .

ولعل قيمة هذا الجانب في البحوث الاجتماعية وغيرها في العصور المتقدمة تتجلى في ان تلك العصور لاتقدم للباحث العلمي مايستعين به لاقرار نظرياته وفي هذه الحالة لابد للباحث ان يعتمد على جدارته بما يمتلكه من ملاحظات ومشاهدات وقوة ذهن وبعد نظر ليدرك ابعاد مايصل اليه ويصدر بالتالي أحكامه .

---

(٥١) الجاحظ : الحيوان . ٦ / ١٧ . وانظر شفيق جبري : الجاحظ : ١٣٤ .
وفكتور شلحت : النزعة الكلامية : ١٣٩ — ١٤٠ .

(٥٢) عبد الرحمن بن خلدون ، ص ١٧٠ .

(٥٣) المصدر نفسه ، ص ٢٠٤ .

ومن هنا لاحظ كل الذين درسوا ابن خلدون توافر هذا المنهج عنده . فهو في نظر باحث آخر (يرى ان الاقيسة المنطقية لاتتفق مع طبيعة الاشياء المحسوسة ، ذلك لان معرفة هذه لاتتسنى الا بالمشاهدة) (٥٤).

أما لاكوست فانه يعلق أهمية اكبر على مبدأ الملاحظة عند ابن خلدون بل هو يرى ان منهجه في الاساس يعتمد على التجربة . من هنا اكتسبت المقدمة صفة الحداثة العلمية لانه لايصدر عن نظريات فلسفية انما هو يخضع لمراقبة دقيقة خارقة للواقع .

(ان منهج ابن خلدون التاريخي الخالص هو في الواقع تجريبي بشكل أساسي وهو لايستند الا على ملاحظة (طبيعة الاشياء) ولا يصدر مباشرة عن نظريات فلسفية مختلفة . وهذا بالضبط يشكل الحداثة الخارقة لمؤلف ابن خلدون فهو بتخليه عن مساعي المذهب المدرسي قد اسس تفكيره على ملاحظاته الخاصة وعلى استعلامات مصححة بعناية ... انه مراقب للواقع دقيق بشكل خارق ، ومفاهيمه انما تنجم عن حاصل ملاحظاته وثمار تبحره التي كانت معممة بطريقة موضوعية) . (٥٥)

ونحن نستطيع أن نتعرف على أكثر من صفة علمية لابن خلدون من قولة لاكوست هذه ، من ذلك :

١. ان منهج ابن خلدون تجريبي .
٢. الواقعية المحسوسة .
٣. حداثة المنهج .
٤. الدقة المتناهية في مراقبة الواقع .
٥. بناء المفاهيم والمباديء على ملاحظات سيقت بطريقة موضوعية . وهذه صفات نحن نطلبها من باحث اليوم . فما بالك في تحققها لدى باحث بيننا وبينه مئات من السنين .

ومن هنا فان ما توصل اليه ابن خلدون في نظرياته الاجتماعية لا يعتبر (وسيلة إلى الاصلاح الاجتماعي بل هو نتيجة لتفكير منهجي سليم) (٥٦) . كما ان نظرة ابن خلدون كانت علمية خالصة لان علم الاجتماع في نظره لايهدف إلى غاية عملية بل إلى غاية نظرية) (٥٧) . والذي يشدنا إلى الاعجاب بهذين الرجلين هو ما نعرف عن

(٥٤) قدري طوقان ، مقام العقل عند العرب ، ص ١٨٩ .
(٥٥) لاكوست : العلامة ابن خلدون : ٢٠٢ .
(٥٦) و (٥٧) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث : ٣٣٨ .

جهودهما في هذه المجالات التي لاتمت إلى اختصاصيهما بشيء . وكل الذي دفعهما اليه – فيما يبدو – فضول علمي ،وتصحيح لكثير من المفاهيم الخاطئة التي سادت عصريهما . وهذا الفضول يثير الاعجاب أكثر حين تجدهما يندفعان إلى مجالات اخرى هي أقرب إلى علم الجغرافية أو علم الاجتماع منها إلى الادب أو التاريخ .

* البيئة الطبيعية :

فهذا الجاحظ يبحث أثر البيئة في الشعوب حين يقرر ان لكل من التربة والماء والهواء تأثيراً في طباع البشر . ولاشك ان التحقيق العلمي الذي تجاوز فيه الجاحظ ادباء عصره هو الذي دفعه (إلى اعتبارات قيمة حول أثر البيئة في الشعوب وفي هذا يستند إلى قول بعضهم انه اذا فسد الهواء في ناحية من النواحي فسد الماء وفسدت التربة فعمل ذلك في طباع السكان على الايام كما عمل ذلك في طباع الزنج وطباع بلاد الصقالبة وطباع بلاد ياجوج وماجوج وقد رأينا ان العرب وكانوا اعراباً حين نزلوا خراسان كيف انسلخوا من تلك المعاني وربما الرجل من المغرب فلا نجد بينه وبين المسخ الا القليل وقد يجوز ان يصادف ذلك الهواء الفاسد والماء الخبيث والتربة الردية ناساً في صفة هؤلاء المغربين والانباط) (٥٧).

وفي كتاب الحيوان يضرب الجاحظ لذلك مثلا بأهل هاشم حين سكنوا الاهواز فتغيرت بذلك طبائعهم وشمائلهم ويعزى ذلك إلى أثر البيئة التي تغيرت عليهم (٥٨) .

هذا مايقرر الجاحظ عن أثر البيئة في البشر وطبيعته ومزاجه وخلقه وشكله ، وفي نفس الحالة يقرر ابن خلدون أثر البيئة الجغرافية في شكل البشر وطبعه بل هو يتعداه ليقرر ان ذلك يمتد أثره إلى طبيعة العمران البشري شمل السكان البياض من مزاج هوائهم للبرد المفرط بالشمال ، اذ الشمس لاتزال بافقهم في دائرة مرأى العين أو ما قرب منها ولا ترتفع إلى المسامتة ولاما قرب منها فيضعف الحر فيها ويشتد البرد عامة فتبيض الوان اهلها ويتبع ذلك مايقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور) (٥٩) .

---

(٥٧) جميل جبر : الجاحظ في حياته وأدبه وفكره . ١٣٨ – ١٣٩ .
(٥٨) انظر الجاحظ في كتاب الحيوان : ٤ / ١٤٠ .
(٥٩) ابن خلدون : المقدمة : ٨٤ .

ثم يضرب مثلا آخر على أثر الحر في طبائع البشر والوانهم بمثل ماتحدث به عن أثر البرد(٦٠).

وهكذا (والى البيئة الجغرافية في نشره يرجع السبب في اختلاف البشر في الوانهم وجسومهم وميولهم ونشاطهم العام وكثير من صفاتهم الجسمية والخلقية . وللبيئة الجغرافية في نظره دخل كبير فيما يميز المجتمعات بعضها عن بعض ، من مقومات في التقاليد والعادات والعلوم والافكار وشؤون الاسرة ونظم الحكم والسياسة والاخلاق والانفعالات وسائر أنواع الاجتماع) (٦١) . والى مثل هذا ذهب (منتسكيو) .

وقد انتبه كثير من الباحثين إلى ماقرره ابن خلدون بشأن العلاقة بين البيئة وبين الانسان بل أكد بعضهم ان هذا الباحث يعتقد (ان للبيئة الطبيعية الاثر الاول في تكوين الامم واكسابها طبائعها وخصائصها ، فالامم تختلف في الوانها ونشاطها وشجاعتها وكثرة عددها أو قلته وفيما فطرت عليه من الطبائع باختلاف مساكنها من وجه الأرض بين جبل وسهل وصحراء في منطقة باردة او حارة او معتدلة وفي بقعة خصبة أو قاحلة ...) (٦٢).

* النفس الانسانية

واذا كان الكثير مما أوردنا لايثير العجب فان مايدهش حقاً ان يقف الرجلان أمام النفس الانسانية وقفة أعمق مما يظن وهي ملاحظة ماينتاب الانسان من حالات او مشاعر لادخل للعقل الواعي فيها . وقد توصلا في ذلك إلى اقرار مبادىء معينة في (علم النفس) .

وقف كل من الجاحظ وابن خلدون يتأمل بعض مايصدر عن الانسان من تصرفات أو ماينتابه من حالات تبدو وكأنها غير طبيعية فالجاحظ يؤمن ايماناً لايقطعه شك بما عالج به أستاذه النظام موضوع الجن وأثره (في نفس الساري في الصحراء في سكينة الليل . هو تحليل مبتكر دقيق العلاقة بالتفسير النفسي ، بل انه اشبه مايكون بتحليلات علماء النفس في العصر الحديث) (٦٣) (وأصل هذا الأمر وابتداؤه ان القوم لما نزلوا بلاد الوحش عملت

---

(٦٠) انظر بشأن ذلك المصدر نفسه : ٨٣ .

(٦١) علي عبد الواحد وافي : عبد الرحمن بن خلدون ، ٢١٢ — ٢١٣ .

(٦٢) ابن خلدون المقدمة ص ٥٤٠

(٦٣) صموئيل عبد الشهيد : الروح العلمية عند الجاحظ : ٤٨ .

فيهم الوحشة ومن انفرد وطال مقامه في البلاد والخلاء والبعدعن الأنس استوحش ولاسيما مع قلة الأشغال والمذاكرة . والوحدة لاتقطع أيامهم الا بالمنى او بالتفكير والفكر ، وربما كان من اسبابه الوسوسة) (٦٤) . (فما أقرب هذا التعليل من تحليلات علماء النفس المعاصرين ، واي عقل يرفض مثل هذا التحليل المبني على كثير من المنطق ؟) (٦٥) .

ويبدو لنا ان ابن خلدون كان الصق من الجاحظ بالنسبة لموضوعات النفس الانسانية ، وذلك يعود إلى ان دراسته لظواهر الحياة الاجتماعية وتناوله لهذه المظاهر المختلفة هي التي قربته من هذه الدراسات (ويفهم من استعراض هذه الآراء والمعلومات ان ابن خلدون كان من الروحيين الذين يعتقدون بوجود روح منفصل عن البدن) (٦٦) .وهذا مايؤكده بقوله ان الانسان (مركب من جزأين احدهما جسماني والآخر روحاني ممتزج به ؛ ولكل واحد من الجزأين مدارك مختصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني ؛ مدرك تارة مدارك روحانية وتارة مدارك جسمانية : الا ان المدارك الروحانية يدركها بغير واسطة والمدارك الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس . ولكل مدرك فله حواس بما يدركه) (٦٧) وهذه الاراء وان لم تكن جديدة تماما لانها (لاتخرج من حيث الاساس عن نطاق الاراء الشائعة بين مفكري الاسلام في عهد ابن خلدون) (٦٨) الا أنها ملاحظات قيمة تدل على عمق تفكير الرجل ودقة ملاحظاته وطول وقفته امام النفس الانسانية .

ومن هنا لم يترك القارىء حائرا في تفسير مايقول بل هو يؤكده من خلال واقع معين ، يمكن ان يقوم دليلا على ادعائه فيقول (واعتبره بحال الصبي في اول مداركه كيف يبتهج بما يبصره من من الضوء وبما يسمعه من الاصوات فلا شك ان الابتهاج بالادراك الذي للنفس من ذاتها بغير واسطة يكون أشد والذ ، فالنفس الروحانية اذا شعرت بادراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة ، لايعبر عنهما وهذا الادراك لايحصل بنظر ولاعلم وانما يحصل بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة . والمتصوفة كثيرا مايعنون بحصول هذا الادراك للنفس بحصول هذه البهجة (٦٩) ويبدو لنا ان ابن خلدون لم يخرج في

---

(٦٤) الجاحظ : الحيوان : ٦ / ٢٤٨ — ٢٤٩ .
(٦٥ صموئيل عبد الشهيد : الروح العلمية عند الجاحظ : ٤٨ .
(٦٦) ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون : ٤١٥ .
(٦٧) ابن خلدون : المقدمة ص ٥١٧ .
(٦٨) ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون : ٤١٩ .
(٦٩) ابن خلدون : المقدمة ٥١٧ .

كل من الحالتين عن الحديث عن النفس، الا أن عمق الفكر ودقة الملاحظة اوصلاه إلى التفريق بين مايدرك بحاسة، وقد مثل له بحال الطفل، وما يدرك بالذات من غير حاسة، وقد مثل له بحال المتصوفة وهو يرى ان تحقق اللذة في النفس يكون اكثر عن طريق الاحساس الذاتي بغير واسطة (اي بغير حاسة). وهذا دون شك مايؤكده الواقع، فان جلال الروح عند المتصوفة والذي يحقق عندهم روعة الحب في الله لايتحقق — فيما تقول اخبار المتصوفة — الا عن طريق (كشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية كلها) كما يقول ذلك ابن خلدون.

وفي مثل هذا التفسير النفسي يلتقي الجاحظ مع ابن خلدون، من خلال المشاهدة والتجربة ايضا. وانظر اليه كيف يعلل تعليلا نفسيا، مايجب ان تفعله الام حين تنوم طفلها فيقول: (فان الصبي يبكي ببكاء شديدا متعباً موجعاً فاذا كانت الام جاهلة حركته في المهد حركة ثورته الدوار او نومته بان تضرب يدها على جبينه، ومتى نام الصبي وتلك الفزعة او اللوعة او المكروه قائم في جوفه ولم يعلل ببعض مايلهيه ويضحكه ويسره حتى يكون نومه على سرور فيسري فيه ويعمل في طباعه ولايكون نومه على فزع أوغيظ اوغم فان ذلك مما يعمل في الفساد) (٧٠).

(الا نستشف من هذه الفقرة حديثا عن العقل الباطني وعمايتراكم منه من مشاعر لاواعية لها اثرها في تصرفات الانسان، تتحكم به عن غير ادراك منه وتؤثر حتى في علاقاته بالآخرين؟ أو لانجد ايضاً في تحليله مفهوماً عصريا في منهج التربية أيضاً حيث يطلب من الام ان تمسح عن نفس طفلها اللوعة بما يلهيه ويبعث في نفسه السرور لئلا ترسب في قرارته تلك اللوعة وتفسد فيه الطباع) (٧١).

ولاشك ان ماتوصل اليه الرجلان يشكل جانبا من جوانب الوقفة الدقيقة التي لاتعدم (الصفة العلمية) وهي جوانب تلتقي احياناً مع ماتوصلت اليه نظريات علم النفس في العصر الحاضر، وان كان ذلك لايمتلك ماتمتلكه النظريات الحديثة من عمق ومن بعد ايضاً. فاذا اخذنا فارق الزمن بنظر الاعتبار فاننا سنضع هذه الاراء والملاحظات في مكان لاشك انها ترفع صاحبيها الى جلال القدر وسموه.

---

(٧٠) الجاحظ : الحيوان ١ / ٢١٧ .
(٧١) صموئيل عبد الشهيد : الروح العلمية عند الجاحظ ٤٩ — ٥٠ .

– مصادر ومراجع البحث –

١ . أحمد أمين : ضحى الاسلام . القاهرة ب.ت.ج١

٢ . ايف لاكوست : العلامة ابن خلدون . القاهرة ١٩٧٤ ترجمة ميشال سليمان .

٣ . الجاحظ : كتاب الحيوان : القاهرة ١٩٦٩ ج-١ -٧ .

٤ . جميل جبر : الجاحظ في حياته وأدبه وفكره . بيروت ١٩٦٨ .

٥ . جورج غريب :الجاحظ . بيروت ١٩٧١ ط٢ .

٦ . حنا الفاخوري : الجاحظ مصر ١٩٦٤ .

٧ . داود سلوم : النقد المنهجي عند الجاحظ بغداد ١٩٦٠ .

٨ . ساطع الحصري : دراسات عن مقدمة ابن خلدون . مصر ١٩٥٣ .

٩ . شفيق جبري : الجاحظ معلم العقل والأدب . القاهرة ب.ت.

١٠. صموئيل عبدالشهيد : الروح العلمية عند الجاحظ بيروت ١٩٧٥ .

١١. طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ، القاهرة ١٩٢٥ .

١٢. عبدالرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون . القاهرة . ب.ت.

١٣. عبدالله عبدالدايم : التربية عبر التاريخ . بيروت ١٩٧٣ .

١٤. علي عبدالواحد وافي : عبدالرحمن بن خلدون . مصر . ب.ت.

١٥. فكتور شلحت : النزعة الكلامية في أسلوب الجاحظ . القاهرة . ١٩٦٤

١٦. عمر فروخ : عبقرية العرب في العلم والفلسفة . دمشق . ب.ت.
تاريخ الفكر العربي إلى الأمام ابن خلدون بيروت . ١٩٦٦ .

١٧. قدري حافظ طوقان : مقام العقل عند العرب . مصر ب.ت .

١٨. كارل بروكلمان : تاريخ الادب العربي . ج٣ط ٢ القاهرة ب.ت.

١٩. محمد عبدالله عنان : ابن خلدون . القاهرة . ١٩٣٣ .

٢٠. محمد عبدالمنعم خفاجي : أبو عثمان الجاحظ . القاهرة . ب.ت .

٢١. محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث . القاهرة ١٩٦٦ . ط ٤ .

٢٢. وديعة طه النجم : الجاحظ والحاضرة العباسية . بغداد ١٩٦٥ .

حازم عبدالله

العقد الفريد

بين المشرق والأندلس

احتل العقد الفريد مكاناً بارزاً في الدراسات العربية على صعيد الادب واللغة والتاريخ وألفت فيه الكتب ونشرت المقالات والبحوث... غير أن أكثرها – اذا لم نقل جميعها – لم تول مكانة الكتاب بين المشرق والاندلس ، وحظ الأندلس وشخصية المؤلف ودوره في كتابه ما يستحق من عناية علمية تقوم على الدراسة المستأنية المستفيضة لذا فقد رأيت أن أركز على هذه الامور بإبراز قيمة الكتاب وتحقيق هويته ليكون هذا البحث مكملا لعديد من المقالات والآراء التي عالجت منهج المؤلف ومصادر كتابه وموضوعاته من وجهة النظر القائمة على ربط الكتاب بالمشرق واعتماده بصورة مطلقة على التقاليد المشرقية في التأليف شكلا ومضموناً ولهذا أيضاً الممت بالموضوعات والمنهج والمصادر الماماً سريعاً موجزاً ليكون مدخلا الى صلب البحث وجوهره ... مستعيناً بأراء السابقين مقتبساً مؤكداً أو معارضاً ناقدا ثم عرفت تلك البحوث والمقالات في فصل مختصر جعلته ختام البحث ليكون أدل على أهمية الكتاب وابراز قيمته ... ولقد كان عنوان الكتاب – العقد الفريد – مجالا لتأمل طويل ووقفة مستأنية نظرت خلالها في أقوال القدماء وآرائهم في هذه التسمية وقد كان هذا متمماً للعناصر الاساسية في البحث وهي هوية الكتاب ونصيب الاندلس والمؤلف الاندلسي فيه ...

مؤلف الكتاب : ابن عبد ربه الاندلسي .

احمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم مولى هشام بن عبد الملك بن مروان، من أهل قرطبة يكنى أبا عمر (١) ويلقب بشهاب الدين وبالقرطبي أو الأندلسي ... تجمع المصادر على أن مولده كان في قرطبة سنة ٢٤٦ وأن وفاته سنة ٣٢٨ سوى ما أورده ياقوت من أن وفاته كانت سنة ٣٤٨ (٢) وهو وهم واضح من ياقوت أو خطأ من نساخ كتابه بخاصة وأنه ينقل عن الحميدي الذي يثبت سنة ٣٢٨ للوفاة .

(١) ترجم له عدد من مؤرخي وأدباء الأندلس ، الفرضي في تأريخ علماء الأندلس ص ٣٨ والحميدي في جذوة المقتبس ص ١٠١ والضبي في بغية الملتمس ص ١٣٧ وابن خلكان في الوفيات جـ١ ص ٩٢ واليافعي في مرآة الجنان جـ٢ ص ٢٩٥ والذهبي في العبر في خبر من غبر جـ٣ ص ٢١١ وتذكرة الحفاظ جـ٣ ص ٥٤ وابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب جـ٢ ص ٣١٠ ..وغيرهم كثير .

(٢) معجم الا دباء / ياقوت جـ٢ ص ٦٧ .

ثقافته ومكانته :

نشأ ابن عبد ربه في منتصف القرن الثالث وعاش حتى اواخر الثلث الاول من القرن الرابع وقد اتاح له العمر الطويل ان يعاصر عدداً من الامراء الامويين وتكون له صلة بهم كالأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ – ٢٧٣هـ) والمنذر بن محمد (٢٧٣ – ٢٧٥هـ) وعبد الله بن محمد (٢٧٥ – ٣٠٠هـ) والظاهر ان صلته بالأخير كانت قوية اذ عرف في زمنه على انه احد شعرائه ان لم يكن شاعره الأثير بخاصة وان ابن عبد ربه كان قد بلغ مرحلة متقدمة من الوجهة العلمية والثقافية والادبية ولابن عبد ربه فيه مدائح حفظتها المصادر الاندلسية ... على ان مكانته تعلو وتشتهر في زمن عبد الرحمن الثالث – الناصر – حيث يكون شاعر البلاط الاموي لما يزيد على ربع قرن في فترة الخلافة (٣٠٠ – ٣٢٨) وقد سجل ابن عبد ربه الكثير من جوانب حياة الناصر مبتدئاً بتوليه الامارة سنة ٣٠٠ اذ نظم في تلك المناسبة قصيدة دالية ذكر عدداً من ابياتها في العقد الفريد ومطلعها :

بـــــدا الهـــــلال جـــــديـــــدا والمـــلـــك غـــض جـــديـــد
يـــانعمـــة الله زيـــدي مـــا كـــان فيـــك مـــزيد (٣)

ومنتهياً بارجوزة طويلة سجل فيها غزواته وجوانب مهمة من امارته وخلافته . وسنشير اليها عند الكلام عن حظ الاندلس وحظ المؤلف من كتاب العقد الفريد وتؤكد مصادر عديدة ان ابن عبد ربه كان ملماً بثقافة واسعة تعد صورة لما كان من الوان الثقافة والمعرفة في عصره على ايدي علماء ذلك العصر من امثال بقي بن مخلد وابن وضاح والخشني (٤) ويصفه الحميدي بقوله : « وكان لابي عمر بالعلم جلالة وبالادب رياسة وشهرة مع ديانة وصيانة وأتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نفاق . فساد بعد خمول واثرى بعد فقر واشير بالتفضيل اليه ... » (٥) .

اما بشأن آثاره الثقافية والادبية فان كتاب العقد الفريد يعد الاثر الوحيد الذي وصل الينا اما ديوانه الذي ذكر الحميدي انه يقع في عشرين جزءاً (٦) فانه لم يصل الينا . وما لدينا من

(٣) العقد الفريد جـ٤ ص ٤٩٨ وينظر كذلك دولة الاسلام في الأندلس محمد عبدالله عنان ص٣٦٩
(٤) تأريخ علماء الأندلس ص ٣٨ وبغية الوعاة / السيوطي جـ١ ص ٣٧١
(٥) جذوة المقتبس ص ١٠٣ .
(٦) المصدر نفسه ص ١٠١ وبغية الملتمس ص ١٣٧

شعره يكون العقد المصدر الرئيس له ثم يليه بعد ذلك الثعالبي وعدد من المصادر المشرقية والأندلسية ... (٧) .

العقد الفريد

عرف الكتاب بهذا الاسم على نطاق واسع وحقق وطبع به ايضاً ، غير ان المصادر القديمة بصورة عامة تذكره باسم «العقد» كالجذوة والبغية والمطمح وطبقات الامم (٨) .

اما المحدثون فقد تباينت آراؤهم ومواقفهم من تسمية الكتاب ، واكثرهم لم يقف عند تسميته بالعقد فقط وانما جرى على المصطلح الكامل « العقد الفريد » منهم الزركلي وكحالة ونيكلسن وأحمد ضيف .... وزكي مبارك وعمر الدقاق ومارون عبود وآخرون ... (٩) .

وفريق آخر من الباحثين اكتفى باصطلاح « العقد » ولم يعلق على اجتزاء التسمية منهم البستاني الذي عرف ابن عبد ربه بقوله : « هو الفقيه ابو عمر احمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد اشتهر بالاندلس » (١٠) .

ويقف فريق ثالث عند تسمية الكتاب بالعقد فيعلق عليه احدهم بان الجزء الثاني « الفريد» اضيف فيما بعد فيقول: «أما لفظ الفريد فقد أضافه بعض النساخ المتأخرين ..» (١١) وينقل افرام البستاني عن بروكلمن بانه : نبه الافكار إلى ان المؤلف دعا كتابه بالعقد فقط فيكون الفريد نعتاً اضيف اليه تقديراً لفوائده الجمة ونرى هذا القول صائباً لأن مرجحي المؤلف الاقدمين كالفتح بن خاقان وياقوت وابن خلكان يذكرون الكتاب باسم « العقد» فقط » (١٢) .

---

(٧) ينظر التيمة جـ٢ ص ٥ / ١٠٠ والمقتبس لا بن حيان ص ٢٤١/٢٤٤ واليافعي جـ٢ ص٢٩٥

(٨) مطمح الأنفس ومسرح التأنس ص ٥٨ .طبقات الا مم لصاعد ص ١٢١

(٩) الا علا م جـ١ ص .معجم المؤلفين جـ٢ ص ١١٥ الأدب العباسي جل بلاغة العرب في الأندلس ص ٩٢/٩٣ . النثر الفني جـ١ ص ١٢٢ ،مصادر التراث العربي ص ١٠٠/ ١١١ . أدب العرب ص ٣٤٤

(١٠) دائرة المعارف،البستاني جـ١ ص ٥٨٧ وينظر كذلك مجاني الأدب /لويس شيخو جـ٥ ص٢٨٢

(١١) دائرة المعارف الا سلا مية جـ١ ص ٢٢٣

(١٢) سلسلة الروائع – أفرام البستاني .وينظر بروكلمان جـ١

ويأتي باحث آخر ليؤكد لنا هذا الرأي بتحديده مصدر اضافة لفظ الفريد «.. وربما اخذت تعرف زمن الابشيهي اول من نعت عقد ابن عبد ربه بهذا النعت فهو على الاقل، اقدم رجل فيما نعلم ذكر هذا النعت للعقد .. » (١٣) .

وينقل باحث آخر هذا الرأي فيقول : « والكتاب لم يوصف بالفريد في أيام صاحبه وانما كان يسمى بالعقد وقد أضاف بعض المتأخرين الوصف بالفريد فعرف من يومها بالعقد الفريد ولعل أول من ذكر كلمة فريد هو الابشيهي صاحب — المستطرف من كل فن مستظرف — وربما كان ذكر الابشيهي لتلك الصفة بدافع تكوين سجعة فهو يقول في كتابه : «ونقلت كثيراً مما نقله ابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد ورجوت أن يجد مطالعه كل مايقصد ويريد..»(١٤) واذا نظرنا في هذا الرأي وجدناه أولا لايستند الى دليل تاريخي واضح وانما هو ترجيح ، ذلك ان اعتداد الابشيهي اول من نعت العقد بالفريد احتمال يحتاج الى مايؤكده ولا نرى أن السجعة قد دفعت اليه اذ يمكننا أن نتساءل فنعكس الاحتمال ونقول : ان الابشيهي قد ختم كلامه بسجعة وهي قوله : أن يجد مطالعه كل مايقصد ويريد لتكون منسجمة مع العقد الفريد ... ولنا أن نتساءل أيضاً كم من المصادر العربية لعب المؤرخون والادباء بعناوينها بالاضافة او الحذف وهل يتفق ذلك مع الأمانة العلمية التي اتصف بها كثير منهم ، وما السوابق التي تؤيد هذا ان كان قد حدث لهذه الاسباب أرجح ان تكون تسمية الكتاب بالعقد الفريد من المؤلف وليست متأخرة . وأستطيع أن أدعم هذا الترجيح بالاضافة ماسبق بجملة أمور :

منها ان هذه التسمية وردت في مقدمة ابن عبد ربه نفسه، حين عرف بكتابه ومنهجه فقال من جملة ذلك : « وسميته كتاب — العقد الفريد — لما فيه من مختلف جواهر الكلام مع دقة السلك وحسن النظام...»(١٥) وهذا دليل لايستهان به خاصة وان محققي(١٦) الكتاب لم يناقشوا هذه التسمية أو يعلقوا عليها بالتخطئة مع العلم ان هذا من مهمات التحقيق وبدهياته .

---

(١٣) المستطرف من كل فن مستظرف، ص٢ مقدمة المؤلف .

(١٤) الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة ص ٢٧١ .

(١٥) العقد الفريد — مقدمة المؤلف ص ٤/ ٥ .

(١٦) المحققون هم : أحمد أمين .أحمد الزين. ابراهيم الا بياري .ينظر العقد الفريد / طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٣٨٤/١٩٦٥ .

ومنها ان تحدث القدماء عن الكتاب باسم العقد لايعني بالضرورة أن لا يكون اسمه «العقد الفريد» حيث يرجح أن يكون هذا الاستعمال على سبيل الاختصار والايجاز ونحن نقرأ في كتبنا ومصادرنا القديمة صوراً عديدة من هذا الايجاز في استعمال العناوين كاستعمال لفظ الكامل للمبرد دون ذكر عنوان الكتاب كاملا وكذا الموازنة للآمدي وطبقات الشعراء وبغية الوعاة وتاريخ الطبري وغير ذلك كثير ...

فاذا أضفنا الى هذا ان عدداً من الباحثين – وقد أشرنا الى أسماء عدد بعضهم سابقاً – قد وقفوا من التسمية موقف الموافقة والتسليم ولم ينكروا العنوان أو يناقشوه وكذلك شهرة الكتاب ومكانته في القديم والحديث بما يدعو الى الاشارة للكتاب بجزء من عنوانه عن تسميته الكاملة .... استطعنا أن ننظر الى الرأي الآخر القائل بتسمية الكتاب – العقد الفريد – أصلا من قبل مؤلفه بالقبول والترجيح يؤيدنا في هذا أن المؤلف عاش في فترة زاهية من حياة المسلمين في الأندلس حرص فيها المؤلفون والكتاب والعلماء على التفوق والظهور على المشارقة وليس الوصول الى درجتهم فقط ولعل من مظاهر ذلك : الحرص على ترصيع الآثار وتزيينها شكلا ومضموناً ، عنواناً ومحتوى ، ويلاحظ هذا كل من يمعن النظر في أدب الأندلسيين وثقافتهم وآثارهم في هذه الفترة وما بعدها .

على اننا لو رجعنا الى أبواب الكتاب وتأملنا أسماءها التي تعتمد الترصيع والزخرفة اللفظية حتى أصبحت كالجواهر الثمينة والأعلاق النفيسة مثل : اللؤلؤة والجوهرة والفريدة والزبرجدة والمرجانة والياقوتة والزمردة والدرة واليتيمة والواسطة أقول اذا تأملنا هذه التسميات الدالة على مبلغ عناية الرجل بالزخرفة اللفظية والتزويق فلم نستبعد أن يسمي المؤلف كتابه بالعقد الفريد ، بل ربما بدا لنا هذا أمراً طبيعياً متوقعاً ومنسجماً مع اتجاه مؤلفه في تسميته وما يريد اعطاءه من فكرة واضحة عن محتواه للسامعين والقراء ...

منهج الكتاب :

عرض ابن عبد ربه منهجه في مقدمة كتابه بوضوح تام ويمكن تلخيص خطوطه العامة فيما يلي : –

الاختيار :

فقد جمع القسم الأكبر من مادة كتابه كما قال : « .. من متخير جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان فكان جوهر الجوهر ولب اللباب وانما لي فيه تأليف الأخبار وفضل الاختيار ..»(١٧)

(١٧) مقدمة المؤلف ص ٢

* **تأليف الاخبار :**

وترتيب المعاني وتنسيقها حسب مضامينها بما يسهل على القارىء المتتبع الرجوع إلى كل باب يختص بما يروم الاطلاع عليه من الموضوعات .

التركيز على المعاني الشريفة السامية :

ذات الألفاظ الحسنة والعبارات الجزلة ليجمع للقارىء سمو المعنى وشرفه إلى رقة اللفظ وعذوبته وسهولته ووضوحه فقال في ذلك :
« فتطلبت نظائر الكلام وأشكال المعاني ونوادر الأمثال ثم قرنت كل جنس إلى جنسه فجعلته باباً على حدته ليستدل الطالب للخبر على موضعه من الكتاب ونظيره من كل باب ...».
وقال أيضاً في التأكيد على اختيار المعاني : « وقصدت من جملة الأخبار والفنون أشرفها جوهراً وأظهرها رونقاً وأجزلها لفظاً وأحسنها ديباجة وأكثرها طلاوة وحلاوة ... »(١٨).

* **حذف الاسانيد :**

فقد أشار ابن عبدربه إلى أنه تحاشى ذكر أسانيد الأخبار التي أوردها وعلل تصرفه هذا بصراحة ووضوح فقال : « وحذفت الأسانيد من أكثر الأخبار طلباً للاستخفاف والايجاز وهرباً من التثقيل والتطويل لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادر لاينفعها الاسناد باتصاله ولايضرها ماحذف منها ...» (١٨) .

* **الشمول :**

حيث حرص ابن عبدربه على أن يكون كتابه جامعاً لشتى الموضوعات والأخبار والمعاني بخاصة وانه — كما يقول — قد نظر في الكتب المؤلفة قبله فوجدها تفتقر إلى صفة الشمول والعموم فأراد أن يسد هذا النقص ويكمل مافات تلك المؤلفات فقال : « وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير متصرفة في فنون الأخبار ولا جامعة لجمل الآثار فجعلت هذا الكتاب كافياً (شافياً) جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه العامة والخاصة وتدور على ألسنة الملوك والسوقة وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر ... »(١٨) .

---

(١٨) المصدر نفسه ص ٣/٤ وينظر كذلك مقدمة المحققين ص ط
وبجلة المجمع العلمي العربي بدمشق — وتراث الانسانية .وغيرها

* مصادر العقد وموضوعاته :

لم يذكر ابن عبدربه مصادر كتابه وقدلاحظنا أنه أقر بحذف الأسانيد من الأخبار والروايات التي أوردها وعلل ذلك على نحو ماأشرنا اليه سابقاً ... غير أن عدداً من الذين كتبوا في العقد حاولوا تتبع مصادره من خلال الاخبار والمعلومات التي أوردها وكان مما لاحظوه أن قدراً وافراً من هذه الأخبار قد ورد في كتب مشرقية معلومة مشهورة لأعلام الأدب المشرقي حتى أوائل القرن الرابع الهجري « كالجاحظ والمبرد وأبي عبيدة والاصمعي وابن قتيبة » (١٩) ويرى باحث آخر أن ابن عبدربه قد اعتمد على ابن قتيبة في عيون الأخبار وعلى مصادر مشرقية اخرى فأفاد « مما حكاه أبو عبيدة في «النقائص» وأيام العرب ومن الجاحظ في البيان والتبيين فنقل عنه فصولاً في العتاب واستنجاز الوعد والاعتذار وكتابة الرسائل ،ومن المبرد في الكامل ... ومن ابن المقفع في أدبيه الصغير والكبير وكليلة ودمنة ومن الطبري في تاريخ الأمم والملوك ومن ابن سلام الجمحي في طبقات الشعراء وآخرين كثيرين ...»(٢٠)، ولو تتبعنا ماقاله ولاحظه باحثون آخرون بشأن مصادر العقد لضاق بنا البحث عن استيعاب آرائهم وملاحظاتهم وبحسبنا هذه الاشارات الموجزة وهي كافية للدلالة على تتبع ابن عبد ربه للمصادر المشرقية المشهورة حتى عصره وعلى سعة ثقافته واطلاعه على الكتب المختلفة على بعد الشقة بينه وبين المشرق ... ولكن ينبغي أن لانغفل الجانب الآخر من مصادر ابن عبد ربه وهو جانب المصادر الأندلسية وقد تمثل في المعلومات والاخبار التي أوردها عن الأندلسي والتي نتناول طرفاً منها في الحديث عن حظ الاندلس من الكتاب ... أما موضوعات الكتاب فيمكن الوقوف على حقيقتها من خلال كتاب العقد نفسه والتأمل في أجزائه وكذلك من خلال الفترة التي ألف فيها ومفهوم الأدب ودلالته الموسوعية الشاملة فقد كانت لفظة الأدب تعني الالمام من كل علم بطرف وكان الأديب يعني الرجل المثقف بالثقافة العربية الاسلامية العامة في التاريخ واللغة والشريعة وعلوم القرآن والحديث وعلم الكلام والمنطق والفلسفة والطب وغيرها .وبهذه النظرة لاحظ بعض الباحثين أن العقد (يشترك مع سائر كتب الأدب في الخصائص التي سادت المؤلفات في ذلك العصر فهو ذو طابع أدبي موسوعي تتسم مادته بالغزارة والتنوع وحوى جانباً وافياً من نصوص الشعر والنثر

(١٩) مجلة الرسالة ع (٨٢٩) ١٧ سنة ١٩٤٩ مقال محمود أبو رية ، وينظر كذلك تراث الانسانية المجلد الثاني ص ٢٥/ ٢٧ في مقال طويل لمحمد خليفة التونسي عن ابن عبد ربه عرض فيه أسماء مؤلفات عديدة رجح أن تكون مصادر العقد وممن أضافهم إلى الأسماء السابقة سيبويه ...

(٢٠) دراسة في مصادر الأدب ص ٢٤٨ الطاهر أحمد مكي .

والخطب والوصايا ...» فكانت موضوعات الكتاب تحوي الشعر والنثر والسياسة والاخلاق والحرب وعدد السلاح وفنون القتال ، وألوان الاطعمة والاشربة والآداب المتعلقة بهما وأدب الحديث والاستماع وعلوم البلاغة.والشعر وبحوره وأوزانه وما يتعلق به والغناء والموسيقى كما حوى إلى جانب ذلك كله نتفاً من علوم الطب والفلك وغيرهما ..... وبذلك استحق الوصف الذي نعته به أحد الباحثين بأنه « موسوعة أدبية عامة يوشك من ينظر فيه أن يجزم بأنه لم يغادر شيئاً مما يهم الباحث في علم العرب الاعرض له . واعنى بـ — علم العرب — مجموعة المعارف العربية العامة في الاداب والتاريخ والاجتماع والتي تتكون منها عناصر الثقافة العربية العامة لعهد مؤلف هذا الكتاب ... (٢١)

بين تقليد المشرق وتجديد الاندلس :

انفرد ياقوت في ايراد خبر يتعلق بكتاب العقد الفريد بعد وصوله إلى المشرق فقال : (وبلغني أن صاحب بن عباد سمع بكتاب العقد فحرص حتى حصل عنده فلما تأمله قال هذه بضاعتنا ردت الينا ظننت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم وانما هو يشتمل على أخبار بلادنا ، لاحاجة لنا فيه فرده .. » (٢٢)

وعلى الرغم من أن قول الصاحب هذا لا ينص على تقليد مشرقي فقد اتخذه عدد من الباحثين نقطة انطلاق للحكم على العقد بأنه تقليد مشرقي لا يحوي أيةسمة أندلسية تنم عن ابداع أو تجديد ان في الشكل أو في المضمون . يقول أحد هؤلاء الباحثين : « ..وإذاتركنا الحياة العقلية في الأندلس إلى الحياة الادبية وجدنا ظاهرة التقليد المشرقي واضحة جليه ، يصاغ — العقد الفريد — على شكل عيون الاخبار ويراه الصاحب بن عباد فيقول : هذه بضاعتنا ردت الينا .. » (٢٣)

---

(٢١) مجلة الرسالة عدد (٣٩٢) السنة التاسعة ص ١٨ مقال محمد سعيد العريان .. وينظر كذلك المصادر العربية والمعربة محمد طاهر حمادة ص ٢٤٢ . ودليل المراجع العربية ص ١٩٦ والمكتبة العربية ص ٢٦١ .

(٢٢) معجم الا دباء / ياقوت ص ٦٧ جـ ٢.

(٢٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي — شوقي ضيف ص ٤١٥ وينظر كذلك تاريخ الأدب العربي /ص ٢٦٧ وتأريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ص ٤٨٠ .وتراث الا نسانية ص ٢٦ .

والواقع أنّ أموراً أخرى أرجح أن تكون مما استند اليه القائلون بالتقليد المشرقي ، لعل في مقدمتها المعلومات والأخبار المشرقية الكثيرة الواردة في العقد وقد وردت في كتب الأدب المشهورة قبله كعيون الأخبار والبيان والتبيين وطبقات الشعراء وغيرها ، وهذا ما حمل أحد الباحثين على ملاحظة أوجه الشبه بين عيون الاخبار والعقد الفريد وعقد موازنه بينهما فقال من جملة ذلك : « ان ابن عبد ربه نفسه على بروز شخصيته بروزاً محدوداً في كتابه لم يستطع أن يخرج عن فلك المشارقة في رواية أدبهم فكان شأنه أيضاً شأن أهل الاندلس ، بل أنه أيضاً كان عالة عليهم في منهج كتابه نفسه فقد قسم كتابه أبواباً بينها وبين أبواب كتاب عيون الاخبار لابن قتيبة شبه كبير فالباب الاول في السلطان والثاني في الحروب على غرار نظيريهما في عيون الاخبار ، كما أن أبواب العلم والادب والمواعظ والزهد الطبائع .. الطعام .النساء . سبق أيضاً أن رأيناها في كتاب ابن قتيبة ، كما سمى ابن عبد ربه كل باب كتاباً على غرار مافعله سلفه في عيون الأخبار .. » (٢٤)

وتتسع نظرة الموازنة بين الكتابين لدى باحث آخر فيخرج بالفكرة التالية ويقول : — « ... إن ابن عبد ربه قد قرأ عيون الأخبار فاعجب به وبطريقته وأراد أن يصنع على مثاله كتاباً للأندلسيين أوفى بالحاجة وأحسن تنظيماً وتبويباً ... صنف ابن عبد ربه كتابه في خمسة وعشرين باباً بينها وبين أبواب عيون الأخبار العشرة شبه كبير ، فهنالك سبعة أبواب مشتركة بين الكتابين هي : السلطان ، الحروب ، العلم والادب المواعظ والزهد . والطبائع الطعام . النساء . كما أن عدداً آخر في أبواب عقده نجده مفرقاً في تضاعيف بعض أبواب عيون الأخبار فكتاب الأجوبة وكتاب الخطب وهما الكتابان الثاني عشر والثالث عشر من العقد كلاهما من موضوعات كتاب العلم في عيون الأخبار وكتاب مخاطبة الملوك وهو الكتاب الخامس من العقد فرع من فروع كتاب السلطان في عيون الأخبار وكتاب أخبار زياد والحجاج والطالبيين وهو الكتاب السادس عشر من العقد معنى من معاني كتاب الحروب في عيون الأخبار ... وأخبار البخلاء والطفيليين التي تؤلف الكتاب الثاني والعشرين نجد ما يماثلها في كتاب الطعام من عيون الأخبار ، كل هذا يؤكد سير الأديب الاندلسي على نهج سلفه البغدادي كما قدمنا .. » (٢٥) .

---

(٢٤) مصادر التراث العربي ص ١١٨ وينظر كذلك حضارة العرب / ليفي برفنسال ص ٥٧

(٢٥) نظرة تأريخية في حركة التأليف عند العرب ص ١٦١ وينظر مجلة الرساله عدد (٣٩٣) السنة التاسعة ١٩٤١ وينظر كذلك دراسة في مصادر الأدب / ص ٢٨٤/٢٨٣ وغيرها .

وإذا جئنا إلى فكرة التقليد لعيون الأخبار وتبعية العقد الفريد للمشرق من خلال مقولة الصاحب بن عباد وتأملنا هذه المقولة تبين لنا أنها لا تقدح في قيمة العقد ، كما أنها لاتثبت صفة التقليد والالتزام للخط المشرقي بصورة مطلقة محضة ، ذلك ان الصاحب — على فرض صحة المقولة عنه — لم يزن الكتاب بميزان عام يأخذ بجميع الامور والجوانب المتعلقة به وينظر إلى غاية مؤلفه من تأليفه ، وانما وزنه بميزان فائدته الشخصية فقط اذ كان يتوقع ان يرى في الكتاب اخباراً وآثاراً اندلسية خالصة ، حيث كان متلهفاً على مايبدو — لمتابعة اخبار القوم شأن كثير من المثقفين والعلماء المشارقة ، ويخيل الي ان الصاحب لم يكن يتعد هذا الغرض والا فانه لم يقرأ الكتاب ولم يتتبع مافيه او انه قرأ شيئاً يسيراً منه وبخاصة في اجزائه الاولى والقى نظرة عابرة على موضوعاته .. ثم حكم على الكتاب جملة من خلال الفكرة التي كونها بقراءته ذلك الجزء اليسير منه والا فكيف يعقل ان يكون الصاحب قد قرأ الكتاب جملة وتفصيلا واطلع على ماكتبه ابن عبد ربه عن الاندلس والاندلسيين وبخاصة الامراء منهم وما اورده لنفسه من الشعر والنثر والآراء والملاحظات النقدية فيهما ... اقول كيف يعقل ان يطلع الصاحب على كل هذا ثم يزعم بعد ذلك ان الكتاب لم يحو الا الاخبار والآثار المشرقية ؟

ومن هنا فقد كانت ملاحظات عدد من الباحثين على مقولة الصاحب بخاصة وعلى فكرة التقليد المطلق بعامة واردة ومقبولة ولها مايبررها فقد قال احدهم في معرض مناقشته لرأي الصاحب « ... وليس لسخط الصاحب من سبب سوى انه كان يطمح ان يرى في الكتاب صورة لأدب المغرب والاندلس فخاب ظنه ، ولو ان الكتاب ظهر في ذلك العصر في بغداد او قام على تصنيفه احد ادباء المشرق لما قابله الصاحب بشيء من هذا الحرد...»(٢٦)

ويناقش باحث آخر مقولة الصاحب ويكاد يخرج بالرأي نفسه او قريباً منه فيقول بعد ان يورد هذه المقولة « . . . فلا يعقل ان يرده بهذه السماجة وهو الذي جمع خزانة فيها الوف من الاجزاء وبعضها قد لايكون من الممتع ، فالعقد لايزهد فيه الصاحب على هذا الوجه وهو مهما كان قمين بان يجد له مكاناً في خزانته العظيمة .. » (٢٧) .

ولعل هذه النصوص تشجعنا على المضي في تقويم مقولة الصاحب من خلال ثقافته وتطلعه إلى اخبار الاندلسيين وحرصه على معرفة المزيد من اخبارهم وآثارهم ونكون بذلك

(٢٦) نظرة تأريخية في حركة التأليف عند العرب ص ١٦٦ أمجد الطرابلسي
(٢٧) كنوز الأجداد / محمد كرد علي ص ١١٠ .

قد اقتربنا كثيراً من النظرة السليمة الصحيحة في موقع كتاب العقد الفريد من التيار المشرقي والافادة منه دون ان يغير ذلك الكتاب او ينقص من قيمته او يلحقه بالكتب التقليدية يؤيدنا في هذا ان مؤلف الكتاب نفسه قد اشار إلى الغاية من تأليفه بوضوح وصراحة بعد ان عرض الخطوط العامة لمنهجه فيه فقال : « ... وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الاخبار في معانيها وتوافقها في مذاهبها ، وقرنت بها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا ان لمغربنا على قاصيته وبلدنا على انقطاعه خطاً من المنظوم والمنثور . . » (٢٨)

فلم يكن ابن عبد ربه اذن معنياً بالمشرقيين الا ليعلمهم باهتمام الاندلسيين وباخبارهم وآثارهم وتطور حركاتهم الثقافية والعامية ولاظهار فضل الاندلسيين وقدرتهم على اللحاق باخوانهم المشارقة ومنافستهم في شتى مجالات الثقافة بما عرضه في كتابه من آثار واخبار اندلسية سنشير إلى شيء منها بعد قليل وبما قدمه من خصائص ومميزات في كتاب العقد شكلا ومضموناً ..

واما بالنسبة للاندلسيين فقد اراد ان عبد ربه — كما مر بنا من اقوائه — اعلام الاندلسيين بقدر وافر من اخبار وآثار اخوانهم المشارقة وتقوية ثقتهم بانفسهم هذا فضلا عما يقدمه لهم من اخبار مشرقية متنوعة ذات صبغة عامة لاتخص المشرق فقط وانما تهم كل ناطق بالعربية حريص على تتبع علومها وفنونها وما يتعلق بها من علوم التاريخ والسير والتراجم . . وكذلك ما يقدمه الكتاب من اخبار وآثار اندلسية تهم الاندلسيين انفسهم كما تهم اهل المشرق . . هكذا تكون غاية الكتاب مزدوجة للمشرق والاندلس وليس لواحد منهم على حساب الآخر (٢٩) .

بين عيون الاخبار والعقد الفريد :

ونحاول بعد هذاان نناقش فكرة الربط بين العقدالفريد وعيون الاخبار ويتبادر إلى الذهن هنا ان الموضوعات التي احتواها العقد قد اتسمت بالتنويع والشمول لشتى نواحي المعرفة العربية الاسلامية في السلطان والسياسة والاخلاق والاجتماع ، والاقتصاد والايمان والاعتقاد والطعام والشراب والحرب والسلم والجد واللهو والشعر والنثر والبلاغة والبيان .. إلى غير ذلك من العلوم والمعارف التي لايتوقع الباحث ان تتوفر في كتاب واحد وهي معارف يصح ان

(٢٨) مقدمة المؤلف لكتاب العقد ص ٤ — ٥ ج ١.

(٢٩) ينظر ملامح الشعر الأندلسي / د عمر الدقاق ص ٤٦/٤٧ وكذلك التجديد في الأدب الأندلسي باقر سماكه ص ٢٨ — ٢٩.

نقول عنها بأنها علوم العصر يتداولها الناس في المشرق والمغرب وفي كل مكان له صلة بالثقافة العربية الاسلامية ...

والذي ينتج عن هذا ان كتاب العقد لم يعتمد على مصدر واحد بعينه وانما استمد موضوعاته ومادته من مصادر متعددة مشرقية واندلسية وقد اشرنا إلى ملاحظات بعض الباحثين في هذا الصدد وتسميتهم لعديد من المصادر المشرقية التي رجحوا ان تكون مما اعتمد عليه ابن عبد ربه في عقده .. كما ان باحثين آخرين لاحظوا بعض الأمور التي رجحوا من خلالها تسمية مصادر أندلسية للمادة الواردة في الكتاب والمتعلقة بالأندلس كعثمان بن المثنى الشاعر (٣٠) القرطبي أحد شيوخ ابن عبد ربه وقد ذكر أنه رحل الى المشرق والتقى بأبي تمام ... كما « سمع من بقي بن مخلد وابن وضاح والخشني » (٣١) وهم من أكابر علماء الأندلس في الفقه والتاريخ والسير في عصر ابن عبد ربه وبخاصة في القرن الثالث الهجري حين كان ابن عبد ربه صبياً وشاباً يطلب العلم ويتردد على دوره ومعاهده . . . وإذا كانت مصادر العقد متعددة وليست مصدراً واحداً فان النظر الى التزام كتاب العقد لعيون الأخبار والربط بينهما على أساس أن الأول فرع من الثاني أمر ينطوي على كثير من المبالغة ويتجافى مع طبيعة النظر الى مؤلفاتنا العربية بصورة عامة وليس الى كتاب العقد الفريد فقط ذلك ان المعلومات التي وردت مشتركة بين الكتابين أو بين العقد وكتب مشرقية أخرى ليست ملكاً لأي مؤلف وردت في كتابه وانما هي ملك للامة كلها وهي تشكل جهود عدد كبير من العلماء والأدباء والشعراء والمتكلمين والمؤرخين وغيرهم بالاضافة الى القرآن الكريم والسنة النبوية اللذين أخذ عنهما كثيراً مما استشهد به من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ونستطيع أن نقول مثل ذلك بالنسبة لدواوين الشعراء الجاهليين والاسلاميين والعباسيين فيما يتعلق بالأشعار العديدة التي استشهد بها ... فاذا توقفنا عند كتاب كالعقد وحاولنا تتبع مصادره كان علينا أن نفعل ذلك بالنسبة لعديد من المؤلفات المشرقية وبخاصة تلك التي لم يشر مؤلفوها الى مصادر معلوماتهم واخبارهم فيها وهي كثيرة تفوق الحصر ويصعب على الباحث تتبع مصادرها اللهم الا على سبيل الاحتمال والترجيح وليس القطع والتحديد وهذه هي النتيجة التي نستطيع أن نستخلصها من آراء عدد كبير من الباحثين الذين كتبوا في ابن عبد ربه وعقده فانهم لم يخصصوا مصدراً واحداً

(٣٠) تراث الانسانية .المجلد الثاني ص ٢٦ مقال التونسي

(٣١) بغية الوعاة جـ١ ص ٣٧١ .

بعينه وانما ذكروا مصادر عديدة رجحوا أن تكون القواعد التي انطلق منها ابن عبد ربه في جمع أخباره وآثاره المشرقية ومن هذه المصادر : « فضل العرب على العجم والشعر والشعراء لابن قتيبة أيضاً والمحاسن والأضداد والبيان والتبيين والبخلاء والحيوان وفضل قحطان على عدنان للجاحظ والكامل والروضة للمبرد والنقائض وأيام العرب لأبي عبيدة وتاريخ الأمم والملوك للطبري والعروض للخليل وكتاب المنثور والمنظوم لأحمد بن طيفور وكتاب الأمثال وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي والكتاب لسيبويه ومسند ابن أبي شيبه وكتب ابن المقنع ... » (٣٢) .

ويلاحظ باحث آخر ان ابن عبد ربه « يروي عن الشيباني والمدائني والأصمعي وأبي عبيدة والعتبي والسجستاني والجاحظ وابن قتيبة والمبرد والرياشي والزيادي وابن سلام وابن الكلبي وغيرهم من علماء المشارقة .. » (٣٣) .

وهكذا يتبين لنا أن ابن عبد ربه لم يعتمد كتاباً واحداً بعينه وانما اعتمد كل ماحصل عليه من مصادر أهل المشرق والتي ظهرت حتى عصره وتنقل بين أزاهيرها ورياضها مختاراً جامعاً وناقداً معلقاً ومعارضاً فجاء كتابه بهذه السعة وذاك الشمول وكان — كما نرى — بحق فوق التقليد والالتزام مستقلا في منهجه وعنوانه واسماء أبوابه وكتبه متميزاً كذلك في تعليقاته غير مهمل لأهل بلاده بل كان حريصاً على فائدتهم دؤوباً مجداً في تقديم مايشن النفع فيه سواء كان مشرقياً أم أندلسياً ..

حظ الاندلس من الكتاب :

ولعل مما يكمل هذه الصورة ويزيدها وضوحاً أن نناقش ماذهب اليه باحثون آخرون في المغالاة والمبالغة في التقليد والاعتماد على كتاب واحد بعينه في تأليف العقد الفريد فقد عده أحدهم « فيما يتصل بالفكر الأندلسي أكبر مظهر لتبعية الأندلس الفكرية للمشرق»(٣٤) ولقد وردت الاشارة الى مناقشة هذه الفكرة في الصفحات الماضية حيث بينا نوع الثقافة التي احتواها العقد وطبيعتها وكيف انها كانت وما تزال ملكاً لجميع العرب والمسلمين ولا تتوقف على قطر دون آخر والأمر هنا فيما اعتقد ليس أمر تبعيه وانما هو

---

(٣٢) تراث الانسانية المجلد الثاني ص ٢٦

(٣٣) مجلة الرسالة عدد / ٣٩٢ السنة التاسعة مقال أحمد حسن الزيات ص ١٩.

(٣٤) تأريخ الفكر الأندلسي بالنثيا ص ١٧٢.

أمر ثقافة موحدة بوحدة اللغة والعقيدة والتاريخ والحضارة والمصير وان اختلفت الاماكن وتباعدت ...

على ان الأمر لم يقف عند حد التبعية وانما تعداه الى انكار ان يكون لصاحبه أي اثر فيه فقال أحدهم « فليس في العقد شيء لابن عبد ربه » (٣٥) . . ولا أستبعد أن تكون هذه النظرة المغالية قد اعتمدت فيما اعتمدت عليه على ماجاء في أحد المصادر القديمة الأندلسية عند التعريف بكتاب ابن عبد ربه حين قال مؤلفه : «ديوان ابن عبد ربه الذي سماه العقد على أنه يلحقه فيه بعض اللوم لا سيما إذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده ومناقب ملوكه يتيمة سلكه أكثر الحز وأخطأ المفصل وأطال الهز لسيف غير مفصل وقصد به ماقصد بأصحابه من ترك مايعنيهم واغفالهم مايهمهم ... (٣٦) ومع أن هذا المصدر هو الوحيد الذي انفرد بهذا القول في جملة المصادر الأندلسية فانه يغفل ظروف الكتاب وغاية مؤلفه والفترة التي الف فيها ، على أنه بالرغم من هذه النظرة فانه يعود فيثني على الكتاب ومؤلفه حين يتخذه مجالاً للتفاخر والتباهي أمام المشارقة وستأتي الاشارة إلى هذا فيما بعد. وأبادر إلى القول بأن المتأمل في كتاب العقد الفريد المتتبع لابوابه وفصوله يجد أن ابن عبد ربه لم يغفل الاندلس وانما عني بها وبأمرائها وأفرد لها مكاناً متميزاً من الجزء الرابع من كتابه هذا بالاضافة إلى حظه هو في الكتاب وملامح شخصيته ودلائل ثقافته ومعرفته وسنبدأ بعرض موجز لحظ الاندلس في العقد ثم نتبعه بكلمة موجزة في آثار المؤلف وشخصيته ليكون هذا من الادلة التي تدعم القول بتميز الكتاب ومؤلفه وصياغته بشكل ينسجم مع الذوق العربي الاندلسي وإن كان مستمداً قدراً وافراً من مواده من المشرق ومستفيداً من تجارب علمائه وأدبائه المشهورين في التأليف والكتابة وناقلاً عنهم مايرى فيه الفائدة والنفع لتحقيق الغاية التي هدف اليها من تأليف الكتاب :

تحت عنوان « خلفاء بني أمية بالأندلس » كتب ابن عبد ربه فصلاً في التعريف بهؤلاء الخلفاء وايجاز أحوالهم السياسية والاجتماعية مبتدئاً بعبد الرحمن بن معاوية : فذكر أولاً ولايته همته ولقبه « صقر قريش » والقصة التي تروى عن المنصور في ذلك وعدد أهم صفاته وأورد له أبياتاً لامية منها فقال في مقدمتها :

وقالوا لما توطد ملك عبد الرحمن بن معاوية عمل هذه الأبيات وأخرجها إلى وزرائه فاستغربت من قوله إذ صدقها فعله وهي :

(٣٥) المكتبة العربية / عزة حسن ص ٢٦٠ وينظر في الأدب الأندلسي / الركابي ص ٨٨ .

(٣٦) فضائل الأندلس وأهلها / ابن حزم واخرون ص ٣

ما حق من قام ذا امتعاض
بمقتضى الشفرتين نصلا

فجاز قفراً وشق بحراً
مسامياً لجة ومحلا

وجند الجند حين أودى
ومصر المصرحين أجلى

ثم دعا أهله جميعاً
حيث انتأوا أن هلم أهلا

فجاء هذا طريد جوع
شريد سيف أبيد قتلا

فحل أمناً ونال شبعاً
وحاز مالاً وضم شملا

ألم يكن حق ذا على ذا
أوجب من منعم ومولى(٣٧)

وختم كلامه بذكر بعض تصرفات الداخل في كتابته إذ كان يميل إلى الايجاز حين يكتب لعماله ، وكذلك عن سماحته وعفوه عن المسيء النادم ... وعرف بهشام بن عبدالرحمن والحكم بن هشام وعنى بالأخير عناية ملحوظة إذ تناول جانباً واسعاً من حياته السياسية وصفاته الشخصية وذكر قاضيه سعيد بن بشير وبعض الثائرين عليه مثل جابر بن لبيدثم أورد له أبياتاً في وقعة الربض يبدو أن الحكم قد نظمها بعد قضائه على متزعمي تلك الثورة التي كادت تودي بامارته الفتية ..

رأيت صدوع الأرض بالسيف راقعاً
وقدماً لأمت الشعب مذ كنت يافعا

فسائل ثغوري هل بها اليوم ثغرة
أبادرها مستنضي السيف دارعا

(٣٧) العقد الفريد الجزء الرابع ص ٤٨٨/ ٤٨٩

وشافــــه عــلى الأرض الفضـــــاء جماجما
كاقحـــاف شـريــان الهبيـــد لــؤامــا

تنـبـيـك انــي لم أكـــن عــن قراعهـم
بـوان وانــي كنــت بالسيــــف دارعا

ولمــا تسـاقيـنــا سـجــالاً حــروبـنـا
سقيتهـــم سمـــــاً مـــن المــوت ناقعـا

وهـل زدت أن وفيتـهـم صاع قــرضهـم
فوافـــوا منايــا قـــدرت ومصـــارعـــا

قال عثمان بن المثنى المؤدب قدم علينا عباس بن ناصح من الجزيرة أيامالأمير عبدالرحمن بن الحكم فاستنشدني شعر الحكم فانشدته .. (٣٨) .

ويأتي بعد ذلك إلى ترجمة عبدالرحمن بن الحكم فيوجز القول في امارته وذكر بعض صفاته ولكنه لم ينس أن يذكر لنا نصاً أدبياً من توقيعاته على الرغم من قلة ما أورده عنه فقال : « وكتب اليه بعض عماله يسأله عملا رفيعاً لم يكن من شاكلته ، فوقع في أسفل كتابه : من لم يصب وجه مطلبه كان الحرمان أولى به » (٣٩) .

أما ترجمة محمد بن عبدالرحمن فانه يفيض القول فيها وفي ذكر قدر وافر من الأخبار المتعلقة به ويضيف ذكر بعض النصوص النثرية والشعرية المتعلقة بأدباء معاصرين للأمير محمد من ذلك قوله :

« وكتب عبدالرحمن بن الشمر إلى الأمير محمد بن عبدالرحمن في حياة أبيه عبدالرحمن وكان يتجنب الوقوف ببابه مخافة نصر الفتى ، فلما مات نصر الفتى كتب ابن الشمر هذه الأبيات إلى محمد يقول فيها :

لئن غــاب وجهـــي عنـــــك أن مـودتـي
لشاهدة فـــي كـــل يـــوم تسلـــم

ومـــــا عاقنـــي إلا عـــــدو مسلـط
يـذل ويقصـــي مـــن يشـاء ويرغم

---

(٣٨) المصدر نفسه جـ٤ ص ٤٩٠/٤٩٢
(٣٩) العقد الفريد جـ٤ ص ٤٩٣

ولم يستطــــل إلا بكـــم وبـعـــزكـم
ولا ينبـغـي أن يمنـح الـعــز مجرم

فمكـنـتـمـوه فـاسـتـطـال عليـكـم
وكـــادت بنـــا نـيــرانه تتضــرم

إلى تسعة عشر بيتاً

وحدث بقي بن محمد الفقيه قال : ما كلمت أحداً من الملوك أكمل عقلاً ولا أبلغ لفظاً من الأمير محمد ... (٤٠)

وبعد أن يذكر جانباً من ثقافة هذا الأمير وفصاحة لسانه وقوة بيانه وحرصه على الغزو وكذلك ذكر بعض وقائعه ويخص بالتعريف منها وقيعة وادي سليط : (وهي من أمهات الوقائع لم يعرف مثلها في الأندلس قبلها وفيها يقول عباس بن فرناس وشعره يكفينا من صفتها :

ومختلـــف الأصـوات مؤتلـف الزحف
لهــوم الفــلا عبــل القبائــل ملتـف

إذا أومضـــت فيـه الصـــوارم خلتهـا
بـروقـاً تراءى فـي الجهـام وتستخفـي

كـأن ذرى الاعــلام فـي سيلانـــه
قـراقـيـر يم قـــد عجــزن عـن القذف

وان طحنـت أركـانـه كـــان قطبهـــا
حجـــى ملـــك نجـــد شمائلـه عـف

سمـــي ختـــام الأنبيـــاء محمـــد
إذا وصف الأمـلاك جـــل عـن الوصف

فمـــن أجلـه يـــوم الثلاثـاء غـــدوة
وقد نقضى الاصباح عقد عرى السجف (٤١)

إلى أربعة عشر بيتاً

---

(٤٠) المصدر نفسه جـ٤ ص ٤٩٤

(٤١) المصدر نفسه جـ٤ ص ٤٩٥/٤٦٩

ويترجم ابن عبد ربه للمنذر بن محمد وأخيه عبدالله بن محمد ويتناول جانباً من حياة كل منهما وشجاعته وشدة بأسه وقوة شكيمته وبخاصة فيما يتعلق بمقاومة ثورة ابن حفصون التي كانت تهدد كيان الامارة الاندلسية وقد وصف الأمير منذر بأنه «كان من أشد الناس شكيمة وأمضاهم عزيمة .. »(٤٢) ووصف الأمير عبدالله بقوله: « ثم تولى عبدالله بن محمد التقي النقي العابد الزاهد، التالي لكتاب الله والقائم بحدود الله يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين فبنى الساباط وخرج إلى الجامع والتزم الصلاة إلى جانب المنبر ...» (٤٣):
على أن ابن عبدربه يعني عنايته الكبيرة بالتعريف بالأمير عبدالرحمن بن محمد الذي لقب بالناصر وأصبح خليفة بعد توليه الامارة ببضعة عشر عاماً...ويقول في مفتتح التعريف به « ثم ولي القمر الأزهر الأسد الغضنفر الميمون النقيبة، المحمود الضريبة، سيد الخلفاء وأنجب النجباء عبدالرحمن بن محمد بن أمير المؤمنين ... »(٤٤)

وهكذا لو استعرضنا جميع هذه المقدمات النثرية وتأملنا خصائص كتابة ابن عبد ربه من خلالها لما أعجزها او صعب علينا ان نلاحظ بوضوح سمات اسلوبه والتي تتمثل في المقابلة وازدواج العبارة .. المقابلة في المعاني بما يضفي على الاسلوب بهاء وروعة بيانية بالاضافة الى روعة المعنى وجماله وسمو فكرته وتمام اصوله وقواعده ... ويلاحظ كذلك وضوح الاسلوب وقلة الغريب من الالفاظ فقد اختار ابن عبد ربه الفاظه اختياراً وتفنن في صياغة عبارته فيها .. ويلاحظ كذلك قلة السجع او استعماله بأقدار مناسبة تخدم المعنى والمبنى ولا تجافي الطبع او تنبو عن الذوق .. وبهذا يكون كتاب العقد الفريد وثيقة حفظت لنا نثره بل ان هذا الكتاب هو الوثيقة الوحيدة التي نستطيع ان نقول انها حفظت نثر ابن عبد ربه ونقلت لنا نماذج من كتابته في وقت لا نملك معه اثراً شعرياً او نثرياً مكتوباً أو مخطوطاً له .

ولا تقف فائدة كتاب العقد الفريد عند المقدمات النثرية التي صدر بها ابواب كتابه وانما تتعداها الى الاحتفاظ بعديد من الملاحظات والآراء النقدية التي ابداها ابن عبد ربه اثناء مناقشته لاشعار الشعراء او معارضتهم في اغراض متعددة ويصعب في هذا المجال استيعاب جميع هذه الآراء والملاحظات لذا فسنأخذ بعضها لتكون نماذج ومثلا يمكن ان تعطي فكرة موجزة عن اراء ابن عبد ربه النقدية وتشجع المتتبع على ادامة النظر وتقصي العديد منها في هذا السفر الثمين ..

ففي باب وصف السلاح من كتاب الفريدة في الحروب اورد عدداً كثيراً من الامثلة لوصف السيف والرمح ومما استشهد به واستحسنه بيت لابي تمام اتبعه بأخر في نفس المعنى للنابغة ولكنه انتقد الاخير وعد وصفه من الافراط القبيح ثم علق عليه محللا ومبيناً سبب ذلك..

« ومن احسن ماقيل في السيف قول حبيب :

ثم يتبعها بوصف بعض الغزوات التي قام بها عبد الرحمن وتلقيبه بامير المؤمنين وتسميته خليفه للمسلمين . ويورد أبياتاً للدلالة على جوده وتصوير كرمه وقد قال في ذلك :
« ومن مناقبه التي لاأخت لها ولا نظير ، ماأعجز فيه من بعده وفات فيه من قبله ، الجود الذي لم يعرف لأحد من اجواد الجاهلية والاسلام الا له وقد ذكرت ذلك في شعري الذي أقول فيه : —

يابن الخلائف والعلى للمعتلي
والجود يعرف فضله للمفضل

نوهت بالخلفاء بل أخملتهم
حتى كأن نبيلهم لم ينبل

أذكرت بل أنسيت ماذكر الألى
من فعلهم فكأنه لم يفعل

واتيت آخرهم وشأوك فائت
للآخرين ومدرك للأول

الآن سميت الخلافة باسمها
كالبدر يقرن بالسماك الأعزل

تأبى فعالك ان تقر لآخر
منهم وجودك ان يكون ألأول (٤٦)

ويختم ابن عبد ربه كلامه عن امراء الاندلس وبعض اشعارهم واخبارهم وذكر بعض ماقاله فيهم يذكر ارجوزته المشهورة التي تناولت جميع مغازي عبد الرحمن الناصر وسنشير اليها في موضع آخر من هذا البحث عند الكلام عن شخصية ابن عبد ربه في الكتاب وعرض موجز آثاره الشعرية التي اوردها لنفسه فيه ...

ويتبين لنا من هذا الموجز لما اورده ابن عبد ربه في العقد عن الامراء الاندلسيين انه لم يغفل بلده وقومه وانما عني بهم عناية واضحة بارزة واذا كانت هذه العناية تأتي في المرتبة التالية بعد عنايته بالأمراء المشارقة والتعريف بفرسانهم وشجعانهم وقوادهم واجوادهم وأدبائهم ... فليس ذلك الا لحرصه على افادة قومه الاندلسيين باطلاعهم على اخبار ذويهم في المشرق

(٤٦) العقد الفريد جـ٤ ص ٥٠٠ .

ليفيدوا منهم معرفة وثقافـة واعتزازاً وليتخذوها نقطة انطلاق نحو التقدم العلمي والثقافي والازدهار الحضاري . .. ومن هنا كان تلخيصه الشافي لأحوال بلده وذكر بعض الجوانـب الادبية معبراً عـن الغاية التي أنشـأ الكتـاب مـن أجلهـا ومنسـجماً معها انسجاماً تاماً..على اننا مع ذلك لاننسى ان حظ المؤلف في الكتاب نفسه اوضح من هذا وابرز وهو يشكل بدوره جانباً من حظ الأندلس في الوقت نفسه نظراً لأن ابن عبد ربه احد ادباء الاندلس المشهورين شعراً ونثراً في هذه الفترة ولما تحويه اشعاره العديدة وتعليقاته — التي سنتناول جانباً منها — من آراء وملاحظات لاتقف عند الحدود الشخصية وانما تعد جزء من الاندلس وتعبيراً عن جوانب من حياة الناس في عصره وبيئته لذلك كان علينا ان نتناول هذا الجانب في الفصل التالي من البحث لتكمل الفكرة عن طبيعة الكتاب ودوره في خدمة الاندلسيين والمشارقة على حد سواء وتعبيره عن احوالهم وآرائهم وكثير مما يتعلق بنواحي حياتهم الثقافية ولكي تكون هذه الفكرة عوناً على تصحيح تصور فعال في النظر إلى الكتاب مجرداً من اية صفة اندلسية ....

حظ المؤلف من الكتاب

وتطالعنا آثار ابن عبد ربه في مواضع عديدة من كل جزء من اجزاء كتابه شعراً ونثراً... أما النثر فان المتأمل في كتاب العقد يدرك بوضوح أن آثار ابن عبد ربه في كتابه تبدو في مجموعتين : المجموعة الأولى تلك المقدمات التي صدر بها أبواب كتابه وصدور موضوعاته وقد سمى كلامنهما (فرشاً) وأشار إلى هذا في مقدمته حيث قال في حديثه عن منهجه وسبب تأليفه الكتاب : « ... وانما لي فيه تأليف الأخبار وفضل الأختيار وحسن الاختصار وفرش في صدر كل كتاب ؟ ... » (٤٧) والمتأمل في هذه المقدمات يلاحظ أنها صيغت بعناية أدبية وموهبة فنية وبراعة بيانية وقد لاحظ أحد الباحثين ان ابن عبد ربه « في تلك المقدمات لايلتزم السجع ولا يكاد يخل بالازدواج » (٤٨) ويلاحظ باحث آخر صفات أخرى لاسلوب ابن عبد ربه من خلال هذه المقدمات النثرية حيث يقول أن ابن عبد ربه قد كتبها « بذلك الأسلوب المتماسك والديباجة القوية والالفاظ الممـتازة والعلم الغزيـر والاحـاطة الشـاملة والـذوق الناجح والبصر الناقد والرأي

(٤٧) العقد الفريد جا مقدمة المؤلف جا ص ١٢٢

(٤٨) النثر الفني في القرن الرابع د. زكي مبارك جا ص ١١٢

الحصيف...»(٤٩)،ولعل من يمعن النظر في هذه المقدمات لا يستعبد توفر هذه الصفات فيها ولنأخذ بعض نماذج من اسلوبه فيها وأول ما ننشر فيه مقدمته لكتابه التي قلنا أنه ضمنها سبب تأليفه الكتاب والخطوط العامة لمنهجه فيه وتسميته وتسمية أبوابه فنجد أنه قد صدرها بهذه الأسطر التي تعبر بدقة ووضوح عن براعته وقدرته الفنية كما تعبر عن ثقافته الواسعة واحاطته التي تكاد تكون شاملة لعناصر الثقافة العربية وأصولها وقواعدها ... « ... الحمدلله الأول بلا ابتداء ، الآخر بلا انتهاء ، المتفرد بقدرته ، المتعالي في سلطانه ، الذي لاتحويه الجهات ولا تنعته الصفات ، ولا تدركه العيون ولا تبلغه الظنون ؛ البادىء بالاحسان العائد بالامتنان ، الدال على بقائه بفناء خلقه ، وعلى قدرته بعجز كل شيء سواه ، المغتفر اساءة المذنب بعفوه وجهل المسيء بحلمه ، الذي جعل معرفته اضطراراً وعبادته اختياراً وخاق الخلق من (بين) ناطق معترف بوحدانيته وصامت متخشع لربوبيته لايخرج شيء عن قدرته ولا يعزب عن رؤيته الذي قرن بالفضل رحمته ، وبالعدل عذابه ، فالناس مدينون بين فضله وعدله آذنون بالزوال آخذون بالانتقال من دار بلاء الى دار جزاء...» (٥٠) وهذه المقدمة واضحة الدلالة على ما أشرنا اليه من القدرة على صياغة العبارة القوية ذات المعنى الواضح المصيب وهي تدل كذلك على مدى الاحاطة العلمية التي كان يجمعها ابن عبد ربه في فكره حتى جاءت بهذا الاسلوب المعبر عن معرفته لعديد من العلوم والمعارف وميله الى جعل كتابته وافية شافية لا من حيث الشكل فقط وانما من حيث المضمون كذلك هذا الى جانب ما يلاحظ فيها من استعمال صور البيان والبلاغة باقدار مناسبة مقبولة .

وننظر في احدى مقدماته التي قلنا انه صدر بها ابواب كتابه وهي المقدمة التي كتبها بين يدي حديثه عن الحرب وقال فيها : « قال ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه رحمه الله ، قد مضى قولنا في السلطان وتعظيمه وما على الرعية من لزوم طاعته وادامة نصيحته ، وما على السلطان من العدل في رعيته والرفق بأهل مملكته ... ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الحروب ومدار امرها وقود الجيوش وتدبيرها وما على المدبر لها من اعمال الخدعة وانتهاز الفرصة والتماس الغرة واذكاء العيون وافشاء الطلائع واجتناب المضائق والتحفظ من البيات ، هذا بعد معرفة احكامها واحكام معرفتها وطول تجربته لها ولمقاساة الحروب ومعاناة الجيوش وعلمه انلادرع كالصبر ولاحصن كاليقين...»(٥١)

(٤٩) تأريخ الأدب العربي في الأندلس / ابراهيم علي أبو الخشب ص ١٤٠
(٥٠) العقد الفريد مقدمة المؤلف ص ١
(٥١) العقد الفريد جا ص ٩٣

وهكذا لو استعرضنا جميع هذه المقدمات النثرية وتأملنا خصائص كتابة ابن عبد ربه من خلالها لما أعجزها او صعب علينا ان نلاحظ بوضوح سمات اسلوبه والتي تتمثل في المقابلة وازدواج العبارة .. المقابلة في المعاني بما يضفي على الاسلوب بهاء وروعة بيانية بالاضافة الى روعة المعنى وجماله وسمو فكرته وتمام اصوله وقواعده ... ويلاحظ كذلك وضوح الاسلوب وقلة الغريب من الالفاظ فقد اختار ابن عبد ربه الفاظه اختياراً وتفنن في صياغة عبارته فيها .. ويلاحظ كذلك قلة السجع او استعماله بأقدار مناسبة تخدم المعنى والمبنى ولا تجافي الطبع او تنبو عن الذوق .. وبهذا يكون كتاب العقد الفريد وثيقة حفظت لنا نثره بل ان هذا الكتاب هو الوثيقة الوحيدة التي نستطيع ان نقول انها حفظت نثر ابن عبد ربه ونقلت لنا نماذج من كتابته في وقت لا نملك معه اثراً شعرياً اونثرياً مكتوباً أو مخطوطاً له .

ولا تقف فائدة كتاب العقد الفريد عند المقدمات النثرية التي صدر بها ابواب كتابه وانما تتعداها الى الاحتفاظ بعديد من الملاحظات والآراء النقدية التي ابداها ابن عبد ربه اثناء مناقشته لاشعار الشعراء او معارضتهم في اغراض متعددة ويصعب في هذا المجال استيعاب جميع هذه الآراء والملاحظات لذا فسأخذ بعضها لتكون نماذج ومثلا يمكن ان تعطي فكرة موجزة عن اراء ابن عبد ربه النقدية وتشجع المتتبع على ادامة النظر وتقصي العديد منها في هذا السفر الثمين ..

ففي باب وصف السلاح من كتاب الفريدة في الحروب اورد عدداً كثيراً من الامثلة لوصف السيف والرمح ومما استشهد به واستحسنه بيت لابي تمام اتبعه بأخر في نفس المعنى للنابغة ولكنه انتقد الاخير وعد وصفه من الافراط القبيح ثم علق عليه محللا ومبيناً سبب ذلك..

« ومن احسن ماقيل في السيف قول حبيب :

ومنهـــن مثـــل السيـــف لـــو لم تسلـــــه

يـــدان لسلته ظباه من الغمـــد

وقال في صفة الرماح :

مـثـقـفـات سـلبن الـروم زرقـتـهـا

والعرب سحرتها والعاشق القضفا (٥٢)

ومن الافراط القبيح قول النابغة في وصف السيف :

---

(٥٢) القضف : النحافة .

يقــد السلــو في المضــاعــف نسجــــه
ويــوقـــد في الصفــاح نار الحباحب (٥٣)

فذكر انه يقد الدرع المضاعف نسجها والفارس . ويقع بها في الارض فيقدح النار من الحجارة ... (٥٤)

واقبح منه في الافراط قول الآخر !

تظـــل تحفـــر عنــــه ان خــربــت بـــه
بعـــد الـذراعيـــن والسـاقيـــن والهادي (٥٥)

ومثل هذه الملاحظات والآراء كثير في اجزاء الكتاب إلى درجة لفتت نظر احد الباحثين المعنين بالدراسات الاندلسية فافرد لنقد ابن عبد ربه فصلا من كتابه حاول ان يعطينا فيه فكرة موجزة عن الخطوط العامة والملامح الاساسية لنقده كما يبدوا في عقده وقد وضع لهذه الخطوط العناوين التالية التي استمدها من مضامين آراء ابن عبد ربه او من اصطلاحاته احياناً ... بعد ان عرف بابن عبد ربه وعقده وذكر بعض صفاته ومظاهر ثقافته وعلمه ... ومن هذه الموضوعات :

البلاغة والبيان . العناية بالجواب الدقيق السريع الخطبة . الكتابة والكتاب . في الشعر والشعراء . مايعاب من الشعر وليس بعيب تقبيح الحسن وتحسين القبيح . السرقات. الضرائب اللفظ والمعنى. (٥٦) وقد تناول الباحث امثلة ونماذج على هذه الموضوعات مما جاء في العقد وكان خاصاً بابن عبد ربه ويمثل رأيه الخاص .. ومن هذه الموضوعات « العناية بالجواب الدقيق السريع وهذا يتبع ما كان يستهوي العرب في المشرق والمغرب على السواء من البديهية والارتجال والجواب الجيد في موضعه ومطابقته لمقتضى الحال قال : — ونحن قائلون بعون الله وتوفيقه في الجوابات التي هي اصعب الكلام كله مركباً واعزه مطلباً وأغمضه مذهباً وأضيقه مسلكاً ، لان صاحبه يعجل مناجاة الفكرة واستعمال القريحة ، يروم في بديهة نقض ماابرم في روية . فهو كمن اخذت عليه الفجاج وسدت عليه المخارج

(٥٣) السلوقي : نسبة إلى سلوق .بلدة باليمن كانت تنسب اليها الدروع . والصفاح حجارة عراض ونار الحباحب : هي ما اقتدح من شرر النار في الهواء من اصطكاك الحجارة بعضها ببعض

(٥٤) هو النمر بن تولب / انظر هامش العقد جـ١ ص ١٨٤ .

(٥٥) العقد الفريد جـ ١ ص ١٨٣ / ١٨٤ .

(٥٦) تأريخ النقد الأدبي في الأندلس د. محمد رضوان الداية ص ٢٧٩/٢٨٧

قد تعرض للالسنة واستهدف للمرامي فلا شيء اعضل من الجواب الحاضر — واستحضر امثلة مما حسن من الاجوبة وصدر على البديهة ...» (٥٧)

وفي موضوع السرقات عرض الباحث للاصطلاح الذي استعمله ابن عبد ربه في التعبير عنه وهو « الاستعارة فقال : —

السرقات : وعبر عما اصطلح عليه باسم السرقة . بالاستعارة.فعرض نماذج وقدم لها بعبارة من عنده . وقال ان الاستعارة قديمة في الشعر والنثر وهو يرى ان معظم المعاني مأخوذ بعضها من بعض : وقلما يأتي لهم معنى لم يسبق اليه أحد اما في منظوم واما في منثور . لان الكلام بعض من بعض ولذلك قالوا في الامثال : ماترك الاول للآخر شيئاً. الا ترى إلى كعب بن زهير وهو في الرعيل الاول والصدر المتقدم قد قال :

ما أرانا نقول الا معارا
أو معاداً من شعرنا مكرورا

وهو يرى ان اخذ الشعر من النثر والعكس . من الاستعارة الخفية التي لايؤبه بها كما ان أخذ المعنى والزيادة عليه يجعل حق المعنى للذي زاد فيه وذلك كقول الأعشى :

وكأس شربت على لذة
وأخرى تداويت منها بها

فأخذ هذا المعنى الحسن بن هاني فحسنه وقربه اذ قال :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء
وداوني بالتي كانت هي الداء (٥٨)

وقال بامكان توارد الخواطر ، ونقل عن الأصمعي شيئاً بهذه المعنى .... » .

أما في باب الحديث عن اللفظ والمعنى فقد لاحظ الباحث ان ابن عبد ربه قد عالج قضية اللفظ والمعنى فقرر : « أن العلماء شبهت المعاني بالارواح والالفاظ بالأجساد واللباب ، ولا بد من المعنى الجزل واللفظ الحسن ليتم للكلام رونقه وبهاؤه ، وهو ينصح بأن يوضع المعنى مع شقائقه وقرنائه ، وهو يميل الى ما كان وليد الطبع دون التكلف وما صدر عن السهولة دون التعقيد . وجاء بمختارات شعرية في أغراض مختلفة ، كرقة

(٥٧) المصدر نفسه ص ٢٨٢ وينظر العقد الفريد جـ ٤ ص ٣ — ٤

(٥٨) المصدر نفسه ص ٢٨٥ وينظر العقد الفريد جـ٥ ص ٣٩٦ .

التشبيب ، والتوديع ، والنحول ، لتكون أمثلة تطبيقاً لما ارتضى من رأي في الشعر وقدم لاول قصيدة اختارها بقوله : — ومن الشعر المطبوع الذي يجري مع النفس رقة ويؤدي عن الضمير ابانة مثل قول العباس بن الاحنف » (٥٩) وهكذا نجد أن آراء ابن عبد ربه في الشعر ونقده وما يتعلق به قد أخذت حيزاً واضحاً من الكتاب كان مدعاة للدراسة والتأمل وحقيقاً بأن يلتفت اليه الباحثون بالمتابعة والاستقصاء وقد كان هذا فعلا حتى وجدنا باحثاً آخر من المعنيين بالدراسات الاندلسية والأدب الأندلسي يرى أنه في أوائل القرن الرابع « بدأت معالم النقد تأخذ طابعاً متميزاً يمكن أن نعده من أوليات النقد الفني على يد أديب الأندلس أحمد بن عبد ربه في كتابه العقد الفريد . فان متصفح هذا الكتاب يجد لمؤلفه نقولا وآراء شخصية في الشعر والشعراء .. » (٦٠) ويتناول الباحث نفسه آراء ابن عبد ربه على غرار ما فعله سلفه . ولكنه لايصل الى درجته في الاستقصاء والتحديد ولعل ذلك أمر طبيعي يعود الى مؤلف كل منهما ومنهجه ... وكان من الموضوعات التي أوردها لابن عبد ربه من عقدة قضية اللفظ والمعنى وقول ابن عبد ربه فيه ورأيه كذلك في وضع المعاني المتشابهة جنباً الى جنب وحرصه على ماكان وليد الطبع سهلا واضحاً ...(٦١).

شعر ابن عبد ربه في العقد الفريد :

سبقت الاشارة الى أن ديوان ابن عبد ربه لم يصل الينا على الرغم من انه كان على — مايبدو من ذكر الحميدي له — يتألف من أكثر من عشرين جزء ولذلك فان ما ورد له من أشعار في العقد ينطوي على أهمية بالغة كماً ونوعاً واذا استثنينا اليتيمة فاننا لانجد مصدراً آخر ذكر قدراً وافراً من شعره وحتى ما ذكر الثعالبي لا يكاد يشكل جزء يسيراً مما ورد في العقد من الأشعار للمؤلف ونستطيع القول ازاء ذلك ان حظ الآثار الشعرية لابن عبد ربه في العقد أوفر بكثير من حظه في النثر وسنحاول فيما يلي اعطاء فكرة موجزة تقوم على اشارات سريعة ونماذج قليلة مما ورد في العقد الفريد ليكون ذلك دلالة على حقيقة المقدار الذي يحويه هذا الكتاب من آثار مؤلفه ففي المجلدات الثلاثة الأولى نقرأ عدداً كبيراً من الأبيات الشعرية في عدة أغراض منها أشعاره في فنون الحرب

(٥٩) تاريخ النقد الادبي د . محمد رضوان الداية ص ٢٨٧ وينظر العقد الفريد جـ٥ ص ٣٩٦

(٦٠) دراسات أدبية في الشعر الاندلسي ص ٣٦ .

(٦١) المصدر نفسه ص ٣٦ وينظر كذلك العقد الفريد جـ٥ ص ٣٩٦

ووصف الخيل والسلاح والسيف والرمح وهذا يصل الى سبعة وثمانين بيتاً في المجلد الأول فقط ، منها قوله :

سيوف يقيل الموت تحت ظباتها لها في الكلى طعم وبين الكلى شرب
اذا اصطفت الرايات حمراً متونها ذوائبها تهفو فيهفو لها القلب
ولم تنطق الابطال الا بفعلها فألسنها عجم وأفعالها عرب (٦٢)

ونقرأ في المجلدالثاني مجموعات شعرية عديدة في موضوعات مختلفة منها التنصل والاعتذار والتحبب الى الناس وذم الزمان ورقة الأدب وغيرها .. من ذلك قوله في الرفق والاناة بعد ان ذكر أبياتاً شعرية لشعراء آخرين مشارقة في المعنى نفسه : —

ياغافلا لايرى الا محاسنه ولو درى مارأى الا مساويه
انظر الى باطن الدنيا فظاهرها كل البهائم يجري طرفه فيه (٦٣)

ويزيد عدد أبيات هذا المجلد على ستين بيتاً ...

أما المجلد الثالث فنقرأ فيه مجموعات أخرى من الشعر في عدة أغراض أيضاً منها طلب الرغائب واحتمال المغارم . فضل المال . الاقلال . الشباب والصحة . الأمثال السائدة المبادرة بالعمل الصالح . ذكر الموت . النهي عن خدمة السلطان واتيان الملوك ... وذلك بما يزيد على مائة وستين بيتاً ، منها قوله في رثاء ولده في باب من رثى ولده :

بليت عظامك والأسى يتجدد والصبر ينفذ والبكا لاينفد
ياغائباً لايرتجى لأيابه ولقاؤه دون القيامة موعد
ماكان أحسن ملحداً ضمنته لو كان ضم أباك ذاك الملحد (٦٤)
باليأس أسلو عنك لابتجلدي هيهات أين من الحزين تجلد ؟

وفي المجلد الرابع نجدعدداً آخر من القصائدفي وصف القلم وغيره ومن أشهرها قصيدة يعارض بها لابي تمام في الغرض نفسه منها قوله بعدذكره لابيات أبي تمام وأبيات أخرى للبحتري وأحمد بن طاهر وغيرهم ...

بكفه ساحر البيان إذا أداره في صحيفة سحرا
ينطق في عجمة بلفظته نصم عنها ونسمع البصرا

(٦٢) العقد الفريد جـ١ ص ١١١ . وتنظر الصفحات ١١٢/١١٣/١١٤/١١٥/١١٦/١٨٧ وغيرها
(٦٣) العقد الفريد جـ٢ ص ٢٦٤ وتنظر الصفحات ١٤١/١٤٣/١٤٧/٣١٥/٣٣٩/٣٤٢/ وغيرها
(٦٤) المصدر نفسه جـ٣ ص ٢٥٠ والصفحات ١٧/١٨/٢٨/٣١/٣٤/٣٥/ وغيرها .

نوادر يقرع القلوب بها أن تستبنها وجدتها صورا
نظام در الكلام ضمنه سلكاً لخط الكتاب مستطرا (٦٥)

ويتبعها بعد ذلك بمجموعات شعرية أخرى له في وصف القلم تصل إلى ثلاثين بيتاً . ومع كل هذ فليست هذه المجموعات هي كل ما ورد له في المجلد الرابع فقد سجل المؤلف غزوات عبدالرحمن الناصر في قصائد مستقلة أشرنا إلى قسم منها عند الكلام عن حظ الاندلس في الكتاب وفي أرجوزة مطولة تتبع فيها باقي غزواته وأعماله السياسية وقد تجاوزت ثلاثمائة بيت مطلعها : —

سبحان من لم تحوه أقطار ولم تكن تدركه الابصار
ومن عنت لوجهه الوجوه فما له ند ولا شبيه
سبحانه من خالق قدير وعالم بخلقه بصير
وأول ليس له ابتداء وآخر ليس له انتهاء (٦٦)

والقارىء لهذه الارجوزة يلاحظ فيها تنويع القافية كما يلاحظ أسلوب ابن عبدربه الذي يبدأ ارجوزته فيه بالحمد والثناء قبل الدخول في الموضوع اسوة بأسلوبه النثري ..ويبلغ مجموع ما أورده من الشعر لنفسه في هذا المجلد قريباً من خمسمائة بيت وفي المجلد الخامس نقرأ أشعاراً عديدة في أغراض مختلفة منها : اختلاف الشعراء في المعنى الواحد .رقة التشبيب النحول والبين . قولهم في الرياض ... ومن ذلك قوله يصف روضة : —

وما روضة بالحزن حاك لها الندى بروداً من الموشي حمر الشقائق
إذا ضاحكتها الشمس تبكي بأعين مكللة الأجفان حمر الحمالق
حكت أرضها لون السماء وزانها نجوم كأمثال النجوم الخوافق (٦٧)

وبعد أن يورد مايقرب من تسعين بيتاً في هذه الأغراض...يذكر أرجوزة العروض التي تعالج علم العروض وما يتعلق به من الاسباب والاوتاد والفواصل والزحاف والعلل والخرم وعلل الاعاريض والضروب والتعاقب والتراقب والزيادات على الأجزاء وصفة الدوائر وصورها وبحور الشعر .وقد زين هذا كله بنظم يعبر عنه ويدل على سعة اطلاعه وموهبته الشعرية التي اشرت اليها .

(٦٥) العقد الفريد المجلد الثالث ص ٢٥٠ والصفحات ١٧/١٨/٣١/٣٤/٣٥/ وغيرها .
(٦٦) المصدر نفسه المجلد الرابع ص ٥٠١ — ٥٢٧ .
(٦٧) المصدر نفسه المجلد الخامس ص ٤٣٠/٤٣٨ .

وفي المجلد السادس والأخير يورد ابن عبدربه ما يقرب من ثلاثين بيتاً في وصف العود والغزل والنجلاء ...

هذا القدر الوافر من الشعر لم تحتفظ المصادر الأخرى سوى العقد إلا بجزء يسير منه فكانت أهمية العقد تكمن في حفظه لهذا الشعر وتعبيره عن آثار مؤلفه إذ ليس له ديوان مطبوع أو مخطوط يضم شعره كما أشرنا سابقاً . ومما يزيد أهمية الكتاب ويبرز دوره بالنسبة لابن عبد ربه خاصة والاندلس عامة أن من جملة الاشعار التي احتفظ بها العقد « الممحصات» وهي قصائد نظمها ابن عبد ربه في فترة توبته وزهده لتكون رداً على قصائد المجون واللهو في فترة الشباب ... وقد اجتهد في أن تكون كل قصيدة رداً على قصيدة مجونية في نفس القافية والوزن ...

ويمكن بعد هذا كله أن ننظر في الارجوزة التي دون فيها أعمال الناصر العمرانية والعسكرية من حيث أهميتها بالنسبة للأندلس كذلك حيث تصور جانباً من حياة المجتمع على الصعيد السياسي والعسكري والاجتماعي إلى حد ما .

ومما يشد الكتاب إلى الأندلس ويجعله ذا صلة قوية معبرة أن مؤلفه لم يقتصر على العنوان في التعبير عن حب الاندلسيين للزينة والتأنق والزخرفة والنقوش والبناء والعمران والطعام والشراب واللباس فقط وانما في التأليف والكتابة والتعليم ومايتعلق بهذا كله من الأمور .. فكان حرص ابن عبد ربه على تسمية أبواب كتابه بأسماء الجواهر والأعلاق النفيسة مظهراً من مظاهر حياة الأندلسيين ودلالة واضحة قوية على قدرة فنية وبراعة أدبية وذوق رفيع قادر على الاختيار والتنسيق فتمكن من التزيين والترويق بما لايتجاوز الحد ولا يجافي الطبع وانما يعبر عن ظاهرة فردية اجتماعية كادت تشكل خلقاً طبيعياً وفطرة أصيلة في حياة الأندلسيين ....

وقد صور لنا هذا المعنى أو قريباً منه أحد الباحثين بقوله : «ويعد كتاب العقد الفريد معرضاً لأدبه وذوقه فقد انطوى على مقاطع نثرية عمد إلى تدبيجها قبل كل باب واسماها الفرش وكان يدلي بشعره بين هؤلاء الشعراء .. كما افتن بالاضافة إلى ذلك بنظم أبواب كتابه على صورة عقد ثمين مسمياً كل باب باسم جوهرة من الجواهر على عادة الأندلسيين في حب الزينة » (٦٨) . ويرى باحث آخر ان فائدة الكتاب بالنسبة للأندلس تكمن في كونه « أول كتاب من نوعه كتب في الاندلس ووصل إلى ايدينا وفيه اقدم عرض لتاريخ بني أمية الأندلسيين .. » (٦٩) .

---

(٦٨) ملامح الشعر الاندلسي ، د . عمر الدقاق ص٦٩

(٦٩) تاريخ الفكر الاندلسي بالنثيا ص ١٧٢ وينظر كذلك تاريخ الفكر العربي/فروخ ص ٤٨٠

قيمة الكتاب وأثره في الدراسات الادبية

لعل انسب مانختم به هذ البحث الاشارةإلى بعض الجوانب الدالة على اهمية العقد الفريد وعلو مكانته وأثره في كتب الادب العربي في المشرق والاندلس قديماً وحديثاً ......

واول ما نشير اليه من هذه الآثار اهتمام القدماء بالكتاب حتى انهم كانوا يعرفون به صاحبه فيقول كثير منهم: ابن عبد ربه صاحب العقد نقرأ هذا في عشرات من المصادر الاندلسية والمشرقية. وحين يكون الكلام في العقد نفسه فنقرأ من صور وصفهم له واهتمامهم به قول احدهم بعد ان عرف بابن عبد ربه «..وله التأليف المشهور الذي سماه بالعقد وحماه عن عثرات النقد لانه ابرزه مثقف القناة مرهف الشباة تقصر عنه ثواقب الألباب وتبصر السحر منه في كل باب ...» (٧٠) ويصفه بعضهم بانه من الكتب النفيسة او انه الكتاب الكبير الذي حوى كل شيء ... (٧١).

ويرى مؤرخ اندلسي آخر أن إبن عبد ربه من اعلام الاندلس ويعد «من مفاخر الأندلس وشعرائها وعلمائها المتقنين وكبرائها ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد الذي انجد وغار وملأ بذكره الآفاق والاقطار .. »(٧٢).

ويعرف ابن خلكان بابن عبد ربه ويترجم له بذكر اسمه ونسبه ثم يصفه بقوله: «كان من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على اخبار الناس وصنف كتابه العقد وهو من الكتب الممتعة حوى كل شيء وله ديوان شعر جيد ... » (٧٣).

ومن مطالعتنا لاثر الكتاب ومكانته نجد ان عناية القدماء واهتمامهم به لم تتوقف عند وصفه بأوصاف الاعجاب والثناء والتقدير لقيمته العلمية والادبية والتاريخية وانما تتجاوز ذلك الى الاقبال على الكتاب بالاختصار تسهيلا للدراسة والتعلم ولكي تكون الفائدة اعمق وأكمل فقد اشار حاجي خليفة الى عدد ممن اختصروا كتاب العقد الفريد وعنوا به ومنهم: «أبو اسحق ابرهيم بن عبدالرحمن الوادي آشي القيسي المتوفى سنة ٥٧٠ هـ وجمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الخزرجي صاحب لسان العرب توفي سنة ٧١١هـ..»(٧٤). كما أورد خليفة نفسه اسم كتاب «اللباب في معرفة العلم والآداب» لابن عبد ربه ولكنه لم يصل الينا.

---

(٧٠) مطمح الانفس ومسرح التأنس / ابن خاقان ص ٥٨.

(٧١) المختصر من أحوال البشر جـ٢ ص ٩٢ وبغية الملتمس ص ١٣٧.

(٧٢) المطرب من اشعار اهل المغرب /لابن دحية ص ١٥١

(٧٣) وفيات الاعيان جـ٢ ص ٩٢ وينظر مرآة الجنان جـ٢ ص ٢٩٥.

(٧٤) كشف الظنون جـ٢ ص ١١٤٩ وينظر كذلك / تراث الانسانية جـ ٢ ص ٢٠ ودراسة في مصادر الادب جـ١ ص ٢٨٩.

وهكذا فاننا لانكادنفتح كتاباً مشرقياً أو اندلسياً الا ونجد فيهاطراءً وثناءً وتقديرا لابن عبد ربه من خلال مؤلفه المشهور . حتى كان موضع تفاخر الاندلسيين وتباهيهم ازاء المشارقة « وهل عندكم في رؤساء علم الادب مثل أبي عمر بن عبد ربه صاحب العقد.. »(٧٥)

اما المحدثون فلم تكن عنايتهم بالعقد الفريد وتقديرهم لآثاره بأقل من تقدير القدماء له فقد اقبل عديد منهم على موارده وأبوابه بالتحليل والدراسة وطول التأمل والنظر حتى كان من جهودهم حشد كبير من الدراسات والبحوث والمقالات مما لايتسع المجال لعرضه مفصلا ولذلك فسنحاول ذكر أهم هذه الدراسات والبحوث على سبيل المثال لاالحصر .

كتب الدكتور احمد أمين عن كتاب العقد في مواضع عديدة من تأليفه ،واشترك تحقيقه والتقديم له ، ونشرت مجلة الرسالة عدة مقالات لعدد من الباحثين في أعداد كثيرة ... من هؤلاء محمد سعيد العريان الذي كتب مقالين في عددين متواليين (٣٩٢/٣٩٣) السنة التاسعة . وكتب مقال بتوقيع « أستاذ جليل » في العدد (٣٩٩) من السنة التاسعة من الرسالة تتبع فيه الأخطاء التي حصلت في طبع الكتاب وتحقيقه وبخاصة فيما يتعلق بتخريج الأبيات الشعرية ...

ومنهم محمود أبو رية الذي كتب مقالا عن العقد الفريداستعرض فيه بايجاز أقوال العلماء فيه وطبعاته ثم تناول عمل لجنة التحقيق بالنقد والتصويب .

ومنهم علي أدهم الذي كتب مقالا عن العقدالفريد في مجلة الثقافة في عددها(٦٦٧) السنة الثالثة عشرة وقد ركز الباحث في مقاله على التعريف بابن عبد ربه والوقوف على بعض جوانب حياته من خلال ما ورد له من شعر في النقد واستشهد بعد ذلك ببعض أشعاره في الزهد —من الممحصات — وتكلم عن ثقافته وعلومه ومنهجه في العقد ونقد بعض جوانب هذا المنهج.

وتتسع الدراسات أحياناً أخرى حتى تتناول العقد بشكل أكثر تفصيلاً واستقصاء وذلك مانلاحظه في مقالي شفيق جبري (٧٦) حيث تناول العقد الفريد معرفاً بأهميته ثم درس مقدمته ووقف على منهجه ووازن بينه وبين بعض المؤلفات ثم شرح وحلل بعض موضوعاته. وكتب الاستاذ محمد التونسي (٧٧) مقالا مطولا عن ابن عبد ربه عرض فيه لحياة المؤلف وأسرته وشيوخه وتناول العقد الفريد ونظر في قيمته من حيث المضمون والشكل وتكلم عن منهجه وأجزائه ومصادره .

---

(٧٥) فضائل الاندلس وأهلها ص ٣ .

(٧٦) مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق /المجلد السابع والعشرون الجزء الاول ص ١٧ – ٢٦ ، والجزء الثاني ص ٦٥/١٧٤ .

(٧٧) تراث الانسانية —طبع المؤسسة المصرية العامة /المجلد الثاني ص ١٤/٢٩ .

وتبدو الدراسة المفصلة ايضاً في الكتاب الذي الفه جبرائيل جبور بعنوان (ابن عبد ربه وعقده) غير أني لم استطع الوقوف على هذا الكتاب في المكتبات التي راجعتها اذ لا توجد نسخة منه . وقد نقل عنه بعض الدارسين مثل الدكتور هيكل في الادب الاندلسي ص (٢٧١) وكتب افرام البستاني في سلسلة الروائع عن ابن عبد ربه متناولا حياته وأدبه شعراً ونثراً وتكلم عن أثره النثري – العقد الفريد – وأشاد بقيمته ومكانته في كتب الأدب وأورد نماذج من أقواله وتأتي دراسات أخرى أكثر ايجازاً وأقل عناية بالتفاصيل وهي تلك التي تطالعنا في كتب الأدب الأندلسي والمشرقي ... وطبيعي ان يكون في مقدمة هذه الكتب؛ كتب الدراسات المتخصصة في الادب الاندلسي ومن أوائل المؤلفين في هذا الميدان أحمد ضيف الذي عني بدراسة الادب الاندلسي واعلامه في الادب واللغة وكان مما وصف به كتاب العقد أنه : « .. كتاب سهل خفيف الروح جم الفائدة أسهل تناولا من غيره وأدل في جملته على أدب صاحبه ويكفي الاطلاع عليه للوقوف على شيء عظيم من الأدب العربي وعقول العرب ونفسيتهم .. » (٧٨) . وألف أحمد هيكل كتاباً في الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة وافرد فصلا مستقلا للحديث عن فترة الخلافة والحركة الادبية والثقافية فيها وتحدث خلال ذلك عن العقد الفريد حديثاً مفصلاً تناول أموراً عديدة تتعلق بالكتاب كالتسمية والمنهج والمصادر وقيمة الكتاب .... (٧٩) .

وهناك عدد آخر من متخصصي الأدب الأندلسي والتاريخ الاندلسي كاحسان عباس ومحمد عبدالله عنان والطاهر أحمد مكي تناولوا بشكل موجز العقد الفريد واشاروا الى قيمته وأهميته ومكانته أما كتب تاريخ الأدب فان آراء مؤلفيها وأقوالهم في العقد أكثر من أن تحصى وأوسع من أن تستقصى ، يصفه أحدهم بأنه « من أمهات كتب الأدب جامع لشتيت الفوائد ومنثور المسائل في الاخبار والأنساب والأمثال والشعر .. » (٨٠) . ويصفه باحث آخر بأنه « من أجل كتب الأدب واوسعها وهو كالخزانة حوت خلاصة علوم ذلك العصر حتى الطب والموسيقى فضلا عن الأخبار والانساب واللغة والأمثال والشعر والعروض وقواعده ... » (٨١) .

---

(٧٨) بلاغة العرب في الاندلس ص ٩٢ – ٩٣ .

(٧٩) الادب الاندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة ص ٢٦٨ – ٢٧٥ .

(٨٠) تاريخ الادب العربي / أحمد حسن الزيات ص ٢٦٧ .

(٨١) تاريخ آداب اللغة العربية – جرجي زيدان ص ٤٨٢

ويرى آخر بأن العقد الفريد يعد « واحداً من المصادر الهامة لتاريخ الحياة العربية بجوانبها المختلفة سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية فهو يضم بين صفحاته مادة وافرة من الأخبار والقصص والوثائق ... » (٨٢) .

فليس من الغريب بعد هذا ان يزداد الأقبال وتناله يد الاختصار والاختيار اتماماً للفائدة منه على غرار ماحدث لدى القدماء فقد « اختصر حديثاً مرتين : الأولى عندما عمدت لجنة من اساتذة دار العلوم الى اختصاره استجابة لرغبة وزارة المعارف اذ ذاك ، فاختارت بعض كتبه وانتقت من هذه بعض اخبارها واسمته « مختار العقد » ونشر عام ١٩١٣ ، والثانية تمت من أعوام أربعة عندما نشرت بعض مختارات في سلسلة كانت تشرف على اصدارها وزارة الثقافة والارشاد ... » (٨٣). وليس من شك في ان هناك دراسات أُخرى قد تتسع حتى تصل الى الدراسة المتخصصة العليا في العقد او تضيق حتى تكون منصبة على الخطوط العامة لمصادر الكتاب قيمته ومنهجه وموضوعاته ... وبحسب هذه الاشارات والموضوعات المختصرة في هذا البحث أن تضع لبنة في الطريق وتزيد من الاهتمام بهذا السفر القيم وتمسح الغبار عن قيمته ومكانته على الصعيد المشرقي والأندلسي والله المعول وهو يهدي الصواب .

---

(٨٢) دراسة في مصادر الادب / الطاهر احمد مكي جا ص٢٨٦

(٨٣) المصدر نفسه ص ٢٨٩ و ٢٩٠

مصادر البحث ومراجعه

ابن حزم — أبو محمد علي بن أحمد وابن سعيد والشقندي . فضائل الأندلس وأهلها : تحقيق د. صلاح الدين المنجد . دار الكتاب الجديد / الطبعة الاولى ١٩٦٨ .

ابن خلكان — أبوالعباس شمس الدين أحمد بن محمد بن ابي بكر بن خلكان متوفى سنة ٦٨١ ه وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان . تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد مكتبة النهضة المصرية الطبعة الأولى ١٩٤٨ .

ابن خاقان — الفتح . مطمح الانفس ومسرح التأنس في ملح أهل الاندلس . مطبعة السعادة بجوار مصر .

ابن دحيه — ذو النسبين ابن الخطاب عمر بن حسن المتوفى سنة ٦٣٣ ه المطرب من اشعار اهل المغرب تحقيق ابراهيم الابياري وحامد عبدالمجيد / المطبعة الأميرية ١٩٥٤

ابن عبد ربه — أحمد بن محمد بن عبد ربه يكنى ابا عمر . المتوفى سنة ٣٢٨ العقد الفريد . تحقيق احمد امين . احمد الزين . ابراهيم الابياري .

ابن الفرضي — أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف الأزدي الحافظ المتوفى سنة ٤٠٣ تاريخ علماء الأندلس / الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦.

أبو الخشب — ابراهيم علي . تاريخ الادب العربي في الأندلس ملتزم الطبع والنشر / دار الفكر العربي .

أبو رية — محمود أبو رية / مجلة الرسالة عدد (٨٢٩) السنة السابعة عشرة (١٩٤٩) مقال بعنوان : العقد الفريد .

أدهم — علي أدهم . مجلة الثقافة عدد (٦٦٧) السنة الثالثة عشرة ١٩٥١ / مقال بعنوان ابن عبد ربه .

أمين — أحمد أمين / مجلة الثقافة العدد (٩٤) السنة الثانية ١٩٤٠ مقال بعنوان العقد الفريد .

أمين — أحمد أمين : ظهر الاسلام ج٣ الطبعة الثانية مكتبة النهضة .

بالنثيا — آنخل جنثالث / تاريخ الفكر الاندلسي . ترجمة حسين مؤنس . / مكتبة النهضة المصرية .

البغدادي — القاضي ابو القاسم صاعد بن احمد الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٢هـ . طبقات الأمم / مطبعة السعادة بمصر .

البستاني — أفرام / سلسلة الروائع – ابن عبد ربه . المطبعة الكاثوليكية / بيروت .

البستاني — بطرس / كتاب دائرة المعارف . قاموس لكل فن ومطلب طبعة طهران ج١

بروفنسال — ليفي – حضارة العرب في الاندلس .
ترجمة ذوقان قرقوط / منشورات مكتبة الحياة – بيروت

التونسي — محمد خليفة تراث الانسانية المجلد الثاني
المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة .

الثعالبي — أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ .
يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر / الطبعة الثانية / مطبعة السعادة

جبري — شفيق جبري . مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق المجلد السابع والعشرون ج١ – ٢ (١٩٥٢) مقالان عن العقد الفريد .

حسن — عزت حسن . المكتبة العربية : دراسة لأمهات الكتب في الثقافة العربية / دمشق ١٩٧٠ .

الحموي — شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي الرومي البغدادي . معجم الأدباء/ المعروف بإرشاد الأريب الى معرفة الأديب . مطبعة هندية بالموسكي بمصر ١٩٢٤

الحمدي — أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله الأزدي المتوفى سنة ٤٨٨ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس / الدار المصرية للتأليف والترجمة .

الحنبلي — المؤرخ الفقيه الأديب أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي ،شذرات الذهب في أخبار من ذهب .
نشر مكتبة القدسي بجوار الأزهر (١٣٥٠ هـ) .

خليفة — حاجي خليفة : العالم الفاضل الأديب والمؤرخ الكامل الاريب مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجي خليفة .
كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون .

الداية محمد رضوان : تأريخ النقد الأدبي في الأندلس / دار الأنوار بيروت ١٩٦٨ الطبعة الاولى .

الدقاق د . عمر
مصادر التراث العربي في اللغة والمعاجم والأدب والتراجم المكتبة العربية بحلب.

الدقاق د. عمر .
ملامح الشعر الأندلسي منشورات دار الشرق بيروت ١٩٧٥

الركابي د. جودت الركابي
في الأدب الأندلسي طبعة دار المعارف ١٩٦٠ .

الزركلي خير الدين .
الاعلام — قاموس تراجم الطبعة الثانية ج ١

الزيات أحمد حسن
تأريخ الأدب العربي الطبعة الخامسة ١٣٤٩ / ١٩٣٠
مطبعة الاعتماد

زيدان جرجي — تاريخ اداب اللغة العربية
منشورات دار مكتبة الحياة .

سماكة د. باقر — التجديد في الأدب الأندلسي
للطبعة الاولى — مطبعة الايمان بغداد ١٩٧١ .

شلبي د. سعد اسماعيل
دراسات أدبية في الشعر الأندلسي
دار نهضة مصر للطبع النشر

الشنتناوي أحمد الشنتناوي . محمد ثابت الفندي.
دائرة المعارف الاسلامية ج ١ سنة ١٩٣٣ .

شيخو لويس
مجاني الأدب.

الضبي أحمد بن يحيي بن أحمد بن عميرة الضبي المتوفى سنة ٥٩٩
بغية الملتمس في تأريخ رجال أهل الأندلس
طبع مدينة مجريط روخي ١٨٨٤

ضيف احمد .
بلاد العرب في الأندلس الطبعة الاولى ١٩٢٤ / ١٣٤٢
ضيف د. شوقي الفن ومذاهبه في الشعر العربي :
الطبعة السادسة ١٩٦٥ / دار المعارف بمصر .
الطرابلسي أمجد : نظرة تأريخية في حركة التأليف عند العرب
مكتبة دار الفتح ١٩٧٢ الطبعة الخامسة .
عبود مارون أدب العرب
دار الثقافة بيروت ١٩٦٨
عبد الخالق عمر مجلة الثقافة عدد (١٧٨) السنة الرابعة
١٣٦١/١٩٤١ مقال بعنوان : العقد الفريد .
العريان محمد سعيد مجلة الرسالة السنة التاسعة
العددن (٣٩٢ / ٣٩٣) مقال : العقد الفريد
علي محمد كرد : كنوز الأجداد
مطبعة الترقي بدمشق ١٣٧٠ / ١٩٥٠
عنان محمد عبد الله
دولة الاسلام في الأندلس من الفتح إلى بداية عهد الناصر .
الطبعة الثالثة ــ مطبعة التأليف والترجمة والنشر ١٩٦٠
غربال محمد شفيق
الموسوعة العربية الميسرة . مؤسسة فرانكلن للطباعة / والنشر ..
فروخ د .عمر . تأريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون .
الطبعة الاولى / بيروت ــ المكتب التجاري / ١٩٦٢
كحالة عمر رضا
معجم المؤلفين مطبعة الترقي بدمشق / ١٩٥٧ ــ ١٣٧٦
مبارك د. زكي النثر الفني في القرن الرابع
الطبعة الثانية ــ مطبعة السعادة (١٩٣٤)
مكي الطاهر أحمد دراسة في مصادر الأدب الطبعة الاولى دار المعارف ١٩٦٨

نيكلسن البروفيسور أ . نيكلسن ترجمة صفاء خلوصي
مطبعة أسعد ١٣٨٧ / ١٩٦٧

هيكل د. أحمد عبد المقصود
الأدب الأندلسي من الفتح الى سقوط الخلافة .
الطبعة الثالثة ١٩٦٧ دار المعارف بمصر .

ياغي د. عبد الرحمن .
حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها .
الطبعة الاولى — دار الثقافة — بيروت ١٩٦١ .

اليافعي : الشيخ الامام أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان عفيف الدين
اليافعي اليميني المكي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ
مرآة الجنان وعبرة اليقظان
مطبعة دائرة المعارف النظامية الكائنة بمدينة حيدر آباد سنة ١٣٨٨ هـ

الدكتور عمر الطالب

القصة القصيرة
في العراق بعد ثورة ١٩٥٨

* المقدمة :

انتهى الحكم الملكي في العراق بعد نجاح ثورة الرابع عشر من تموز عام ١٩٥٨ م فاستولى الجيش العراقي الثائر على مقاليد الحكم . وأعلن نظام الحكم الجمهوري ، وكانت ثورة تموز حصيلة صراع طويل بين الشعب وبين حكامه .. حصيلة انقلابات وانتفاضات عديدة قام بها الشعب منذ بدء الحكم الملكي في العراق عام ١٩٢١ .

ويعد تحرير العراق في حد ذاته عملا عظيماً . فقد تحول العراق من قاعدة رجعية وتخريب إلى قاعدة دفع وتطور وثورة واصبحت كل موارده الطبيعية والبشرية والمدنية والعسكرية سلاحاً من أسلحة الثورة بعد أن كانت سلاحاً موجهاً ضدها . وكانت الرجعية العراقية السند الأول والمعول الأول لكل « الرجعيات » في العالم العربي وأكثر مشاريع التخريب والتدمير كانت تتم بمشورتها وبناء على اقتراحاتها.

وطبقاً للسياسة الاستعمارية تركزت الثروة في أيدي طبقات وفئات اقطاعية موالية للاستعمار واصبح العراق مثلاً للاقتصاد المتأخر القائم على الزراعة الأقطاعية وعلى الصناعات الاستخراجية لانتاج المواد الخام لحساب المستعمر والذي سيطر عليه الاقطاعيون والعشائريون والسماسرة والمضاربون .

وثورة العراق تعني نهاية هذا الاقتصاد الاستعماري الاقطاعي ، وتحرير اقتصاده لكي يسد حاجات الشعب العراقي لذا كانت ثورة العراق أكبر صدمة للمصالح البترولية الأجنبية التي تمنت صحيفة التايمس يوماً لو كان « كبلنج» حياً لتغنى بها. والمسالة الرئيسية في حياة الشعب العربي عامة والعراقي خاصة ، الاصلاح الزراعي والتصنيع وهما مترابطان ارتباطاً وثيقاً .

لذلك رأينا الأدب العراقي بعد الثورة والقصة العراقية القصيرة بالذات ، تعالج مواضيع سياسية واجتماعية تصور فيها ماكان يلاقيه الشعب من اضطهاد وتعذيب وجوع على يد الحكام السابقين ، وما يؤمل من حياة رغدة سعيدة على يد حكامه الجدد وقواد الثورة والشعب ولكن ، هل حققت الثورة ما كان مؤملاً أن تحققه من الناحية الأدبية ؟؟

لقد انصرفت الصحافة إلى خوض الصراع السياسي والحزبي والعقائدي وليس غريباً فإن الصحافة في تلك الفترة لم تشجع الأدب الجاد تشجيعاً كبيراً بل وقفت منه موقفاً سلبياً ، ذلك لأنها كانت تهتم بالسياسة من ناحية وتهتم بالأدبيات السياسية التي تلائم أذواق الجماهير

وتحقق لها الرواج من ناحية أخرى . وحين كانت بعض الصحف كالحرية والثورة والحضارة والأهالي تهتم بالأدب وتفرد له صفحاتها فإن المعارك الأدبية التي كانت تحتدم على صفحات هذه الجرائد كانت تكتسب قوتها وشدتها من عنف الصراع السياسي وحدته ، حتى أن هذه المعارك الأدبية كانت تتسم بنفس التوتر الحاد الذي يتسم به الصراع السياسي ، بل وقد تصل إلى درجة المهاترة والسباب وكان من الطبيعي أن تؤثر طبيعة هذا الجمهور القارىء على الناشرين واصحاب المجلات والصحف والقائمين على شؤون المؤسسات الفنية ، وان تدفعهم إلى تقديم الأدب الذي يتلاءم مع ذوق الأغلبية الجماهيرية والذي يحقق الرواج والمكسب وان يقفوا موقفاً متعنتاً وحذرا من الأعمال الفنية الجيدة .وكان الأثر المباشر والخطير لاعتبار المشكلة السياسية مشكلة البلاد الاولى إن انقسم الادباء إلى فئتين الفئة التي أسست اتحاد الادباء العراقيين الذي أنشىء عام ١٩٥٩ م والفئة التي تبنت الأهداف القومية والتي اسست جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين عام١٩٦٠م ، وأصدر اتحاد الادباء مجلتي المثقف والأديب العراقي ، كما كانت مجلة الثقافة الجديدةالتي تصدرها دار الأهالي تفتح صفحاتها لكتاب الاتحاد .

وأصدرت جمعية المؤلفين والكتاب العراقيين مجلة الكتاب، كما فتحت مجلة التضامن صفحاتهالكتاب الجمعية بالاضافة إلى جريدتي الحرية والفجر الجديد . واصدر كل من الاتحاد والجمعية سلسلة من الكتب الأدبية تغلب القصة على منشورات الاتحاد والشعر على منشورات الجمعية . وساعدت هذه المجلات على نشر القصص على نطاق واسع . لذا نستطيع القول أن تأثيرثورة تموز لم يظهر في القصة العراقية بصورة مباشرة بعد الثورة لقصر الفترة التي أعقبت الثورة بحيث لم تنضج التجارب الشعرية في نفوس كتابها بعد ولاضطراب الأوضاع السياسية والاقتصادية في العراق ، ولتحول كتاب القصة بعد ثورة تموز إلى كتاب صحفيين وإلى كتاب مقالات يومية ، فلم يتسع الوقت أمامهم للانصراف إلى القصة ولتسلم بعض القصصيين وظائف إدارية مهمة شغلتهم عن متابعة الكتابة ، ولانجراف القسم الآخر في الصراع الحزبي والعقائدي ، وتشرد قسم كبير من كتاب القصة أما لزجهم في السجون أو لهروبهم خارج العراق .

وقد ظهرت مجاميع قصصية لكتاب ناشئين ظهرت كتاباتهم مع انبثاق الثورة . كمجموعة « مملكة الشياطين » (١) لغالب عبد الرزاق الصادرة عام ١٩٥٨ . ومجموعة « وتحطمت

---

(١) م . اسعد . بغداد .

الأغلال » (١) لحازم مراد الصادرة عام ١٩٥٩ . وقصصهما امتداد لاقاصيص الجيل الثاني في الشكل والمضمون .

فهما يؤمنان – كما آمن ذو النون ايوب من قبل – بان القصة لاتكتب ولا تقرأ لذاتها ولكن لاظهار عيوب المجتمع ونقده ولونظرا للمشاكل التي خلفتها ثورة تموز كما فعل عبدالحميد التحافي في مجموعته القصصية «الدم ومعركة المصير» (٢) الصادرة عام ١٩٦٣ لكان ذلك افضل.

ولكنهما حصرا نقدهما الجارح بجسم طعنته الثورة وأردته قتيلا ، جسم النظام الملكي (٣) والالوان المحلية التي ظهرت في هذه المجاميع انما هي الجسر الذي وضعوه بين واقع مكروه وبين مستقبل مرجو . فلا عجب ان استغرقت القصص ذات الموضوع السياسي ، الجزء الاكبر من هذه المجاميع . وهم في ذلك يصورون الخير والطيب والنضال والصمود في الشعب المحكوم والقسوة والشر والخداع في الحكام الفاسدين . ويخلعون على الابطال الذين يحبونهم صفات تقربهم من القلوب وتحطيهم بهالة من الاحترام والاعجاب بينما يحصون على الحكام واعوانهم مثالبهم ويكشفون عنصر الشر فيهم والتي تطبع اعمالهم بطابع الانانية والخداع واغفال المصلحة العامة التي فرض ان يسهروا عليها . ولا يهتمون كثيراً بشخوصهم فهي ليست الا دمى يحركونها للوصول إلى هدفهم السياسي او الاجتماعي الذي يبغون .

فهم لايهتمون بملامحهم الفيزيكية ولايحاولون استبطانهم لمعرفة نزعاتهم وان حاول بعضهم ذلك كزهدي الداؤودي في مجموعته القصصية (الاعصار) (٤) الصادرة عام ١٩٦٢ ، وعدنان رؤوف في مجموعته « الشخص الثاني » (٥) الصادرة عام ١٩٦١م .

وبناء القصة عندهم بناء الريبورتاج فلا حبكة لقصصهم في اكثر الاحيان ولا تصميم ولا تخطيط بل انسياب في عفوية وذهاب وراء مسارب جانبية وحوادث هامشية قد يكون لها مساس بهيكل القصة وقد لايكون ، وفي الغالب يقحمون نفوسهم بين الشخصيات او يفرضون اهدافاً معينة . وان كانت هذه الاهداف لاتتفق مع الدوافع النفسية الحقيقية التي تقتضيها ملابسات الحياة ، كما في اقاصيص حازم مراد وغالب عبد الرزاق . ووقفوا عند

---

(١) م . بلا . بغداد .

(٢) م . أم الربيعين . الموصل .

(٣) داؤد سلوم . الأدب المعاصر في العراق ص ١١٠ .

(٤) م . اتحاد الأدباء العراقيين . بغداد .

(٥) م . الوفاء . بغداد .

الشكل الكلاسيكي للقصة عدا عدنان رؤوف وزهدي الداؤودي اللذين استخدما الاسلوب التحليلي في بعض اقاصيصهما اما الاسلوب اللغوي فيختلف بين كاتب وآخر ، فاذا هو ينحط إلى مستوى الاسلوب الصحفي ويمتلىء بالاخطاء والركاكة عند حازم مراد فهو يرتفع ويقوى عند غالب عبد الرزاق . ان مجموعة « مملكة الشياطين » الصادرة عام ١٩٥٨م لغالب عبد الرزاق هي (انتاج تلك الايام السود التي كنا واياهم في صراع مرير من اجل البقاء) (١) ويظهر التركيز على الاتجاه السياسي في كثير من قصص المجموعة .

والاحداث التي يعرضها الكاتب مقبولة ، والسرد جيد والعرض يحمل شيئاً من آثار المدرسة النفسية . وقد تناول المؤلف شخصياته من بيئات مختلفة . من جنود الاحتلال ومن ضباطهم ومن الاغنياء والاقطاعيين (٢) ويتحدث الكاتب عن ذكريات طفولته ايام دخل الانكليز العراق مستعمرين وقتلوا اهله لانهم ثأروا ضدهم في قصة « كلاب المستر كوري » وكيف حل الفقر والمجاعة في البلاد واضطر البطل إلى سرقة طعام كلاب المستر كوري فجلد الخادم حتى مات . ولكن ذلك العمل اثار عليه والده .

اما قصص مجموعة « وتحطمت الاغلال » لحازم مراد ، فقصص سياسية تصف حياة ماضية ،حياة جماعة من الناس توجهوا بعقيدتهم وجهة معينة (٣) وقال الكاتب في مقدمته : (ماهذه القصص الثلاث الا صور للحياة البائسة التي كنا نعيشها في العهد البائد خطتها يد الاستعمار الدنيء ليكون ابناء الشعب ضحاياها) . ويتناول الكاتب قضايا التعذيب في اقصوصته الاولى « ثمن الحرية » باسلوب مفكك وشخصيات ضبابية تنقل افكار الكاتب وحواراً اقرب إلى الخطابة منه الى الحديث العادي .. حيث لم يدل الشاب على العاملين في خلية سياسية معه عندما قبض عليه وسيق إلى السجن حيث التعذيب والموت .

* **الاتجاه السياسي**

وإلى جانب هاتين المجموعتين اللتين لاتمتان إلى روح الثورة بصلة ظهرت مجاميع قصصية في نفس الاتجاه السياسي والاجتماعي جمعت بين المشكلات التي خلقتها الثورة والمشكلات التي لم تستطع الثورة حلها إلى جانب طرحها لموضوعات قديمة ، قدم العهد الملكي مثل مجموعة (الاعصار) لزهدي الداؤودي (والشخص الثاني) لعدنان رؤوف ، (الدم ومعركة المصير) لعبد الحميد التحافي ، الصادرة عام ١٩٦٣م .

---

(١) غالب عبدالرزاق ، مملكة الشياطين ، المقدمة .

(٢) داؤد سلوم ، الادب المعاصر في العراق ص ١١٠ .

(٣) داؤد سلوم ، الادب المعاصر في العراق ص ١١١ .

في الاقصوصة التي تحمل نفس الاسم يحدثنا البطل عن شعور الشعب العراقي ابان العدوان الثلاثي على مصر ومشاركة الشباب وطلاب المدارس في المظاهرات الشعبية التي قامت في العراق احتجاجاً على العدوان الاستعماري وعلى موقف الحكومة العراقية السلبي ، وتصور لنا كيف راحت الشرطة تتلقط المتظاهرين وتزجهم في السجون وهي تشبه في احداثها قصة عبدالله نيازي « ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥٦ » .

وتتأثر قصص عامر رشيد السامرائي كذلك بالاحداث المحلية والسياسية وتكاد كل قصة ان تكون صورة للفترة التي كتبت فيها . في اقصوصة « القاعة رقم ١٢ » يتحول عدنان من شاب نزق لايهتم الا بملاذه إلى شاب مكافح في سبيل عقيدته . ويذهب ضحية للتعصب السياسي الذي ساد العراق في حكم عبد الكريم قاسم ويموت سعيداً وهو يردد كلمات خطابية «صدقني اني اشعر بالارتياح الان فقد آمنت بان العروبة لاتنمو مالم تروها دماء المؤمنين بها. رسالة يجب علينا تأديتها . ارجو ان لايكون موتي محزناً بل ليكن حافزاً ودافعاً قوياً في سبيل العروبة » . (من مجموعته — رماد الليل (١) — المطبوعة عام ١٩٦٧م):

اننا نجد انفسنا في مواجهة المؤلف في اكثر اقاصيصه لان طابع شخصيته يسيطر على مواقف اقاصيصه . فالاسلوب لايختلف في درجه توتره ونبضه باختلاف المواقف في قصصه، ولكنه يخضع لطبيعة المؤلف ودرجة توتره هو . والكاتب حاضر باستمرار يصور المؤلف المواقف من خلال عدسته هو ولايصورها من خلال رؤية الشخصية لها او تأثيرها فيها . وحين تنفعل الشخصية او تتحدث فانها تنفعل بدرجة انفعال المؤلف وتتحدث بلسانه، وليس غريباً أن يفقد الحوار اهميته كعنصر من عناصر التعبير في اقاصيصه لان المؤلف لايلجأ اليه الا قليلا ، ولا يشعر القاريء باختلاف مستوى الحوار عن مستوى السرد . واللغة الغالبة في اقاصيصه لغة الأسلوب الصحفي الذي يتجه إلى السهولة ومجرد ايصال المعنى إلى القاريء بأسهل الطرق وقد تأثرت لغة الحوار عموماً بمستوى لغة المؤلف في السرد . وعلاقة الكاتب بشخوصه علاقة قوية ترجع إلى عمق الصلة بينه وبين انتاجه حتى كأنه لايرى الا تجارب مر بها ولا يقص الا عن اشخاص بعينهم ، لذلك ثقلت قصصه بافكاره وبقيمتها البشرية وعلا صوتها على كل صوت وامتد ظلها إلى كل الجهات واخذت دورها بين ادوار الشخصيات . على ان هذه الظواهر الواضحة تكمن وراءها حقائق عديدة لاتقف عند مجرد الحب والكره وانما تتعداها إلى دوافع نفسية ترتبط بمواقف الكاتب الفكرية وبحياته على السواء . فالظلام الذي تعيش

(١) م . دار الجمهورية . بغداد .

فيه معظم الشخصيات ليس مجرد نتائج حتمية فقط ، انها مرارة عميقة ضجت في اعماقه فاظهرها حين لم يقو على اخفائها . ويصور شخصياته من خلال الفعل الديناميكي لبيان طبيعتها وتبرير سلوكها معاً .

* * *

اما مجموعة (دماء خضر) (١) لجاسم محمد الجوى الصادرة عام ١٩٦١م فهي نموذج آخر للادب الملتزم الذي وضع نصب عينيه الدفاع عن الثورة والتشهير (باعداء) الثورة من رأسماليين واقطاعيين ، وهو في ذلك كله يعبر عن فكره السياسي المعين وعن صراع عقائدي سياسي احتدم بشدة في العراق بعد قيام ثورة تموز . واستخدم (الحديث الباطني) للكشف عن دخائل شخوصه ، ولكنه افسد هذا الشكل باستعمال الحوار العامي اكثر مما تمثله القصة بالاضافة إلى السطحية التي تناول بها تحليل الشخوص والضحالة في تجسيد الفكرة التي يريد معالجتها وانه في الغالب يتخذ من الشخصية دمية يحركها لتطبيق الخطة التي يرسمها لها ولتحقيق الفكرة التي يريدها دون اهتمام بالسير الطبيعي لهذه الشخصية . وتشرب واقعيته رومانسية حالمة تبعد الابطال عن واقعها وتقودها إلى احلام تسبح في خيالها ، لتبدو وكأنها تحيا الحلم الذي يراودها لاحياتها المادية الحقيقية .

اما الاسلوب اللغوي فلم يتقدم عما كان عليه قبل الثورة في مجموعته(انتقاممطرقة) (٢) ١٩٥٣ ، و(الاوراق الملونة ١٩٥٧) (٣)، كما لم يختلف عنده البناء الفني لقصصه وكأن مجموعته هذه امتداد لمجموعتيه السابقتين لولا تعرضه لبعض المشكلات والاحداث التي اعقبت قيام ثورة تموز . اتبع الكاتب الاسلوب التحليلي ولكن الطابع الغالب عليها هو الالتزام السياسي يصور في (اعياد) اول يوم من ايام الثورة في شخص ام تنتظر ابنها الجندي المرسل إلى الاردن وتخشى ان يعتقل كما اعتقل صديقه . وفي الصباح تسعدها المفاجأة ، ولكنها رغم ذلك تخشى على (خضر البقال) من الشرطة عندما يتكلم بصراحة ، ولكنها ماتلبث ان تتشرب الجو الجديد عندما تحس ان الجميع يتكلمون بحرية ، ولا تملك هي الا ان تبكي فرحاً وهي تهتف بحياة الجيش والشعب وتمتلىء القصة بأدب الهتافات والشعارات وتحس بان ادب الهتافات ادب مبتسر يدفع العمل الفني إلى ادب الشعارات الذي اكتسح(٤)

(١) م . الوفاء . بغداد .

(٢) م . الرابطة . بغداد .

(٣) م . الأعظمي . بغداد .

(٤) باسم عبدالحميد حمودي / في القصة العراقية / ص ٦٨ .

وفي (دماء خضر) عرض مشكلة هجرة الفلاح إلى المدينة ، وهو موضوع قد طرحه كثير من القصصين العراقيين وخاصة انتقال الفلاح إلى صفوف الطبقة العمالية (البروليتاريا) كما تصورها وهذا امر لايخضع إلى منطق التطور الصناعي و التأزم السياسي في العراق ، حيث الصناعة كانت متخلفة آنذاك، والحياة النقابية تكاد تكون معدومة(١): يترك أبو عباس أرضه لأنه خسر فيها ويشتغل عاملا في الميناء . ولكنه ابدا كان ملتصقا بالأرض ، يختلس من عمله دقائق ويتفقد الحقل المجاور ويذكره كل شيء يحيط به بالحقل . حتى المطر الذي يقطعه عن عمله الجديد . انه يفكر بالعودة يجمع المال ثم يعود الى أرضه. وهي تصور لنا حب الفلاح العراقي لأرضه ويتطور الحدث فيها بشكل سليم . وقد اتبع المؤلف الاتجاه التحليلي في اقصوصتين (السرير الفارغ) التي تصور خوف صبحي من اللص و (صراخ باعة) التي تصور افكار ام سافر وحيدها . وقد التزم فيها تداعي الصور والألفاظ . ولم تكن عناصر القصة متوفرة في قصته (صفقة تراب) . ويمتاز الجوي ببساطة الاسلوب مع ميل للرومانسية وأحتشاد الاحداث في اقاصيصه .

وقد جمع موفق خضر في قصصه العديدة التي جمعها في أربع مجاميع قصصية بين الموضوعات السياسية والاجتماعية التي أعقبت ثورة تموز ١٩٥٨ وبين الاسلوب التحليلي الذي يعتمد في بداياته على التداعي كما في مجموعته القصصية (الانتظار والمطر) (٢) ١٩٦٢م . واذا رجعنا الى معظم هذه الاقاصيص فاننا نتبين ان الكاتب يصدر فيها عن تجربة يعانيها ويعيشها بل هي تجارب مرت على الكاتب أثناء دراسته الجامعية وذكريات مشاعره الفردية الى درجة الذوبان الشخصي فيها وكلها صادرة عن موقف اجتماعي وسياسي كما في قصته (ظل على المعبد) التي تدور في جو جامعي حيث يلتقي البطل بالفتاة الجامعية المشتهاة في (نادي الجامعة) ويكون معها علاقة جسدية فهو لايحبها ولا يحترمها لأنها من الجانب المعادي له . ويقدم صديقه علاء من بيروت ليدرس في جامعة بغداد ويحب علاء الفتاة ولكنها لا تبادله الحب ولم ينجح علاء في عمله السياسي فيعود الى لبنان كرة أخرى يجر اذيال الخيبة « لقد اضحى واثقا من نفسه الى حد كبير وكان يريد ان يكسب الطلبة الى جانبه وبذل من أجل ذلك كثيراً من جهده الا انني كنت مقتنعاً انه لن يستطيع ان يفعل في النهاية شيئاً ذا

---

(١) في القصة العراقية ص ٧٠ .

(٢) م . العامل . بغداد .

قيمة، ان لم يعش مأساتنا هذه هنا كانت الانسانية تهان باسم الملايين وبالبطولات الحقيقية»(١) .

ويعيش في نفس الجو الجامعي في اقصوصة (الحياة تحت مظلة واحدة) حيث ينشأ حب عنيف يائس بينه وبين الفتاة صاحبة المظلة الملونة . ويكثر لقاؤهما في النادي ولكنه حب لم يدم اذ يمرض البطل ويبقى سنتين رهين الفراش ولا يجد سلوى الا في مراقبة فتاة في الشارع المحاذي لدارهم تحمل مظلتها في الأيام المطيرة . ونجد في هذه القصة روحاً رومانسية محلقة في أجواء الخيال الشعري . «وكان يومئذ يتخيل كوخاً منفرداً على قمة جبل أخضر يحوي مخلوقين يعيشان لبعضهما فقط وقد تاه عنهما الزمان .. يعيشان للحب والأمل .. والمخلوقات .. يحتميان ببعضهما في حياة غريبة شاذة لاتشبه حياة الناس الآخرين .. وحينما يهطل المطر عند القمة فالكوخ يجمعهما في حنو مضيء وأنفاسهما تتقارب حتى يتدفآ بأختلاجات مسكرة . كان يتخيل المظلة كوخاً قائماً لوحده على الجبل » (٢) .

أما اسلوب الكاتب اللغوي فهو يوازن بين التعقل والحرارة العاطفية وبين الشاعرية والتجريد ويستند فيه على التشبيهات الجميلة والاستعارات والألفاظ الملونة والجمل القوية المعبرة .

(هناك حيث ينبه الحس الى أعماق الصمت المرن) . (تغرقني بالضجة وتفترسني واجهات المحلات التجارية) ..

ومثل هذه الجمل تشيع في جميع أقاصيص المجموعة (تمشي أمامي في الزحام الدبق) « اسمع منها كل شيء حتى دبق التفاهة) . (لعلها تنث رطوبة على حياتك) .. (كانت الاسطوانة تلتهم صوتي وتذروه في موجة مذبذبة بحدة والنغم يزمجر بوقاحة) ...... (وجلسنا نمضغ بصمت وكأننا نمضغ مهزلة خيالية مرة) . (المرضى في المستشفى يرمقون في سقوف الردهات العالية وينتظرون الأمل) . (بدأ يفترس معالم وجودي داخل الحانة في جو ضبابي أزرق يفيء الضجة والصخب والصياح) . ان الوصف والحوار والتركيب والتعبير كل ذلك يأتي بنسب معينة ومتوازنة ، فحواره يتلاءم والموقف في القصة ويبنيه الكاتب في ذبذبة نفسية ومرونة طيعة ويفصله في جمل معبرة على قدر الشخوص ويلجأ اليه في الوقت المناسب ويقربه في الفاظه من الاستعمال السهل .

ويقول البواب لطفل في اقصوصة (القمة) : (اذهب الى البيت ستموت أيها

---

(١) الانتظار والمطر — ص ٢٤ — ٢٥ .
(٢) الانتظار والمطر — ص ٨٨ .

البليد) (١) وهذا القول لايناسب رجلا امياً :

ان القلق والضياع هو ما يصبغ أقاصيص المجموعة . فهي تصور هذا الجيل القلق الذي انتظرته الثورة بمشاعر يقظة . فاذا بأنحرافها عن الطريق المرسوم لها تزيد في ضياعه وحيرته . « كانت برودة النسمة في تلك الليلة مقيدة الي دقائق الحادث وتشعرني بأني لاشيء.لاشيء اطلاقاً » (٢) . وقدم موفق مجموعته الثانية (مرح في فردوس صغير) (٣) عام ١٩٦٨م وتضم اربع قصص قصيرة واحدة طويلة تحمل اسم المجموعة . ويجد الباحث في هذه القصص طابع كتاب الخمسينيات فهو شديد الالتصاق بالواقع بل قد ينقل لنا حرفية الواقع كما في قصة (التنويمة) او ينقل لنا حدثاً مر به كما في قصتيه (مرح في فردوس صغيروالعصافير) ولم يستطع التخلص من السرد والمباشرة والنبرة الخطابية وقد وقف عند اسماء الاماكن يذكرها كما يفعل كتاب القصة في الغرب وقد نقل لنا اجواء عراقية صميمة وخاصة الانهزامية التي يعاني منها بعض الناس نتيجة للاضطهاد والقسر بعد الانحراف التشريني .

وقد يجد الباحث تطوراً في مجموعته الثالثة (الق مافي يدك) (٤)١٩٧٠ عن مجموعتيه السابقتين ورغم وجود خط ينتظمهما مع المجموعة السابقة ولكن اسلوبها اكثر اشراقاً وبناءها اشد متانة وقد تطرق الكاتب فيها الى موضوعات جديدة عليه كما في قصتي(الرماد في اللون الازرق) و (القرد والببغاء) وقد غلب عليها طابع الضياع والحصار الذي يعاني منه الانسان العربي وقد شاع هذا الاسلوب بين الكتاب الشباب في اواخر ستينات هذا القرن في العراق.

وفي المجموعة محاولات تجريبية لكتابة قصة حديثة شاعت في تلك الفترة تلك القصة التي تتكون من عدة مقاطع تمليها الضرورة او لا تمليها فاذا كان قد وفق في قصة (حكايتان عن المدينة) فقد جانبه التوفيق في قصة (الادانة) ونرى اثر قراءاته واضحا في قصته(القرد والببغاء)التي حاول فيها تقليد بناء رواية(الصخب والعنف)لفوكنر ،وجاءت مجموعته الاخيرة (نهار متألق) (٥) ١٩٧٤ بقصص جيد واع حيث بنيت بناء سليماً وكتبت بأسلوب قصصي جيد وقد استطاعت أن تبتعد عن الذاتية أو المسح السطحي للشخصيات التي يختارها أبطالاً لقصصه ليتعمق انسان المجتمع العراقي مع حرص شديد على تصوير همومه وآلامه

(١) المصدر السابق ، ص ٧٨ .

(٢) الانتظار والمطر ، ص ٧٨ .

(٣) م . الغري . النجف .

(٤) م . البيان . بغداد .

(٥) م . دار الحرية . بغداد .

وممتزجة بنغم انساني رائع يتناغم مع الطبيعة والحيوان ذلك الحب الذي يجد فيه الانسان المسحوق خلاصاً من واقع مؤلم شديد الوطأة فيجمع بين (حسان) العامل المتخلف عقلياً بسبب اصابته أثناء العمل والحمامة التي تحلق لتعود كما لا يستطيع حسان أن يحلق في قصة (الحمامة والنافورة وحلم صيف) ويجمع بحس انساني عال بين (حميدة) السائس والفرس في قصة (ساعات في حياة الفرس الذهبية) وبين الفرس والمكان الذي كانت تحظى بالعناية فيه . بعد أن شاخت وتركت أصحابها من غير رعاية كما في قصة (الفرس المحتضرة)ونجد قصصاً سياسياً جيداً تخلص من المباشرة والخطابية كما في قصة(نهار متألق) وما زال موفق خضر دؤوباً على الكتابة بهمة ونشاط نادرين .

* الاتجاه الاجتماعي

وظهر إلى جانب هذا التيار الذي عني برصد الاحداث السياسية التي أعقبت ثورة تموز والانحرافات التي تلتها قصص اخرى لم يترصد الجانب السياسي الا لكونه ظاهرة اجتماعية أثرت تأثيراً كبيراً في البنية الاجتماعية العراقية وقد تدفق نسغ الذاتية في ابطالهم فكانت تجاربهم الخاصة بل وحياتهم وانفعالاتهم هي اللبنة الاخرى لقصصهم فمن يعرف عدنان رؤوف عن قرب يستطيع ان يتبينه في قصص مجموعته (الشخص الثاني) ١٩٦١ وكذلك نستطيع ان نتبين زهدي الداؤدي ذلك المعلم المنفي في مدرسة قرية بعيدة يريد أن يفرغ في مدرستها حيث يعمل وفي محيطه حيث يعيش تجاربه وآراءه وذلك في مجموعته(الاعصار) ١٩٦٢ ؛ وسأكتفي بتناول جوانب مجموعة (الشخص الثاني) لعدنان رؤوف كنموذج لهذا الاتجاه . جميع أحداث قصص المجموعة شخصية مر بها الكاتب ورغم أن هذا النوع من القصص تكون رؤيته أحياناً أعمق لأنه والشخصية يعيشان في مجرى الشعور بوعي أكثر ويكونان نتيجة ذلك على معرفة كاملة بحقائق التجربة ودقائقها إلا أن مجرد الاقتصار على التجربة الشخصية لاتكفي لاقامة حياة نفسية غنية منوعة واسعة وانما على الفنان أن يتحول بها الى تجربة تضع الانسان مكان الفرد وتهتم بالعام بدلاً من الخاص .

يصف لنا الكاتب في قصة (الشخص الثاني) القلق والضياع اللذين أصابا المثقف العراقي بعد الثورة نتيجة الصراع بسبب الانحراف بالثورة إلى الوسائل الدكتاتورية الفردية في العراق ولجوء الاطراف المتصارعة إلى العنف لكسب مناصرين لها .والبطل شاب يشتغل نهاراً ويكمل دراسته الجامعية ليلاً .ولكنه يعاني عنتاً من زملائه في الكلية يطلبون اليه مشاركتهم في المظاهرات والتوقيع على العرائض ولكنه يرفض حتى يتعرض للضرب ويتخلى عن صديقه وتهجره خطيبته

بسبب اختلافهما في العقيدة ويفكر في هجر العرق والسفر إلى الخارج بعد أن يضجر من عمله في المدرسة لمحاربة المدير له بوسائل غير اخلاقية. وقد اتبع الكاتب أسلوب تداعي الافكار لابراز المأساة الفكرية التي عاشها المثقف العراقي بعد الثورة.

أما التيار الآخر الذي طغى على القصة العراقية بعد ثورة تموز وحتى قيام حرب حزيران عام ١٩٦٧ فهو التيار الاجتماعي البعيد كل البعد عن الاجواء السياسية حيث يظهر امتداداً قصص الخمسينات وأفضل نموذج لذلك مجموعة (أنا انسان) (١) ١٩٥٨ لأحمد محمود الصفار و(غداً يأتي الربيع) (٢) ١٩٦٢ لصلاح حمدي أو يظهر أسلوب الواقعية التحليلية كما في قصص خضير عبد الأمير في قصصه التي نشرها في الستينات لتغترف بعد ذلك في السبعينات من ينابيع الرمز والاسطورة واسلوب التداعي وقصة الرواية الجديدة الشيء الكثير.

* * *

وترسم مجموعة (أنا انسان) لاحمد محمود الصفار الصادرة عام ١٩٥٨ صوراً قاتمة للمجتمع العراقي. ان تفسخ الاسرة أو فقدان احدى دعاميتها سبب نشوء في الاجرام والدعارة. هذا ما يريد الكاتب توضيحه في معظم أقاصيص المجموعة؛ كما في اقصوصة (انا انسان) التي تكشف لنا عن نفسية (عباس الأعور) المجرم العريق بصدق وواقعية في التصوير. فهو ابن سفاح ترعرع في بيوت الدعارة وكان يرى الرجولة في كل ماهو خارج على المجتمع وتقاليده. وتحترف (زهرة الدعارة) في (زهرة في محلة الذهب) بعد أن سد مجال الرزق أمامها عند فقد والدها. وفي (اسموها غاوية) يدفع الزوج زوجته على احتراف البغاء ويعرض لنا صورة سريعة لمأساة الفلاحين في العراق عندما يهددهم الفيضان ويغرق مزروعاتهم ويستولي الاقطاعي على ماتبقى من محاصيلهم في قصة (المنفي) فلا يجد الفلاح أمامه طريقاً غير الهروب من الأرض وتركها للاقطاعي.

وقد يفتعل الكاتب الاحداث لابراز العيوب الاجتماعية كما في قصتي (اشنقوني) و(سنية) حيث يطالب البطل بشنقه بعد أن أصابه صاحب البستان في فخذه ظناً منه بأنه لص بينما كان في البستان مع خطيبته يدبران امر الزواج. ويهمل علاجه في المستشفى حتى تبتر ساقه فتضيق به الحياة.

ولا تخلو مجموعة (غداً ياتي الربيع) ١٩٦٢ لصلاح حمدي من اقاصيص التزم فيها الكاتب الفنية اللازمة، وعبرت احداثها عن عمق التجربة الشعورية التي عاشها الكاتب مع قوة الحبكة القصصية وحركة طبيعية للشخصيات كقصته (غداً ياتي الربيع) التي صور

---

(١) م. الهدى. بغداد.

(٢) م. اتحاد الادباء. بغداد.

فيها صياداً عجوزاً آخرج لاصطياد الطيور ونصب فخاخه وجلس ينظر ، ولكن (القبرة) افسدت عليه كل شيء وفرت الطيور خائفة من صوتها كما افزعتهم طلقات الصيد وعاد الصياد يائسا ولكنه آمل في الغد الذي سيعوضه عما فات . ويدفعه خجله من عودته خاويا الى نصب شباكه قرب غدير فتعود عليه بصيد ثمين. وفيها شبه من رائعة همنغواي (الشيخ والبحر) وتمتاز القصة بوحدة الأثر لولا نهايتها المتكلفة .

وكثيراً ما تفسد مثل هذه النهايات اقاصيص المجموعة كما في قصة (في القرية) حيث تهرب الزوجة مع عشيقها ويجد الزوج الشيخ في البحث عنها ليقتلها ولكن تفاجأ في اللحظة الاخيرة بانه عدل عن القتل، كل ذلك حدث بسببه اذا فهو مسبب البلاء ، هو الضعيف الذي تكاسل طوال عمره الفاني ولم يعمل . ما كان يضع حداً لبؤسه واشقاء زوجته ومع هذه الافكار وقف الشيخ يتأمل من فوق الرابية الارض الواسعة الممتدة امام بصره ، ثم حمل البندقية على كتفه ونزل التل باسماً وهو يحدث نفسه قائلا «سوف اجد لي عملا في اقرب قرية حيث لا اسمع كلمة (جبان) التي تدفع المرء الى قتل اي انسان ».
ورمى بالطلقات بعيداً وهو يقول :-«لا أجد نفسي مضطراً الى قتلها ابداً ابداً ولتذهب الى اين تشاء مادامت لاترضى بالعيش بقربي » (١) .ولم تنجح محاولاته في اتباع الاتجاه التحليلي فجاء اسلوبه سردياً مملا لا حياة فيه .

وبدت الشخصيات شاحبة يحركها المؤلف للوصول الى الهدف الذي صممه لها كما في قصتيه (الصبي) و (رجل يفكر) ويتأرجح اسلوب الكاتب بين القوة والضعف .

ونشر محمود الظاهر مجموعته (درب المراهقات) (٢) عام ٩٥٨ م و (النافذة) (٣) عام ١٩٦٢م. قصص المجموعة الاولى فيها جودة وابداع في اختيار الشخوص وتنويع المواضيع وجمال في العرض والسرد وموقف ابطاله التأملي يزيد قصصه قيمة، ونحن لا نتعرف على سماتهم النفسية وطباعهم ولكننا نكشف عبر انفعالاتهم سماتهم الخارجية.والقاريء يرتاح لما يفرغه الكاتب في النفس من جودة التحليل (٤) . كما في قصة (وخفق قلبي) التي يعرض فيها عرضاً طريفاً مشاعر شاب اصيب بالعنة المؤقتة مع عروس خائفة ، انه صراع هائل

(١) صلاح حمدي / غداً يأتي الربيع / ص ٣٨ .
(٢) م . اللواء . بغداد .
(٣) اتحاد ادباء بغداد .
(٤) داؤد سلوم / الأدب المعاصر في العراق / ص ١٠٤ .

يدور في نفس الشاب قبل ان تنتهي الازمة بسلام حين قالت له : (علاء ، اشعر بأوجاع في ظهري .. افركه لي) .

واتبع الكاتب نفس الاسلوب التحليلي في مجموعته (النافذة) واعتمد على تداعي افكار البطل الذي قتل زوجته ببطء لانه شك في اخلاصها له . في الاقصوصة التي تحمل نفس الاسم رغم براءتها دون ان يحس بتبكيت ضميره ، ورغم ان الكاتب اتبع نفس الاسلوب التحليلي الذي سار عليه في مجموعته الاولى (درب المراهقات) الا انه لم يصل الى العمق التحليلي الذي وصله في مجموعته القصصية السابقة . ولم يتعمق نفوس شخوصه حتى بدت في المجموعة الثانية ضبابية غير واضحة المعالم لا اثر فيها للحياة ولكن اسلوبه اللغوي حافظ على رشاقته وجماله . والى جانب القصص التحليلي قصص اجتماعي يعرض فيها الكاتب مشاكل المجتمع العراقي كما في قصة (طريق الليل) التي يحدثنا فيها الكاتب عن عامل طرد من عمله لانه طالب وزملاء له بزيادة اجورهم . وفي قصة (قطار الساعة السادسة والربع) لا يستطيع الشاب الزواج من الفتاة التي يحبها لان والدها فضل رجلا غنياً عليه . وتتطور قصصه في مجموعته الاخيرة (وجه على رصيف روماني) ١٩٧٠ م .

وقد تراوح نزار عباس في قصصه التي نشرها في الصحف والمجلات منذ اواخر الخمسينات ثم جمعها في كتاب اسماه (زقاق الفئران) (١) صدر عام ١٩٧٢ بين الواقعية (مياه جديدة) والعدمية (قيء، طعم الدفلى، صديقان) والوجودية (السرير رقم ٣١، وفي ذلك المساء الجميل) والرمزية (السيف ، حكاية رجل بسيط) والواقعية الجديدة (بنسيون السعادة) ، وبالتالي تراوح اسلوبه بين السرد والتداعي والرمز "والشفافية الشعرية الغائمة وغير الواضحة : ولكن السمة الغالبة على قصصه هي واقعية الحدث ووجودية الجو القصصي ، وعلى رغم وجود الحدث الواقعي في قصة (السرير رقم ٣١) وهو سقوط الشاب مريضاً من اثر الخمر الذي منعه الطبيب من تناوله ونقله الى المستشفى وزيارة حبيبته التي كانت سبباً في مرضه مع زوجها — الرجل الآخر الذي نافسه في الاستحواذ عليها — ثم رجوعه الى نفسه في ان يبدأ حياة جديدة ينسى فيها حبه ومرضه . بالاضافة الى هذا الحدث الواقعي نجد ان الجو القصصي فيها وجودي صرف « انها مغامرة تبدأ بشيء بسيط ثم تنتهي حين يلعب الانسان على حياته قلت مرة اننا لانختار كل شيء والحب يبدو احيانا كما لو انه الموت يقف الاختيار عنده مشلولا .. فلعل الامر لم يكن سوى سخافة صغيرة يبعثها

(١) دار الجمهورية . بغداد .

الوهم في اعماقي المجدبة لم يكن الامر الا مجرد اصوات داخلية يبعثها انسان يموت في اعماقي، انسان ظامىء الى حد الاستجداء » (١) .

وقد كان لنزار عباس أثر واضح على قصص جيل الستينات لم يمتلكه غيره من كتاب جيل الخمسينات اذا ما استثنينا فؤاد التكرلي وعبد الملك نوري ولكنه لم يسكت عن كتابة القصة كما فعلا الا في النادر القليل بل استمر في كتابتها وقد طور اسلوبه فيها واصبحت اكثر تركيزاً واختياراً وفنية . وقصة (بنسيون السعادة) دليل على ذلك رغم انها لم تصل الى مابلغته قصتاه (مياه جديدة ، السرير رقم ٣١) من فنية واتقان وجمال .

صدرت مجموعة (حمام السعادة) (٢) عام ١٩٦٤ لخضير عبدالامير وقد اختار شخصياته من تلك الطبقات التي تقف وجهاً لوجه امام الحياة في كفاحها اليومي من اجل البقاء والتفت إلى كثير مما تتميز به تلك الشخصيات من سمات نفسية مادية التفاتا جيداً .

وانتزع موضوعاته من البيئة الشعبية العراقية كما في (حمام السعادة) التي يصف فيها الحمام الشعبي وصفاً دقيقاً اقرب إلى الصورة الملتقطة ويستخدم فيها اسلوب التداعي في ذهن البطل (عباس) الذي يعود بذاكرته إلى الماضي ايام سقط في الحمام والتوت ذراعه ويصور لنا في (اصدار) ما يدور في المقاهي الشعبية العراقية من احاديث وملح مؤكداً على نماذج متباينة لانماط بشرية عراقية ، (عواد) الشاب الثرثار المسافر الذي بدد ثروة كبيرة ورثها عن ابيه وعبدالرزاق الذي بذر ما ربحه من ورقة يانصيب ، و (والد الراوي) الذي يريد بيع داره ، ويهتم الكاتب بالاطار الخارجي اكثر من اهتمامه بالحديث وقد يكون متأثراً بكتاب الرواية الجديدة او بكتابات (بلزاك) وخاصة بروايته (الاب غوريو) فيصف المكان الذي يجري فيه الحدث وصفاً دقيقاً ضرورياً في بعض الاحيان وغير ضروري او مبرر في احايين اخرى .

اما اسلوبه فيتتابع بجمل طويلة تشرق احياناً وتسبت حتى الملال في احايين اخرى .

ولم تقدم مجموعته الاخرى الثانية (الرحيل) (٣) ١٩٦٨ تطوراً عن قصص المجموعة الاولى غير التكثيف والانحراف نحو التسجيلية بشكل اكثر وضوحاً من المجموعة الاولى

---

(١) نزار عباس / زقاق الفئران / ص ٤٢ .

(٢) م . الأديب . بغداد .

(٣) دار الجمهورية . بغداد .

وقد نجد في بعض القصص صوراً قلمية تفتقر إلى الفن القصصي (الممثل) (اللعنة) و (نهار بلا عيد) . وقد تشغله السمة الاخلاقية عن الفن فترتفع نبرة وعظية ظاهرة كما في (هروب اللهيب) . وقد جاءت مجموعته الثالثة (عودة الرجل المهزوز) (١) ١٩٧٠ متجاوزة مجموعتيه السابقتين فهو يوازن بين الوصف الخارجي بدقائقه الصغيرة مع تحليل لاختلاجات الشخصيات وانفعالاتها ، وقد استخدم المونولوج بشكل جيد اضفى ابعاداً جديدة على الحدث رغم انه اقتنص شخصيات شاذة في بعض قصصه ولكنه وفق تمام التوفيق في جعلها تنبض بالحياة (عودة الرجل المهزوز ، خطوط العرض والطول الحقيقية ، امطار فوق الاربعين قصة رجل عاش في ثلثي هذا القرن) .. ولم نحس في هذه المجموعة فردية الكاتب او نظرته الخاصة للاشياء الخارجية كما حدث في بعض قصص مجموعته السابقة بل مزج بين العام والخاص بين الفردية والجماعية في بعض قصص مجموعته (الغضب الاخرس ، ورقة الاجتماع العاشرة) وقد نلتمس التكلف في بعض القصص والانسياق وراء احلام سرعان ما تتبدد مع اشراقة الصباح (حكاية في الليلة الثانية بعد الالف ، والصوت والتجربة) .

وقد لجأ الكاتب إلى التجريب فكتب قصصاً في مقاطع وفق في بعضها (خطوط الطول والعرض الحقيقية) وجانبه التوفيق في البعض الاخر (الصوت والتجربة) ولكنه لم يكثر من امثال هذه القصص التي شاعت كتابتها في العراق في تلك الفترة .

وقد تراوحت قصصه في مجموعته الرابعة (خيمة للعم حسن) (٢) ١٩٧٤ بين البناء الفني المحكم والواقعية الانسانية كما في قصصه (خيمة للعم حسن ، وهناك تبقى العصافير ، منابع التزيز) . وتعد القصة الاولى من القصص العراقي الجيد . وبين الخواطر القصصية كما في (لعبة الاقنعة ، الولادة ، الاشياء والانسان) وقد ترهل القصة بين يديه رغم موضوعها الانساني كما في (كوميديا صغيرة ، الحزن) ، وينحو الكاتب في مجموعته الاخيرة (كانت هنالك حكاية) (٣) ١٩٧٤ منحى الحكاية وقد يلتصق بها كثيراً كما في

---

(١) م . الغري الحديثة . النجف .
(٢) دار الحرية . بغداد .
(٣) دار الفارابي . بيروت .

(سفينة المساكين والانشودة الاخيرة لهوميروس، والمقصورة والتابوت) ويستفيد من الحكاية لخلق اجواء انسانية رفيعة كما في قصته (يوسف وامرأة العزيز ، انعكاسات داخل الرسوم والتمائم) . وتبقى قصص هذه المجموعة علامة هامة في الادب الحكائي العراقي تذكرنا بقصته الطويلة (ليس ثمة امل لكلكامش) عام ١٩٧١ . ولكنه في حكاياته هذه يعمق ابعاد المجتمع العراقي ويلقي ضوءاً كاملا لكشف ترديه وعيوبه .

* القصة العراقية القصيرة بعد حرب حزيران ١٩٦٧ م
الاتجاه الوصفي

نحت القصة العراقية في منتصف الستينات من هذا القرن منحى واقعياً جديداً فهي لم تسلك اسلوب السرد التقليدي كما فعل ايوب وعبدالحق فاضل ولم تكتف بأسلوب المنلوج كما ظهر عند عبدالملك نوري وغانم الدباغ ومحمد روزنامجي بل اخذت تسير بعيداً في منحى فؤاد التكرلي الذي يجمع بين الوصفية والتحليلية النقدية وقد بدأ السير في هذا المضمار كل من سركون بولص ومحمد خضير ومحمد كامل عارف وقد مزج هؤلاء بين رؤاهم الفردية والرؤى الجماعية للانسان العراقي فهم لم يتخلوا عن المجتمع ليصوروا فيه ارهاصاتهم الخاصة واحساسهم بالحصار والضياع بل هم يمزجون ذاتهم مع ذات الجماعة لانهم جزء منهم وفي غمرة تشخيصهم للظواهر الجديدة يجمعون الخيوط بين ايديهم ، الاقتصاد والسياسة والفكر والتحول الاجتماعي والآلة والبناء والمعتقدات الدينية . واذا كان سركون بولص قد تأثر بالمذهب الوجودي ونظر إلى الحياة نظرة تشاؤمية ومحمد كامل عارف قد تأثر بالمذهب الماركسي ونظر إلى وطنه من خلال نوافذ العالم المطلة عليه فأن محمد خضير في مجموعته (المملكة السوداء) (١) ١٩٧٢ قد تأثر بالبيئة العراقية : معتقداتها، تراثها، فنونها الشعبية وتقاليدها ، بالاضافة إلى اسلوب سلس معبر نلمس فيه اثر كتاب الرواية الجديدة وبناء محكم رصين للقصة كما في قصصه (الشفيع ، المئذنة ، المملكة السوداء، حكاية الموقد، القطارات الليلية) . وهو فنان في اعطاء لمحات صغيرة يدخلها على القصة لتعطي ابعاداً جديدة وتنير بؤرة الحدث كالرواية الي ترويها العجوز في قصة (حكاية الموقد) وعزاء الحسين

---

(١) دار الحرية . بغداد .

في قصة (الشفيع) ، والمعتقدات الخرافية في قصة (المملكة السوداء) وقد استوت القصة السياسية بين يديه مخلوقاً متكاملا بعيداً عن التصنع والخطابية متمسكة بالاحاسيس الانسانية واللمسات الدقيقة التي تعمق البعد السياسي بشكل انساني وتعالجه كظاهرة واقعية وقد استعان بأشياء محسوسة خدمت الهدف الذي اراده وحققت الانطباع النهائي الذي يخرج به القاريء كالحقيبة في قصة (الارجوحة) والقطارات في قصة (القطارات الليلية) والربابة في قصة (تقاسيم على وتر ربابة) والتجوال في قصة (العلامات المؤنثة) . ويلتقي فهد الاسدي في مجموعته (عدن مضاع) (١) ١٩٦٩ مع محمد خضير في بساطة تقبل الحدث والتعبير بأسلوب جميل أخاذ قد يصل إلى التلون الشعري في كثير من الاحيان.

اما من حيث البناء القصصي فهما مختلفان تماماً . حيث تميل القصة عند الاسدي إلى البساطة حتى تقترب من اصول الحكاية (شجرة وغموض، المعجزة ، ثقب السرطان) ولكنه يلتقي مع محمد خضير في استخدام الحكاية او المعتقدات الخرافية او الرموز لكشف ابعاد جديدة في القصة ، فالنمل في قصة ثقب السرطان يمثل الشعب و (الفيصلي) يمثل السلطة الحاكمة المستبدة ، فاذا ماقضى الفيصلي على النمل مؤقتاً، عاد النمل من جديد اشد تكاثفاً وأزعاجاً للفيصلي .كما يلتقي معه ببساطة اللغة ووضوحها وواقعية القصة وكشفها عن اعماق البيئة الفقيرة ومعتقداتها وآمالها ويؤكد الاسدي على الحس الطبقي المتنامي في الجماهير المسحوقة الكادحة وخير مثال على ذلك قصة (أسعد طفل) حيث يعمل الطفل في دار ضابط المنطقة لمساعدة والده الحمال وفي الوقت الذي يحس فيه بسخف عمله وعدم جدواه يحسده الصغار لانه يأكل طعاماً جيداً في دار الضابط. وتصور لنا القصة مدى الفقر المدقع الذي يعيشه سكان الجنوب والحس المتقد بالظلم والاهانة عند الطفل الخادم .

ويقف غازي العبادي في مكان متميز من كتاب القصة القصيرة في العراق في ستينات هذا القرن ، فقد جاءت مجموعته الاولى (من رحلة السندباد الثامنة) (٢) ١٩٦٩ ، رداً جيداً على التعقيد التقني في بناء القصة ، فقد انسابت قصصه بعفوية وطلاوة وبساطة في التركيب الفني ، من غير جري وراء الاشكال الجديدة المفتعلة في الغالب . واذا ما استثنينا القصة الاولى (جوهرة في جبين بوذا) والتي انساق فيها وراء عواطف شخصية خائبة ، فجاءت في تركيبها مسربلة محرومة من الاختيار والتركيز اللذين تقتضيهما فنية

---

(١) م . الغري . النجف .
(٢) م . الاداب . النجف .

القصة القصيرة نستطيع تقسيم قصص المجموعة إلى قسمين : قصص ما قبل عودته من روسيا حيث كان يتلقى العلم ، وقصص العودة ومابعدها .

حيث تتوثب الشخصيات لتدفع عنها غبار الفشل وتستقبل الحياة من جديد(قفاز على الجليد ، يوم مات فيه الامس ، الاشجار البيضاء ، وموسيقى افريقية) .. وينحو الكاتب في هذه القصص منحى الواقعية الجديدة فيحرك شخصياته في اطار متصاعد حتى النهاية لانلمس فيه اثرا للوحدات الثلاث التي سار عليها الجيل السابق وباسلوب متنام ومقتصد فيه الكثير من ذكاء استخدام اللغة ومعرفة بجوانبها واستعمالاتها ....

اما قصص العودة فبالاضافة إلى ذاتيتها فهي مصبوغة برومانسية ثقيلة وتشاؤم داكن لانجد له اثراً في قصصه الاولى ، اما قصة (شخصية لكل العصور) فهي قصة كان يمكن لها أن تكون من افضل القصص العراقي لولا الضياع الكامل للشخصية فيها وغياب موقفها وحضور كاتبها ، وجاءت مجموعته الثانية (ابتسامات للناس والريح) (١) ١٩٧٠ تطوراً ملموساً لفنه القصصي (قضية عواد داهش وعواقبها ، دعوة للغداء ، أحداث حانة بربارة كما يرددها رجل فقد اتزانه ، القمر لايستحي ، حكاية ليل للصغيرة بدرية) فهو في قصصه هذه يجمع بين الواقع والحلم ، بين الحزن والفكاهة بين الفرد المجتمع . (٢) ويمتلك في سردها قدرة على تقنية فائقة يخلط فيها بين المعقول واللا معقول كما في القصة الاولى وبين واقع التصور كما في القصة الثانية وبين الحكاية.... والموجود في القصة الاخيرة وبين الخيال والتصور والوافع والموجود معاً في قصة (حانة بربارة) ليعمق لنا الواقع من زوايا عدة وليضرب ضربته الرائعة في نهاية القصة كما فعل في نهاية هذه القصة ، وكما فعل في قصة (القمر لايستحي) والتي تعد من أفضل القصص التي عالجت مشكلة الصراع الطبقي في الريف العراقي .

ولكنه لم يصل الى مستوى القضية في القصص التي دارت حول مسألة الفداء الفلسطيني (الميلاد ، لقاءات خمسة) اما قصص المجموعة الاخرى فكانت تحتاج إلى الاثارة والمداراة والاقتصاد .

ثم قدم القاص آخر مجاميعه القصصية (فنجان قهوة لزائر الصباح) (٣) ١٩٧٣ م

---

(١) م . الغري . النجف .

(٢) انظر / عبدالجبار عباس ، السندباد والريح ، الأقلام ، ٢و٣ ، ١٩٧١ .

(٣) دار العودة . بيروت .

ويتراوح فيها بين الواقعية الجديدة التي الفناها في المجموعتين السابقتين (انهر الجنة الخمسة ، اكثر من شمس جميلة ، الماء والسراب) والرمز كما في قصة (الخضر) التي تعد من افضل قصص المجموعة بل هي قصة سياسية جيدة استخدم فيها الاسطورة استخداماً ناجحاً . اما قصصه الاخرى فتغلب عليها أجواء (ادكارالن بو) الكابوسية بالاضافة إلى تأثره بكافكا وجان جينيه وانسياقه وراء القصة ذات المقاطع دون مبرر فني لذلك كما فعل في قصة (موت رجل بأيدي ذويه) .

واذا غرقت المجموعة الاولى (اصوات في المدينة) (١) ١٩٦٨ لموسى كريدي في بودقة التأزم والضياع والاسلوب الشاعري الحاد والقاطع احياناً والذي يكشف عن الفراغ الذي تعيشه شخصيات المجموعة وسعيهم الحثيث الذي يصل درجة الوجد احياناً للوصول إلى الحرية المطلقة والسعادة الميتافيزيقية المرجوة . فنحن نراه في مجموعته الثانية (خطوات المسافر نحو الموت) (٢) ١٩٧٠ ، يمزج بين المطلق والواقع ، بين الصوت المفرد وصوت الجماعة ، بين العلاقات القائمة واعادة تشكيلها ، بين تصوير الواقع عبر صور فولكلورية متباينة في المعتقدات الدينية والعادات ، ونقد هذا الواقع بشكل ايجابي فني وتعرية الزيف وفصله عن الحقيقة والاشياء التي يجب ان تزول . في قصصه (طقوس العائلة ، الشمس خارج السور ، ساحل آخر للموت) ولا ينبع الوصف للواقع من الخارج بل يتفجر من داخل الاشياء عبر مسيرة البطل ومشاهداته التي تتوازى في القصة الاولى ، وتتجزأ إلى مقاطع في القصة الثانية ، وتتوازى فقط دون تقاطع في القصة الثالثة .

اما قصص المجموعة الاخرى فتلتقي في وصفها السردي الدقيق مع طابع الرواية الجديدة (جرح في شمس هادئة) وهي ذات طابع سياسي واضح . او تلتقي مع القصص القوطي وكوابيس ادكارالن بو وكافكا (مرمى القاع الاخر ، عربة الليل) او تلتقي مع عبثية البيركامي (ظلال منفية لوجه قديم ، شوارع تحت ريح باردة) او مع الواقعية النقدية التشيخوفية (ثمن الصحو)اما لغته فهي حادة قاطعة تمتلك طاقة شعرية في قصصه الاخيرة ومجموعته الاولى. وهي لغة سهلة واعية لفن الكلمة عندما يريد الكشف عن واقع يرى وجوب تغييره .

ويشبه محمود جنداري موسى كريدي في مجموعته (اعوام الظمأ)(٣) ١٩٦٨ وقصصه التالية عليها (حدث في عام الفيل ، الدغل ، الشاحنة) في تراوحه بين الواقعية النقدية

---

(١) المكتبة العصرية . بيروت .
(٢) منشورات دار الكلمة . النجف .
(٣) م . الغري . النجف .

متمثلة في قصصه الاخيرة وقصة (الوحل) من مجموعته الاولى وبين الرومانتيكية الشعرية الباحثة عن الخلاص من تأزمها وفراغ روحهاومحاولة سبر اغوار المطلق دون جدوى .

ويمتاز جنداري بعدسة عينيه الفنيةاللاقطة فهولا ينظر إلى الاشياء من الخارج بل يفجرها من الداخل ليعيد تركيبها من جديد . وتمتلك اقاصيصه روح الريفي الاصيل الذي لا يألو جهداً في اصلاح ارضه مهما كانت سبخة وارضه التي يريد اصلاحها لتعطي الخير لمجتمع المدينة فهو ينتقل إلى ارجائه ممتعضاً من العلاقات المشوهة المستورة فيعمد إلى تعريتها وكشف زيفها.

ويذوب أمجد توفيق في مجموعته (الثلج ، الثلج) (١) ١٩٧٤ عشقاً صوفياً في طبيعة الشمال الجليدية وينقل لنا العلاقات المنظورة بين اهل القرى الشمالية في قصصه (التلاوة الاخيرة لاغنية صياد متعب ، السحابة البيضاء ، قوس قزح للجميع) وقد قادنا في قصته (عيون علية) إلى مجاهل حياة الشمال والعلاقات البشرية في تلك القرية المستلقية بصمت على سفح جبل قطع حبل الحياة بينه وبين العالم وهو لايكتفي بذلك بل يحول مشاكلهم إلى نغمات حزينة عن طريق اسلوبه المشرق الجذاب . ولايقف سعدي يوسف في مجموعته (نافذة من المنزل الغربي) (٢) ١٩٧٣ في حدود المحلية والاقليمية بل يتصيد المواقف الانسانية ايا كانت عربية ام عالمية فهو يحدثنا عن ثورة الجزائر في قصتيه (حانة الامبيانس ، والقلعة الرومانية) أو الثورات في شمال افريقيا (صباح السبت ، مساء الاحد) او الثورة الاسبانية (رباعية العمال الثلاثة) وهو يحسن تصوير هذه الاجواء بشاعرية آسرة تتحرك في داخلها شخصياته الحية المتنامية وأبطاله يعيشون مغتربين دائماً ولكنهم يرفضون كل ماهو غير اصيل في وطنهم . ورغم ان سعديا استخدم وسائل حديثة في بناء قصصه كالوصف الخارجي الدقيق والمنولوج والتقطع السينمائيواسلوب السيناريو الا ان هذه الوسائل اكسبت قصصه متانة وقوة وأثبتت إلى جانب اسلوبه التصويري الموحي انه قاص جيد كما هو شاعر ممتاز .

وقد نجحت لطيفة الدليمي في كتابة القصة القصيرة فهي تمتلك طاقة طيبة في ادارة الحوار ، وشفافية في التعبير عن الحدث الذي تعرضه عبر قصصها وهي قادرة على رسم شخصياتها في اقتصاد وتوتر وان انساقت مع قلمها في القصص الاخيرة من مجموعتها الاولى(تمر إلى

---

(١) دار الحرية . بغداد .

(٢) م . الأديب . بغداد .

احزان الرجال) (١) ١٩٦٩ . ولكنها اخضعت قلمها إلى براعتها الفنية في مجموعتها الثانية (البشارة) (٢) ١٩٧٤ . اما المضمون الذي تعالجه في مجموعتيها فلا يتعدى الاطارين الاطار السياسي الذي يشغل عندها مساحات كبيرة في خارطة قصصها ، وهو مضمون لاتقدمه مباشرة ولاتستخدم فيه تعليمية فجة أو نبرة خطابية مباشرة بل تذيبه في قلب قارئها وفكره دفقة دفقة ، ومثل هذه الرؤى الجميلة نلمسها في مجموعتها الثانية بشكل أكثر انسجاماً وتركيزاً (وأن تذوقوا مرارة الحنظل، الفقر والنافذة ، الطيارة الورقية ، المنحنيات) أما الاطار الثاني الذي تعالجه في قصصها فهو العلاقة بين الرجل والمرأة ، والعلاقة بينهما ليست سلبية ولاتسلطية بل هي علاقة تفاهم وأندماج في حدود الكرامة والخير والوصول. والمرأة ليست مقودة ولامسحورة ولاترضي ان يعاملها الرجل كجارية ، انها تقف وأياه على قدم المساواة ، تعطي وتأخذ وتقسط في الاخذ والعطاء ولاترضى ان تستغل كما هي في (قصة الرمال ترقص ايضا) ولا أن تستغل كما في قصتي (الطرق الحزينة وغزو الايام المحتضرة) ، وتتشابك العلاقة بين الرجل والمرأة بشكل متفاعل كما في قصة (تفصيلات عن مسرحية لم تتم) والتي اسقطت فيها الحائط الرابع ومزجت بين التمثيل والواقع كما فعل بيراندللو في مسرحه .

وكان آخر ماقدمته القاصة العراقية مجموعة (حدوة حصان) (٣) ١٩٧٤ لبثينة الناصري وهي كاتبة غير عادية فقد امتلكت ادواتها واستخدمتها في اطار فني جذاب ، ولم تتخبط في اقتناص احداث جسام بل اختارت أحداثاً بسيطة عرضتها بشكل مناسب للقصة وبأسلوب شفاف مشرق ومن هنا جاء اختلاف الشكل في قصصها فلكل موضوع وعاء يناسبه ، وهكذا استطاعت ان تحافظ على المستوى الطيب لاغلب قصص المجموعة ، وافضل ماتكون القصة عندها حين تنبع من وجدانها بدون تكلف أو تهيؤ مسبق لطرح مشكلة عربية معاصرة. ومن هنا جاءت قصتها (القارب) مثالاً جيدا لنموذج القصة عندها ، فهي تستعين بالحوار المتنامي المتوتر لخلق الاثر النهائي ولتقديم البديل الفني للانسان الضحية . وقد بلغت الكاتبة درجة عالية في الفنية عند تصويرها اليأس الذي ينتاب الراوية في قصة (اعلان في صحيفة دمشقية) عندما تفقد حقائب سفرها في دمشق .

---

(١) دار الجاحظ . بغداد

(٢) دار الحرية . بغداد .

(٣) دار الحرية . بغداد .

وقد تهبط القصة عندها لطغيان التكلف عليها شكلا ومضموناً كما في القصص التالية (براندو هابطاً من السماء ، تل أبيب ٢٠٢٤، الخروج من البحر الاحمر) . وخاصة عند تناولها الاحداث السياسية والقومية .

* الاتجاه الذاتي

وقد ظهر إلى جانب هذا التيار الوصفي الاجتماعي تيار آخر ذاتي المنزع مولع بالحديث عن الذات شديد التشاؤم والقلق يحس بحصار الحياة من حوله ويخشى الاشياء التي تحيط به واكثر مايخشى صوته الداخلي الذي ينطلق باستمرار صارخا لاعن رغبة منه في اعادة التوازن الذاتي الذي اضحى شبيهاً بامراض العصاب بل لمجرد سماع نفسه وقداجتر هؤلاء القصاص تمزقاتهم الخاصة وانصب تساؤلهم عن جدوى الحياة اليومية التي يمارسونها العمل، الشارع ، المقهى ، المرأة ، الانتماء ، الحب ، الجنس . وهم في كل هذه الاحوال لايجدون الا طريقاً مسدوداً يحول بينهم وبين كشف ذواتهم حتى اصبح عشق الذات لديهم طقساً صوفياً خاصاً بهم بل حدثونا عن ممارساتهم اليومية العادية : الاكل، السير في الشارع ، الحديث في المقهى ، مزاولة العاب التسلية فيه، ارهاصاتهم الخاصة التي تطلقها كأس خمرة تشرب في حانة رخيصة وجسد بض يسعون في الحصول عليه، وحب مراهق ينتهي بالخيبة.

وكان من المحتم في اطار هذه الرومانتيكية الذاتية وتكرار الموضوع ذاته في قصصهم دائماً ان يسعوا وراء اسلوب جديد ، قصير الجمل ، وقعها يزخر باللمسات الشاعرية ويطفح بالرمز الذاتي الخاص وبالحركة السريعة القلقة ، ولن تتقطع جملهم وتكثر فيها النقاط والفراغات، وتتكرر بعض الكلمات والجمل لتدل على حالة القهر الذي يعانون منه. وقد تستهويهم العبارة فيسعون وراءها صيادين تارة، مولدين تارة اخرى ولم يأت ذلك عن تقليد او فراغ بل هو نتاج اجتماعي اثر في نفوسهم حتى تبلور في اطار هذه المضامين شكلا شاعرياً يقترب من الاسلوب القصصي حيناً ويبتعد عنه احياناً، خاصة عند اولئك الشباب الذين فتحوا عيونهم على هذه القصص دون اتصال بالنبع الثر الذي قدمه الادب الروسي في القرن التاسع عشر والادب الامريكي في النصف الاول من القرن العشرين .

فقد جاء هذا التمزق متأثراً بالظروف التي عاشتها الامة العربية منذ مطلع الستينات من هذا القرن ، وبخاصة ما حل بالعراق من قلق واضطراب وانحرافات سياسية كانت حصيلتها التشريد والسجن والبطالة والقهر . ولاسيما الخيبة التي اصيب بها العرب بعد حرب حزيران

ضياع اجزاء جديدة من ارض فلسطين والصراع السياسي والحزبي والعقائدي الذي اشتدت وطأته على نفس المواطن العربي وبات لايعرف سبيلا يصل به إلى الحقيقة .

وقد نشطت دور النشر في بيروت في نشر كتب لاغراض تجارية او لاغراض سرية اخرى فغمرت الاسواق بترجمات رديئة لاعمال سارتر وكامي ومورافيا وكولن ولسن، وبدأت الاتجاهات الجديدة التي غزت اوربا تترجم في كتب ألفت ضمن هذ الاطار إلى العربية ، كالرمزية والسريالية وقصص الرواية الجديدة وغزت كتب انيس منصور ومصطفى محمود واحسان عبد القدوس نفوس المراهقين واليافعين واثرت مجلتا (شعر ومواقف) في نفوس الشباب وانبهروا بالاساليب الشعرية والكتابية الجديدة بالاضافة إلى افلام الموجة الجديدة الفرنسية ثم الموجات المتتابعة من الافلام حتى رست عند حافة افلام الجنس .

وتبدل الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بسرعة اكبر من تطور الثقافة وسعتها . كل ذلك وجد تربة جديدة صالحة لظهور التيار الثاني الذاتي ، الشكلي حينا والتجريبي في احايين اخرى ويعد عبد الرحمن الربيعي الاب الشرعي لهذا الاتجاه منذ ظهور مجموعته (السيف والسفينة) (١) ١٩٦٦ والذي بلور عبر قصصها العالم في شخصية البطل البرجوازي الصغير الذي يسعى بعشق صوفي للوصول إلى الحرية والسعادة فهو لاينتهي في الغالب الا لـ (الأنا الخاصة وتصبح الممارسات اليومية طقوساً مقدسة عبر مسيرته الحياتية ، ولكن هل استطاع الوصول إلى ساحل الحرية والسعادة ؟؟ يبدو للباحث انه يسعى ولكن دون ارادة للوصول ، انه ماسوشي يسعد بتعذيب ذاته القلقة الضائعة في خضم القلق والضياع الاجتماعيين بل هو شهيد مجتمع متلاطم يسعى إلى شاطيء الامان .

يقول في المقدمة (كنت زائدا احني رأسي امام هزائمي ولا أصافح الايدي ولا الوجوه الاخرى ، كنت اشتهي ان اقتلع شعر رأسي وأعمل مهرجاً له اظافر طويلة وعيون خالية أسطو على اعماقي وأوغل في تشويهها عندما اضع على رأسي صخرة منحوته على شكل قرد فزع ، وكم حاولت ان اعلن براءتي وانفلت من عبد الرحمن الذي يغتالني باستمرار » (٢) وقد توالت اصداء عدة للصرخة التي اطلقها الربيعي . واقبل الشباب على قراءته بنهم ، لقد كان الربيعي في مجموعته الاولى الابن الحقيقي لمجتمعه القلق الضائع تحت ربقه حكم

---

(١) دار االجاحظ . بغداد .

(٢) عبدالرحمن الربيعي / السيف والسفينة / ص ٣ .

لايعرف ماهويته ، وكان بطل الربيعي لاينهزم من انتمائه فقط بل من نفسه ومن هنا كان في حاجة إلى شيء مادي يفيء فيه هزيمته ليعيد لنفسه توازنها فكان الجنس والممارسات اليومية العادية ومن هنا كان لايبحث عن الوعي الحقيقي بل هو منغمس باللاوعي وبالذات المنغلقة المتفجرة من الداخل في آن واحد . فلم يجد افضل من الخمرة سبيلا للانغلاق والتفجير معا . وجاءت مجموعتاه التاليتان(الظل في الرأس) (١) ١٩٦٨ و (وجوه من رحلة التعب)(٢) ١٩٦٩ امتداداً للمجموعة الاولى مع تضخم (الانا) والوجد في الخمرة والجنس وتلون العبارة وشفافيتها وجمال ايقاعها ، ولكنه نحا في مجموعته الرابعة (المواسم الاخرى) (٣) ١٩٧٠ منحى واقعياً يتسم احيانا بالفوتوغرافية وبدت المجموعة ذكريات مجمعة عن حياة الكاتب ومشاهداته في مدينة الناصرية وهي منشاؤه الاول. وتراوح بين الاتجاهين في مجموعته (عيون في الحلم) (٤) ١٩٧٤ .

ويتمثل تجاه الربيعي القصصي من خلال هذه المجموعة فمنها عودة إلى قصص الخمسينات الواقعيةوذاتية مغلقة(صفحات منكسرة من تاريخ المدن التي انتصرت) او تشاؤمية تدفع إلى الهزيمة (احزان سعدون الصغيرة) او واقعية جديدة (مملكة الوعول ، المقهى) او محاولة للقصة الطويلة القصيرة كان قد مارسها في الفترة الاخيرة(عيون في الحلم) وهكذا يبقى الربيعي صاحب اتجاه جديد في القصة العراقية المعاصرة . ويبقى الربيعي مهما قيل فيه صاحب مدرسة خاصة وضع اسسها عبر اسلوبه الجذاب واختار موضوعاتها من الازمات الاجتماعية التي كان يعانيها المواطن العراقي ابان الحكم العارفي والمواطن العربي بعد نكسة حزيران .

ان الربيعي قد عرف مجتمعه عندما عرف نفسه ، وعرف قومه عندما عرف وطنه . ومن يقرأ مجموعة الربيعي الاخيرة (ذاكرة المدينة) (٥) ١٩٧٥ يستطيع ان يتبين كيف استطاع هذا الكاتب ابن بيئته ان يستقر ويتفتح بعد ان رسا عند شاطيء امين وبعد ان استقرت الاوضاع في العراق واصبح المواطن العربي يستطيع بسهولة ان يدرك من هم الحكام المخلصون لشعبهم ومن هم الحكام الادعياء . فهو في هذه المجموعة الاخيرة يجد نفسه في ثورة تموز

(١) المكتبة العربية . بيروت .
(٢) م . الغري . النجف .
(٣) دار القلم . بيروت .
(٤) اتحاد الكتاب العرب . دمشق .
(٥) دار الحرية . بغداد .

١٩٦٨ وفي منجزاتها ويأمل في الثورة ان تحقق له الحلم العربي الكبير كما حققت للمواطن العراقي حلمه في التأميم .

ولكن بعضاً من الكتاب الذين اقتدوا به بعد نجاح مجموعته الاولى (السيف والسفينة) لم يستطيعوا الوقوف في مواجهة انفسهم ومن هنا كان خطأهم في عدم معرفة وطنهم الصغير (العراق) فاضاعوا اي تبصر في معرفة وطنهم الكبير . فلم تكن قصصهم غير تجميع لعبارات محفوظة ملطخة برموز غير ذات دلالة او سريالية اقرب إلى التخبط منها إلى الفن ، ونثر مبعثر عبر صفحات تغرق بين جملة نقاط وعلامات استفهام وتعجب حتى تلاءمت علامات الاستفهام والتعجب هذه مع وجوه قرائهم اكثر من انسجامها مع جملهم المرتبكة غير الواعية ولسنا بصدد العرض لما كتبه هؤلاء فقد اصبحت قصصهم مقبورة بين دفتي المجلات التي نشروا فيها او مكفنة بغبار المكتبات .

ونواجه في قصص جليل القيسي التي تضمها مجموعتاه (صهيل المارة حول العالم) (١) ١٩٦٨ و (زليخة .. البعد يقترب) (٢) ١٩٧٥ ، نماذج انسانية عادية تحس حصارا شديداً . ويبدو تأثر الكاتب بعالم كافكا كبيراً جداً فهو «يرفع هذا الواقع إلى مرتبة الاسطورة ظاهرياً عبر التغريب والفنتازيا وهو يهدف هنا بلا شك الى الكشف عن حدة الصراع الاجتماعي ولا معقولية العالم الخارجي وبطش القوى الغامضة التي تهدد عالم الانسان »(٣)ولكنه نحا في مجموعته الثانية منحى قريباً من الواقع ابتعد فيه قليلا عن الجو الكافكوي الفانتازي.
واذا كان جليل القيسي يهتم اهتماماً كبيراً برسم الشخصية وبناء القصة فان يوسف الحيدري في مجموعتيه (حين يجف البحر) (٤) ١٩٦٧ و (رجل تكرهه المدينة) (٥)١٩٦٩.ينساق وراء العبارة الملونة النابضة بالشاعرية والمنسابة دون رابط من اهتمام برسم الشخصية وينساق احياناً وراء الجمل التي يحسن رصفها فتبدو القصة اقرب إلى النثر الفني منها إلى الفن القصصي مع اهتمام واضح برصد الشخصيات الشاذة وبعض الظواهر الشاذة في المجتمع العراقي مع افتعال للازمة وذاتية وجودية احيانا وعبثية في احيان أخرى تتسم بها شخصياتـــــه.

---

(١) و (٢) دار النهار . بيروت ، م . الأديب . بغداد .

(٣). فاضل ثامر ، ياسين النصير ، قصص عراقية معاصرة ، ص ٣٣ .

(٤) م . النعمان . النجف

(٥) م . الغري . النجف .

ومثله في هذا الاتجاه عبد الستار ناصر في مجموعتيه (الرغبة في وقت متأخر)(١) ١٩٦٩ و (فوق الجسد البارد) (٢) ١٩٦٩ ، مع اغراق أشد في الحسيات الجسدية وفي تهويمات الخمرة التي يتناولها ابطاله بكثرة كما يمارسون الجنس ، وكأن وظيفتهم الحياتية تنتهي في هذين الاقنيمين ، وقد لمسنا تطوراً ظاهراً نحو الواقعية مع اهتمام بالوصف واقتصاد في الكلمات وامتلاك لناصية البناء القصصي في مجموعته (طائر الحقيقة) (٣) ١٩٧٤ ، وفي قصصه التي ضمنها مجموعته (موجز حياة الشريف نادر) (٤) والتي يظهر فيها عبد الستار ناصر قصصياً ينتظره مستقبل مرموق .

ويقف عائد خصباك في مجموعته (الموقعة) (٥) ١٩٧٠ بين التأثر باسلوب الرواية الجديدة حيث يهتم برصد الجزئيات الخارجية وبين اللغة الشعرية التي كثيراً ماتدفعه إلى ارهاصات الذات ونفثات الحصار التي تعاني منه شخصياته بشدة ، ولكن واقعية الشخصية تبقى مجسدة رغم تضخيمه للحدث احياناً .

ويشبهه في هذا الاتجاه عبد الاله عبد الرزاق في مجموعته (السفر داخل الاشياء) (٦) ١٩٧١ ، رغم اغراقه في الرمز والاجواء الكابوسية التي تشيع في قصصه . ولم يستطع عبد الامير الحبيب في مجموعته (في انتظار الزمن الآتي) (٧) ١٩٧١ ان يرقى من الناحية الفنية إلى الدرجة التي بلغها كل من عبد الاله وعائد . ولكنه نحا منحاهما في الاسلوب والجو العام للقصة وواقعية الشخصية التي تعاني دائما من الضيق والحصار لعدم تلاؤمها مع الواقع بينما استطاع احمد خلف في مجموعته (نزهة في شوارع مهجورة) (٨) ١٩٧٤، ان يصل إلى خلق قصة سياسية جيدة (خوذة يرجل نصف ميت ، المغارة ، هجرة في وقت غير مناسب) حيث اعطى لقصص الفداء قيمة كبيرة تصل إلى مستوى القضية، كما يصل في

---

(١) م . الغري . النجف .
(٢) دار البصري . بغداد .
(٣) دار الحرية . بغداد .
(٤) اتحاد الكتاب العرب . دمشق .
(٥) م . الغري . النجف .
(٦) م . الغري . النجف .
(٧) دار الساعة . بغداد .
(٨) م . الغري الحديثة . النجف .

ابداعه الفني المستوى الذي بلغه محمد خضير . ولكن مجموعته تضم إلى جانب القصص السياسي الاجتماعي الواعي الراصد لصميم المجتمع وقضاياه الهامة قصصاً يعاني ابطالها من فرديتهم المتضخمة وكوابيسهم الخاصة التي لايبررها غير خوفهم من الواقع وهزيمتهم المنكرة أمام مشاكل الحياة اليومية العادية .

أما تجربته في القصة القصيرة جداً (خمس قصص قصيرة جداً)فتبدو غير منسجمة مع وعي الكاتب الاجتماعي وان كانت من أفضل ماكتب في هذا الاتجاه التجريبي . ومثله محمد عبد المجيد في مجموعته (صوت المغني الذي ذكرنا برائحة البنفسج)(١) ١٩٧٤ الذي يكشف في قصصه عن حدة الصراع الطبقي في الريف رغم ان ثورة فلاحية تتم بالانفعال والتمرد الفردي في غالب الأحيان دون وعي جماعي تام . الا أن اسلوبه الشاعري يقنعنا بهذا التمرد فهو يناسب أمزجة أبطاله . وهو في قصصه أقرب إلى الواقعية الرومانتيكية – ان صح هذا التعبير – وكما يحظى أسلوبه باهتمامه تحظى شخصياته بعناية فائقة منه ولاتجره شاعرية اللغة إلى الانسياب بل الاقتصاد والبناء المتقن في القصة على الأغلب.

ولا يستطيع الباحث ان يتناسى قصص جمعة اللامي التي لم يجمعها بعد في كتاب فهو قاص قدير ولكنه مولع بالتجريب والتجديد والانسياق وراء الأشكال الجديدة في القصة ولكنه لاينسى الاهتمام والاقتصاد بالكلمة التي يريد فيها أن يعبر عن الحدث وهو جريء جداً في اختيار الاحداث والولوج في دقائق الحياة حاملا معوله ليهدم به قلاع التخلف والخرافة . وجمع بعض قصصه في كتاب اسماه (من قتل حكمت الشامي) (٢) صدر عام ١٩٧٦ (٣) .

ولايستطيع الباحث في هذه العجالة أن يتحدث عن البحر الزاخر من القصص العراقي القصير الذي اغرق الأسواق منذ النكسة ، فهو كثير وكثير جداً (٤) .

---

(١) دار الحرية . بغداد .

(٢) دار الحرية . بغداد .

(٣) انظر / أنور الغساني ، دراسة في أمراض القصة العراقية القصيرة ، الأقلام ، العدد ٥ ، ١٩٧١ وفوزي كريم ، من الغربة حتى وعي الغربة .

(٤) لم أتناول بالدراسة العديد من المجموعات القصصية التي وجدتها في مستوى فني هابط كما لم أتناول بالدراسة=

– المراجع والمصادر –

المراجع :

١. انور الغساني ، دراسة في أمراض القصة العراقية القصيرة، الأقلام،العدد: ٥ ، ١٩٧١
٢. باسم عبد الحميد حمودي ، في القصة العراقية ، م ، اتحاد الادباء ، بغداد ، ١٩٦٢
٣. داؤد سلوم ، الأدب المعاصر في العراق ،م . المعارف ، بغداد ، ١٩٦٢ .
٤. صلاح حمدي ، غدا يأتي الربيع ، م اتحاد الادباء بغداد ، ١٩٦٢ .
٥. عبد الجبار عباس ، السندباد والريح ، الأقلام ، العددان: ٢، ٣، ١٩٧١ .
٦. عبد الرحمن الربيعي ، السيف والسفينة ،م . الجاحظ ، بغداد ١٩٦٦ .
٧. غالب عبد الرزاق ، مملكة الشياطين ،م. أسعد ، بغداد ، ١٩٥٨ .
٨. فاضل ثامر ، قصص عراقية معاصرة ، م . دار السلام ، بغداد ، ١٩٧١
٩. فوزي كريم ، من الغربة حتى وعي الغربة ، م الجمهورية ، بغداد ، ١٩٧٢ .
١٠. موفق خضر ، الانتظار والمطر ، م . العامل ، بغداد ، ١٩٦٢ .
١١. نزار عباس ، زقاق الفئران ، م . الجمهورية ، بغداد ، ١٩٧٢ .
١٢. ياسين النصير ، قصص عراقية معاصرة ، م . دار السلام . بغداد ، ١٩٧١ .

المصادر :

جميع المجاميع القصصية الواردة في الدراسة .

= المجموعات القصصية التي أصدرها قصصيو الخمسينات بعد ثورة تموز - وهي كثيرة - بل تناولت الكتاب الجدد الذين خلقتهم الثورة فقط .

كما لم أتناول بالدرس العددين الخاصين بالقصة اللذين أصدرتهما مجلة الاداب ومجلة الكلمة فالمجلة الأولى لم تقتصر على القصص العراقي فقط . بل على القصص العربي بعامة . وضمت إلى جانب الكتاب الجدد كتاباً قدامى .

أما مجلة الكلمة ، فقد اقتصرت على الشباب الطالع في أدب القص فقط . ويرى الباحث أن أدواتهم الفنية لم تكتمل بعد عدا القليل منهم فقط . وقد تناولت أحدهم بالدراسة وهو القاص (أمجد توفيــــــق) .

أما المقدمة التي كتبها مؤيد الطلال فكانت متعلقة بالقصص المنشور في المجلة فقط وكذلك التعليقات التي جاءت في نهاية كل قصة . وهي بعيدة عن مجال الدراسة العامة لفن القص بعد ثورة تموز .

تحقيق : طه محسن عبدالرحمن

الجمل التي لها محل من الإعراب والتي لا محل لها

تأليف

حسن بن قاسم المرادي

المتوفى سنة ٧٤٩ هـ

تقديم

تحتفظ المكتبة الوطنية بباريس بمجموعة خطية مؤلفة من سبع رسائل، ذكرها المستشرق البارون دي سلان في الفهرس الذي صنعه لمخطوطات المكتبة المذكورة .(١) ولفت نظري وأنا أطالع هذا الفهرس الضخم كتاب بعنوان (القواعد الثلاثون في علم العربية) لشهاب الدين القرافي ، (٢) وهو مخطوط ضمن هذه المجموعة .

طلبت المجموعة الخطية مصورة بالمايكر وفلم ، وشرعت اقرأ ما يهمني منها ،وقد عجبت حين قرأت في الصفحة المرقمة(١١٧ أ) بعد البسملة : (قال الشيخ بدر الدين بن ام قاسم رحمه الله تعالى : سألت وفقك الله عن التي لها محل من الاعراب ، لأن الجملة أصلها..) ويستمر الكلام في هذا الموضوع إلى نهاية الورقة (١٢١).

سررت بما قرأت ، لأن أثراً جديداً عثرت عليه للمرادي ، كان في عداد المفقودات ، إذ لم يذكر أحد أن للمرادي مصنفا بهذا العنوان . وحتى المستشرق دي سلان عندما وصف رسائل المجموعة عميت عليه رسالة المرادي ، وظنها تكملة لكتاب (القواعد الثلاثون) ، وكذلك جاز هذا الأمر على الأستاذ سعيد الافغاني حينما وصف المجموعة في مقدمته لكتاب (الأغراب في جدل الاعراب) لأبي البركات ابن الأنباري .(٣) و (الأغراب) واحد من المصنفات التي تضمها المجموعة الخطية ،فقد عد رسالة المرادي جزءاًمن (قواعد) القرافي .

ولما كنت قد درست المرادي وحياته ، واطلعت على اسلوبه في البحث ، وتتبعت آثاره كلها واخباره في كتب النحو والطبقات وفهارس المخطوطات ، فقد آثرت تحقيق هذا الأثر النفيس ، وتصحيح نسبته إلى (ابن أم قاسم) . وها انذا أقدم بين يدي التحقيق بدراسة موجزة للرسالة ومؤلفها .

---

(١) يراجع : Catalogue des manuscrits arabes de la biblioth eque natianal aparis v .l.p.201

(٢) فرغت من تحقيق هذا الكتاب وسيقدم إلى الطبع ان شاء الله .

(٣) يراجع : الاغراب في جدل الاعراب – لا بن الأنباري ص ٢٧ – ٢٨ .

— ١ —

مؤلف الرسالة هو بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن علي المرادي المراكشي المغربي فالمصري ثم المالكي .(٤)

كنيته (أبو محمد) (٥). ولا نعرف عن شخصية (محمد) هذا شيئاً . إذ لم يذكر المؤرخون أن المرادي تزوج أو نجل ولداً بهذا الاسم . وكني في كشف الظنون بـ (أبي علي) (٦). ومن المحتمل أن يكون ذا كنيتين ؛ وانهما أطلقا عليه كما هو المعتاد بين الناس الذين يكتنون قبل زواجهم .

اشتهر المرادي بـ (ابن أم قاسم) وذلك لامرأة تبنته اسمها (زهراء) كانت من بيت السلطان .(٧) وذكروا أن (أم قاسم) هذه كانت جدته أم أبيه ،جاءت من المغرب فعرفت بالشيخة ، (٨) فكانت شهرته تابعة لشهرتها .

ولد المرادي بمصر ، (٩) فعرف بالمصري .ولم نقف على تأريخ يحدد سنة ولادته ، كما أن المصادر لم تسعفنا بأخبار شافية عنه ، فنحن لانعرف شيئاً عن طفولته ونشأته شأنه في ذلك شأن كثير من كبار علمائنا القدامى ، وكذلك لم نجد في المصادر التي بين أيدينا مايشير إلى أسرته غير الخبر الذي ذكرناه آنفاً ،وهو تبني (أم قاسم) ورعايتها له في طفولته بسبب جاهها ومكانتها .

وإذا مارحنا نتلمس نشاطه في فترة الشباب فلا نجد مايعيننا على الحديث ،إذ لم نصادف في المراجع التي تناولته ما يتيح لنا التعرف إلى حياته بالتفصيل . وإذا كان قد ترجم له عدة من أصحاب الطبقات ، وكان له ذكر بين النحويين واللغويين والقراء ، فإن الذي ذكروه قليل ومعاد ، ينقل فيه بعضهم عن بعض.

عاش المرادي في النصف الأول من القرن الثامن الهجري بمصر ،وكانت حينذاك تحت ظل المماليك البحرية الذين استطاعوا أن يردوا هجمات المغول عن مصر والشام ، وينشئوا دولة ضمت اليها علماء الأقطار الاسلامية الذين رحلوا اليها تخلصاً من هجمات المغول والصليبيين ، وشجعتهم على مواصلة الدرس والبحث بما فرضت لهم من رواتب هيأت لهم الفراغ للتأليف والتدريس .

(٤) الدرر الكامنة ٣٢/٢ ، غاية النهاية في طبقات القراء ٢٢٧/١ .
(٥) غاية النهاية ٢٢٧/١
(٦) كشف الظنون ٤٠٦/١ .
(٧) الدرر الكامنة ٣٢/٢ .
(٨) الدرر الكامنة ٣٢/٢ . بغية الوعاة ٥١٧/١ .
(٩) حسن المحاضرة ٥٣٦/١ .

في هذه البيئة استمر المرادي ينتقل في مساجد القاهرة ومدارسها ويتردد على حلقات العلم والأدب والوعظ ، متصلا بعلماء أفادوه في اللغة والنحو والاصول والقراءات والوعظ. وقد تتبعت أسماء العلماء الذين ذكروا شيوخاً له ، فوجدتهم قلة لايتجاوزون أصابع اليدين عدداً ، وهم (١٠) : أبو عبدالله الطنجي(١١)،وأبو زكريا يحيى بن أبي بكر بن عبدالله الغماري التونسي النحوي (ت ٧٢٤ هـ) (١٢) ، وشرف الدين عيسى بن مخلوف بن عيسى المغيلي (ت ٧٤٦ هـ)(١٣)،وسراج الدين عمر بن محمد بن علي الدمنهوري(ت٧٥٢هـ)(١٤) ومجد الدين اسماعيل بن محمد بن عبدالله التستري النحوي المقريء (ت٧٤٨هـ) (١٥)، وشمس الدين أبوعبدالله محمد بن أحمد بن عبد المؤمن المشهور بابن اللبان (ت٧٤٩هـ) (١٦) وأثيرالدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، أبو حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ)(١٧).

استفاد المرادي من هؤلاء الشيوخ،ونهل من علوم عصره،وأخذ يتابع الدرس والتحصيل حتى أصبح ذا أهلية للتدريس والتصدر في حلقات العلم ، فظل في مصر يعلم ويصنف حتى وافاه الأجل في يوم عيد الفطر المبارك سنة (٧٤٩هـ) ودفن بسر ياقوص (١٨) بعدما خلف كتباً ومصنفات تزيد على الثلاثين في التفسير والعروض والقراءات ، إلى جانب ما خلفه في اللغة والنحو ، وأهم مصنفاته : (١٩)

١ — أرجوزة في اصول قراءة أبي عمرو.
٢ — أرجوزة في مخارج الحروف وصفاتها ، وله شرح عيها .
٣ — اعراب البسملة .

---

(١٠) يراجع الدرر الكامنة ٣٣/٢ . غاية النهاية ٢٢٧/١ . بغية الوعاة ٥١٧/١ . شذرات الذهب ١٦٠/٦ .
(١١) ترجمته في بغية الوعاة ٧٠/٢ .
(١٢) ترجمته في بغية الوعاة ٣٣١/٢ .
(١٣) ترجمته في الديباج المذهب ص ١٨٤ ، وحسن المحاضرة ٤٦٠/١ .
(١٤) ترجمته في غاية النهاية ٥٩٧/١ ، وشذرات الذهب ١٧٢/٦ .
(١٥) ترجمته في غاية النهاية ١٦٨/١ ، وبغية الوعاة ٤٥٥/١ .
(١٦) طبقات الشافعية الكبرى ٥١٣/٥ ، الوافي بالوفيات ١٦٨/٢ .
(١٧) تفصيل ترجمته في كتاب ابو حيان النحوي —للدكتورة خديجة الحديثي . ويراجع : طبقات الشافعية ٣١/٦ ، والدرر الكامنة ٣٠٢/٤ .
(١٨) غاية النهاية ٢٢٨/١ . وسرياقوص : بليدة في نواحي القاهرة : يراجع : مراصد الاطلاع ٢٩/٢ ، ومعجم البلدان ٢١٨/٣ .
(١٩) تفصيل الكلام على هذه المصنفات في مقالنا الموسوم بـ (المرادي النحوي : حياته وآثاره) المنشور في مجلة(المورد) البغدادية : المجلد الثالث—العدد الثاني ص ٨٧-٩٢(١٩٧٤) .

٤ — تفسير القرآن الكريم . في عشر مجلدات .
٥ — تلخيص شرح أبي حيان على تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد.
٦ — توضيح مقاصد الألفية . وهو شرح على ألفية ابن مالك .
٧ — جمل الاعراب .
٨ — الجمل التي لها محل من الاعراب والتي لا محل لها — وهي الرسالة التي بين يدي القاريء وسنتكلم عليها مفصلاً .
٩ — الجنى الداني في حروف المعاني .
١٠ — رسالة في (الألف).
١١ — رسالة في (كلا وبلى) .
١٢ — رسالة في (لو).
١٣ — شرح الاستعاذة والبسملة .
١٤ — شرح باب وقف حمزة وهشام على الهمز من الشاطبية .
١٥ — شرح تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد — لابن مالك .
١٦ — شرح الجزولية — لأبي موسى الجزولي .
١٧ — شرح القصيدة الشاطبية — للشاطبي .
١٨ — شرح الفصول النحوية — لابن معط .
١٩ — شرح الكافية في النحو — لابن الحاجب.
٢٠ — شرح الكافية الشافية — لابن مالك .
٢١ — شرح المفصل — للزمخشري .
٢٢ — شرح المقصد الجليل في علم الخليل — لابن الحاجب.
٢٣ — شرح الواضحة في تجويد الفاتحة — لبرهان الدين الجعبري .
٢٤ — منظومة في الدال والذال مع شرحها .
٢٥ — منظومة في الظاء والضاد .
٢٦ — المفيد في شرح عمدة المجيد في النظم والتجويد — لعلم الدين السخاوي .

— ٢ —

لم يفرد أحد من النحاة — فيما أعلم — قبل المرادي مصنفاً يبحث فيه (الجمل التي لها محل من الاعراب والجمل التي لا محل لها) . : إذ لم أجد ما يشير إلى ذلك . كما لم يحصل البنا

شيء من المصنفات التي تبحث الموضوع مستقلاً . إلا أن العيني (ت٨٥٥هـ) ذكر في عمدة القاريء أبياتاً ستة لأبي حيان النحوي نظم فيها الجمل المذكورة وهي قوله :(٢٠)

وخذ جملا ستا وعشرا فنصفها
لها موضع الاعراب جاء مبينا
فوصفية حالية خبرية
مضاف اليها واحك بالقول معلنا
كذلك في التعليق والشرط والجزا
إذا عامل يأتي بلا عمل هنا
وفي غير هذا لامحل لها كما
أتت صلة مبدوءة فاتلك العنا
مفسرة أيضاً وحشواً كذا أتت
كذلك في التخصيص نلت به الغنا
وفي الشرط لم يعمل كذاك جوابه
جواب يمين مثله سرك المنى

على أن السيوطي (ت ٩١١هـ) ينسب هذه الأبيات إلى الشيخ سراج الدين الدمنهوري(٢١) وهو من شيوخ المرادي .

يضاف إلى هذا أن السيوطي نفسه في (باب الكلام والجملة) من كتاب : (الأشباه والنظائر) نقل عن أبي حيان كلاماً ملخصاً في (الجمل التي لها محل من الاعراب ..)(٢٢)

ويبدو أن السيوطي نقل هذا الكلام من أحد كتب أبي حيان الموسوعية ، ولا نستطيع القول بأن أبا حيان قد ألف كتاباً مستقلا في الموضوع ، لأننا لم نجد من اشار إلى ذلك على كثرة ما راجعنا من مصادر قديمة وحديثة ، ومن فهارس المخطوطات المتوفرة بين أيدينا(٢٣).

---

(٢٠) عمدة القاري ٢٥٢/١ .

(٢١) الأشباه والنظائر ٢١/٢ .

(٢٢) المصدر السابق ١٧/٢ - ٢١ .

(٢٣) يقتضينا المقام ونحن نسجل من ألف في الموضوع الذي طرقه المرادي أن نشير إلى ان ابن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) تكلم بالتفصيل على (الجمل التي لها محل من الاعراب والتي لامحل لها) في الباب الثاني من كتابه : مغني اللبيب ٤٢٧/٢ - ٤٧٨ ، مستفيداً من الذين سبقوه ، ومناقشاً كثيراً من المسائل ، مع استطرادات في مواضع عدة .
وللدكتور فخر الدين قباوة كتاب ممتع عنوانه(اعراب الجمل وأشباه الجمل) طبع في حلب سنة ١٩٧٢ ، لونه بالنصوص الأدبية الرفيعة التي استقاها من القرآن الكريم والحديث الشريف وأقوال العرب الأقحاح ، وأشعار أئمة الأدب والبيان ، وجمع فيه - كما يقول - جهود عشرين سنة من البحث والتتبع والدراسة والتصنيف .

فالمرادي إذن من أوائل الذين وضعوا بين أيدي المتعلمين رسالة تشتمل على أحكام الجمل واعرابها ليكون الموضوع سهل التناول ميسوراً لدى هؤلاء .بعد أن كانت مادته مبعثرة ضمن موضوعات متفرقة في الكتب المتعددة، فألف هذه الرسالة وقدم لها بتمهيد اوضح فيه سبب اختياره الموضوع فقال : (سألت — وفقك الله — عن بيان (الجمل) التي يكون لها محل من الاعراب ،لأن الجملة أصلها أن تكون مستقلة لا تتقدر بمفرد ولا تقع موقعه . وما كان من الجمل له محل من الاعراب فإنما ذلك لوقوعه موقع المفرد ..).

ثم شرع بذكر القسم الأول ، وهو الجمل التي لها محل من الاعراب، وانواعها سبعة : الخبرية ، والحالية ، والمحكية بالقول ، والمضاف اليها، والمعلق عنها العامل، والتابعة لما هو معرب أوله محل من الاعراب، والواقعة جواب ذات الشرط مصدرة بالفاء أو باذا . وبعد أن شرح هذه الأنواع تكلم على القسم الثاني ، وهو(الجمل التي لا محل لها من الاعراب) وأنواعها تسعة : الابتدائية، والصلة ، والاعتراضية ،والتفسيرية ، وجواب القسم، والواقعة بعد أدوات التحضيض ، والواقعة بعد أدوات التعليق غير العاملة ، والواقعة جواباً لها ، والتابعة لما لا موضع له .

استعرض المؤلف في الرسالة مجموعة من آراء النحاة ، وناقش طائفة منها ، وكثيراً مايقوده النقاش إلى اصطناع اسلوب الجدل والحوار ، وغالباً مايتخذ في معالجته الموضوع طريقة السؤال والجواب . فهو يتصور أسئلة تطرح فيجيب عنها ، ويستعمل في مثل هذا قوله : (فإن قلت ..) ويورد الاعتراض ثم يعرج عليه بقوله : (قلت... أو فالجواب ...) وهي طريقته في كتبه الأخرى مثل شرح الألفية ،وشرح التسهيل والجنى الداني في حروف المعاني.

ولم يشر المرادي خلال البحث إلى المصادر التي ينقل عنها ، وإنما اكتفى بذكر اسم المؤلف دون كتابه ، واستشهد بآراء مجموعة من النحاة ، أمثال الزمخشري وابن مالك والسيرافي وابن جني والفارسي وسيبويه وابن الطراوة والمبرد وابن عصفور ... وغيرهم . وربما استعمل عبارات عامة كالجمهور وبعضهم والبصريين والكوفيين والأكثرين وقوم...

وكان يتوخى في رسالته القصد ، ويتجنب التكرار لأجل الاختصار ، فنراه يحيل القارىء الى الموضوع السابق دون تكرار مادته كقوله مثلاً :(وقد تقدم ذكرها آنفاً ...).وهو يشعر أن رسالته ليست موسوعة ، فهو كثيراً ماينبه على أن هذا القسم مختصر ،ويذكر أنه مفصل في غيره ، وأن هذا لايستدعي بسط الكلام وذكر الأمثلة ، كقوله في الجملة الخبرية (والتمثيل سهل فلا نطول به) .وقوله في الجملة الحالية : (وليس هذا موضع بسط الكلام على ذلك) .وقوله : (وكل ذلك واضح لايحتاج بسط الأمثلة) .وقوله :

(ومن ذلك قوله تعالى : حتى عفوا وقالوا ونحو ذلك كثير) .وقوله : (والكلام على هذه الجمل المذكورة مبسوط في موضعه من كتب العربية وهذا المقدار كاف هنا ...).

ويستعين المؤلف بالنظم ، لتقريب المادة إلى القارىء وتسهيل حفظ القاعدة، فتراه يبدأ موضوعه بأبيات يضمنها ماسيشرحه من المعاني ،سالكاً طريقة ابن مالك ، مثال ذلك قوله في الجمل التي لها محل من الاعراب : وقد جمعت في هذين البيتين :

خبرية حالية محكية ... بالقول ذات اضافة وتعلق

وجواب ذي جزم بفاء أو إذا ... ولتابع حكم المقدم أطلق

وقوله : (وجمعت أيضاً في هذه الأبيات ...)

إن مسائل الرسالة مفهومة في عرضها وأفكارها ،واسلوب المرادي فيها سهل ، ومنهجه واضح ، وليس بينه وبين اساوب كتابه (الجنى الداني) اختلاف أو تنافر (٢٤) وذلك واحد من الأدلة التي تؤيد بأنه هو مؤلف هذه الرسالة .

—٣—

رجعت في تحقيق النص إلى نسخة خطية وحيدة لم أقف على غيرها في مكتبات العالم .وهي موجودة في المكتبة الوطنية بباريس ضمن مجموعة رقمها (١٠١٣) مؤلفة من سبع رسائل في (٢٠٣) أوراق ، قياس (١٨,٥×١٤ سم) . دون على المجموعة اسم (محمد القادري الشافعي) وتحته عبارة (آل إلى نوبة الحقير محمد أبو الوفا الكواكبي عفي عنهما) . وهاك بيان الرسائل السبع والتواريخ المثبتة على بعضها :

١ — شرح منهاج النووي — لشمس الدين محمد بن علي القاياني الشافعي .

٢ — رسالة أولها : (هذا ماوجد بخط الشيخ بدر الدين الزركشي على نسخته من قواعد العلائي) . فرغ من نسخها في ثامن صفر سنة (٨٧٨) الحسين بن محمد بن الشحنة الشافعي وتنتهي بظهر الورقة (١٩).

٣ — رسالة في الفقه . تنتهي بوجه الورقة (٩٨). تم نسخها في ١٣ جمادى الاولى سنة ٨٧٨ بالقاهرة .

٤ — الأغراب في جدل الأعراب — لأبي البركات بن الأنباري. ينتهي بوجه الورقة(١٠٩)

٥ — القواعد الثلاثون في علم العربية — لشهاب الدين القرافي . ينتهي بظهر الورقة(١١٧)

(٢٤) يراجع مقدمتنا لكتاب الجنى الداني ص ٢٩ — ٣٢ ، مبحث : (منهج الكتاب واسلوبه).

في آخره : علقها لنفسه الحسين بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود ابن الشحنة الشافعي بتاريخ سادس عشر جمادى الآخرة سنة ٨٧٨ هـ .

٦ ــ الجمل التي لها محل من الاعراب والتي لامحل لهاــللمرادي.تنتهي بظهر الورقة(١٢١)

٧ ــ التهذيب في المنطق ــ لسعد الدين التفتازاني . ينتهي بالورقة الاخيرة من المجموعة (٢٠٣) حيث نقرأ هذه الخاتمة : وكان الفراغ من تعليق هذا الكتاب في يوم الاثنين خامس عشر ذي الحجة (٨٨٧) (٢٥) على يد مالكه أحوج الخلق إلى عفو الحق الحسين بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن الشحنة الشافعي ...

هذا وتشتمل رسالة المرادي على (٥ أوراق = ١٠ صفحات) من هذا المجموع في كل صفحة (٢١) سطراً . تبدأ بوجه الورقة (١١٧) وتنتهي بظهر الورقة (١٢١). وهي خالية من صفحة العنوان . أولها بعد البسملة : (قال الشيخ العلامة بدر الدين بن أم قاسم رحمه الله تعالى : سألت وفقك الله عن بيان التي يكون لها محل من الاعراب ...) وفي الخاتمة كتب الناسخ : (علقه لنفسه الفقير إلى الله تعالى أبو الطيب الحسين بن الشحنة الشافعي غفر الله له ولوالديه والمسلمين وذلك في يوم الاثنين رابع عشر جماد ــ كذا ــ الآخرة سنة ثمان وسبعين وثمان مائة) .

وآل الشحنة أسرة حلبية مجيدة عرف منها اعلام في العلم والقضاء والوجاهة والغنى والنفوذ، ولهم في حلب آثار كثيرة وأوقاف ومعاهد ومدارس ومساجد مما يدل على ماكان لهم من جليل الشأن ورفيع المقام) (٢٦) .

ومن هذه الاسرة ناسخ رسالتنا الحسين بن محمد ... وقد ترجم له صاحب الضوء اللامع بقوله : حسين بن محمد ... بن محمود عفيف الدين أبو الطيب بن أثير الدين بن المحب الحلبي الشافعي ، ويعرف بابن الشحنة ، حفظ القرآن والمنهاج وغيره ، وسمع من جده ومن البرهان بن ابي شريف والبقاعي وعبد القادر بن يوسف الكردي ، وقدم القاهرة غير مرة ، منها بعد موت جده وبعد موت أخيه . وخطب بالجامع الكبير (٢٧) .

ــ٤ــ

أما نسبة الرسالة إلى المرادي فلم نجد خلافاً فيها ، ولايصادف الباحث صعوبة في تحقيق صحتها ، وذلك للامور الآتية :

---

(٢٥) كذا في المخطوط . والذي يتفق وتاريخ الرسائل السابقة هو (٨٧٨)

(٢٦) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ص ٤ نقلا عن مقدمة : الاغراب في جدل الاعراب بقلم سعيد الافغاني ص ٢٨ .

(٢٧) الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ٣/١٨٥ ، رقم الترجمة ٦٠٠(بتصرف) .

١. ان اسم المرادي ورد صريحاً على الصفحة الاولى من المخطوطة ، حيث نقرأ العبارة الاتية : (قال الشيخ الامام العلامة بدر الدين بن ام قاسم رحمه الله تعالى ....)

٢. وان اسلوب المؤلف في العرض والشرح فيها هو اسلوب المرادي في كتبه الاخرى ، ولاسيما (الجنى الداني) فلا تنافر ولا خلاف بين المصنفين — كما قدمنا — وان كانت الرسالة أصغر حجماً .

٣. وان المصنف نظم نوعي الجمل وأبيات احتوتها الرسالة ، وهذه الابيات ذكرها العيني والسيوطي منسوبة إلى المرادي ، فقال الاول : وقد نظم ابن ام قاسم النحوي الجمل التي لها محل من الاعراب والتي لامحل لها منه بثمانية أبيات هي قوله : (٢٨)

جمل أتت ولها محل معرب سبع لان حلت محل المفرد

خبرية حالية محكية

وقال الثاني بعد ان ذكر أنواع الجمل .... وقال الشيخ بدر الدين بن ام قاسم : (٢٩)

جمـــل أتت ولها محـــل معرب ......

وهذا يجعلنا نطمئن إلى نسبة الرسالة إلى المرادي ، اذ ليس ثمة مايقدح في هذه النسبة ، كما ان سكوت كتب الطبقات لاينهض دليلا على عدم صحة نسبتها إلى صاحبنا ، لأن هذه الكتب لم تلتزم باستقصاء مؤلفات الأقدمين كلها ، وحسبنا أن المرادي نفسه ذكر في كتابه (الجنى الداني) رسائل لم نجد لها ذكراً في غيره من الكتب ، وهي : رسالته في (الألف) ورسالته في (لو) ورسالته في (كلاوبلى) و (اعراب البسملة) .

— ٥ —

ولما كانت مخطوطة باريس لاثانية لها ، فقد اعتمدتها في التحقيق وحدها .وحرصت على الاشارة إلى بدء كل صفحة منها ، فوضعت الارقام الدالة على ذلك ،ورمزت لوجه الورقة بالرقم مقروناً بالحرف (أ) ولظهرها بالرقم مقروناً بالحرف(ب). وكتبت النص على مانعرف اليوم من قواعد الاملاء .وكانت جملة من كلماته على خلاف ذلك ، لاسيما في كتابه الهمزة واهمال النقاط والألفات ، مثل (جزؤا = جزءاً . شا = شاء . مارا = مارأوا جزى = جزءي . مسئلة = مسألة . هل لا = هلا . ثلثه = ثلاثة) . وحاولت التقيد بالنص الاصلي ومع ذلك اضطررت إلى تصحيح ألفاظ وردت مخالفة

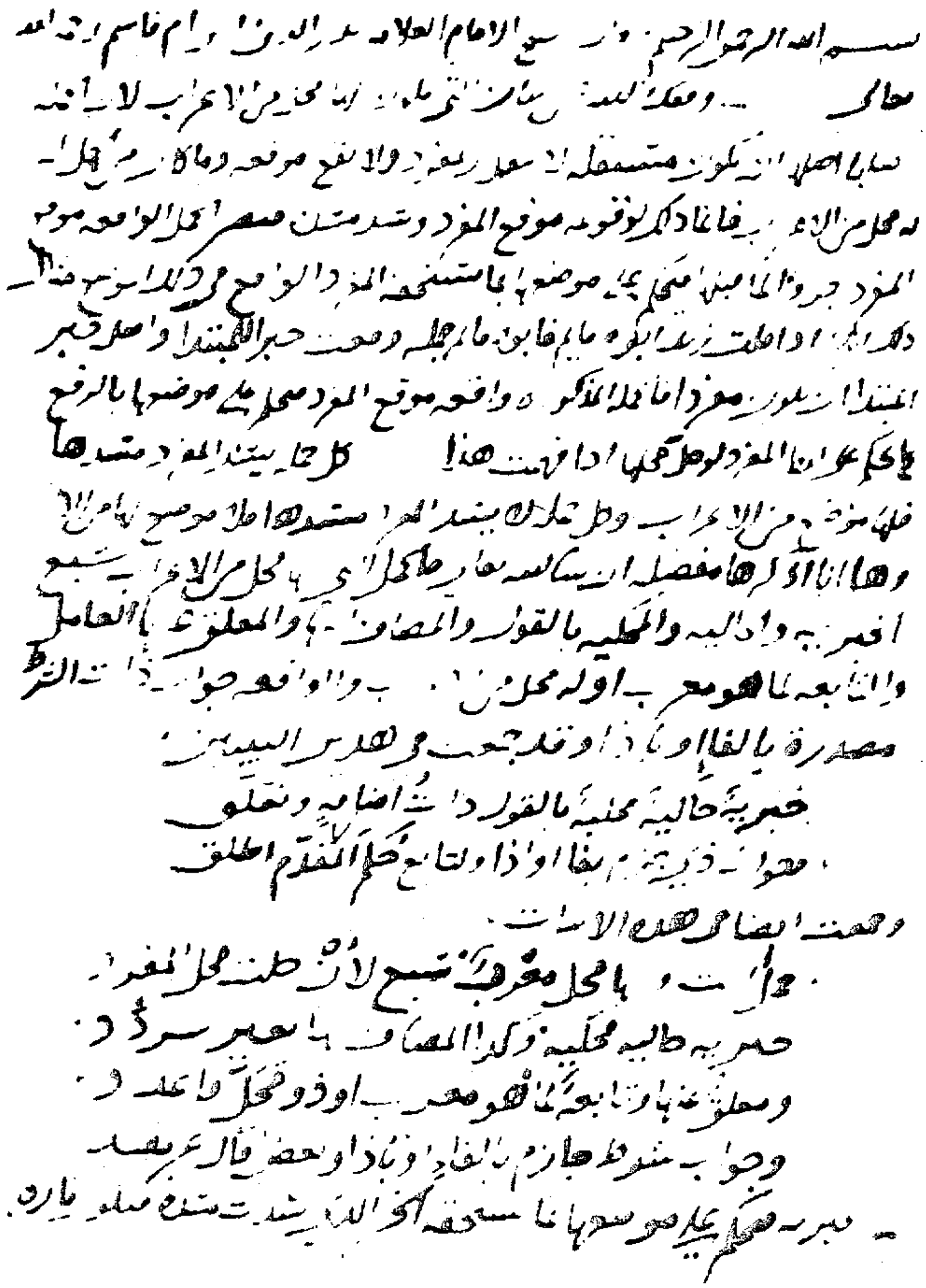
(٢٨) عمدة القارى ٢٥٢/١ .

(٢٩) الأشباه والنظائر ١٦/٢ — ١٧ .

للقواعد الصحيحة . واضفت كلمات اقتضاها السياق . وأشرت إلى كل تغيير في الحاشية مهملا الاشارة إلى مالا فائدة في ذكره، كسقوط نقط او ألفات او غيرها . ووضعت ماأضفته بين قوسين ( ) مستعيناً على التصحيح والاضافة بكتب النحو غالباً . والذي يسر لي هذا التدخل أن ناسخ الرسالة غير مؤلفها ، ولو كان الناسخ هو المؤلف نفسه لما سمحت لنفسي بمثل هذا التدخل لان المخطوطة آنذاك صورة لثقافة المؤلف .

وعنيت بعزو الشواهد إلى اصحابها ، وخرجت الآيات المستشهد بها . ولم أهمل التعريف بالاعلام التي يمر ذكرها بصورة موجزة . وأهملت الاشارة إلى طبعات المصادر التي استعنت بها ، لأني سأذيل هذه النشرة بثبت أبجدي بالمراجع وطبعاتها ،ليسهل الرجوع اليها على المعني بمسائل هذا العلم .

والله الموفق إلى أهدى السبل .



الصفحة الاولى من مخطوطة باريس


وقد وقعت الجملة الاسمية خبر ليت فى قوله تعالى والذين جاهدوا فينا لنهدينهم
سبلنا فالجواب انا لا ندعى ان موضع الخبر هو مجموع الجملتين جملة القسم وجملة الجواب
فموضع جملة الجواب موضع رفع لا الجواب وحدها وهذا واضح واما الجملة الواقعة بعد ادوات
التحضيض هلا والا ولولا ولوما فانها [illegible] فلا محل لها الجملة لان
ادوات التحضيض لا محل لها وقد تقع الجملة بعد ادوات التحضيض وتقع الجملة كقوله
تعدون عقر النيب افضل مجدكم بنى ضوطرا الكمى المقنعا
[illegible] الجملة الواقعة بعد ادوات التعليق عن العاملة فنحو الواقعة بعد لولا التى هى
لامتناع الشيء لوجود غيره وبعد لو الامتناعية وبعد لما التى هى حرف وجوب
لوجوب على مذهب سيبويه فهذه لا محل لها اذ لا محل لهذه الاحرف [illegible] الجملة الواقعة
جوابا لادوات التعليق عن العاملة نحو الجملة الواقعة للولا ولو ولما تقدم ذكرها
انفا [illegible] الجملة بعد اذا وبعد ما تقدم الخلاف فيها وكذلك الجملة الواقعة جوابا كيف لا محل لها
لانها لا تجزم الا مع ما [illegible] التابعة لما لا موضع له فقد يكون [illegible] كذلك لا موضع له
نحو قام زيد وجاء عمرو ولا يتاتى ذلك فى النعت لان الجملة الوصفية لها موضع من
الاعراب دائما ولا تكون الجملة عطف بيان [illegible] تم الكلام على الجمل التى لا محل لها من
الاعراب على سبيل الاختصار [illegible] الكلام على هذه الجمل المذكورة مبسوطا
فى موضعه من كتب العربية وهذا القدر كاف هنا والله سبحانه وتعالى اعلم
والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وازواجه وذريته والتابعين لهم اجمعين [illegible]
علقه لنفسه [illegible] الفقير الى [illegible]
وذلك فى يوم الاثنين رابع عشرين جماد الاخرة سنة ثمان [illegible]

الصفحة الاخيرة من مخطوطة باريس

بســـم الله الرحمـــن الرحيـــم

قال الشيخ الامام العلامة بدر الدين بن أم قاسم رحمه الله تعالى :

سألت – وفقك الله – عن بيان (الجمل) التي يكون لها محل من الاعراب ،لان الجملة أصلها (٣٠) أن تكون مستقلة لاتتقدر بمفرد ولاتقع موقعه ، وما كان من الجمل له محل من الاعراب فانما ذلك لوقوعه موقع المفرد ، وسده (٣١) مسده ، فتصير الجمل الواقعة موقع المفرد جزءاً لما قبلها ، فيحكم على موضعها بما يستحقه المفرد الواقع في ذلك الموضع . مثال ذلك أنك اذا قلت : زيد أبوه قائم ، ف(أبوه قائم) جملة وقعت خبراً للمبتدأ، وأصل خبر المبتدأ أن يكون مفرداً ، فالجملة المذكورة واقعة موقع المفرد ،فيحكم على موضعها بالرفع كما يحكم على لفظ المفرد لوحل محلها .

اذا فهمت هذا فنقول : كل جملة يسّد المفرد مسدها فلها موضع من الاعراب ، وكل جملة لايسد المفرد مسدها فلا موضع لها من الاعراب ، وها أنا أذكرها مفصلة (٣٢) ان شاء الله تعالى :

فالجمل التي لها محل من الاعراب سبع : الخبرية والحالية . والمحكية بالقول ، والمضاف اليها ، والمعلق عنها العامل ، والتابعة لما هو معرب أو له محل من الاعراب ، والواقعة جواب ذات الشرط مصدرة بالفاء أو ب«اذا» . وقد جمعت في هذين البيتين :

خبـــرية حـاليـــة محكيـة	بالقول ذات اضافـــة وتعلـق
وجـواب ذي جزم بفـــاء أو اذا	ولتـابع حكــم المقــدم أطلـق

وجمعت أيضاً في هذه الابيات :

جمـــل اتـت ولهـا محـــل معـــرب	سبع ، لان حـلـــت محـــل المفرد
خبـــرية حـــالية محكيـــة	وكـذا المضـاف لها بغير تـــردد
ومعلـق عنهـا وتـابعـــة لمــــــا	هو معـرب أو ذي محـــل فاعدد
وجـواب شرط جـازم بالفـــاء أو	ب« اذا» وبعض قـال غير مقيد (٣٣)

(٣٠) مكررة في المخطوط .

(٣١) في المخطوط : وسد .

(٣٢) سيذكر المؤلف في خاتمة الرسالة أن الكلام على الجمل قد تم على(سبيل الاختصار دون الاكثار).

(٣٣) في المخطوط : مفند. والتصويب عن عمدة القاري ٢٥٢/١ والأشباه والنظائر ١٦/٢.

أما الخبرية فيحكم على موضعها بما يستحقه الخبر الذي سدت مسده ، فتكون تارة /١١٧ب / في موضع رفع ، كالجملة الواقعة خبر المبتدأ أو خبر «ان» وأخواتها ، وبخبر «لا» التي لنفي الجنس. وتكون تارة في موضع نصب ، كالجملة الواقعة خبر « كان» وأخواتها ، وخبر «ما» الحجازية وأخواتها . ويندرج في قولنا (الخبرية) الجمل الواقعة مفعولا ثانياً لظننت وأخواتها وثالثاً لاعلمت وأخواتها ، لانها كانت خبراً للمبتدأ قبل دخول الناسخ والتمثيل سهل فلا نطاول به .

وأما الحالية فلا تكون الا في موضع نصب على اختلاف أنواعها ، لان الحال منصوبة دائماً ، مثال ذلك : جاء زيد ويده على رأسه ، وكذا ما أشبه ذلك من الجمل الواقعة بعد معرفة. وأما الجملة الواقعة بعد نكرة فهي صفة لها . وفي الجملة الواقعة بعد المعرف بـ«ال» الجنسية وجهان ، كقوله تعالى : «وآية لهم الليل نسلخ منه النهار» (٣٤) ففي (نسلخ) وجهان أحدهما ان تكون صفة نظراً إلى المعنى اذ لم يرد ليل معين . والثاني أن تكون حالا نظراً الى اللفظ لانه معرفة بـ«ال» وهو الاظهر . ونظير الآية في احتمال الوجهين قول الشاعر :

ولقد أمر على اللئيم يسبني .... (٣٥)

واذا وقعت الجملة بعد النكرة وتصارت بواو الحال فهي جملة حالية وليست بصفة ، كقوله تعالى «وما اهلكنا [من قرية] الا ولها كتاب معلوم » (٣٦) وسوغ ذلك تقدم النفي . وزعم الزمخشري (٣٧) أن الجملة صفة ، واعتذر عن دخول الواو (٣٨) . ورده ابن

---

(٣٤) سورة يس ٣٦/٣٧ .

(٣٥) تمام البيت : (فمضيت ثمت قلت لا يعنيني) . وقائله رجل من بني سلول . وهو من شواهد المغني ١/١٠٧ و ٢/٤٨٠ . و ٧١٧ . ابن عقيل ٢/١ . عمدة القاري ١/١٨٩ . ويراجع شرح شواهد المغني — للسيوطي ١/٣١٠ .

(٣٦) الحجر ١٥/٤ .

(٣٧) محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم جارالله الزمخشري (٤٦٧ — ٥٣٨هـ) يراجع : معجم الأدباء ٧/١٤٧ . انباه الرواة ٣/٢٦٥ . النجوم الزاهرة ٥/٢٧٤ . وكتاب الزمخشري — للدكتور أحمد محمد الحوفي .

(٣٨) في الكشاف ٢/٥٧٠ : (ولها كتاب : جملة واقعة صفة لقرية ، والقياس أن لايتوسط الواو بينهما كما في قوله تعالى : وما أهلكنا من قرية الا لها منذرين ، وانما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف ، كما يقال في الحال: جاءني زيد عليه ثوب وجاءني وعليه ثوب).

مالك (٣٩) وليس هذا موضع بسط الكلام على ذلك .

واختلف النحاة في الجمل (المصدرة بمذ ومنذ) (٤٠) فذهب السيرافي (٤١) [إلى] أنها في موضع نصب على الحال ، وذهب الجمهور إلى أنها لاموضع لها من الاعراب .

واختلفوا أيضاً في الجملة الواقعة في الاستثناء بالفعل (٤٢)، فقيل لاموضع لها وقيل: في موضع نصب على الحال .

. . . .

واما الجمل المحكية بالقول فلها حالان :

أحدهما — أن يكون القول المحكي به غير موضوع للمفعول فحينئذ يكون محله نصباً باتفاق ، نحو : قل الحمد لله. وقد يحذف بعض الجملة بالقول ويبقى بعضها كقوله تعالى /١١٨أ/ : (قالوا سلاماً قال سلام) (٤٣) ،وكقوله تعالى : (فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها) (٤٤).

والثاني— أن يكون موضوعاً للمفعول ، نحو : (وإذا قيل لهم آمنوا) (٤٥). فهذا فيه خلاف ، ذهب بعضهم إلى أن مرفوع (قيل) مميز تفسره الجملة بعده وهي (آمنوا) فلا موضع لها من الاعراب ، والتقدير : وإذا قيل لهم هو ، أي قول هو آمنوا .وكذلك (٤٦)

(٣٩) جمال الدين محمد بن عبدالله بن مالك «٦٠٠ — ٦٧٢ هـ » . يراجع : فوات الوفيات ٢٢٧/٢ . غاية النهاية ١٨٠/٢ . بغية الوعاة ١٣٠/١ . نفح الطيب ٢٤١/٢ .

(٤٠) في المخطوط : (الواقعة بعد مذ ومنذ) وهو خطأ صوبناه عن شرح التسهيل — للمرادي جـ ١ الورقة ١٢٥ (مخطوطة الأوقاف — بغداد / ١٤٢٦) والمغني ٤٣١/٢ — ٤٣٢ والأشباه والنظائر ٢٠/٢ . هذا والجملة الواقعة بعد (مذ ومنذ) في محل جر بالاضافة كما صرح المرادى نفسه في الجنى الداني ص ٤٦٧ . ويراجع : الكتاب ٤٦٠/١ .منهج السالك ص ٢٥٦ . شرح الألفية — لابن الناظم ص ١٤٥ ، همع الهوامع ٢١٦/١ .

(٤١) أبو سعيد الحسن بن عبدالله بن المرزبان (٢٨٤ — ٣٦٨هـ) . يراجع : الفهرست ص ٦٢ . تاريخ بغداد ٣٤١/٧ . انباه الرواة ٣١٣/١ .

(٤٢) الأفعال التي يستثنى بها هي : (ليس — لا يكون — خلا — عدا — حاشا) . ويراجع: المغني ٤٣٧/٢ .

(٤٣) هود ١١/ ٦٩ .

(٤٤) الشمس ١٣/٩١ .

(٤٥) البقرة ١٣/٢.

(٤٦) في المخطوط : وذلك .

يقدر في نظائر هذه الآية ، وهذا من باب (فعل) نظير قوله تعالى : (ثم بدأ لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين) (٤٧) . في باب (فعل) قيل : وهذا مذهب البصريين (٤٨). وذهب الكوفيون إلى أن الجملة في موضع المفعول الذي لم يسم فاعله ، فهي على هذا في موضع رفع ، وقيل : القائم مقام الفاعل (لهم) . ورد بأن الكلام لايتم به والجملة على هذا موضع نصب ، وزعم الزمخشري أن الجملة قائمة مقام الفاعل. وقرره بأن الاسناد إلى لفظه ، كأنه قيل : وإذا قيل لهم هذا اللفظ ، قال : وهذا الكلام نحو قولك : الف ضرب من ثلاثة أحرف ، ومنه : زعموا مطية الكذب (٤٩) .وهذا قول حسن .

وأما المضاف اليها فهي في موضع جر ، لأن اعراب المضاف اليه هو الجر ، وذلك قسمان: قسم متفق عليه وقسم مختلف فيه :

فالمتفق عليه أنها في موضع جر الجملة المضاف اليها أسماء الزمان غير الشرطية . واما (٥٠) «إذا» ففي الجملة بعدها خلاف ، ذهب الأكثرون إلى أنها في موضع جر باضافة «إذا» وذهب قوم إلى أنها لامحل لها ، وهو خلاف مشهور .

والمختلف فيه الجملة الواقعة بعد «إذا» كما سبق ، وبعد (آية) بمعنى علامة ، كقوله : بآية يقدمون الخيل شعثا ....(٥١)

فمحل الجملة جر باضافة (آية) اليها ، وهو مطرد عند سيبويه (٥٢) . وذهب أبو الفتح(٥٣) إلى أن ذلك على تقدير «ما» المصدرية ، وليست اضافة للجملة ، كما جاز في قوله :

---

(٤٧) يوسف ٣٥/١٢ .

(٤٨) نسبة اليهم ابن عصفور . يراجع المغني ٤٤/٢ .

(٤٩) الكشاف ٦٤/١ .

(٥٠) في المخطوط : من .

(٥١) تمامه : (كأن على سنابكها مداما) . نسبه سيبويه ٤٦٠/١ إلى الأعشى ، وليس في ديوانه وهو من شواهد المغني ٤٦٩/٢ ، شرح المفصل ١٨/٣ . ويراجع : شرح شواهد المغني ٨١١/٢ .

(٥٢) الكتاب ٤٦٠/١ – ٤٦١ .

(٥٣) أبو الفتح عثمان بن جني (٣٢٠ – ٣٩٢ هـ) . يراجع : نزهة الالباء ص ٢٤٤ .معجم الأدباء ١٥/٥ . وكتاب ابن جني النحوي – للدكتور فاضل السامرائي .

وآية ما (٥٤) يحبون الطعاما (٥٥)

. . . .

فعلى هذا لامحل للجملة بعدها ، لأنها صلة « ما» المقدرة .

ومن المختلف فيه الجملة الواقعة بعد «ذي» في قولهم : (اذهب بذي تسلم) . ذهب الجمهور الى أنها بمعنى (صاحب) وأن الجملة في (٥٦) / ١١٨ ب / موضع جر بالاضافة ، والمعنى : اذهب في وقت ذي سلامة . وذهب بعضهم إلى ان (ذو) موصولة على لغة طيء . واعربت على لغة بعضهم ، و (تسلم) صلة ا (ذي) (٥٧) ، والمعنى : اذهب في الوقت الذي تسلم فيه ، فلا محل للجملة على هذا ، وهو مذهب ابن الطراوة (٥٨) .

ومن المختلف فيه الجملة الواقعة بعد « لما» التي هي حرف وجوب لوجوب . فذهب سيبويه [إلى] انها لامحل لها من الاعراب ، لان « لما» عنده حرف (٥٩) . وذهب الفارسي (٦٠) إلى انها في موضع جر بالا ضافة ، لأن «لما» عنده ظرف ، بمعنى « حين» (٦١) .

. . . .

وأما الجملة التي عاق عنها العامل فهي في موضع نصب . ولايكون التعليق (٦٢) الا في الافعال القلبية وما الحق بها . والجملة بعد المعلق في موضع نصب باسقاط حرف الجر ان تعدى به ، نحو : فكرت أصحيح هذا ام لا ؟ ومنه : (فلينظر أيها أزكى طعاما) (٦٣). وفي موضع مفعوله ان تعدى إلى واحد ، نحو : عرفت ايهم عندك ومنه : (أما ترى أي

(٥٤) في المخطوط : مما .
(٥٥) صدره : (ألا من مبلغ عني تميما) . وقائله يزيد بن عمرو بن الصعق . وهو من شواهد سيبويه ٤٦٠/١ . شرح المفصل ١٨/٣ . المغني ٤٦٩/٢ .
(٥٦) في : مكررة في المخطوط .
(٥٧) في المخطوط : لذا .
(٥٨) أبو الحسين سليمان بن محمد بن عبدالله المالقي (ت ٥٢٨هـ) . صنف : الترشيح في النحو. المقدمات على سيبويه وغيرهما . يراجع : بغية الوعاة ٦٠٢/١ . كشف الظنون ٣٩٩/١.
(٥٩) الكتاب ٣١٢/٢.
(٦٠) الحسن بن احمد بن عبد الغفار الفارسي (٢٨٨ – ٣٧٧هـ) . يراجع : الفهرست ص ٦٤ . معجم الادباء ٣ / ٩ . انباه الرواة ١ / ٢٧٣ . وكتاب أبوعلي الفارسي – للدكتور عبد الفتاح شلبي .
(٦١) البحر المحيط ١٥/١ و ٢٦٥ و ١٠٦/٣ و ١١/٧ .
(٦٢) وهو ابطال العمل لفظا لا معنى .
(٦٣) الكهف ١٩/١٨ .

برق ههنا ((٦٤) وسادة مسد مفعوليه ان تعدى إلى اثنين ، نحو : علمت (٦٥) أزيد عندك أم عمرو ؟ ومنه قوله تعالى : (ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى) (٦٦) ، وبدل من المتوسط بينه وبينها ان تعدى إلى واحد بعد ما أخذ مفعوله ، نحو : عرفت زيداً أبو من هو ؟ فالجملة بدل زيد ، وهي بدل شيء من شيء . أي عرفت قصة (٦٧) زيـــــــد أبو من هو . وقيل : بدل اشتمال . وذهب بعضهم إلى ان هذه الجملة في موضع نصب على الحال ، وهو مذهب المبرد (٦٨) والأول للسيرافي (٦٩) واختاره ابن عصفور (٧٠)

وأما الجملة التابعة فحكمها حكم المتبوع ، ان كان معرب اللفظ والمحل فلها محل من الاعراب ، والا فلا محل لها ، وهي أقسام :

منها الوصفية ، وهي الجملة التي لها محل من الاعراب ، وانما [أعربت] (٧١) لأنها لايوصف بها الا ما هو معرب أوله محل من الاعراب . وتكون في موضع رفع ونصب وجر بحسب المنعوت . مثالها في موضع رفع « وهذا كتاب انزلناه » (٧٢) /١١٩أ/ فـ«أنزلناه» جملة في موضع رفع ، لأنها صفة (كتاب) ، لان الجمل بعد النكرة صفة كما سبق . ومثالها في موضع نصب رأيت رجلا أبوه عالم ، ومثالها في موضع جر ، مررت برجل أبوه عالم ، ولذلك عطف عليها في قوله :

---

(٦٤) ورد المثال في المقرب ص ١٢٠ والمغني ٤٦٥/٢ . ويرجح أن يكون شطراً من الرجز هو : (أما ترين أي برق ههنا) .

(٦٥) في المخطوط : أعلمت .

(٦٦) طه ٧/٢٠.

(٦٧) في المخطوط : قصته . والتصويب عن شرح التسهيل — للمرادي الورقة ٦٩ ب .

(٦٨) ابو العباس محمد بن يزيد الثمالي (٢١٠ — ٢٨٢هـ) . كان أمام البصريين في عصره. يراجع : مراتب النحويين ص ٨٣ . أخبار النحويين البصريين ص ٧٢ . الفهرست ص ٥٩٠ . وكتاب : المبرد ، تأليف أحمد حسنين القرني وعبد الحفيظ فرغلي .

(٦٩) في المخطوط : السيرافي .

(٧٠) أبو الحسن علي بن مؤمن بن محمد بن علي الحضرمي (٥٩٧ — ٦٦٣ هـ) . نحوي ، صرفي لغوي ، من تصانيفه : الممتع في التصريف . المقرب . شرح جمل الزجاجي . يراجع : فوات الوفيات ١٨٤/٢ . بغية الوعاة ٢١٠/٢ . شذرات الذهب ٣٣٠/٥ ويراجع أيضاً في المقرب ١٢٠/١ .

(٧١) فراغ في الاصل . وكتب الناسخ فيه كلمة (كذا) .

(٧٢) الانعام ٩٢/٦ و ١٥٥ .

يـارب بيضـاء مــن النـواهـج ام صبـي قـد حبـا او دارج (٧٣)
فعطف (دارجاً) على موضع (قد حبا)،لأنه في موضع جرٍ ، لكونه صفة لـ(صبيء)

ومنها المعطوفة وهي بحسب المعطوف عليه ان كان مرفوعاً او في موضع رفعٍ فهي مرفوعة، وان كان منصوباً او في موضع نصب فهي منصوبة، وان كان مجروراً او في موضع جر فهي مجرورة ، وان كان مجزوماً او في موضع جزم فهي مجزومة ، وان لم يكن لها محل من الاعراب فلا محل لها ، فهذه خمسة احوال . مثال الرفع : جاء رجل ابوه فاضل وأخوه عالم فـ(أبوه فاضل) جملة في موضع رفع لأنها صفة رجل و(أخوه عالم) كذلك ، لأنها معطوفة عليها ، ومثال النصب رأيت رجلا أبوه فاضل وأخوه عالم كذلك ، لأنها معطوفة عليها . ومثال الجزم : ان جاء زيد فانا أكرمه وأنت تحسن اليه ، فقولك (أنا أكرمه) جملة في موضع جزم و(أنت تحسن اليه) معطوفة عليها ، فهي أيضاً في موضع جزم . ومثال المعطوفة على مالا محل لها من الاعراب : زيد قائم وعمرو ذاهب، فان قولك (زيد قائم) جملة مستأنفة لاموضع لها ، وقولك (عمرو ذاهب) جملة معطوفة عليها فلا موضع لها أيضاً ، وكل ذلك واضح لايحتاج إلى بسط الامثلة .

ومنها الجملة المؤكدة ولا تكون الا في التوكيد اللفظي ، فان اكدت ماله موضع من الاعراب فلها موضع ، والا فلا ،مثال الاول: زيد أبوه قائم(أبوه قائم)ومثال الثاني :

.... أتاك أتاك اللاحقون احبس احبس (٧٤)

ومنها الجملة الواقعة بدلا ، فان كان بدلا من معرب ام من شيء له محل من الاعراب فلها محل /١١٩ب/ والا فلا . ومن أمثلة الواقعة بدلا ولها محل قولك : عرفت زيداً أبو من هو على ما سبق بيانه ولا تقع الجملة عطف بيان .

واما الجملة الواقعة جواب أداة شرط جازمة مصدرة بالفاء او بـ(اذا) فانها في موضع جزم . مثال المصدرة بالفاء : (ومن يهن الله فما له من مكرم) (٧٥) فـ(ماله من مكرم)

---

(٧٣) من أرجوزة لجندب بن عمرو ويعرض فيها بامرأة الشماخ بن ضرار ، وهي في ديوان الشماخ ص ٣٦٠ — ٣٦٤ . ويراجع : شرح القصائد السبع — لابن الانباري ص ٣٧ أوضح المسالك ٦١/٣ . شرح التصريح ١٥٢/٢ . شرح الاشموني ١٢٠/٣ .

(٧٤) صدره : (فأين إلى اين النجاة ببغلتي) وقائله مجهول يراجع :. شرح قطر الندى ص ٢٩٠ . أوضح المسالك ٢٤/٢ . ابن عقيل ٢١٤/٢ . شرح التصريح ٣١٨/١ .

(٧٥) الحج ١٨/٢٢ .

جملة في موضع جزم لأنها جواب أداة جازمة . ومثال المصدرة بـ(اذا) أعني الفجائية : «وان تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم اذا هم يقنطون » (٧٦) فـ(اذا هم يقنطون) جملة في موضع جزم . وانما قلت : (جواب أداة) : ليشمل الحرف وغير الحرف . وانما قلت : (جازم) احترازاً من نحو (اذا) (٧٧) و(كيف) و(حيث) و(لما) و(لولا) فانها من ادوات الشرط والتعليق ، ولكنها لاتعمل الجزم ، فليس الجملة الواقعة (بعدها) لها موضع من الاعراب . وانما قلت (مصدرة بالفاء او باذا) احترازاً من المصدرة بالفعل لانها لامحل لها وذلك لان المصدرة بالفعل على قسمين : قسم ظهر فيه الجزم ، نحو : ان تقم أقم معك فالظاهر انه لامحل لها من الاعراب لظهوره في لفظه . وقسم لم يظهر فيه جزم لأنه مبني فهو مقدر في محله . نحو : ان قمت ، جملة (قمت) لامحل لها ، ولكن الفعل وحده مجزوم المحل .

فان قلت : ماالفرق بين الجملة المصدرة بالفاء او (اذا) (٧٨) وبين المصدرة بالفعل الماضي ؟

قلت : المصدرة بالفاء او « اذا » لم تصدر بما يقبل ان يكون مجزوماً لالفظاً ولا محلا . وأما المصدرة بالفعل الماضي فهي مصدرة بما يقبل الجزم محلا ، ولو كان معرباً لقبله لفظاً ، فهي كالأسم المبني ، لما لم يمكن ظهور الاعراب في لفظه حكم على محله بالاعراب ، ويدل على صحة ذلك انه لو حكم على الجملة المصدرة بالفعل الماضي بأنها في موضع جزم لزم ان يكون الفعل الذي في اولها لامحل له (٧٩) ، لان المحكوم على موضعه بالجزم هو مجموع الجملة ،وحينئذ لايصح العطف عليه بالجزم قبل ذكر فاعله لانه لاموضع له [مستقلا ، اذ] (٨٠) الموضع له مع الفاعل . فعلى هذا يمتنع ان قام ويذهب زيد احسن اليه . [على اهمال قام واعمال يذهب في زيد]بل على اعمال (قام) واضمار الفاعل في (يذهب) وهذا من باب التنازع ،وهذا التركيب غير ممتنع / ١٢٠أ / فدل عطف الفعل (٨١) المضارع

(٧٦) الروم ٣٠/٣٦ .

(٧٧) في المخطوط : اذ .

(٧٨) في المخطوط : واذا .

(٧٩) في المخطوط : لها .

(٨٠) فراغ في الاصل . وكتب الناسخ قربه كلمة (كذا) ، وما اثبتناه ملائم للسياق .

(٨١) في المخطوط : الفاعل .

بالجزم على الماضي الواقع [شرطاً] (٨٢) قبل أخذ فاعله أنه مجزوم المحل ، وأن الجملة ليس لها محل من الاعراب ، والله اعلم بالصواب .

وقد فهم مما تقدم ان جملة الشرط ليس لها موضع مجزوم ، بل الفعل الذي صدرّ في محل جزم كما تقرر في جمل الجزاء . وقد جعل بعضهم الجمل الشرطية في موضع جزم اذا لم يظهر فيها الجزم ، وذلك اذا كان فعلها ماضياً ، ولذلك أطلق في جملة الجواب ولم يقيد بأن تكون مصدرة بالفاء او بـ«اذا» .

والظاهر ان جملة الشرط والجزاء في مثل : (ان قام زيد قام عمرو) لاموضع لهما ، ولكن الفعل وحده في موضع جزم . وفي كلام بعضهم ان الواقعة موضع جزم هي الواقعة غير مجزوم (فعلها) جواباً للشرط العامل او عطفت على مجزوم او على ماموضعه جزم ، فلم يذكر الشرطية ولكنه أطلق في الواقعة جواباً . ولهذا أشرت بقولي في الابيات :

وجـــواب شـــــرط جـــازم بالفـــاء او بـ«اذا» وبعـــض قال غير مقيد (٨٣)

فهذا تمام الكلام على الجمل التي لها موضع من الاعراب .

* * * *

واما الجمل التي لامحل لها من الاعراب فتسع ، وهي الابتدائية ، والصلة ، والاعتراضية ، والتفسيرية ، وجواب القسم ، والواقعة بعد ادوات التحضيض ، والواقعة بعد ادوات التعليق غير العاملة ، والواقعة جواباً لها ، والتابعة لما لا موضع له . ويجمعها هذه الابيات وهي تتمة الابيات المتقدمة :

وأتتك تسع ما لها من موضع صلة ومعترض وجملة مبتدي
وجواب اقسام وماقد فسرت في اشهر والخلف غير مبعد
وبعيد تحضيض وبعد معلق لا جازم وجواب ذلك اورد
وكذاك تابعة لشيء ماله من موضع فاحفظه غيرمفند

وأنا أذكرها مفصلة :

أحدها الابتدائية ، فلا محل لها باجماع ، وهي ثلاثة أقسام / ١٢٠ب / مبتدأة لفظا ، نحو زيد قائم أبوه . ومبتدأة نية ، نحو راكباً جاء زيد ، لان الجملة في نية التقديم ، والحال

---

(٨٢) في المخطوط : (جواب الشرط) . وما اثبتناه يلائم السياق .

(٨٣) في المخطوط : غير مفند .

في نية التأخير ، ومبتدأة حكماً وهي الواقعة بعد أدوات المبتدأ ، وهي « ان » وأخواتها اذا كفت بـ«ما» و«اذا »الفجائية و«هل » و«بل » و «لكن »،و«ألا» الاستفتاحية و«أما»،أختها و «ما » النافية غير الحجازية و« بينما » و« حتى »الابتدائية . فالجملة بعدها لاموضع لها من الاعراب .

وذهب الزجاج(٨٤) وابن درستويه (٨٥) (الى) أن الجملة بعد «حتى »في موضع جر بـ«حتى » وذلك خلاف الجمهور (٨٦) . ومثال الجملة بعد « حتى »الابتدائية قول الشاعر :

فما زالت القتلى تمج دماءها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل (٨٧)

ومن ذلك قوله تعالى : (حتى عفوا وقالوا) (٨٨) ونحو ذلك كثير .

وأما الجملة الواقعة صلة فهي أيضاً لامحل لها باتفاق . وهي قسمان : صلة موصول اسمي وصلة موصول حرفي . فالأول (نحو) :جاء الذي أبوه عالم . والثاني نحو : يعجبني أن يذهب زيد ، فـ(أن) مع صلتها في موضع رفع ، لأنها مؤولة بمصدر هو فاعل (يعجبني) و(يذهب زيد) لامحل لها ، لأنها صلة موصول حرفي . وكذلك الجملة الواقعة صلة (ما) المصدرية وغيرها من الحروف المصدرية . ومن ذلك الجملة الواقعة بعد لام (كي)لأنها صلة (أن) المقدرة الناصبة ، فلا موضع لها ، ولكن (أن) مع صلتها في موضع جر بلام (كي) .

وأما الاعتراضية فقال ابن مالك: هي المفيدة تقوية بين جزءي صلة ، نحو : جاء الذي

---

(٨٤) ابراهيم بن السري بن سهل أبو اسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ) يراجع : الفهرست ص ٦٠ نزهة الالباء ص ٢٤٤ . بغية الوعاة ١/٤١١ .

(٨٥) عبدالله بن جعفر بن درستويه (٢٥٨ – ٣٤٧ هـ) صحب المبرد ولقي ابن قتيبة . من مصنفاته : الارشاد في النحو . شرح الفصيح . غريب الحديث ، يراجع : تاريخ بغداد ٩/٤٢٨ . انباه الرواة ٢/١٣ بغية الوعاة ٢/٣٦ .

(٨٦) يراجع : المرتجل – لابن الخشاب ص ٣٤٥ – ٣٤٦ – المغني ٢/٤٣٢ .

(٨٧) البيت لجرير ، ورواية الديوان ص ٤٥٧ (تمور دماؤها) ، ويراجع : شرح المفصل ٨/١٨ ، شرح الالفيه – لابن الناظم ص ٢٦٥ . شرح الكافية – للرضي ٢/٣٢٧ لسان العرب ٢/٢٤ و ١١/٣٥٧ . البحر المحيط ٤/٢٩٤ . الجنى الداني ص ٥٠٤ . المغني ١/١٣٧ و ٢/٤٣٢ . والاشكل: الذي فيه بياض وحمرة .

(٨٨) الأعراف ٧/٥ .

جوده — والكرم (٨٩) زين — مبذول أو اسناد (٩٠) كقوله :

وقـد ادركـتـنـي والـحـوادث جـمـة
أسـنـة قـوم لاضعـاف ولا عـزل (٩١)

او مجازاة (كقوله تعالى): «فان لم تفعلوا — ولن تفعلوا —فاتقوا النار»(٩٢) أو نحو(٩٣) ذلك . ووقوعها بين نعت ومنعوت ، كقوله تعالى : « وانه لقسم — لو تعلمون — عظيم » (٩٤) .

وأما التفسيرية فهي (٩٥) الكاشفة لحقيقة ماتليه مما يفتقر الى ذلك . وتفسر الجملة كثيراً وقد تفسر المفرد (كقوله تعالى) : « كمثل ادم خلقه من تراب » (٩٦) وقوله : « دل أدلكم على تجارة » (٩٧) ثم قال : « تؤمنون بالله ورسوله » .

والمشهور أنه لاموضع لجملة المفسرة من الاعراب . وقال الاستاذ أبو علي : (٩٨) التحقيق أنها على حسب ماتفسره ، فان كان له محل من الاعراب كان لها موضع من الاعراب والا فلا ، فمثل زيداً ضربته لا موضع له من الاعراب . ومثل «انا كل شيء خلقناه بقدر» (٩٩). له موضع من الاعراب، لأن المفسر في موضع خبر(ان) والمفسر في

(٨٩) في المخطوط : والكرام . والتصويب عن شرح التسهيل — للمرادي الورقة ١١٩ أ.
(٩٠) في المخطوط : مستند . والتصويب عن التسهيل — لابن مالك ص ١١٣ .
(٩١) البيت لجورية بن زيد أو لحويرثة بن بدر . يراجع : المغني ٤٣٢/٢ . شرح شواهد المغني ٨٠٧/٢ .
(٩٢) البقرة : ٢٤/٢ .
(٩٣) في المخطوط : ونحو ذلك .
(٩٤) الواقعة : ٥٦ / ٧٦ .
(٩٥) في المخطوط : وهي .
(٩٦) آل عمران ٥٩/٣ : (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) .
(٩٧) الصف ٦١/١٠ — ١١ : (يا ايها الذين امنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون) .
(٩٨) أبو علي عمر بن محمد بن عمر بن عبدالله الازدي الاندلسي الشلوبيني (٥٦٢ — ٦٤٥ هـ) كان امام عصره في العربية . صنف تعليقاً على كتاب سيبويه وشرحين على الجزولية ، وله كتاب التوطئة في النحو . يراجع : انباه الرواة ٣٣٢/٢ . البداية والنهاية ١٧٣/١٣ بغية الوعاة ٢٢٤/٢ . وراجع رأيه في المغني ٤٥٠/٢ . همع الهوامع ٢٤٨/١ .
(٩٩) القمر ٤٩/٥٤ .

موضع رفع . ويدل على ذلك مسألة أبي علي ، وهي : (زيد الخبز آكله) ف (آكله) مفسر للعامل في (الخبز) وله موضع لكونه خبراً عن (زيد) فكذلك مفسره ، وبين ذلك ظهور الرفع في المفسر . وكذلك مسألة الكتاب : ان زيداً تكرمه يكرمك ، ف (تكرمه) . تفسير للعامل في زيد (١٠٠) وقد ظهر الجزم .

فان قلت : على هذا يلزم أن تكون أداة الشرط عملت الجزم في فعلين قبل الجواب وليس الثاني تابعاً للأول .

فالجواب ، قال ابن مالك : ان العامل (١٠١) في مثل هذا لما التزم حذفه وجعل المتأخر عوضاً منه صار نسياً منسياً ، فلم يلزم من نسبة العمل اليه وجود جزمين قبل الجواب ، على أنه لو جمع بينهما على سبيل التوكيد لم يكن في ذلك محذوفاً لايكون مجزوماً من تعليق الذهن بهما وأحدهما غير منطوق به ولا محكوم بجواز النطق به أحق وأولى . انتهى .
وقال غيره : جملة الاعتراض .... (١٠٢) بالمفعول بحيث يكون كالتأكيد أو التنبيه على حال من أحواله .

/ ١٢١ / وجملة الاعتراض (قد تشتبه بالجملة الحالية) (١٠٣) ويميزها من الحالية امتناع قيام مفرد مقامها ، ولذلك كانت لا محل لها . وجواز اقترانها بالفاء و (لن) وحرف التنفيس ، وكونها طلبية كقوله :

إن سليمى — والله يكلؤها — ضنت بشيء ما كان يرزؤها (١٠٤)

وأما الجملة الواقعة بعد القسم فلا محل لها كقوله تعالى : (والعصر . ان الانسان لفي خسر) (١٠٥) فقوله (ان الانسان لفي خسر) جملة لا موضع لها من الاعراب ، وكذلك ما أشبهها . فانها في محل لايحله المفرد .

---

(١٠٠) في المخطوط : في تفسير . والتصويب عن شرح التسهيل — للمرادي الورقة ١١٨ ب .
(١٠١) في المخطوط : ان الحذف .
(١٠٢) فراغ في الاصل . وكتب الناسخ بجانبه كلمة (كذا) .
(١٠٣) في المخطوط : (من تشبيه الجمل الحالية) وهو تحريف . وعبارة المغني ٤١١/٢ : (كثيراً ماتشتبه المعترضة بالحالية ، ويميزها منها أمور) .
(١٠٤) البيت لابراهيم بن هرمة . ديوانه ص ٤٨ .البيان والتبيين ٢١٣/٢ . المغني ٤٣٤/٢و٤٤٢ . شرح الشواهد — للسيوطي ٨٢٦/٢.
(١٠٥) العصر ١/١٠٣

فان قلت /١٢٢ب/قد وقعت الجملة القسمية خبرا للمبتدأ في نحو قوله تعالى : (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) (١٠٦) .

فالجواب أن الذي وقع موقع الخبر هو مجموع الجملتين : جملة القسم وجملة الجواب ، فمجموعهما (١٠٧) في موضع رفع لا الجوابية وحدها . وهذا واضح .

* * * *

وأما الواقعة بعد أدوات التحضيض «هلا » و«الا» و«لولا» و«لوما» فاذا قلت : هلا تنزل عندنا ، فلا محل لهذه الجملة ، لان ادوات التحضيض لاعمل لها. وقد تحذف الجملة بعد أدوات التحضيض ويبقى عمالها (١٠٨) كقوله :

تعدون عقر النيب أفضل مجدكم بني(١٠٩)ضوطرى (لولا) الكمي المقنعا(١١٠)

* * * *

وأما الجملة الواقعة بعد أدوات التعليق غير العاملة فنحو الواقعة بعد «لولا» التي هي لامتناع الشيء لوجود غيره وبعد «لو» الامتناعية وبعد «لما» التي هي حرف وجوب لوجوب على مذهب سيبويه (١١١) . فهذه لامحل لها اذ لاعمل لهذه الاحرف .

وأما الجملة الواقعة جواباً لادوات التعليق غير العاملة فنحو (١١٢) الجملة الواقعة (جواباً) لـ«لولا» و«لو» و«لما» وقد تقدم ذكرها آنفاً .

* * * *

(١٠٦) العنكبوت ٦٩/٢٩.

(١٠٧) في المخطوط : فمجموعها.

(١٠٨) يعني ان الفعل قد يحذف بعد لولا ويبقى معموله. لان ادوات التحضير لاعمل لها. ويراجع : الجنى الداني ص ٥١٢ .

(١٠٩) في المخطوط هي (تصحيف).

(١١٠) البيت منسوب في الأمالي الشجرية ٢١٠/٢ إلى الأشهب بن رميلة .وهو ديوان جرير ص٣٣٨ برواية :

تعدون عقرا النيب أفضل سعيكم بني ضوطرى هلا الكمي المقنعا

ويراجع : الكامل ٣٨٧/١ . تأويل مشكل القرآن ص ٤١١ . الصاحبي ص ١٦٤ . ابن الناظم ص ٢٨٠ شرح الكافية ١٧٧/١و ٣٨٧/٢ . البحر المحيط ١٩٢/٥ .لسان العرب ٤٧٠/١٥ . المغني ٣٠٤/١ .جواهر الأدب ص ٢٣١ . ابن عقيل ٣٩٦/٢ .

(١١١) الكتاب ٣١٢/١ .

(١١٢) في المخطوط : فمجوز .

وأما الجملة بعد «اذا» فقد تقدم الخلاف فيها وكذلك الجملة الواقعة جواباً لـ«حيث» لامحل لها ، لأنها لا تجزم الا مع «ما» .

* * * *

وأما التابعة لما لا موضع له فقد تكون توكيداً لما لا موضع له ، نحو : (قام زيد قام زيد . وقد تكون معطوفة على ما لا موضع له نحو) قام زيد وجاء عمرو . ولا يتأتى ذلك في النعت، لان الجملة الوصفية لها موضع من الاعراب دائماً. ولا تكون الجملة عطف بيان.

* * * *

وقد تم الكلام على الجمل التي لامحل لها من الاعراب على سبيل الاختصار دون الاكثار والكلام على هذه الجمل المذكورة مبسوط في موضعه من كتب العربية ، وهذ القدر كاف ههنا والله سبحانه وتعالى أعلم والحمد لله وحده . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وأزواجه وذريته والتابعين لهم اجمعين وسلم .

......

علقه لنفسه الفقير الى الله تعالى أبو الطيب الحسين بن
الشحنة الشافعي غفر الله له ولوالديه
والمسلمين . وذلك في يوم الاثنين
رابع عشرى جماد (١١٣) الآخرة
سنة ثمان وسبعين
وثمان
مائة

---

(١١٣) كذا في المخطوط ، وصوابه : جمادى

مصادر البحث

١. أخبار النحويين البصريين السيرافي ، تحقيق طه محمد الزيني ومحمد عبد المنعم خفاجي ، القاهره ١٩٥٥ .

٢. الاشباه والنظائر في النحو ، السيوطي ، الطبعة الثانية ١٣٦٠ هـ .

٣. الاغراب في جدل الاعراب ، أبو البركات بن الانباري ، تحقيق سعيد الافغاني ، مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٧ .

٤. الامالي الشجرية ، ابن الشجري ، حيدر آباد الدكن ١٣٤٩ هـ .

٥. انباه الرواة على أنباه النحاة ، القفطي ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٠ وما بعدها .

٦. أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك ، ابن هشام الانصاري ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الخامسة ، بيروت ١٩٦٦ .

٧. البحر المحيط ، أبو حيان النحوي ، القاهرة ١٣١٨ هـ.

٨. البداية والنهاية ، ابن كثير ، بيروت ١٩٦٦ .

٩. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٤ — ١٩٦٥ .

١٠. البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦١ .

١١. تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي ، مطبعة السعادة بمصر ١٩٣١ .

١٢. تأويل مشكل القرآن ، ابن قتيبة ، تحقيق أحمد صقر ، القاهرة ١٩٥٤ .

١٣. تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، ابن مالك ، تحقيق محمد كامل بركات ، القاهرة ١٩٦٨ .

١٤. الجنى الداني في حروف المعاني ، المرادي ، تحقيق طه محسن ، الموصل ١٩٧٦ .

١٥. جواهر الادب في معرفة كلام العرب ، علاء الدين الأربلي ، الطبعة الثانية ، النجف ، ١٩٧٠ .
١٦. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، السيوطي ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٧ .
١٧. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ابن حجر العسقلاني ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٤٩ هـ .
١٨. الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، ابن فرحون ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٣٢٩ هـ .
١٩. ديوان ابراهيم بن هرمة ، تحقيق محمد جبار المعيبد ، النجف ١٩٦٩ .
٢٠. ديوان جرير ، شرح محمد اسماعيل عبد الله الصاوي ، دار الاندلس — بيروت .
٢١. ديوان الشماخ بن ضرار ، تحقيق صلاح الدين الهادي ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .
٢٢. شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ابن العماد ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٩هـ.
٢٣. شرح ألفية ابن مالك ، ابن عقيل ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الرابعة عشرة ١٩٦٤ .
٢٤. شرح ألفية ابن مالك ، ابن الناظم ، بيروت ١٣١٢ هـ.
٢٥. شرح ألفية ابن مالك ، الاشموني (مع حاشية الصبان) دار احياء الكتب العربية .
٢٦. شرح التسهيل ، المرادي ، مخطوطة مصورة في مكتبة الدراسات العليا في جامعة بغداد ، ومخطوطة الاوقاف — بغداد (رقم ١٤٢٦) .
٢٧. شرح التصريح على التوضيح ، ياسين العليمي ، دار احياء الكتب العربية .
٢٨. شرح شواهد المغني ، دمشق ١٩٦٦ .
٢٩. شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، أبو بكر بن الانباري ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٦٩ .
٣٠. شرح قطر الندى وبل الصدى ، ابن هشام الانصاري ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة العاشرة ، القاهرة ١٩٥٩ .
٣١. شرح الكافية ، الرضي الاسترابادي ١٣١٠هـ .

٣٢ . الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها، أحمد بن فارس، تحقيق مصطفى الشويمي بيروت ١٩٦٣ .

٣٣ . طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين السبكي ، القاهرة ١٣٢٤هـ .

٣٤ . عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، ادارة المطبعة المنيرية بمصر .

٣٥ . غاية النهاية في طبقات القراء ، ابن الجزري ، نشره برجستراسر مطبعة السعادة بمصر ١٩٣٢ .

٣٦ . الفهرست، ابن النديم ، مكتبة خياط ، بيروت ١٩٦٤ .

٣٧ . الكامل في اللغة والادب ، المبرد ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة.

٣٨ . الكتاب ، سيبويه ، طبعة بولاق ، ١٣١٦ — ١٣١٧هـ .

٣٩ . الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ... الزمخشري ، بيروت .

٤٠ . كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون . الحاج خليفة ، الطبعة الثانية ، طهران ١٩٦٧ .

٤١ . لسان العرب ، ابن منظور ، بيروت ، ١٩٥٥ .

٤٢ . مراتب النحويين ، ابو الطيب اللغوي ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٥٥ .

٤٣ . مراصد الاطلاع في الامكنة والبقاع ، ابن عبد الحق ، ليدن

٤٤ . المرتجل في شرح الجمل ، لابن الخشاب ، تحقيق : علي حيدر ، دمشق ١٩٧٢ .

٤٥ . معجم الأدباء، ياقوت، الحموي، بعناية مرجليوث الطبعة الثانية، ١٩٢٣ وما بعدها.

٤٦ . معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، بيروت ، ١٩٥٧ .

٤٧ . مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، ابن هشام الأنصاري ، تحقيق الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمدالله ، دمشق ، ١٩٦٤ .

٤٨ . المقرب ، ابن عصفور ، تحقيق : عبد الستار الجواري وعبدالله الجبوري ، بغداد ١٩٧١ و ١٩٧٢ .

٤٩ . منهج السالك في الكلام على الفية ابن مالك، ابو حيان الأندلسي ، تحقيق : سدني جليزر نيوهافن ، ١٩٤٧ .

٥٠ . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ابو المحاسن ، دار الكتب المصرية .
٥١ . نزهة الالباء في طبقات الأدباء ، ابو البركات بن الانباري ، تحقيق : الدكتور ابراهيم السامرائي ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٠ .
٥٢ . نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ... المقري ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت .
٥٣ . همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، السيوطي ، مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٧هـ.
٥٤ . الوافي بالوفيات ، صلاح الدين الصفدي ، بعناية هيرنبرغ وجماعته ، ١٩٤٩ وما بعدها .

55 – Cataloque des manuscrits arabes de la bibliatheque nationale M. Le Baron de slane pairs 1883 – 1895 .

56 – Geschichte der arabischen Literatur, Von, carl Brockelmann, S. II, Leiden 1938.

طه محسن عبد الرحمن

ملامح من رثاء الحيوان *
في الشعر العباسي

الرثاء غرض شعري ، عرفه العرب وجودوا فيه ، ومازال الشعراء يبكون من رحل عن هذه الدنيا إلى الآخرة وهو وثيق الصلة بمشاعر الانسان واحساسه لانه غالباً ما يكون تعبيراً عن لوعة صادقة ، وحسرات حرة ، واحساس قلب حزين . وهو من الاغراض القريبة إلى النفس ، اذ قلما تشوبه الصنعة او التكلف .

وقد احتفظ لنا الادب العربي في عصوره كلها بتراث ضخم من المراثي . ومن ينظر إلى الرثاء في الشعر العباسي يجد كثرة اصنافه، وتشعب دواعيه ، وتنوع اسبابه ، واختلاف طرقه ، بعد ان عرضت للشعر عوارض اثرت في اسلوبه ومعانيه واغراضه .

وليس من شك في ان للحياة الجديدة التي عاشها الشعراء أثراً في هذا التنويع ، ففي هذا العصر زهت الآداب العربية ، ونقلت العلوم الأجنبية ، وتغيرت اساليب العيش ، وبرزت احداث اثرت على الاديب وفتحت عقله ، ووجهت فكره إلى طرق جديدة في التعبير ، فاتسعت أمامه آفاق التفكير في الابداع والابتكار .

وهذه الحضارة الجديدة التي أثرت في نواحي الحياة ومظاهرها المختلفة أثرت في شعر الرثاء تأثيراً واضحاً ، ورأينا الشعراء قد تفننوا في هذا الغرض تفنناً لم يعرفه الشعر من قبل واتجهوا به وجهات جديدة فخرجوا به عن دائرة الأشخاص إلى آفاق اخرى معنوية وحسية(١) وأصبحنا نجد الشعراء ينظمون رثاءهم — إلى جانب تمجيد خصال الانسان الميت — في بكاء الحيوان ، والمدن ، والاسر ، والدول ، والشباب . وربما رثى الشاعر نفسه ، أو عضوا ذهب من جسده ، او حاجة عزيزة كان يمتلكها ، حتى اشتهر شعراء بالاجادة في ضرب واحد من هذه الجوانب .

فراشد بن اسحاق المعروف بأبي حكيمة (هو الذي رثى متاعه بما لم يجرأ أحد بمثله .... وله في هذا الشأن شعر كثير مشهور بأيدي الناس) (٢). وكان ابن حكيمة شديد الفخر بهذا الانفراد اذ يقول : (والله انه لاشريك لي في هذا الفن ، واني تفردت به من دون الخلق) (٣) وابن العلاف النهرواني (ناظم مراثي الهر) (٤) والقاسم بن يوسف اخـــو

---

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري - محمد مصطفى هدارة ص ٤٤١ . ويراجع : العصر العباسي الاول - شوقي ضيف ص ١٧٤-١٧٥ .

(٢) طبقات الشعراء - ابن المعتز ص ٣٩٠-٣٩١ .

(٣) المصدر نفسه ص ٤١٦ . ويراجع : زهر الاداب - للحصري ٢/٦٥٩ .

(٤) تاريخ ابن الوردي ١/٢٦٢ .

أحمد بن يوسف وزير المأمون كان (قد جعل وكده في مدح البهائم ومراثيها ، فاستغرق أكثر شعره في ذلك) (٥) .

وقد لفتت هذه الجوانب الفريدة في دنيا الادب العربي نظري منذ وقت بعيد ، وبدأت اسجل ملاحظات خلال مطالعاتي في كتب الأدب ودواوين الشعراء ، حتى وجدتني أمام مادة لو درست لاستوعبت صفحات فسيحة يضيق عنها مقال في مجلة ، فحدا بي هذا الى الوقوف عند جانب واحد منها ، وفي عصر واحد من عصور الأدب فكان وقوفي عند (رثاء الحيوان في الشعر العباسي) استجلي صوره ، واشير الى اسبابه وما وصل الينا من روائعه وطرائفه ، تاركاً الكلام على ضروب الرثاء الأخرى الى مجال أرحب .

وليس غريباً أن يحتل الحيوان مكانة في أدب العرب ، فلقد اتخذه العربي رفيقاً في حله وترحاله ، وألفه في باديته وحاضرته ، وكان له في هذه الالفة شؤون كثيرة حفلت بها أمهات كتب اللغة والأدب (٦) .

وليس غريباً أيضاً أن تعلو هذه المكانة في الاسلام ، ويشيع ذكر الحيوان ، فلقد أشار القرآن الكريم الى أن عالم الحيوان كعالم الانسان له خصائصه وطبائعه وشعوره (وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم) (٧) كما لفتت الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والفقهاء الى الحيوان المفيد واوصت بحسن معاملته ، والرفق به ، واعطائه حقه من الرعاية والعناية (٨) .

وكان العصر العباسي ، وفيه برزت أسباب دفعت الناس الى الاهتمام بالحيوان ، منها أسباب قديمة تتصل بشؤون الحياة وأساليب العيش ، تلجيء الانسان الى الاستفادة من الحيوان في كسب الرزق ، وقضاء ما يهمه من أمور .

---

(٥) الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ٥٦/٢٠ . ويراجع : أخبار الشعراء ـ للصولي ص ١٦٤ .

(٦) يراجع في الكلام على هذه الكتب : رثاء هر بين شاعر بغدادي ودمشقي ـ للدكتور محسن جمال الدين (مجلة التراث الشعبي ـ العدد ٧/ص ٢٠ / السنة الاولى ١٩٦٤) . طرائف الحيوان في الشعر . الدكتور ناصر الحاني (مجلة الاقلام ج١١ /ص٣/ السنة الاولى ١٩٦٥). كتب الحيوان عندالعرب ـ الدكتور محمد باقر علوان (مجلة المورد المجلد الأول/العدد الثالث والرابع/ ص ٣٤/ سنة ١٩٧٢) .

(٧) الأنعام ٣٨/٦ .

(٨) يراجع : من روائع حضارتنا ـ مصطفى السباعي (بحث الرفق بالحيوان) ص ١٠٦ وما بعدها

ومنها دوافع تربوية تتعلق بروح الشعب وما يحمله من تعاليم تفجر فيه الرحمة والشفقة تجاه هذا المخلوق الأعجم الذي وجد كثيراً من الرعاية في دور متعددة أشبه مـا تكون بالمؤسسات الاجتماعية . وقد وقف شعراء انفسهم للدفاع عن الحيوان (٩) ، كما وقفت أوقاف خاصة لتطبيب الحيوانات المريضة ، وأوقاف لرعي الحيوانات المسنة العاجزة ... ومن أوقاف دمشق وقف للقطط تأكل منه وتنام ، حتى لقد كان يجتمع في دارها المخصصة لها مئات القطط الفارهة السمينة التي يقدم لها الطعام كل يوم وهي مقيمة لاتتحرك الا للرياضة والنزهة (١٠) .

ومنها أسباب حضارية جديدة طارئة تتصل بحياة الترف والاهتمام بوسائل التسلية واللهو، فقد كثرت حدائق الحيوان ، وجلبت اليها الحيوانات من شتى بقاع الدنيا (١١) ، وشاعت رياضة الصيد والقنص (ومال نفر من الادباء والعلماء الى أصناف من الحيوان ... فكانوا يأنسون بها ، ويهشون لها ، ويعطفون عليها ، ويقضون الساعات الطوال معها في مداعبة تسر ، ومناجاة تلذ ، وإكرام يعجب) . (١٢) وشجع ذلك اولو الامر والبارزون في الدولة ،فكانوا يغدقون العطايا على من يجلب حيواناً غريباً ،أو يبشرهم بمولد مثله(١٣) وغالى بعضهم في حبه حيواناً ما ، فبلغ به الحزن منتهاه ، والجزع ذروته لموته ، فيقعد للتعزية فيه ، ويفسح المجال للرثاء وذكر المصاب (١٤) .

ولا غرو أن يخضع الشعر لهذا التطور السريع في الحياة ، بحيث يستوعب تجارب كثيرة عاشها الشعراء مع الحيوان ، وحاولوا أن يضفوا عليها اطاراً فنياً ، زاده اتساعا ما عرف به شعراء العصر العباسي من النزوع الى التجديد ، فتهيأ لهؤلاء أن يسجلوا معاني بديعة فيها سمات انسانية تجاه الحيوان ، فوصلتنا قصائد نادرة اودعها ناظموها رثاء الحيوان .

لقد وجدت طائفة من الشعراء وفاء في الكلاب والقطط دفعهم الى ايثارها وحبها ، فاتخذ بعضهم من الكلاب ندامى ، وجعل آخرون من القطط سماراً ، وفضلوها على

---

(٩) يراجع : الانسان والحيوان -علي أدهم (مجلة الثقافة - العدد ٤٣٩/ص ١١-١٣/١٩٤٧).

(١٠) من روائع حضارتنا ص ١١٣ .

(١١) يراجع : فصول من حضارة بغداد (حدائق الحيوان ببغداد) - الدكتور ناجي معروف (مجلة المورد المجلد الأول العدد الثالث والرابع /ص ٣٧) .

(١٢) أصدقاء الحيوان - صلاح الدين المنجد (مجلة الثقافة - العدد ٣٢٦/ ص ٢١ / سنة ١٩٤٥)

(١٣) المنتظم - ابن الجوزي ٣١٠/٦ .

(١٤) زهر الاداب - الحصري ٩٦٢/٢ .

الأخدان والأصحاب ، وذكروا ذلك في أشعارهم (١٥) . وما ان يرى الشاعر يد المنون وهي تختطف اليفه حتى يعزي نفسه بشعر يعبر فيه عن حبه ووفائه له .

فهذا أبو نواس يرثي كلب صيد لسعته أفعى بارجوزة يبث فيها أساه لفقد سيد الكلاب الذي اغناه عن وسائل الصيد ، وأجزأة عن شراء اللحم بما كان يقدم اليه من لحم طري في صيده الغزلان والظباء العفر ، يقول (١٦) :

يا بؤس كلبي سيد الكلاب	قد كان أغناني عن العقاب
وكان قد اجزى عن القصاب	وعن شراء الجلب الجلاب
ياعين جودي لي على حلاب	من للظباء العفر والذئاب
وكل صقر طالع وثاب	يختطف القطان في الروابي
كالبرق بين النجم والسحاب	كم من غزال لاحق الأقراب
ذي جيئة صعب وذي ذهاب	اشبعني منه من الكباب
خرجت والدنيا إلى تباب	به وكان عدتي ونابي

وينتقل ابو نواس بعد ذلك إلى وصف مقتل الكلب ، فيقول :

فبينما نحن به في الغاب	اذ برزت كالحة الانياب
رقشاء جرداء من الثياب	كأنما تبصر من نقاب
فعلقت عرقوبه بناب	لم ترع لي حقاً ولم تحاب
فخر وانصاعت بلا ارتياب	كأنما تنضح من جراب
لا أبت ان أبت بلا عقاب	حتى تذوقي اوجع العذاب (١٧)

أما القاسم بن يوسف فانه حين يرثي هرة له لاينسى ان يصور ماحل ببيته من خراب ، وما تركه موتها من فراغ في بيته ، فقد اضحى مملوءا بالفئران التي وجدت فرصة سانحة للعب والعبث ، فها هي في الدار صادرة واردة ، تقرض الثياب وتأكل الميرة وتشرب الدهن وتسرق زيت المصابيح ، ولا من رقيب يفزعها ، او مدافع يرد أذاها . ومن المصيبة انها

(١٥) أصدقاء الحيوان ـ صلاح الدين المنجد ص ٢١ .

(١٦) ديوان أبي نواس ص ٦٤٢ . اتجاهات الشعر العربي ص ٤٤٢ .

(١٧) ولأبي الحكم عبيدالله بن المظفر من شعراء القرن السادس الهجري في المغرب مقطوعة في رثاء كلب ذكرها العماد الأصفهاني في (خريدة القصر قسم شعراء المغرب ص ٢٩٨) والاستاذ هلال ناجي في كتابه على الهامش ص ١٩ .

اصبحت اسراباً تملأ البيت ، وتهدد السقف بالسقوط والجدر بالانقضاض ، يقول (١٨) :

وكنا بصحبتها حامدين وكانت بصحبتنا حامدة
فعن لها عارض للردى فأمست بتربتها هامدة
واصبحت الفأر في دورنا أوامن صادرة واردة
تخرب حيطاننا بالنقو ب وتقرض أثوابنا جاهدة
وتأكل من خزن الخازنات اذا هجدت اعين هاجدة
وحرف الرغيف وفضل الصويق وما قطع الجبن بالكاسدة
وتشرب دهن قواريرنا بأذنابها حيل الكائدة
لها في السقوف كعدو الجيا د جاءت لغايتها عامدة
توالدن حتى ملأن البيوت وكن أقل من الواحدة
فلا زرع الله مولودها ولا بارك الله في الوالدة

وعلاقة ابن العلاف النهرواني (ت٣١٨هـ) بهره ورثاؤه له مشهوران في كتب الأدب ، فالمصادر تذكر لنا أنه كان له هر عزيز عليه ، يألف به ، وكان يدخل برج الحمام التي بجيرانه ويأكل افراخها ، وكثر ذلك منه فامسكوه وذبحوه فرثاه بقصائد منها قوله (١٩) :

يارب بيت ربه فيه تضايق مستقره
لما تكاثر فأره وجفاه بعد الوصل هره
وسعى الى برج امرىء فيه الفراخ كما يسره
ظن المنافع أكلها فاذا منافعها تضره

وذاعت من بين قصائده واحدة رددتها كتب الأدب ، وهي تعد من جيد الشعر العباسي في هذا الباب ، أولها (٢٠) :

ياهر فارقتنا ولم تعد وكنت منا بمنزل الولد
وكيف ننفك عن هواك وقد كنت لنا عدة من العدد

وهذه القصيدة طويلة تقع في ثمانية وخمسين بيتاً ، وبها اشتهر ابن العلاف . وتكلم عليها

---

(١٨) أخبار الشعراء (كتاب الاوراق) - للصولي ص ١٧٣ .

(١٩) ديوان ابن العلاف ص ٣٩ .

(٢٠) المصدر نفسه ص ٣٢ ورثى ابن العلاف الهر بقصيدة ثالثة في ديونه ص ٤٤ .

القدامى ، وذهبوا فيها مذاهب شتّى ، فاختلفوا في من هو مقصود بها ، ايكون هراً حقيقة أم أن الشاعر كنى به عمن لايستطيع التصريح باسمه (٢١) ،

واهتم ابن العميد (ت ٣٦٠هـ) بهذه المرثية ، ونسج على منوالها اخرى دعاها (القصيدة الهرية) يقول فيها (٢٢) :

يا هر فارقتنا مفارقة	عمت جميع النفوس بالثكل
لو كان بالحادث لي قبل	اذاً أتاك الصريخ من قبلي
يا مثلا سائراً اذا ذكر الـ	حسن تركت الحسان كالمثل

أما أبو الحسن التهامي (ت٤١٦هـ) فقد رثى بأبيات رقيقة قطه الذي كان يذب عنه الأذى ويؤنسه لوحدته ، ويحرسه كما يحرس الأسد أشباله ولكن عوادي الزمن رمته بسهامها ، وانتزعت من الشاعر أنيسه ، وألقت به في بئر المنون ، يقول (٢٣) :

ولما طواك البين واجتاحك الردى	بكيناك مالم نبك قط على قط
لقد كنت انسي في الفراش لوحدتي	اذا بعدت ذات الوشاحين والقرط
وقد كنت تحمي مايذب من الأذى	بقرب مكان منك اذ كان في شحط
وتحرسني كالليث يحرس شبله	ويقتل من ناداه (٢٤) باللطم والخبط
ولو أدري أن بيرا تقودني	بمهواك فيها لاحتبستك بالربط
ولكن أيدي الحادثات مصيبة	اذا أرسلت سهم المنية لم تخط

وكان لابن الزيات فرس أشهب أحم (٢٥) ، كان عنده مكينا ، وكان به ضنيناً فسعى محمد بن خالد الى المعتصم ، ووصف حسنه ، فبعث المعتصم اليه وأخذه منه ولم يستطع ابن الزيات الا النزول عند رغبة المعتصم ، واعطاه فرسه ، ولكنه لم يمنع شيطان شعره من البكاء على الفرس ، فأتبعه بقصيدة يصف فيها جزعه وجلال رزئه ، وما اجترمه

---

(٢١) نكت الهميان ـ للصفدي ص ١٤٢ .وتنولت القصيدة بالتعليق في مقدمة ديوان ابن العلاف ص ١٥. رثاء هر بين شاعر بغدادي ودمشقي ـ الدكتور محسن جمال الدين(مجلة التراث الشعبي ص ٢٦) . أصدقاء الحيوان ـ صلاح الدين المنجد (مجلة الثقافة ص ٢١) . على الهامش للاستاذ هلال ناجي ص ١٩ .

(٢٢) يتيمة الدهر ـ الثعالبي ١٨٣/٣ .

(٢٣) مالم ينشر من شعر التهامي ـ جليل العطية (مجلة الاقلام ـ ج١/ ص١٦٢ / السنة الثانية ١٩٦٥).

(٢٤) كذا في المطبوع . ولعله عاداه .

(٢٥) الشهب : بياض يصدعه سواد كالشهبة والأحم : الاسود من كل شيء .

الواشي من مباعدة خله عنه بعدما كملت أداته ، وغدا طنان اللجام ، متناسق الأعضاء ، مشرق الطلعة ، يلفت الانظار ، ويروق النظار ويعجبهم ، يقول : (٢٦)

قالوا جزعت فقلت : أن مصيبة جلت رزيتها وضاق المذهب
كيف العزاء وقد مضى لسبيله عنا فودعنا الأحم الأشهب
دب الوشاة فباعدوه وربما بعد الفتى وهو الحبيب الأقرب
لله يوم غدوت فيه ظاعناً وسلبت قربك أي علق أسلب
نفسي مقسمة أقسام فريقها ومضى لطيته فريق يجنب
الآن اذ كملت أداتك كلها ودعا العيون اليك حسن معجب
وغدوت طنان اللجام كانما في كل عضو منك صنج يضرب
وكأن سرجك اذ علاك غمامة وكأنما تحت الغمامة كوكب
أنساك ؟ لازالت اذا منسية نفسي ، ولا برحت بمثلك تنكب

ولقد حظي البرذون باهتمام الشعراء في هذا العصر . وفي كتب الأدب اشارات الى قصائد غير قليلة رثاه بها ناظموها ؟ منها قصيدة أبي الفتح كشاجم (ت ٣٥٠هـ) وفيها يرثي برذوناً كان يخاف عليه طوارق الزمن ، ويحذر أن يصيبه مكروه ، ولكن الأيام لم تتركه يهنأ بزين المواكب الذي يسبق الخيل عادية ، ويشق طريقه في مطمئن الأرض منفلتاً كالزئبق ، وهو كالموج حين يصعد هضبة ، يسر الناظر حين يرى بياض اهابه المشوب بالصفرة ، فكأنه مزنة قد خالطها شعاع الشفق عند الأصيل ، وكأن عينيه الزرقاوين ياقوتتان ، يقول (٢٧) :

طرق الزمان بحادث مملق ان الزمان بمثله يطرق
والمرء يشفق والزمان له عين موكلة بمن يشفق
وأرى العزاء جفاك حين عرا ك الدهر بالمكروه في الأبلق
زين المواكب أمتطيه فيذ جيني ويلحقني ولا يلحق
يمشي وتجري الخيل في سنن فيجيء سابقها ولا يسبق

(٢٦) ديوان ابن الزيات ص ٦ . زهر الاداب ١/٤٧٥ . وفي الأغاني ٢٠/٥٢ أن المرثي برذون . ويراجع : العصر العباسي الاول ص ١٧٥ . وكتاب : محمد بن عبدالملك الزيات لمحمود الهجرسي ص ٤٦ .

(٢٧) ديوان كشاجم ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .

كالموج يسمو ان عاوت به شرفاً وبالوهدات كالزئبق
صافي الأديم يشوب أبيضه من صفرة لمع لها رونق
كالمزنة البيضاء خالطها شفق الغروب فاونها مشرق
وكأنما أهدى لمقلته ال ياقوت من أحجاره الأزرق

ولكن هذه النضارة لاتلبث أن تذبل ، فتتغير بالبرذون الحال ، وتهن قواه ، فيعجز عن النهوض ، ويمحي ذلك الاشراق ، وتعود العينان خافتتين بعد أن تألقتا وتعلق الشاعر بهما ، ولم يجد هو غير الاسترجاع والدعاء عزاء :

وارى صفاتي كلها انعكست فذهبت فيه بمرض محرق
واختل حتى لانهوض به وابيض ذاك المنظر المونق
وتقوضت أركانه فوهت منه دعائم خلقه الموثق
لم يبق الا العين يحجبها ظلم العشا والاذن كالشقشق
فاعتض بيأس منه محتسبا واستخلف الرحمن واسترزق

ويحالف الحظ احياناً بعض الحيوان ، فيكون مكيناً عند أمير أو قائد ويستقر في بيت وزير او خليفة ، فيذكر بعد موته ويأتيه التقدير من قبل صاحبه (٢٨) . وقد نال (برذون أبي عيسى المنجم شهرة بعد مفارقته الحياة ونظمت فيه القصائد الطوال ، التي اطلق عليها (البرذونيات) قيلت امام الصاحب بن عباد وزير البويهيين ، وذلك ان هذا الوزير كان قداهدى إلى ابي عيسى باصبهان برذوناً طالت صحبته له ، فلما مات اوعز الصاحب إلى الندماء المقيمين في جملته ان يعزوا ابا عيسى في مصابه ، فقال كل منهم قصيدة ، وصلنا منها احدى عشرة ذكرها صاحب (يتيمه الدهر) وهي قصائد كان الدافع إلى نظمها مجاملة الصاحب ، وتلبية طلبه ، واغلبها لايمثل صدقاً في الشعور ولا تجربة عاناها الشاعر

---

(٢٨) من ذلك قرد زبيدة وثور ابن قريعة ، قال الحصري في زهر الآداب ٩٦٢/٢ : (ولما مات قرد زبيدة بنت جعفر ساءها ذلك ونالها من الغم ماعرفه الصغير والكبير من خاصتها ، فكتب اليها أبو هارون العبدي : أيتها السيدة .... وكتب أبو اسحاق الصابي عن ابن بقية في أيام وزارته الى أبي بكر بن قريعة يعزيه عن ثور أبيض وجلس للعزاء عنه تراقعا وتحامقاً على المفقود ...) ويبدو أن فداحة الخطب وجلال الرزء أخرسا الشعراء ، واسكتا قوافيهم ، فلم يتمكنوا من التعبير عن آلامهم ، اذ لم يصل الينا نظم في هذين الحدثين .

الا اننا نلمس في بعضها جودة السبك ، وحرارة العاطفة ، وتوفية الغرض المطلوب . وليس من وكدي أن آتي على هذه القصائد ، فقد كفانا الثعالبي مؤونة ذكرها (٢٩) . وحسبي ان اسجل ابياتا نظمها صاحب المصاب أبو عيسى بن المنجم اذ نحس فيها بكاء مراً ، وحسرات حرى على ما اصابه عند فراق من هو اعز من النفس والاهل ، وقد جعله هذا الفراق يصدف عن اللذات ، ويحمل من الوجه والاسى مالو حمله الجبل الاشم . لانهد ، فها هو الشاعر واكف الدمع ، مقروح الجفن محروق الفؤاد .وكيف لا يصيبه ما اصابه وقد فارقه (الفرس السباق في حلبة الوغى) اذا تباطأ فنسيم الصبا ، واذا جد

(٢٩) مطالع هذه القصائد على حسب ورودها في اليتيمة ٣/١٢٩ – ٢٣٢ هي :

أ – مطلع قصيدة أبي القاسم الزعفراني :

كـن مع الدهرفي حمى النعماء مستهيناً بحادث الارزاء

ب – مطلع قصيدة أبي الحسن بن عبدالعزيز الجرجاني :

جل والله مادهاك وعزا فعزاء ان الكريم معزى

ت – مطلع قصيدة أبي القاسم بن أبي العلاء :

عزاء وان كان المصاب جليلا وصبراً وان لم يغن عنك فتيلا

ث – مطلع قصيدة أبي الحسن السلامي :

فدى لك بعد رزئك من ينام ومن يصبو اذا سجع الحمام

ج – مطلع قصيدة أبي محمد الخازن :

لو سامح الدهر أعصما صدعا أو كاسراً فوق مربأ وقعا

ح – مطلع قصيدة أبي سعيد الرستمي

لو اعتب الدهر من يعاتبه ولان للعاذلين جانبه

خ – مطلع قصيدة أبي العباس الضبي :

دعا ناظري يفقد لذيذ اغتماضه وقلبي يستشعر أليم ارتماضه

د – مطلع أرجوزة أبي دلف الخزرجي

دهر على أبنائه وثاب تعجبهم أنيابه الصلاب

ذ – مطلع قصيدة أبي محمد محمود

بكاء على الطرف الذي يسبق الطرفا على ذلك الالف الذي فارق الالفا

ر – مطلع قصيدة بعض أهل نيسابور :

كل نعيم الى نفاد كل قريب الى بعاد

فريح عاتية ، له من الصفات السامية ماتعيي عن العد ، ولا يقف دونها حد يقول : (٣٠)

لقد عظمت عندي المصيبة في الأصداء (٣١) فأبدت لي اللذات من بعده ضدا
وأهدى الي قلبي المصاب بفقده من الحزن ما لو نال يذبل لانهدا
وأصبحت مشغول المدامع بالبكا ولي مهجة تستشعر الحزن والوجدا
ولو كان يغنيني الفداء فديته بنفسي واهلي ، فهو أهل لأن يفدى
ولكنه ابى المنون مبادراً ويااليته لما دعاه الردى ردا
مضى الطرف واستولى على الطرف دمعه وألهب في الاحشاء من حرق وقدا
مضى الفرس السباق في حلبة الوغى فعادت عيون الخيل من بعده رمدا
مواقفه عند الطراد شهيرة تجاوز في اعجازها الوصف والحدا
نسيم الصبا يحكيه في هزل سيره وترهبه ريح الشمال اذا جدا
فقد صار نهبي بين وحش وطائر غداً سيداً فيها وراح لها عبدا

ولم يكن الحمار اقل حظاً من البرذون ، ويبدوا ان كثرة استعماله في المركب والحمل جعلت الفقهاء في هذا العصر يتعرضون لمقدار ما يستطيع حمله في المركب والحمل والزام العامة مراعاة ذلك . ومن الطريف ان بعضهم قدر لكل من البغل والحمار مقداراً لم يرض فقيها آخر ، فعقب على ذلك بقوله : لعمري ان هذا انصاف للبغل واجحاف كبير بالحمار (٣٢) . ومن الطريف أيضاً أن صديقاً للصاحب بن عباد (مات حماره ، فرثى الحمار بأكثر من خمسين قصيدة !!) (٣٣). واشتهر أبو غلالة المخزومي في ذكر حمار طياب (٣٤) وله في وصفه بالضعف والتوجع له من الحسف نيف وعشرون مقطوعة (٣٥) . وكان أبو فلان المدني مبخلا وكان يقرأ على مخلاة حماره وقت القضيم سبع مرات (قل هو الله أحد) ويعلقها على الحمار ، فلم يلبث أن هلك الحمار ، فدفنه وبنى عليه قبة كتب على حائطها (٣٦)

---

(٣٠) يتيمة الدهر ٣/٢٣ .

(٣١) الصدأة : شقرة الى السواد ، صدى الغرس كفرح وكرم وهو أصدأ .

(٣٢) من روائع حضارتنا ص ١١١-١١٢ .

(٣٣) الخبر ورد بهذه الصيغة في كتاب : ادباء بغداديون في الاندلس -للدكتور محسن جمال الدين ص ٢٥ . ولم أقف على مصدره ، ولعل الحيوان المقصود هو (برذون) أبي عيسى الذي سلف ذكره

(٣٤)يضرب به مثلا- كبغلة أبي دلامة - في الضعف وكثرة العيب : يراجع ثمار القلوب - للثعالبي ص ٣٦٦

(٣٥) المصدر السابق ص ٣٦٦ .

(٣٦) أدب الغرباء -أبو الفرج الأصفهاني ، نقلا عن كتاب على الهامش - هلال ناجي ص ١٧ .

ألا ياحماراً كنت للحمر سابقاً فأصبح مصروماً على الشيب في قبر
جزيت مع القت الشعير مغربلا وأسكنك الرحمن في جنة الحمر

ولا يظن أن الحمار يبغي أبعد مما دعا له الشاعر بأن يطعم القت والشعير المغربل . واذا كان طابع هذا الرثاء الدعابة والطرف ، فان من الشعراء من أبدى حرارة الاسى اثر حمار فقده ، استمع إلى ابن عنين الانصاري (ت٦٣٠هـ) يرثي حماراً له مات في الموصل (٣٧)

ليل بأول يوم الحشر متصل
ومقلة أبداً انسانها خضل

وهل الام وقد لاقيت داهية
ينهد لو حملتها بعضها الجبل

ثوى المصاك الذي قد كنت آمله
عوناً وخيب فيه ذلك الامل

لا تبعدن تربة ضمت شمائله
ولا عدا جانبيها العارض الهطل

لقد حوت غير مكسال ولا رعش
ان قيد القيود (٣٨) من دون السرى الكسل

قد كان ان سابقته الريح غادرها
كأن أخمصها بالشوك ينتعل

لا عاجزاً عند حمل المثقلات ولا
(يمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوجل)

---

(٣٧) ديوان ابن عنين ص ١٤٠ . وعلق محققه على الأبيات بقوله : (موضع هذه القصيدة في جميع النسخ في أخريات الرثاء ، وقد رأينا أنها بهذا الباب أجدر) يعني باب الدعابة والتهكم والسخرية . ولا ارى مبررا لهذا التغيير ، فالقصيدة من الرثاء ، وفيها تسوجع واسى ، ولا شيء يدخلها في التهكم ، ولا سيما وأن رثاء الحيوان معروف في ذلك العصر .
يضاف إلى ذلك أن أمانة التحقيق تقتضي طبع المخطوط على حسب التنظيم الذي تركه المؤلف أو وردت به مخطوطة الديوان . وهذه القصيدة أوردها هلال ناجي في كتابه على الهامش ص ٢٠ .

(٣٨) القود : الخيل والأبل .

مكمـل الخلـق رحـب الصدر منفتح الـ
جنبيـن لاضامـر طـاو ولا سغـل (٣٩)
يطـوي عـلى ظمـأ خمسـا أضالعه
في بيضـة الصيـف والرمضاء تشتعل
ويقطـع المقـفـرات الموحشـات اذا
من قطعهـا كلـت المهـريـة البزل
ففـي الأبـاطـح هيـق (٤٠) راعهقنص
وفي الجبـال المنيفـات الـذرى وعـل
لـو كـان يفـدى بمـال ما ضننت به
ولم تصـن دونـه خيـل ولا خـول
لكنـهـا خطـة لا بـد يـبلغهـا
هـذا الـورى كـل مخلـوق لـه أجل

أي مصاب هذا الذي نزل بابن عنين؟ فأطال عليه السهاد ، ومنعه الرقاد ، في ليل لاينقضي إلى يوم القيامة ، وليس الشاعر ملوماً على ما ألم به ، اذ ودع بدمع مدرار لا يجف أمله في الحياة ، وعونه في الملمات ، ودع حماره الذي يرفع عنه الثقل ، ويكفيه المؤونة ، وكان فوق ذلك قوياً غيرخوار ، يسابق الريح اذا سار ، ويقطع ما لا تقدر عليه الخيل الأصائل ، والجمال البوازل ، كمل الله خلقه ، فوسع صدره ، واضمر بطنه فأصبح نشيطاً سريعاً ، يصبر على العطش في أشد أيام الرمضاء حرارة ، جمع خصال الحيوانات ، فهو في البطحاء ظليم شارد ، وفي الجبال وعل ممتنع ، ومن أجل ذلك أصابه سهم المنية المولع بالذخائر ، ولو ينفع شيء لا فتدى به الشاعر :

لكنها خطـة لا بـد يـبلـغهـا هذا الـورى كـل مخلـوق لـه أجـل

وتلفت نظرنا في العصر العباسي ظاهرة الاهتمام بالطير واقتنائه وتربيته ، ؛ فقد ولع به الناس ، وخصصت له أماكن في حدائق الحيوان ، استوعبت مختلف أنواعه . وجعل بعض الوزراء طيوراً لهم في منزلة الولد بحيث كان يهب مالا طائلا لمن يبشره بتفقيس فرخ ، ومنهم الوزير ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨هـ الذي (بشر بأن طائراً بحرياً وقع على طائر بري

(٣٩) السغل : المهزول .
(٤٠) الهيق : الظليم ، وهو ذكر النعام .

فازدوجا وباضا وأفقصا ، فأعطى من بشره بذلك مائه دينار ببشارته) (٤١) .
وليس غريباً أن يأسى هذا الوزير ومن على شاكلته من الناس حين يفقد طائراً محبباً إلى نفسه . وليس غريباً أيضاً أن يبث حزنه في شعر رقيق ان كان شاعراً .
فالقاسم بن يوسف في رثائه لقمري صاحبه زمنا طويلا ، يبدأ قصيدته بهذه النغمة الهادئة من الحكم المعزية للنفس ، فيقول : (٤٢)

هل لامرىء من أمان … من ريب هذا الزمان ؟
أم هل ترى ناجياً … من طوارق الحدثان
ما اثنان يجتمعان … الا سيفترقان
قرين كل قرين … يبين بعد اقتران
والمأزمان ونسرال … سماء والفرقدان
يبلي الجديد الجديدا … ن ثم ما يبليان
كان المطوق خدناً … من أكرم الأخدان
وصاحباً وخليلا … من خالص الخلان
سنين سبعاً وعشراً … مخفورة بشمان

والقصيدة طويلة يصف الشاعر فيها حاله بعد فراق أليفه ، وينتقل إلى وصف القمري : صوته ، ومنطقه ، وهامته ، ونسبه . ثم ينحي باللائمة على من يلومه لحزنه فيقول :

وذي سفاه لحاني … لم يعنه ما عناني
رددته بصغار … وذلة وهوان
يلومني وهو خلو … لم يشجه ما شجاني

(٤١) المنتظم ـابن الجوزي ٢/٦ . وفيه أن ابن مقلة بنى بستاناً على دجلة ، وهو (عدة أجربة شجر بلا نخل عمل به شبكة ابريسم ، وكان يفرخ فيه الطيور التي لاتفرخ لا في الشجر كالقماري والدباسي والهزار والببغ والبلابل والطواويس والقبج ...) . وزاد ابن مسكويه أن ابن مقلة عمل في حائط البستان (بيوتاً تاوي اليها الطيور وتفرخ ، ثم أطلق القماري والدباسي والنوبيات والبلابل والقبج والطواويس والشحارير والزيارب والهزار والببغ والفواخت والطيور التي كانت تجلب من أقصى البلاد من المصوتة ومن المليحة الريش مما لايكسر بعضه بعضاً . فتوالدت وتوارثت منها أجناس مختلفة ، ثم عمد إلى باقي الصحن فطرح فيه الطيور حتى لاتطير ، كالطواويس والحجل والبط وعمل منطقة أقفاص فيها فاخر الطيور ....) . فصول من حضارة بغداد ص ٣٨ .
(٤٢) أخبار الشعراء ـ الصولي ص ١٩٥ .

وبتلك النغمة نفسها ، وبالحكمة المشوبة بالحزن العميق يقدم كشاجم بقصيدته التي رثى بها طاووساً كان معجباً به ، فيقول (٤٣)

بؤسى الليالي عقيبة النعم   وكل ما غبطة إلى ندم
من ساورته الخطوب أقصده الـ   حتف ومن أغفلته لم يرم
وكل ما صحة إلى سقم   كل ما جدة إلى هرم
وللمنايا عين موكلة   بالحي لم تغتمض ولم تنم
وأي عذر لمقلة بعد الـ   طاووس عنها ان لم تفض بدم

وأي طاووس هذا الذي رزئه ؟ انه روضة مزهرة نضرة ، يحكي ذيله الملتف الديباج الموشى وهبه الله تعالى تاجاً يختال به ، فهو يزدجرد العجم في مآثره ، قد أعجب الناظرين وأفرحهم حين مشى مشية العروس أمامهم . يقول :

رزئته روضة ترف ولم   أسمع بروض يمشي على قدم
جثل الذنابي كأن سندسه   سنت عليه موشية العلم
متوجاً خلقة حباه بها   ذو الفطر المعجزات والحكم
كأنه يزدجرد منتصبا   يثني فيعلي مآثر العجم
يطبق أجفانه ويحسر عن   فصين يستصحبان في الظلم
أدل بالحسن فاستذال له   ذيلا من الكبر غير محتشم
ثم مشى مشية العروس فمن   مستطرف معجب ومبتسم

ويجد كشاجم في فقد القمري فاجعة اليمة ، فيرثيه بقصيدة تشعر بشدة وقع المصاب في نفسه ، فيقول : (٤٤)

غدر الزمان وجار في أحكامه   والدهر عين الخائن الغدار
ورزئت أعلاقاً على كريمة   من قبل أن تقضي بها أوطاري
وفجعت بالقمري فجعة ثاكل   ففقدت فيه أمتع السمار
لون الغمامة والغمامة لونه   ومناسب الاقلام بالمنقار
ومطوق من صبغ خلقة ربه   طوقين خالتهما من النوار

---

(٤٣) ديوان كشاجم ص ٤٥٢ .

(٤٤) المصدر نفسه ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .

ولطالمـــا استغنيت في غلس الدجـى — بهـديلـه عن مطـــرب الأوتـار
هـزج الأصائـل يستحـث كؤوسنا — ويقيمـنا للفـرض فـي الأسمار
لهفـي على القمري لهفاً دائمـاً — يـكـوي الحشا بجوى كلـدغ النار
ولقد هجرت الصبر بعد فراقـه — ولقـد مزجت دمـا بدمع جـاري

ولعل من أطرف ماجاءنا من هذا الضرب قصيدة نادرة لأبي الفرج الأصفهاني يرثي ديكاً ويتوجع عليه أشد توجع . فيشكو مرارة ماتحمله من نوائب الزمن المحيطة به ، المترصدة له ، تثكله بكل نسيب وصديق ، وصاحب ورفيق ، حتى أتت على أليف نفسه ، ومؤنس وحشته ، ربيب حجره ، وابن منزله ، وغذي يديه ، لم تسمق شمائله ، وتتكامل صفاته ، حتى أقصدته الأيام بسهم شائك فاتك ، أصابت منه المقتل ، فذوت نضارته ، واختفت غضارته ، وخلف مهموماً يرجع الحسرات حين يقول : (٤٥)

خطـب طرقـت بـه أمـر طـروق — فظ الحلـول علي غيـر شفيـق
فكـأنها نـوب الزمـان محيطـة — بـي راصدات لـي بكـل طـريق
حـتـى متـى تنحـي على صروفها — وتغصـني . فجعاتهـا بالـريـق
ذهبت بكـل مصـاحب ومناسب — ومـوافـق ومـرافق وصـديـق
حـتـى بديـك كنت آلف قربه — حسن إلي مـن الديـوك رشيـق
ورماه منه بحـد سهم شائـك — بذخـائـر المستظهـريـن علـوق
غلبت ضروف الدهـر فيه تخالني — أنـي لريب الدهـر غيـر مطيـق
حـزني عليه دائم مـا غردت — ورق الحمـام ضحى بذروة نيـق
أربيب منزلنـا ونشـو حجورنـا — وغذي أيدينـا نـداء مشـوق
لهفـي عليـك أبا النذير لو أنـه — دفـع المنايا عنـك لهـف شفيـق
وعـلى شمـائـلك اللـواتي مانمت — حـتـى ذوت من بعد حسن سمـوق

وبريشة الرسام البارع يصور لنا الاصفهاني ديكه تصويراً مفصلاً معجباً ، أنه ديك تكامل فيه الجمال من جليل ظاهر ، ودقيق باهر ، وكسي ريشاً متلألئاً يخطف الأبصار لمعانه . وتداخلت فيه ألوان الحمرة والصفرة والخضرة ، حتى يعيى الانسان عن تمييزها ، وإذا خطر يميس بدا وكأنه في برد قد وشته يد صناع بعقيق صاف ، وحبرته

---

(٤٥) تراجع القصيدة في كتاب : (أبو الفرج الأصفهاني) لمحمد عبد الجواد الأصمعي ص ١٤٩ — ١٥٠ ، نقلا عن عيون التواريخ — لابن شاكر الكتبي (مخطوط) .

بقبس من نار ، أو وميض برق ، أو خمرة رائقة قد تألقت في قدح رقيق شفاف . سالفتاه ذهب ذائب وفوق مفرقه تاج من عقيق ، يدفع من لهاه صافية كأنها ناي رقيق ناعم نغماً مؤلفاً من أنغام الموسيقى ، وهو يزقو ويصفق بجناحيه منتشياً طرباً وأصلا النقر بالتصفيق ، يقول (٤٦) :

لما بقعت (٤٧) وصرت علق مضنة — ونشأت نشأ المقبل المرموق
وتكاملت جمل الجمال بأسرها — لك من جليل واضح ودقيق
وكسيت كالطاووس ريشاً لامعاً — متلألئاً ذا رونق وبريق
من حمرة في صفرة في خضرة — تخييلها يغني عن التحقيق
عرض يجل عن القياس وجوهر — لطفت معانيه عن التدقيق
وخطرت ملتحفاً ببرد حبرت — منه بديع الوشي كف أنيق
كالجلنارة أو صفاء عقيقه — أو لمع نار أو وميض بروق
أو قهوة تختال في بلورة — بتألق الترويق والتصفيق (٤٨)
وكأن سالفتيك تبر سائل — وعلى المفارق منك تاج عقيق
وكأن مجرى الصوت منك اذا نبت — وجفت عن الاسماع بح (٤٩) حلوق
ناي دقيق ناعم قرنت به — نغم مؤلفة من الموسيقي
يزقو ويصفق بالجناح كمنتش — وصلت يداه النقر بالتصفيق

والقصيدة طويلة ، وأبياتها التالية لما سبق تجري على هذا النسق ، وقد أثبتها ابن شاكر الكتبي كلها في (عيون التواريخ) وقال أنها من جيد ما قيل في مراثي الحيوان ومن مختار الشعر ، وقد كتبت القصيدة بأسرها ، لجودة وصفها ، واحكام رصفها ، فانها عذبة الالفاظ ، بديعة المعاني ، مطردة الأجزاء ، منسقة القوافي) (٥٠)

ولعل في هذا القدر من الدراسة مايلقي الضوء على (رثاء الحيوان في الشعر العباسي) وعلى أثر الحياة الجديدة في فن الرثاء ، اذ وجهته وجهة لم يكن للشعراء سابق عهد بها على ماأعلم . وأرى أن الشاعر العباسي كان موفقاً في هذا الاتجاه .

---

(٤٦) المصدر السابق ص ١٥٠ — ١٥١ والأبيات ذكرها الاستاذ هلال ناجي في كتابه (علي الحاشي) ص ١٥ — ١٦ على غير الترتيب الذي اوردته ولم يذكر المصدر الذي نقل عنه .

(٤٧) بقع الطير : اختلف لونه ، فهو أبقع .

(٤٨) الترويق : التصفية . وصفق فلان الشراب ، اذا حوله من الماء ليصفو .

(٤٩) بح : جمع أبح من البحة ، وهي خشونة وغلظ في الصوت .

(٥٠) يراجع كتاب (أبو الفرج الأصفهاني) — محمد عبد الجواد الأصمعي ص ١٤٩ .

واذا جاز لنا في نهاية المطاف آن نوازن بين رثاء الانسان ورثاء الحيوان لنتبين جملة من خصائص هذا النمط الجديد ، فاننا سنجد أوجهاً يلتقيان فيها وأوجهاً اخرى فيها يفترقان.

فاذا كان الشاعر — وهو يرثي انساناً — يلتزم ذكر صفاته الخلقية والنفسية ، كالعقل والشجاعة والكرم والعفة والعدل وما يتفرع عنها (٥١) ، ويتجنب في الغالب الصفات الحسية ، فاننا نجده وهو يرثي حيواناً يلتزم العكس ، اذ لم يجد في الحيوان — غالبا — مايعينه على ذكر صفات نفسية له (٥٢) . وكثيراً مانجد الشاعر في رثائه الحيوان يذكر الصفات الحسية من جمال صورة وحسن خلقه وكمال هيئة .

وبينما نجد الصفات التي يسجلها الشاعر في رثاء انسان يمكن أن تتكرر في رثاء غيره ويشترك بها الموتى ، فان صفة ما أو صفات قد يقتصر اطلاقها على جنس واحد من الحيوان دون غيره ، بسبب ماجبل عليه الحيوان الاعجم من القيام بوظيفة معهودة مخصوصة لايتعداها إلى اخرى الا نادراً . فالذي يصف حيواناً بصفات لابد أن يستبدلها بأخرى حين يرثي حيواناً من جنس آ خر .

فقد رأى الشاعر في العنز — مثلا — ضرعيها المشبهين للدلاء وصرتها الدرور وخدها الأسيل ، وأذنها السبطة ، وتمكنها من انتاج اللبن والزبد والجبن الطري .

ورأى في الفرس شقرته وحمحمته وطنين لجامه . وفي البرذون فراهته وصفاء اهابه وجمال عينيه ، وفي الحمار اتساع صدره وانتفاخ جنبيه . وقد تشترك الثلاثة في الصلابة والتمكن من حمل الثقيل والسرعة في السير .

وأعجبة في القمري منقاره وطوقاه وعيناه وتغريده في الليل وهزجه الأصيل ، وفي الطاووس مشيته ولمعانه وتاجه المنتصب على رأسه . وفي الديك سالفتاه وعرفه وصوته حين يزقو ويصيح وهو يصفق بجناحيه وقد تشترك هذه الثلاثة في جمال منظر الريش وتداخل الوانه الزاهية .

ولفت نظره في الكلب شدة عدوه وتمكنه من صيد الغزلان والظباء والطيور . وفي الهرة أنسها وحراستها الدار وصاحبه من العقارب والحيات وهوام الليل ، ومن الفأر الذي يعثو في الدار مفسداً .

---

(٥١) يراجع : نقد الشعر — قدامة بن جعفر ص ١١١ (نعت المراثي) .

(٥٢) وصف الحيوان أحياناً بالصبر والوفاء . وندر وصفه بالشجاعة من ذلك وصف القاسم بن يوسف عنزة بالعفة والحياء والأنفة (يراجع : أخبار الشعراء ص ١٧٥) .

وقد أكثر الشعراء في رثائهم لما ذكرنا من الحكمة والوعظ وذكر القدر وحتميته وذكر الايام . ولعلهم وجدوا في هذه المعاني تعويضا لهم عن الصفات النفسية للهالك حين افتقدوها في الحيوان ، مع قلة الصفات الحسية الاخرى فيه .

واذا نظرنا الى مطالع القصائد نجدها متقاربة في لوني الرثاء ، اذ بدأ قسم من الشعراء قصائدهم في رثاء الحيوان بالبكاء ، واستدرار الدمع ، والتنبيه على عظم المصاب وفداحة الخطب والشكوى والجزع . وبدأها آخرون بالحكمة والتعزية . وباشر قسم ثالث القصائد بذكر الدهر وعواديه والأيام وغدرها والزمان ونوائبه ، وكل هذا يصلح مطلعاً في رثاء الانسان ، الا أننا قد نشعر من مطلع القصيدة — أحياناً — انها في رثاء حيوان ، وذلك حين ينادي الشاعر الهالك بقوله (ياهر فارقتنا ...) (الا ياحمارا كنت ...) وحين يخاطب الميت فيقول (بكيناك مالم نبك قط على قط) .

ولاينسى الشاعر — وهو يرثي حيواناً — أن يدعو له بعد الموت بما يدعو للانسان من انهلال القطر ، وانسكاب الغيث ، ونزول البركة على القبر كقول ابن عنين في رثاء حماره (٥٣) .

لاتبعدن تـــربة ضمـــــت شمـــــائلـــــه ولاعدا جـــانبيها العارض الهطل

وقول القاسم بن يوسف وهو يرثي ماسماه بملك الطير (٥٤) .

ياابا ســـــــعد فـــــــلا تبـــعد وان شط المــــزار

وسقـــى حفـــــرتـــــاك الـ غيـــــث وجـــادتهـــا القطار

---

(٥٣) ديوان ابن عنين ص ١٤١ .

(٥٤) أخبار الشعراء — الصولي ص ١٧٧ . ويكرر هذا المعنى في رثاء عنز ص١٥٦ .

مصادر البحث

١ — أبو الفرج الأصفهاني وكتاب الأغاني ، محمد عبد الجواد الأصمعي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٥١

٢ — اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، الدكتور محمد مصطفى هدارة دار المعارف بمصر ١٩٦٣

٣ — أخبار الشعراء (كتاب الأوراق) ، الصولي ، تحقيق : ج . هيوارث دن

٤ — أدباء بغداديون في الاندلس ، الدكتور محسن جمال الدين ، بغداد ١٩٦٣ —.

٥ — أصدقاء الحيوان ، صلاح الدين المنجد (مجلة الثقافة / العدد ٣٢٦ / سنة ١٩٤٥)

٦ — الأغاني ، ابو الفرج الأصفهاني ، مطبعة التقدم بمصر .

٧ — الانسان والحيوان ، علي أدهم (مجلة الثقافة / العدد ٤٣٩ / سنة ١٩٤٧)

٨ — ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ،أبو منصور الثعالبي ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط — نهضة مصر ١٩٦٥ .

٩ — خريدة القصر وجريدة العصر ، العماد الاصفهاني (قسم شعراء المغرب) تحقيق محمد المرزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى ، الدار التونسية ١٩٦٦ .

١٠ — ديوان ابن العلاف ، جمع وتحقيق صبيح رديف ، بغداد ١٩٧٤.

١١ — ديوان ابن عنين ، تحقيق خليل مردم بك ، دمشق ١٩٤٦.

١٢ — ديوان أبي نواس ، تحقيق احمد عبد المجيد الغزالي ، دار الكتاب العربي — بيروت

١٣ — ديوان كشاجم ، تحقيق خيرية محمد محفوظ ، بغداد ١٩٧٠

١٤ — رثاء هر بين شاعر بغدادي ودمشقي ، الدكتور محسن جمال الدين (مجلة التراث الشعبي / العدد السابع / السنة الاولى ١٩٦٤) .

١٥ — زهر الاداب وثمر الألباب ، الحصري القيرواني ، تحقيق علي محمد البجاوي دار احياء الكتب العربية ، الطبعة الثانية ١٩٦٩

١٦ — طبقات الشعراء ، ابن المعتز ، تحقيق عبد الستار فراج ، دار المعارف بمصر ١٩٥٦

١٧ — العصر العباسي الأول ، الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ١٩٧٢ .

١٨ — على الهامش ، هلال ناجي ، بغداد ١٩٧٥ .

١٩ — فصول من حضارة بغداد ، الدكتور ناجي معروف ، (مجلة المورد / المجلد الأول العدد الثالث والرابع / سنة ١٩٧٢).
٢٠ — فهرسة مارواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة ... ابن خير الاشبيلي ، سرقسطة ١٨٩٣ (طبعة مصورة) .
٢١ — مالم ينشر من شعر التهامي ، جليل العطية (مجلة الأقلام / الجزء الأول / السنة الثانية ١٩٦٥) .
٢٢ — محمد بن عبد الملك الزيات ، محمود الهجرسي (سلسلة أعلام العرب ٤٦) القاهرة
٢٣ — المنتظم ، ابن الجوزي ، حيدر آباد الدكن ١٣٥٧هـ .
٢٤ — من روائع حضارتنا ، الدكتور مصطفى السباعي ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٦٨
٢٥ — نقد الشعر ، قدامه بن جعفر ، تحقيق كمال مصطفى ، القاهرة ١٩٦٣.
٢٦ — نكت الهميان في نكت العميان ، الصفدي ، المطبعة الجمالية بمصر ١٩١١ .
٢٧ — يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، ابو منصور الثعالبي ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد.

عبد الوهاب العدواني

لامية المرتضى الشهرزوري

* نص من شعر العلماء والمتصوفة

* **التقديم :**

اشتدي أزمـــة تنفـرجـي قـــد آذن صبحـــك بالبلـج

هذا البيت مطلع لقصيدة عرفت في تراثنا الادبي : (المنفرجة)، نظمها أبو الفضل يوسف إبن محمد المعروف بابن النحوي (ت ٥١٣ هـ)، وشك العلماء في نسبتها اليه (١). ويبدو لي انهم قد ضنوا بها عليه لما فيها من صياغة فنية لاتلائم وضعه العلمي، الذي يحول دون الاطمئنان إلى نسبة قصيدة ممتازة إلى مثله من الفئة غير الشاعرة، وهذا مدخل أريد به الوصول إلى موقف النقاد من شعر العلماء عامة ، وأنا أتجرد لدراسة قصيدة لأحدهم. وقد ذكر ابن خلدون أن مذاكرة جرت بين رجلين بارزين من رجال الدولة المرينية (٢)، أنشد فيها أحدهما قول ابن النحوي :

لم أدر حيـــن وقـفــت بـالاطلال مـا الفـرق بيـن جديدها والبالي ؟

وأغفل نسبته اليه، فبادر الآخر بالقول : « هذا شعر فقيه »، وقد رأى فيه : (ماالفرق) عبارة فقهية، ليست من أساليب كلام العرب (٣)، وهذا هو المدخل الثاني إلى موقف النقاد أيضاً من ذلك الشعر الغزير الذي امتلأت به كتب الأدب والتاريخ والمحاضرات، غير معزو إلى هذا أو ذاك من الشعراء المشهورين الذين أخذوا علينا أطراف دراستنا الادبية، بشكل كامل أو يكاد، ولو نسب إلى أحدهم لحظي من الاهتمام بأوفى نصيب عند من يقع تحت تأثير البريق وانحراف المقولات النقدية التي نسبت شعراءنا إلى طبقات، وخصت الطبقات بعصور أدبية، تتفاوت أقدارها وتختلف طبائع الادب والفن فيها اختلافات واضحة.

وربما كان أبو العباس أحمد بن شعيب الجزنائي (٤)(ت ٤٧٩ هـ) كاتب السلطان أبي الحسن المريني من السابقين إلى شق هذا المنهج النقدي المسرف في تعليقته على البيت المذكور، وكثيراً ما يتوسع النقاد فلا يعترفون لعالم — أياً كان — بمكانة في دائرة الشعر، بعد أن تطامنت أذواقهم إلى الهجرة عن نمط ما يقوله أمثال ابن النحوي من الشعر السوي السليم، وهم يصدرون في موقفهم هذا عن التشبث بمقولة نقدية خلقوها، ثم تحنثوا في محرابها تقديساً لها أو شفقة منها أو حرصاً عليها، والفن في واقع أمره — كما أفهمه — وجه من وجوه

---

(١) الزركلي الاعلام ٩/ ٣٢٦

(٢) دولة حكم رجالها في مدينة فاس المغربية بين سنتي (٥٩٢ — ٨٣١هـ)، ينظر : زامباور : معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التأريخ الاسلامي / ١٢٢ — ١٢٣.

(٣) ابن خلدون : المقدمة / ٥٧٩، وينظر : زكي مبارك : الموازنة بين الشعراء / ١٩

(٤) تنظر : مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق. الأعداد الصادرة بين سنتي : (١٩٦٤ — ٦٨).

الحرية ، لايرضى بقاعدة ثابتة من الحكم ، ولا بهيكل متجمد من القياس ، ولا بصورة متفردة من السبر والتفسير ، وهذه الامور لاتلائم الأسس الفنية والجمالية التي يذهب كل شاعر منها بطرف ، وقلما نجد أطراف الفن وعناصر الابداع كلها مجتمعة في ملكة شاعر معين ، لانها ستجعله — لامحالة — مخلوقاً مثالياً ، وستجعل أدبه نموذجاً عالياً الى حد الاعجاز ، وفي هذا التصور من الاسراف والغلو مالايقبل . وعند الربط بين أسس التربية والتمثل النقدي نصل الى مسألة القوة والضعف في النتاج الأدبي ، وما بينهما من مسالك الابداع والتقليد ومنازع الفن والتواء مداخله ومخارجه ، والشعراء بعد هذا علامات على جوانب خط العبقرية ، يستوي منهم في ذلك الشاعر والعالم والمقل والمكثر ، وفي سبيل تحقيق الذات — كما يقول المعاصرون — تتفاوت القيم ، وتتضح المعالم ، وتدق الفروق ، وتتمايز المذاهب ، فلست أرى مبرراً للتفريق بين العالم والشاعر مطلقاً ، فأذهب — كما ذهب بعض النقاد — الى ان شعر العلماء مثل مضروب لكل أدب ساقط من مراتب الجودة ، فأجانب المنطق وأبعد كثيراً عن الكياسة العلمية المتوخاة في الدرس المتزن .

وفي دراسة مفصلة كتبها الأستاذ عبدالله كنون حول : (أدب الفقهاء) (٥) يتمثل لنا موقف نقدي واضح ازاء هذا النوع من الأدب ، موقف يقوم على الفحص المباشر والدرس الداخلي للنصوص ، استوعب أقطار المشكلة ، بعد أن رأى أدب هؤلاء بعيداً عن دائرة اهتمام المؤرخين ، مزوياً لاتتاح له الفرصة للمشاركة في تشكيل الصورة الأدبية للأمة ، وكأن العلماء ليسوا فئة منتجة فيها ، وكأن مقولاتهم غير جديرة بدراسات تفصيلية ، تضع الحقوق في انصبتها الواجبة ، وتتناول موضوعات هذا الأدب وأغراضه بالدرس والتحليل ، وهي موزعة بين شعر العاطفة والوجدان والفلسفة والأخلاق والآداب والمدح والهجاء والرثاء والسير والملاحم والنظم التعليمي في جملة فنون أخرى من شأنها أن تحظى بما حظي به أدب المشهورين في مختلف عصورهم وطبقاتهم ، لأن الشعر بداهة سلوك فكري عام ، لايمكن قصره على فئة معينة من الناس دون أخرى ، والمفاضلة بين النماذج البشرية التي تمارسه في حقيقة الأمر نتيجة من نتائج الدربة الطويلة أو الصادقة لهذا النوع الأدبي ، تعمق وتتأصل حتى تصير قدرة فاعلة مستمرة العطاء جيدة الانتاج قادرة عليه ، فاذا صح هذا لم تعد الشهرة ذات قيمة في تصنيف الناس الى شاعر وعالمٍ ، اذا كنا نفهم الشعر باعتباره صورة الوجود وأثراً من آثار حرارته وديمومته ، والشاعر والعالم معاً يتمتعان بهذا الامتياز

(٥) أدب الفقهاء ، مجلة : المجمع العلمي العربي مج ٣٩ — ج٣/٥٥٦ ومابعدها ، مج ٤٠ — ج٢/ ٣٧٥ ومابعدها . مج ٤١ — ج٢ / ٢٦ ومابعدها .

بحكم الانسانية المطلقة ، والتفريق بينهما فصل بين أجناس من الفكر لن تقوم الأدلة على الفصل بينها بشكل قاطع ، وبين أعيننا آثار أبي العلاء المعري أدلة على تداخل العالم والشاعر ، وأمثاله في هذا العصر كثيرون ، لعل من أقربهم الى الذهن الدكتور أحمد زكي أبو شادي ، والدكتور ابراهيم ناجي ، والمهندس علي محمود طه ، وقراءة مستأنية ، في كتاب المقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ) : (نفح الطيب) تقدم الدليل تلو الدليل على شاعرية كثير من العلماء ، وان كان عبدالله كنون قد وضع بين أيدينا أسماء طائفة كبيرة من أهل الشعر والعلم (٥) ، ابتداءً بالامام علي – رضي الله عنه – وعروة بن أذينة ، ومالك بن أنس ، والامام الشافعي ، ومنصور الفقيه ، والمعافى بن زكريا ، ومحمد بن داؤد الظاهري ، وابن حزم ، والقاضي عياض ، وابن دريد ، والزمخشري ، وأبي حيان الأندلسي النحوي ، والفيلسوف الكندي ، وأبي بكر بن زهر الطبيب ، والجغرافي الشريف الأدريسي ، وآخرين استدل بنماذجهم على كل ماعرضته دقائق موقفه النقدي المتثبت من أدب الفقهاء ، وانتهى الى القول بأنه : « أدب حي معبر لايقصر عن أدب غيرهم ممن ليسوا فقهاء ، وان التهمة التي توجه اليه بالضعف والتخلف باطلة ، فيها كثير من التجني والظلم لهذا الأدب والمنتجين له » (٦) من الذين يقف بعضهم في صف كبار الادباء والشعراء (٧) . ورأيه من خلال النماذج التي اوردها انها : تنفي عن العلماء التهمة المشار اليها ، وتكم أفواه المتقولين عليهم المتندرين بكلمة : (هذا شعر فقيه) ، وقد تبين له أنها من الكلم الملقاة على العواهن بدون نظر ولا تفكير (٨) ، غير أنه لاينفي أن يكون لبعضهم من الشعر مالا يجري على غرار مااختاره من نماذج استدلاله الرفيعة ، وهو شعر لابد من وجوده بطبيعة الحال ، صادراً عن ضعاف الفقهاء ، وجملة هؤلاء شيء قليل بالنسبة الى الكثير الطيب الذي أورد منه اضمامة زاهية ، وعصارة جهده وخلاصة فكرنا نحن أيضاً : ان اطلاق الكلام الى حد ارسال المثل بضعف أدب العلماء لايوافق الحقيقة (٩) ، وسنقدم نصاً واحداً في تحقيق مارأى ورأينا معه .

---

(٦) م . ن مج ٤٣ – ج٤/٧٤٠ .
(٧) م . ن مج ٤١ – ج ٣ / ٥٩
(٨) م . ن مج ٤٢ – ج ٣ / ٣٩٩ .ج٤ / ٦٨٩ .
(٩) م . ن مج ٤٣ – ج ٤ / ٧٤٢ .

الدراسة :

في سنة (٥٢١هـ) على الراجح توفي بالموصل عالم كبير من علماء العراق الشمالي وبلاد الشام هو : القاضي المرتضى أبو محمد عبدالله بن القاسم بن المظفر الشهر زوري ، أحد أفراد عائلة مرموقة من العلماء ، خصها العماد الأصفهاني بفصل من كتابه (خريدة القصر ، قسم : الشام ٢ / ٣٠٨ – ٣٤٤) ، ذكر فيه :

– القاضي المرتضى : صاحب القصيدة التي نتمثلها في هذه الدراسة ..
– أبابكر محمد بن القاسم قاضي خانقين .
– ولده الأول : كمال الدين أبا الفضل محمد بن عبدالله قاضي قضاة الشام .
– ولده الثاني : تاج الدين يحيى .
– حفيده الأول : محيي الدين أبا حامد محمد بن محمد قاضي حلب .
– حفيده الثاني : ضياء للدين أبا الفضائل القاسم بن محمد .

وقد ذكرهم العماد في معلمته الكبيرة ، حين رأى أدبهم – شعراً ونثراً – يجعل ايرادهم فيها أمراً لاغبار عليه ، وقد فاته من أدبهم ذلك المستظرف أشياء أخرى ، يمكن أن نتسقطها من هنا وهناك في بطون أدبياتنا وتواريخنا ، منها مثلا قول المرتضى :

يا ليل ماجئتكم زائراً الا وجدت الأرض تطوى لي
ولا ثنيت العزم عن بابكم الا تعثرت بأذيالي (١٠)

وسأتخذ من هذين البيتين فاتحة للحديث عن اللامية الشهرزورية التي كان صاحبها أكثر أهل عائلته حظاً من عناية العماد ، ذكر له شعراً كثيراً غير هذين ، ووصف شعره جملة بأنه : «راق ورق ومعناه جل ودق(١١) » ، وقال الصلاح الصفدي : « كان واعظاً رشيقاً أديباً شاعراً (١٢) .... وغالب شعره من باب الوعظ والتذكير والأشعار الربانية (١٣) وثمة أناس اشتهروا بقصيدة واحدة أو اشتهرت لهم قصيدة واحدة جعلتهم في عداد الشعراء ، سواء كان لهم غيرها أم لم يكن (١٤) رصفهم نعمان ماهر الكنعاني في كتاب له بعنوان :

---

(١٠) ابن خلكان : وفيات الأعيان ٣/ ٥٢ ، ابن العماد : شذرات الذهب ٤/ ١٢٤ ، العباس ابن علي الحسيني المكي . :نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس ٦١٣/٢ .

(١١) العماد الأصفهاني : خريدة القصر ،ق :الشام ٢/ ٣٠٨ .وينظر :عمر فروخ : التصوف في الاسلام / ١١٥ .

(١٢) الصفدي : الوافي بالوفيات .مصور مج ١٥ /اللوحة ٩٩ ب .

(١٣) م .ن ١٥/ ١٠٠ أ .

(١٤) الكنعاني : شعراء الواحدة / ٥ .

(شعراء الواحدة) ، وعد المرتضى واحداً منهم (١٥) ، وأورد لاميته التي اشتهر بها في عصره ، ووجدناها أثراً أدبياً مهماً ، له أن يأخذ من العناية حظه الأوفى ، وبالتخصيص لانرى فيه مايجعله أقل مستوى من لاميتين ، ذاعتا في العصر الوسيط للطغرائي وابن الوردي ، وليس لنا أن نرفعه الى مستوى لاميتين قديمتين لكعب بن زهير والشنفرى وبين هاتين المنزلتين نجد الشهرزورية تستأثر بعنايتنا ، ونحن أحوج مانكون اليوم الى اعادة النظر في معاييرنا النقدية ومواقفنا الوصفية والتحليلية من نصوص أدبنا العربي القديم .

روى ابن خلكان لامية الشهرزوري ، وقال : « وانما أثبت هذه القصيدة كاملة ، لأنها قليلة الوجود وهي مطاوبة » (١٦) ، وأوردها من بعده العاملي (١٧) والعباس بن علي الحسيني الموسوي المكي (١٨) والسيد محمود أبو الفيض المنوفي (١٩) والكنعاني (٢٠) ، ولم أجدها بتمامها عند غير هؤلاء ، والشاعر – صدوراً عن تصوره الصوفي – يصف فيها رحلة له في عالم الغيب طلباً للحقيقة (٢١) التي يبحث عنها المتصوفة وأرباب الفكر ، كما يتمثل لنا من مجمل التراث العقلي عند المسلمين ولا يقتصر ذلك على نصوص أدبهم العربي ، بل يتعداه الى آدابهم الاسلامية الأخرى ، التي يعنى بها دارسو الأدب الاسلامي المقارن في لغاته وشخوصه وطبقاته وعصوره كافة ، فهذه القصيدة مثلا تصلح نظيراً في الفحص والتذوق لمقولات عبدالرحمن الجامي (٢٢) صلاحها للمقارنة بآثار ابن الفارض وابن عربي وعبدالغني النابلسي من حيث طبيعة الفكر الذي انبعثت عنه آثار هؤلاء جميعاً ، وان كانت الفروق الفنية تلعب دوراً بارزاً في التصنيف الأدبي والموضوعي لهذه الآثار ، ونحن – فيما أقدر – لانلمس في نص هذه القصيدة غير الاجادة في الاطراد ، والاجادة في الوصف ، والاجادة في السبك على حد ماقاله الكنعاني (٢٣) ، ومن المهم الوقوف عليها ، لأنها من

(١٥) م .ن / ٧٧ .
(١٦) الوفيات ٥١/٣ .
(١٧) الكشكول ١/ ٢٣٢ – ٢٣٣ .
(١٨) نزهة الجليس ومنية الأديب الأنيس ٦١٠/٢ – ٦١٢ ،ونسبها إلى السهروردي شاكاً في ذلك.
(١٩) التمكين في شرح منازل السائرين / ٢٧٧ – ٢٧٩ ، بتحريف واضح
(٢٠) شعراء الواحدة /٧٧
(٢١) أدب الفقهاء .مجلة :المجمع العلمي بدمشق مج ٤١ –ج٢/ ٢٥٥
(٢٢) عبدالرحمن بن أحمد الشيرازي .شارح كافية بن الحاجب في النحو، كان عالماً مشاركاًفي العلوم العقلية والنقلية . توفي سنة ٨٩٨هـ ،ينظر :معجم المؤلفين ١٢٢/٥ ،التصوف في الاسلام / ١٣١ .
(٢٣) شعراء الواحدة / ٧٧ .

عيون الشعر الرمزي في العربية (٢٤)، شأنها في ذلك شأن أغلب مابين أيدينا من الشعر الصوفي، ودخول الرمز فيها اضافة إلى الخيال التصويري مسألة، جعلت منها عملا فنياً نادراً، ترددت كلماته بين الألسنة والأسماع في عصرها وبعده، وتهيأت لها رواية ابن خلكان لتحفظها من الضياع، وبديهي أن يشير إلى جريانها على طريقة الصوفية التي تسترعي نظره ونظر معاصريه ومن تلاهم من نقلة الشعر التقليديين، وربما كان لموضوعها وجوهر الفكر والمادة فيها أثر في انزوائها أو التنحي عنها من قبل كثير من هؤلاء، لشيء في العقلانية والفلسفة يبعدهم عن أمثالها من النصوص. بين عازف عنها او عائذ منها بوجه او بآخر.

وبعد زمن بعيد عن عصر هذه القصيدة، وحدوث مناهج جديدة في النقد، واستقرار أسس في معالجة النصوص، لم يعد الدرس الأدبي نقلا للنص وسوقاً لأشباهه ونظائره، بل ان لنا أن نقيم هذه القصيدة في اعيننا مقاماً جديداً، يستشرفها من الأعلى، وينظر اليها نظرات، تتوزع في فكرها وصورها وألفاظها ونسيجها العام خلوصا إلى حكم نقدي ذي طبيعة موضوعية محكمة، لانرضى له أن يكون تأثرياً أو انطباعياً كالنقد الذي تعج به الكتابات الصحفية المعاصرة، لايثري عقلا ولا يقرب نصاً على نحو علمي واضح.

لقد اوردت فيما تقدم بيتين للشهرزوري من غير اللامية، توفر فيهما خطاب (ليلى) وعاطفة عهدناها في كلام الغزليين من شعراء العربية، ولكن خطاب الصوفية لايقف عند حد الدلالة المباشرة لهذا الفعل، بل ان وراءه منزعاً ذاتياً وفكرياً خاصاً، فليلى المناداة ليست أكثر من تجريد شعوري جاء على غير صورته عند العذريين ومن اليهم من شعراء اللوعة، وهي ليست تلك الغادة الحسناء التي ملكت على مجنون بني عامر قلبه، واستحوذت على شعره. كما انها ليست ليلى معشوقة هذا او ذاك من شعراء داؤد الانطاكي في كتابه: (تزيين الأسواق)، الصورة الانسانية الحية بملامحها النابضة وقسماتها. بل انها رمز أومأت به المتصوفة إلى الحقيقة الكبرى والذات الالهية وإلى معنى الوجود وغايته، حتى أصبحت عندهم صورة للعشق الاسمى، حين يبلغ احدهم ارقى درجات السمو الروحي وأسناها، عندئذ يتحد العاشق بالمشوق فيما يعرف عندهم بـ (مرتبة الحلول) (٢٥) وشراح اصطلاحاتهم — كأبي الغنائم عبد الرزاق بن جمال الدين الكاشي ت ٩٣٠ هـ يفسرون هذا الاتحاد بأن كل الموجودات متحدة بالوجود الحق الواحد المطلق حقيقة، لانها موجودة به معدومة بنفسها (٢٦)، لان الله عز وجل هو الوجود الحقيقي الظاهر

(٢٤) أدب الفقهاء مج ٤١ — ج ٢ / ٢٥٦.
(٢٥) فاروق شوشة: لغتنا الجميلة / ١٩٣.
(٢٦) الكاشي: شرح اصطلاحات الصوفية، مخطوط في خزانتنا / الورقة ٢ و.

في كل مظهر من مظاهر الخلق ،المتجلي في صورة الصوفي عند فنائه عن نفسه في حالة وجده (٢٧) وبعبارة اخرى ان الله يتجلى في العالم في صور مادية وروحية مختلفة ، فكل نوع من العبادة تجد الله وراءه، وكل شكل من اشكال الحب يقصد به الله، وكل مظهر طبيعي يمثل صفة من صفات الألوهية (٢٨)، وقد جاء الشعر الصوفي المعبر عن هذه النظرات ضرباً من الغزل وغناء بالجمال وحنيناً اليه يتعذر معه التمييز بينه وبين كلام الغزلين من الشعراء لاتفاق في التعابير والرموز والاشارات والتصريح باسماء المعشوقات احياناً (٢٩) . حتى عد بعض الباحثين الحب الصوفي تطوراً للحب البشري الذي تدور صوره الشعرية وجل معانيه على نعت المرأة والحديث عنها من حيث صفاتها الخلقية وخصالها الخلقية من جهة،وفي ذكرماقد يكون بينها وبين عشاقها من وصل وهجر او بعد وقرب أو نيل وحرمان من جهة أخرى (٣٠) منصرفين في ذلك عن الزخرفة اللفظية والصناعة في أشعارهم ، لان مسلكهم في مواجدهم يستهين بهـذا النوع من الجهـد الأدبي ، وينفر من البريق ، واصحابه يريدون — كما أشار الدكتور زكي مبارك — تسجيل ثورات الخواطر والنفوس تسجيلا أميناً ، وذلك لايتم لمن ينشغل بغير المعاني (٣١) ، وهذه العفوية في التعبير تطالعنا بوضوح في مجمل ماوردنا من كلام الشهرزوري ، وبخاصة في لاميته التي نعالجها الساعة ، وهي من خلال هذه السمة الدلالية — فضلا عن قدرة اللغة الصوفية على التعريض دون التلميح من عيون الشعر الرمزي في العربية ، ان لم تكن في رأي بعض المهتمين بتراثنا الأدبي قصيدة القصائد الصوفية (٣٢) ، وقد وصفها الكنعاني بأنها : معلقة صوفية خالدة (٣٣) ، كما وصفها الطيب المجذوب بأنها : حسنة عامرة بمعاني الوجد الصوفي (٣٤) ، ولكنه أسرف في اعتبارها مما جوريت به لامية المتنبي :

مالنا كلنا جـو يـارسول | أنا أهـوى وقلبك المتبـول (٣٥)

---

(٢٧) نيكلسون : في التصوف الاسلامي وتأريخه /٧١ — ٧٣

(٢٨) عمر فروخ : التصوف في الاسلام /١٤٧ .

(٢٩) الدواني : الأدب في ظل الدولة الزنكية .مطبوع على الآلة الكاتبة /١٦٤ .وينظر :م.ن/٩٧، ومحمود قاسم الخيال في مذهب محيي الدين بن عربي /٤٨ — ٥٦ .

(٣٠) علي صافي حسين :الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري /٢٢١ .

(٣١) زكي مبارك : التصوف الاسلامي /١٦٤ .

(٣٢) لغتنا الجميلة /١٩٤ .

(٣٣) شعراء الواحدة / ٧٨ .

(٣٤) عبدالله الطيب المجذوب : المرشد إلى فهم أشعار العرب ١/ ٢٤٠ .

(٣٥) م . ن ١/ ٢٣٩ .

ولالقاء — في تقديرنا — بين القصيدتين الا في الوزن والروي ، وهما عادة لايكفيان دليلا على المجاراة او التقليد ، وعنده أن قوافي الخفيف — ومنه هاتان القصيدتان — عظيمة الأثر في طبع انغامه بطابع خاص ، ولهذا فقد جرت قصائده منذ عهد بعيد على مذهب المجاراة بحيث تتنسم في المتأخر منها نفساً من المتقدم (٣٦) وليس هذا الحكم صحيحاً على اطلاقه ، لان اختلاف الغرض في مستهل الامور التي تنفي عادة مايقال عن المجاراة في النصوص التي تتشابه سماتها الخارجية كالاوزان والقوافي ، وهي نظرية أو شبه نظرية بنى عليها زكي مبارك فصولا كثيرة في كتابة : الموازنة بين الشعراء . (٣٧)

يقع نص اللامية برواية ابن خلكان في أربعة وأربعين بيتاً (٣٨) ، وقد أسقطت رواية العاملي بيتين منها (٣٩)، واضطربت في ترتيبها أيضاً، فرأيتني محتاجاً إلى المعارضة بين هاتين الروايتين ، ليكون البحث قائماً على نص ارتاح اليه ، مع ان العاملي — وهو يسوق القصيدة — قد نقل قبلها وبعدها أخباراً عن وفيات ابن خلكان ومع هذا فقد استحسنت ايراد النص كاملا محققاً معداً للتذوق المباشر ،لكيلا اكلف القارىء في سبيل الوقوف عليه من التعب مالا ينتظر .

* * *

قال المرتضى الشهرزوري :

١. لمعت نارهم ، وقد عسعس اللي ... ل ، ومـل الحـادي وحـارالدليل

٢. فتأملتهـا وفـكـري مـن البيـ ... ن عليل ، ولحظ عيني كليل

٣. وفؤادي ذاك الـفؤاد المـعنـى ... وغـرامي ذاك الغـرام الدخيـل

---

(٣٦) م . ن . ١/٢٠٩ .

(٣٧) لم يغفل الدكتور زكي مبارك وجوه التقارب في مضامين القصائد التي وازن بينها ،فجاءعمله سليم الأصول صحيح المبادىء ،وان كانت لنا نظرات في نتائجه جملة مما لايهم دراستنا هذه، تنظر : الموازنة /١٠٩ — ١٢١ ، ١٢٢ — ١٧٣ ، ١٨٥ — ٢٣٥ ، ٢٣٦ — ٢٧٠ : ٣٤٠ — ٣٦٧ . ومواقع أخرى .

(٣٨) الوفيات ٣/ ٤٩ — ٥١ .

(٣٩) الكشكول ١/ ٢٣٢ — ٢٣٤

٤ . ثم قـــابلتهـــا ، وقلت لصحبـــــــــي :
هـــذه النار نار ليلى ، فميـــلوا

٥. فـرمـوا نحـوَهـا لـحاظـاً صحيحا
ت ، فـعـادت خـواسـئـاً وهـي حُـول

٦ . ثـم مـالـوا الى المـلامِ ، وقـالـــوا :
خُـلّـبٌ مـا رأيتَ أو تـخـييــلُ (٤٠)

٧ . فتجـنـبـتهـم ، وملـتُ إلـيـهـا
والهوى مـركـبـي ، وشـوقـي الـزميلُ

٨ ومـعـي صـاحـبٌ أتـى يـقـتفي الآ
ثـار ، والحـبُ شـأنـه الـتـطـفـيـلُ(٤١)

٩. وهـي تـعـلـو ونحـن نـدنـو الى أن
حـجـزت دونـهـا طـالـولٌ مُحُـولُ (٤٢)

١٠. فـدنـونـا مـن الطـلـولِ ، فـحـالت
زفـراتٌ مـن دونـهـا وغـلـيـلُ (٤٣)

١١. قـلـتُ : من بالـديار ؟ ، قـالـوا : جريح
وأسير مكـبّـَلٌ وقـتيـــلُ (٤٤)

١٢. ماالـــذي جـئـت تبتغـي ؟ قلت : ضيف
جـاء يـبـغـي الـقِـرى ، فـأيـن النزول ؟(٤٥)

١٣. فـأشـارت بالـرحـب ، دونـك فـاعقرْ
هـا ، فـمـا عـنـدنـا لـضيـف رحيـلُ(٤٦)

(٤٠) في الوفيات والكشكول : ؟ تخييل ، ولعل ما أثبتاه هو المناسب ، لان (أم) المعادلة ينبغي لها أن تسبق باستفهام ،والمعنى لا يحتمل الا ستفهام انكاراً كان أو غيره ،والموقف موقف أخبار وهي كما رجحنا في : نزهة الجليس ٢/ ٦١٠ ، ولكن مجمل رواية القصيدة في هذا الكتاب غير دقيق .

(٤١) التطفيل : دعوة النفس إلى مالم تدع اليه كالوليمة .

(٤٢) المحول : المجدبة

(٤٣) في الكشكول : عويل في موضع : غليل ، والغليل : حرارة العطش

(٤٤) م. ن : قالت ،في موضع : قالوا

(٤٥) القرى : ما يقدم إلى الضيف من الزاد .

(٤٦) فأعقرها : اشارة إلى الدابة ، بمعنى. أنحها .وهو من المجاز ،وقد يكون بمعنى :اذبحها-

١٤. من أتانا ألقى عصا السير عنه
قلت من لي بها ، وأين السبيل (٤٧)

١٥. فحططنا الى منازل قوم
صرعتهم قبل المذاق الشمول (٤٨)

١٦. درس الوجد منهم كل رسم
فهو رسم ، والقوم فيه حلول (٤٩)

١٧. منهم من عفا ، ولم يبق للشك
وى ولا للدموع فيه مقيل (٥٠)

١٨. ليس الا الأنفاس تخبر عنه
وهو عنها مبرأ معزول

١٩. ومن القوم من يشير الى وجد
تبقى عليه منه القليل

٢٠. ولكل رأيت منهم مقاماً
شرحه في الكتاب مما يطول (٥١)

٢١. قلت أهل الهوى ، سلام عليكم
لي فؤاد عنكم بكم مشغول

٢٢. وجفون قد أحرقتها من الدمع
حثيثاً الى لقاكم سيول (٥٢)

— وهو أعمق دلالة وأدق انسجاماً مع طبيعة الموقف ،وكأن الشاعر مدعو إلى الاقامة الدائمة وقد أجهز على راحلته .

(٤٧) في الكشكول : قلت من لي بذا ،وكيف السبيل .

(٤٨) الشمول : الخمر .

(٤٩) الرسم : الأثر ،ودرس الرسم : عفا وضاعت معالمه .

(٥٠) المقيل : المنزل ، واصله : لمنزل نوم الظهيرة .

(٥١) في الكشكول : ولكل منهم رأيت ..،وقد تأخر البيت عن هذا الموضع ،فجاء بعد البيت التاسع والثلاثين ..

(٥٢) ساقط من الكشكول .

٢٣. لم يزل حافز من الشوق يحدو
نـي اليكم ، والحادثات تحول (٥٣)

٢٤. واعتذاري ذنب فهل عند من يعـ
ـلم عذري في ترك عذري قبول (٥٤)

٢٥. جئت كي أصطلي فهل لي إلى نا
ركم هذه الغداة سبيل

* * * *

٢٦. فأجابت شواهد الحال عنهم
كل حد من دونها مفلول

٢٧. لا تروقنك الرياض الأنيقا
ت ، فمن دونها ربى ودحول (٥٥)

٢٨ كم أتاها قوم على غرة منـ
ـها وراموا أمراً فعزّ الوصول (٥٦)

٢٩ وقفوا شاخصين حتى إذا ما
لاح للوصل غرةٌ وحجول (٥٧)

٣٠ وبدت راية الوفا بيد الوجـ
ـد ونادى أهل الحقائق جولوا (٥٨)

٣١ أين من كان يدعينا فهذا الـ
ـيوم فيه صبغ الدعاوى يحول (٥٩)

---

(٥٣) في الكشكول : يحدو بي . وتحول : تمنع .

(٥٤) ورد في الكشكول قبل البيت المتم للأربعين .وقبلهما بروايته : (فتعالت عن .. رسول).

(٥٥) الدحول : الحفر ، وقال الزمخشري في (أساس البلاغة / ١٢٧) :توارى في دحل ، وهو حفرة غامضة ضيقة الاعلى واسعة الاسفل .

(٥٦) في الكشكول : قرى ، في موضع : أمراً

(٥٧) الغرة : بياض في وجه الفرس ،والحجل : بياض في قوائمه ،يقال :تغرر الفرس وتحجل (الاساس /٣٢٢) وماورد في البيت من المجاز .

(٥٨) أهل الحقائق : المتصوفة .

(٥٩) يحول : يتغير ،وفي الكشكول :سيف الدعاوى يصول .

٣٢ حملوا حملة الفحول ولا يصـ
ـرع يوم اللقاء إلا الفحولُ
٣٣ بذلوا أنفساً سخت حين شحت
بوصال واستُصغر المبذول
٣٤ ثم غابوا من بعد ما اقتحموها
بين أمواجها وجاءتْ سيول
٣٥ قذفتهم إلى الرسومِ فكل
دمه في طلولها مطلول(٦٠)
٣٦ نارنا هذه تضيءُ لمن يسـ
ـري بليل ، لكنها لا تنيل
٣٧ منتهى الحظ ما تزوّد منها اللحـ
ـظ ، والمدركون ذاك قليلُ (٦١)
٣٨ جاءها من عرفتَ يبغي اقتباساً
وله البسط والمنى والسُّولُ (٦٢)
٣٩ فتعالت عن المنال ، وعزت
عن دُنُوّ إليه ، وهو رسولُ
٤٠ فوقفنا — كما عهدت — حيارى
كلٌّ عزمٍ من دونها مخذولُ (٦٣)
٤١ ندفع الوقت بالرجاء وناهيـ
ـك بقلب غذاؤه التعليلُ
٤٢ كلما ذاق كأس يأس مريرٍ
جاء كأس من الرجا معسولُ(٦٤)

---

(٦٠) المطلول : المهدر .
(٦١) البيت مقدم على سابقه في الكشكول .
(٦٢) الأصل : السؤل .وهو مايسأله الانسان .وقد قرئ قوله تعالى في (سورة طه ،الآية ٣٦):
« اوتيت سؤلك ياموسى » بالهمز وبغيره (مختار الصحاح /٢٨١) .
(٦٣) في الكشكول : محلول ، في موضع : مخذول .
(٦٤) م . ن : بأس بالباء بدل الياء ،تصحيف مطبعي .

٤٣ فــاذا سـوّلــت لــه النفـــس أمـــراً
حـيّـيـدَ عنـه ، وقيـــل : صبر جميلُ (٦٥)

٤٤ هــذه حــالنـــا ، ومـــا وصـــل العـلـ
ـم اليـــه ، وكـــلُّ حـــالٍ تحــــولُ

* * *

لايمكن ان نفهم هذه القصيدة — في تقديري — الا بمحاولة استكشاف أسس تكوين الصورة الأدبية والفنية فيها ، وهذه المحاولة لابد لها ان تستمد وسائلها من طبيعة النص نفسه ليكون ذلك فتحاً لاّ فاقه بمفاتيحها الحقيقية حتى لايكون تمثلنا لمعانيه ذوقياً مجرداً ، لايستخدم الأساس الصوفي لمكونات هذه الصورة ، وهو الذي سيقربنا إلى عالم الشاعر ، ويجعلنا نلابسه ملابسة داخلية في الفاظه ودلالاته ، معتمدين في سبيل ذلك على محورين :

— الأول : تصوير الاطار الصوفي لهذا العمل بكل أولياته المساعدة على تفسير التجربة الفنية والشعورية فيه .

— الثاني : الاستفادة من أسس فكرنا النقدي الحديث في سبر هذه التجربة الروحية ونحن نعلم ان الخيال في اعتقاد بعض المتصوفة أعظم قوة خلقها الله تعالى(٦٦)، وهذه القصيدة لم تقم اساساً الا على مبدأ الخيال في تصور الاشياء ، وقد جاز الشاعر فيها دائرة الواقع ، وعبر بها إلى حيث تكون صورة من صور عالم الروح بالنظر المستكشف ، وهذا امر معهود بين أهل هذا الطريق ، وهم يفرقون بين الحس وعين القلب لان الاولى ترينا الاشياء على ما هي عليه ، وهي فكرة شخصها الرومانتكيون الانكليز بقولهم « ان عين الخيال تكشف لنا عن نوع هام من الحقيقة ،وهي ترينا ما تعجز العقول والحواس عن ادراكه،فليست عين الخيال سوى البصيرة التي تتعمق في طبيعة الاشياء» (٦٧) لان الرومانتيكية في حقيقة امرها«محاولة لفهم الشعر على اعتبار أنه انعكاس للعالم الداخلي للشاعر وليس انعكاساً للطبيعة او بعبارة أخرى : على انه عملية خلق لاعملية صنعة ... وواضح ان عالم الشاعر الداخلي هذا عالم واسع ، فهو يشمل الحالة الذهنية لديه ، كما يشمل المشاعر والافكـــار وطـاقـات الحدس والادراك ، وقــوة الخـيــال الخـالــق هي البوتقة

---

(٦٥) م .ن : وإذا بالواو :وحيد : أميل .وقد حرصت على اثبات هذه الفروق الصغيرة والاتيان بهذه الشروح تحقيقاً للنص كما قدمت .

(٦٦) محمود قاسم : الخيال في مذهب محيي الدين بن عربي /١ .

(٦٧) م . ن / ٧٩ .

(٦٨) الربيعي : في نقد الشعر /١١٠ .

التي تنصهر فيها كل عناصر هذا العالم من ذهنية وشعورية ، وهذه القوة هي التي تعدل من هذه المشاعر ، وتنظمها وتجمع أشتاتها وتضعها في النهاية في قالب متلاحم متجانس ، هو العمل الشعري ، والشعر اذن تعبير عن العالم الداخلي ، أو نقل عن العالم الخارجي كما ينعكس في نفس الشاعر ، وذلك بعد أن تنظمه قوة الخيال الخالق عنده تنظيماً فنياً »(٦٨) ، ونحن من خلال قصيدة الشهرزوري نستطيع ادراك وجهين متضادين لدلالاتها المعنوية ، فاذا أخذناها باعتبارها وصفاً لرحلة من الرحلات ، كان ذلك اسقاطاً لقيمتها العرفية التي جعلتها أثراً مهما من آثار الصوفية ، واذا نظرنا اليها من خلال هذه الزاوية كانت انعكاساً رومانتيكياً لتجربة من التجارب الانسانية العميقة ، تصور لنا أنواعا من المجاهدات والمكابدات بحثاً عن الصورة المثالية للحقيقة الضائعة بين تلافيف الفكر ومنعطفاته وبين حدود الديانة وضوابطها الدقيقة ، وعند هذا تبدأ رحلة الشاعر في ظلمة الليل الدامس المكفهر الذي ، ينقل لنا صورة هذا الفكر المختلط والرؤى المتقاطعة التي لاتصل الى شاطيء أمين يرتاح اليه السابح في ملكوت هذا الغبش الدنيوي الرهيب . وتتردد في تراث الصوفية المقولة التي تشير الى «أن بين العبد والحق ألف مقام من نور وظلمة ، والظلمة : عبارة عن شيء ساتر مانع عن الادراك » (٦٩) .

وتستحوذ الحيرة على الباحث عن الحقيقة ، بعد ان تكون هذه الظلمة قد سدت عليه منافذ النور ، حتى لا أمل لهذه الحادي الحائر المتردد بين أطرافها وبين البريق الذي يخب اليه ، وهو يرى في بداية طريقه مافي نهايته (٧٠) بالبصيرة والكشف الخاص ، وهذه الرؤية هي التي حملت الشهرزوري على تأمل هذه النار المشبوبة التي تتكشف عنها أستار وأزمات ، والتأمل تحت وطأة هذه الأزمات وما يضاف اليها من تعب الفكر وكلال اللحظ ومرض الفؤاد مجاهدة من شأنها أن تقفنا على نوع الممارسة الوجدية التي دفعت الشاعر الى الرحلة ، ويكون العشق أو الطموح هو الدافع أيضاً الى الشروع فيها على صعوبتها ، وصعوبتها هي التي تزن أقدار السالكين بموازين شتى ، لأنهم ذوو أحوال وطباع مختلفة في تحولاتهم في منازل الطريق الى الذات الالهية ، ولكل واحد منهم بداية وباب يدخل منه وتقلبات ورياضات وشدائد وأهوال وأودية سقوط ، سماها الشهرزوري في بيتيه (٩ ، ٢٧) طلولا ، وربى ، ودحولا تجعل السالك عرضة لأحوال متعددة منها :

(٦٩) عبدالمعطي بن محمود اللخمي الاسكندري : شرح منازل السائرين /٧ .
(٧٠) م . ن .

المحبة ، والغيرة ، والقلق ، والعطش ، والبرق (٧١) لتسلمه هذه الأحوال بعدئذ الى ما يسمى عند المتصوفة بـ (الولايات ، او : الصفات الجميلة) التي تعطيه ثمرة من ثمرات جهده في سبيل الوصول الى ما يريد ، ومن جملة هذه الثمرات : الصفاء ، والسرور والتمكن الذي هو فوق الطمأنينة (٧٢) ، وبعدها يغفل عن نفسه لانشغاله الكامل بربه ومداومة النظر اليه في سائر تصرفه ، وأخيراً يبلغ الى الغاية ويصل الى النهاية (٧٣) وفي مطلعها تكون : المعرفة والفناء في الله تعالى ، وفي آخرها : التوحيد (٧٤) . وهذه المراحل كلها تلخص لنا الخط الذي يسلكه الصوفي من أول درجة من درجات السلوك الى اعلى موقع فيه ، والشهرزوري يكاد في هذه القصيدة يعطينا خطاً مطابقاً لهذه الرحلة الطويلة ، غير انه اختار الأبتداء من منتصف الطريق ، بعد أن جاز نصفه الأول في تجاربه الذاتية الأخرى على مايبدو .

أما قوله(لمعت نارهم) فهو يلفتنا الى أن البرق — الذي تقدمت اشارتنا اليه في جملة الأحوال التي تعتور السالك — هو باكورة تلمع للعبد ، فتدعوه الى الدخول في الطريق ، وتأذن له بذلك (٧٥) وتبدأ غربته في طلب الحق عز وجل ، لان همة العارف لاتقف عند موطن أو علم أو معرفة أبداً لتعلقها الدائم بالمعروف الأعظم سبحانه ، وقد ساق أبو الفيض المنوفي هذه القصيدة في شرح باب (الغربة) من منازل السائرين (٧٦) ، ونكون بهذا قد وقفنا على بداية صحيحة للدخول في عالم القصيدة بعد هذه الكلمة في الاطار الصوفي الذي يكتنف الواحد من اولئك الأناسي الذين اختاروا لأنفسهم من الفكر والسلوك ما جعلهم فئة ذات ملامح ونواميس ، وجعل مقولاتهم الأدبية عوالم خاصة تحمل دارسيها على التمرس بأوليات مذاهبهم لتكون هذه الأوليات مساعدة للاسس النقدية والفنية التي يحتكم اليها في تمثل هذه النصوص ونقدها ، ويكون الباحث في كلمته هذه المتقدمة قد أراد المحور الأول الذي يدور عليه هذا النص دورة كاملة أو تكاد . والمحور الثاني

---

(٧١) م. ن. /١٤٩ — ١٧١ .
(٧٢) م . ن / ١٧١ — ١٨٨ .
(٧٣) م .ن /١٥ .
(٧٤) م .ن / ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ . وينظر : قاسم غني : تأريخ التصوف في الاسلام /٢٨٧ — ٢٩٩ ، وفي الكتاب شرح طويل للطريقة وأطوارها على أحسن ماينتظر .
(٧٥) م .ن /١٦٧ .
(٧٦) التمكين /٢٧٦ — ٢٧٩ .

هو الذي يساعدنا على تلمس طريقنا الى طبيعة هذه التجربة الشعورية العميقة ، وهذا لايتأتى الا بالمرور الهادىء في مراحل القصيدة من أولها الى آخرها ، وقد أشرنا سابقاً الى أن لمعان النار اشارة الى بدء التجربة في وعائها اللغوي اللفظي ، لان بدءها في نفس الشاعر لايمكن تحديده ، والشاعر صوفي أنتج في التصوف أدباً ، وصل الينا منه شيء غير قليل ، وتجاربه الذاتية بعيدة ومتشعبة ، وكلها قادرة على التأثير في مجمل مقولاته الادبية ، فهو يبدأ في أية قطعة من قطعه الشعرية من حيث يرى البدء ، شأنه في هذا شأن من لايصطنع تجربة سطحية ، ليقدم من خلالها قصيدة ساذجة ، اذا ذهبنا الى أن الشعراء — كما قسمهم شيللر في احدى رسائله الفلسفية الكبرى — نمطان: الشعراء السذج والشعراء العاطفيون ، والسذاجة هنا هي الفطرة الأصيلة أو الطبيعة الحقة ، وليس لها صلة بالتخلف العقلي كما قد يظن ، وشاعرها هو الصادر عن شعوره الطبيعي غير الواعي ، لادخل للتأمل في أعماله ، على خلاف الشاعر العاطفي — وشعراء الصوفية من هذه الطائفة — الذي يعي ويتأمل ويفكر ، ومن أخص خصائصه أنه يسمو فوق الواقع ، ومن واجبه أن يتجاوزه ، ولكنه اذا اندفع في ذلك الى الحد الذي لاتستطيع معه أية تجربة محدودة أن تجاريه ، بل الى الحد الذي يصبح معارضاً لشروط كل تجربة ممكنة على وجه الاطلاق ، فان فكرته في هذه الحالة لاتكون فكرة شاعرية ، بل تكون متوترة مغالية في التوتر ، واذا كان من حق الخيال أن يغادر مجال الحقيقة الخارجية ، فان من واجبه ألا يتجاوز حدود الحقيقة الباطنية (٧٧) ، وقد قامت قصيدة الشهرزوري على المداخلة بين الحقيقتين ، فكانت الرحلة واحداثها الصورة المأخوذة من الواقع المادي الملموس في وعاء باطني فكري متأمل يعكس أطوار الحركة النفسية النامية التي يسبح الصوفي في غمراتها الغالبة ، وعلى هذا فصاحبها شاعر حق يقع في مركز الوسط بين الشاعر الساذج والشاعر العاطفي (٧٨) .

صور الشهرزوري في أبياته الاولى وضعه بين نفر لم يقعوا تحت تأثير العوامل التي جعلت منه في قافلتهم رجلا متفرداً ، ينحون عليه باللوم ، وقد يتهكمون به ويظنون أنه مخدوع ببرق كاذب ، أو أنه واقع تحت تأثير مايتوهمه من الرؤى والأخيلة ، وقد دفعه هذا الموقف الى التنحي جانباً لينجو بتجربته الخاصة من غلواء القوم واسرافهم ، ولكنه لايعدم صاحباً يقتفي أثره ويتطفل عليه ، لاتهمه الرحلة الى الحقيقة بقدر مايهمه

(٧٧) عبدالغفار مكاوي: الشاعر العاطفي والشاعر الساذج مجلة: الشعر ، العدد السابع. سنة ١٩٦٤ ١١ — ١٥ ، والدراسة تحليل لرسالة شيللر : الشعر الساذج والشعر العاطفي المنشور ضمن أعمال شيللر الكاملة .المجلد الخامس ،مطبعة هانزر ،ميونيخ ١٩٦٠ ص٦٩٤ — ٧٨٠.

(٧٨) م ن. /١٥ .

استطلاع ما سينتهي اليه الصوفي الشاعر المأخوذ ببريق النار المتأججة ، وفي غمرة هذا الترامي الى حضرتها ، تنهض الدنيا بكل صورها وعقباتها وألوان سقطاتها واغرائها لتحول بينه وبين حقيقته المعشوقة وقد عبر عنها بأنها الطلول المجدبة الحائلة (٧٩) . وهو على هذا يقترب في حذر الى دائرة النار مسوقاً اليها سوقاً لدنيا ذاتياً فيه طاعة وفيه خضوع واستسلام ، ويكون حذره هذا والزفرات المتصاعدة من دون النار والغليل الملتهب ازاءها طرفا من اطراف مجاهدته في الوصول اليها .

ويبدأ الشهرزوري بالتساؤل..من بالديار ؟ . ويأتيه الجواب المتداخل (جريح وأسير مكبل وقتيل) (٨٠) ، وهم من أولئك الذين قطعوا قبله شوطاً في التجربة ، وعند هذا الحد يبدأ الفكر الصوفي في القصيدة يأخذ طابعاً جديداً ، وقد انتهت مرحلة القصد لتبدأ مرحلة التمتع بمبادىء الامتحان الصعب الذي يستعد الشاعر له ، ويدعى أنه : ضيف (٨١) طارىء جاء يرجو النوال ، فينزل ويعقر دابته نزولا عند الدعوة التي طالعه بها سكان هذه الطلول من صرعى الوجد الالهي الطامحين المحبين :

فاشارت بالرحب دونك فاعتر ها ، فما عندنا لضيف رحيل
من أتانا ألقى عصا السير عنه قلت من لي بها ، وأين السبيل ؟

وعندي أن هؤلاء كانوا من المحبين في مراحل شتى من المقامات ، لأنهم لم يذوقوا بعد ــ كما أخبر الشاعر في البيت الخامس عشر ــ خمرة النهاية ، وهي الوصول الى التوحيد بعد الرؤية ويشار بالسكر عند المتصوفة الى السقوط من الطرب ، فان موسى عليه الصلاة والسلام لما استغرق في الكلام الالهي ،جرى على لسانه طلب الرؤية له تعالى (٨٢) كما يفهم من الآية الكريمة..(رب أرني أنظر اليك) (٨٣)، وهذا السكر من مقامات المحبين خاصة من الطامحين الجادين في طريقهم الى آخر ما يرجوه الصوفي من المقامات هو كما ذكر سديد الدين اللخمي الاسكندري ــ انما يكون مع بقايا من نفس المحب بها يشرب ويتلذذ بحاله ويسكر (٨٤) ووجود هذه البقايا دليل على بقاء النفس في أسر

(٧٩) البيت : ٩ ،وينظر : البيت : ٢٧ .
(٨٠) البيت : ١١ .
(٨١) البيت : ١٢ .
(٨٢) شرح منازل السائرين ٢٠١/١ .
(٨٣) سورة الأعراف ٧/ ١٤٣ .
(٨٤) شرح المنازل / ٢٠٢ .

شهواتها غير خالصة منها خلوصاً كاملا ،واذ قد أشرنا إلى طلب موسى عليه السلام ، نشير أيضاً إلى أن المتصوفة والشهرزوري نفسه أيضاً قد استوعبوا قصته مع النار ، وما جرى له بين يديها ،والسلوك الذي تلبسه عندها ،حتى أصبح لمعان النار الصوفية« حالة موسوية » كما سماها محيي الدين بن عربي(٨٥) وقصيدة الشهرزوري في بدايتها استجابة لهذه الحال الموسوية ، وفي قوله :

نارنا هذه تضيء لمن يسـ ... ـري بليل ، لكنها لا تنيل
منتهى الحظ ماتزود منها اللحـ ... ـظ ، والمدركون ذاك قليل
جاءها من عرفت يبغي اقتباساً ... وله البسط والمنى والسول
فتعالت عن المنال ، وعزت ... عن دنو اليه وهو رسول

وقد وجد الشاعر صرعى هذه النار يعانون الوجدالغامر الذي أضاع رسومهم ، وسلبهم من رق الماء والطين ، وأنساهم أسماءهم (٨٦) فهم جريح وأسير وقتيل بحسب مقاماتهم التي استطال الشهرزوري شرحها (٨٧) ، ولكنه خاطبهم بقوله .

قلت : أهل الهوى ، سلام عليكم ... لي فؤاد عنكم بكم مشغول
وجفون قد أقرحتها من الدمـ ... ـع حثيثاً إلى لقاكم سيول
لم يزل حافز من الشوق يحدو ... ني اليكم ، والحادثات تحول
واعتذاري ذنب ، فهل عند من يعـ ... ـلم عذري في ترك عذري قبول
جئت كي أصطلي ، فهل لي إلى نا ... ركم هذه الغداة سبيل

وفي هذه الابيات ايماءة إلى موقف الشاعر بين التطلع الطامح إلى الغاية وبين الرضوخ المستسلم للمعوقات بأشكالها وصنوفها المختلفة ، وموضعه بين هذين يؤكد مبدأ المجاهدة في الطريق الصوفي الذي يتوصل الصوفية خلاله بوسائل كثيرة ، ذكر منها عبدالله بن عمر الشافعي الانصاري الأشعري (ت ٧٤١هـ) تسعة مسالك ، من أبرزها : طريق الرياضات والمكابدات وقهر النفس في المخالفات ،وطريق المجاهدات وركوب الاهوال ، (٨٨)

---

(٨٥) ذخائر الأعلاق في شرح ترجمان الأشواق / ٣٦ ، ٣٧ ،على هامش : الترجمان .
(٨٦) شرح المنازل /١٦٣ .
(٨٧) البييت : ٢٠ .
(٨٨) كتاب المريدين والسالكين الى الله .مخطوطة المكتبة المركزية العامة في الموصل الورقة ١٠ و.
(٨٩)لسان العرب. مادة: صلا ١٤ / ٤٦٧ – ٦٨ .ينظر :شعر أبي زبيد الطائي/١٠٦وفيه حر نارهم

ومن جملة الاهوال — فيما أقدر — المعاناة الداخلية لأزمات النفس ومشكلاتها ، والشهرزوري يختصر هذه المجاهدات بعبارته اللماحة « الحادثات تحول » ، وعلينا أن نضع في اعتبارنا كل مايمكن أن يكون عقبة مانعة في داخل النفس وخارجها ، والصوفي بطبيعة حاله رجل مأزوم ، وأزماته ذاتية أكثر منها غيرية ، وقد استطاع الشهرزوري أن يجعل النداء الذي استهل به القطعة السابقة مدخلا إلى عرض حاله أمام هذه الفئة التي جازت الطريق قبله إلى الغاية ، فجاء على آثارها مدفوعاً بهمومه الخاصة وأشواقه المانعة ، ليقف آخر الامر معتذراً مع علمه بان الاعتذار في مثل موقفه لاينفع ، لانه ذنب في حد ذاته كذنبه في التأخر عن تخطي الحادثات المانعة بكل أشكالها إلى حيث تقر النفس ، وتهدأ الازمات في ظل الحقيقة المعشوقة .

ونقف قليلا عند دلالة (الاصطلاء) الذي أشار اليه الشهرزوري ، وقد جعل اصطلاءه بنار ليلى غاية ما يطلب ، وهنا نستطيع أن نربط هذا الموقف بمقام من مقامات العشاق ، نفسر به الدلالة كما أرادها الشاعر ، أو كما يفهمها الباحث من كلام هذا الشاعر المقرور الذي صور نفسه محتاجا إلى النار ، لتبعث في أعطافه الدفء ، والبرد الذي يعانيه أزمة من أزماته الحادة ، اذا كان الاصطلاء حقيقة بمعنى الاستدفاء ، لان مبدأ المجاهدة الصوفية ومحاولة تفسيرها ربما حملنا على تصوره أيضاً بمعنى : الصبر على حر هذه النار ، وتحمل كل أمر شديد كذلك كما نفهم من قول أبي زبيد الطائي :

فقد تصليت حر حربهم كما تصلى المقرور من قرس(٨٩)

وقد حوى هذا البيت الدلالتين معاً ، والباحث أكثر ميلا إلى فهم الاصطلاء استدفاء منه إلى المعنى الاخر ، وان كان الصبر والتحمل منسجماً تمام الانسجام مع الواقع الصوفي الذي يصدر عنه الشاعر ، لان الصوفي عاشق ، والعاشق — في وضعه السوي الصحيح — ميال إلى مايريحه ويؤنسه ، عازف عن كل ما يعذبه ويؤذيه بطبيعة الحال ، وقصاراه نزوات وآمال لا يمكن أن تصل إلى حد المتعة المباشرة بذات المعشوق ، لكيلا يدخل في دائرة الرغبة التي يترفع عنها ، كما يترفع الصوفي ، وقد لخص لنا جميل بن معمر العذري هذه النزوات والآمال بوضوح في قوله :

واني لأرضى من بثينة بالذي لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا وبألا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضي أواخره لا نلتقي وأوائله (٩٠)

فاذا التقى العاشق بالمعشوق في ليلة باردة ، كان الجلوس إلى النار متعة مافوقها من متعة ، والاصطلاء ليس هدفاً لذاته ، والدفء ليس كذلك أيضاً ، بل ان الهدف يتمثل في لذة الصاحب وقدرته على اشاعة الارتياح في نفس العاشق ، والصوفية المعتدلون — فيما أعلم — يفرقون بين الذات الالهية وبين مايتوفر لهم بين يديها من الطمأنينة والسكينة ، وفي سبيل الوصول إلى هذه المنزلة ، لابد للشهرزوري أن يعاني ويعاني ، وقد وضع أهل الهوى، —كما سماهم— نصب عينيه خطا واضحاً لهذه المعاناة :

لا تروقنك الرياض الانيقا ت ، فمن دونها ربى ودحول

كم أتاها قوم على غرة منـ ـها وراموا أمراً فعز الوصول

ومن ثم يكون امتحان الوفاء بين الواصلين من العشاق إلى غايتهم ، المتعين بالوجد الصوفي الذي يخطف العبد من نفسه وبدنه واسمه ، ويمحضه للذات الالهية كياناً خالصاً (٩١) وبين أهل العقل والفلسفة الذين يلتقون بالمتصوفة في بعض منازل الفكر ومشاغله ونظراته .

وفي سبيل استكمال هذه الدراسة التحليلية للقصيدة، يترتب علينا أن نفيد من اختلاف روايتيها عند ابن خلكان والعاملي بعض الفائدة ، فاذا كنا قد قرأنا في رواية الأول قول الشهرزوري على لسان أهل الوفاء المشار اليهم :

أين من كان يدعينا فهذا الـ يوم فيه صبغ الدعاوى يحول

فقد روى العاملي

أين من كان يدعينا فهذا الـ يوم فيه سيف الدعاوى يصول

فان الروايتين— فيما أقدر—متعادلتان في أداء غرض من أغراض الشاعر ، وهو يصور صراعاً معيناً بين الوجد الحق وبين طرف آخر ، قد يكون ادعاء العشق أو اصطناع الود ، وقد يكون شيئاً آخر لا أثر فيه للوفاء لنواميس هذه الحضرة الروحية التي يهم الصوفي صادقاً بولوجها ، والاوفياء يقولون في مثل هذا اليوم : كل ادعاء وأي خداع يصطنع في الوصول إلى ماوصلنا اليه ساقط لانفع فيه ، فبعد حين تتكشف الامور على حقائقها على وجه ما يفهمه الدارس من النص الأول ، وهو صورة واضحة المعالم دقيقة الملامح ،

(٩٠) نوري القيسي: الحب والعشق والتوجيه الاجتماعي في التراث العربي. مجلة: آفاق عربية، العدد التاسع، سنة ١٩٧٦/٤٤، وينظر: ديوان جميل/١٦٩.

(٩١) شرح المنازل/١٦٣.

ولكن أن يصول سيف الدعاوى في مثل ذلك اليوم ، فذلك حدث أو صورة أخرى ، لها عبقريتها أيضاً ، فهي ترجعنا إلى القوم الذين اهتبلوا فرص الغفلة ، فوصلوا إلى دائرة الحقيقة ، ولم يستطيعوا الدخول فيها بلا امتحان يكون الوفاء لها أبرز ما يمتحن به ، فقال لهم أهلها عند تجربة الوفاء : (جولوا) (٩٢) ، يتوجهون به إلى كل متشوق إلى منازلهم متطلع إلى الوصول إلى هذه الراحة التي ينعمون بها ، ومن أولئك : من يتوسل بالصدق فعلا ، ومن يركب الدعوى والتمويه والمخرقة مطايا إلى غايته المنشودة ، وقد يكون الشاعر قد أشار بذلك ضمناً إلى الفلاسفة الذين يطمحون إلى بعض ما تظمح اليه المتصوفة من العشق الالهي أو المعرفة ، كل على طريقته الخاصة ، وهؤلاء في نظر هؤلاء أهل ادعاء وزيف ، ولكل منهم في سبيل الحقيقة رغبة وجهاد ، ومن وصل اليها يخاطبهم بما سبقت الاشارة اليه ، لتتضح السرائر الصادقة عن غيرها ، فترى الفئتين في فورة واحدة من الحركة ، وكلا هما يحمل حملة الفحول كما قال الشهرزوري (٩٣) ، ولكن اعراف هذا الجهاد على النقيض من كل الاعراف الحربية ، إن من سيسقط في الحلبة هو الصوفي الصادق السريرة ، الذي لم تقو عزيمته على مغالبة الوجد ومعاندة الوفاء ، لانه لا يعرف كيف يكون الادعاء ، وكيف يكون الكذب .

لعل تمثل الشعر على هذه الطريقة يجعلنا نقف على كثير من أسراره ، وهي كثيراً ماتقع ضحية دراسات مبتسرة ، لايهمها شيء أكثر من الرص والشروح اللفظية ونثر النص بعبارات تفقده اهابه الفني المرموق الذي جعل منه أدباً ، وأخرجه من جملة النصوص الاعتيادية ، وهذا الاخراج أمر واقع نتيجة الفروق القائمة بين الاديب وبين غيره من الناس ، وبقدر مايتاح للنص من فهم النقاد ودقة استيعابهم له ، تتجمع علامات جودته أو رداءته ، وقليلا ما نقف في مكتبتنا الا دبية على محاولات من هذا القبيل ، وهي أدخل في باب المغامرة منها في باب الشرح الادبي والتحليلات الانشائية التي استهلكت الدرس الادبي الحديث أو كادت ، والمغامرة في حد ذاتها صورة من صور الفهم الطامح والارتياد المثمر في قصيدة كهذه اللامية ، وقد راضها صاحبها على الوزن الخفيف : (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ...) ، وتحقق له من خلال هذا الوزن انسياب هادىء ومرور مستأن في عالمه النفسي الخاص ، وهو بطبيعته لا يميل إلى الخطابية أو الجلبة ، لان هذا الوزن ليس فخماً ،

---

(٩٢) البيت ٣٠

(٩٣) البيت ٣٢

بل أنه إلى الاتزان والهدوء أقرب – كما قال الكنعاني (٩٤) خلافاً للمجذوب الذي أشار إلى جنوحه صوب الفخامة (٩٥) ، وهي سمة لا أفهم لها طبيعة محددة بشكل واضح ، اذ لا سبيل إلى القاء هذه القصيدة القاء انفعالياً لعدم التناسب عندئذ بين مضمونها وأدائها الصوتي ، بل أزعم أن الروي المضموم نفسه على هذه اللام يساعد على تحقيق الاغفاءة الشعورية المشحونة بالعاطفة الجياشة من غير صخب ، المندفعة بلا زبد لا زبدة فيه ، والضمة هذه الحركة المطولة موحية بالسكينة اذا وقعت على حرف كاللام ، أصله في العربية الترقيق أو الانفتاح والخروج من حافتي اللسان (٩٦) بعد انتهاء فجوة الفم ، بحيث لاتبقى له أية فرصة أو قدرة على أحداث صوت مجهور مزعج فضلا عن كونه حرفاً متوسطاً في القوة (٩٧) ، لان مافيه من الجهر يعادل مافيه من الرخاوة ، فهو بين الصفتين (٩٨) ، فاذا كان للشاعر قبل البدء بالتدفق أن يختار الاطر الصوتية لافكاره ، فاللام والضمة والوزن الخفيف من أحسن الاوضاع التي يمكن أن تستوعب تجربة شعورية من نمط ما توفرت عليه قصيدة المرتضى الشهرزوري ،أضف الى هذا ظاهرة (التدوير) فيما يقرب من نصف عدد أبياتها ، وهو يحقق رتابة ايقاعية خافتة أيضاً ، تلائم الجو العام لمضمون النص لما فيه من اجهاد أدائي ، وكل هذه الامور لم تكن مقصودة عند نظم القصيدة مباشرة ، ولكنها جاءت عفواً ، فأضفت عليها غلالة شفافة من الرهافة والترتيل ، ومن هنا أرى من المناسب الانتباه دائماً إلى الربط بين المضامين والاشكال والاطر الفنية عند دراسة أي أثر أدبي ، لان ذلك يساعد في كثير من الاحيان على الوصول إلى حقائق موضوعية ووصفية وجمالية ، لاينبغي للدارس أن يستهين بأقدارها – مهما هانت – في ترتيب أحكامه التحليلية والنقدية على النصوص .

ان قصيدة الشهرزوري ليست ككثير من شعر العلماء المفترى عليه،ولنفرض جدلا أنه متهافت ،وأنه ليس بالمستوى الفني الذي يمثل لنا من قراءتنا في أشعار غير هؤلاء،الا يكون للناقد تطلع إلى النصوص التي عدت ساقطة ، عله يجد بينها ضالة ، أضاعت طريقها فانزوت بين ركام أدبي لاقيمة له ، هذا اذا كنا قد افتقدنا عند العلماء صدق التجربة والقدرة على التحرك الواعي بين عمد معانيها وركائزها وصولا إلى تشكيل ذوقي وفني ذي صفة متزنة ،

(٩٤) مع نظرية صاحب المرشد .مجلة : البلاغ ،العدد العاشر ، السنة الخامسة ١٩٧٥ /١٤ .

(٩٥) المرشد إلى فهم أشعار العرب ١/ ٢٠٥ .

(٩٦) الانطاكي :الوجيز في فقه اللغة / ١٧٧ ، هنري فليش : العربية الفصحى / ٤٠ .

(٩٧) القيسي ، مكي بن أبي طالب : الرعاية لتجويد القراءة ،وتحقيق لفظ التلاوة /١٦٢

(٩٨) م. ن /١٠٧ .

وليس هذا صحيحاً ولا منطقياً ، وحين تنفرد هذه القصيدة عن نتاج العلماء ، وتكون الضالة التي نبحث عنها في ذلك الركام المطروح ، فربما كان انصراف النقاد المنظرين عنها لجملة أسباب :

- تأخر زمنها بعد زهوة الادب العباسي في عصره الاول وشطر من عصره الثاني .
- غياب صاحبها عن دائرة الشعر العربي المنتشر حيث تصطرع القدرات الخلاقة التي حفرت آثارها بسهولة في تاريخ الادب العربي .
- طبيعة موضوعها وندرته بحيث لايثير نظراً تقليدياً ، ولا يحدث جلبة كالتي تحدثها قصيدة في أي غرض آخر من الاغراض التي استنفدت عناية الشاعر العربي القديم .
- طموحها إلى تصوير حالة خاصة من أحوال شاعر صغير – كما قد يظن – يتطلع إلى شيء من وضوح الصورة في نظر الناس ، وهو بعد ذلك لايستحق أن يدرس أثره على أنه نتاج أدبي راق يسترعي الاهتمام .

وتجاوزا لكل هذا وجدتني ازاء قصيدة لم تحذ – فيما أعلم – على مثال ، وقد افرغ الشاعر فيها تجربة شعورية ، جعلت منها نسيجاً جديراً بالفحص ، وهذا الصنيع رفعها إلى منزلة النفاسة في عصرها حتى طلبوها ، وكانت قليلة الوجود بين أيديهم ، ويشير ابن خلكان : إلى أنه ما قيل في التصوف مثلها (٩٩) ، على أن هذا لم يقنعني بادىء ذي بدء بامتيازها قبل التلبث فيها بحثاً عن وجه ما لفت الانظار اليها في فترة من الزمن على الاقل . اذا علمنا أن الشاعر مخلوق تتنامى قدراته بالتجربة والمراس ، وليس له أن ينبغ بدون أية طفولة فنية تطول أو تقصر ، ولا يعترض علي هنا بهذا أو ذاك من الشعراء الذين ذكر أنهم نبغوا وشيكاً ، لانني أتصور هؤلاء مواليد بلا مخاض ، فلا يجوز لنا أن نعد الشهرزوري شيئاً مذكوراً في هذا الفصيل من الكائنات الغريبة ، والمنطق لا يحكم بوجود هذا الفصيل كله البتة ، كما أنه ليس من شعراء الواحدة بالمفهوم المباشر ، بل انه من أصحاب الواحدة الذين أخلفوا شعراً كثيراً ، لم يكتب الذيوع الا لقصيدة واحدة منه فقط ، والعماد الاصفهاني قد حفظ لنا من شعره ثلاثين قطعة ، ليست اللامية من بينهن ، وقال : « وجدت من كلام القاضي المرتضى أبي محمد الشهرزوري رسالة سلك بها مسلك الحقيقة ، وسبق أهل الطريقة ، مشحونة بأبيات في رقة السلسل والشمول ، ودقة الشمأل والقبول » (١٠٠) ،

---

(٩٩) الوفيات ٣/٥١ .

(١٠٠) الخريدة ،ق :الشام ٢/ ٣٠٩ وما بعدها .

ولكن لم يقدر لهذه النصوص من الشهرة مايجعلها في متناول الدارسين وتحت نظرهم (١٠١) ولعلها قادرة من خلال ذلك أن توطيء لصاحبها مكاناً يصغر أو يكبر بين شعراء العراق في القرن الخامس الهجري .

ان اول ماأُريد معرفته أوكشفه من هذه القصيدة : قيمتها اللغوية ، على اعتبار اللغة صورة من صور الادراك والوعي في بناء النص الأدبي كله ، وبقدر مايكون الشاعر موفقاً في الاتيان بمفرداته بحيث تكون مفصلة تفصيلا جمالياً لمواضعها من السياق ، يكون قد حقق غاية أولية من غايات الأدب ، والمسألة في هذا الشكل أقرب ماتكون الى العلم منها الى العفوية أو الشاعرية ، والدارس يفترض مسبقاً أن يكون الشاعر بطبعه ذا حس لغوي ، يمكنه من استخدام المعجم العام ومعجمه الذهني الخاص بدقة ، وقد بدأنا نفتقد هذه المقدرة الذاتية في مجالات شعرنا العربي المعاصر ، بعد ان كان شعراء عصر النهضة يهتمون كاسلافهم بذلك اهتماماً واضحاً ، لاتشوبه شائبة ، ولا ينتظر أن يعتمد في ذلك على حس الشاعر بما يقتضيه الموقف — أيا كان — من ألفاظ تقيم فيه البناء المعنوي والفني حسب ، بقدر مايكون علمه بالألفاظ وتداخلها ودلالاتها وحاول بعضها محل بعض وقيام الوشائج بينها صوراً من ديمومة بقائها وتطورها ، وكل هذه الأمور لاتنتبه اليها الشاعرية المجردة ، اذا كانت قاصرة عن علم أكيد بها ، يصل الى حد فقه اللغة والتمرس بأصولها الدلالية والجمالية والذوقية ، والشاعر في عرف بعض النقاد من جانس بدقة بين ألفاظه ومعانيه ، بحيث لايطغى عنده جانب على آخر ، فلا يصبح لفظياً خالصاً ، ولا رمزياً خالصاً ، حتى لايضحي بمعانيه على مذبح الألفاظ ، ولا على مذبح المجاز (١٠٢) ، وقد أتاحت العربية لأدبائها من وجوه التحرك اللغوي ماتؤكد به طواعيتها واستيعابها لحاجة المتكلم من مادة الألفاظ ، وتركت له حرية واسعة في استعمالها بعد معرفة العلاقات التي يمكن ان تنشأ بينها في عمارة النص الأدبي ، فكانت الكلمة عينا متداولة ، تتنامى حركة التعامل بها بمقدار مايتقن لها من دلالات ومعان ، وهي تحوز قيمتها في بعض الأحيان نتيجة تقلبها المتكرر في النصوص الأدبية ، اذا لم يصل ذلك الى حد الابتذال ، ولا يبقى بعدئذ منفذ الى التهوين من شأنها ، والشعور بالحاجة الى اطراحها وتركها ، مادامت قد وجدت طريقها الى الكلام الثبت والنص الفصيح ، فترحل به عن مكمن الغرابة فيها ان كانت غريبة ، وتسترد بعض اعتبارها ان كانت مبذولة

(١٠١) استطعت أن أجمع شعر الشهرزوري ،وأنا آخذ في تحقيقه ،وسأنشره بعون الله وتوفيقه فيما أستقبل .

(١٠٢) شوقي ضيف : في النقد الأدبي /١١٣ .

أو متروكة ، فقوله تعالى : « والليل اذا عسعس » (١٠٣) بمعنى : مضى أو أظلم (١٠٤) ، يجعلني لاأستغرب مطلع الشهرزورية التي أتعرض لدراستها ، وهذا ملحظ لايلتفت اليه أكثر الدارسين الذين أخذوا على الشعر القديم جفاء ألفاظه وغلظتها وعدم سماح الذوق العصري باستعمالها جمالياً وتأريخياً ، وفاتهم ان قيمة اللفظ حقيقة تكسب سحرها وعظمتها من خلال اعجابنا بأول نص وردت فيه أو أقدمه ، قبل ان تصدف عنها الأذواق ، وتمجها متأثرة بعوامل نفسية وبيئية واجتماعية كثيرة ، كما حصل مثلاً مع : (المستشزرات) في بيت امرئ القيس :

غدائره مستشزرات الى العلا تضل العقاص من مثنى ومرسل

وما حصل أيضاً مع : (الجرشي) في قول أبي الطيب المتنبي :

مبارك الاسم أغر اللقب كريم الجرشي شريف النسب

والأولى بمعنى : مرتفعات ، والثانية بمعنى : النفس ، وأزعم أن أحداً لم يستعمل هاتين اللفظتين مذ بدأ البلاغيون اتخاذها مثلين للالفاظ الثقيلة (١٠٥) التي لا يميل اليها الذوق السليم ، ومن هنا كان فهمنا للشعر القديم مسألة تصل في بعض الأحيان الى العجز المطلق الناشيء عن تقاصر فهمنا في ادراك الدلالات التي تحملها الألفاظ ، وهي قد تكون مباشرة أو غير مباشرة ، وبدون الرجوع الى المعجم والبحث عن اللفظ خاصة ، أو عن نظائره لانصل الى علم وثيق بما يراد منه ، ومتى وصلنا الى هذا العلم ، يبدأ الاحساس بالجمال يملك علينا رغباتنا ، ان كان اللفظ جميلا ، او كانت دلالته كذلك على الأقل ، فنقبل أو نعدل عنه نتيجة لما تقدم وجوداً أو عدماً ، والالفاظ قد تفقد كثيراً من جمالها بسبب انصرافنا عن نصها القديم ، وعزوفنا عن النمط اللغوي الذي تشكل منه ، ويكون هذا الانصراف معياراً لا تعترف به ضوابط البلاغة العربية ، لأنه بعيد — كما يقال — عن الموضوعية وشاعرنا المرتضى الشهرزوري في هذه القصيدة لم يدخل البتة في دائرة الألفاظ التي استهجنتها هذه البلاغة المنطقية التي ندرسها ونتركها للفرق الماثل لدينا بموجبها بين النظرية والتطبيق ، وترى الشاعر منا والكاتب لا يميل اليها الا بقدر محدود ، لأن له من الذوق مايعينه على البلاغة الفنية التي هي نتاج الشاعرية ، ويظن أن هذا المذهب مناقض لما سبق أن أكدناه من حاجة الأديب الى العلم اللغوي والشاعرية على حد سواء ، لما ينتظر أن يقع فيه من

(١٠٣) سورة التكوير ٨١/ ١٧ .
(١٠٤) أساس البلاغة /٣٠١ .
(١٠٥) ينظر على سبيل المثال : القزويني : الايضاح في علوم البلاغة ١/ ٤ — ٦ .

مزالق تدفعه الشاعرية المجردة الى هوتها ، وصاحب هذه القصيدة حائز للحسنيين معاً ، ومن وجوه حسه اللغوي قيام العلاقة بين لغة قصيدته ولغة الشعر القديم ، مع نزوع الى الافادة من الواقع الحضاري للالفاظ ، كما نرى في قوله :

لاتروقنك الريـاض الانيقـــــا ت فمن دونهـــا ربىً ودحـــــول

وفي هذا وامثاله صورة من التداخل اللغوي الفذ ، والحضارة طابع جليل اكتسبته اللغة العربية بسهولة ، حين حلت الأمصار ، وخرجت مع رجال الفتوح الاسلامية في كل صوب ، وعرفت تشابك الامم وتمازج الأنفاس، فلغة الشعر المولد نقلة حضارية مهمة ، وشاعر كالشهرزوري من القرن الخامس لم يكن في وسعه أن يستعير لغة امرىء القيس أو يمتحها من اعماق القرون ، ليفرغ فيه تجربة شعرية رقيقة لاسبيل لعرضها إلى منحى لغوي صعب يأباه العصر وترفضه البيئة ، وقصيدته تكوين لغوي موحد يتسم بما اتسمت به لغة المولدين من انخفاض الجلبة وخفوت الصوت وقرب الدلالة ، فهي لاتعلن عن نفسها بالوحشة والندرة والصعوبة والغرابة والمعجمية القاتمة ، وهي عندي نموذج صالح للغة الشعر في العصر الوسيط بكل جماليتها وتدخل الحيدة فيها ، وقد اقام الشاعر فيها بناء لفظيا منسجماً قلما ترى فيه لفظة ناتئة غريبة تقتضي الاتصال بالمعجم ، ولهذا لم أعلق في هوامشها المتقدمة الا تعليقات يسيرة على بعض الفاظها لغرض وظيفي في البحث ، يضع يد القارىء العام على مداخلها مباشرة ، فلا يكلف نفسه معاناة تفسيرها والكشف عنها ، ومهما يكن من أمر هذه الألفاظ فهي قليلة ، لاتجعل القصيدة سرا مغلقا بعيداً عن الوضوح ، لأن السياق له أثر كبير في شرحها وتقريب شقها ، وقدرة السياق في العربية وغيرها على حل مشكلات الألفاظ ظاهرة لاغبار عليها .

أما بناؤها المعنوي فقد جعلها في بعض مراحلها أشبه ماتكون بالحوارية التي تصلح أن تكون مادة أولية لقصة نثرية لطيفة ، وربما كان بمقدورنا أيضاأن نقسمها قسمين ، يتلازمان عند البحث عن الوحدتين : العضوية والموضوعية فيها ، يعتمد الاول على تشابك الاحداث بوضوح يقرب القصيدة إلى حد المباشرة والحكاية الاعتيادية ، ولكنها لاتدخل مع هذا في هذه الدائرة ، لان الشاعر لا يغيب عن نفسه ، فيجعلها تداعيا نثرياً فجاً غير أنها على كل كل حال لاترقى إلى مستوى الاقناع الا اذا أدركنا أطراف النسيج النفسي الذي تسجي فيها ، وقوامه مجموعة من المواقف الداخلية ، وما يحف بها من الأطر المختلفة ، فالشاعر موزع في هذا القسم بين : الرحلة ، والحيرة ، والوصول ، والاهتداء ، والشك ، والخيبة

والأمـل ، والاستـغـراب ، والـتساؤل ، والاتـهـام ، والرجـاء ، والاعتذار وهذه الامور في جملتها لاتتهيأ المجانسة بينها بسهولة. الا اذا كانت التجربة الشعرية قائمة على نمط من الحس واساس معين من الفكر كالنمط الصوفي الذي انتظم هذا النص ، والحس و الفكر يعتمدان على طبيعة الحدث في نفس الشاعر وشعوره بما ينبغي له أن يأخذ به من من التصوير المناسب لهذه الطبيعة أو التجربة الشعورية الحادة ، فكان اسلوب التلميح السريع وسيلة فعالة في اقامة الهيكل المعنوي للقصيدة ، فضلا عن التشكيل المتنامي لأحداثها ، وهو الذي رفعها مرة أخرى من وهدة المباشرة التي أشرنا اليها ، كما أنه لم يجعلها قصة نثرية بالمعنى المعروف .

ان الشاعر العربي مسوق بطبيعة تكوينه البيئي والتراثي إلى دائرة النمطية الفنية ، على أنه في واقعه خاضع أيضاً لنظرية الفروق الفردية بحكم انسانيته المطلقة ، والعـمـل الـفني ، ــ باعتباره تعبيراً عن هذه القدرات المتفاوتة ــ يأخذ كثيراً من سماته نتيجة تمتع شاعره بمستوى قدرة فنية معينة ، وبذلك تتحقق له صفات الجودة أو الضعف ، وليس من حق الناقد أن يرسم له وجه ماينبغي لأدبه من طرق التصور والمعالجة ، لأن هذا دخول في أرض محرمة على النقد ، فليس لنا أن نتلمس طريقة لصاحب هذه القصيدة يعرض فيها من صوره ما أراد أن يصور ، وحسبي الاشارة إلى تمكنه من عرض نفسه أمام الباحث بوضوح ، وقد استطاع تأليف هذا الشتات المتناثر من الافكار والمواقف في خمسة وعشرين بيتاً تنتهي بقوله :

جئت كـي أصطلي فهل لي إلى نا   ركـم هـذه الغـداة سبيـل ؟

ليبدأ القسم الثاني من النص بأول خطوة على الجسر اللفظي : (فأجابت شواهد الحال عنهم) ، ومن ثم دخلنا معه في عالم جديد بعيد كل البعد في تشكيله وملامحه عن العالم النفسي والتصويري المعقد السابق ، وهذا العالم الجديد يذكرنا بالاحتفال الكبير الذي تتجمع شخوصه في بهو واسع ، ثم لانسمع بعد ذلك الا صوتاً يتردد في جنبات المكان مجهول المصدر ، يملأ بارتفاعه وعظمته وقوة نبراته مواقع الرهبة في القلوب ، فهو أشبه مايكون بالصوت الاسطوري الذي يقحمه بعض صانعي الرقوق السينمائية المرعبة ، والاتجاه الصوفي في هذه القصيدة صالح بطبيعته لمثل هذا الانقلاب في هندسة المعنى من السرد المباشر إلى التلقي المفاجىء ، ليكون هذا التحول نقطة لقاء مقدمات القصيدة بالموقف الحتمي الذي يسعى الشاعر إلى رسم حدوده العامة ، وانتقل في سبيل ذلك من مصور إلى مستمع . وهو في كلتا الحالتين

لم يستغن عن حواسه المدركة ، ومن هنا يمكن أن نفسر تشابك المواقف والأحاسيس في القسم الأول من القصيدة ، بحيث تكون الصورة وظلالها على صعيد واحد من عناية الشاعر بمبادئه الفكرية الخاصة .

وقد كان القسم الثاني موزعاً أيضاً بين جملة أمور ، يمتزج فيها الحس بالعقل ، فكانت من مادة هذا اللقاء بين عنصرين من عناصر الوعي هدأة ، لم يفقد الشاعر بعدها اتزانه وهو يجتاز المعنى إلى المعنى والصورة إلى الصورة ، وبقدر مايتاح له ذلك يكون ذا سلطة على مادة النص ، يرتبها كما يريد ، ولاتقع قصيدته حينئذ في الانفصام بين الشكل والمضمون، ولا أريد بالشكل في هذا الموضع : النظام الخارجي للنص ، بل نظامه الداخلي الذي جعل هذه القصيدة كلها قريبة الشبه بالحوارية النثرية كما قدمنا ، وقد لجأ الشاعر في آخر المطاف إلى نوع من التسجيل ، وهو مباشرة موضوعية لايعترف الناقد فيها لأديب بأية مهارة الا العفوية والاستيعاب ، فقوله : (نارنا هذه ... الابيات إلى قوله : ... وهو رسول) (١٠٦)

لاألمح فيها من الفن مايعتمد على براعة ما يبديها الشاعر في هذه المرحلة من القصيدة ، بعد أن استطاع في كل ماتقدم منها تقريب دلالته العقلية بشكل رمزي بعيد عن التسجيل وربما بلغ العرض عنده قمته ، عندما صور خيبة أمله تصويراً ساحراً، تقابل فيه الألفاظ حدة الموقف النفسي الذي ينزع عنه مقابلة منسقة ، يحسن فيها تصوير مايجرى في نفسه وما يجري حوله بطريقة متنامية ، وعند ذلك يقول :

فوقفنا — كما عهدت — حيارى كل حد من دونها مفلول

والجملة الاعتراضية التشبيهية : (كما عهدت) أحالت المعنى إلى صورة مكرورة لاجديد فيها والقارىء الذي يقرأ شعرنا القديم بعقليته الجديدة لايميل إلى شيء من هذا ، فلا سبيل إلى القبول بمثل هذه الأساليب التقريرية في الشعر . لأن الفرق كبير بين اسلوبه وبين أساليب مانأخذ به من الأنواع الأدبية الأخرى ، ولكن من حق الشاعر القديم أن يمارس أي نمط شاء من هذه الأنماط التعبيرية . لأنه كان يواجه مقاييس نقدية لم تكن تطالبه بأكثر من التحديد المجرد للمعاني مع الصياغة اللفظية الصحيحة ، وليس من همها مطالبته بما نأخذ به شاعرنا المعاصر من وجوه العمل الفني الحديث . ولم يكن مجيىء الجملة المعترضة وما يناظرها على هذه الصورة مقحمة أو مصطنعة عيباً من عيوب الشعر بقدر مايكون طرفا من فلسفة الكلام العربي ، الذي يتوسل الشاعر — في تقديره — بأحسن وسائله عادة ، ولربما لم

(١٠٦) الأبيات : ٣٦ — ٣٩ .

يقل الشهر زوري متحدثاً على لسان النازلين على (نار ليلى) من المتصوفة : (فوقفنا حيارى) مباشرة لسببين ، ورد أحدهما إلى خاطره فقط ، وقد يكون انتبه اليه بحكم الصناعة الشعرية التي تقتضي اقامة الوزن بحشوما ، والثاني : ادخال طرفي خارجي قسيماً له في تمثل الموقف وقد أضاف إلى هذا الطرف العلم المسبق بحقيقة تردد المتصوفة وحيرتهم في أوليات الانبهار بالحقيقة المعشوقة ، وقد جرى الشاعر على نوع من المداخلة التصويرية الذكية ، حتى انه استعمل الرمز لتوضيح هذه الصورة بشكل كامل . فكان هذا مصدراً للمحات الشعورية الخاطفة التي لم يرض أو يستحسن عرضها مجردة من الظلال . لكيلا يستحيل الشعر في آخر الأمر إلى هيكل فارغ من هياكل اللغة. أما قوله : (كل عزم من دونها مخذول) فقد جعلني أتصور بوعي ودقة المعاناة الطويلة التي يمتحن بها القاصد في منازل الصوفية إلى الهدف السامي الذي يطمح اليه ،ويلقى في سبيله النصب والتأبي والمماطلة والصوارف والمثبطات ، حتى لايعود له عزم قادر على المطاولة والصبر ، فاذا علمنا أن الحدث صورة من المحدث كما يذكر الفلاسفة وعلماء الكلام ، والعلاقة بينها كالعلاقة بين الاسم والمسمى ، وجدنا كلمة : (العزم) ظلا من ظلال الرجل ذي القوة الخائرة المخذولة الدالة على فشله في محاولة ، لايشك الشاعر في وصول خبرها إلى مخاطبه أو المتلقي عنه ، فاذا به يخاطبه بالجملة المعترضة التي نوهنا بها ، لتخرج التقريرية من ثوبها المبتذل ، وتكون وسيلة من وسائل التعميق والايحاء الناجح داخل القصيدة ، ومثل الجملة السابقة في هذه القدرة أقواله الاخرى : (مل الحادي ، حار الدليل ، الهوى مركبي وشوقي الزميل ، الحب شرطه التطفيل، شرحه في الكتاب مما يطول ، الحادثات تحول، المدركون ذاك قليل) (١٠٧) على اختلاف اقدارها في النهوض بما أراده لها من بناء المعاني وتقويتها ، اذ جعلها ايماء إلى كثير مما سكت عنه من وجوه تصوراته المفصلة المهمة ، وقد يكون الرمز والايحاء من اكثر الأساليب مناسبة للمعنى الكلي للقصيدة، وبعبارة أخرى: للغرض الذي أراد المرتضى الشهر زوري كشف النقاب عن بعضه بما لايصل إلى حد السفور الكامل ، فتخرج القصيدة عندئذ من غرضها الأول إلى مايشبه اغراضاً أخرى في الشعر العربي كالوصف أو الغزل أو البكائيات مما لايصلح فيه غالباً الا المباشرة والوضوح ان لم أقل السرد المنظوم ، بل انه قد استعمل مفردات اللغة وتراكيبها أدوات موحية ، فقام النص على هيكل أو أساس رمزي عام ، يتشخص لدينا من زاويتين :

الاولى : المعنى العام الذي استدعى هذا الاسلوب في عرض الفكر بحكم الحاجة إلى التعريض

---

(١٠٧) الابيات على التوالي : ٢ ، ٧ ، ٨ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٣٧ .

بالمطلوب دون التصريح ، وهو الرمز الكبير في هذه القصيدة وفي جمهرة الشعر الصوفي .

الثانية : الرموز الصغيرة أو الضمنية الموزعة في ثنايا النص ، تعمق معانيه وتوحي بها ، وتوطيء للرمز الكبير الذي أشرنا اليه ، ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

١ — الطلول : وهي دلالة في شعرنا القديم على انهيار الآمال ، وليست أكثر من حجاب تختبيء خلفه أو بين جنباته صور من ذكريات العشق ولمحات من الرؤى والأحلام وقد يجاهد الشاعر أمامها غمرة من الحزن أو موجة من الشعور بالضياع والخيبة ، حين تقوم ازاءه شاخصة في مكانها أو ضائعة في اديم الأرض ، لايقرأ فيهـــــا الا الاثر الغائب في التراب ، يحكي الأمل المسحوق المندثر ، وهي بعد ذلك أيضاً قد تكون حلوة أو قطعة من العذاب عند الشاعر الاعتيادي ، ولكنها عند الصوفي مجاهدة في سبيل الحقيقة ، ونفحة من الممارسة الوجدية العنيفة في الطريق اليها ، ومن هنا كانت رمزاً لهذا السلوك المقطع بين الرغبة والسقوط ، وتعنف هذه الصورة عند الشهرزوري حين يرى الطلل الشاخص لا أثر فيه أو عنده لأية حياة ، ويعاني من جراء ذلك من خيبة أمل لاحد له ، ولا خلاص منه الا بصعود منازل السائرين واحدة واحدة إلى حيث تبرد النفس ، وينتشر الظل وتتجدد الحياة في هدأة الحقيقة المعشوقة .

٢ — عصا السير : كناية عن الاستعداد الدائم للرحلة ، يحملها المسافر ويستمد منها العون على نحو ماصدرت لنا الآية الكريمة : « هي عصاي أتوكأ عليها واهش بها على غنمي ، ولي فيها مآرب اخرى »(١٠٨) وكان العربي المجتاز في الطريق والرمضاء يعلق بها وعاء التة ومتاعه ، وقد ينشر عليها ثوبه ، ليستظل من وهج الشمس ، أما أن يجعلها الشهرزوري رمزاً في قصيدته فليس غريباً ، وهو يود الاشارة إلى سفره الطويل في الطريق إلى الله عز وجل ، وقد شغلته هذه القصيدة ، وملكت عليه أقطار نفسه كلها . بل ان لمعة النار ، وملال الحادي وحيرة الدليل — كما أشرنا إلى بعض ذلك — رموز لصفاء الحقيقة المحجوبة في ستر غليظة من تلافيف النفس وازماتها وانعدام رجائها واتساع متاهتها وقصورها وابطائها في منازل الوصول إلى الحقيقة الالهية المتسامية بذاتها عن أن تدرك فضلا عن أن ترى بالعين ، ومن اراد عرفانها فلا مجال له في عرفان ما اتصل بها من خصائص وصفات وأفعال توري بأن هذه الذات حية عالية ، ومن وصل إلى هذه المعرفة اغرم بحب هذه الذات الغيبية التي يعجز الفكر والقلب والروح عن ادراك كنهها ، اللهم الا نورها ونورها فقط (١٠٩) ،

(١٠٨) سورة طه ٢٠/ ١٨ .
(١٠٩) التمكين / ٢٧٩ .

فكانت الرحلة اليه والعصا والحادي والدليل وظروف الحيرة والملال والشك وما إلى ذلك من رموز قادرة على الوفاء بحق الصورة الادبية داخل هذا العمل الشعري ، ومثلها أيضاً (فاشارت بالرحب .. دونك فاعقرها) (١١٠) ، وهما رمزان يؤكدان جلال الغاية التي يهدف اليها الشاعر المتصوف ، ولا يصورها تصويراً وصفياً معتاداً ؛ بل يترك القارىء يستخلص من رمزية هذين وكثير غيرهما صفتها بحسب قدرته على تمثل الاشياء .

وتمضي القصيدة على هذا المنوال من الفقر الرمزية الموحية القادرة على تحقيق الرمز الكبير الذي أشرنا اليه ، واعتبرناه مبلغ الشاعر وهدفه الأول ، وبعبارة أخرى : محط هواه وغاية مطلبه ، وهو الطموح إلى غاية الغايات عند الصوفية ممثلة في الذات الالهية.

وخلاصة القول ان هذه القصيدة تكاد تكون علامة واضحة في ديوان الشعر الصوفي الذي حملته الكلمة العربية الثرية. ،استطاع الشاعر فيها استخدام اللغة والفكر استخداماً مزجياً قادراً على لفت النظر اليه . ، والتنويه بمايتمتع به من ملكة فنيه عالية تجعلنا لانتهم القدماء بالغلو وانعدام الذوق أو سذاجته في طلب القصيدة والاعجاب بها ، كما تقدم في اشارة ابن خلكان ، وحسبها جودة: أنها تخرق مفهوماً نقدياً ، يزعم بعضنا أنه ثابت ، يشير بضعف شعر العلماء وبرودته ، حتى أصبح لايرى لعالم فقيه أونحوي أو متكلم أن يكون شاعراً محسناً لاسباب كثيرة ، لعل أهمها :انطباعه بالمنطقية العلمية التي تجافي أحياناً سبل الخيال ومنازع التصوير وآفاقه وتنويع الفكر وتطويع اللغة ، فهو لايكاد يعرف شيئاً من هذا الا بنصيب محسوب ، والشاعرية –فيما أقدر – لاتعترف بالحساب اطلاقاً ، فان لها أن تقوم على شكول متداخلة من الفكر والوعي والالفاظ والدلالات والاخيلة وتوليد المعاني والمزج بينها وارتياد المجاهيل وخرق الثوابت والقفز من فوق كل الحواجز .

الموصل ٢٥/٣/ ١٩٧٦

---

(١١٠) البيت : ١٣ .

اصول البحث

١. الأدب الصوفي في مصر في القرن السابع الهجري ، الدكتور علي صافي حسين ، القاهرة ١٩٦٤ .

٢. أدب الفقهاء ، عبدالله كنون ، دراسة في : مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مجلة المجمع العلمي سابقاً المجلدات ٣٩ ـ ٤٣ ،وانتهى الي ـ وقد أنجزت البحث ـ أنها طبعت مستقلة في كتاب .

٣. الادب في ظل الدولة الزنكية ، عبدالوهاب محمد علي العدواني ، مطبوع على الآلة الكاتبة ، بغداد ـ ١٩٦٧ .

٤. أساس البلاغة ، جارالله الزمخشري ، تحقيق : عبد الرحيم محمود ، القاهرة ـ ١٩٥٣

٥. الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين خيرالدين الزركلي ، ط ٣ ، بيروت ـ ١٩٦٩ مصورة بالاوفسيت .

٦. الايضاح في علوم البلاغة ، الخطيب القزويني ، القاهرة ـ بلا تأريخ ، مصور بالاوفسيت.

٧. تاريخ التصوف في الاسلام ، الدكتور قاسم غني ، ترجمه عن الفارسية : صادق نشأت القاهرة ـ ١٩٧٢ .

٨. التصوف الاسلامي في الادب والأخلاق ، الدكتور زكي مبارك ، القاهرة ـ ١٩٥٦ .

٩. التصوف في الاسلام ، الدكتور عمر فروخ ، بيروت ـ ١٩٤٧ .

١٠.التمكين في شرح منازل السائرين ، السيد محمود أبو الفيض المنوفي ، القاهرة ـ ١٩٦٩

١١.الحب والعشق والتوجيه الاجتماعي في التراث العربي ، الدكتور نوري حمودي القيسي ، دراسة في : مجلة آفاق عربية ، العدد التاسع ، السنة الاولى .

١٢.خريدة القصر وجريدة العصر ، العماد الاصفهاني ، تحقيق : الدكتور شكري فيصل ، دمشق ـ ١٩٥٩ .

١٣.الخيال في مذهب محيي الدين بن عربي ، الدكتور محمود قاسم ، القاهرة ـ ١٩٦٩ .

١٤.ديوان جميل ، جمع وتحقيق : الدكتور حسين نصار ، ط ٢، القاهرة ـ ١٩٦٧ .

١٥.ذخائر الاعلاق شرح ترجمان الأشواق ، محيي الدين بن عربي ، نشرة دار صادر ، بيروت ـ ١٩٦٦ ، بعنوان : ترجمان الأشواق .

١٦.الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة ، مكي بن أبي طالب القيسي ، تحقيق الدكتور أحمد حسن فرحات ، دمشق ـ ١٩٧٣ .

١٧. الشاعر العاطفي والشاعر الساذج ، الدكتور عبدالغفار مكاوي ، مقالة في : مجلة الشعر ، العدد السابع ، السنة الاولى ، القاهرة — ١٩٦٤ .
١٨. شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ابن العماد الحنبلي ، القاهرة — ١٣٥٠ هـ .
١٩. شرح اصطلاحات الصوفية ، كمال الدين عبدالرزاق الكاشي ، مخطوطة في خزانتنا ، وقد طبع أكثر من مرة فيما علمت ، ولكن مطبوعاته غير متوفرة في المكتبات الموصلية .
٢٠. شرح منازل السائرين ، سديد الدين عبدالمعطى اللخمي الاسكندري ، بعناية : الأب س . دي لوجييه الدومنكي ، القاهرة — ١٩٥٤ ، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية .
٢١. شعراء الواحدة ، نعمان ماهر الكنعاني ، بغداد — ١٩٦٧ .
٢٢. شعر أبي زبيد الطائي ، جمع : الدكتور نوري حمودي القيسي ، بغداد — ١٩٦٧
٢٣. العربية الفصحى ، نحو بناء لغوي جديد ، الاب هنري فليش اليسوعي ، تعريب : الدكتور عبد الصبور شاهين ، بيروت — ١٩٦٦ .
٢٤. في التصوف الاسلامي وتأريخه ، ارنولد نيكلسون ، ترجمة : الدكتور أبو العلا عفيفي ، القاهرة — ١٩٥٦ .
٢٥. في النقد الادبي ، الدكتور شوقي ضيف ، ط ٣ ، القاهرة — بلا تاريخ .
٢٦. في نقد الشعر ، الدكتور محمود الربيعي ، القاهرة — ١٩٦٨ .
٢٧. كتاب المريدين والسالكين إلى الله ، عبدالله بن عمر الأشعري الانصاري ، مخطوطة المكتبة المركزية العامة في الموصل ، رقم ٤٥٦ باشعالم .
٢٨. الكشكول ، بهاء الدين العاملي ، تحقيق : الطاهر أحمد الزاوي ، القاهرة — ١٩٦١ .
٢٩. لسان العرب ، ابن منظور ، طبعة دار صادر ، بيروت .
٣٠. لغتنا الجميلة ، فاروق شوشه ، القاهرة — بلا تأريخ .
٣١. مختار الصحاح ، محمد بن أبي بكر الرازي ، ترتيب : محمود خاطربك ، القاهرة — ١٩٢٢ .
٣٢. المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، الدكتور عبدالله الطيب المجذوب ، القاهرة — ١٩٥٥ .
٣٣. معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، أدوارد فون زامباور ، ترجمة : زكي محمد حسن وجماعة ، القاهرة — ١٩٥١ .

٣٤. معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، دمشق — ١٩٥٧ .
٣٥. مع نظرية صاحب المرشد ، نعمان ماهر الكنعاني ، مقالة في : مجلة البلاغ ، العدد ١٠ ، السنة الخامسة ، بغداد — ١٩٧٥ .
٣٦. مقدمة إبن خلدون ط ٥ القاهرة — بلا تأريخ .
٣٧ نزهة الجليس ومنية الاديب الانيس ، العباس بن علي الحسيني الموسوي المكي ، النجف ١٣٨٧ — ١٩٦٨ .
٣٨. الموازنة بين الشعراء ، الدكتور زكي مبارك ، القاهرة — ١٩٣٦ .
٣٩. النبوغ المغربي في الادب العربي ، عبدالله كنون ، ط ٢ ، بيروت — ١٩٦١ .
٤٠. الوافي بالوفيات ، الصلاح الصفدي ، مصورة المكتبة المركزية في جامعة بغداد .
٤١. الوجيز في فقه اللغة ، محمد الانطاكي ، حلب — ١٩٦٩ .
٤٢. وفيات الاعيان ، ابن خلكان ، تحقيق : الدكتور احسان عباس ، بيروت — ١٩٧٠

جليل رشيد

القيم الانسانية في الشعر الجاهلي

تبدو الحياة العربية في الحقبة الجاهلية من خلال الدراسات التقليدية خاضعة لمقاييس بيئية ضيقة قائمة على أساس الارتباط القبلي وماتتطلبه العلاقات الاجتماعية ضمن اطار القبيلة من ممارسات ومواقف .

إن للقبيلة مكانة في حياة العربي وله منها مواقف ثابتة مع مايشوب تلك الحياة من سلبيات مريرة ومآس دامية وما يدور على أرضها من صراع عنيف يستغرق من عمر الانسان أعواماً طوالاً .

ولكن هذا الارتباط أو ذلك الولاء لم يكن بالضرورة يلغي كيان الانسان أو يذيب ذاته وشخصيته في ما تمليه الظروف الصارمة تلبية لمطالب القبيلة ومستلزمات العيش في كيانها .

فقد كان الانسان العربي يملك من الخصائص ما يرسم لنا صوراً مشرقة واضحة السمات من شأنها أن تغير كثيراً من اضطراب التصور التقليدي الماثل في أذهان الدارسين . وتعطي للمتشوفين لمعرفة سمات الحياة العربية بكل أبعادها تصوراً متكاملاً أو أقرب إلى التكامل .

إن الانسان – وهو عضو في ذلك الكيان – كان يدرك بوعي متكامل وجوده الحقيقي وما يضطرب فيه من أحداث وما يعتلج في أعماق أخيه الانسان من آمال وآلام وتصورات.
والشعر الجاهلي – وهو من أقدم الوثائق التاريخية وأصدق المصادر في استجلاء كثير من خصائص الحياة العربية في الجاهلية – قد أمدنا بشيء كثير من وضوح الرؤية للمواقف الانسانية والبطولات الفذة والأصوات الصادحة بالمثل والقيم الرفيعة التي تصلنا بتلك الحياة بأوثق الوشائج .

فالميراث الشعري الذي بين ايدينا يمثل في جوانب منه قيماً ونظرات تعبر عن مقتضيات الحياة وفق مفاهيم زمنية خاصة وتعكس شيئاً من سلبيات ذلك العصر ، وهو في الوقت ذاته يقفنا على قيم انسانية ومواقف سامية ونظرات سديدة وفضائل اجتماعية كريمة تتجاوز اطار ذلك الزمن وهي محتفظة بقوتها وحيويتها وكأنها صوت الانسان المعاصر وهو يمثل قيمه التي مازال يؤمن بها وفضائله التي يحرص على ان يتحلى بها ، ويرى من خلال ذلك الموروث القيم جملة من الآراء والمواقف والنظرات التي يقف ازاءها باعجاب واكبار .

وهذا يقودنا إلى القول بان صوت الشاعر الجاهلي الذي يعلو بالقيم الفاضلة والمثل الرفيعة انما هو صوت الفطرة التي تلد مع الانسان في كل مكان وزمان ، وربما يخفت هذا الصوت

اذا تراكبت الضغوط على النفس الانسانية ، أو اطبقت عليها ركامات من تقاليد صارمة ومطالب مرهقة وهموم شتى ، ومع ذلك فان صوت الفطرة يتسرب من خلال رغبة الانسان في اثبات الذات والوجود ، ومن خلال الفرص المواتية التي تتيح متنفساً ومنطلقاً .

وقد ترك لنا الشاعر الجاهلي فيما ترك رصيداً وافراً يجلو لنا حقيقة كون الشاعر صوتاً ايجابياً مفعماً بالوعي المتكامل لمتطلبات الحياة مفصحاً عن التصور الأمثل للانسان العربي الهادف إلى تحقيق أفضل صور الحياة في مجتمعه مهما كانت درجة وعي المجتمع ومهما كان حظه من التقدم الاجتماعي والفكري .

ويهدف هذا البحث إلى تلمس الفضائل والقيم الانسانية التي لم تستأثر بها الجاهلية لنفسها ، بل التي استطاعت بما تملك من طاقة وحيوية ذاتية ان تسير مع الزمن وتصل الينا محتفظة باصالتها وقوتها وفاعليتها في حياة الانسان المعاصر .

ومن اجل تشخيص الفضائل والقيم السامية في المضامير الرئيسة البارزة من حياة الانسان العربي ،رايت ان اقسم البحث إلى اربع فقرات هي في حقيقتها اجزاء لمضامين مشتركة متشابكة الخطوط موحدة العناصر متلاحمة الوشائج .

وفيما يأتي تفصيل هذه الفقرات تباعاً .

١ — القيم الانسانية في حديث الذات

يكاد الشعر ينفرد في جملة فنون التعبير بميزة الافصاح عن ذات الشاعر وتصوير مايختلج في نفسه من عواطف واحاسيس ،الا ان هذه الذاتية ليست ذاتية انفصامية ، وانما هي ذاتية البيئة الانسانية التي يحيا الشاعر في غمراتها او قل ذاتية الانسان الذي يمتلك المشاعر والاحاسيس نفسها .

وترى الدكتورة عائشة عبد الرحمن — بنت الشاطيء انه « لو تحررنا من سيطرة الفكرة المحتكمة فينا لوجدنا ان المعنى الحق لشاعر القبيلة هو ان ذاتيته لاتظهر منعزلة عن جماعته ، فهو فرد في جماعة تؤهله موهبته لأن يشغل فيها وظيفة ذات خطر هي وظيفة الشاعر العام » (١) .

وارى ان حديث الذات الخاص عند الشاعر الجاهلي ضيقة مسالكه محدودة نماذجه اذا ما قيس بحديث الشعراء في شتى موضوعات الحياة مما يتصل بشؤون الناس عامة ، وحين يتناول

(١) قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر . د . عائشة عبد الرحمن ص٣٥

موضوعاً من خلال نظرته الخاصة فان القارىء لايعدم الاحساس بأن المجتمع بأسره يتحدث، وان الطبيعة بجميع عناصرها تتكلم ، ولا دور للذات الا أصطناع الاسلوب المناسب للتعبير.

وحديث الذات المفعم بالقيم والفضائل تارة حكمة عقل راجح وتارة اخرى نجوى قلب مترع بالآمال ، وثالثة تصوير لموقف خاص ازاء قضية عامة .

فاذا ماقال ابو ذؤيب الهذلي (٢) :

وتجلدي للشامتين اريهم أني لريب الدهر لاأتضعضع
والنفس راغبة اذا رغبتها واذا ترد إلى قليل تقنع
ولئن بهم فجع الزمان وريبه اني بأهل مودتي لمفجع
كم من جميل الشمل ملتئم القوى كانوا بعيش قبلنا فتصرعوا
والدهر لايبقى على حدثانه جون السراة له جدائد أربع

فانه يصور انساناً ذا جلد وصبر وقوة احتمال. فهو يشير إلى عظم الفجيعة في نفسه ، ولكنه يرجع إلى وقاره واتزانه راضياً بحكم الدهر مستسلماً لقضائه ، فالرجل هو الذي يقف ازاء الفواجع غير جزع ولا مضطرب ، وهنا يبرز الصبر والجلد قيمة انسانية فاضلة يتحلى بها الرجال اولو الارادة والبأس .

والحصين بن الحمام المري حين يقول : (٣)

تأخرت استبقي الحياة فلم اجد لنفسي حياة مثل ان اتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على اقدامنا تقطر الدما(٤)

فانما يصور موقف الانسان الذي عليه ان يختار الطريق الأمثل بين اثنين لاثالث لهما : اما حياة الدعة والخمول والعزلة ، فذلك ضرب من المذلة والهوان ، واما حياة الاقدام والبطولة ، وعندئذ يستشعر الانسان قيمة ذاته الايجابية ، ونظرة الشاعر إلى هذه القضية وان بدت من خلال تصوره الذاتي فانها في الوقت نفسه حديث الذات عن معاني البطولة والشجاعة، وهذا مما يؤيد ماذهبنا اليه من ان حديث الذات لاينفصم عن القيم العامة التي سنجد لها امثلة في فقرات اخرى من هذا البحث ، وغير هذه الفقرات كثير في مصادر الشعر الجاهلي .

---

(٢) المفضليات /١٢٦ . أبو ذؤيب شاعر من هذيل مخضرم .
(٣) الحصين بن حمام المري من مرة غطفان شاعر جاهلي مقل وكان ممن نبذوا عبادة الأوثان الشعر والشعراء (دار الثقافة) ٥٤٢/٢ . هامش شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١٩٧
(٤) شرح ديوان الحماسة – المرزوقي ص ١٩٧ – ١٩٨

وحديث الذات عند عنترة تمترج بنزعة ابائية وتجسيد للسمات الانسانية التي لاتأبه بلون الانسان أو تقيم اعتباراً للجوانب الضيقة فيه ، ويضمن حديثه اشارات إلى بعض التقاليد السلبية التي تحتضن قيماً غير انسانية ، فهو يقول (٥) .

وان اك اسوداً فالمسك لوني ... وما لسواد جلدي من دواء
ولكن تبعد الفحشاء عني ... كبعد الارض عن جو السماء

ويقول ايضا : (٦)

تعيرني العدا بسواد لوني ... وبيض خصائلي تمحو السوادا
سلي يا عبل قومك عن فعالي ... ومن حضر الوقيعة والطرادا

وتستوعب ذاتية الشاعر الحياة بكل ملابساتها فتفصح عن نظرات سديدة تأتي في اصداء حكمية تظل مع الانسان اني وجد ينتفع بها ويترسم خطاها ، فهي ثمرات تجارب خاض بها الشاعر وقائع الحياة وهذه أبيات للافوه الأودي (٧) جرت مجرى الأمثال ذات الأصداء القوية التي لم تذهب بقوتها الأيام :

والبيت لايبتنى الا له عمد ... ولاعماد اذ لم ترس اوتاد
فان تجمع أوتادا وأعمدة ... وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا
لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم ... و لاسراة اذا جهالهم سادوا
تهدي الامور بأهل الرأي ماصلحت ... فان تولوا فبالاشرار تنقاد (٨)

هذه النظرات العميقة تتطلع إلى أفضل صور المجتمع وأسمى أمثلة القيادة الحكيمة الراشدة فهي ليست حكماً عابرة أو خطرات شعورية آنية ، وانما هي دستور يقيم من اعوجاج المجتمع ويحقق توازنه الاجتماعي ، وربما أستمد خطوط هذه النظرات من واقع لم يكن يرضي الشاعر بما يسود مجتمعات القبيلة من صراع وخصومات يضطرب ازاءها الأمن وتفتقد عندها السكينة ويختل فيها التوازن ، وربما تعكس هذه الابيات عن امنيات حدث بها الشاعر نفسه ثم اراد لها ان تخرج من مكانها في طوايا النفس قضية تحمل معها حلاً ، واوس بن حجر يرى من خلال ذاته التي تحلت بخصال خلدته في مجتمع الجاهلية ان الانسان لاينبغي

---

(٥) شرح ديوان عنتر – تصحيح ابراهيم الزين ص ١١
(٦) المصدر نفسه : ص ٧٨
(٧) هو صلاءة بن عمرو من مذحج ويكنى أبا ربيعة .
الشعر والشعراء ص١٤٩
(٨) الطرائف الأدبية – القسم الأول – ديوان الافوه الاودي ص ١٠

له ان يقيم بدار لاتتوفر فيها للانسان مقومات تحفظ له كرامة أو تقيم لانسانيته وزناً ، ولا بد له من ان يتحرى عن دار الكرامة ويقيم حيث وجدها يقول.

اقيم بدار الحزم ما كان حزمها وأحر اذا حالت بأن اتحوّلا
وأستبدل الأمر القوي بغيره اذا عقد مأفون الرجال تحللا

ولم تكن الحياة في بيئة الجاهليين باعثة على السأم والملل والضيق على الرغم من متطلباتها القاسية وعلاقاتها المحدودة وفراغها الكبير ، ومن هنا فان الباحث لايعدم أن يجد لمحات من التفاؤل تتألق في قصائدهم معلنة عن روح التحدي أزاء مصاعب الحياة وقسوتها ، وقد شخص لنا قيس بن الخطيم (٩) شيئاً من هذه الروح المتفائلة في قوله : (١٠)

وكل شديدة نزلت بقوم سيأتي بعد شدتها الرخاء
كذاك الدهر يصرف حالتيه ويعقب طلعة الصبح المساء

فالقاريء يحس ان نفحة طيبة تسري بين جوانحه تبدد عنها كل معاني اليأس والقنوط والضيق.ومن التجارب الذاتية الثرة أبيات لرجل من بني تغلب يلقب بـ (افنون) (١١)تقفنا على بعد نظر واستيعاب دقيق لما ينبغي أن يكون عليه المرء الحصيف وهو يواجه من الحياة تناقضاتها وسلبياتها . يقول الشاعر (١٢)

الا لست في شيء فروحاً معاويا ولا المشفقات اذ تبعن الحوازيا
فلا خير فيما يكذب المرءنفسه وتقواله للشيء : ياليت ذاليا
فطأ معرضاً ، ان الحتوف كثيرة وانك لا تبقي بما لك باقيا
لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتقي اذا هو لم يجعل له الله واقياً

ولو مضينا في مضمار الحكمة لوقعنا على الوفير من حديث الذات وهو يعكس الملامح الانسانية التي هي ثمرات رحلة مع الحياة غير متعجلة ترافقها نظرات عميقة فيما أظهرت وفيما أضمرت .

ولنا وقفة مع ظاهرة في شعرنا الجاهلي ، تلك هي ظاهرة الصعاليك .

---

(٩) شاعر الاوس ومن ابطالها الفرسان في الجاهلية – ادرك الاسلام ولم يسلم . الأغاني (دار الكتب) ١/٣ .

(١٠) حماسة البحتري ص ٢٢٣

(١١) هو صريم بن معشر بن ذهل بن تيم . هامش المفضليات ص٢٦٠

(١٢) المفضليات / ٦٥

والصعاليك جماعة من الشعراء نبذتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم من الخلعاء الذين لا يملكون أموالا أوجاهاً « وتتردد في أشعارهم صيحات الفقر والجوع ، كما تموج نفوسهم بثورة عارمة على الاغنياء والاشحاء ، ويمتازون بالشجاعة والصبر عند اليأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العدو ، حتى ليسمون بالعدائين » (١٣) .

ولما يلحظ من نزعة استقلالية هي أقرب إلى التمرد على الواقع الذي لا يحقق لهم هدفاً ولا يقيم لمطالبهم وزناً فان ما عكسوه من خلال نتاجهم الشعري يمثل احلامهم وامنياتهم ومن هنا فان شعر الصعاليك مليء بالقيم والفضائل الهادفة إلى تكريم الانسان ، والداعية الى نبذ المفاهيم التي تجافي الفطرة السليمة .

« ويضفي زعيم الصعاليك بكل طيبة خاطر على نفسه صفات الرجل المحسن ، فهو لا يحتفظ لنفسه بشيء من غنائمه بل يجود بها كلها على أصحابه البؤساء الذين يعيشون من غنائم غاراته » (١٤) .

ونلمح شيئاً من ذلك بوضوح في قول عروة بن الورد (١٥) :

ما بالثراء يسود كل مسود   مثرٍ ولكن بالفعال يسود
بل لا أكاثر صاحبي في يسره   وأصد اذ في عيشه تصريد
فاذا غنيت فان جاري نيله   من نائلي وميسري معهود
واذا افتقرت فلن أرى متخشعاً   لأخي غنى معروفه مكدود

وكأني بعروة يرسم للمجتمع خطوط التوازن بين القيم المادية في الحياة والقيم المعنوية ، فرغم أن المال والغنى أمر بالغ الأهمية عند الصعاليك فان عروة يشير الى أن القيم المعنوية التي يرتكز اليها كيان الأنسان الأمثل هي الراجحة في ميزان المقارنة والترجيح

وفي محاولة الصعاليك تثبيت هذه القيم المعنوية دحض لما التصق بهذه الفئة من نعوت تصمهم بحب المال والحرص على اقتنائه ، مع ان حديث المال أو المادة في شعر الصعاليك لايشير الى اكثر من انهم يرغبون أو يتمنون أن يحيوا في رغد من العيش كسائر الناس ، ومن خلال بث الرغبة هذه يشيرون باصبع الاتهام الصريح الى المجتمع المادي الذي يحجب عنهم حق الحياة الطبيعية .

---

(١٣) تاريخ الأدب العربي — العصر الجاهلي — د . شوقي ضيف ص٣٧٥
ويراجع « الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي — للدكتور يوسف خليف .
(١٤) تاريخ الأدب العربي — مجلد ٢ — د . بلاشير — ترجمة د. ابراهيم الكيلاني ص٢٨٤
(١٥) ديوان عروة بن الورد ، شرح ابن السكيت — تحقيق عبد المعين الملوحي ص٤٨ .

ومن خلال التحرر من هذه النزعة المادية يبرز لنا الشاعر الصعلوك فارساً شجاعاً مقداماً يحدثنا بالقيم الانسانية الرفيعة التي ترسم لنا صورة الأنسان الأمثل .

فلنستمع الى تأبط شراً وهو يرثي صاحبه الشنفرى (١٦) :

واجمل موت المرء ان كان ميتاً ... ولا بد يوماً موته وهو صابر
وخفض جأشي ان كل ابن حرة ... الى حيث صرت لا محالة صائر
وان سوام الموت تجري خلالنا ... روائح من أجداثه وبواكر
فلا يبعدن الشنفرى وسلاحه الحد ... يد وشد خطوه متواتر
اذا راع روع الموت راع وان حمى ... حمى معه حر كريم مصابر

ان القاريء يجد نفسه أمام فلسفة ذات أبعاد عميقة تتجلى آثارها في هذا الحديث الهاديء وهو حديث الذات المتفاعلة مع الحياة تفاعلا واعياً كان من معطياته هذه النظرة الشمولية لواقع الحياة والمصير ، وللانسان الايجابي الذي لاينبغي ان يتخلى عن خصائص الرجولة الفذة في مواجهة المواقف التي يتخاذل أمامها الانسان غير المدرك.

ومن حديث الذات مايشخص عيوباً اجتماعياً ويشير الى سجايا مشينة ، فذلك خلجات نفس تحس احساساً ذاتياً ومن خلال ماتترك ممارسات الانسان من آثار في حياة المجتمع غير سليم فان اختلالاً اجتماعياً يصيب علاقات الناس وظواهر غير مرضية تطفو هنا وهناك مما يقدح بالانسان ويشير الى ارتكاسه وهبوطه .

ومن هذه الخلجات الذاتية مايبثه اوس بن حجر في قوله (١٧) .

فاني رأيت الناس الا اقلهم ... خفاف العهود يكثرون التنقلا
بني ام ذي المال الكثير يرونه ... وان كان عبداً سيد الأمر جحفلا
وهم لمقل المال اولاد علة ... وان كان محضاً في العمومة مخولا
وليس اخوك الدائم العهد بالذي ... يذمك ان ولى ويرضيك مقبلا
ولكن اخوك النناء مادمت آمناً ... وصاحبك الأدنى اذا الأمر أعضلا

وقبل ان نغادر حديث الشعر الجاهلي في الذات الانسانية لابد من الوقوف عند اعتذاريات النابغة الذبياني ، وهي من اروع ماحفظه ديوان الشعر الجاهلي من حديث الذات لما تتسم

(١٦) شعر تأبط شراً – دراسة وتحقيق سلمان داود القرهغولي وجبار تعبان جاسم – مطبعة الآداب في النجف ص٨٦ .

(١٧) ديوان اوس بن حجر – ص٩١ – ٩٢

به من تأجج العاطفة الجريحة واستشعار عظم الفرية التي رمي بها وهو منها براء ، والصدق الشعوري ميسم هذه القصائد التي تنبعث اصداؤها من الأعماق مشوبة بدفقات من اللوعة والألم ، سيما وان الرجل وجد نفسه طريداً مشيعاً بتهمة لاتغتفر . وحسبنا من ذلك ابيات تعكس اعتذار الرجل الكريم الذي ينأى بنفسه الابية عن مواطن الشبهات فضلا عن التورط فيما يقدح في سيرته ويحط من منزلته ، وهو يلتمس لاثبات براءته مختلف السبل والوان الوسائل (١٨) .

وقد حال هم دون ذلك داخل دخول الشغاف تبتغيه الاصابع
وعيد أبي قابوس في غير كنهه أتاني ودوني راكس فالضواجع
فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرقش في انيابها السم ناقع

٢– القيم الانسانية في شعر الرفض والاباء :

تسود المجتمع الجاهلي تقاليد وقيم تفرضها طبيعة الحياة على الأنسان العربي، فلا يجد مناصاً من ان يلتزم بما تفرضه القبيلة وتتطلبه ظروفها وان لم يكن مؤمناً بما يراد منه ومع ذلك فان الانسان في غمرات هذه المتطلبات تنفجر كوامن نفسه صرخة فطرية تشخص الداء ، وتنكر على الانسان ان يكون في كل أحواله تبعاً لما يفرض عليه وربما لم يكن بوسعه ان يرفض عملياً او يقف من مستلزمات حياة القبيلة موقف المعارض ، الا اننا نحاول تشخيص ملامح الرفض على لسان الشاعر الجاهلي اظهاراً للقيم الانسانية التي كانت تعتمل في أعماقه ، ومن خلال نظراته في الواقع الذي يعج بألوان من مظاهر الانحراف والممارسات المرفوضة يرسم لنا صورة لعالم مبرأ من العيوب والنقائص . وفيما بين ايدينا من نصوص يجد الباحث شيئاً من العنت في ان يستل منها الذي يصدح بالرفض الواضح والمعارضة الصارخة . وأحياناً يكون الرفض صوتاً هادئاً يتسرب من خلال جملة قيم اجتماعية مختلفة يحاول الشاعر ان يشير الى ماهو رفيع فيها وماهو هابط . واذا مارسم علقمة بن عبدة بعض الملامح لعادات وممارسات طيبة فانه بالضرورة يشير اشارة ضمنية وأحياناً صريحة الى مايقابلها من عادات مرذولة ينبغي ان يتنزه عنها الانسان : يقول علقمة : (١٩)

---

(١٨) ديوان النابغة الذبياني – صنعه ابن السكيت ص٤٥ – ٤٦

(١٩) المفضليات / ١٢٠ . وهو علقمة بن عبدة (بفتح الباء) بن النعمان بن ناشرة بن قيس – شاعر جاهلي مجيد . راجع هامش قصيدته في المفضليات ص ٣٩٠

والحمد لا يشترى الا له ثمن ... مما يضن به الأقوام معلوم
والجود نافية للمال مهلكة ... والبخل باق لأهليه ومذموم
والمال صرف قرار يلعبون به ... على نقاوته واف ومجلوم
ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه ... انى توجه والمحروم محروم
والجهل ذو عرض لايسترد له ... والحلم آونة في الناس معدوم

واشارات الرفض الضمنية تجيء بصورة خاصة في ثنايا الشعر الاجتماعي غالباً في صورة فخر أو مباهاة حرصاً من الشاعر على أن يبرز ملتزماً بالقيم التزاماً يحمله على هذا الفخر والمباهاة ، ويقارن نفسه بأولئك الذين لايكلفون أنفسهم عناء هذا الالتزام . أما الصوت الرافض الجهوري فقد تردد بوضوح عند مجموعة من الشعراء ، وقد اشار الدكتور نوري حمودي القيسي الى عدد منهم ، وهم جابر بن حني التغلبي والمرقش الاكبر ويزيد بن الحذاق والمزق العبدي والحارث بن ظالم المري وطرفة بن العبد (٢٠) « ان هذه المجموعة من الشعراء تمثل الصوت الرافض والتعبير الايجابي للمجتمع الذي كان يمارس الظاهرة بأشكال يومية وملامح حربية تنبثق من ارادة التحويل الطامحة ، وتتولد من عملية التصاعد الشاعرة بقوة المجابهة ، وهي اصوات لاتكتفي بالموقف السلبي الناتج من مقدرة الرفض ، وانما تتعالى وبصورة ايجابية حادة تتجاوز الابعاد البسيطة ، وتتخطى الحواجز المقررة الى مرحلة تصبح فيها الظاهرة متفاعلة ومنتجة في وقت واحد لأنها أخذت شكل التحدي من جانب هذه الاصوات » (٢١) .

وأبرز ملامح الرفض يلتمس عند شعراء أنكروا الحرب وسفك الدماء ، ولم يكن التعبير عن هذا الانكار مقتصراً على المشاعر التي تستوعبها القصائد ، وانما كان واضحاً في مواقفهم العملية . كان الفند الزماني قد اعتذر عن الاشتراك في حرب البسوس كيلا يقاتل قوماً كان بينه وبينهم قرابة ، بالرغم من أنه اضطر الى خوض الحرب اضطراراً ، واذا ماقرأنا للفند أبياته النونية وجدنا الشاعر يجنح الى الروية والتعقل رافضاً اسلوب الاقتحام الاعمى والعصبية المقيتة . قال (٢٢) .

---

(٢٠) دراسات في الشعر الجاهلي . د . نوري حمودي القيسي . ص ٩٨ — ٩٩ .
(٢١) م.ن/ص ١٠١ أورد الدكتور القيسي نماذج شعرية لهؤلاء الشعراء في الفصل الذي عقده في كتابه عن شعر الرفض والأباء
(٢٢) شرح ديوان الحماسة — للمرزوقي — ص٣٢ — ٣٧ .
الفند الزماني : هو شهل بن شيبان الزماني شاعر جاهلي قديم وأحد فرسان ربيعة المشهورين ، شهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة .
هامش : شرح ديوان الحماسة ص٣٢

صفحنا عن بني ذهل وقلنا : القوم اخوان
عسى الأيام ان يرجعـ ـن أقواماً كما كانوا
فلما صرح الشر وأمسى وهو عريان
ولم يبق سوى العدوا ن دناهم كما دانوا
مشينا مشية الليث غدا والليث غضبان
بضرب فيه توهين وتخضيع واقران
وطعم كفم الزق غذاً والزق ملآن
وبعض الحلم عند الجهـ ـل للذلة اذعان
وفي الشر نجاة حيـ ـن لاينجيك احسان

فالشاعر يرعى لبني ذهل ذمم المودة والاخوة متجنباً القتال، ومرجحاً الجنوح الى الروية والتعقل ، فهو حين يرفض التورط في حرب تذهب بالارواح وتورث الآلام ، فانما يجسد قيمة خلقية عالية جديرة بالاكبار ، ولكنه ازاء ذلك يعلن عن رفض من لون آخر هو رفض الاذعان الى الذلة والمهانة .

ذلك انه لم يجد مع القوم ذلك الصفح والتسامح، فقد صرح الشر ولم يكن بد من رد العدوان تأديباً للمعتدي ودفعاً لظالمه .

« وتشتعل الحرب فتزهق الارواح وتوتم الاطفال وترمل النساء، وتثكل الامهات وتخرب وتدمر ، فتستيقظ في نفوس المحاربين أحياناً نوازع الخير والسلام والأمن ، ويأسى بعض عقلائهم وأشرافهم مما يرى من دماء تراق وصلات تنقطع وذعر يقض المضاجع فتتنازعهم نفوسهم الى الصلح » (٢٣) .

فهذا حكمة بن قيس الكناني يحدثنا في قصيدة له انه ينهى أبا عمرو عن الحرب ويبين له جناياتها حتى على المنتصرين :

يقول (٢٤) :

نهيت أبا عمرو عن الحرب لو يرى برأي رشيد او يؤول الى عزم
وقلت له : دع عنك بكراً وحربها ولا تركبن منها على مركب وخم
ومهلاً عن الحرب التي لاأديمها صحيح ولا تنفك تأتي على سقم

(٢٣) الحياة العربية من الشعر الجاهلي . د . أحمد الحوفي . ص ٢٧٢ .
(٢٤) حماسة البحتري . ص ٥٥ — ٥٦ .

فأن يظفر الحزب الذي أنت فيهم وآبوا بدهم من سباء ومن غنم
فلا بد من قتلي وعلك فيهم والا فجرح ليس يكنى عن العظم

فالشاعر حين يرفض هذا السلوك المأساوي الشائع في حياة العرب فأنما يرفضه على بصيرة عميقة مستوعبة لأبعاد الآثار السيئة التي تتركها في حياة الناس ، وهو بذلك يحرص على وحدة الكيان الاجتماعي والحفاظ عليه من التصدع والانهيار ، ويرفض كل اسلوب يسيء الى هذا الكيان .

وزهير بن أبي سلمى حين خلد مآثر الرجلين الكريمين هرم بن سنان والحارث بن عوف وقد تحملا ديات القتلى في معركة داحس والغبراء عرض لما تتركه الحروب من فواجع ومآسي في حياة الناس في قوله (٢٥)

وما الحرب الا ماعلمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر — اذا ضريتموها — فتضرم
فتعرككم عرك الرحى بثفالها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشأم لكم كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
فتغلل لكم مالا تغل لاهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

لم يكتف زهير بعرض الموضوع عرضاً سردياً مباشراً ، بل أظهره في صورة حية تعكس المأساة بحيث تستوعب النفس أصداءها الأليمة ، فترتد عن عالم الحرب المعتم المضطرب الى عالم السكينة والهدوء .

وفي حرب داحس والغبراء « يسقط اول قتيل من بني عبس ، وقد سبقه من ذبيان قتيل شق ذلك على عنترة بما عرف من شجاعته وجلده ، فلم يشأ الا ان يبدي كرهه لهذه الحرب التي تبيد من غطفان العظيمة سراتها ورجالها » (٢٦) .

يقول عنترة (٢٧) :

فلله عيناً من رأى مثل مالك عقيرة قوم ان جرى فرسان
فليتهما لم يجريا نصف غلوة وليتهما لم يرسلا لرهان

(٢٥) شرح القصائد العشر — الخطيب التبريزي . المعلقة ٣ . ص ٢٢٢ — ٢٢٥
(٢٦) الشعر في حرب داحس والغبراء . د . عادل جاسم البياتي . ص ٢٧٤ — ٢٧٥
(٢٧) ديوان عنترة . ص ٣١١ . تحقيق محمد سعيد مولوي .

وليتهما ماتا جمعاً ببلدة وأخطاهما قيس فلا يريان
لقد جلبا حيناً وحرباً عظيمة تبيد سراة القوم من غطفان

ولعل من العجب ان نرى الفارس المقاتل عنتر يشجب الحرب وهي مضمار الفرسان من أمثاله ، ولذا علمنا ان عنترة كان يخوضها اثباتاً لوجوده الضائع وتأكيداً لذاته التي أهدرتها القيم الصارمة التي تنظر الى الأسود نظرة ازدراء واستهانة ، فذلك مبعث الحرقة التي تمض جوانحه وهو يشهد الحرب الطاحنة للرجال والمبيدة للسراة .

والشاعر الجاهلي يستهجن الغدر ويرفض ان يعدمن الشيم التي يتباهى بها في المحافل، وانما هو خصلة تستوجب اللوم والتقريع ، ولعل هذه الخصلة الذميمة كانت فئة من الناس الاراذل تمارسها خفاء أو جهاراً .

يقول الدكتور محمد النويهي: « انهم بلا شك كانت تكثر بينهم حوادث الغدر ، أي اعتداء القبيلة على حليفها أومولاها ، هذا مانسلم به ولاننكره ، ولكنهم كانوا في أواخر العصر الجاهلي يذمون هذا الغدر ويستشنعونه ، وبدأت القبائل الكبيرة على الأقل تعده عاراً كبيراً ينبغي ان تتبرأ منه » (٢٨) .

ولا احسب ان امر استهجان الغدر يقتصر على فترة زمنية معينة. أو قبائل بعينها، فاذا قرأنا شعر الصعاليك على أوجه التحديد وجدناهم ينكرون الغدر ويستشنعونه بحماس وعنف ، ولا يرضون لانفسهم ان يتصفوا به مع أن حياتهم الخاصة كانت تبيح أو تبرر مايتفق لهم من ذلك .

ان الغدر بحد ذاته خصلة ذميمة ، وفطرة الانسان تدله الى ان يقف من الغدر موقف الرفض الحاد تساوقاً مع متطلبات الفطرة السليمة .

يقول المساور بن هند (٢٩) :

قتلوا ابن اختهم وجار بيوتهم من حينهم وسفاهة الالباب
غدرت جذيمة غير اني لم أكن أبداً لأولف غدرة اثوابي

---

(٢٨) الشعر الجاهلي : منهج في دراسته وتقويمه . د . محمد النويهي .ج١.ص ٢٢٥ .

(٢٩) هو المساور بن هند بن قيس بن زهير بن جذيمة العبسي ، شاعر فارس ولد قبل الاسلام بخمسين عاماً — الشعر والشعراء (الثقافة) ٢٦٥

واذا فعلتم ذلكم لم تتركوا أحداً يذب لكم عن الاحساب(٣٠)

ويقول عارق الطائي : (٣١)

غدرت بأمر كنت انت دعوتنا اليه وبئس الشيمة الغدر بالعهد

وقد يترك الغدر الفتى وطعامه اذا هو أمسى جلة من دم الفصد(٣٢)

ويشير الدكتور محمد النويهي الى مجمل معنى البيتين بقوله :

« اي برغم في كونه في جوع شديد يضطره الى ان يفصد عرق بعيره فيصنع منه طعاماً لايجد سواه راداً لجوعه » (٣٣) .

وترتفع في شعر الفخر أصداء الرفض والاباء مجلجلة تارة وهادئة تارة أُخرى ، وفي كلا اللونين تلمس العربي الذي يأبى لكرامته ان تثلم ، ولعرضه ان يمس ، وغالباً مايتأزم الموقف فترتفع نبرة التهديد برد العدوان بعدوان أشد وأعنف .

ومهما تكن النتائج فان الموقف الانساني الذي يقفه الشاعر العربي يستأثر باعجابنا ، فلا استخذاء اذا جد الجد ، ولا تهاون أمام الألسنة التي تحوك المثالب وتخوض في الاعراض.

ولعل معلقة عمرو بن كلثوم هي أصدق مثل لرفض الظلم والا عتداء رغم مافيها من تضخيم الذات والخروج على النهج المألوف في اثبات القوة والبسالة والتمدح بأسباب البطولة. ومما يناسب المقام هذه الابيات التي اجتزأناها من المعلقة وهي أقرب أجزائها الى صميم الفقرة التي نتحدث عنها ونلتمس لها الشواهد (٣٤) :

بأي مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

بأي مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا

---

(٣٠) شرح ديوان الحماسة . المرزوقي . ص ٤٣١ — ٤٣٢ .

(٣١) هو قيس بن جروة بن سيف بن وائلة — شاعر جاهلي . وعارق لقب له — الأغاني (التقدم) ١٢٧/١٩ — وهامش شرح ديوان الحماسة — المرزوقي — ص ١٤٤٦

(٣٢) شرح ديوان الحماسة . ص ١٤٦٧ . ويروي البيت في حماسة البحتري ص ١٣٩ .
غدرت بأمر أنت كنت دعوتنا اليه وشر الشيمة الغدر بالعهد

(٣٣) الشعر الجاهلي . د. النويهي .ج١ . ص ٢٢٦ .

(٣٤) شرح القصائد العشر . الخطيب التبريزي . المعلقة ٦. من ص ٤٠٦ وما بعدها .

تهددنا واوعدنا رويداً متى كنا لأمك مقتوينا
فان قناتنا يا عمرو أعيت على الاعداء قبلك ان تلينا

ومنها :

اذا ما الملك سام الناس خسفاً ابينا ان نقر الخسف فينا
نسمى ظالمين وما ظلمنا ولكنا سنبدأ ظالمينا
ألا لايجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وراشد بن شهاب اليشكري(٣٥) وخزته فرية ظالمة فأرق لها وشحذ همته لدفعها والانكار على المفترين ، فقال (٣٦) .

ارقت فلم تخدع بعيني خدعة ووالله مادهري بعشق ولا سقم
ولكن أنباء أتتني عن امرىء وما كان زادي بالخبيث كما زعم
ولكنني أقصي ثيابي من الخنى وبعضهم للغدر في ثوبه دسم
فمهلا أبا الخنساء لا تشتمنني فتقرع بعد اليوم سنك من ندم

ونحس بالنبرة الحادة في الترفع عن كل مايثلم من كرامة الانسان ، فالشاعر لايرد مجرد فرية قدر مايظهر لنا نفساً تنزع الى مكارم الاخلاق وتأبى كل خصلة لاتمت للمكارم بصلة... فهو يرفض ان يتلبس بالخنى ويوصم بمعرة ، وللشنفرى – وهو من صعاليك العرب – لامية شهيرة بلامية العرب ، يبدو لنا من خلالها ممتلىء الصوت حزماً وقوة واباء ، وتتجسد لنا شخصيته الجدية في رفضها للواقع المرير ، والداعية الى التغيير والتحول . يقول الشنفرى في أجزاء من لاميته (٣٧) :

وفي الارض منأى للكريم عن الأذى وفيهما لمن خاف القلى متعزل
لعمرك ما في الارض ضيق على الفتى سرى راهباً او راغباً وهو يعقل

ثم يجهر بالاباء والرفض في قوله :

ولكن نفساً حرة لاتقيم بي على الذام الا ريثما اتحول

---

(٣٥) هو راشد بن شهاب بن عبدة بن عاصم – ينتهي نسبه الى ربيعة بن نزار وهو شاعر جاهلي – هامش المفضليات ٣٠٧

(٣٦) المفضليات / ٨٦ .

(٣٧) لا مية العرب . الشنفرى . شرح وتحقيق د. محمد بديع شريف ص٢٨ – ٢٩ .

وفي قوله (٣٨) :

فـلا جـزع مـــن خلـة متـكـشـف ولا مـــرح تـحـت الغـنى اتخيل

يبين لنا الشنفرى ـ كما يقول الدكتور محمد بديع شريف ـ انه لاتؤثر في نفسه حاجة كشفها للناس ولا يختال مرحاً بالثروة وانما هما أمران عارضان يذهبان ويأتيان (٣٩) .

٣ ـ القيم الانسانية في شعر الفروسية :

للفروسية في حياة العرب مقام رفيع وأهمية بالغة ، لانها القوة التي تحمي الذمار وتصون الحرمات وتذود عن الناس العدوان ، وقد ارتبط مفهوم الفروسية بكل الخصال الانسانية المحببة الى النفس . وقد استوعب الشعر الجاهلي هذا الجانب الخطير من حياة المجتمع العربي ، ولا سيما اذا كان الشاعر نفسه فارساً له في مضامير البطولة جولات وصولات.

ويحدد الدكتور نوري القيسي مفهوم الفروسية في الجاهلية بأنها « البطولة في الحرب والبلاء في المعركة والعفة عند توزيع الغنائم واطعام الضيف وحماية الحقيقة والذود عن المرأة وتلبية دعوة المستغيث واستجابة لصرخة المنادي الى غير ذلك مما تستوجبه النخوة ويتطلبه الشعور الانساني (٤٠) » .

ولست اعد من شعر الفروسية ماصور نوازع الشر التي تتخذ من الاغارة والعدوان والسلب والنهب مسرحاً لها .

ويرى الدكتور شوقي ضيف « أن الفروسية الجاهلية بعثت في نفوس اصحابها ضرباً من التسامي والاحساس بالمروءة الكاملة ، فاذا هم يتغنون دائماً بمجموعة من الفضائل والخصائل الحميدة ، واقرأ فيهم فستراهم يتحدثون عن كرمهم الفياض ووفائهم وحلمهم وأنفتهم وعزتهم وصبرهم على الشدائد وتحمل المشاق وحفاظهم على العهد وحماية الجار (٤١) » .

وفي ميدان الفروسية تتجلى القيم الاخلاقية على صورة شخصها لنا أكثر من شاعر عربي ، وهي صورة الانسان الذي يقارع خصمه وجهاً لوجه ويأبى على نفسه الغدر والبطش . يقول عبدالشارق بن عبدالعزى الجهني (٤٢) :

(٣٨) : م . ن. ص ٤٠ .
(٣٩) : م. ن . / ص ٥٦ .
(٤٠) الفروسية في الشعر الجاهلي ـ نوري حمودي القيسي ص٢٩ .
(٤١) تاريخ الادب العربي ـ العصر الجاهلي .د. شوقي ضيف ص٣٧١ .
(٤٢) لم اجد له ترجمة وافية سوى ماورد في هامش ٢/ شرح ديوان الحماسة القسم الأول ص ٤٤٢

ردينة لو رأيت غداة جئنا   على أضماتنا وقد احتوينا
فارسلنا أبا عمرو ربيئاً   فقال الا أنعموا بالقوم عيناً
ودسوا فارساً منهم عشاء   فلم نغدر بفارسهم لدينا
وجاؤوا عارضاً برداً وجئنا   كمثل السيل نركب وازعينا(٤٣)

إن الروح التي يتحلى بها الشاعر وقومه أبت عليهم أن يغدروا بالعين وهي تترصد ثغراتهم وتكشف عن مواطن الضعف فيهم . ولكن حين وافت ساعة اللقاء لم يكن بد من أن يتخذوا لذلك موقفاً آخر هو موقف المجابهة الصريحة .

« وقد كان من حبه للفروسية وتقديسه لمثلها أنه ذكر أخاه الذي خر صريعاً في المعركة ، ولم يبال بذلك فجعل قتله وقتل كل فتى شرفاً للفتوة والرجولة ،واطلقها كلمة مأثورة (وكان القتل للفتيان زينا) » (٤٤) .

وكثير من الشعراء كشف عن هذا التوازن الأخلاقي في مقارعة الأعداء ، هذا التوازن القائم على تجنب الغدر والوقيعة التي تباغت الآمنين ، وعلى الاقدام والبسالة التي تفعل فعلها في الموقف الحاسم ، فالشجاعة بكل مدلولاتها من اقدام وثبات وصبر من مستلزمات الفروسية والشاعر الجاهلي قطبة بن محصن بن جرول الملقب بالحادرة في عينيته المشهورة يشير بوضوح إلى هذا التوازن الأخلاقي في مواجهة الخصوم حيث يقول (٤٥) :

اسمي ويحك هل سمعت بغدرة   رفع اللواء لنا بها من مجمع
أنا نعف فلا نريب حليفنا   ونكف شح نفوسنا في المطمع
ونقي بآمن مالنا احسابنا   ونجر في الهيجا الرماح وندعي
ونخوض غمرة كل يوم كريهة   تردي النفوس وغنمها للأشجع
ونقيم في دار الحفاظ بيوتنا   زمناً ، ونظعن غيرنا للامرع
ومحل مجد لايسرح أهله   يوم الاقامة والحلول لمرتع

ومن الخلق الذي يلفت الأنظار ويستأثر بالاعجاب أن يقر الفارس المقاتل بفضل خصمه وبسالته. وفي الشعر الجاهلي من هذا الضرب من الموضوعات شيء كثير ،« وهذا الضرب من الشعر

---

(٤٣) شرح ديوان الحماسة – المرزوقي – القسم الأول ص٤٤٢ – ٤٤٥ .
(٤٤) الشعر الجاهلي – خصائصه وفنونه – د . يحيى الجبوري ص١٩٢ .
(٤٥) المفضليات ٨ – وللدكتور محمد النويهي تحليل رائع لهذه العينية في الجزء الأول من كتابه (الشعر الجاهلي – منهج في دراسته وتقويمه –) ص٢٠٩ .

الذي لا يحتكر الشجاعة لجانب دون آخر هو الذي عرف بشعر الأنصاف وقصائده المنصفات(٤٦)
ويرى الدكتور نوري القيسي انه « طبيعي ان يدفعهم هذا الخلق إلى ان يكونوا منصفين حتى مع خصومهم ، لأن الفطرة العربية السليمة تملي على صاحبها ذلك ، على الرغم من كل الاعتبارات التي كانت تحيط بالمجتمع العربي آنذاك ، وعلى الرغم من كل القيم المتعارف عليها في خضم ذلك الوسط القبلي المتزمت» (٤٧)
واني ازعم ان الخصومات التي كانت تنشب بين القبائل العربية على ضراوتها لم تكن مفضية إلى انقطاع آصرة معينة كان العربي يحس بها في اعماق نفسه تلك هي آصرة الوحدة الشعورية التي كانت تشد ابناء القبائل العربية بعضهم إلى بعض ، مع ان الشاعر العربي لم يكن يفصح بصراحة عن هذا الشعور الكامن في النفوس .

فالشاعر المعاصر لاتطاوعه نفسه ولا تسمح له القريحة ان يقف مشيدا بقوة اعدائه من الاستعمار والصهيونية ، فهنا الخصومة الحدية التي لامساومة فيها ، بخلاف الخصومة عند القبائل ، فهي خصومة املتها ظروف صارمة تجري احداثها بين اخوة تجمعهم هذه الرابطة الشعورية ، واحسب ان المنصفات وهي تعبر عن اشادة الشاعر ببسالة خصمه وقوته ان هي الا ثمرة من ثمرات تلك الرابطة ، ومن ذلك ماقاله عامر بن طفيل (٤٨) في يومين من ايام العرب هما يوم المشقر ويوم فيف الريح (٤٩).

وقد علموا اني اكر عليهم	عشية فيف الريح كر المدور
ومارمت حتى بل نحري وصدره	نجيع كهداب الدمقس المسير
أقول لنفس لايجاد بمثلها	أقلي المراح انني غير مقصر
فلو كان جمع مثلنا لم نبالهم	ولكن اتتنا اسرة ذات مفخر
فجاؤوا بفرسان العريضة كلها	وأكلب طراً في لباس السنور

(٤٦) الشعر الجاهلي – خصائصه وفنونه – د. يحيى الجبوري ص١٩٠ .
(٤٧) دراسات في الشعر الجاهلي .د. نوري القيسي ص١٠٤ – وفي هذا الكتاب فصلان ممتعان استقصى فيهما الدكتور القيسي جوانب هذا الموضوع مع عرض النماذج الوفيرة الموضحة لهذه الظاهرة .
(٤٨) عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر – فارس مشهور غير مدافع وشاعر مجيد فحل – المؤتلف والمختلف للآمدي ١٥٤ . هامش المفضليات ص٣٦٠ .
(٤٩) المفضليات ١٠٦ وفي هامش القصيدة فصل محقق المفضليات الحديث في هذين اليومين .

فالشاعر لم تمنعه اشادته بنفسه من ان يعرف لخصمه مكانته في مضمار البطولة والبأس ، فهو يحسب لذلك حساباً ، فالجمع القادم اسرة ذات مفخر وفيه فرسان اشداء او لو قوة .

واحسب ان القارىء يحس أيضاً انه لولا تلك الرابطة الشعورية التي تشد الشاعر العربي إلى هذا الجمع القادم وهو خصمه لما وصفه بانه اسرة ذات مفخر .

والشاعر الجاهلي يضع الفارس العربي امام مسؤولية اجتماعية ، فهو حامي الذمار والبطل الذي يرد عن قومه كل اعتداء ، يقتحم من اجلهم الحروب ويجد في الموت دونهم مفخرة وفي الفرار عاراً مابعده من عار .

وعامر بن الطفيل الذي «كان من اشهر فرسان العرب بأساً ونجدة وابعدهم اسماً»(٥٠) يصور لنا مهمة الفارس البطولية ، وما يتحلى به من خصال يكسب بها حمداً لايبلى على الأيام يقول عامر بن الطفيل (٥١) :

لقد علمت عليا هوازن انني ... انا الفارس الحامي حقيقة جعفر
وقد علم المزنوق انني اكره ... على جمعهم كر المنيح المشهر
اذا ازور من وقع الرماح زجرته ... وقلت له ارجع مقبلا غير مدبر
وأنبأته ان الفرار خزاية ... على المرء مالم يبل جهدا ويعذر
ألست ترى ارماحهم في شرعاً ... وأنت حصان ماجد العرق فاصبر
اردت لكي لايعلم الله انني ... صبرت وأخشى مثل يوم المشقر
لعمري وما عمري علي بهين ... لقد شان حر الوجه طعنه مسهر
فبئس الفتى ان كنت اعور عاقراً ... جباناً فما عذري لدى كل محضر

وهنا نجد تشخيصاً دقيقاً لسمات الفارس الذي يعي مسؤولياته وعياً تاما ، فهو يصرح بهذه المهمة اعلاناً لمبدأ الالتزام الذي لايفرط فيه ولايتهاون عنه ، ويعمد إلى تصوير اقدامه وخوضه المعركة ببسالة وقوة انه ينهى فرسه عن التراجع والتخاذل ، ثم يشير إلى عار الهزيمة من غير عذر ، وما يباهي بشجاعته واستهانته بالموت ، وقد ضمن القصيدة مااسلفناه فيه القول من تجنب الفارس خصلة الغدر وذلك في قوله :

لعمري وما عمري علي بهين ... لقد شان حر الوجه طعنة مسهر

---

(٥٠) هامش المفضليات ص٣٦٠ .
(٥١) المفضليات ١٠٦ .

ومسهر « هو الذي غدر بعامر وطعنه بالرمح في وجهه ففلق الوجنة وانشقت عينه ، وهو مسهر بن يزيد بن عبد غوث الحارثي وكان فارساً شريفاً » (٥٢) .

والباحث في موضوع الفروسية لايخطئه شاعر مازال يملأ الأسماع والأبصار بالبسالة والفروسية ، ذلكم هو عنترة العبسي ، فان شهرته فارساً مقداماً لم تقتصر على الجانب الحربي وهو أمر يشاركه فيه أكثر من فارس بطل ، فعنترة « يأسر لبك بمثله الخلقية الرفيعة ، فهو مع فروسيته وبذله لنفسه في سبيل قومه سمح السجايا سهل المخالطة والمعاشرة لايبغي على غيره ولايحتمل البغي ولايظلم ولكنه لايستكين للظلم ، فان ظلم تحول كالاعصار العاصف حتى يأتي على ظالمه » (٥٣) .

ويجمل بنا ان نصغي إلى عنترة وهو يعكس لنا عن ذات نقية ترتفع على المتع الرخيصة والانحدار الخلقي المذموم . فالفارس يعلو ولايهبط . فعلو عنترة في مضمار الاخلاق مما يستأثر بالاكبار . فهو يغض الطرف عن الانثى ولايراود السبية عن نفسها حتى يرتبط معها برباط مشروع ، ويأبى على نفسه الاذعان لهوى النفس . كل ذلك عرضة في قصيدة نجتزي منها قوله (٥٤) :

ماااستمت أنثى نفسها في موطن ... حتى أوفي مهرها مولاها
اغشى فتاة الحي عند حليلها ... واذا غزا في الحرب لاأغشاها
وأغض طرفي ما بدت لي جارتي ... حتى يوري جارتي مأواها
أني امرؤ سمح الخليقة ماجد ... لااتبع النفس اللجوج هواها

يقول الدكتور شوقي ضيف : «وعلى هذا تكاملت الفروسية عند عنترة، فلم تصبح فروسية حربية فحسب ، بل أصبحت فروسية سامية فيها الحب الطاهر العفيف الذي يجعل من المحبوبة مثلا أعلى، والذي يرتفع صاحبه عن الغايات الجسدية الحسية إلى غايات روحية تنم عن صفاء النفس ونقاء القلب ، وفيها التسامي عن الدنايا والنقائص الذي يملأ النفوس بالأنفة والاباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعور الرقيق» (٥٥) .

ان هذه المثل والقيم الأصيلة التي خلدها الشعر في ميدان الفروسية قد عمق الاسلام جوانب كثيرة منها ، حيث حرم في الحروب الغدر والمثلة ، وحذر من قتل النساء والاطفال

---

(٥٢) هامش المفضليات ص٣٦٢ القصيدة ١٠٦ .
(٥٣) تاريخ الادب العربي – العصر الجاهلي د. شوقي ضيف. ص٣٧١ .
(٥٤) ديوان عنترة ص٣٠٧ – ٣٠٨ – تحقيق مولوي .
(٥٥) تاريخ الادب العربي – العصر الجاهلي – د. شوقي ضيف ص٣٧٤ .

والشيوخ والعجزة كما حذر من قطع الاشجار وقتل الحيوانات الا لحاجة ضرورية، ثم نمى في النفوس قيماً عالية نشأت عليها والتزمت بها واصبحت من مستلزمات حياة المسلم الملتزم.

« وهكذا كانت الفروسية تمثل لنا جانبين من جوانب الحياة الجاهلية. جانب الحرب وجانب المثل العليا لأنهما بناء واحد وروح واحدة ....فشخصية الفارس البطل تملي عليه أن يكون انساناً سامياً إلى جانب بطولته ، والحياة الجاهلية بطولة متصلة وحماسة متشابكة يكمل الجزء منها بقية الأجزاء وتجتمع الأُسس ليقوم عليها البناء الشامخ الذي احتضن الفروسية بكل مفاهيمها ومعانيها » (٥٦)

٤ – القيم الانسانية في شعر الأخلاق الاجتماعية :

إن الشاعر الجاهلي هو شاعر المجتمع قبل أن يكون شاعر ذاته« يتحدث بضمير الجماعة التي يمثلها ويعتز بانتمائه اليها ، ويرى مجده من مجدها وعزته من عزتها » (٥٧) .

فهو حريص على أن تسود الجماعة التي ينتمي اليها قوة تحمي كيانها ،وأن تتحلى بالخصال الكريمة التي تجلب المحمدة وتدفع المذمة، يؤرق جفنه ان ألم بها ما يغض من شأنها ويلحق بها ذكراً سيئاً في المحافل .

وقد أثرت في الخلق العربي وملامحه وسماته قصائد نستشف منها النظرة السامية للشاعر الجاهلي ،تلك النظرة التي مبعثها ايمان العربي بقيم لاتزال مقدسة كريمة إلى يومنا هذا .

والشاعر الجاهلي يعرض للممارسات الاجتماعية بروح النقاد المتفحص، يشخص عيوبها وسلبياتها ، ويشيد في الوقت ذاته بالمثل الرفيعة ، ويعمد أيضاً إلى حشد تجاربه التربوية والأخلاقية في قصائد لا تذهب بروعتها الايام .

قال عبد قيس بن خفاف : (٥٨)

أَجبيل أن اباك كارب يومه ... فإذا دعيت إلى الفطائم فاعجل
أَوصيك ايصاء امرىء لك ناصح ... طبن بريب الدهر غير مغفل
الله فاتقه واوف بنذره ... وإذا حلفت ممارياً فتحلل
والضيف اكرمه فإن مبيته ... حق ، ولا تك لعنة للنزل

(٥٦) الفروسية في الشعر الجاهلي –نوري حمودي القيسي ص٢٩ – ٣٠ .
(٥٧) قيم جديدة للادب العربي القديم والمعاصر – د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) ص ٣٦.
(٥٨) هو عبد قيس بن خفاف التميمي البرجمي شاعر جاهلي . وهو ممن افسد على النابغة عند النعمان الاغاني (ساسي) ١٥٨/٩ .

واعلم بأن الضيف مخبر أهله بمبيت ليلته وان لم يسأل
ودع القوارص للصديق وغيره كيلا يروك من اللئام العزل
وصل المواصل ماصفا لك وده واحذر حبال الخائن المتبدل
واترك محل السوء لا تحلل به واذ نبا بك منزل فتحول (٥٩)

والقصيدة حتى نهايتها دستور مستمدة خطوطه الأساسية من تجربة واعية لمتطلبات الحياة، وهي تجربة قائمة على أساس إيجابي ، حيث يوصي الرجل ولده أن يرعى للأخلاق الاجتماعية حرمتها .

والقصيدة حافلة بالمكرمات والفضائل التي ترفع مقام المتحلي بها وتبوئه مكانة بين الناس سامية مرموقة ، وروعة هذه القيم والفضائل انها لاتختص بعصر دون عصر بل هي صالحة لكل زمان ومكان .

يقول محققا المفضليات :

« هي من الأدب الرفيع والخلق السامي ، فهي من أولها إلى غايتها سياسة رسمها الشاعر لابنه جبيل اقتبسها من خلق العربي ومن تجاربه هو وحنكته ، فهي بذلك سجل للمثل الأخلاقي العالي عند العرب ، ودليل على عناية هؤلاء القوم بتربية أبنائهم وحرصهم على السمو»(٦٠).

وممن جرى في مضمار عبد قيس بن خفاف الشاعر الاعشى ،وهو إذ يوصي ولده وصية من ساس الامور وجربها . فإنما يمنحه عصارة خبرة ناضجة في العلاقات الاجتماعية القائمة على قيم أخلاقية حميدة .

قال الأعشى (٦١):

سأوصي بصيراً ان دنوت من البلى وصية من ساس الامور وجربا
بأن لاتأبى الود من متباعد ولاتنأ من ذي بغضة أن تقربا
فإن القريب من يقرب نفسه لعمر أبيك الخير لامن تنسبا

ويعالج بعض الشعراء ظواهر اجتماعية سلبية تترك آثارها السيئة في علاقات الناس بعضهم مع بعض ،ومن هذه الظواهر المصانعة للعدو والاستكبار على الأقارب والمعارف . وفي

---

(٥٩) المفضليات ١١٦ – ان المقدار الذي اجتزأناه للاستشهاد لايغني عن الرجوع الى القصيدة وقراءتها كاملة .

(٦٠) هامش المفضليات ص١٨٥ القصيدة ١١٦ .

(٦١) حماسة البحتري ص١٧٤ .

ذلك يقول بيهس بن ضمرة الضبي (٦٢):

ومـلازم ضبـا يحـدث أنـه ود ويـزعم منه مـالم يـزعـم
صنع بأثنـاء المقالـة دائـب بين الأقـارب بالخنا والمأثم
أمـا إذا لقي العدو فـثعلـب وعلى الأقـارب شبه ليث ضيغم
فلقد هممـت به الهمـوم فرد لي عنـه التحـلـم انـه لم يـحلم

فالشاعر لايشخص داء النفاق والجبن فحسب ، بل يظهر بالتزامه الحلم ترفعاً عن الخوض مع السفهاء الذين لايرعون للروابط الاجتماعية حرمة .

ومن الشعر الاجتماعي عند الجاهليين اشارات إلى اهتمام القوم بنوعية السلوك الاجتماعي وهذه الاشارات هي أشبه بما هو معروف اليوم في أوساط الناس بقواعد «الأتيكيت». ومن ذلك قول عدي بن زيد العبادي (٦٣) .

إذا أنت فاكهت الرجال فلا تلغ وقـل مثل ماقالوا ولا تتزيـد
واياك مـن فرط المزاح فإنـه جديـر بتسفيـه الـحلـيـم المسدد

وللمثقف العبدي (٦٤) أبيـات تعرض جملة من قيم اجتماعية تعكس وجهاً من وجوه التطور الاجتماعي لهذا المجتمع الذي وصفـه بعض الباحثين بأنه المجتمع الذي تسيطر عليه البداوة والبساطة .

ومن هذه الأبيات (٦٥):

لاتقولن اذا ما لم ترد ان تتم الوعد في شيء نعم
حبـسن قـول نعـم من بعد لا وقبـيح قـول لا بـعـد نعم

ومنها :

واعلـم أن الذم نقـص للفتى ومتـى لايتفـق الـذم يـذم
أكـرم الجـار وارعـى حقه ان عرفـان الفتى الحق كـرم

---

(٦٢) حماسة البحتري ص٢٧٤ .

(٦٣) ديوان عدي بن زيد العبادي ص١٠٥ — حماسة البحتري ص ٢٥٤ .

(٦٤) هو العائذ بن محصن بن ثعلبة من بني عبد القيس ، شاعر جاهلي من أهل البحرين ، اتصل بالملك عمرو بن هند وله فيه مدائح .الشعر والشعراء ص٣١١ .الخزانة للبغدادي ج٤ ص ٤٣١ .

(٦٥) المفضليات ٧٧ .

لاتـراني راتعـاً في مـجلس في لحـوم الناس كالسبع الـضرم
ان شر الناس من يكشر لي حين يلقاني وان غبت شتم

فالشاعر لايقدم لنا موازنة سطحية بين قول نعم ولا ، وانما يشير إلى الارادة والتصميم والعزم آزاء التردد والتهاون والاضطراب . ثم ينكر على الناس من خلال تلك الأبيات ان يخوضوا في أعراض الناس غيبة وذماً . ويشير في سخرية لاذعة إلى النفاق الاجتماعي الذي يظهر في أوساط الناس .

ومن النظرات الاجتماعية السديدة نظرة بعض الشعراء إلى قضية الغنى والمال . فالنمر بن تولب حين يعرض نظرته إلى المال ودوره في حياة الانسان في قوله (٦٦) :

أقي حسـبي بـه ويعـز عرضي علـي إذا الحفيـظـة أدركتني
وأعلم أن ستدركني المنايا فالا اتبعـهـا تـتـبـعـنـي

تتضح أمامنا نظرة أخلاقية تترفع على الامور المادية بل تضع ذلك في موضع حيوي من حياة الانسان تصان به الأعراض والأحساب ، فالمال ليس غاية لذاتها عند الشاعر وانما هو وسيلة لأشرف غاية .

ولعل النظرة الايجابية إلى المال والغنى والدعوة إلى استثمارهما في ميادين الخير وكسب المحامد تتضح أيضاً في قول أبي قيس بن الاسلت (٦٧)

فمـن ورث الغنـى فلـيصطنعه صنيعتـه ويـجـهـد كـل جهد
ولايمـنـعـه مـن حمـد وشكر ولا يبخـل بـه عن فعل رشد(٦٨)

وعند الرجل الكريم حاتم الطائي تبدو النظـرة الاخلاقية للمال أوضح وأجلى ،فلا يهم الرجل أن يهب ماله كله ويكسب من وراء ذلك حسن الا حدوثه والذكر الحميد.
يقول (٦٩) :

أماوي أن المـال غـاد ورائح ويبقـى من المال الأحاديث والـذكر

(٦٦) شعر النمر بن تولب – صنعه الدكتور نوري القيسي ص ١١٩ .
(٦٧) هو صيفي بن عامر ابو قيس شاعر جاهلي – وكان راس الاوس وشاعرها وخطيبها – الاغاني (ساسي) ١٥/١٥٤ .
(٦٨) حماسة البحتري ص٢١٦ .
(٦٩) ديوان حاتم الطائي ص٥٠ .

أماوي أني لا أقول لسائل إذا جاء يوماً : حل في مالنا النزر
أماوي مايغني الثراء عن الغنى إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

ويقول :

وقد علم الأقوام لو أن حاتماً اراد ثراء المال كان له وفر
فإني لا آلو بمالي صنيعه فأوله زاد وآخره ذخر

وفي مضمار التوازن الاجتماعي يبرز النابغة الذبياني برجاحة عقله وعمق ادراكه لمتطلبات الحياة الاجتماعية مثلاً حياً لهذا التوازن ، وقد اتخذ سياسة قوامها الاعتدال واللين وتحكيم العقل في السلوك والممارسات دون الجنوح إلى التهور والعصبية المقيتة .

«والاعتدال في فهم القبيلة كان من مقومات سياسة النابغة ومبادئها ، فليست القبيلة عنده التحمس الأعمى أو الانزلاق في تهور قد يجر الويلات ويشط بالقبيلة إلى طريق مظلم مضطرب ، وإنما كان يأخذ الامور أخذ المجرب الحكيم الذي يؤثر التريث على العجلة ويفضل اللين على العنف ، ويعتقد أن مهادنة الناس ومصالحتهم خير وأبلغ في الوصول إلى الغاية من معاداة الناس ومخاصمتهم » (٧٠) .

ومما يصور هذه السياسة الأخلاقية الحكيمة في التعامل الاجتماعي قوله (٧١) :

فإن يك عامر قد قال جهلاً فإن مظنة الجهل الشباب
فكن كأبيك أو كأبي براء توافقك الحكومة والصواب
ولا تذهب بحلمك طاميات من الخيلاء ليس لهن باب

وعند الشاعر الجاهلي يتجسد الحرص الكبير على القيم الأخلاقية والابتعاد عن كل مشين من السلوك والعادات .

والسموأل يعرض لنا هذا الجانب في أبيات له فيقول : (٧٢)

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكل رداء يرتديه جميل
إذا المرء لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل
تعيرنا أنا قليل عديدنا فقلت لها : ان الكرام قليل

---

(٧٠) النابغة الذبياني – د. محمد زكي العشماوي ص١٧٠ .
(٧١) ديوان النابغة الذبياني – صنعة ابن السكيت ص١٥٥ .
(٧٢) شرح ديوان الحماسة – المرزوقي – ص١١٠ – ١١٣ وتنسب هذه القصيدة الى عبد الملك ابن عبد الرحيم الحارثي

وما قـل من كانت بقاياه مثلنا   شباب تسامى للعلى وكهول ..
وما ضرنا أنا قـليل وجارنا   عزيـز وجار الأكثـريـن ذليل
لنـا جبل يحتلـه مـن يجيـره   منيـع يـرد الطرف وهو كليلُ

فالشاعر لايرى المفخرة في المظاهر المبهرجة قدرَ مايرى أن يكون عرضه مصوناً من اللؤم وان قومه كرام وان كانوا في العد قلاً ، وهم يتسامون إلى معالي الامور شباباً وكهولا ، ومن سجاياه الكريمة انهم مع قلتهم ينزلون الجار من نفوسهم مكانة التقدير والاكبار .

ويكن ذو الاصبع العدواني « لقبيلته حباً ووداً وصفاء نابعاً من خلقه النبيل الذي لم يبح له أن ينطوي على غيظ وحقد .يكدر صفو علاقته بقومه ، اولئك الذين سعى جاهداً إلى حقن دمائهم من الضياع » (٧٣).

والالتزام الأخلاقي آزاء أعراف القبيلة مما يتباهى به الشاعر الجاهلي ، ويتضح ذلك في قول ذي الاصبع العدواني (٧٤).

انـكـما مـن سـفـاه رأيـكـما   لاتجـنـبانـي الشـكاة والـقـذعا
ثم اسألا جـارتـي وكـنـتـها   هـل كنـت ممـن أراب أو خدعا
أو دعتاني فلـم أجب ولـقـد   يـأمن مني خليـلي الفجعـا
آبـى فلا أقـرب الـخـبـاء إذا   ما ربـه بـعـد هـداة هجـعـا
ولا أروم الـفـتـاة رؤيـتـهـا   إن نـام عنـها الحليـل أو شسعا

وفي شعر الصعاليك التزام بمثل هذه القيم والفضائل يحملنا على أن ننظر بشيء من الاكبار لهذه الصفوة المغبونة في مجتمع الجاهلية ، وها هو ذا الشنفرى يرسم لنا صورة مثالية للمرأة العربية .يؤطرها بنظرات أخلاقية مترفعة على شهوات النفس الهابطة يقول الشنفرى (٧٥) :

لقـد أعجبتـني لا سقوطاً قناعها   إذا مامـشـت ولا بذات تلفـت
تبيـت بعيـد النوم تهـدي غبوقها   لجاراتهـا إذا الهديـة قـلـت
يحـل بمنجـاة من اللوم بيتـها   إذا مـا بيوت بالمذمـة حلت
اميمـة لايخـزى نثاهـا حليلها   إذا ذكـر النسوان عفت وجلت

---

(٧٣) ديوان ذي الاصبع العدواني – جمع وتحقيق عبد الوهاب محمد علي العدواني ومحمد نايف الدليمي ص١٨ المقدمة .
(٧٤) م . ن ص ٥٨ – ٥٩ .
(٧٥) المفضليات ٢٠ .

وممن يشيد بنفسه وبقومه في الالتزام بمكارم الأخلاق قيس بن عاصم في قوله : (٧٦)

انــي امرؤ لايعــتــري خلــقــي دنس يفــنــده ولا أفــــن ،
مــن منــقر في بيــت مــكــرمة والــفــرع ينبــت حــوله الغصن
خطباء حيــن يقــوم قــائلهم بيــض الــوجــوه مصاقع لسن
لا يفطنــون لعيــب جــارهــم وهــم لحفــظ جواره فطن (٧٧)

إن هذه القيم والمثل التي تصافح القلوب فتنعشها غبطة وتملؤها اعجابا والتي حملها الشاعر أمانة تأريخية تصلنا باسلافنا بأوثق الروابط.

ولعلنا من خلال ماقدمنا وقفنا على جوانب من حياة الانسان العربي في الجاهلية وهو يمارس قيمه الانسانية الفاضلة وينادي بالمثل الكريمة .

فقد استثمر الاسلام هذه الطاقات الخيرة التي غرست في اعماق الانسان « فطرة الله التي فطر الناس عليها » في سبيل بناء المجتمع الجديد بما جاء من مبادىء خلقية سامية واحكام اجتماعية سديدة تهدف إلى تحقيق السعادة في مجتمع الانسان وترفع عن كاهله اصر الجاهلية في بعض أعرافها الباهظة المقيتة ، وقد تجلى ذلك في قول الرسول (ص) : « انما بعثت لاتمم مكارم الأخلاق » .

وكان بين يدي وأنا اتابع كتابة هذا البحث ــ مجموعة وفيرة من الشعر الجاهلي قصائد ومقطعات يبدو العربي من خلالها انساناً ملتزماً بهذه القيم حفياً بتلك الفضائل حريصاً على الذود عنها .

وكان فيما عرضته في ثنايا البحث علامات مضيئة على طريق طويل وفي مساحة زمنية رحيبة المدى فسيحة الآفاق يمكن للباحثين أن يرودوها ويستجلوا كثيراً من سماتها الايجابية وخصائصها الكريمة ..... والله الموفق للسداد .

ثبت المصادر والمراجع

١ ــ تأريخ الأدب العربي ــ المجلد ٢ ــ ر ــ بلاشير ــ ترجمة د. ابراهيم الكيلاني منشورات وزارة الثقافة السورية ــ دمشق ١٩٧٣ .

---

(٧٦) هو قيس بن عاصم بن سنان المنقري احد امراء العرب وعقلائهم كان شاعراً اشتهر وساد في الجاهلية . وهو ممن حرم على نفسه الخمر فيها . وفد على الرسول (ص) فاسلم.
معجم الشعراء ــ المرزباني ٣٢٤ ــ الخزانة للبغدادي ٤٢٨/٣ .

(٧٧) شرح ديوان الحماسة ــ القسم الرابع ص١٥٨٤ .

٢ — تأريخ الأدب العربي — العصر الجاهلي — د. شوقي ضيف — دار المعارف بمصر — ط ٥ — ١٩٦٠ .
٣ — حماسة البحتري — نشرة لويس شيخو — ط ٢ — دار الكتاب العربي — بيروت ١٩٦٧
٤ — الحياة العربية من الشعر الجاهلي — د. أحمد الحوفي — ط ٤ مكتبة نهضة مصر — القاهرة ١٩٦٢ .
٥ — دراسات في الشعر الجاهلي — د. نوري حمودي القيسي — دار الفكر — دمشق — ٩٧٤
٦ — ديوان اوس بن حجر — تحقيق وشرح د. محمد يوسف نجم . دار صادر — بيروت ١٩٦٠ .
٧ — ديوان حاتم الطائي — دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٧٤ .
٨ — ديوان ذي الاصبع العدواني — جمع وتحقيق عبد الوهاب محمد علي العدواني ومحمد نايف الدليمي — مطبعة الجمهور بالموصل ١٩٧٣ .
٩ — ديوان عدي بن زيد العبادي — تحقيق محمد جبار المعيبد — نشرة وزارة الثقافة والارشاد العراقية (وزارة الاعلام) مسلسة كتب التراث ٢ — مطبعة الجمهورية بغداد ١٩٦٥ .
١٠ — ديوان عروة بن الورد — شرح ابن السكيت — تحقيق عبد المعين الملوحي — نشرة وزارة الثقافة السورية .
١١ — ديوان عنترة — تحقيق محمد سعيد مولوي — طبعة المكتب الاسلامي — دمشق ١٩٧٠
١٢ — ديوان النابغة الذبياني — صنعة ابن السكيت — تحقيق د. شكري فيصل — دار الفكر بيروت ١٩٦٨ .
١٣ — شرح ديوان الحماسة (حماسة ابي تمام) — أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي — نشر أحمد امين وعبد السلام هرون .مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة ١٩٦٧ .
١٤ — شرح ديوان عنتر — تصحيح ابراهيم الزين — دار النجاح — دار الفكر بيروت.
١٥ — شرح القصائد العشر — الخطيب التبريزي — تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ط٢ — ١٩٦٤
١٦ — شعر تأبط شراً — دارسة وتحقيق سلمان داود القرة غولي . وجبار تعبان جاسم مطبعة الآداب — النجف ١٩٧٣
١٨ — الشعر الجاهلي — منهج في دارسته وتقويمه — د. محمد النويهي . دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع — بغداد ١٩٧٢ .

١٨ — الشعر الجاهلي — منهج في دراسته وتقويمه — د. محمد النويهي .
جـ١ — الدار القومية للطباعة والنشر — القاهرة .

١٩ — الشعر في حرب داحس والغبراء — د. عادل البياتي .
مطبعة الآداب في النجف — ١٩٦٩ .

٢٠ — شعر النمر بن تولب — صنعة الدكتور نوري حمودي القيسي.
مطبعة المعارف بغداد ١٩٦٨ .

٢١ — الطرائف الأدبية (مجموعة دواوين ومختارات شعرية) تصحيح وتخريج :
عبد العزيز الميمني — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة ١٩٣٧

٢٢ — الفروسية في الشعر الجاهلي — نوري حمودي القيسي .
منشورات مكتبة النهضة — بغداد ١٩٦٤ .
مطبعة دار التضامن — بغداد .

٢٣ — قيم جديدة للأدب العربي القديم والمعاصر — د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء)
دار المعارف بمصر — ١٩٧٠ .

٢٤ — لامية العرب — الشنفرى — شرح وتحقيق د. محمد بديع شريف
دار مكتبة الحياة — بيروت ١٩٦٤

٢٥ — المفضليات — المفضل الضبي — تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هرون
دار المعارف بمصر .

٢٦ — النابغة الذبياني — د. محمد زكي العشماوي — مكتبة الدراسات الأدبية — دار المعارف بمصر

فاروق محمود الحبوبي

منهج ابن منظور *

في لسان العرب

(الباب الاول)

ابن منظور :

هو : «محمد بن جلال الدين مكرم بن نجيب الدين أبي الحسن علي بن أحمد بن أبي القاسم بن حبقة بن محمد بن منظور ...» (١)

وشهر بنسبته إلى جده السادس (منظور) ، إذ عنده يقف معظم من ترجم له (٢) . وكان يكنى أبا الفضل (٣) ويلقب جمال الدين (٤) . كما أطلق بعض من ترجم لأبن منظور تسمية (الرويفعي) (٥) نسبةً إلى (رويفع بن ثابت الأنصاري) أحد أجداده . أما نسبته (الأفريقي) فلم أجدها عند معاصريه — أمثال ابن شاكر الكتبي المتوفى عام ٧٦٤هـ — ، بل جاء بها ابن حجر العسقلاني المتوفى عام ٨٥٢ هـ(٦) ثم تلاه جلال الدين السيوطي المتوفى عام ٩١١هـ (٧) كما أطلقت عليه تسمية (الأنصاري) نسبةً إلي جده الحادي والثلاثين[(الخزرج) وهو أخو الأوس واليها نسب الأنصار](٨) .

ولادته :

أجمع الرواة والمؤرخون على أن (ابن منظور) قد ولد في المحرم سنة (٦٣٠ هـ) (٩)

---

(١) ابن منظور . لسان العرب .ط١ .ج١ ص ٢٥٦ .« وفيه يذكر (ابن منظور) نسبه كاملا إلى يعرب بن قحطان »...

(٢) : أنظر : أ — ابن حجر العسقلاني .الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة .ج٤. ص٢٦٢.
ب — جلال الدين السيوطي .بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة. ص١٠٦
ج — حسين نصار .المعجم العربي :نشأته وتطوره .ط٢ .ص٥٤٤.

(٣) : أنظر :أ — صلاح الدين الصفدي .نكت الهميان في نكت العميان .ص ٢٧٥ .
ب — ابن حجر العسقلاني : الدرر الكامنة .ج٤ ص ٢٦٢ .

(٤) : أنظر: أ — ابن شاكر الكتبي .فوات الوفيات .ج٢ .ص ٥٢٤ .
ب — جلال الدين السيوطي . بغية الوعاة .ص ١٠٦ .

(٥) : أنظر : ابن شاكر الكتبي .فوات الوفيات .ج٢ ص ٥٢٤ .

(٦) : أنظر : ابن حجر العسقلاني .الدرر الكامنة .ج٤ .ص ٢٦٢ .

(٧) : أنظر :السيوطي .بغية الوعاة .ص ١٠٦ .

(٨) : ابن منظور لسان العرب .ج١ .ص ٢٥٦ .

(٩) : أنظر: أ— ابن شاكر الكتبي .فوات الوفيات .ص ٥٢٤ .
ب — ابن حجر العسقلاني .الدرر الكامنة .ج٤ .ص ٢٦٢ .
ج — جرجي زيدان . تاريخ آداب اللغة العربية .ج٣. ص١٥٣

ثلاثين وستمائة للهجرة ، واختلفوا في مكان ولادته فقيل بمصر (١٠) وقيل بطرابلس الغرب (١١) ،وقيل انه « ولد في تونس حيث نشأ بها » (١٢).

وأورد لنا صلاح الدين الصفدي رواية : «وكتب عنه شمس الدين الذهبي اخبرني العلامة أثير الدين أبو حيان رحمه الله قال : ولد المذكور يوم الاثنين الثاني والعشرين من المحرم سنة ثلاثين وستمائة .» (١٣).

وبعد هذا الاجماع على سنة مولده ، نجد أحمد فارس الشدياق في مقدمته على لسان العرب يذكر أن مولده كان في المحرم سنة ٦٩٠هـ (١٤) ،ثم يأتي عبدالله درويش فيقول : « انه ولد عام ٦٨٠هـ (١٥)، واخيراً جعل مصطفى الشكعة ولادته سنة ٦٣٣ هـ (١٦)، دون أن يذكر لنا المصدر الذي اعتمد عليه ....

أما ماذهب اليه عبدالله درويش ومصطفى الشكعة، فهو من قبيل الاجتهاد الشخصي في الاستنباط دون الرجوع إلى المصادر القديمة التي تشير إلى ذلك . ومن المرجح أن ابن منظور قد ولد بمصر ،والدليل على ذلك : ماأورده هو في مختصره لكتاب فصل الخطاب للتيفاشي (١٧).

نشأته :

عاش (ابن منظور) — مؤلف لسان العرب — في الفترة الزمنية التي كاد معين التأليف والابداع فيه أن يجف ، إذ ولد قبل سقوط بغداد (١٨) في قبضة التتر على يد هولاكو

---

(١٠) أنظر : يوسف اليان سركيس . معجم المطبوعات العربية والمعربة .جـ١ ص٢٥٥ .

(١١) أنظر : خير الدين الزركلي . الاعلام .ط٢ .جـ٧ .ص ٣٢٩ .

(١٢) عبد الله درويش . المعاجم العربية .ص ١٠٠ .

(١٣) صلاح الدين الصفدي . نكت الهميان . ص ٢٧٥ .

(١٤) أنظر : ابن منظور . لسان العرب .جـ١ . «المقدمة » .ص ٣.

(١٥) عبد الله درويش . المعاجم العربية . ص ١٠٠ .

(١٦) انظر . مصطفى الشكعة . مناهج التأليف عند العلماء العرب .ص ٦١٥ .

(١٧) أنظر : ابن منظور . مختار الأغاني في الأخبار والتهاني . تحقيق ابراهيم الأبياري جـ١ ص «ل — م » .

(١٨) أنظر : أ — محمد صالح داود القزاز . الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية ..
ب — أحمد حسن الزيات . تاريخ الادب العربي . ط٢٤ص ٤٠٧ .
جـ — عمر رضا كحالة . معجم المؤلفين .جـ١٢ .ص ٤٦ .

سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) بست وعشرين سنة . وقد عاصر الاضطراب والتدهور السياسي الذي مرت به الامة العربية .. كان عمر ابن منظور يوم مات أبوه نحواً من خمس عشرة سنة ، « ولقد عرفنا من تصريحه أن أباه مات سنة ٦٤٥هـ» (١٩) . ولقد كانت طفولته مشغولة بتحصيل العلم والبحث ، « وعلى ما كان عليه الأب وكان عليه الجد نشأ ابن منظور ، جذبته هذه الحركة العلمية التي صخب بها بيته منذ أن دب . ولقد عرفنا من هذا البيت قبل ابن منظور جده الأول نجيب الدين والد المكرم » (٢٠) .

شيوخه وتلاميذه :

جلس ابن منظور إلى رجال عرفوا بسعة المعرفة والاطلاع والثقافة العربية والاسلامية الأصيلة ، ومن هؤلاء الشيوخ (٢١) : —

١ — يوسف ابن المخيلي .

٢ — عبد الرحمن بن الطفيل

٣ — مرتضى بن حاتم .

٤ — ابن المقير .

أما تلاميذه ، فنجد السيوطي في بغية الوعاة والصفدي في نكت الهيمان يذكران رجلين تتلمذا على يده وجلسا اليه ، وهما : —

١ — محمد بن أحمد الذهبي (٦٧٣ — ٧٤٨هـ / ١٢٧٤ — ١٣٤٨ م) (٢٢) .

٢ — تاج الدين السبكي (ت ٧٧١ هـ) (٢٣) .

---

(١٩) أنظر : مقدمة ابراهيم الأبياري على كتاب مختار الاغاني لابن منظور . ص «م» .

(٢٠) : المصدر السابق . ص «ن» .

(٢١) أنظر : أ — الصفدي . نكت الهميان . ص ٢٧٥ .
ب — ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب في أخبار من ذهب . ج٦ . ص ٢٦ .
ج — عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين . ج١٢ . ص ٤٦ .

(٢٢) أنظر أيضاً :
أ — دائرة المعارف . اصدار بطرس البستاني . م١ . ص ٦٤٤
ب — شمس الدين الذهبي ميزان الاعتدال في نقد الرجال . تحقيق علي البجاوي .

(٢٣) : أنظر : دائرة المعارف . م ٩ . ص ٤٦٣ .

٣ — « وبين هذين التلميذين نجد ذكراً لثالث هو قطب الدين ، ولد ابن منظور هذا وكان قطب الدين كاتب الانشاء بمصر » (٢٤).

علمه وثقافته :

تذكر المصادر القديمة (٢٥) أنه كان واسع الاطلاع في جميع فروع الأدب ، وكان قد «جمع وعمر وحدث » (٢٦) . وثقافته تعود الى ما حصل عليه في مجالس الأدب التي كان يزخر بها بيته —كما أسلفنا — اضافة إلى ماحصل عليه من شيوخه الذين تتلمذ عليهم ، فازدادت مداركه لمجالات المعرفة ، وراح يبحث في بطون امهات الكتب العربية في اللغة والأدب ليستلهم مافيها من تراث خالد ، فينبغ عالماً من علماء اللغة والأدب ، ويتتلمذ عليه أدباء ومؤرخون رووا عنه وعن علمه وثقافته . وليس غريباً إذا قلنا أنه كان رجلاً موسوعي الثقافة منهجي البحث ، وجدير به وهو صاحب معجم لسان العرب.

خدم في ديوان الأنشاء في القاهرة مدةً طويلة (٢٧) ، حيث كان جميل الانشاء حسن الخط قد كتب « الصحاح للجوهري في مجلدة واحدة بخطه ، في غاية الحسن » (٢٨) . « ثم ولي القضاء في طرابلس (٢٩) ،وعاد إلى مصر » (٣٠) .

وفاته

اتفق المؤرخون على أن وفاة (ابن منظور) كانت في مصر في شعبان سنة ٧١١ هـ احدى عشرة وسبعمائة للهجرة (٣١) . ولكن الغريب أنا نجد : تقي الدين المقريزي — (٧٧٦ —

(٢٤) : ابن منظور . مختار الأغاني .جـ١ . ص «ع» «مقدمة المحقق » .

(٢٥) أنظر : أ — العسقلاني . الدرر الكامنة . جـ٤.ص٢٦٢

ب — السيوطي . بغية الوعاة ص١٠٦ .

(٢٦) يوسف اليان سركيس . معجم المطبوعات . جـ١.ص٢٥٥

(٢٧) أنظر :أ — ابن شاكر الكتبي . فوات الوفيات . جـ٢.ص٥٢٤

ب — الصفدي . نكت الهميان . ص٥

(٢٨) الصفدي . نكت الهميان . ص٢٧٦

(٢٩) : أنظر (٢٧) و (٢٥)..

(٣٠) عمر رضا كحالة . معجم المؤلفين ، جـ١٢.ص٤٦ .

(٣١) أنظر : أ — ابن العماد الحنبلي . شذرات الذهب . جـ٦. ص٢٦ .

ب — ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات . جـ٦.ص٥٢٤ .

جـ — الصفدي . نكت الهميان . ص ٢٧٥

٨٤٥هـ) ـ قد جعل وفاته في المحرم ، حيث قال : « ومات جمال الدين أبو الفضل ... في ثالث عشري المحرم ، عن بضع وثمانين سنة ، ودفن بالقرافة (٣٢) .

والأغرب من هذا ، ان (احمد فارس الشدياق) جعل وفاته سنة (٧٧١ هـ) احدى وسبعين وسبعمائة (٣٣) . وهذا ضرب من التوهم الذي وقع فيه الشدياق حين تحدث عن ولادته التي سبق ذكرها .

« وذكر ابن فضل الله أنه عمي في آخر عمره وكان صاحب نكت ونوادر »(٣٤).ووصلنا عنه شعر رقيق قليل لايستقيم مادة للحكم عليه ، ولم أجد من الأقدمين من علق حوله سوى العسقلاني (٣٥).

مؤلفاته ومختصراته :

كان (ابن منظور) كثير النسخ « مغرى باختصار كتب الأدب المطولة » (٣٦) . وقد « ترك بخطه خمسمائة مجلدة » (٣٧) .

وذكر ابراهيم الأبياري (٣٨) عشراً من مؤلفاته ومختصراته وأغفل ذكر : ـ

١ ـ مختصر (العقد الفريد (٣٩) ـ لابن عبد ربه) .

٢ ـ أخبار أبي نواس (٤٠) :وهو صفحات عن حياة أبي نواس الحسن بن هاني ، مع بعض قصائده وأخبار طريفة لصحبته الماجنة الظريفة .

---

(٣٢) تقي الدين المقريزي . كتاب السلوك . ق١ . ج٢ . ص١١٤س٧ .

(٣٣) : انظر : ابن منظور . لسان العرب . ج١ « مقدمة الشدياق » ص٣ .

(٣٤) : ابن حجر العسقلاني . الدرر الكامنة . ج٤. ص ٢٦٣

(٣٥) : المصدر السابق . ص٢٦٣ ـ ٢٦٤

(٣٦) : ابن حجر العسقلاني . الدرر الكامنة .ج٤.ص٢٦٣ .

(٣٧) أنظر : (٣٦)، وانظر ايضاً : ابن منظور . لسان العرب . ج١.«مقدمة الشدياق » .ص ٥

(٣٨) أنظر : مقدمة الابياري على كتاب مختار الاغاني ـ لأبن منظور . ج١.

(٣٩) أنظر : ابن حجر العسقلاني . الدرر الكامنة . ج٤.ص٢٦٣

(٤٠) أنظر : الزركلي . الاعلام . ج٧.ص٣٢٩ . (وكتاب اخبار ابي نواس مطبوع ، وقد حققه كل من :

١ ـ شكري محمود احمد . وطبعه في بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٥٢م.

٢ ـ محمد عبد الرسول ابراهيم . وطبعه في القاهرة ، مطبعة الا عتماد ، ١٩٢٤

الباب الثاني

تمهيد :

يعد (لسان العرب) — لابن منظور — في مقدمة كتب المعاجم اللغوية (١) ، فهو موسوعة يستفيد منها اللغوي والاديب والفقيه والمفسر ، لانها « من أضخم معاجم العربية قاطبة وأكثرها اسهاباً وأغزرها مادة » (٢) ، « وأدقها تعبيراً » (٣) .
وكان مؤلفه « عارفاً بالنحو واللغة والتاريخ والكتابة » (٤) ، « وكان كثير الحفظ » (٥) .
لقد احتوى اللسان على زهاء (٨٠/٠٠٠) ثمانين الف مادة ، وهو عدد لم يجتمع لمعجم عربي آخر (٦) .

(الفصل الاول)

١ — مادة لسان العرب

لو تصفحنا لسان العرب ، لوجدنا ان تناوله للمواد قد تفاوت من حيث التوسع والايجاز في دراستها ، فتجده قد توسع في مدلول بعض المواد — كما في مادة (حسب) (٧) ، فقد أفرد لها سبع صفحات وثلاثة أسطر ، في حين اختصت مادة (خمأ) (٨) بكلمة واحدة.
وقد نجد توسعاً اكثر كما في (عفا) (٩) ، (سواء) (١٠) ، و (عرا) (١١) ، و (رأى) (١٢)

(١) أنظر : حسن ظاظا ، كلام العرب « من قضايا اللغة العربية » القاهرة ، دار المعارف بمصر ١٩٧١م . ص١٣٥ .
(٢) : عمر الدقاق . مصادر التراث العربي . ط٣ . بيروت ، مكتبة دار الشرق ، ١٩٧٢م ص٢٠٢ — ٢٠٣
(٣) حسن ظاظا . كلام العرب . ص١٣٥
(٤) السيوطي . بغية الوعاة . ص١٠٦
(٥) : ابن شاكر الكتبي . فوات الوفيات . ج٢ . ص٥٢٤ .
(٦) : انظر حسن ظاظا . كلام العرب . ص١٣٥ « بتصرف » .
(٧) : ابن منظور لسان العرب . ج١ . ص٣٠١ — ٣٠٨
(٨) : المصدر السابق . ص٦٢ .
(٩) : المصدر السابق ج١٩ . ص٣٠٣ — ٣١١ .
(١٠) : المصدر السابق ج١٩ . ص١٣٤ — ١٤٤ .
(١١) : المصدر السابق ج١٩ . ص٢٧١ — ٢٨١ .
(١٢) : المصدر السابق . ج٩ . ص٢ — ١٧ .

كما لايخفى علينا بأن الابواب وفصولها متفاوتة في السعة أيضاً ، وهذا يعود الى مدلول كل مادة ، فكلما كانت اللفظة ذات تفصيلات وشواهد واشتقاقات كثيرة ، كان الباب الذي يحتويها أوسع من غيره وبعكسها اللفظة التي لها مدلول مكاني فقط ..

ب- مصادره :

شغف (ابن منظور) بمطالعة كتب اللغة ومصنفاتها ، وقال في مقدمة كتابه : « رأيت علماءها بين رجلين اما من أحسن جمعه فأنه لم يحسن وضعه واما من أجاد وضعه فأنه لم يجد جمعه فلم يفد حسن الجمع مع اساءة الضبط » (١٣) .

أما المصادر التي رجع اليها ، فهي كما يلي ؟ -

١ - تهذيب اللغة - لأبي منصور الأزهري (٢٨٢ - ٣٧٠هـ) . حيث قال عنه ابن منظور : « ولم اجد في كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة لابي منصور محمد بن احمد الأزهري » (١٤) .

٢ - المحكم - لابن سيده (٣٩٨ - ٤٥٨هـ) .

وصف صاحب اللسان كتاب (المحكم والمحيط الأعظم) بالكمال النسبي والسعة، بعد ان أطلع على كتب اللغة وبعد أن وصف تهذيب الأزهري ، قال :» ولا أكمل من المحكم لأبي الحسن علي بن اسماعيل بن سيده الأندلسي » (١٥) .

٣ - الصحاح - للجوهري (٣٣٢ - ٤٠٠هـ) :

وقد أختار صاحب اللسان لحسن ترتيبه وسهولة وضعه ، ومع ذلك فقد وصفه بقوله : « غير أنه في جو اللغة كالذرة وفي بحرها كالقطرة وان كان في نحرها كالدرة » (١٦) .

واكتشف فيه التصحيف والتحريف والخطأ في التصريف (١٧) .

٤ - التنبيه والافصاح عما وقع في الصحاح - للشيخ بن بري .

---

(١٣) : المصدر السابق . جـ١. ص٦ .

(١٤) : المصدر السابق .جـ١. ص٢ « المقدمة » .

(١٥) : المصدر السابق .

(١٦) : المصدر السابق . ص٣ .

(١٧) : أنظر : المصدر السابق . ص٣ « بتصرف » .

بعد أن ذكر لنا (ابن منظور) نقاط الضعف في كتاب الصحاح ، قال : « فأتيح له الشيخ أبو محمد بن بري فتتبع مافيه وأملى عليه اماليه مخرجاً لسقطاته مؤرخاً لغلطاته » (١٨) .

٥ — النهاية في غريب الحديث والأثر — لابن الأثير الجزري (٥٤٤— ٦٠٦هـ) . وقد اختاره (ابن منظور) لغرض توشيح كتابه بجليل الأخبار وجميل الآثار ، ولما فيه من آيات القرآن الكريم والامثال والأشعار (١٩) .

ومع هذا فقد كان كتاب (ابن الأثير) غير مرتب بشكل صحيح ، فوصفه صاحب اللسان : « غير انه لم يضع الكلمات في محلها ولا راعى زائد حروفها من أصلها فوضعت كلا منها في مكانه وأظهرته مع برهانه » (٢٠) .

هذه هي الاصول أو المصادر التي اعتمدها في كتابه ، حيث قال في وصفه : « ولم أخرج فيه عما في هذه الأصول » (٢١) . وقد أورد السيوطي في كتابه بغية الوعاة (٢٢) بأن (ابن منظور) قد أخذ من كتاب الجمهرة لابن دريد(٢٢٣ — ٣٢١هـ)، كما قال ذلك حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون (٢٣) . فقد اختلف في ايراد هذا المصدر السادس ، لان صاحب اللسان لم يصرح به في المقدمة ، ولكنه لمح في مواضيع من الكتاب الى الأخذ من الجمهرة ، وهذا ما وجدته نادراً ، كما في مادة (رمى) (٢٤) ، حيث ورد رأي (ابن دريد) في الاسم (أرميا) بأنه معرب ..

كما اعتبر الكتابين الأول والثاني — التهذيب والمحكم — من أهم كتب اللغة ، فقال عنهما : « وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق » (٢٥) .

وحري بالذكر ان صفة الأمانة العلمية كانت أشد التصاقاً به ، فهو أفضل من غيره وعياً لها ، فكأني به وهو يطالب الدارسين بأن يلتزموا طريقتها حيث قال : « وليس

---

(١٨) : المصدر السابق . ص٣ .

(١٩) : أنظر : (١٧) .

(٢٠) : أنظر : (١٨) .

(٢١) : أنظر : (١٨) .

(٢٢) : أنظر : السيوطي . بغية الوعاة . ص١٠٦ .

(٢٣) : أنظر : حاجي خليفة . كشف الظنون .م٢ ص١٥٤٩ .

(٢٤) : ابن منظور . لسان العرب . ج١٩. ص٥٦

(٢٥) : المصدر السابق . ج١. ص٣ .

لي في هذا الكتاب فضيلة امت بها ولا وسيلة أتمسك بسببها سوى اني جمعت فيه ماتفرق في تلك الكتب من العلوم » (٢٦) . ليضرب في ذلك أعلى مثل للتواضع العلمي ...

جـ — اسلوب نقله من المصادر :

كان (ابن منظور) يعتمد النص من كل أصل يأخذ منه ، حيث قال : « أديت الأمانة في نقل الأصول بالنص وما تصرفت فيه بكلام غير مافيها من النص فليعتمد من ينقل عن كتابي هذا انه ينقل عن هذه الأصول الخمسة » (٢٧) .

أما السبب الذي دفعه الى تأليف كتابه (٢٨) ، فيعود لما يلي : —

١ — انتشار اللحن في الكلام .

٢ — اختلاف الألسنة والألوان .

٣ — كان النطق بالعربية يعد من المعايب .

٤ — تنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغات الأعجمية .

٥ — التفاصح في غير العربية .

تطبيق بين اللسان ومصادره

لو عمدنا الى تحليل مواد اللسان، لسلمنا بالقول: ان ابن منظور كان يأخذ من مصادره بالنص ويوفق بينها ويضيف اليها بعض الشروح .

ونختار مادة (وقع) لانها احتوت نصوص جميع مصادره .

* استهل (ابن منظور) مادة (وقع) بالفعل الثلاثي المجرد ، قال : « وقع على الشيء ومنه يقع وقعاً ووقوعاً: سقط ، ووقع الشيء من يدي كذلك ،.... وأوقعه غيره ووقعت من كذا وقعاً، ووقع المطر بالأرض ... فمكان كذا » (٢٩). وهذه عبارة المحكم(٣٠)

---

(٢٦) : المصدر السابق . جـ١. ص٣ — ٤

(٢٧) : المصدر السابق . جـ١. ص٤ .

(٢٨) : أنظر (٢٧) .

(٢٩) : ابن منظور . لسان العرب . جـ٨. ص٤٠٣

(٣٠) : أنظر : ابن سيده . المحكم . جـ٢. ص١٩٧ « العمود الاول »

بنصها .. عدا عبارة « وأوقعه غيره ووقعت من كذا وعن كذا وقعاً » التي تبعها بعبارة « ومواقع الغيث : مساقطه . ويقال : وقع الشيء موقعه »

* ثم جاء بعبارة عن الأزهري ، قال : « والعرب تقول : وقع ربيع بالأرض يقع وقوعاً لأول مطر يقع في الخريف » (٣١) . وهذا مأخوذ بالنص عن تهذيب اللغة

* وذكر بعدها « قال الجوهري ولا يقال سقط ... » (٣٢) .

* وأردفها بـ : « وقول أعشى باهلة :

وألجا الكلب موقوع الصقيع به وألجا الحي من تنفاخها الحجر

انما هو مصدر كالمجلود والمعقول.... وفي حديث أم سلمة.... حكاه الهروي في الغريبين »(٣٣) . وهذا النص أورده أيضاً ابن سيده في المحكم .. (٣٤) .

* واستطرد قائلا : « وقال ابن الأثير : الوقاعة .... أي ساحة الستر » (٣٥) . وهذا مأخوذ بالنص عن النهاية في غريب الحديث والأثر ـ لابن الأثير (٣٦) .

* ثم ورد : « والميقعة : داء .... وفي المثل .... أحدثه وأنزله » (٣٧) . وهذا نص عن المحكم (٣٨) .

* ثم شفعها بـ « ووقع القول والحكم اذا وجب ..... وقوله تعالى : (اذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة) .. » . وهذا نص عن تهذيب اللغة (٣٩) . ولكن الأزهري

---

(٣١) : أنظر ايضاً : الأزهري . تهذيب اللغة . جـ٣ . ص٣٤ . « فالأزهري قدم الفعل (تقول) على كلمة العرب » .

(٣٢) : أنظر : (٢٩) . وأنظر ايضاً : الجوهري . الصحاح . جـ٣ . ص١٣٠٢
« ويبدو ان الجوهري قد نقل هذه العبارة عن تهذيب الأزهري جـ٣ . ص٣٤ » .

(٣٣) : ابن منظور . لسان العرب . جـ٨ . ص٤٠٢ – ٤٠٣

(٣٤) : انظر : ابن سيده . المحكم . جـ٢ . ص١٩٧ . « العمودان الاولى والثاني »..

(٣٥) : أنظر : (٣٣) . ص٤٠٣ .

(٣٦) : ابن الاثير . النهاية في غريب الحديث والأثر . جـ٤ . ص٢٤٠ . س٦ – ٨ .

(٣٧) : ابن منظور . لسان العرب . جـ٨ . ص٤٠٣ .

(٣٨) : ابن سيدة المحكم . جـ٢ . ص ١٩٧

(٣٩) : الأزهري : تهذيب اللغة . جـ٣ . ص ٣٤ .

لم يذكر لهذه الآية تفسيراً ، ، وللزجاج تفسير عليها ، أورده ابن سيده ، (٤٠) وأثبته ابن منظور بأقوال لأبي اسحق والليث والقطامي نقلها عن تهذيب اللغة (٤١) .

* وأضاف قول ابن الأعرابي : « قال ابن الأعرابي ويعقوب : سئل رجل ...... ». وهو مأخوذ عن المحكم بالنص .. (٤٢) .

* غير انه أورده في هذه المادة كلمة (الوقائع) وفسرها بـ : (المناقع)، وهي كلمة لم يأت ذكرها عند من نقل عنهم .

* وممن نقل عنهم بعد ذلك (ابن بري) ..

* أما ما أورده من اراء (الأصمعي)فأنما هي مأخوذة بالنص من الأزهري وابن سيده .. (٤٣)

وهكذا تنتظم المادة عند ابن منظور ، موفقاً فيها بين الأزهري وابن سيده وابن الأثير والجوهري وأبن بري ...

---

(٤٠) : أنظر : (٣٨) .

(٤١) : أنظر : (٣٩) . ص ٣٥ .

(٤٢) : أنظر : (٣٨) . ص ١٩٨ .

(٤٣) : أنظر : أ ــ الأزهري . تهذيب اللغة جـ٣. ص ٣٧ .
ب ــ ابن سيدة . المحكم . جـ٢. ص ١٩٩

(الفصل الثاني)

أ – منهجه في ترتيب المواد

نحا (ابن منظور) في ترتيب مواد لسان العرب منحى الجوهري في ترتيب مواد الصحاح حيث قال : « ورتبته ترتيب الصحاح في الأبواب والفصول »(١) ، وقال في أول باب الألف اللينة : « من شرطنا في هذا الكتاب أن نرتبه كما رتب الجوهري صحاحه ، وهكذا وضع الجوهري هنا هذا الباب فقال باب الألف اللينة » (٢) . وجمع هنا كل ألف غير منقلبه عن واو أو ياء،حيث قال : « وهذا باب مبني على ألفات غير منقلبات من شيء فلهذا كالكسائي (٤) والفراء (٥). وموثقا ذلك بالامثلة الوافية من الشعر والقرآن الكريم، وجعل ذلك في أربع صفحات ، انتقل بعدها الى مادة (اذا) (٦) فـ : (ألا) ويختم هذا الباب بمادة (يا) ... حيث أعطى لجميع المواد حقها النحوي والصرفي وأثبتها بآراء النحاة وأبيات الشعر العربي وآيات القرآن الحكيم والحديث النبوي الشريف ، وكان ينص على أسماء النحاة والشعراء حين يستشهد بأقوالهم وأشعارهم ، ولم يقسم هذا الباب الى فصول.

لقد رتب ابن منظور معجمه حسب الحرف الأخير من المادة الأصلية،مع مراعاة الترتيب الهجائي المعروف :(ء،ب،ت،ث،ج، ح، خ د ،ذ ، ر ، ز ، س ، ش ، ص ، ض ط ، ظ ، ع ، غ ،ف ، ق ، ك ، ل ، م ،ن ، هـ و ي) . فما يتعلق بباب الهمزة فقد جعل – صاحب اللسان – الكلمات المنتهية بهمزة أصلية غير منقلبة عن واو أو ياء كالبهاء من مادة (بهأ) (٧) ، وجؤجؤ من (جأجأ) (٨) ، والجزء من (جزأ) ،(٩). حيث جمع الكلمات المنتهية بالباء في باب الباء (حرف الباء) ، والكلمات المنتهية بحرف التاء كانت في باب التاء ..... وهكذا ..

---

(١) ابن منظور . لسان العرب . جـ١. ص٨. « المقدمة »
(٢) المصدر السابق . جـ٢٠. ص٣١٠.
(٣) المصدر السابق .
(٤) المصدر السابق ص٣١٣ .
(٥) المصدر السابق . ص٣١٢ .
(٦) المصدر السابق . ص٣١٤ .
(٧) المصدر السابق . جـ١. ص٢٧ .
(٨) المصدر السابق . جـ١. ص٣٣ .
(٩) المصدر السابق . جـ١. ص٣٧ .

ويختلف منهج اللسان في ترتيب حرفي الهاء والواو عما هو عليه في صحاح الجوهري، فالجوهري قدم باب الواو على الهاء ، في حين نجد (ابن منظور) قد جعل الهاء متقدماً على باب الواو .

أما الكلمات المنتهية بواو أو ياء ، سواء بقيتا على حاليهما أو تحولتا بسبب الاعلال والابدال ، فمكانهما في باب واحد هو الواو والياء ..

ب- مقدمة الابواب :

وفي بداية كل باب ، نجد أن (ابن منظور) يتحدث عن الحرف الذي يختص به الباب فحرف الهمزة قد تحدث عنه فيما يقرب من خمس صفات (١٠) ، تحدث فيه عن الهمزة الأصلية ، «فأما المبدلة من الواو نحو العزاء الذي أصله عزا ولانه من عزوت أو المبدلة من الياء نحو الأباء الذي أصله أبى لأنه من أبيت فنذكره في باب الواو والياء » (١١) .

جـ - تنسيق الابواب والفصول :

نسق (ابن منظور) مواد الفصول داخل أبوابها حسب الحرف الثاني فالثالث فالرابع ، حينما تكون المادة ثلاثية أو رباعية أو خماسية ،ومعتمداً الترتيب الهجائي الذي ذكرناه سابقاً . فلو أخذنا حرف الشين - على سبيل المثال - ، لوجدنا أن كلمة (شأو) (١٢) أول كلمة في الباب ، تليها (شأي) فـ :(شبا) ،(شتا) ، (شثا) ، (شجا) ، (شحا) ، (شخا) ، (شدا) ، و(شذا) ، ..... الخ ... فهنالك متابعة لترتيب الحروف في الفصول ضمن الباب الواحد ...

أورد أبواب اللسان وفصوله كما يلي -

الباب	عدد الفصول	البداية والنهاية
١ - باب الهمزة	٢٨	من فصل الهمزة لغاية فصل الياء ...
٢ - باب الباء	٢٨	من فصل الهمزة لغاية فصل الياء...
٣ - باب التاء	٢٧	من فصل الهمزة لغاية فصل الياء : عدا فصل (ظ) فقط
٤ - باب الثاء	٢٤	من الهمزة حتى الياء . عدا (ذ ، ز ، س ، ظ)

---

(١٠) ابن منظور . لسان العرب . جـ١. ص١٠ - ١٤

(١١) المصدر السابق . جـ١. ص١٠

(١٢) المصدر السابق . جـ ١٩ .ص ١٤٤

٥ – باب الجيم ٢٨ من الهمزة حتّى الياء.
٦ – باب الحاء ٢٣ من الهمزة حتّى الياء. عدا (خ، ظ، ع، غ، هـ) .
٧ – باب الخاء ٢٦ من الهمزة حتّى الياء .. عدا فصلي (ح، غ)
٨ – باب الدال ٢٦ من الهمزة حتّى الواو. عدا فصلي : (ظ، ي) .
٩ – باب الذال ٢٣ من الهمزة حتّى الواو .عدا (ذ، ص ، ض، ظ ، ي).
١٠ – باب الراء ٢٨ من الهمزة حتّى الياء .
١١ – باب الزاي ٢٤ من الهمزة حتّى الواو . عدا : (ث، ص ، ظ ، ي).
١٢ – باب السين ٢٣ من الهمزة حتّى الياء . عدا : (ث، ذ ،ز، ص ،ظ).
١٣ – باب الشين ٢٢ من الهمزة حتّى الواو . عدا(ذ، س ، ص، ض، ظ ،ي).
١٤ – باب الصاد ٢١ من الهمزة حتّى الياء . عدا (ث، ذ،ز،س، ض، ط،ظ).
١٥ – باب الضاد ٢١ من الهمزة حتّى الياء . عدا(ث ،ذ،ز،س، ض،ط،ظ).
١٦ – باب الطاء ٢٧ من الهمزة حتّى الياء . عدا فصل (ظ).
١٧ – باب الظاء ١٨ من الهمزة حتّى الياء.عدا الفصول :
(ت، ث، ذ، ز، س، ص، ض، ط، ظ ، هـ) .
١٨ – باب العين ٢٧ من فصل الهمزة حتّى الياء ، عدا فصل (غ).
١٩ – باب الغين ٢١ من فصل الهمزة حتّى الواو ، عدا الفصول
(ج ، ح، خ، ع، ق ، ك ، ي) .
٢٠ – باب الفاء ٢٧ من فصل الهمزة حتّى الياء ، عدا فصل (ب).
٢١ – باب القاف ٢٧ من فصل الهمزة حتّى الياء ، عدا فصل (ظ).
٢٢ – باب الكاف ٢٣ من فصل الهمزة حتّى الياء ، عدا الفصول :
(ث، ج، ذ، ط، ظ).
٢٣ – باب اللام ٢٨ من فصل الهمزة حتّى الياء.
٢٤ – باب الميم ٢٨ من فصل الهمزة حتّى الياء.
٢٥ – باب النون ٢٨ من فصل الهمزة حتّى الياء.
٢٦ – باب الهاء ٢٦ من فصل الهمزة حتّى الياء ،عدا فصلي : (خ، ظ).
٢٧ – باب الواو والياء ٢٨ من فصل الهمزة حتّى الياء .

د ــ تسمية فصول الأبواب :

لو تصفحنا كتاب اللسان ، لوجدنا مؤلفه يحرص كثيراً على تسمية أبوابه وفصوله فيقول مثلاً :

(فصل الباء الموحدة) (١٣) : نحو (بأبأ) .
(فصل التاء المثناة) (١٤) : نحو (تأتأ) .
(فصل الثاء المثلثة) (١٥) : نحو (ثأثأ) .
(فصل الحاء المهملة) (١٦) : نحو (حأحأ) .
(فصل الخاء المعجمة) (١٧) : نحو (خبأ) .
(فصل الدال المهملة) (١٨) : نحو (دأدأ) .

وهذه التسميات : (الموحدة ، المثناة ، المثلثة ، المهملة ، والمعجمة) قد جعلها في الفصول جميعاً ، ولم أجد هذه التسميات عند من سبقوه ، فكان ذلك ضمن منهجه في تسمية فصول الأبواب ، تلك التسميات التي انفرد بها فيما أعلم .

هـ ــ الفراغ من تأليف الكتاب : (٦٨٩ هـ)

لقد أراحنا (ابن منظور) من عناء البحث عن تأريخ الفراغ من تأليف (لسان العرب) ، وذلك بتثبيته في الجزء الأخير من الكتاب ، إذ قال : « فرغ منه جامعه عبد الله محمد بن المكرم بن ابي الحسن بن أحمد الأنصاري .... في ليلة الاثنين الثاني والعشرين من ذي الحجة المبارك سنة تسع وثمانين وستمائة » (١٩) .

---

(١٣) ابن منظور . لسان العرب . جا . ص١٦ .
(١٤) المصدر السابق . ٣١ .
(١٥) المصدر السابق . ص ٣٢ .
(١٦) المصدر السابق . ص٤٦ .
(١٧) المصدر السابق . ص٥٥ .
(١٨) المصدر السابق . ص٦٢ .
(١٩) ابن منظور . لسان العرب . ج٢٠ . ص٣٨٦ .

(الفصل الثالث)

أ – معالم المنهج في اللسان :

لكي نقف على منهج (ابن منظور) في اللسان، سأتناول نماذج من مواده بالدرس والتحليل ، وهي تعطي صورة صادقة عن منهجه في الكتاب كله . وهو يبدأ مواده أما بالفعل ، نحو : (جبأ) (١) ، أو بالاسم ، نحو : (الجزء) (٢) وعلى سبيل المثال ، نأخذ مادة (ركب) (٣) ، فهو يبدؤها بالجملة الفعلية : ركب الدابة ، أي : علا عليها .... ويورد بعد ذلك : –

١ – الفعل المجرد ومعناه ودلالته اللفظية ، مع الأمثلة ..
٢ – ايراد مصدري المرة والهيأة ركبة – بفتح الراء وكسرها اضافة إلى المصدر الصريح.
٣ – أفعال مزيدة، نحو إرتكب، تركّب ، تراكب ، ركّبَ .
٤ – استعمالات مجازية ، نحو : رَكبَ الهولَ والليلَ والذنبَ ، وركبه الدَّينُ..
٥ – معاني متطورة عن المعنى الأصلي : إرتكَبَ الذنب : أي : أتى به ... وركبني : أي : تبعني .
٦ – اشتقاقات ، نحو : راكِب رَكوب ، ركّاب ، مَرْكب ، مركوب ، متراكب ، رَكابة مرَكّب..
٧ – صيغ الجمع واسم الجمع : رُكّاب ، رُكبان ، رُكوب ، أرْكب ، أركاب ، ركائب ، ركابات ، مَراكب ، أراكيب ، رُكب ، رَكْب..
٨ – الاستشهاد بأقوال : (ثعلب ، وابن السكّيت) في الفرق بين راكب الحصان أو الحمار أو البغل وراكب البعير ، وغير ذلك، وكذلك الاستشهاد بأقوال (ابن الأعرابي) والفرّاء ... وذلك بالاعتماد على كتب : التهذيب للأزهري ، غريب الحديث لابن الأثير ، والافصاح لابن برّي والصّحاح للجوهري ..
٩ – ورود القياس ، كما في : راكب ، فيقيسها على : دارع ، ورامح ... الخ .
١٠ – الاستشهاد حول الركوب ، ببيت شعر للعنبري :

---

(١) المصدر السابق . جـ١ . ص٣٤ .
(٢) المصدر السابق . جـ١ . ص٣٦ .
(٣) المصدر السابق . جـ١ . ص٤١٢ – ٤١٨ .

فَلَيْتَ لي بهمُ قوماً إذا رَكِبوا شَنّوا الأغارةَ فرساناً وركبانا(٤)

« فجعل الفرسان أصحاب الخيل والرُكبان أصحاب الابل » (٥) .

١١ — استشهاد من القرآن الكريم ، نحو : « والرَّكبُ أسفلَ منكم » (٦) .

١٢ — استشهاد بالحديث الشريف ، نحو : « بَشِّر رُكيبَ السُّعاةِ بِقطعٍ من جهنّم »(٧)

١٣ — الاشارة إلى المذكّر والمؤنث والعَلَم .

١٤ — استعمال الميزان الصرفي في كل مادة أصلية أو مشتقة .

١٥ — ضبط المواد بالحركات ، وبالنص عليها في بعض الأحيان ، نحو : « والرِكبَة بالكسر » (٨) .

١٦ — ذكر التثنية للمذكر والمؤنث .

١٧ — حديث في العروض حول المتراكب من القافية ..

١٨ — جمع القلة نحو : ركبات ، ركَبات ، ركبات ، والكثير : ركب .وجمع ماكان على وزن فعلَة ....

ولو أخذنا مادة (**شعب**) (٩)، لوجدنا ايضاحها يبدأ بالاسم : الشعب : بمعنى: الجمع .ولرأينا الايضاحات التالية : —

١ — الأتيان بالضد ، نحو : التفريق ..

٢ — صياغة الأفعال المجردة شَعَبَ ، يَشعَبُ .

٣ — صياغة الأفعال المزيدة : انشعبَ شَعّبَ ، تشعب ، شاعبَ ، يشاعب .

٤ — الأتيان بالمعنى المخالف للجمع بمعنى النفريق ، ببيت شعري : —

وإذا رأيت المرء يشعب أمره شعب العصا ويلج في العصيان

٥ — الأتيان بأمثلة عن الاصمعي وابن السكّيت في هذا المعنى .

---

(٤) المصدر السابق . جا . ص٤١٣

(٥، ٦، ٧) أنظر : (٤) .

(٨) المصدر السابق . ص ٤١٢ .

(٩) ابن منظور . لسان العرب . ج١. ص٤٧٩ . وانظر ايضاً :

أ — ابن الاثير . النهاية في غريب الحديث والاثر . تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي . (القاهرة) . دار الكتب ١٩٦٣م. ج٢. ص٤٧٧ — ٤٧٨ .

ب — ابن سيده . المحكم والمحيط الأعظم . تحقيق عبد الستار فراج . القاهرة . شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٥٨م جاص٢٣٧ « العمود الأول »

٦ — الاستشهاد بالحديث ، نحو « اتّخذَ مكانَ الشّعبِ سلسلة ».
٧ — بعض الاستعمالات : الشّعّاب ، الشعابة ، المِشعَب ، المشعوب ، الشّعيب ، شِعْب ... مع بعض الأبيات التي تثبت ذلك .
٨ — الاستشهاد بأقوال الأزهري .
٩ — الاستشهاد بالحديث : « ماهذه الفتيا التي شَعَبْتَ بها الناس» : أي فرّقتهم .
١٠ — بعض المشتقات : شعَيْب ، شعْبَة ، مشعب ، تَشَعُّب ، مشاعِب ، ... مع الاستشهاد بأبيات شعرية للدلالة على استعمالها ، وتارة بالحديث الشريف ، نحو : (الحياء شعْبةٌ من الايمان) ، (الشباب شعْبَةٌ من الجنون) (١٠) .
١١ — الاتيان بالجمع ، نحو : **شعب** (ج : شعْبَة) ، **شعاب** (ج : شِعْب) ، **وشعوب** (ج : شَعْب) .
١٢ — الاستشهاد بآية كريمة في الجمع « إلى ظل ذي ثلاثِ شعبٍ » مع التطرّق إلى تفسير ثعلب لهذه الآية .
١٣ — استعمال المبني للمجهول من الأفعال ، نحو يتشعب .
١٤ — الاستشهاد بآية كريمة : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .. مع التطرق إلى تفسير ابن عباس (رض) .. مع استشهاد بقول الأزهري في ذلك .
١٥ — استعمال مصطلح الشعوبي وبيان معناه .
١٦ — الاستشهاد بقول (ابن الأثير) في الشُّعوب ، مع الاستشهاد بقول الشيخ ابن برّي في الترتيب : الشَّعْب ، ثم القبيلة ، ثم العِمارة ، ثم البَطن ثم الفَخِذ ثم الفصيلة .
١٧ — استشهاد بقول سيبويه في كلمة (شَعوب) ، وإيراد بعض الأخبار والقصص فيها ..
١٨ — استعمال الكناية البلاغية في بعض الاستعمالات ، كما في حديث : (إذا قَعَدَ الرجل من المرأة مابين شعَبِها الأربع وجب عليها الغسلُ) ، كنّى بذلك في تغييبه الحشفة في فرجها ..
١٩ — ذكر شهر شعبان وسبب تسميته .. مع الاستشهاد بقول الكسائي . ثم الاستشهاد بقول (ابن سيدة) في تصريف شَعوب ...
٢٠ — التطرّق إلى قصّة أشْعَب ...
٢١ — ذكر بعض المواضع والجبال مما له علاقة بالكلمة المدروسة .

(١٠) أنظر أيضاً : ابن الاثير . النهاية في غريب الحديث .ج٢.ص٤٧٧ .

٢٢ ـ دلالة حسيّة ، نحو : شَعَبَ الأمير رسولاً إلى موضع كذا : أي أرسله .
و : ظَبْيٌ أَشعَب : إذا تفرّق قرناه .
و : تَيسٌ أَشعَب : إذا انكسرَ قَرنه .
و : عَنْزٌ شَعباء : إذا انكسر قرنها .

٢٣ ـ استعمال المذكر والمؤنث والعَلَم .. واستعمال المؤنثة ، نحو ، الشاعبان ...

ب ـ خلاصة المنهج :

ونخلص مما عرضناه في هذين النموذجين ، إلى أن (ابن منظور) كان يسلك في عرض مواده مسلكاً يعتمد على ذكر : ـ

أ ـ الدلالة اللفظية : وتشمل مايلي : ـ

١ ـ التحدث حول المعنى المشهور للفظة .
٢ ـ إستخدام الفعل المجرّد للفظة بأبسط صورها.
٣ ـ صياغة الأفعال الأُخرى كالمضارع والأمر.
٤ ـ صياغة الأفعال المزيدة ، والمبني للمجهول من الأفعال .
٥ ـ استخراج المصادر بأنواعها ، على الأغلب .
٦ ـ التفريق بين الاسم والوصف في المواد .
٧ ـ كثيراً مايبدأ بالفعل في سرد معاني المادة واشتقاقاتها ،وقد يبدأ بالاسم في بعض الأحيان .
٨ ـ استخدام صيغ الجمع ، أكان جمع قلة أم كثرة ، وذلك بعد المفرد والمثنى .
٩ ـ الاشارة إلى المذكر والمؤنث والعلم .
١٠ ـ استخدام القياس في استعمالات الكلمة .
١١ ـ استعمال الميزان الصرفي في المادة أكانت أصلية أم مشتقة .
١٢ ـ ايراد بعض الآراء النحوية في استعمالات الكلمة .
١٣ ـ ايراد بعض الأخبار والقصص .

ويدعم ذلك بالأمثلة الوافية ،مع الاستشهاد بالأحاديث النبوية والآيات القرآنية والأبيات الشعرية والأمثال العربية .والنص على طائفة من آراء بعض علماء النحو والصرف ، أمثال سيبويه ، الفراء وابن السكيت ... وغيرهم .

ويعتمد في ذلك على ماورد في كتب : التهذيب ، المحكم ، النهاية في غريب الحديث والأثر ، التنبيه والافصاح عما وقع في الصحاح ،وكذلك الصحاح . فكان (ابن منظور) يورد جميع مافي هذه المصادر من معلومات عدا المكرر منها ، ويرجح قولاً على آخر ، فهو يؤثر نصوص الصحاح والمحكم على التهذيب وذلك حين تشترك في التفسير بسبب أمانتهما (١١) .

ب – المعاني المختلفة للفظة :

بعد الفراغ من ذكر المعنى المشهور للفظة ، يورد (ابن منظور) الاستعمالات الأُخرى ذات المعاني المختلفة والتي تتفرع عن المعنى الأصلي . ويشفع ذلك– كما هو الحال في الدلالة اللفظية – بأمثلة وشواهد وشروح مختلفة .

جـ – الدلالة الحسية :

يزخر لسان العرب بدلالات حسية بليغة ، وأغلبها استعمالات مجازية ،

نحو : رَكِبَ الليلَ والهولَ والذنبَ ..

ونحو : تَيس أشْعَب ، وعَنْز شَعباء ..

ونحو : رَكِبَني ، أي تَبِعَني ... الخ ...

وقد استند (ابن منظور) في اثبات هذه الألفاظ اللغوية ذات الدلالات المختلفة ، وتحقيق الاصول النحوية فيها إلى آيات القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربي وكلام العرب الأقحاح .

وأظن أن فيما أوردناه الكفاية لاطلاع القاريء على خطتي في عرض مشتقات المادة والألفاظ المنبثقة عنها ، وتصريفات أبنيتها وتفسير معانيها ، والتي لم تكن هي مميزة الكتاب وحسب ، بل يضاف اليها ما ساقه من توضيح لقواعد التصريف والنحو في ثنايا الألفاظ ، وماأورده من آراء في تفسير ماستشهد به من آيات قرآنية وأحاديث نبوية وأخبار تاريخية وأدبية ، مؤيداً ذلك بالأدلة المسندة ، مما يجعل الباحث المتعمق مقبلاً على الكتاب .

« واستطاع ابن منظور أن يوائم بين مصادره ، وأن يختار لكتابه منها مايشد انتباه القاريء

---

(١١) أنظر أيضاً : حسين نصار . المعجم العربي . جـ٢. ص٥٦٨ .

في غير اضجار أو املال ، بل أن تنقله بينها يشعر القاريء أنه عاش معها جميعاً ، ونال منها أفضل مايحتاج » (١٢)

(فهرس المصادر والمراجع)

١ — ابن الأثير الجزري. النهاية في غريب الحديث والأثر. تحقيق : طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي .(القاهرة) . دار احياء الكتب العربية ،١٩٦٣ م ..

٢ — ابن حجر العسقلاني ،شهاب الدين أحمد بن علي . الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة حيدر آباد الدكن ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٥٠ هـ.

٣ — ابن سيدة ، أبو الحسن بن اسماعيل . المحكم والمحيط الأعظم . تحقيق . عبد الستار فراج . القاهرة ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٩٥٨ م

٤ — ابن شاكر الكتبي ،محمد . فوات الوفيات. القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥١م

٥ — ابن العماد الحنبلي . أبو الفلاح عبد الحي . شذرات الذهب في أخبار من ذهب. بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، (ب .ت) .

٦ — ابن منظور ،محمد بن مكرم . أخبار أبي نؤاس . تحقيق : شكري محمود أحمد بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٥٢م

٧ — أخبار أبي نؤاس . شرحه وضبطه : محمد عبد الرسول ابراهيم القاهرة ،مطبعة.

٨ — لسان العرب . بيروت ، دار الفكر ، ١٩٥٤ م.

٩ — مختار الأغاني في الأخبار والتهاني . تحقيق . ابراهيم الأبياري القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ م .

١٠ — الأزهري ، أبو منصور محمد بن أحمد . تهذيب اللغة . تحقيق : عبد السلام محمد هارون . القاهرة ، دار القومية العربية للطباعة ، ١٩٦٤م .

١١ — الجوهري ، اسماعيل بن حماد . الصحاح . تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار. القاهرة ، دار الكتاب العربي ، (١٩٥٦) م .

١٢ — حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله . كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون. ط ٣ . طهران ، المطبعة الاسلامية ، ١٩٦٧ م .

١٣ — دائرة المعارف . اصدار :بطرس البستاني. بيروت مطبعة الأدبية ، ١٨٧٦ م .

---

(١٢) عبد السميع محمد احمد . المعاجم العربية . ط٢. ص ١٠٦

١٤ — درويش ، عبدالله . المعاجم العربية . القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٥٦ م.
١٥ — الدقاق ، عمر .مصادر التراث العربي . ط٣ .بيروت ،مكتبة دار الشرق ، ١٩٧٢م.
١٦ — الذهبي ، شمس الدين . ميزان الاعتدال في نقد الرجال . تحقيق : علي البجاوي. القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٦٣ م.
١٧ — الزركلي ، خيرالدين . الأعلام . ط٢ . (القاهرة) ، مطبعة كوستاتسوماس ، (٩٥٤م)
١٨ — الزيات ، أحمد حسن . تأريخ الأدب العربي .ط ٢٤ . القاهرة ، دار نهضة مصر للطبع ، (ب . ت).
١٩ — زيدان ، جرجي . تأريخ آداب اللغة العربية . القاهرة ، دار الهلال ، ١٩٥٧ م.
٢٠ — سركيس ، يوسف اليان . معجم المطبوعات العربية والمعربة . القاهرة ، مطبعة سركيس ، ١٩٢٨ م .
٢١ — السيوطي ،جلال الدين عبد الرحمن . بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة .ط١ . . القاهرة مطبعة السعادة ، ١٣٢٦ هـ.
٢٢ — الشكعة ، مصطفى . مناهج التأليف عند العلماء العرب .بيروت ، دار العلم للملايين (١٩٧٣) .
٢٣ — الصفدي ، صلاح الدين .نكت الهميان في نكت العميان .القاهرة، المطبعة الجمالية ، ١٩١١ م.
٢٤ — ظاظا ، حسن .كلام العرب « من قضايا اللغة العربية ». القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧١ م.
٢٥ — عبد السميع محمد أحمد . المعاجم العربية . ط٢ . (القاهرة)، دار الفكر العربي ، ١٩٧٤ م ..
٢٦ — القزاز ، محمد صالح داود . الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية. النجف ،مطبعة القضاء ، ١٩٧٠ م.
٢٧ — كحالة ، عمر رضا. معجم المؤلفين . دمشق ،مطبعة الترقي ، ١٩٦٠ م .
٢٨ — المقريزي ، تقي الدين . كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤١ م .
٢٩ — نصار ،حسين. المعجم العربي : نشأته وتطوره . ط٢ . القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٦٨م.

الاخبار العلمية

يوسف

للسنة الدراسية

١٩٧٥

١ — قام السيد رئيس جامعة الموصل الدكتور محمد صادق المشاط بزيارة لكلية الآداب في يوم ٣١ /٥/ ١٩٧٦ للالتقاء باعضاء الهيئة التدريسية في الكلية .وقد تم خلال اللقاء مناقشة مختلف الامور ذات العلاقة بالمسيرة العلمية وضرورة تطويرها باتجاه طموحات الحزب والثورة .

٢ — وفي ختام اللقاء أعلن السيد عميد الكلية الدكتور هاشم يحيى الملاح قرار مجلس أعضاء الهيئة التدريسية في الكلية بمنح الاستاذ الدكتور محمد صادق المشاط (الحاصل على شهادة الدكتوراه ومرتبة الاستاذية بالآداب) لقب الاستاذ الاول في كلية الآداب ودعوته لالقاء المحاضرة الاولى على طلبة الكلية في بداية كل عام دراسي . كما تم تقديم هدية رمزية له في هذه المناسبة باسم أعضاء الهيئة التدريسية في الكلية تعبيراً عن مشاعر التقدير والإعتزاز .

* القبول في كلية الاداب

قرر مجلس التعليم العالي والبحث العلمي قبول ١٠٠ طالب في كلية الآداب للعام الدراسي القادم ١٩٧٦ / ١٩٧٧ وسيتم توزيع هؤلاء الطلبة على الأقسام والفروع العلمية في الكلية .

الفروع الجديدة في كلية الاداب

بالاضافة إلى قسم اللغة العربية وفروع اللغة الانكليزية واللغة الفرنسية والترجمة التابعة لقسم اللغات الاوربية وفرعي الوطن العربي والجغرافية التابعين لقسم التاريخ ،سوف يتم فتح الفروع الجديدة التالية في كلية الآداب وهي :

١ — وافق مجلس الجامعة بجلسته المنعقدة في ٢٤ / ٥ /١٩٧٦ على توصية مجلس كلية الآداب بفتح فرع للمكتبات والتوثيق على أن يرتبط بعمادة الكلية مباشرة وسيتولى تدريب الكادر المكتبي في الجامعة واقامة دورات مكتبية فيها والاشراف على تدريس مادة المكتبات في كليات الجامعة التي تتضمن مناهجها تدريس هذه المادة :

٢ — وافق مجلس الجامعة بجلسته المنعقدة في ٢٤ / ٥ / ١٩٧٦ على توصية مجلس كلية الآداب بفتح فرع للغة الالمانية في قسم اللغات الاوربية ابتداء من السنة الدراسية القادمة على أن لا يزيد عدد الطلبة المقبولين في الفرع عن (١٥ — ٢٠ طالباً) •

٣ — وافق مجلس الجامعة بجلسته المنعقدة في ٢٤ /٥ /١٩٧٦ على توصية مجلس كلية الآداب بفتح فرع الحضارة في قسم التاريخ وذلك لاهمية هذا الفرع في ابراز الوجه الحضاري للامة وبعث جوانب من تراثها .

٤ — وافق مجلس الجامعة بجلسته المنعقدة في ٢٤ / ٥ / ١٩٧٦ على توصية مجلس كلية الآداب بفتح فرع (اللغات الشرقية) في قسم اللغة العربية لتدريس اللغات الفارسية والتركية والعبرية على أن لايزيد عدد المقبولين عن (٢٥) طالباً في البدايـة .

الاساتذة الزائرون :

١ — زار كليتنا الدكتور حسين نصار وكيل كلية الآداب للدراسات العليا في جامعة القاهرة وألقى محاضرات على طلبة الصفوف الثالثة والرابعة في قسم اللغة العربية وتضمنت محاضراته دراسات حول طه حسين . وقد استغرقت زيارته ثمانية أيام اعتباراً من ١٨ / ١١ / ١٩٧٥ .

٢ — زار كليتنا الدكتور حسن ظاظا أستاذ العلوم اللغوية بكلية الآداب في جامعة الاسكندرية للفترة من ٢٣ / ١٢ / ١٩٧٥ لغاية ١٩٧٦/١/٥ ألقى خلالها محاضرات على طلبة قسم اللغة العربية في فقه اللغة واللغات السامية . كما ألقى محاضرة عامة على طلبة قسم التاريخ بعنوان (نحو كتابة جديدة لتاريخ اليهود) .

٣ — زار كليتنا الدكتور نوري حمودي القيسي عميد كلية الآداب بجامعة بغداد للفترة من ٢٤ / ٤/ ١٩٧٦ ولمدة أسبوع وألقى خلال زيارته محاضرات على طلبة قسم اللغة العربية في الادب الجاهلي والاسلامي .

٤ — زار الدكتور داؤد سلوم رئيس قسم اللغةالعربية بجامعة بغداد كليتنا للفترة من ١٩٧٦/٤/٢٤ ولمدة ثمانية أيام ألقى خلالها محاضرات على طلبة قسم اللغة العربية في النقد وتاريخ النقد.

٥ — زار كليتنا الدكتور علي أحمد الزبيدي الاستاذ في قسم اللغة العربية/جامعة بغداد للفترة مابين ١٩٧٦/٤/٣ لغاية ١٢ /١٩٧٦/٤ . وألقى محاضرات في الأدب العباسي ، والاندلسي كما ألقى محاضرة بعنوان (في النقد الدرامي) .

٦ — زارت السيدة صافيناز كاظم المدرسة المساعدة في كلية الآداب بالجامعة المستنصرية كليتنا وألقت محاضرات على طلبة قسم اللغة العربية في موضوع النقد المسرحي .

٧ ــ قام الأستاذ المساعد فلاديمير سوشيك (الجيكي الجنسية) والأستاذ بكلية الآداب في جامعة براغ في قسم الدراسات الاسيوية والافريقية ، بزيارة لكليتنا للفترة من١٥/١١/ ١٩٧٥ لغاية ١٩ / ١١ / ١٩٧٥ ألقى خلالها محاضرات على طلبة قسم التاريخ .

٨ ــ قام الدكتور رودلف فيسيلي المدرس بقسم الدراسات الشرقية لتاريخ البلادالاسلامية واللغة العربية بجامعة شارلز تشيكوسلوفاكيا بزيارة لكليتنا اعتباراً من ١٢/١١/٩٧٥ ولمدة اسبوعين .وألقى عدة محاضرات هي (أهمية الوثائق العربية في دراسةالتاريخ العربي والاسلامي) و(المستعربون الجيك واعمالهم في مجال الاستعراب والدراسات العربية) و (نقد مصادر البحث التاريخي) و (الوقفيات كمصدر هام لدراسة التاريخ الاسلامي من الناحية الاثارية والاجتماعية والاقتصادية والنظم الادارية).

٩ ــ قام الدكتور بيتر ساكليت البريطاني الجنسية والاستاذ في قسم التاريخ بجامعة (درهام) بانكلتره بزيارة لكليتنا للفترة من ٨/٣ / ١٩٧٦ ولمدة عشرة أيام ألقى خلالها محاضرات على طلبة قسم التاريخ في المواضيع التالية :

أ ــ مقدمة في تاريخ الانتداب في العراق .

ب ــ مشكلة الموصل والعلاقات العراقية البريطانية بين ١٩٢٤ــ ١٩٢٦.

جـ ــ سياسة الدفاع والجيش العراقي .

د ــ السياسة التعليمية في العراق في عصر الانتداب .

هـ ــ السياسة الارضية والعشائرية في عصر الانتداب .

١٠ ــ قام الدكتور فاضل حسين الاستاذ في قسم التاريخ بكلية الآداب في جامعة بغداد بزيارة لكليتنا للفترة من ١٩٧٦/٣/٢٣ ولمدة ثلاثة أيام ألقى خلالها محاضرات في المواضيع التالية على طلبة قسم التاريخ :

أ ــ مشكلة شط العرب .

ب ــ طبيعة الثورة الفرنسية .

جـ ــ مفهوم التاريخ .

د ــ سقوط النظام الملكي في العراق .

١١ ــ قام الدكتور صالح أحمد العلي رئيس قسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة بغداد بزيارة كليتنا للفترة من ٢٧/ ٣/ ١٩٧٦ ولمدة أربعة أيام ألقى خلالها محاضرات على طلبة قسم التاريخ وهي :

أ – نشوء الحركة الفكرية في صدر الاسلام .
ب – العرب ودورهم في تاريخ صدر الاسلام .
جـ – المعتزلة والمحنة .

١٢ – قام البروفسور كيريكه رئيس قسم الدراسات الشرقية في جامعة هاله بالمانيا الديمقراطيه بزيارة لكليتنا ألقى خلالها محاضرة في يوم ٥ / ٤ / ١٩٧٦ بعنوان : (التجمع السكاني ونمو المدن في العصور الوسطى في اوربا) .

١٣ – زار كليتنا كل من الدكتور حسين أمين والدكتور محمد حسين الزبيدي المدرسين بكلية الآداب في جامعة بغداد كليتنا ليوم واحد بتاريخ ١٩٧٦/١٢/٢٩ وذلك لغرض الاعداد لعقد مؤتمر الحضارة العربية المزمع عقده في جامعة الموصل بكلية الآداب .

١٤ – زار الدكتور لطفي عبدالوهاب يحيي (المصري الجنسية)والاستاذ في كلية التربية بجامعة بغداد كليتنا يومي ٢٨و ٢٩ /١٩٧٦/٤ وألقى محاضرتين على طلبة قسم التاريخ
أ – المسالك الحضارية بين مجتمع وادي الرافدين والمجتمع اليوناني .
ب – أساطير الحياة بين حضارة وادي الرافدين وحضارة اليونان .

١٥ – قام الملحق الثقافي البريطاني في بغداد بزيارة لقسم اللغات الاوربية في كليتنا للتشاور في تقديم بعض التسهيلات الممكنة من أجل تطوير القسم .

١٦ – قام الملحق الثقافي الفرنسي بزيارة لقسم اللغات الاوربية في كليتنا وذلك لوضع خطة عمل للاتفاقية المعقودة بين جامعة الموصل وجامعة كليمونت فيران وقد تم مناقشة احتياجات فرع اللغة الفرنسية من أساتذة وأجهزة مختبرية .

١٧ – قام السيد هنري جينو الخبير التربوي في الملحقية الثقافية الفرنسية بزيارة لقسم اللغات الاوربية للمساعدة في تطوير مناهج الفرع ليكون التدريس حسب الطريقة السمعية البصرية الحديثة .

١٨ – قام الملحق الثقافي الالماني بزيارة لكليتنا لبحث شؤون فرع اللغة الالمانية المزمع فتحه في العام الدراسي القادم وتقديم التسهيلات الممكنة لذلك .

١٩ – قام السيد براين نفن خبير تدريس اللغة الانكليزية في معهد تطوير اللغة الانكليزية بزيارة لقسم اللغات الاوربية في كليتنا والالتقاء باساتذة قسم اللغات الاوربية لبحث الامور المتعلقة بتدريس اللغة الانكليزية واللغة العلمية في جامعة الموصل .

المؤتمرات العلمية :

١ ـ اشترك كل من الدكتور هاشم يحيي الملاح عميد كلية الآداب والاستاذ المساعد في قسم التاريخ ،والدكتور خضر جاسم الدوري الاستاذ المساعد في قسم التاريخ بكلية الآداب في المؤتمر العالمي الاول للاقتصاد الاسلامي الذي انعقد في المملكة العربية السعودية للفترة من ٢٠ /٢ / ٩٧٦ لغاية ٢٦ / ٢/ ١٩٧٦ .

٢ ـ اشترك الدكتور يوئيل يوسف عزيز الاستاذ المساعد في قسم اللغات الأوربية في كليتنا في الندوة التدريبية في موضوع اللغة الانكليزية التي أقيمت في جامعة صنعاء للفترة من ٢٧ / ٣ /١٩٧٦ لغاية ٢٩ / ٣ / ١٩٧٦ .

٣ ـ اشترك الدكتور عادل نجم عبو مدير مركز البحوث الاثرية والحضارية في كلية الآداب في مؤتمر بكلية الآثار بجامعة القاهرة وألقى بحثاً بعنوان(الرباط في العمارة الايوبية في سوريا) .

٤ ـ اشترك السيد حكمت نجيب المدرس المساعد في قسم التاريخ في الندوة العالمية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب في جامعة حلب للفترة من٥ ـ ١٢نيسان١٩٧٦ وألقى بحثاً بعنوان (الكيمياء عند العرب ورائدها الاول جابر بن حيان) .

الابحاث العلمية :

عقدت الاقسام العلمية في الكلية ندوات علمية (سيمنارات)لمناقشة الابحاث المقدمة من قبل أساتذة الكلية حسب التفصيل الآتي :

* قسم التاريخ ـ

١ ـ « أساليب تداول السلطة في الدولة العربية الاسلامية »

للدكتور هاشم يحيي الملاح

٢ ـ « التعريب في العصرين الاموي والعباسي »

للدكتور توفيق سلطان اليوزبكي

٣ ـ « دور البترول في تغيير المجتمع العراقي »

للدكتور محمد أزهر السماك

٤ ـ « التحول الاجتماعي بالحجاز في العصر الاموي »

نجلة قاسم الصباغ

٥ — « الدور السياسي للقبائل العربية في الشام والجزيرة الفراتية منذ منتصف القرن الرابع الهجري الى العقد الاخير من القرن الخامس الهجري »
طيء ، وكلاب ، ونمير

محمود ياسين التكريتي

٦ — « يعقوب بن الليث الصفار »
٢٥٤ هـ — ٢٦٥ هـ
مؤسس الدولة الصفارية

صلاح عبدالهادي الحيدري

٧ — « اوضاع ولاية الموصل الاقتصادية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقد الاول من القرن العشرين »
ابراهيم خليل

٨ — « التأثيرات الاجنبية على السكة النحاسية الموجودة في مركز البحوث الآثارية والحضارية في جامعة الموصل »
عبدالواحد الرمضاني

— قسم اللغة العربية —

٩ — « التشبيه عند المبرد في كتاب الكامل »

للدكتور حازم الحاج طه

١٠ — « المنهج العلمي بين الجاحظ وابن خلدون »

للدكتور سالم الحمداني

١١ — « العقد الفريد بين المشرق والاندلس »

حازم عبدالله

١٢ — « القصة القصيرة في العراق بعد ثورة ١٩٥٨ »

للدكتور عمر الطالب

١٣ — « الجمل التي لها محل من الاعراب والتي لامحل لها »

تحقيق : طه محسن عبدالرحمن

١٤ — « ملامح من رثاء الحيوان في الشعر العباسي »

طه محسن عبدالرحمن

١٥ ــ « لامية المرتضى الشهرزوري »
نص من شعر العلماء والمتصوفة — عبدالوهاب العسواني

١٦ ــ « القيم الانسانية في الشعر الجاهلي » — جليل رشيد

١٧ ــ « منهج ابن منظور في لسان العرب » — فاروق محمود الحبوبي

ــ قسم اللغات الأوربية ــ

18. Sub-sy systems In English-Morphology.
A Concise study of Morphological Irregularities
By : D. T. Gorgis, M.A.

١٩ ــ استحدث في قسم اللغة العربية خلال العام الدراسي الحالي ١٩٧٦/١٩٧٥ مادة بعنوان (البحث الخاص) يعد فيها طلبة السنة الرابعة رسائل تخرج باشراف اساتذة القسم ، وقد انجز ٧٢ بحثاً من قبلهم وسوف توضع في مكتبة خاصة في القسم ، ولقد ايد مجلس الكلية توصية القسم في العمل على نشر الابحاث الممتازة منها على نفقة الجامعة ومكافأة اصحابها تشجيعاً لهم ودعماً لهذه المبادرة العلمية ولقد نالت اربعة ابحاث منها درجة (امتياز) . وتدرج ادناه قائمة باسماء رسائل تخرج طلبة قسم اللغة العربية مع تقديراتها واسماء الأساتذة المشرفين عليها :

الصف الرابع ــ شعبة أ ــ

اسم الطالب	عنوان الرسالة	المشرف	التقدير
١ ــ ابراهيم جنداري جمعة	الصورة الادبية في شعر بدر شاكر السياب	د . عمر الطالب	امتيـــاز
٢ ــ أحمد حسين محمد	الطبيعة في شعر الاعشى	طه محسن	جيـــد
٣ ــ أحمد محمد أمين	(اذ واذا)في القرآن الكريم والنحو العربـي	د.موسى العليلي	جيـــد

	اسم الطالب	عنوان الرسالة	المشرف	التقدير
٤ —	اسماعيل ابراهيم محمد	الحنين والغربة في شعر ابي فراس الحمداني	د. طلعت أبو فرحة	جيدجداً
٥ —	أمل حمودي	الثورة في شعر محمود درويش	د.سالم الحمداني	جيدجداً
٦ —	حسين اسماعيل مرزا	الاعراب والبناء	د. عرفةمصطفى	مقبول
٧ —	حمد محمد زيدان	الأفعال الناسخة في كتاب: المقتضب	د.حازم طه	جيد
٨ —	خليل ابراهيم جبارة	دراسة تحليلية في شعر العباس بن مرداس	د.موسى العليلي	جيدجداً
٩ —	راقية ابراهيم اسماعيل	الضمرائر الشعرية في كتاب: المقتضب	د.حازم طه	جيد
١٠ —	زكي مصطفى	الغزل عند عبيد الله بن قيس الرقيات	د.طلعت أبو فرحة	جيد
١١ —	سحر حسين علي	المرأة في شعر البهاء زهير	د.سالم الحمداني	جيد
١٢ —	سعاد محمد	الرومانسية في شعر فدوى طوقان	د.سالم الحمداني	جيدجداً
١٣ —	سيف الدين عز الدين	هاشميات الكميت بن زيد الاسدي	د. موسى العليلي	مقبول
١٤ —	صلاح محمد صافي	الشخصية الأدبية في رواية: لقيطة	د.عمر الطالب	جيد
١٥ —	عادل عبد الحي يونس	الوصف في شعر الوأواء الدمشقي	عبد الوهاب العدواني	جيدجداً
١٦ —	عامرة سليمان داؤد	ظاهرة الحزن في شعر عبد القادر الناصري	د.سالم الحمداني	جيدجداً
١٧ —	عبد الحميد عبد الرحمن	المسائل النحوية في كتاب: الكامل	د.حازم طه	جيد
١٨ —	عبد الكريم محمد أحمد	(رب وقد) في القرآن الكريم وكتب النحو	د.موسى العليلي	جيدجداً
١٩ —	عبدالله فتحي الطاهر	الوسوسة والطيرة في شعر ابن الرومي	حازم عبدالله	امتياز

اسم الطالب	عنوان الرسالة	المشرف	التقدير
٢٠ — عباس سليمان حمد	الوصف في شعر السرى الرفاء	حازم عبدالله	جيد
٢١ — علي جاسم محمد	دراسة تحليلية في شعر ابي محجن الثقفي	عبد الوهاب العدواني	جيد
٢٢ — ليلى عبد الخالق فاضل	دراسة تحليلية في شعر ابراهيم بن هرمة	عبد الوهاب العدواني	جيد
٢٣ — ماركريت يوسف سركيس	دراسة تحليلية في شعر المخبل السعدي	د. موسى العليلي	جيد
٢٤ — مزاحم عبد الغني	دراسة تحليلية في شعر أبي الشمقمق	عبد الوهاب العدواني	جيد
٢٥ — محمد سلطان لجي	عز الدين الموصلي وبديعيته	طه محسن	جيد
٢٦ — محمد شاكر حسن	القومية العربية ومرحلة الشعر الكوني عند عبد الوهاب البياتي	د. عمر الطالب	جيد
٢٧ — محمود محمد داؤد	الغزل عند العرجي	عبد الوهاب العدواني	جيد جداً
٢٨ — منتهى فتاح سليمان	(حتى) في اللغة العربية	طه محسن	جيد
٢٩ — نازك غانم محمد	جملة الحال في القرآن الكريم	عبد الوهاب العدواني	جيد جداً
٣٠ — ناظمة محمد	الحكمة في شعر زهير بن أبي سلمى	د. طلعت أبو فرحة	جيد
٣١ — نجوى بهجت انطوان	الغربة والحنين في شعر المعتمد بن عباد	حازم عبدالله	جيد
٣٢ — نعيمة ابراهيم أمين	(ما) في النحو العربي	د. عرفة مصطفى	جيد
٣٣ — نصري أحمد الديري	الوصف عند الشهاب الشاغوري	د. طلعت أبو فرحة	جيد

اسم الطالب	عنوان الرسالة	المشرف	التقدير
٣٤ – هدى عبد العزيز	الهجاء في شعر دعبل الخزاعي	د.موسى العليلي	مقبول
٣٥ – هند حامد الحياوي	شعر المتنبي بين الحكمة والفلسفة	حازم عبدالله	جيد

الصف الرابع – شعبة ب

اسم الطالب	عنوان الرسالة	المشرف	التقدير
١ – أحمد حنش رمضان	شعر الخبز أرزي – جمع ودراسة	د.حازم طه	جيد
٢ – أحمد خضر خلف	الطبيعة في شعر عدي بن زيد	طه محسن	جيد
٣ – أميرة محمود عبد الله	النحت في اللغة العربية	عبد الوهاب العدواني	امتياز
٤ – الهام محمد علي الدباغ	الرومانتيكية في شعر عبد الرحمن شكري	د.سالم الحمداني	جيد
٥ – بلقيس محمد داؤد	الحروف الزائدة في كتاب : المقتضب	د.حازم طه	جيد
٦ – حجي عباس حمان	الشاب الظريف شاعر الغزل والنسيب	د.موسى العليلي	جيد
٧ – حسن علي عبوش	(لو) في النحو والبلاغة	طه محسن	جيد
٨ – خلف جمعة صالح	القصة الحوارية عند امريء القيس	د.عمر الطالب	جيدجداً
٩ – خالدة عبد المجيد لطفي	أدب القاص، عبدالملك نوري	د.عمر الطالب	مقبول
١٠ – رمزية حسن حسين	الجانب الاجتماعي في شعر ابن المعتز	حازم عبدالله	مقبول
١١ – رافع عبدالله مالو	الظاهرة الوطنية في شعر فخري أبي السعود	حازم عبدالله	جيدجداً
١٢ – روناك فاريق	دراسة مقارنة بين السياب وكوران	د.طلعت أبو فرحة	مقبول
١٣ – سعود أحمد يونس	شعر الحسن بن سعيد الشاتاني– جمع ودراسة	د.محي الدين توفيق	جيدجداً

اسم الطالب	عنوان الرسالة	المشرف	التقدير
١٤ ـ سلمى عبد اللطيف سعيد	العطف في كتاب: المقتضب	د. حازم عبدالله	جيد جداً
١٥ ـ سميرة سالم محمود	المرأة في شعر امرىء القيس	د. عمر الطالب	جيد جداً
١٦ ـ سنوس شيت حسين	حروف النفي في كتاب: المقتضب	د. حازم طه	مقبول
١٧ ـ سنية اسماعيل خضر	المسائل اللغوية والنحوية في مجالس ثعلب	عبد الوهاب العدواني	جيد
١٨ ـ صديق غازي حسين	الظاهرة الدينية في شعر فخري ابي السعود	حازم عبدالله	جيد جداً
١٩ ـ صلاح الدين فاضل	دراسة تحليلية في شعر نصيب بن رباح	د. حازم طه	جيد
٢٠ ـ طه عبد سلطان	شعر محمد بن نصر القيراني ـ جمع	عبد الوهاب العدواني	امتياز
٢١ ـ عامر احمد ابراهيم	ادب الدكتور محمد عوض محمد	د. حازم طه	جيد
٢٢ ـ عبدالله حسن احمد	الصورة الادبية في شعر سعدي يوسف	د. عمر الطالب	جيد جدا
٢٣ ـ عبدالله محمد خليف	دراسة تحليلية في شعر محمد بن كناسة الاسدي	د. سالم الحمداني	جيد جداً
٢٤ ـ عبدالله محمد طه	شعر محمد بن وهيب الحميري ـ جمع ودراسة	طه محسن	جيد جدا
٢٥ ـ علي عزيز مصطفى	الحجاج العقلي في شعر الكميت	د. موسى العليلي	جيد جدا
٢٦ ـ عماد عبد يحيى	الحس بالوجود في شعر المعلقات	عبد الوهاب العدواني	امتياز
٢٧ ـ لمياء سلطان خليل	صيغ منتهى الجموع في كتاب: المقتضب	د. محيي الدين توفيق	جيد
٢٨ ـ محروسة عبد العزيز	ظاهرة الحزن في شعر بدر شاكر السياب	د. سالم الحمداني	جيد
٢٩ ـ محمد فرمان محمد	شعر احمد بن منير الطرابلسي ـ جمع ودراسة	د. محي الدين توفيق	امتياز

٣٠ – محمود ظاهر عساف شعر مخلد بن بكار الموصلي – حازم عبدالله جيد جداً
جمع ودراسة

٣١ – محمود عطية محمد الطبيعة في شعر أوس بن حجر – طه محسن جيد

٣٢ – مفاخر عبد فتحي المذهب الكوفي في كتاب : البيان د. محي الدين توفيق جيد جداً
في غريب اعراب القرآن لابن الانباري

٣٣ – نازك شهاب سعيد المذهب الكوفي في كتاب: املاء ما د. محي الدين توفيق جيد جداً
من به الرحمن لأبي البقاء العكبري

٣٤ – نادرة محمد صالح زيادة (كان واخواتها) طه محسن جيد

٣٥ – هناء نايف يونس المرأة في شعر الزهاوي د. سالم الحمداني جيد جداً

٣٦ – هيفاء هاشم محمود الملامح الفارسية في مقامات د. طلعت أبو فرحة جيد جداً
البديع الهمداني

٣٧ – ياسين محمد فتحي الفن القصصي عند بثينة الناصري د. عمر الطالب جيد

ابحاث ونشاطات مركز البحوث الاثارية والحضارية في كلية الاداب :

يعكف اعضاء مركز البحوث الاثارية والحضارية على اعداد البحوث العلمية الاتية :

١ – الايوان في العمارة الاسلامية

د . عادل نجم عبو

٢ – القانون في العراق القديم (كتاب)

د . عامر سليمان

٣ – نصوص مسمارية من مدينة تربيصو الآشورية من مكتشفات جامعة الموصل

د . عامر سليمان

٤ – الزخرفة النباتية على مباني الموصل في العهد العثماني

د . احمد قاسم الجمعة

٥ – دكاك النار في الحضر

عبد المالك يونس عبد الرحمن

٦ ـ الشكل والاحجام في الخط العربي

تحسين عمر طه

٧ ـ العلاقات التجارية الاشورية مع بلاد الاناضول

مسلم محمد احمد

٨ ـ المسكوكرت الفضية في مركز البحوث الاثارية والحضارية لجامعة الموصل

عبد الواحد سعدي الرمضاني

٩ ـ الزواج في العهد البابلي القديم

علي ياسين احمد

٢٠ ـ بعض التحف المعدنية في متحف الجامعة

علي ياسين احمد

١١ ـ يعمل مركز البحوث الآثارية والحضارية في كلية الآداب حالياً على الاعداد لاصدار دليل اثري لمحافظة نينوى وقد تم تصوير المواقع الاثرية بالافلام الملونة تمهيداً لنشره .

١٢ ـ يعمل مركز البحوث الاثارية والحضارية على اقامة مكتبة سلايدات للإستفادة منها بواسطة جهاز عرض الفانوس السحري .

١٣ ـ سيقوم المركز اعتبارا من شهر ايلول القادم باجراء التنقيبات في بعض المواقع الاثرية من اجل انقاذ الاثار التي ستغمرها بحيرة سد الموصل ، المقرر انشاؤه قريباً

١٤ ـ تم إنجاز القاعة الأولى من متحف الجامعة في ١٩٧٦/٥/٣ وتم افتتاحها من قبل السيد رئيس الجامعة . وتضم القاعة نماذج للحرف الموصلية . ويجري العمل الان لاكمال القاعة الثانية التي ستتضمن نماذج الازياء الشعبية في مدينة الموصل واطرافها.

١٥ ـ يعمل المركز على اصدار دليل لمتحف الجامعة يتضمن التعريف بالمتحف ومحتوياته مع مصورات للقطع الفنية البارزة وسيكون الدليل باللغتين العربية والانكليزية .

الدورات الدراسية .

١ ـ شارك ١٥ طالباً من طلبة الصف الثالث في قسم اللغات الاوربية في الدورة الدراسية المعدة لهم في جامعة ردناك خلال الفصل الدراسي الثاني وامضيا ثلاثة اشهر هناك

ثم عادوا بعد انهاء الكورس المذكور . ومن الجدير بالذكر ان هذه الوجبة هي الوجبة الثانية التي تم ارسالها .

٢ — يعد قسم اللغة العربية في كلية الاداب دورة في موضوع اللغة العربية لبعض طلبة قسم الدراسات العربية في جامعة سانت اندروز باسكتلندة وستكون مدة الدورة ستة اسابيع ابتداء من منتصف شهر آب حتى نهاية شهر ايلول من اجل رفع مستوى هؤلاء الطلبة في فهم واستعمال اللغة العربية .

نشاطات ثقافية :

١ — القى الدكتور عباس ياسر الزيدي المدرس في قسم التاريخ محاضرة بعنوان (الحركة الطلابية في العراق) ضمن النشاطات الثقافية للكلية لهذا العام .

٢ — اقيم مهرجان شعري على قاعة مسرح كلية الآداب بالتعاون مع اللجنة الثقافية للاتحاد الوطني لطلبة العراق في الكلية القيت خلاله عدة قصائد للشعراء الشباب من منتسبي الكلية .

الاساتذة الجدد .

ادناه اسماء الاساتذة الجدد الذين تم تعيينهم او نقل خدماتهم إلى الكلية هذا العام :

١ — الدكتور يحيى صادق الدجيلي مدرس دكتوراه في الفلسفة .

٢ — الدكتور ابراهيم محمد حسون القصاب مدرس مساعد دكتوراه الحلقة الثالثة في الجغرافية الاقتصادية

٣ — السيد كيورك مرزينا كرومي مدرس مساعد ماجستير في الفلسفة الشرقية.

٤ — السيد طه حمادي الحديثي مدرس مساعد ماجستير في الجغرافية .

٥ — السيد جاسم محمد حسن مدرس مساعد ماجستير في التاريخ الحديث.

٦ — السيدة صباح ابراهيم الشيخلي مدرسة مساعدة ماجستير في التاريخ .

٧ — الانسة خولة شاكر الدجيلي مدرسة مساعدة ماجستير في التاريخ .

٨ — السيد طارق محمود رمزي مدرس مساعد ماجستير في التربية وعلم النفس.

٩ — السيد دريد عبد القادر نوري مدرس مساعد ماجستير في التاريخ .

١٠ — السيد مخلف شلال مرعي مدرس مساعد ماجستير في الجغرافية .

١١ ـ السيد محمد حربي حسن　مدرس مساعد　ماجستير في الاجتماع .

١٢ ـ السيد صلاح حميد الجنابي　مدرس مساعد　ماجستير في الجغرافية .

١٣ ـ السيد عبدالمالك يونس عبدالرحمن　مدرس مساعد　ماجستير في الآثار .

١٤ ـ السيد فؤاد عبد الوهاب　مساعد باحث　بكالوريوس في الجغرافية .

قسم اللغة العربية :

١٥ ـ السيد جليل رشيد فالح　مدرس مساعد　ماجستير في اللغة العربية .

١٦ ـ السيد فاروق محمود عبدالله　مدرس مساعد　ماجستير مكتبات وتوثيق .

١٧ ـ السيد سالم حميد امين　مدرس مساعد　ماجستير في اللغة العربية .

١٨ ـ السيد ناظم رشيد شيخو　مدرس مساعد　ماجستير في اللغة العربية .

١٩ ـ السيد منجد مصطفى بهجت　مدرس مساعد　ماجستير في الادب والنقد .

٢٠ ـ السيدة عربية توفيق لازم　مدرسة مساعدة　ماجستير في اللغة العربية .

٢١ ـ السيد انيس علي داهش　مساعد باحث　بكالوريوس في اللغة العربية .

٢٢ ـ السيد شامل فخري يحيى　مساعد باحث　بكالوريوس في اللغة العربية .

قسم اللغات الاوربية :

٢٣ ـ السيد دنحا طوبيا كو كيس　مدرس مساعد　ماجستير في اللغة الانكليزية .

٢٤ ـ السيد امين حسين احمد البامرني　مدرس مساعد　ماجستير في اللغة الانكليزية

مكتبة الكلية :

٢٥ ـ مشعل محمد شاكر　مساعد باحث　بكالوريوس في اللغة العربية .

٢٦ ـ خلف حسن الحديدي　مساعد باحث　بكالوريوس في اللغة العربية .

الاساتذة الذين حصلوا على شهادات اختصاص وعادوا إلى الكلية :

١ ـ الدكتور عباس ياسر الزيدي　دكتوراه　تاريخ حديث .

٢ ـ الدكتور موسى بناي العليلي　دكتوراه　باللغة العربية .

٣ ـ الدكتور احمد قاسم الجمعة　دكتوراه　بالآثار الاسلامية .

٤ ـ السيد لازم مهران اوانيس　ماجستير　باللغة الانكليزية .

أسماء الذين اجيزوا دراسياً العام الحالي ١٩٧٥ – ١٩٧٦ :

١ –	السيد علاء موسى كاظم نورس	اجازة دراسية	للحصول على شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث العثماني
٢ –	السيد محمود ياسين التكريتي	اجازة دراسية	للحصول على دكتوراه في التاريخ الحديث في جامعة القاهرة
٣ –	السيد سعدي علي غالب	اجازة دراسية	للحصول على الدكتوراه في الجغرافية من جامعة القاهرة
٤ –	السيد علي محمد الحبوبي	اجازة دراسية	للحصول على شهادة الدكتوراه في موضوع الادب من جامعة الاسكندرية
٥ –	السيد مظفر عبدالله امين	بعثة	للحصول على شهادة الدكتوراه في موضوع التاريخ الحديث من انكلترا
٦ –	السيد زياد جميل خليل	زمالة	جامعة بروفانس(اكس – مرسيليا)
٧ –	السيد توفيق عزيز عبدالله	زمالة	للحصول على شهادة الدكتوراه في الادب الفرنسي دكتوراه الحلقة الثالثة في علم اللغات من فرنسا

ADAB AL RÄFIDAYN

PUBLISHED BY
COLLEGE OF ARTS
UNVIERSITY OF MOSUL

VOLUME 7

15.OCT. 1976

Printed at : Dar Al - Kuttub
Organisation for Printing
and Publishing
MOSUL - IRAQ

It seems that this view is extreme for these reasons:-

a. The theory of sovereignty is still in force , and most - if not all - of the constitutions in the contemporary world identify the holder of the sovereignty. Moreover Article 2 in the Charter of the United Nations States , "The organization is based on the principle of the sovereign equality of all its members ,, (41) .

b. Sovereignty in Islam does not encourage tyranny ; because if we regard God as sovereign we cannot imagine that God will be a tyrant . The orders of God are embodied in the Qur'an So , in practice , the sovereign is the Qur'an which available to all for study. If some scholars tried to use the Qur'an to support tyranny , the responsibility of this misuse should lie on them and not on the sovereignty of Qur'an. We can regard this sovereignty as a great limitation on the will of governors , because they have no right to legislate according to their wishes and in defiance of Qur'an (42) .

In practice , it is undeniable that most of the Muslim governors did not bind themselves strictly by the Qur'anic rules · But in these cases , they alone were responsible for their behaviour and not the sovereignty of the Qur'an ....

If we consider the nation's sovereignty in Islam,the result will be the same , because the Muslim nation must respect the orders of God which are embodied in the Qur'an and is not allowed to act against them (43) .

---

41. Dolivet L., *The United Nations, Britain,* 1946, *p.* 92 ; *al - Jurf, nazariyat al-daulah, p.* 151.

42. Schacht, *Islamic law in contemporary states, The American Journal of Comparative Law* , 1959, *vol.* 8, *p.* 144; *Coulson and Anderson, The Muslim ruler, Now York Un., Law Review, Nov·* 1958, *vol.* 33, *pp.* 920-929.

43. *Zaydan, A, al-fard wa al -daulah fi al-shari' ah al-Islamiyyah, Baghdad* 1965 , *p.*16 .

3. **Opponents of the concept of sovereignty :-**

Like other human concepts , the concept of sovereignty did not escape criticism . The strongest critics of this theory were Duguit (1859 - 1928) and Georges Sale (1884 - 1960) in France (38) . The main criticisms which they made were :-

a. This theory is based on the fiction that the sovereign is absolute , while he is in fact limited by several factors .

b. The sovereignty of the state is illegal and not only contradicts itself, but contradicts the idea of international law , because the state cannot enjoy absolute sovereignty and submit to the law at the same time.

c. The sovereignty of the state would represent a threat to international law because the individual sovereign state might tend to regard submission to international law as a threat to its sovereignty (39).

These views could be criticised in the following way :-

a. The absolute sovereignty of the state is relative ; because nothing in this world is perfectly absolute .

b. There is no contradiction between the sovereignty of the state and its voluntary submission to the rule of law because it creates the law and submits to it of its own free will .

c. International law is still in force although the states are now considered the bases of their separate sovereignties .

To this same view of the opponents of the theory of sovereignty, Dr . Abd al - Hamid Mutwali opposes the idea of sovereignty in Islam , because he thinks that the circumstances which gave rise to this theory in Europe have changed , and the theory has become reactionary .Besides this,the theory of sovereignty is harmful because it encourages the sovereign to act as a tyrant (40).

---

38. *Ghali and ,Isa , Mabadi–al–'ulum al–siyasiyyah P*.**210.**
39. *Ibid., pp* . **210 - 211** *; alJurf , nazariyat al–daulah, PP*.**146–151.**
40. *Mutwali , A ., Mabadi' nizam al - hukm fi al - Islam , pp* . **564** *;* **565 567 - 576 - 588** .

the Everlasting Refuge, who has not begotten, and has not been begotten, and equal to Him is not anyone (33).

3. Permanent :– God is eternal,while man is mortal. No one is immortal except Him, because He is the first and original truth as the Qur'an maintained , "He is the All-mighty, the All-wise .To Him belongs the Kingdom of the heavens and the earth;He gives life,and He makes to die, and He is powerful over everything. He is the First and the Last, the Outward and the Inward. He has knowledge of everything (34).

4. Indivisible :- The sovereignty of God is indivisible because God in Islamic faith has no son,or partner,and no one is able to share His sovereignty with Him as the Qur'an argued ; "They say : 'The Allmerciful has taken to Him a son,Glory be to Him! Nay, but they are honoured servants that outstrip Him not in speech, and perform as He commands. He knows what is before them and behind them, and they intercede not save for him with whom He is well - pleased, and they tremble in awe of Him. If any of them says , I am a god apart from Him, such a one we recompense with Gehenna; even so we recompense the evildoers (35) .

5. Inalienable : - It is impossible to transfer the sovereignty of God to another power , because no one is able to enjoy His prerogative. Moreover , as God is eternal , there is no reason to transfer His sovereignty to anyone else (36) But through revelations God chooses some persons as His messengers on earth to deliver His orders to the people as we shall explain (37).

---

33. *Sura, CXII: 1-4; Arberry, The Koran interpreted ,p. 667 ; Alyas, Sovereignty in Islam, p. 288 .*

34. *Sura,LVII.I;Arberry, The Koran...,p.504 .*

35. *Sura XXI : 26 - 29 Arberry , The Koran interpreted , p. 325 ; See also Suras , CXII: 1 -4; XXI : 22 ; XXIII : 91 .*

36. *See for instance Sura, CXII: 1-4 ; XXI : 26 - 29 ; Ilyas, Sovereignty in Islam , p. 248 .*

37. *Maududi , Islamic law and constitution , pp . 184 - 185 .*

The characteristics of the sovereignty of God :-

The characteristics of sovereignty which were mentioned before,can be found in the sovereignty of God typified as follows : –

1. Universal :-The sovereigntyof God as the Qur' an maintained is comprehensive and universal over all the universe because God is the creator of all things, "He unto Whom belongeth the sovereignty of the heavens and the earth, He hath chosen no son nor hath He any partner in the sovereignty. He hath created every thing and hath meted out for it ameasure (30)"

   The sovereignty of God is not limited to religious matters alone, but extends over political matters as over all aspects of life, as the Qur'an emphasised "Say:'O God !Lord of Power (and Rule), Thou givest Power to Whom Thou pleasest, And Thou strippest off Power from whom Thou pleasest : Thou enduest with honour whom Thou pleasest, and Thou bringest low whom Thou pleasest: In Thy hand is all Good . Verily , over all things Thou hast power (31)".

2. Absolute:- The sovereignty of God over His creatures is unlimited; His authority is over and above the authority of governors and kings. If He wants to do anything, He will do it, because He is omnipotent and as the Qur'an mentioned,"The only words we say to a thing,when we desire it, is that we say to it 'Be, and it is(32).There is no power in the Universe equal to His power, all powers submit to His absolute power because as the Qur'an emphasised"Say: 'He is God, One,God,

---

30. *Our'an XXV :I; Pickthall, M., The meaning of the glorious Koran, London, ed., II th, p.* 259 ; *Maududi, Islamic law and constitution, Karachi,* 1960 . *p.* 177 .
31. *Our'an III:* 26, *Ali, The holy Qur'an, vol. I,p.* 129; *See also suras XXXIX :43; XXXV :10;* 11 : 247
32. *Sura, XVI:*40; *Arberry, The Koran interpreted p.* 262 ; *Alyas, A., Sovereignty in Islam, Pakistan Horizon, vol,.* 11, 1958 , *p.* 247 .

6. The meaning of ' Islam is submission to the orders of God, and aMuslim is one who submits to the orders embodied in the Qur'an , the words of God, and the sunna,the traditions and works ofHis Messenger(24).

7. Therefore in Islam God is the ultimate source of law (25) .

Because of the above views, Muslims regarded their army as 'the army of God,' and their public treasury as 'the treasury of God,' "even the public functionaries are 'the (employees of Allah ') " (26) .

The "sovereignty of God" doctrine is more convincing than the "sovereignty of the nation " doctrine for these reasons :

1. The Prophet's tradition, "My community will never agree upon an error" did not refer to the nation as sovereign, but to its actions in the context of defining right and wrong which are both defined in Islam as according to God's order (27) .
2. Consultation is abasis for good behaviour and smooth government, but is not a characteristic of sovereignty .
3. The contract , *al - bay'ah,* between Caliph and people was just away of choosing governors after the time of the Prophet, and thus does not provide an adequate proof of the sovereignty of the nation (28) .

Moreover, the pledges of the Madinans at'Aqabah to submit to the order of God and the authority of His Messenger could be regarded as evidence to prove that the sovereignty in Islam belongs to God only (29) .

---

24. *Op. cit.., pp,* **151-152** .
25. *Anderson, J·, and Coulson, N. J., The Muslim ruler and contractual obligations, New York University Law Review, vol* **33***, Nov.,* **1958***, pp.* **920 - 929** .
26. *De Santillana, Law and society, edited by Arnold and Guillaume in The Legacy of Islam, p.* **286**.
27. *Schacht J., An introduction to Islamic law,Oxford,* **1964** *.p.*1*; Khadduri War and Peace in the law of Islam, pp.* **22-23** .
28. *Mutwali, Mabadi" nizam al-hukm fi al- Islam, pp.* 579-580.
29. *Ibn Hisham, al-Sirah, Egypt* **1955***, vol. l, pp.* **268-269** .

belong to the nation ,to a governor ,a family ,or a class, but only to God,for these reasons (21) :–

1. God is the creator of the Universe .
2. All the powers of man are bestowed by God .
3. Everything which man uses belongs to God, the real owner.
4. In order to bring about harmony between the creatures of God, they must submit to the one supreme power, which is God (22) .

5. No one deserves to be sovereign in the world except God, because "He is living, self-existent, selfsufficient, oternal, omniscient, omnipotent, and exalted above all flaw, defect or weakness, (23) ·

---

21. *Maududi ,Political teachings ,edited by Sharif in A history of Muslim philosophy, vol. I; Germany,* **1963**, *p.* **191***; Hamidullah, The Muslim conduct , p.6; Sherwani , Studies in Muslim political thought and administration, Lahore,* **1968** *p.* **23** *, Hashimi, Y., Sovereignty in Muslim theory and practice , The Proceedings of Pakistan history conference,* **2***nd ,session* **1952 ,P.91 :** *Siddiqi,A., Conception of sovereignty in Islamic state, The proceedings of Pakistan conference ,* **2***nd session* **1952** *, p.***62** *Ilyas,A., Sovereignty in Islam , Pakistan Horizon ,Karachi,***1958** *P.***244***, Al-Ali, S.,al - tanzimat al-ijtima' iyyah wa al-iqtisadiyyah fi al-Basrah, Baghdad* **1953** *,p.***87** *, Uthman ,F., daulat al-fikrah, Cairo ,n.d ., P.* **72***, Khadduri ·War and peace in the law of Islam , Baltimore* **1962** *,p.***10***;De Santillana,Law and society edited by Arnold and Guillaume in The legacy of Islam , p.* **288***; Gibb,Law and religion in Islam, edited by E.J. Rosenthal , in Judaism and Christianity ,vol* 3, . *p.***147***; Von Grunebaum , Medieval Islam ,, Chicago ,* **1953** *, p.* **142** *; Bluntschli, The theory of the state , P.***286** *; Levy , R. , The social structure of Islam , Cambridge ,* **1957** *.p.* **242** .
22. *Al-Maududi, Nazariyat al-Islam wa hadiyhi fi al-siyasah wa al-qanun wa al -dustur, Damascus,* **1964**, *pp.* **150 - 151** .
23. *Maududi, Political teachings, edited by Sharif in A history of Muslim philosophy, vol.* 1, *p.* **191** .

to mean "the sovereign power or the power delegated by the sovereign ,the office of governor (a wali) and implies arrangement power and action(16). But the Muslim scholars did not elaborate the idea of sovereignty in special theories as some western scholars did later(17).Therefore some contemporary Muslim writers try to deal with this topic under the guidance of western theories of sovereignty and under the title of *al-siyadah or al - hakimiyyah* (18) . There are two main theories in this field :-

a . **The sovereignty of the nation :-**

Some modern Muslim writers suggest that the holder of sovereignty in Islam is the nation for these reasons :-

1. The Prophet said , "My community will never agree upon error."(19).
2. The assertion that the government in Islam is based on consultation between the governors and governed .
3. The basis from which the Caliphate took its legality is the contract,(*al-bay, ah*) between the Caliph and his nation (20) .

b. **The sovereignty of God :..**

The majority of the writers suggest that sovereignty in Islam does ont

---

16. *al-Adhami ,The role of the Arab provincial governor in early Islam* **(11-132/632-750)** , *Thesis presented to St Andrews University ,July* **1963,P.25.**
17. *Mutwali ,mabadi' nizam al-hukm fi al-Islam,pp.* **576-586** .
18. *Ibid ., PP.* 551.-552 .
19. *al- Shaybani 'taysir al-wusul, Egypt,* **1934**, *vol .3, p.* **264** *,Hamidullah, The Muslim conduct of state ,Lahor ,n.d.* **4th**,*ed..pp.***23-24** .
20. *Op . cit ., pp.* **557-558**; *Khalil, uthman ,al-dimuqratiyyah al-Islamiyyah, Cairo* **,1958** *., p.*29 *; al -Aqqad , al-dimuqratiyyah fi al-Islam ,Cairo,* **1964**, *p.* **65** .

obligations and expressing the will of the nation and the government . Therefore they suggested that the state is the holder of sovereignty (9) .

d. Divine right and sovereignty: Some writers suggested that God alone is the source of all rights and sovereignty because He is as the"Greator,the only power from whom authority could be legitimately derived"(10) The aim oft hese theories was to prove that the final authority of the king was derived directly from God . But this theory in itself can be interpreted in favour of the people as well as of kings , because each-side can claim that his sovereign right derived from God (11) .

2 Sovereignty in Islam :..

The idea of sovereignty is found in the Qur'an ,which declared that the holder of sovereignty in Islam is God, and that the Prophet Muhammad is His creature and Messenger to the people.(12)The main duties of the Prophet Muhammad were to deliver the divine law and apply it to his people. Consequently, the Prophet based his authority on the idea of the sovereignty of God (13) .

The Muslim scholars dealt with this subject under the headings of the faith matters,*al-'aqa'id wa ilm al-Kalam*,(14)and the governmental conduct, *al-ahkam al-sultaniyyah* (15).And they used the technical term of *al-wilayah*

---

9 . *al-Jurf, nazariyat al-daulah* ,p.137.

10. *Merriam, History of the theory of sovereignty* , p. 57

11. *Ibid* ., *p.* 62 .

12. *Qur'an,XI:*1-5;LI.56-60.

13. *Ibid* .

14. *See for instance, al- Shahrastani ,nihayat al-iqdam fi'ilm al-Kalam.*

15. *See for instance ,al-Mawardi, al-ahkam al- Sultaniyyah.*

d. Indivisible:– In a state the sovereignty is not shared .There is but one single authority (3) .

e. Inalienable(4):–The nature of sovereignty does not allow it to be transferred from its holder to another .

The idea of sovereignty is found in Aristotle's Politics, and the classical body of Roman law (5).But it was not the basis of political theories and it was not a great concern of writers until the sixteenth century when Jean Bodin made the first systematic study of the nature of sovereignty(6) .

The main theories of sovereignty were :

a. The king as a sovereign: In order to strengthen the position of the king in his struggle against the power of feudatory lords and the authority of the Church , Bodin outlined his theory that the king was the only holder of sovereignty (7) .

b. The nation as a sovereign : This theory derived its basis from the theories of the social contract which were advocated by such writers as Locke and Rousseau. These theories prevailed after the French revolution of 1789,which adopted these ideas, and transferred the right of sovereignty from the king to the nation(8) .

c. The state as sovereign: This theory was advocated by the German writers who regarded the state as a legal person,enjoying rights and bearing

---

3. *Burgess, Political science ..., vol I, pp.* **52-56**,*; al-Jurf, nazariyat al-daulah ,Cairo,* **1964** *,pp.*143-145.

4. *Ghali and ' Isa ,mabadi al - ulum al-siyasiyyah, Egypt* ,**1962**,*p*.**203**

5 . *Merriam , C.E., History of the theory of sovereignty since Rousseau, New York* , **1900, P 11**

6 . *Ibid* ., **p.13** .

7 . *Mutwali , Mabadi' nizam al -hukm fi al- Islam,Egypt,* **1966 pp. 560-561**

8 . *Ibid ., pp.* **562-563** .

SOVEREIGNTY IN ISLAM*

"A Comparative Study"

By

Hashim Y. al-Mallah (Ph.D.),

Senior lecturer -Dept ., of History

1. The concept of sovereignty :-

Sovereignty is the supreme power ofthe state; and as Bluntschli said it is, "Every authority which gives a final decision "(1);and as Burgess explained it is an " original, absolute, unlimited ,universal power over the individual subject and over all associations of subjects." (2)

The main characteristics of sovereignty as determined by scholars of constitutional law and political science are :

a. It is universal :- The authority of the sovereign power extends over all its subjects and all foreigners who live in the state .

b. Absolute:- The power of the sovereign is absolute and not challenged by any other authority from within or from outside the state .

c. Permanent :- The sovereign power does not depend on the life of governors ,but it is attached to the life of the state and the nation .

---

* *This article is taken from my Ph .D., thesis :The Governmental system of the Prophet Muhammad (University of St.Andrews* 1971 *,p.p*89-102)

1. *Bluntschli, The theory of the state ,Oxford* 1885 *,p.*463.

2. *Burgess,*J.W.*,Political science* and *comparative constitutional law.Boston* 1890 *,vol.I,p.*52 .

istics. 2 nd Ed. By Martin Joos. New York. American Council of Learned Societies. 1958 .

Liles, Bruce L. *Linguistics and the English Language : A Transformational Approach*. California, Good Year Publishing Company . 1972 ·

Lyons, John. *Introduction to Theoritical Linguistics*. London: Cambridge University Press. 1949.

Matthews, P . H.*Morphology- An Introduction to the Theory of Word-Structure* .

London : Cambridge University Press 1974 .

Nida, Eugene A. *Morphology: The Descriptive Analysis of Words*. 2nd. Ed. Ann Arbor : The University of Michigan Press . 1949 .

Nida Eugene A. "The Identification of Morphemes. "*Readings in Linguistics* .

2nd .Ed. By Martin Joos .New York: American Council of Learned Societies 1958 .

Palmer, Frank. *Grammar*. Penguin Books L T D . 1971 .

Pei, Mario. *Invitation to Linguistics :A Basic Introduction to the Science of Language* . London : George Allen & Unwin LTD. 1965 .

Robins, Robert H. *General Linguistics: An Introductory Survey* . London: Longmans, Green & Co. L TD . 1964 .

Stageberg, Norman C. *An Introductory English Grammar*. New York : Holt, Rinehart and Winston , Inc. 1965 .

Styker, Shirley L. " Applied Linguistics : Principles and Techniques ." *English Teaching Forum* Washington : The Information Center Service of the United States Information Agency. Vol. VII. No. 5. 1969.

Thomas, Owen. *Transformational Grammar and the Teacher of English*. New York : Holt, Rinehart and Winston , Inc. 1965 .

Vendryes, J. *Language : A Linguistic Introduction to History*. Translated by Paul Radin. New York : Alfred A. Knopf . 1925 .

4. BIBLIOGRAPHY

Bloomfield,Leonard.*Language*.London:The Company Printing Works1935.

Bloch, Bernard. "English Verb Inflection." *Readings in Linguistics* .2nd.Ed. By Martin Joos. New York : American Council of Learned Societies. 1958 .

Bloch,Bernard &Trager,George L.*Outline of Linguistic Analysis*.Baltimore: Linguistic Society of America .1942 .

Branford. William. *The Elements of English:An Introduction to the Principles of the Study of Language* . London: Routledge and Kegan Paul. 1967 .

DarbyshireA.E. *ADescription of English* . London : Edward Arnold .LTD. 1967 .

Elson, Benjamin & Pickett, Velma· *An Introduction to Morphology and Syntax. Santa Ana. California. Summer Institute of Linguistics* .1962 .

Francis, W. Nelson· *The Structure of American English* . New york : The Ronald Press Company. 1958 .

Gleason, H. A., Jr. *An Introduction to Descriptive Linguistics.* Revised Edition. New York: Holt, Rinehart and Winston. 1961 .

Hall, Robert A., Jr. *Introductory Linguistics.* Philadelphia : Chilton Company . 1964 .

Harris,Zellig S.*Structural Linguistics.* The Phoenix Edition. Chicago:The University of Chicago Press . 1958 .

Harris, Zellig S. "Morpheme Alternants in Linguistic Analysis. "*Readings in Linguistics* . 2nd , Ed. By Martin Joos. NewYork: American Coun·cil of Learned Societies . 1958 .

Hill, Archibald A. *Introduction to Linguistic Structures from Sound to Sentence in English* . New York: Harcourt, Brace & World , Inc. 1958.

Hockett , Charles F. *A Course in Modern Linguistics.* New York: The Macmillan Company . 1958 .

Hockett, Charles F . "Problems of Morphemic Analysis. "*Readings in Lingu-*

3.3 Summary :

All attempts, presented throughout this paper, which center around morphophonemic changes endeavour to segment an irregular form into two, or more,morphemes in terms of independent forms or within paradigms without resorting to syntax ; thus, trying to assign a physical property to each morpheme. As a matter of fact , these attempts fail to show physical reality because of their recourse to mathematics,e.g.,their use of ϕ,+,$\pm$,[ ],→etc.'

The solution suggested in this study is to deal with irregular forms contextually by means of employing syntax . Semantics , on the other hand , is also responsible for assigning *cut*, for example , to past or present morpheme , or whether used with singular or plural noun . However , we feel that this criterion can yield a real value to irregular forms i.e.,to assign a morphosyntactic property to each form .

Now, if the preceding verbs are replaced by is *:are or was :were*, the situation is clear without recourse to determiners , e.g.,

The sheep is running .

The sheep are running .

We know beforehand that *is*, for example, is never used unless accompanied by a singular subject .For this reason, it is better to use subject-verb concord in that the verb can tell us the identity of its subject .

As for past - tense morphemes that require a zero allomorph, we believe that there should be something in the sentence(or the environment as a whole) which could account for the preterit form(this 'somthing' could possibly be termed as "past -time - determiner"), e.g.,

A sheep cut a small plant with its white teeth in the zoo yesterday."A" and "its" determine that *sheep* is singular ; and "yesterday" functions as a "past - time - determiner "- an adverb .

Now comes the question of segmentation . When linguists use a zero allomorph, they endeavour to prove that a given irregular form consists of two morphemes. Yet this zero, though logically and mathematically significant , shows no physical reality as contrasted , for example , with *book* vs. *books*. As syntax makes the situation very clear because reality is tangible, we hope it fulfils the requirements of assigning a noun syntactically used to singular or plural forms, or categorizing a verb implying a past allomorph to the past - tense morpheme .

Finally, we would rather employ an imaginary morpho-syntactic symbol such as (X) , for these nouns and verbs. This symbol may stand for an allomorph, to mean that syntax determines the property of these forms. It is worth mentioning here that (X), syntactically and lexically speaking ,has a morphological value, but it should never be considered a physical morpheme or compared with ϕ. This zero allomorph means an empty position that fits the requirements of comparable suffixes of the class-morpheme to which it belongs in reality, it does not, whereas this (X) should always be interpreted as a term referring to a *situational morpheme* ; it only becomes meaningful when it is part of a group of meaningful forms, i.e. sentence.

An obligatory transformational rule is applied :

past + cut ⇄ cut + past

cut + past → cut (a morphophonemic rule).

We might sum this up with the following representations :

A. ([tʃaild] + pl]) N

$\left\{ \begin{array}{c} \text{(vowel change) + rən} \\ \text{tʃild} \end{array} \right\}$ N

[tʃildrən]N

B. [[ʃi:p) + p]] N

[ʃi:p] N

C. [[kʌt] + p] V

(kʌt) V (64)

3.2 Syntax Substituting for Zero Morphemes in Indicating Irregular Forms

As mentioned in 2.10 synatx is very important in identifying irregular forms . Syntax plays a great part in telling us which is which . Therefore, we suggest to abandon the idea of employing a zero allomorph in signalling the second allomorph of a given form . Just because the zero allomorph has no physical property , it is advisable and more reasonable to employ syntax as the sole determiner of unfolding the identity of such forms .

When a verb in the present - simple tense happens to occur in a sentence containing an irregular noun of this type, it would either be assigned to a singular form when it is inflected with - s or to a plural form as it lacks this - s. The verb is essential in determining what form the irregular noun has . For example, the following sentences are ambiguous :

The deer ran away

I saw the sheep

Yet , if certain determiners are introduced before these nouns we can tell which is singular or plural, e.g.,

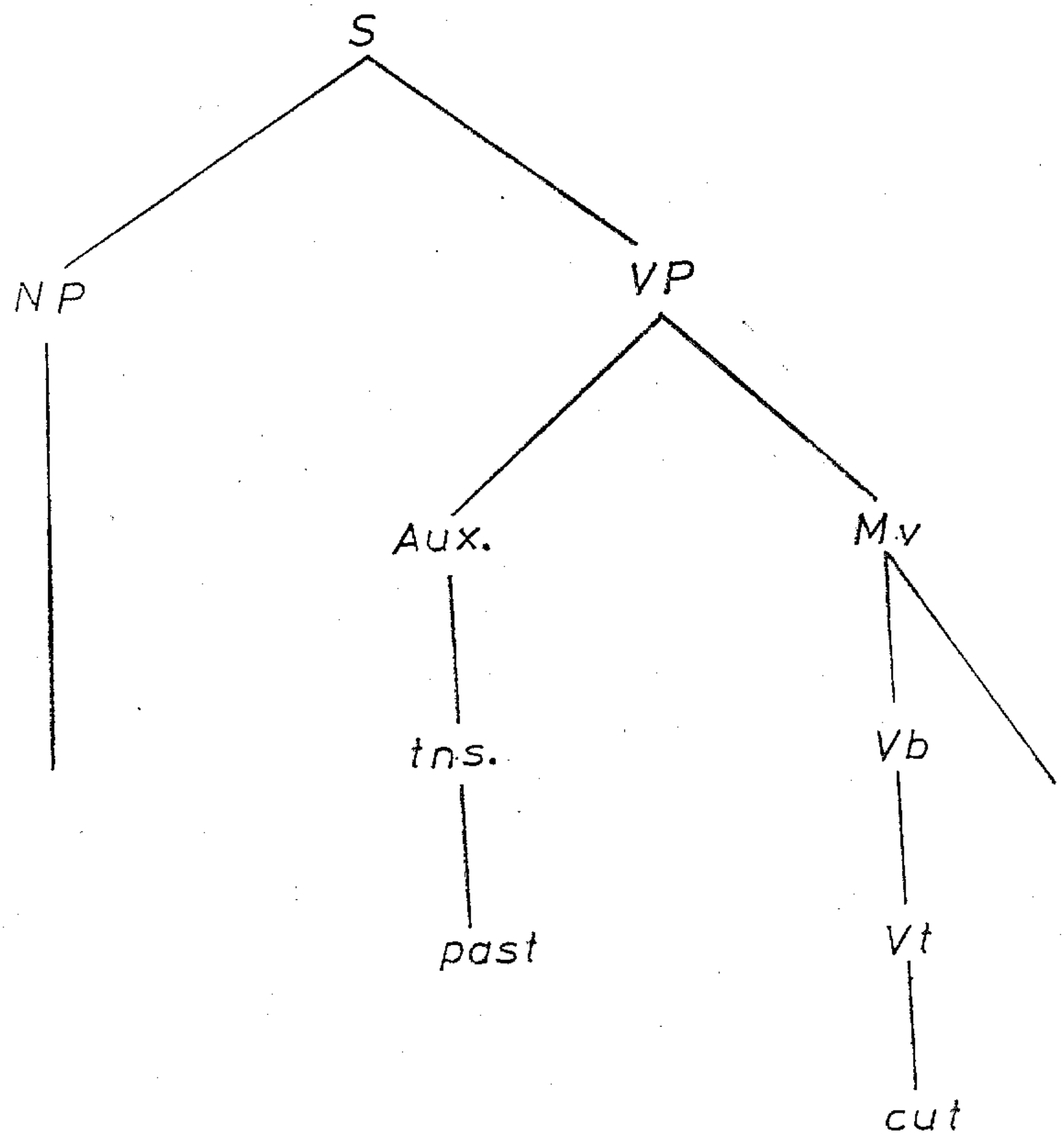
---

64. *Cf. PH. Matthews, Morphology- An Introduction to the Theory of Word-Structure* (*London: Cambridge University Press*, **1974**) *ChapterXII.*

deer + pl. → deer
sheep + pl. → sheep .
fish + pl. → fish

As for irregular verbs, such as *cut*, *hit*, *put*.. *etc*., a tree diagram just as simply as that of irregular nouns will make this clear , e.g.,

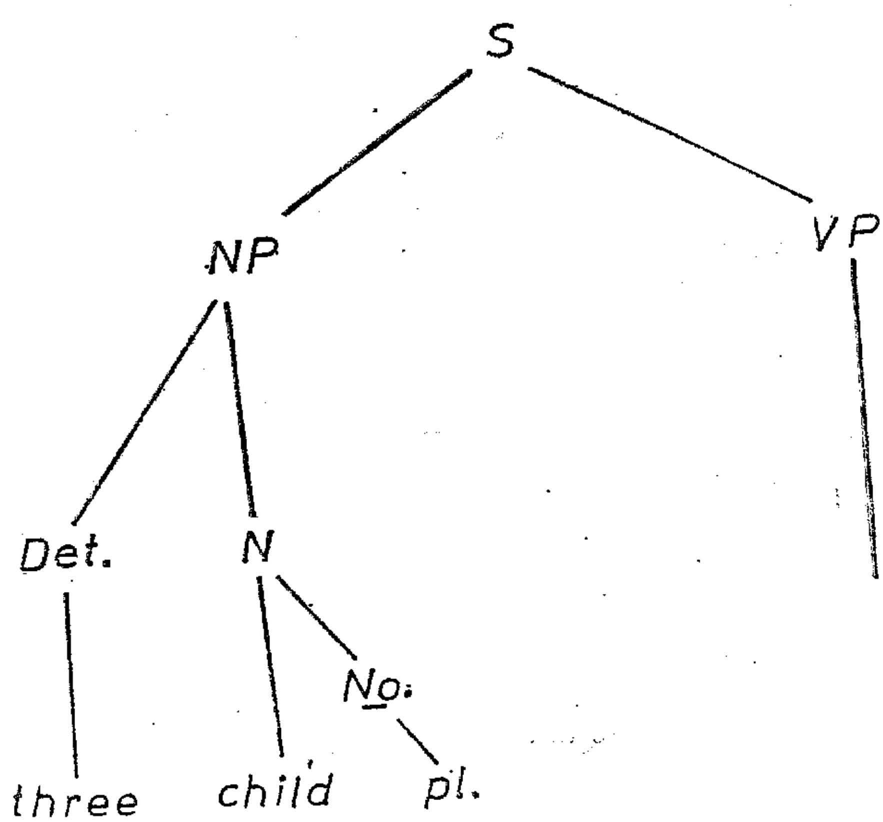
Ali cut his leg yesterday



3. SYNTAX AND MORPHEMES

3.1 Transformational Generative Grammar and Morphological Irregular Forms :

Transformational Grammar, as far as we know, extensively utilises deep and surface structures to account for irregular forms in English morphology. Hence, each irregular form (and , of course, any other form) is contextually analysed. For example, *children* in *Three childern have been playing in the garden,* would play the following part in this tree diagram:



Then, the appropriate morphophonemic rule is applied :

child + pl. → children

Also, for *deer, sheep, fish etc.,* the same process is followed :

hand, Nida says that "the immediate constituents of *kept* are the nuclear /k...p/" plus the changes of /i:/in *keep* into /e/ of /kept / *kept* plus the suffix /-t /.(59) Again, we believe that the idea of employing discontinuous allomorphs in describing English morphology is not sound (60) .

2.10 Zero Allomorphs

The zero allomorph, previously symbolised as ϕ , is widely employed by linguists who think that it " refers to a significant absence of suffix" (61) . Among the nouns that form their plural forms by adding a zero morpheme are:*sheep , deer,swine,bear ,antelope,bass, pike, carp, perch quail and grouse*.

Elson and Pickett state that " Hockett, for example, describes English *sheep : sheep, deer : deer* and the like as " used syntactically as singular or plural" but show no shape of change"(62). The following section will make this point clearer as it is devoted to syntax and morphemes .

Some of the verbs that form their preterits by adding a zero morpheme are : *put , bet , hurt. cut .. etc.* (63).

---

59. *Cf. Nida ,op.-cit.,* P. 110
60. *See the reasons stated in* 2.4
61. *Cf. Stageberg, op . cit ., p.* 124 .
62. *Elson and Pickett , op. cit., p.* 49 .
63. *For the treatment of zero allomorph, cf. Gleason, op. cit, p. 75, Hill, op cit., p. 139, Bloomfield , op. cit. , p. 239, Robins , op. cit .p. 205, Stryker, op cit., p. 18, Francis op , cit., 190 , Hall, op. cit, p. 135, Pei, op. cit., pp.62,63 Elson and Pickett, op cit., p.49 and William Branford, The Elements of English, An Introduction to the Principles of the Study of Language, (London : Routledge and Kegan Paul, 1967 ,) , p.* 119.

wife / waif / > *wives* / waivz /

knife / naif / > *knives* / naivz /

calf / ka:f / > *calves* / ka:vz /,

/f/ is changed into /v/ and that requires the voiced plural suffix, /z/ (53) . What concerns us here is that we have a second allomorph of the base: /laiv-/, /louv-/, /waiv-/, /naiv-/ and /ka: v-/ which only appears before the plural suffix (54) .

The suffix / θ/ by which nouns are derived from adjectives requires vocalic change, e.g.,

wide / waid/ *width*/ wid θ /

long/ lɔ : ŋ/ length / leŋ θ / (55) .

Some verbs form their preterits by changing both the nucleus and the final consonant of the base before the suffix / -t/, e.g.,

leave / *li* : *v* / *left* / left /

lose/ lu:z / *lost* / lɔ st / (56)

In *stand*: *stood*, we have / ∂ɐ > u /as an allomorph of the past morpheme with the loss of / n / (57)

Hockett and Nida seem to maintain the employment of the"discontinuous" allomorphs in treating irregluar forms.Hockett states that the second allomorph of *sell* is /s.ˈ..l/which never occurs unless accompanied by the past-tense morpheme . Thus,/s.ˈ..l/ + /ou/ + /d/ yields /sould/*sold*.(58) On the other

---

53. *Cf. Bloomfield, op. cit., pp.* 212-3 .
Stageberg, op. cit., p. 125 .
Hill, op. cit., p. 139 *and Stryker, op. cit., p.* 17.

54. *Cf. Hill. op. cit., p.* 139 .

55. *Cf.Bloch and Trager,op. cit., p.* 63 .

56. *Ibid., p.* 57 .

57. *Cf. Bloomfield, op. cit., p.* 216 .

58. *Cf. Hockett, op. cit., pp.* 271, 272 *in A Course in Modren L inguistics.*

added to the suppletive form / wen -/ to classify it as an allomorph of the past morpheme (48) . If it were so, why is it/t/ and not/d/as the phoneme preceding it is voiced? We think it would have been better to say that *went* is "realized" as"go + ed"(49) or that *went* is a "portmanteau morph" than to complicate matters since / n / requires / d / .

Though Stageberg accounts for the total change as "suppletion" yet it is misleading to segment *went* into two physical constituents as he does, i.e., /went/=/ go > wen /+/t/ (50). Also, Robins does the same and states that the case is just like *walked*/ w ɔ : k/ + /-t/ (51) while it is not, because *walk* can be a free form whereas /wen-/can not .

English monosyllabic adjectives regularly form the comparative and the superlative degrees by adding the suffixes /-δr/ and /-δst/ , respectively. We might say that partial suppletion is embodied in *good* > bet+er in the comparative and > be + st in the superlative. A complete suppletion is to be found in *bad* > bad + er > worse > worst (52) . Again, we state that such treatment is only " realized" because there is no way of suffixation.

2.9 Consonantal and Vocalic Changes

A set of nouns form the plural of its members by changing the final consonant of the stem in the singular and adding the plural suffix which goes hand in hand with this "final consonant" , i.e., whether it is voiced or voiceless. For instance,in the following forms :

life / laif / > / *lives* / laivz /
loaf / louf / > / *loaves* / louvz /

---

48. *Cf . Stageberg, op . cit., p.* 135 *, Bloch and Trager, op. cit., p.* 58*, Harris, op. cit,. p.* 114*, and Francis, op. cit., p.* 220.

49. *Cf. John Lyons, Introduction to Theoritical Linguistics, (London : Cambridge University Press,* 1968*), p.* 187.

50. *Cf. Stageberg, op. cit., p.* 135.

51. *Cf. Robins, op. cit., pp.* 207 268.

52. *Cf. Bloch and Trager, op. cit., p.*58*, and Lyons, loc. cit.*

the allomorphs of the plural morpheme are in complementary distribution. Therefore,none of these allomorphs could be a suppletive alternant for its member in the same class or to the class itself .

Some other linguists have no choice as to be in favour of/-∂n/or/-r∂n/.(43) They simply state that each of the preceding analysis is possible , yet Robins makes it clear that " a choice must be made—in a description of English Grammar . " (44).

Incidentally , the solution we suggest instead here is identical with that of Palmer's , who states :

"It is reasonable to regard/tʃ aild/in the singular and/tʃ ild/in the plural as allomorphs of the same morpheme, and it is equally reasonable to identify the/ ∂n/ of *children* with the / ∂n/ of *oxen*. What then can we say of the/r/?It is an"empty"morph,since it belongs to no morpheme at all"(45)

2.3 Suppletive Alternation

Though we find sometimes a suppletive form phonemically , partially or completely different from the free base, yet "the paradigm requires that we assign it to the same morpheme, and describe the morphophonemic change that takes place as suppletion ."(46) The analysis, here , will be restricted to a few forms that are recurrent in the analysis of various linguists. On the one hand, some linguists would say that suppletion "is a complete change in the form of a stem, as when *went, was* are used as the past forms of *go*, *be*; *worse* is the suppletive comparative of *bad* (47) On the other hand, Stageberg, Bloch and Trager, Harris, and Francis regard the/t/ of *went* as the suffix

43. *Cf. Robins, op .cit p,* **204**, *and Elson & Pickett, op. cit ., p.* **50**

44. *Robins, op. cit., p.* **204** .

45. *Palmer, op.cit, p.* **115**

46. *Francis, op. cit., p.* **220**

47. *Pei, op. cit., p. 63, cf. Bloomfield, op,cit., p. 239, Bloch and Trager account for this complete difference with some other alternative which follows, op. cit., p.* **58** .

7. *take* and *took* are different (single) morphemes. This means that the two morphemes have ‘ no partial phonetic semantic resemblance ’ yet we find their consonantal framework the same and *took* has a clear semantic relation to *take* because they are the members of “take - paradigm.”

2.7 Irregular Sequential Suffixes

The “sequential suffix ”- as opposed to a “non- sequential suffix”which has early been rejected in this study - refers to a suffix appearing at the end of a given form. Our concern will be merely based on the plural suffixes occurring in *oxen* and *children*. To assign the plural suffix/- ∂n/in this pair of words as an allomorph to the plural morpheme,two things are required: complementary distribution and semantic similarity. Some linguists, such as Hill, Harris, Francis and Stryker, are in favour of taking / - ∂n / as in *children* the plural allomorph to match it with /∂n/in oxen; they would say that the morpheme {child} has two allomorphs :/tʃ aild/and/tʃ ildr/ (41).

Bloch and Trager, Bloomfield and Stageberg believe that the suffix in *children* is/-r∂n/ so as, it seems, to match/tʃild -/with/tʃ aild/. Besides, they would match/- r∂n/in *children* with / -r∂n /of *brethren*. Strangely enough, all consider / - ∂n /of *oxen* and/ - r∂n/of *children* and *brethren* as suppletive forms to the normal plural morpheme.(42)We believe that this treatment is, to a certain extent , incorrect because suppletion takes place within the same paradigm whose elements are closely related . Also , as early stated,

---

41. *Cf. Hill. op .cit p.* 141, *Francis,, op cit., pp.* **188, 190** *Harris, op cit.,pp.* **110, 113** *& Shirley L. Stryker, “ Applied Linguistics : Principles and Techniques, ”English Teaching Forum, (Washington: The Information Center Service of the United States Information Agency. Vol. vII. No.* .5 1969) , *p.* 18

42. *Cf. Stageberg, op cit. , pp.* 102, 135, *Leonard Bloomfield, Language, (London: The Company Printing Works,* 1935), *p.* 215, *and Bloch and Trager, op. cit ., p.* **59** .

representing the morpheme sequence [man] +[s]; and "/tuk/is a " portmanteau " morph, one that belongs simultaneously to two morphemes : *take* and - *ed*" (38). Thus,we find it reasonable to segment each irregular form as containing two morphemes.Hence, the given irregular form would certainly fall within each constituent having both meanings, e.g., *went* is a 'portman - teau morph" of *go* + *ed* .

2.6 Summary (39)

The pair *take :took* will be taken as a model here to summarize what has previously been described :

1. *take* is one morpheme, *took* is two , i.e.,
   took / tuk/ = /teik /+/ei $\rightarrow$u/.
2. *take* is one morpheme, *took* is three , i.e.,
   took / tuk/= /teik/+/ei$\rightarrow$u/+ϕ.
3. *take* is one morpheme, *took* is two (functioning as "portmanteau morph", thus: *took* / tuk /is a " portmanteau morph " of take + *ed*)
4. *take* is one morpheme, *took* is two, i.e.,
   took/tuk/=/t...k/+the infix/u/as an allomorph of the past morpheme
5. *take* and *took* are each two morphemes sharing the root/t..k/,*take* has an infixed non- existent allomorph of the present morpheme *{-X-} (40) and *took* has the infixed /u/as the allomorph of the past morpheme .
6. *take* is one morpheme; *took* is two, *took*, as a morphologically conditioned morpheme,consists of two allomorphs/tuk/ which is an allomorph of *take* and a zero allomorph of the past morpheme .

---

38. *Cf. Frank Palmer, Grammar, (England : Penguin Books LTD.,1971)*, *pp*. 116 ,118.
39. *This Summary is based on Palmer's Grammar ,pp*. 117 -119.
40. *The mark(*) means that the allomorph is imaginary or non-existent.*

like English without recourse to replacives " by describing *geese* / gi:s/ as containing a root / g..s/ and the infix/i:/as an allomorph of the plural morpheme,yet we think that we can not find any possibility, as such, because it does not go with the above-mentioned definition of "infix". He adds that the singular would have the infix {u:} as"an allomorph of a single morpheme*{X}"(34) which we believe is not possible in English morphology,at least.Hockett,on the other hand, follows the same line of infixation : "*sing* /siŋ/ is ..... represented by / s.'..ɔ /, into which fit infixed representations of certain inflectional morphemes, to yield *sang*, *sung* . "(35) .

To reject the idea of infixation , as such,we illustrate the following examples: *took* has the discontinuous root/ t..k/ plus the infix/u/. Obviously, the root /t...k/ would be considered as the second allomorph of the base /teik/ *take*.If some linguists think so, why, then, is it not possible to infix the vowel of *talk* into the discontinous root /t..k /? It is clear enough that the consonantal framework of *take* and *talk* is the same. Consequently, this sort of analysis-infixation - could not be adopted .One should never be misled by morphological analyses of other languages . Arabic is a good example of languages containing discontinuous roots . For instance , from the root /k..t..b/ *to write*,we can get many new words through the process of infixation, e.g.,/k a :tib/*writer*,/ kutub/*books*,/kita: b/ *book* and /katab/ *he wrote*.

Thus, it would be quite impossible to talk of such instances of pure infixation in English..

2.5 Portmanteau Morphs (36)

A"portmanteau" morph is a form belonging simultaneously to two (or, theoretically, more) morphemes, and has simultaneously the meanings of both.(37) For example, *men* is regarded as a single" portmanteau morph,"

34. *Cf. Gleason, loc. cit .*
35. *Hockett,op. cit·, p. 271 .*
36. *The "morph" here is to be taken as an ':allomorph' ;it is not the same "morph" defined by Francis, op cit., p. 170 .*
37. *Charles F. Hockett, "Problems of Morphemic Analysis"- Readings in Linguistics, 2nd . Ed.by Martin Joos. New York: American Council of Learned Societies, 1958), p. 236.*

more non-sequential suffixes such as { - i: -} in *geese, feet, teeth,* { -ai- } in *mice, lice , and* {-i-} in *women,* (28) . We find it unnecessary to account for these items as containing"a non-sequential suffix"because, since we talk of suffixation, we mean that there is an inflectional or derivational ending . Yet we may say that the difference of syllable nucleus functions in some ways **LIKE** the suffix for the sake of clarity only.Hence,we may state at last that such a difference in phonemes is "a special type of morphemic element called a replacive . "(29)

Some linguists find it quite possible to talk of infixation in treating this phenomenon. Hockett believes that the noun- plural morpheme in *men* is represented by " infixed /e/."(30) Hill would also analyse this { -e- } as an infix (31), yet he states that instances of infixes defined as the following are not found in English :

> "infix " is a term reserved for affixation added within the boundaries of a segmental morpheme without the replacement of any material . (32)

Since addition is blocked, infixation would be impossible and it should not be suggested that "the plural of *feet*" is the infix { - i:-} as Elson and Pickett suggest,(33)Gleason states that it is "possible to describe a language

---

28. *Ibid., p.* **141** .
29. *Cf. H.A. Gleason, An Introduction to Descriptive Linguistics,* (*Revised Ed . New York : Holt, Rinehart and Winston,* 1961) , *p.* 74.
30. *Cf. Charles F. Hockett, A Course in Modern Linguistics,* (*New York: The Macmillan Company,*1958),*p.*280.
31. *Cf. Hill, op.cit, p.*140.
32. *Ibid., p.* **141** .
33. *Cf. Benjamin Elson and Velma Pickett, An Introduction to Morphology and Syntax,* (*Santa Ana, California : Summer Institute of Linguistics,* 1962), *p.* 47.

should describe *feet* as consisting of only two morphemes : the stem and the replacement".(21).

Practically speaking, there is no reason to account for a zero allomorph as long as the vocalic change has by itself a morphological significance. Perhaps, Francis' account for a zero allomorph could be more reasonable .He simply states that the zero allomorph of *men*, for example, has the plural position in the paradigm.(22) Also,he states that we have a change of syllabic nucleus in/teik/→/tuk/ with the addition of a zero allomorph of the past morphems. (23)

2.4 Infixation, Discontinuous Roots and Non-Sequential Suffixation Operating As Allomorphs .

When replacive morphemes take place, a discontinuous allomorph or the consonantal framework of the stem often results, e.g., the replacement of /u/by/i:/gives us the allomorph/f...t/.(24) In *men*,for example, Hill states that the plural morpheme is shown by " an internal vowel change." (25) He shows this by saying that *men* "contains a second allomorph of the base which consists of the consonantal framework only (and that this kind of allomorph) appears only with the suffix {-e-} -."(26)The only reason Hill gives for treating the vowel of *men* as a suffix is that this sort of vowel"has the property of occurring in non-sequential order , since it always replaces the stresssed vowel (or vowel nucleus) of the base .' (27) He illustrates some

---

21. *Eugene A. Nida, Morphology: The Descriptive Analysis of Words* , (*2nd.Ed. Ann Arbor: The University of Michigan* Press 1949) p. 54
22. *Cf. Francis, op. cit*., 191.
23. *Ibid., p*. 220.
24. *Cf. Nida, op. cit., p*. 58 .
25. *Hill, op. cit* ., *p*. 140 .
26. *Ibid., p*. 141 .
27. *Ibid., p*. 140 .

not. Robert A. Hall also places these allomorphs "under some category of inflection "(17) which he does not account for and which seems to be incorrect because they are merely "replacive allomorphs", not "additive".

2.2 Minus Plus Allomorphs (18)

Harris utilizes ± features inthe analysis of irregular forms. He states that in words such as *took* we have two morphemes:*take* and/ ei/ ~ /u/(19)'past time'- a combination of negative and additive sequences : dropping /ei/and adding/u/.Similarly,in *men*,we have the negative additive morpheme:/ æ/ ~ /e/ 'plural' (20). The idea of adding a morpheme to the stem does not seem to be that sound because this would mean that irregular forms can be inflected and this is by no means the case in English though there are few instances of inflection . We may conclude from Harris's treatment that the only thing he means is "replacement", though he uses ± features.

2.3 Two Allomorphs Functioning As One Unit

By this we mean that vocalic change is one allomorph to which a zero allomorph is added to account for"replacive"allomorphs. Irregular forms are believed to consist of three morphemes(1)the stem,(2) the replacement (the determining factor in such analysis)and(3)thezero suffix.Thus *feet* would be: /fut /*foot* + /u→i: / + ϕ Nida states that :

> "if it were not for the occurrence of such forms as *sheep, deer, grouse and salmon* with structural zeroes and no other overt differences, we

17. *Cf. Hall, op . cit; p.* 153 .
18. *"Minus Plus " is associated with the works of Zellig S. Harris.*
19. *The symbol (~) means ' alternation.'*
20. *Zellig S. Harris "Morpheme Alternant in Linguistic Analysis" Readings in Linguistics, (2 nd Ed. by Martin Joos, New York: American Council of Learned Societies,* 1985 *) p.* 110 .

The following examples are allomorphs resulting from vowel change in nouns :

man / *m∂ǫn* / → *men* / men /

woman / wum∂n / → *Women* / wimin /

goose /gu:s/ → *geese*/ gi:s /

mouse / maus/ → *mice* / mais /

foot / fut / → *feet* / fi:t/

Thus, the allomorphs of the plural morpheme in the preceding nouns are, respectively :

/∂ǫ → e/

/u→ i/ +/∂→i/ (14) . Here, it should be noted that two vowel changes account for the plurality of *Woman* .

/u : → i/

/au → ai /

/u → i :/

So far, we have found in the pairs just listed and analysed that the difference in a given couple of words "lies in the vowel timbre, which really plays the part of a morpheme since it indicates, by itself, the morphological value of the word " (15) .

It is to be noted here that there is no need to place these vocalic changes within categories of inflection because we are not adding anything .J . Vendryes states that we may use the term" internal inflection " which denotes that "vocalic ablaut(apophony)plays the same part as a flexional element added to the word". (16)We can not say that vocalic change is "inflection" proper because no such instances are found in English.Moreover, this would,more or less,turn English into an inflectional language which is, generally speaking,

---

14. *Cf . Stageberg , op . cit ., . p .* 125 ,
15. *J. Vendryes, Language:ALinguistic Introduction to History, Translated by Paul Radin, (New York: Alfred A. Knopf,* 1925) *, p.* 76
16. *Ibid., p.* 77 *. For the definition of " apophony" see Introduction.*

2. ALLOMORPH CLASSIFICATION

2.1 Vocalic Change

Two or more words semantically related may differ in form when they contain vowels or diphthongs differing from those of the base. We may say, therefore, that these forms are derived from the base in the same paradigm in one way or another by a simple vocalic change, e.g.,/siŋ/ *sing* : / sæŋ / *sang* and /sʌŋ/ *sung*. Thus,we state that /i/ → / æ / (→meaning "changed into" or "replaced by") yielding an allomorph of the past-tense morpheme. This criterion is widely followed by linguists. For instance, Stageberg gives us many examples, of which the followings are some vowel changes in verbs (13) .

spin : spun=/ spʌn / = / spin / + /i→ʌ /
see : saw= / sɔ: / =/ si : / + /i: →ɔ : /
begin: began= / bigæn / = /bigin / + /i→æ /
bite : bit = /bit/ = /bait/ + /ai → i/
give : gave = / geiv/ = /giv/ + /i → ei/
grow :grew = / gru:/ = /grou / + /ou → u: /
ride : rode = /roud/ = /raid/ + /ai → ou/
grind : ground =/ graund / = /graind/ + /ai → au /
take : took = /tuk/ = /teik/ + /ei → u/
speak : spoke = /spouk/ = /spi : k/ + /i:→ou /

---

13. *Cf. Norman C . Stageberg , An Introductory English Grammar,(New York : Holt , Rinehart and Winston , Inc.*, **1965** . *p.* 103 *Also , see Robins,op . cit., p.* 211.

classes to which they are clearly assigned. That does not mean we can not classify or let these exceptions belong to certain paradigms. The only thing is thát they do not follow a regular pattern of distribution, yet we can describe them in general terms as exceptions or irregular forms (12).

When Descriptive Linguistics came into existence, these irregular forms were categorized into secondary separate systems. Such classification has been worked on by linguists who treat any natural human language on the basis of a handful of sub-systems within a large system . Yet since 19 20 some of these sub-systems have not been successfully worked out by modren linguists. For instance, the treatment of irregular forms synchronically in English morphology is a problematic phenomenon for linguists. However, this study will discuss some of these exceptions with a simultaneous presentation of the various treatments employed by a good number of well-known linguists so as to make the reader familiar with as many analyses as possible.

The aim of any linguist who has treated irregular forms in English morphology has been to segment each of such forms into more than one morpheme, usually two, as our coming examples shall reveal the case. This paper aims at establishing each irregular form on the same basis, but following a different criterion, i.e., whether the second morpheme really exists or is equal to zero. Moreover,it comments on certain linguists' procedures so as to show diversifications in the treatment of these forms worked out by some twenty of the outstanding modern linguists in order to make the reader aware of the fact that there is no one clear-cut solution to the problem.However, we want to draw the reader's attention to the fact that what each of these linguists has in mind is that the various criteria adopted by them hold the same spirit, i.e., describing these forms synchronically, without resorting to Historical Linguistics as a guide .

---

12. *Cf Francis, op. cit.*, *P*. 192 *and Robert Henry Robins*, *General Linguistics : An Introductory Survey*, (*London: Longmans*, *Green andCo. L TD*, **1964**), *p*.**269** .

Francis states that morphophonemics is a branch of linguistics that "deals with the variations in the phonemic structure of allomorphs which accompany their grouping into words . " (8).

Paradigm a set of more or less modified forms semantically similar and having one base . When all forms are not present in this set we say that these sporadic forms constitute a partial paradigm .Pei states that a paradigm is "an example of a declension or conjugation showing a word in all its possible inflected forms, e.g., boy, boys' boys, boys'." (9)

Suppletion:an extreme kind of morphophonemic change,in which apart or the whole, base is replaced by another combination of phonemes . Hence, we have partial suppletion, e.g., *worse :worst* and complete suppletion in *go* : *went* .(10)

Discontinuous Root: a root containing no vowels or diphtongs, e.g., /k..t..b/ write as in Arabic .

Apophony or Ablaut : a syntactically conditioned phonetic change showing "vowel variations" (11) e.g., / kataba/ *he wrote* opposed to/ kutiba / *being written* in Arabic , where the first /a/ and the second/ a/ are respectively changed into /u/and/i /in the passive .

1.2. The Problem of Irregularity

The idea of *irregularity* has come down to us from Traditional Grammar; any element or form that deviates from a regular pattern or system has been treated as an *exception.* Irregular forms are those which behave strangely and differently from the majority of the regular forms belonging to large

---

8. *Francis, op. cit., p.* **210** . *Also, see Hall,op.cit.,p.*138.*and Bernard Bloch & George L.Trager, Outline of Linguistic Analysis,* (*Baltimore: Linguistic Society of America,* 1942), *p*. 57 .

9. *Mario Pei, Invitation to Linguistics : A Basic Introduction to the Science of Language* . (*London: George Allen & Unwin L T D* , **1965**), *p*. 99

10. *Cf. Bloch & Trager, op. cit., p.* 58, *and Francis, op .cit .,p.* **218** .

11. *Cf WinfredPhilipp Lehmann, Historical Linguistics: An Introduction* (*New York: Holt, Rinehart and Winston,* 1962) *p.* 105 .

1. INTRODUCTION

1.1 Basic Definitions (1)

Morph : a meaningful group of phones which can not be subdivided into smaller meaningful units . Amorph occurs only once and then it is gone (2). **Allomorph** or **Morphemic Alternant**:a class of phonemically and semantically identical morphs (3) .

Morpheme : a smallest syntactic unit consisting of allomorphs similar in meaning and in complementary distribution or mutually exclusive ,i.e., each morpheme is environmentally conditioned and can not be replaced by some other allomorph.It is worth mentioning here that it is not necessary for a morpheme to be " a combination of phonemes " as francis puts it (4) and " a recurrent sequence of phonemes" as Hill states(5) or "smaller than award" as Fowler believes (6) because it can be a word, a phoneme or a zero.

Morphophonemices: the study of phodemic changes governing morphemes, it shows the inter -relation of phonemes to morphemes. That is why is considered "intermediate between the morphemic and phonemic levels."(7)

---

1 . *Special terms employed by individual linguists will be explained hereafter*.

2 . *W. Nelson Francis, The Structure of American English, (New York: The Ronald Press Company* **1958**) , *p*. **170**

3. *Ibid.*

4. *Ibid., p.* **173** .

5. *Archibald A. Hill, Introduction to Linguistic Structures from sound to Sentence in English(New York:Harcourt, Brace & World Inc*;1958),*p*. 89.

6. *Roger Fowler, An Introduction to Transformational Syntax (London: Routledge & Kegan Paul,* **1971**), *p*. **18** .

7. *Cf. Robert A. Hall, Jr., Introductory Linguistics, (Philadelphia Chilton Company* , **1964**) , *p*. **144** .

ABSTRACT

This article, which clarifies certain complexities and ambiguities governing morphological irregularities in English, falls into two main parts . The first part deals with allomorph classification, an arguiementation and acompact presentation of various linguists , views on the behaviour of irregular forms. The second part shows the capability of syntax to identify irregular forms and reveal the function of these forms in utterances . A summary at the end of the second part relates that syntax is, perhaps, a good criterion of solving the problem of irregularity in English morphology in that it assigns a morphosyntactic property to each irregular form .

UNIVERSITY OF MOSUL

COLLEGE OF ARTS

SUB-SYSTEMS IN ENGLISH MORPHOLOGY

A CONCISE STUDY OF MORPHOLOGICAL IRREGULARITIES

By

Dinha Tobiya Gorgis, M. A.

Assistant Lecturer - Dept. of European Languages

9, Λ